

الجزء الحادي عشر

من

تفسير القرآن الحكيم

السهرتفسير الناز

الطبعة الاولى صدرت سنة ١٣٥٣

مطبعة الميناء بمصر

تذبيبات

للمراجعين في هذا الفهرس

(١) قد روعي الترتيب الهجائي في حروف الكلمة الاولى وفي الكلمة الثانية والثالثة اذا كانت حروفها مماثلة للكلمة التي قبلها ، وأهملت حروف الجر والعطف والتعريف

(٢) ان ترتيب الكلمات، هو على حسب النطق لا المادة وجعلنا للمعاني المهمة عدة الفاظ تدل عليها كلمات الدعاء والشفاعة والاولياء في عبادة غير الله تعالى (٣) اننا وضعنا للآيات المفسرة في الجزء فهرسا خاصا جعلنا فيه عن يمين كل آية عددها من السورة وعن يسارها رقم الصفحة التي بدى فيها بتفسيرها للاستغناء عن بيان عدد الصفحات كلما أحلنا القارى اليها لمراجعتها

(٤) اننا نعتمد في عدد الآيات على المصحف الرسمي لوزارة المعارف المصرية فمن رأى في مصحف آخر أو كتاب عدد آية مخالفا له وأراد مراجعتها في تفسيرنا فليعتمد على عددها عندنا

وقع في السطور ١٥ و ١٦ و ١٧ من الصفحة ٦٢ خطأ فتصحح كما يأتي :
ويؤخذ من هذا قاعدة هي ان أحكام الاسلام العامة التي عليها مدار الجزاء في الآخرة ويكلف العمل بها كل من بلغته ان كانت من الاحكام الشخصية التي خوطب بها أفراد الامة كلهم، وينفذها أئمتها وأمرؤها فيها ، هي ما كانت قطعية الدلالة ببيان من الله الخ

تفسير القرآن الحكيم

تفسير سلفي شرعي عصري لا يترشح لأدبيات الجاهلية ولا لآدابها

هذا هو التفسير الوحيد الجامع بين صحيح المأثور، وصرح المعقول، وتحقيق الفروع والاصول، وحل المشكلات، ودحض الشبهات، وإقامة حجج الاسلام، وبيان سياسته في اصلاح الانام مع حكم التشريع وسنن الله في الاجتماع، وكون القرآن هداية عامة للبشر في كل زمان ومكان، وحجة الله وآيته المعجزة للانس والجان، وبوازن بين هدايته وما عليه المسلمون في هذا العصر من الضعف والعجز وقد أعرض أكثرهم عنها، وما كان عليه سلفهم من السيادة والعزة اذ كانوا معتصمين بحبلها، بما ثبت انها هي السبيل لسعادة الدنيا والدين، مراعى فيه السهولة في التعبير، محتثا كثرة مزج الكلام باصطلاحات العلوم والفنون، بحيث تهتدي به العامة، وهو منتهى طلبة الخاصة. وهذه هي الطريقة التي توخاها في دروسه في الازهر حكيم الاسلام الاستاذ الامام

السبح محمد عبده فدرس الله روحه

الجزء الحادي عشر

« تاليف »

السيد محمد رشيد رضا

منشئ مجلة المنارة

بدى به في ذي القعدة سنة ١٣٤٩ وحقوق الطبع والترجمة محفوظة للمؤلف
(الطبعة الاولى)

مطبعة المنارة بمصر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الجزء الحادى عشر من تفسير القرآن الحكيم

(٩٤) يَعْتَذِرُونَ لِنَبِيِّكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ، قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ
نُؤْمِنَ بِكُمْ ، قَدْ نَبَأْنَا اللَّهَ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ، وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ
وَرَسُولُهُ أَتُمْ تَأْذِنُونَ إِلَىٰ عَلِيمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا
كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٥) سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ
سَيُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ ، إِنَّهُمْ رِجْسٌ ، وَمَا أَوْفَتْهُمْ جَهَنَّمُ
جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٦) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لَتَرْضُوا عَنْهُمْ ،
فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ

هذه الآيات بيان لما سيكون من امر المنافقين الذين تخلفوا في المدينة وما حولها
عن غزوة تبوك مع الرسول ﷺ والمؤمنين بعد عودتهم إليهم ، قال عز وجل :
﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ ﴾ يعتذرون إليكم أيها المؤمنون أولئك الذين رضوا بأن يكونوا
مع الخولاف وهم اغنياء أصحاء لا عذر لهم ﴿ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ﴾ من سفركم هذا عن جميع
مسيئاتهم ﴿ قُلْ ﴾ أيها الرسول لهم حينئذ ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكُمْ ﴾ ان تصدقكم

تصديق جـ و ح و اثنان لكم بتلبسكم بالاسلام تحسينا لظن ، ولا عملا بالظواهر ،

ولماذا ؟ ﴿ قد نبأنا الله ﴾ بوحيه إلى رسوله المهم ﴿ من اخباركم ﴾ التي تسرونها في ضمائركم ، وهي مخالفة لظواهركم التي نعتذرون بها ، ونبأ الله هو الحق اليقين ومن عرف الحق لا يقبل الباطل ، ولا يصدق الكاذب ، ولم يقل « نبأني » وهو ﷺ النبأ من الله وحده لأن المراد انه أمره أن ينبيء بذلك أصحابه ، ولم يكن هذا النبأ خاصاً به . واعتذارهم للجميع يقتضي أن يعلموا أن الجميع عالمون بما فضحهم الله به ، وان كان المبلغ لهم هو الرسول ﷺ بما له من الرياسة ، وما خبره من الثقة التي لا يشك فيها أحد ، والتأثير الذي بحسب له كل حساب ، فهو من قبيل التبليغات الرسمية العليا الصادرة عن الملوك والسلاطين ، دع كونه اسماً واعلى

لأنه نبأ الرسول المعصوم عن الله عز وجل ﴿ وسيرى الله عملكم ورسوله ﴾ بعد الآن . وهو الذي يدل إما على الاصرار على النفاق ، وإما على التوبة والاذعان في الايمان ، الذي تترتب عليه الاعمال . وأما أقوالكم فلا قيمة لها وان أكدتموها بالايمان . فن تبتم وأنبتم ، وشهد لكم عملكم بصلاح سريرتكم ، فان الله يقبل توبتكم ، ويعاملكم رسوله بما يعامل به المؤمنين الذين تشهد لهم أعمالهم باخلاصهم وصدقهم ، وان أبيتم إلا الاصرار على نفاقكم ، والاعتماد على نفاق سوق كذبكم بأعذاركم وأيمانكم ، فسيعاملكم رسوله بما أمره الله به في هذه السورة من جهادكم والاغلاظ عليكم كالأخوانكم الكفار المجاهرين ، وعدم السماح لكم بالخروج معه أبداً ، ولا بان تقاتلوا معه عدواً ،

وما يتعلق بذلك من اهانة واحتقار ﴿ ثم تردون ﴾ من هذه الحياة على الدل

والموت عليه ﴿ الى عالم الغيب والشهادة ﴾ الذي يعلم ما تسرون وما تعلنون ، وما تكتمون وما تظهرون . والغيب ما غاب عن المخاطبين علمه ، والشهادة

ما يشهدونه ويعرفونه^١ ﴿ فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ عندما تحشرون وتحاسبون، ويجازيكم عليه بما تستحقون ، وهو ما أوعدكم به في هذه السورة وفي غيرها كقوله (إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار)

ومن الفقه في الآية ان من آداب الاسلام تحامي كل ذنب أو تقصير يحتاج فاعله الى الاعتذار، وورد في بعض الاحاديث المرفوعة «إياك وكل أمر يعتذر منه» رواه الضياء في الاحاديث المختارة عن انس وروى غيره مثله في أثناء حديث آخر

﴿ سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم اليهم لتعرضوا عنهم ﴾ سيؤكدون لكم اعتذارهم بالأيمان الكاذبة إذا انقلبتم وتحوأتهم اليهم من سفركم لاجل ان تعرضوا عن عتابهم وتوبيخهم على قعودهم مع الخالفين من النساء والاطفال والعجزة ، وبخلهم بالنفقة ، ولم يذكر المحلوف عليه للدلالة على شموله لكل ما يعتذر عنه

﴿ فأعرضوا عنهم ﴾ إعراض إهانة واحتقار ، لإعراض صفح وإعذار ، وهذا التعبير من أسلوب الحكيم وهو قبول ما يبعفون من الاعراض عنهم ولكن على غير

الوجه الذي يرجونه منه بل على ضده ، وقد علل الامر بقوله ﴿ انهم رجس ﴾ أي قدر معنوي يجب الاعراض عنه تنزهها عن القرب منه باشد مما ينزه الطاهر الثوب والبدن عن ملابسة الارجاس والاقدار الحسية . وهذا بمعنى ما تقدم من قوله (٢٨ انما المشركون نجس) وسبق بيان معنى الرجس في تفسير آية (٩٣:٥) انما

الخمر والميسر) من سورة المائدة^٢ ﴿ وماؤاهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون ﴾ أي وملجؤهم الاخير نار جهنم جزاء بما كانوا يكسبون في الدنيا من أعمال النفاق التي دنست أنفسهم ، والاعراض عن آيات الله الذي زادهم رجسا على رجسهم ، كما تراه في الآية (١٢٥) الآية

(١) تقدم تحقيق معنى الغيب المطابق والمقيد مفصلا في تفسير (٦ : ٥٠ و ٥٩)

من الجزء السابع (٢) راجع معنى الرجس منه في ص ٥٧ ج ٧

﴿يُخْلَفُونَ لَكُمْ اَرْضُوا عَنْهُمْ﴾ فتستديبوا معاملتهم السابقة بظاهر اسلامهم ، وهذا غرض آخر وراء غرض الاعراض عنهم لا يهنا عيشهم بدونه ، ولا حظ لهم من اظهار الاسلام غيره ، ولو كان اسلامهم عن ايمان لكان غرضهم الاول ارضاء الله ورسوله كما تقدم في آية (٦٢ يُخْلَفُونَ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ) الخ وليس لكم ان ترضوا عنهم وهذه حالتهم ﴿فان ترضوا عنهم﴾ فرضا وقد أعصاكم الله بحالهم ﴿فان الله لا يرضى عن القوم الفاسقين﴾ عن أمره منهم ولا من غيرهم ، فان هذا الفسوق سبب او علة لسخط الله تعالى فأحكم بعدم رضاه متعلق به لا بذواتهم وشخوصهم ، ومقتضاه أنه اذا فرض أن بعض المؤمنين رضي عنهم وآمن بهم باعتذارهم بعد النهي عنه كان فاسقا مثلهم ، محروما من رضائه تعالى ، كما أن من يتوب منهم ويرضى الله ورسوله يخرج من حدود سخطه عز وجل ويدخل في حظيرة مرضاته إذ لا يعد بعد ذلك فاسقا . فأحكام الله العامة ووعدده ووعيده تتعلق بالاعمال والصفات النفسية والبدنية لا بالذوات والاعيان ، ولو قال « فان الله لا يرضى عنهم » لما أفاد التعبير هذه الحقائق والمعاني ، بل كان يكون حكما على أفراد معينين ، مسجلا عليهم الموت على كفرهم وعدم قبول توبة أحد منهم ، وما أبعد هذا عن حكمة الله وعن هداية كتابه العزيز ! ولا ينافي هذا التحقيق ما يروى عن ابن عباس من نزول هذه الآيات في الجذ بن قيس ومعتب بن قشير واصحابهما من المنافقين وكانوا ثمانين رجلا امر النبي ﷺ المؤمنين لما رجعوا الى المدينة بأن لا يجالسوهم ولا يكلموهم . اذ لا دليل على ان هؤلاء مقصودون من الآيات بذواتهم وشخوصهم كالذين نهى عن الاستغفار لهم وعلاه بموتهم على كفرهم ، كما بد الله بن أبي ، وقد قال قتادة ان هذه الآيات نزلت فيه ، فانه حلف للنبي ﷺ بعد عودته ان لا يتخلف عنه وطلب ان يرضى عنه فلم يفعل . والآيات اعم من هذا وذاك . وهي من أنباء الغيب بما فيها من بيان مقاصدهم الخفية ، وان كان الاعتذار والحلف من سجايهم المعروفة . وأن من علامات النفاق كثرة الحلف ، اشعور المنافق دائما بأنه متهم بالكذب

ويجب التنبيه في هذا المقام لجهل فظيع وقفنا عليه بهذا كره بعض المشتغلين بعلوم الدين التقليدية مخالف لهذه الآية وامثالها من كتاب الله تعالى وهو زعمهم أن ما عابه الكتاب الحكيم على المشركين والكافرين من أعمال الشرك والكفر كدعاء غير الله واتخاذ أولياء من دونه يقربونهم إليه ويستشفعون لهم عنده فيما يطلبون من دفع ضرر وجلب نفع مما لا ينال بالكسب فهو خاص بهم وبأوليائهم وشفعاتهم، وإن وقوع مثله من المسلمين لا ينافي صحة إيمانهم، والاعتداد بإسلامهم، للفرق الواضح بين من يدعو الأصنام والأوثان ويجعلها واسطة بينه وبين الله تعالى تشفع له عنده وتقربه إليه زلفى، ومن يدعو الأنبياء والأولياء لذلك وهم عبد الله المكرمون، الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون !!

جهل هؤلاء أن الشرك والكفر لا يختلف حكمه باختلاف متعلقه فمن يدعو مع الله صنما أو كوكبا، كمن يدعو نبيا أو ملكا، على أن الأوثان والأصنام كانت تماثيل لذكرى بعض الأولياء والصالحين كالقبور المنسوبة إلى بعضهم نسبة صحيحة أو مزورة، ولكن ماذا يقول هؤلاء الجاهلون المدافعون عن الشرك وأهله في أهل الكتاب الذين يدعون ويستغيثون الأنبياء والصالحين، متوسلين بهم ومستشفعين، وهم الذين اتبع القبور يرون من المسلمين سذنتهم في شركهم كما أخبر ﷺ بذلك تحذيراً وإنذاراً بقوله « لتبعن سنن من قبلكم » الحديث وهو متفق عليه وتقدم ذكره مراراً، وفصلت هذه المسألة في تفسير الآية (٣١) اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً فيراجع تفسيرها (١)

وبذكر هؤلاء الجاهلون بالقرآن وتاريخ الإسلام فرقا آخر بين شرك المسلمين وشرك من قبلهم، وهو أن المشركين السابقين اتخذوا أوثانهم وأنبياءهم وأولياءهم آلهة وأرباباً، وإن المسلمين الذين يدعون الأولياء ويستغيثونهم في الشدائد طلباً لشفاعتهم لم يتخذوهم آلهة ولا أرباباً وإنما يتخذونهم وسائل ووسائط ويعتقدون أنهم مخلوقون مثلهم

والجواب عن هذا انه لا فرق بين عمل الفريقين إلا في التسمية ولكن من بعض الوجوه ، فمشركو العرب لم يكونوا يسمون أصنامهم أربابا بل كانوا يعتقدون ويقولون ان رب العالمين وخالقهم ومدبر أمورهم الذي يحير ولا يحار عليه هو الله وحده ، لان هذا مقتضى لغتهم ، وإنما كانوا يسمونها آلهة لان الآلهة في لغتهم هو المعبود ، والمعبود هو من يتوجه اليه ويدعى فيما لا يقدر عليه الناس بكسبهم في دائرة الاسباب المعروفة لهم ، ويعظم ويتقرب اليه بالذبايح وغيرها لاجل ذلك ، سواء كان سلطانة على النفع ودفع الضر بذاته لذاته وهو الله تعالى ، أو بشفاعته عند الله . وقد تقدم بسط هذا المعنى مرارا ، وسيعاد في تفسير سورة يونس للنصوص الصريحة فيه . فتسمية هذه العبادة لغير الله توسلا في عرف بعض الناس لا يخرجها عن حقيقتها ، ولا عن كون اسمها في اللغة العربية عبادة وهو ما كان يسميها به أهل هذه اللغة . وإنما التوسل الشرعي التقرب الى الله تعالى بما شرعه من الأعمال الصالحة ، لا بالاهواء المبتدعة ، ولا بالتقاليد المتبعة

(٩٧) الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ

مَا أُنْزِلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٩٨) وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُّ بِكُمُ الدَّوَائِرَ . عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٩٩) وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ ، أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ

هذه الآيات اثلاث في بيان حال الأعراب منافقيهم ومؤمنيهم ، والظاهر انها قد نزلت هي وما بعدها الى آخر السورة بعد وصول النبي ﷺ والمؤمنين الى المدينة . فهي بدء سياق جديد في تفصيل احوال المسلمين في ذلك العهد ، بدء

بذكر الاعراب من المنافقين لمناسبة ما قبله وفصل عنه لانه سياق جديد مع ما بعده .
 ﴿الاعراب اشد كفرا ونفاقا واجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله﴾
 بيان مستأنف لحال سكان البادية من المنافقين ، لانه مما يستل عنه بعد ما تقدم في
 منافقي الحضر من سكان المدينة وغيرها من القرى . فلأعراب اسم جنس لبدو
 العرب ، واحده أعراي ، والانشى اعرابية ، والجمع اعاريب والعرب اسم جنس لهذا
 الجبل الذي ينطق بهذه اللغة ، بدوه وحضره واحده عربي . وقد وصف الاعراب
 بأمرين اقتضتهما طبيعة البداوة [الاول] أن كفارهم ومنافقيهم اشد كفرا ونفاقا
 من أمثالهم من أهل الحضر - ولا سيما الذين يقيمون في المدينة المنورة نفسها - لأنهم
 أغلظ طباعا ، وأقصى قلوبا ، وأقل ذوقا وآدبا ، - كدأب أمثالهم من بدوسائر
 الأمم - بما يقضون جل أعمارهم في رعي الأنعام وحمايتها من ضواري الوحوش .
 ومن تعدي أمثالهم عليها وعلى نسايتهم وذرائعهم ، فهم محرومون من وسائل
 العلوم الكسبية ، والآداب الاجتماعية [الثاني] أنهم أجدر أي أحق وأخلق
 من أهل الحضر بأن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله من البينات والهدى
 في كتابه ، وما آتاه من الحكمة التي بين بها تلك الحدود بسنن أقواله وأفعاله .
 وفهم ألفاظ القرآن اللغوية ، لا يكفي في علم حدوده العملية . كان أهل المدينة وما حولها
 من القرى يتلقون عنه (ص) كل ما ينزل من القرآن وقت نزوله ، ويشهدون سنته في
 العمل به ، وكان يرسل العمال إلى البلاد المفتوحة يقيمون فيها يبلغون القرآن ،
 ويحكمون بين الناس به وبالسنة المدينة له ، فيعرف أهلها تلك الحدود التي حدها الله
 تعالى ونهاهم أن يمتدوها . ولم يكن هذا كله ميسورا لأهل البوادي ، وهم مأمورون
 بالهجرة ، لأجل العلم والنصرة ، لأن الاسلام دين علم وحضارة

فالاعراب اجدر بالجهل من الحضر بطبيعة البداوة لا بضعف أفهامهم ، أو
 بلادة أذهانهم ، أو ضيق فطامق بيانهم ، فقد كانوا مضرب الامثال في قوة الجنان ،
 ولو ذعية الاذهان ، وذراية اللسان ، وسعة بيداء البيان ، وغنهم أخذ رواة العربية
 أكثر مفردات العربية وأساليها

والجدارة بالشيء قد تكون طبيعية ، وقد تكون باسباب كسبية ، من فنية

وشرعية وأدبية ، وقد تكون بأسباب سلبية اقتضتها حالة المعيشة والبيئة ، قيل
لها مشتقة من الجدار وهو الحائط الذي يكون حداً للبيت أو الدار ، وقيل
من جذر الشجرة ، ويرادف الجدير بالشيء ، والاجدر ، الحقيق والاحق ، والخليق
والاخلاق ، وقد يستعمل أفعال في كل منها للتفضيل مع التصريح بالمفضل عليه
غالباً ، كحديث « واشيب أحق بنفسها من وليها » ومع تركه للعلم به أحياناً ، ومنه
قوله تعالى (ورضوان من الله أكبر)

﴿ والله عليم حكيم ﴾ واسع العلم بأمور عباده وصفاتهم وأحوالهم الظاهرة
من بداوة وحضارة وعلم وجهل ، والباطنة من إيمان وكفر ، وإخلاص ونفاق ،
تام الحكمة فيما يحكم به عليهم ، وما يشرعه لهم ، وما يجزيهم به ، من نعيم مقيم ،
أو عذاب أليم .

روى احمد وأصحاب السنن - ماعدا ابن ماجه - والبيهقي في الشعب عن ابن
عباس يرفعه « من سكن البادية جفا ، ومن اتبع الصيد غفل ، ومن أتى السلطان
افتن » قل اترمذي هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث الثوري
وروى ابو داود والبيهقي عن ابي هريرة مرفوعاً « من بدا جفا ، ومن اتبع
الصيد غفل ، ومن أتى أبواب السلطان افتن ، وما ازداد أحد من سلاطنه قرباً
إلا ازداد من الله بعداً » وسبب الاخير ان السلاطين قلما يرضون عن يلتزم
الحق والصدق والنصح الصريح ، وقلما يأتينهم ويزداد قرباً منهم الا الرائي الذي
يمدحهم بالباطل ويعينهم على الظلم ولو بالتأول لهم ، وقد بينا هذا المعنى في تفسير
(٦١) ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن)

﴿ ومن الاعراب من يتخذ ما ينفق مغرماً ﴾ تقدم في الآية [٩٠] ان بعض
الاعراب جاءوا النبي ﷺ معذرين لما أذن لهم في القعود عن غزوة تبوك ، وذكر
في هذه الآية حال الذين كانوا ينفقون بعض أموالهم في سبيل الجهاد رياء وتقية
فيعدون ما ينفقونه من المغارم وهي ما يلزمه المرء مما يثقل عليه فيلتزمه كرهاً وطوعاً
لدفع مكروه عن نفسه أو عن قومه وليس له فيه منفعة ذاتية . ولم يكن هؤلاء
الاعراب المنافقون يرجون بهذه النفقة جزاء في الآخرة لانهم لا يؤمنون بالبعث .

ولهذا قال الضحاك : يعني بالمعرم انه لا يرجو ثوابا عند الله ولا مجازاة وانما يعطي ما يعطي من الصدقات كرها . وعن ابن زيد انما ينفقون رياء اتقاء أن يغزوا ويحاربوا ويقاقلوا ويرون نفقاتهم مغررا [قل] وهم بنو أسد وغطفان

﴿ ويتربص بكم الدوائر ﴾ اي ينتظرون دوائر الزمان اي تصاريفه ونوائبه التي تدور بالناس وتحيط بهم بشروورها أن تنزل بكم فتبدل قوتكم ضعفاء وعزكم ذلا ، وانتصاركم هزيمة وكسرا ، فيسترجعوا من اداء هذه المغارم لكم ، بالتبعية للخروج من طاعتكم ، ولاستغناء عن اظهار الاسلام نفاقا لكم ، كانوا أولا يتوقعون ظهور النشركين واليهود على المؤمنين ، فلما يتسوا من ذلك صاروا ينتظرون موت النبي ﷺ ويظنون ان الاسلام يموت بموته صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله . وهكذا يعمل الجاهل الضعيف نفسه الخبيثة بالاماني والاوهام

واذا كان منافقو المدينة الذين هم أجدر من هؤلاء الاعراب أن يعلموا ما في الاسلام من القوة الذاتية، وما في اعتصام المؤمنين الصادقين به من انقوة الحربية، كانوا يتربصون بالمؤمنين الهزيمة من الروم في تبوك ، وكانوا إن أصاب النبي ﷺ مصيبة مما لا يخلو عنه البشر يفرحون ويذولون (قد أخذنا أمرنا من قبل) أي احتطنا لهذه العاقبة قبل وقوعها ، فهل يستغرب مثل هذا التربص من الاعراب سكان البادية الذين يحملون ماذا ؟ (راجع تفسير الآيات ٥٠ - ٥٤ من هذه السورة)

﴿ عليهم دائرة السوء ﴾ دعاء عليهم بما يتربصونه بالمؤمنين ، أو خبر بحقيقة حالهم معهم ، ومآل الاحتمالين واحد ، لان الخبر في كلامه تعالى حق ومضمونه كضمون الدعاء واقع ، ماله من دافع ، والدعاء منه عز وجل يراد به ماله وهو وقوع السوء عليهم واحاطته بهم . والسوء بالفتح في قراءة الجمهور وهو مصدر ساءه الامر ضد سره ، وقرأه ابن كثير وابو عمرو ههنا وفي سورة الفتح بالضم وهو اسم لما يسوء . والاضافة : كرجل صدق وقدم صدق . وتقديم الخبر يفيد الحصر أي عليهم وحدهم الدائرة السوءى تحيط بهم دون المؤمنين الذين يتربصون بها بهم ، فان هؤلاء لاعاقبة لهم تربص بهم إلا ما يسرهم ويفرحهم من نصر الله

بتوفيقه لهم وما يسوء أعداءهم من خذلان وخيبة وتعذيب لهم في الدنيا قبل الآخرة حتى بأموالهم وأولادهم ، كما تقدم في قوله تعالى (٥٢ قل هل توبصون بما إلا إحدى الحسنين) وقوله (٥٥ فلا تمحجك أموالهم ولا أولادهم)

﴿ والله سميع عليم ﴾ لا يخفى عليه شيء من أقوالهم المعبرة عن شعورهم واعتقادهم في نفقاتهم إذا تحذروا بها فيما بينهم ، وأقوالهم التي يقولونها الرسول أو أعماله على الصدقات ، أو لغيرهم من المؤمنين مرآة لهم ، ولا من أعمالهم التي يعملونها ، ومن نياتهم وسرائرهم التي يخونها ، فهو سبحانه سميع على ما يسمع ويعلم - أي على كل قول وفعل - ويجزيهم به

ولما ذكر حال هؤلاء الاعراب المفاقيين عطف عليه بيان حال المؤمنين الصادقين منهم ^(١) فقال

﴿ ومن الاعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾ إيماناً صادقاً اذعانياً تصدر عنه آثاره من العمل الصالح . قال مجاهد: هم بنو مقرن من مزينة وهم الذين قال الله فيهم (٩٢ ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم) الآية . وقال الكلبي : هم أسلم وغفار وجهينة ومزينة ، وثم روايات أخرى فيهم ، والنص يشمل جميع المؤمنين الصادقين منهم ومن غيرهم من الاعراب . وقد ذكر من وصفهم ضد ما ذكره في وصف من قبلهم في أمر النفقة في سبيل الله فقال ﴿ ويتخذ ما ينفع

قربات عند الله وصلوات الرسول ﴾ أي يتخذ ما ينفعه وسيلة لأمرين عظيمين أولهما القربات والزلفى عند الله عز وجل ، وثانيهما صلوات الرسول ، أي أدعيته لأنه صلوات الله وسلامه كان يدعو للمتصدقين ويستغفر لهم ، ولم يثبت في النص انتفاع أحد بعمل غيره إلا الدعاء وما يكون المرء سبباً فيه كالولد الصالح ، والسنة الحسنة يتبع فيها . فهذا

(١) مما تواتر عن جهلة الترك الذين يبعضون العرب أنهم يحفظون قوله تعالى (الاعراب أشد كفراً ونفاقاً) الآية ويظنون ان المراد بالاعراب جنس العرب جميعاً من بغا خروهم منهم ولا يحفظون الآية التالية في مدح الاعراب ولا آية (والسابقون الاولون من المهاجرين والانصار وهم صميم العرب !!

القصد في اتخاذ الصدقات ضد اتخاذ المنافقين إياها مغرماً . والقربات كالتقرب جمع قربة (بضم القاف) وهي في المنزلة والمكانة ، كالتقرب في المكان والقربة ، والتقرب في الرحم ، والاصل في الكل واحد وهو الدنو من الشيء مطلقاً ، فقصد القربة في العمل هو الاخلاص وابتغاء مرضاة الله ورحمته ومشوبته فيه . وجميعها باعتبار تعدد النفقات ففيه إيماء الى اخلاصهم في كل فرد منها . والصلوات جمع صلاة ومعناها ، أو أحد معانيها في أصل اللغة الدعاء وإطلاقها على العبادة المخصوصة من أركان الاسلام شرعي وجهه ان الدعاء هو روحها الاعظم لانه مخ العبادة وسرها ، الذي تتحقق به العبودية على أكل وجوهها ، وهو في الفاحشة فريضة ، وفي السجود فضيلة ، ويأتي قريباً بيان هذه الصلوات على المتصدقين في تفسير الآية (١٠٣)

وقد بين الله تعالى جزاء هؤلاء الاعراب على ما شهد لهم به من صدق الايمان واخلاص النية في الانفاق في سبيل الله ، وادانهم به حق الله ، وهو قصد القربة عنده ، وحق الرسول وهو طلب دعائه لهم بقبول نفقتهم وإثابتهم عليها ، فقال

باسلوب الاستئناف المشعر بالاهتمام ﴿ أَلَا إِنَّهَا قَرِيبَةٌ لَّهُمْ ﴾ وهو إخبار بقبوله تعالى لنفقتهم مؤكداً بافتتاحه باداة التنبيه الدالة على الاهتمام بما بعدها وهي (أَلَا) وبـ [إن] الدالة على تحقيق مضمون الجملة وبالجملة الاسمية فقوله تعالى [إنها قربة] راجع الى النفقة المأخوذة من قوله [ما ينفق] ففراد القربة لأنها خير اضمير المفرد

وقوله ﴿ سَيَدْخُلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ ﴾ تفسير لهذه القربة والمراد بالرحمة هنا الرحمة الخاصة بمن رضي الله عنهم وهي هداية الصراط المستقيم وماتنتهي اليه من دار النعيم ، ومعنى إدخالهم فيها أن يكونوا مغمورين فيها وتكون هي محيطتهم شاملة لهم ، وهذا أبلغ من مثل (يبشرهم ربهم برحمة منه) والسين في قوله [سيدخلهم]

لأن كيد الوعد ونحوه ، وتقدم مثله . وعلاه بقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ أي واسع المغفرة والرحمة يغفر للمخلصين في أعمالهم ما يلومون به من ذنب أو تقصير ، ويرحم الصادقين في ايمانهم فيهديهم به إلى أحسن العمل وخير المصير ، وفي الآية من بلاغة الایجاز ما يدل على علو مقام هؤلاء الاعراب

(١٠٠) وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ
وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ
جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ
(١٠١) وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ
مَرَدُّوا عَلَى النِّفَاقِ ، لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ
يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ (١٠٢) وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ
خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا ، عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ
إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ

هذا تقسيم آخر للمؤمنين الصادقين والمنافقين من أهل الحضر والبدو جميعاً عطف
على تقسيم الأعراب لمشار كته له في بيان حقيقة جماعات المسلمين في ذلك العهد، قال
﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان ﴾
هذه طبقات ثلاث هي خير هذه الأمة التي هي في جملتها خير أمة أخرجت
للناس (فلاولى) السابقون الأولون من المهاجرين قبل هم الذين صلوا إلى القبلتين
وروي عن أبي موسى الأشعري وسعيد بن المسيب وابن سيرين والحسن وقتادة
وغيرهم . وقيل هم أهل بدر وروي عن محمد بن كعب وعطاء بن يسار، وقيل هم
الذين شهدوا بيعة الرضوان في الحديبية وعليه الشعبي ، ولكن هذا القول وما
قبله في السابقين من المهاجرين والأنصار جميعاً : وأما السابقون من المهاجرين
وحدهم فهم الذين هاجروا قبل صلح الحديبية لأن المشركين كانوا إلى ذلك
الوقت يضطهدون المؤمنين في بلادهم ويقاثلونهم في دار الهجرة وما حولها ،
ولا يمكنون أحداً من الهجرة ما وجدوا إلى صده سبيلاً ، ولا منجاة للمؤمن من
شرهم إلا بالفرار أو الجوار ، فالذين هاجروا قبل صلح الحديبية واجهوا بأموالهم

وأنفسهم كانوا كلهم من المؤمنين الصادقين ، ليس فيهم منافق كما قلنا من قبل ،
 إذ لم يكن للنفاق في ذلك الوقت مقتض ولا سبب ، وللهجرة والجهاد داع غير
 الاخلاص في الايمان وإقامة بناء الاسلام ، وإن كان هؤلاء يتفاضلون في السبق
 وفي غيره من الاعمال ، فأفضلهم الخلفاء الاربعة فساوئ الذين بشرهم النبي
 ﷺ بالجنة بأشخاصهم ، وما كل سابق أفضل من كل مسموق ، ومن السابقين
 بالايمان من سبقه غيره بالمجرة ، وأول من آمن على الاطلاق خديجة [رض]
 لانه ﷺ بانها خبر بعثته قبل كل أحد فصدت وآمنت ، ويلها من كان معه
 ﷺ في بيتها ، وهم علي وكان ابن ١٠ سنين ، وزيد بن حارثة ، ومن خارجه
 أبو بكر الصديق [رض] والمشهور انه أول من آمن من الرجال ، ولا خلاف في انه
 آمن عند مادناه النبي ﷺ بغير ادنى تريث او تردد ، ولا في انه أول المهاجرين
 مع الرسول كما تقدم في تفسير آية الغار ، وأول الدعاة إلى الاسلام مع النبي ﷺ
 (الطبقة الثانية) السابقون الاولون من الانصار وهم الذين بايعوا النبي ﷺ
 عند العقبة في منى في المرة الاولى سنة احدى عشرة من البعثة وكانوا سبعة ، وفي المرة
 الثانية وكانوا سبعين رجلا وامرأتين ، وبايعهم الذين آمنوا حين قدم عليهم أبو زرار
 مصعب بن عمير بن هاشم من قبل النبي ﷺ يقرهم القرآن وبقصصهم في الدين
 وارسله مع اهل العقبة لثانية سنة اثنى عشرة من البعثة وكذا من آمن عند قدوم النبي
 ﷺ وقبل أن تكون للمسلمين قوة غالبية تنقو وترتجى ، وهذه القوة رسخت
 عقب هجرته ﷺ وصار بعض أهل المدينة يظهرون الاسلام نفاقا بدليل قوله
 تعالى في الآيات التي نزلت في شأن غزوة بدر وكانت في السنة الثانية (٨ : ٤٩)
 إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم) ولم يكن فيهم
 أحد من المهاجرين ولا من الانصار السابقين وإن كانوا كلهم من الأوس والخزرج
 (الطبقة الثالثة) الذين اتبعوا هؤلاء السابقين الاولين من المهاجرين والانصار
 في الهجرة والنصرة اتباعاً باحسان ، أو محسنين في الافعال والاقوال ، فتضمن
 هذا القيد الشهادة للسابقين بكل الاحسان لانهم صاروا فيه أئمة متبوعين ، وخرج
 به من اتبعوهم في ظاهر الاسلام مسيئين غير محسنين في هذا الاتباع وهم المنافقون ،

ومن اتبعوهم محسنين في بعض الاعمال ومسيئين في بعض وهم المذنبون والآيات
الآتية مبينة حال الفريقين

هؤلاء الطبقات الثلاث ﴿ رضي الله عنهم ﴾ في إيمانهم وإسلامهم وإحسانهم ،
وأعلاء ما كان من هجرتهم وجهادهم ، فقبل طاعتهم ، وغفر سيئاتهم ، ونجّاهم
عن زلاتهم ، اذ بهم اعز الاسلام ، ونكل باعدائه من المشركين واهل الكتاب

﴿ ورضوا عنه ﴾ بما وفقهم له ، وأسبغه عليهم من نعمه الدينية والدنيوية ،
فأنقذهم من شرك ، وهداهم من ضلال ، وأنماهم من فقر ، وأعزهم من ذل .

﴿ وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم ﴾
تقدم مثل هذا الوعد الكريم في الآية (٧٢) وفي آيات أخرى ومعناه ظاهر ،
وأى فوز اعظم من نعم الجنة الخالد من بدني وروحاني ؟

قرأ الجمهور (والانصار) بالخفض عطفًا على المهاجرين وقرأها يعقوب بالرفع
عطفًا على (السابقون) وروي عن الحسن البصري ، بل روي أيضا — وفيه
نظر عندي — أن عمر (رض) قرأها كذلك مع جعل (الذين اتبعوهم) صفة
الانصار وأنكر على رجل قرأها بالخفض فأخبره أنه تلقاها عن أبي بن كعب كاتب
الوحي وجامع القرآن ، فـأل عمر أيبا فصدقه وأخبره أنه هكذا سمعها من النبي
ﷺ ، وفي رواية أنها هكذا أنزلها الله على جبريل ونزل بها جبريل على قلب رسول
الله ﷺ قال عمر : لقد كنت أرى أنا رفعنا رفعة لا يبلغها أحد بعدنا — يعني
المهاجرين الاولين — فقال ابي : تصديق هذه الآية في أول سورة الجمعة (وآخرون
منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم)

ولفظ الاتباع فيها نص في الصحابة المتأخرين الذين اتبعوا الاولين من
المهاجرين والانصار في صفتيهم : الهجرة والنصرة ، وهو بصيغة الماضي فلا يدخل
في عمومه التابعون الذين تلقوا الدين والعلم من الصحابة ولم يذلوا شرف الصحبة
والهجرة والنصرة وتسمية هؤلاء بالتابعين اصطلاحية حدثت بعد نزول القرآن
وانتقال النبي ﷺ الى الرفيق الاثني

وقد ورد ذكر الطبقات الثلاث من الصحابة في آخر سورة الانفال وعبر فيه عن الطبقة الثالثة بقوله (٧٥ : ٨) والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم) وذكرت في تفسيرها آيات سورة الحشر وقد عبر فيها عن الطبقة الثالثة بقوله (١٠ : ٥٩) والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان) الخ ^١ ولا شك في مشاركة سائر المؤمنين لأولئك الصحابة الكرام في رضا الله وثوابه بقدر اتباعهم لهم في الهجرة ان وجدت اسبابها ، والجهاد بالاموال والانفس لنصرة الاسلام ، ومنها نصرته بالحجة والبرهان ، وفي سائر اعمال البر والاحسان ، وان الآيات تدل على ذلك في كل موضع ، لان الجزاء في حكم الله الحق وشهره العدل على الاعمال ، وللسابقين في كل عمل فضيلة السبق والامامة في كل عصر ، ويمتاز عصر الرسول الذي وجد فيه الاسلام وأقيم بنيانه ، ورفعت أركانه ، ونشرت في الخافقين أنامله ، على كل عصر بعده ، وهم الاقلون المقربون كما قال تعالى (١٠ : ٥٦) والسابقون السابقون ١١ أولئك المقربون في جنات النعيم ١٢ * ثلثة من الاولين ١٣ * وقليل من الآخرين)

هذه الشهادة من رب العالمين للطبقات الثلاث من أصحاب رسول الله ﷺ يدغم حقها باطل الروافض الذين يطعنون فيهم ، ويحشو التراب في افواههم ، والذي سن لهم هذا الطعن في جمهورهم الاعظم عبدالله بن سبأ اليهودي الذي أظهر الاسلام لاجل ايقاع الشقاق بين المسلمين وإفساد أمرهم ، ثم نظم الدعوة لذلك زنادقة الجوس بعد فتح المسلمين لبلادهم ، كما بيناه مراراً . ثم جعل الرفض مذهباً ، له فرق ذات عقائد ، منها ما هو كفر صريح ، ومنها ما هو ابتداع قبيح . ومنها ما هو دون ذلك . وروي عن أبي صخر حميد بن زياد قل أتيت محمد بن كعب القرظي فقلت له ما قولك في أصحاب رسول الله ﷺ ؟ فقال : جميع أصحاب رسول الله ﷺ في الجنة محسنهم ومسيئهم . فقلت من أين تقول هذا ؟ قل اقرأ قول الله تعالى (والسابقون الاولون من المهاجرين والانصار - الى أن قال - رضي الله عنهم ورضوا

(عنه) وقال (والذين اتبعوهم باحسان) شرط في التابعين شريطة وهي أن يتبعوهم في أفعالهم الحسنة دون السيئة . قال أبو صخر: فكأنني لم أقرأ هذه الآية قط

والتحقيق ما قلناه، فإن هذه الآيات وما بعدها في بيان حال المسلمين في عهد نزولها مؤمنينهم ومناققيهم ، ومحسنينهم ومسيئينهم ، والذين خلطوا منهم عمال صالحا وآخر سيئا ، والذين تاب الله عليهم والذين أرجأ توبتهم . وهذه الآية نص في أن الطبقات الثلاث من السابقين الاولين والذين اتبعوهم في الايمان والهجرة والجهاد عند ما اباحت الهجرة وتيسرت أسبابها بصلح الحديبية قد فازوا كلهم برضاء الله ووعده لهم بالجنة ، وأنه ليس فيهم احد من المنافقين بل كان جميع المنافقين من أهل المدينة وما حولها الى ان فتحت مكة واعتق النبي ﷺ أهلها فظهروا الاسلام والسيوف تقطر من دمائهم فكان منهم المنافقون ، وضعفاء الايمان المقلدون ، وهم الذين كانوا سبب الهزيمة في حنين كما تقدم في تفسير الآيات ٢٥-٢٧ ثم حسن اسلام الاكثرين ، ففتحوا الفتوحات ونشروا الاسلام في العالمين

وجملة القول أن جميع افراد هذه الطبقات الثلاث ، قد جازوا القنطرة واستبقوا الصراط ، وما عاد يؤثر في كمال إيمانهم شيء ، لان نورهم يمحو كل ظلمة تطرأ على أحد منهم بإيلامه بذنب . واذا كان بعض المحدثين يقول: ان من اتفق الشيخان على تعديله في الرواية - أي اعتمدا عليه في اصولهما للسندة - قد جاز قنطرة الجرح ، فماذا يقال فيمن عدلهم الله عز وجل ، وشهد لهم بأنه رضي عنهم ورضوا عنه؟ وسيأتي ان الله تعالى تاب على المذنبين والمقصرين وغفر لهم

والشيخ محي الدين بن عربي مناظرة مع نفسه بسطها في كتابه (روح القدس) ذكر فيها انه في أثناء مجاورته بمكة المكرمة حدث لنفسه من الاعجاب بعبادتها ومعرفتها مادعاه الى مناظرتها واقامة الحجة عليها بغرورها ، فعرضها أولا على القرآن ، فاعترفت بضعفها عن بلوغ ما قرره من أوج السكال ، فعرضها على سيرة النبي ﷺ فاعتذرت بحديث عائشة « كان خلقه القرآن » وهو ما يعجز عنه من دونه « تفسير القرآن الحكيم » « ٣ » « الجزء الحادي عشر »

كل انسان ، فعرضها على فضائل الصحابة فأقرت بعجزها عن الرجحان في هذا الميزان ، ومسابقة من رباهم المصطفى بكتاب الله وآياته ، وزكاهم بحكمته فاقبسوا نوره من مشكاته ، ولكنها أثبت أن تعترف الكبار التابعين بمثل هذا السبق ، وكان له معها حجاج في أويس القرني هو من اعلى حقائق علم النفس ^١

﴿ ومن حولكم من الاعراب منافقون ومن أهل المدينة ﴾ بعد أن بين تعالى حال كلمة المؤمنين كلهم ففي عايه يذكر مرادة المنافقين من أهل البدو والحضر ، وعطهم عليهم من باب عطف الضد على الضد ، فهو يقول ان بعض الاعراب الذين حولكم أيها المؤمنون منافقون . قال البغوي وهم من مزينة وجهينة واشجع وأسلم وغفار ، كانت منازلهم حول المدينة ، أي كما كان فيهم مؤمنون صادقون دعا لهم النبي ﷺ - وان من أهل المدينة نفسها منافقين أيضا من الاوس والخزرج غير من أعلم الله رسوله بهم في هذه السورة بما صدر عنهم من الاقوال والافعال

المنافية الايمان ، وقد وصف هؤلاء بقوله ﴿ مردوا على النفاق ﴾ أي مروا عليه وحذقوه حتى بلغوا الغاية من اتقانه وجعله بحيث لا يشعر أحد به لاتقائهم جميع الامارات والشبهات التي تدل عليه . يقال مرد على الشيء يمرد (كقعد يقعد) مرودا اذا مرن عليه . واذا عتا واشتد فيه حتى يتعذر ارجاعه عنه . ومن الأول الغلام الامر الذي لم ينبت الشعر في وجهه ، والشجرة المرداء التي لا ورق فيها ، ومنه مرد الشيء تمريدا اذا صقله وملسه حتى صار أملس لا حرشة فيه ولا خشونة ومنه (صرح ممرود من قوارير) قل في اللسان وتأويل المروء ان يبلغ الغاية التي تخرج من جملة ما عليه الصنف . ثم قال : والمروء على الشيء المرون عليه ، ومرد على الكلام أي مرن عليه لايعبأ به [أي لايعنى أن يتكلفه له] قال الله تعالى (ومن أهل المدينة مردوا على النفاق) قال الفراء يريد مروا عليه وجربوا ، كقولك تمردوا ، وقال ابن الاعراب المردُّ التناول بالكبر والمعاصي ومنه قوله (مردوا على النفاق) أي تناولوا اه

﴿ لا تعلمهم نحن نعلمهم ﴾ أي لا تعرفهم أيها الرسول بفطنتك ودقة فراستك التي تنظر فيها بنور الله لحذقهم في التقية وتجنب مشارات الشبهة، وأكد هذا النفي بآيات العلم بأعيانهم له وحده عز وجل، ولعلمهم أخفى نفاقاً وأشد تقية ممن قال فيهم (٢٨:٤٧) أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج أضغانهم ٢٩ ولو نشاء لأرينا لهم فلعرفتهم بسيماهم، ولتعرفهم في لحن القول)

فهؤلاء ممن لم يعلمه الله بأعيانهم كأعلمه بمن اشير اليهم في الآية [٧٤] ولا فضحهم باقوال قالوها ولا بأفعال فعلوها كفضح غيرهم في هذه السورة، لانهم بمرودهم على النفاق يتحامون ما يكون شبهة على إيمانهم، فضرره قاصر عليهم، وحكمة اخباره تعالى إياه بذلك أن يعلموا هم ان الله عليم بما يسرون من نفاقهم، ويحذروا ان يفضحهم كفضح غيرهم، ليتوب المستعد الايمان منهم وهو في ستر الله تعالى قبل أن ينجز ما أوعدهم بقوله ﴿ سنعذبهم مرتين ﴾ أي في الحياة الدنيا احداها ما يصيبهم من المصائب وتوبيخ الضمائر، وانتظار الفضيحة بهتك استار السرائر، وما يتلو ذلك من جهادهم اذا ظهر نفاقهم كغيرهم، والثانية آلام الموت وزهوق أنفسهم وهم كفرون وضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم عند موتهم، فأقرب ما يفسر به العذاب مرتين هو ما تقدم في تفسير الآيات ٥٥ و ٧٣ و ٧٤ و ٨٢ و ٨٣ ففيه بيان لكل ما يصيب المنافقين في الدنيا من عذاب الوجدان الباطن، وعذاب من يفتضح أمرهم في الظاهر، وورد في التفسير المأثور أقوال في هاتين المرتين بعضها في معنى ما ذكرنا وبعضها مردود ومتناقض.

﴿ ثم يردون إلى عذاب عظيم ﴾ أي في الآخرة وهو عذاب جهنم، وهم في الدرك الاسفل منها كما تقدم.

جاء في كتب التفسير المأثور ان رسول الله (ص) خطب الناس مرة فحمد الله واثنى عليه ثم قال «ان منكم منافقين فمن سمعته فليقيم» ثم قال قم يا فلان — حتى سمى ٣٦ رجلاً، فان صح فهو عدد الذين سبق تهديدهم في هذه السورة لظهور نفاقهم دون الذين مردوا على النفاق، ولكن لم يرو لنا ما كان من اسرهؤلاء بعد هذه الفضيحة بكفرهم ومنعهم من الصلاة، ومقتضاه ان تجري عليهم احكام المرتدين، ومثل هذا لا يخفى وتتوفر الدواعي على نقله بالتواتر والاستفاضة ولم يرو

لنا المحدثون شيئاً فيه والذي اراه ان الرواية غير صحيحة والله اعلم
والعبرة في هذا السياق أن هؤلاء المنافقين فريقان: فريق عرفوا باقوال قالوها
وأعمال عملوها ، وفريق مردوا على النفاق وصدقوه حتى صار أملس ناعماً لا يكاد
يشعر أحد بشيء يستنكره منه فيظهر عليه ، وكل من الفريقين يوجد في كل عصر ،
ولا سيما منافقي السياسة في هذا العهد ، وهم الذين اتخذهم الأجانب المعتدون
على بلاد الاسلام دعاة وولاة وأعواناً على استعباد أمته واستعمار أوطانهم ، فما
من قطر من هذه الاقطار التي رزئت بالأجانب الا ولهم فيها أعوان وأنصار من
أهلها يزعمون انهم يخدمون أمتهم ووطنهم من طريق استمالتهم واسترضائهم ،
وانهم لولاهم لما وقفوا من الظلم وهضم الحقوق عند الحد الذي هم عليه ، ومنهم من
يخدمون الأجانب خفية لا يشعر بها الأمة لانهم مردوا على النفاق ، وانما
يحتاج الخونة الخادمون للأجانب الى النفاق ، وتلبيس خيانتهم واخفائها بالكذب
والاختلاق ، اذا كان للرأي العام فطنة وقوة يخشونها ، وأما البلاد التي استحوذ
عليها الجهل والضعف فلا يبالى الخائنون برضاء أهلها ولا بسخطهم
واشد المنافقين مردوداً واتقاناً للنفاق أعوان الملوك والأمراء المستبدين ، وشرهم
واضرهم الذين يلبسون لباس علماء الدين

﴿ وآخرون اعترفوا بذنوبهم ﴾ أي وتم آخرون أو ممن حولكم من
الاعراب ومن أهل المدينة أناس آخرون ليسوا من المنافقين ، ولا من السابقين
الاولين ، ولا من الذين اتبعوهم بإحسان لا إساءة فيه ، بل من المؤمنين المذنبين
﴿ خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ﴾ أي خلطوا في أعمالهم بأن عملوا عملاً صالحاً
وعملاً سيئاً ، وقيل معناه خلطوا صالحاً بسيئاً ، وسيئاً بصالحاً ، أو خلطوا في كل منها
ما ليس منه فكان ناقصاً ولكنه لم يغلب الآخر ويندغم فيه ، فلم يكونوا من
الصالحين الخالصين ولا من الفاسقين أو المنافقين ، ذلك بأنهم آمنوا وعملوا الصالحات ،
واقترفوا بعض السيئات ، وهم أو منهم بعض الذين تخلفوا عن النفر والخروج إلى غزوة
تبوك من غير عذر صحيح كالضعفاء والمرضى وغير الواجدين ، ولا استئذان كاستئذان
المرتابين ، ولا اعتذار كاذب كالمنافقين ، ثم كانوا ناعمين لله في أثناء قعودهم ،

شاعرين بذنوبهم ، خائفين من ربهم ، فكان كل من قعودهم ونصحهم مقترنا بالآخر ، كالذي يدخل أرضاً منصوبة فيصالح فيها ، ويعترف بأنه مذنب بدخولها ، ويأتي بالإصلاح لتكفير ذنب الاعتداء . وهذا المعنى لا يؤديه قولك : خلط العمل الصالح بالسيئ ، كما تقول خلط القمح بالشعير أو الماء باللبن ، لأن هذا الضرب من الخلط يصير فيه المخلوط والمخلوط به شيئاً واحداً أو كالشيء الواحد فلا يقول صاحبه عندي ماء فرات ولا لبن محض . وأما الضرب الأول المراد من الآية فقد بقي فيه كل من النوعين ممتازاً بنفسه ، وإنما خلطه مع الآخر عبارة عن الجمع بينهما ، وعدم انفراط أحدهما دون الآخر ، والواو العاطفة هي التي تؤدي هذا المعنى من الجمع ، وهو من دقائق بلاغة القرآن بالعدول عن التعدية بالباء إلى العطف ﴿ عسى الله أن يتوب عليهم ﴾ أي هم محل الرجاء لقبول الله توبتهم ، التي يشير إلى وقوعها اعترافهم بذنوبهم ، وقد تقدم (في ص ٢١٠ ج ١٠) أن كلمة « عسى » وضعت للتقريب والاطماع ثم استعملت في الرجاء كالمثل ، وقول بعضهم أنها من الله الإيجاب غير صحيح ، أو لتوفيقهم للتوبة الصحيحة التي هي سبب المغفرة والرحمة وإنما تتحقق التوبة بالعلم الصحيح بقبح الذنب وسوء عاقبته ، وألم الوجدان من تصور سخط الله والخوف من عقابه ، والإقلاع عن الذنب أو الذنوب بباعث هذا الألم الذي هو ثمرة ذلك العلم ، والعزم على عدم العود إلى اقترافها ، ثم العمل بضدها ، لمحى من النفس أثرها ، والروايات صريحة بأن اعتراف من ذكر بذنوبهم قد استتبع كل هذا

﴿ ان الله غفور رحيم ﴾ تعليل لرجاء قبول توبتهم ، إذ معناه انه كثير المغفرة للتائبين واسع الرحمة للمحسنين ، كما قال (٨٢: ٢٠) وإني اغفر لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى) وكما قال (٥٦: ٧) إن رحمة الله قريب من المحسنين) وكما قص علينا من خبر استغفار الملائكة للمؤمنين قوله (٧: ٤٠) ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً فأغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم - إلى قوله - ٨ وقهم السيئات ، ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته)

قال بعض العلماء ان هذه الآية أرجى آية في القرآن وقال آخرون أرجى الآيات قوله تعالى (٥٣: ٣٩) قل يا عبادي الذين اسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من

رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا انه هو الغفور الرحيم) وانما هذا علاج لمن اشتد عليهم الخوف من امر افهم في شهورهم ، حتى كادوا يقنطون من رحمة ربهم ، لاللمصرين على ذنوبهم بغير مبالاة ، ولذلك قال بعدها (٥٤) واناديوا الى ربكم واسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون) الى آخر الآيات

ومن العبرة في هذه الاقسام المسلمين ان قسم الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا يوجد في كل زمان ومكان ، كقسم الذين اتبعوا السابقين الاولين من المهاجرين والانصار ، وأما المهاجرون والانصار الاولون الذين أقام الرسول صلى الله عليه وسلم بهم بناء الاسلام فهم الذين لا يلز بهم قرين ، ولا يلحقهم لاحق من العالمين ، ولعل أكثر المسلمين الصادقين في هذا الزمان من الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ، ولعل أسوأ سيئاتهم ترك الجهاد بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، فيجب أن يسترشدوا بهذه الآية ، وبما ورد في سبب نزولها من توبة أبي لبابة وأصحابه . ولا تتم العبرة بها ، الا بتدبر ما بعدها ، وهو تطهير النفس من النفاق وضعف الايمان ، ببذل الصدقات وغيره من صالح الاعمال

وقد روى البخاري في تفسير الآية في صحيحه عن سمرة بن جندب مرفوعا «أتاني الليلة (أي في النوم) ملكان فابتهما بي الى مدينة بلبن ذهب ولبن فضة فقلنا رجال شطر من خلقهم كأحسن ما أنت راه ، و شطر كأقبح ما أنت راه . قالاهم اذهبوا فقعوا في ذلك النهر ، فوقعوا فيه ثم رجعوا الينا قد ذهب ذلك السوء عنهم فصاروا في أحسن صورة ، قالالي هذه جنة عدن وهذا منزلك ، قالوا أما القوم الذين كانوا شطر منهم حسن وشطر منهم قبيح فانهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا تجاوز الله عنهم » اهـ

فهذا تمثيل في الرؤيا لتحسين العمل الصالح وتجميله للنفس وتشويه العمل القبيح لها ، ولتطهيرها بالتوبة والعمل الصالح حتى تكون كلها حسنة جميلة وأهلا لدار السكرامه ، بعد ان تبعث في الصورة التي كانت عليها قبل التوبة . وقد قال تعالى (١١: ١١٤) ان الحسنات يذهبن السيئات) وشبه النبي ﷺ الصلوات الخمس بنهر يفيض على عتبة الانسان خمس مرات كل يوم «فهل يبقى عليها وسخا أو قدرا ؟ »

(١٠٣) خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلَّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٠٤) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٠٥) وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسِرَی اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ، وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

هذه الآيات الثلاث في بيان فوائد صدقة الاموال ومنافعها، والحث عليها، وعلى اتوبة لمن قصر في الجهاد في سبيل الله بما له ونفسه، أو في غير ذلك من أمور دينه . وفي الحث على العمل ، وكونه هو الذي عليه المعول .

أخرج ابن جرير من طريق علي بن أبي طلحة ان أبا لبابة وأصحابه جاؤا رسول الله ﷺ حين أظلموا فقالوا : يا رسول الله هذه أموالنا فتصدق بها عنا واستغفر لنا ، فقال « ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئا » فأنزل الله (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكّيهم بها) وأخرج مثله عنه من طريق محمد بن سعد عن أبيه وزاد : فلما نزلت هذه الآية أخذ رسول الله ﷺ جزءاً من أموالهم فتصدق بها عنهم . وله في سبب النزول روايات أخرى ، وهذا النص حكمه عام وإن كان سببه خاصاً ، عام في الآخذ يشمل خلفاء الرسول من بعده ومن بعدهم من أئمة المسلمين ، وفي المأخوذ منهم وهم المسلمون الميسرون ، قال العماد ابن كثير : وهذا عام وإن عاد الضمير في (أموالهم) إلى الذين اعترفوا بذنوبهم وخطأوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً . ولهذا اعتقد بعض مانعي الزكاة من أحياء العرب أن دفع الزكاة إلى الامام لا يكون وإنما كان هذا خاصاً بالرسول ﷺ واحتجوا بقوله تعالى (خذ من أموالهم صدقة) الآية . وقد رد عليهم هذا التأويل والفهم

٢٤ التزكية للأَنْفُس واسنادها الى الله وإلى الرسول وإلى المزي بالفعل التفسير: ج ١١

الفاقد أبو بكر الصديق وسائر الصحابة (رض) وقَاتلُوهم حتى أدوا الزكاة إلى الخليفة كما كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ حتى قال الصديق : والله لو منعوني عناقاً — وفي رواية عقلاً — كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لأقاتلنهم على منعه اهـ. وهذا مشهور في الصحاح والسنن والسير ومجمع عليه ، وهالك معنى الآية :

﴿ خذ من أموالهم صدقة ﴾ أي خذ أبها الرسول من أموال من ذكر ، ومن سائر أموال المؤمنين — على اختلاف أنواعها ، ومنها مال التجارة — صدقة معينة كالزكاة المفروضة أو غير معينة وهي التطوع — فالصدقة ما ينفعه المؤمن قربة لله كما تقدم في نفقة مؤمني الأعراب ﴿ تطهرهم وتزكهم بها ﴾ أي تطهرهم بها من دنس البخل والطمع والدناءة والقسوة على الفقراء البائسين وما يتصل بذلك من الرذائل ، وتزكي أنفسهم بها أي تنميها وترفعها بالخيرات والبركات الخلقية والعملية ، حتى تكون بها أهلاً للسعادة الدنيوية والاخرية . فالطهر هنا الرسول والمطهر به الصدقة . والتزكية صيغة مبالغة من الزكاء وهو نماء الزرع ونحوه ، قال في مجاز الأساس : رجل زكي زائد الخير والفضل بين الزكاء والزكاة (وحناناً من لدنا وزكاة) اهـ والتزكية للأَنْفُس بالفعل تسند إلى الله تعالى ، لانه هو الخالق المقدر الموفق للعبد لفعل ما تزكو به نفسه وتصلح قال تعالى (٢٤ : ٢٠) ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكا منكم من أحد ابداً ولكن الله يزكي من يشاء) وتسند إلى الرسول ﷺ لانه هو الربى للمؤمنين على ما تزكو به أنفسهم ويعلمو قدرها بسنته العملية والقواية في بيان كتاب الله وما لهم فيه من الاسوة الحسنة ومنه هذه الآية وقال تعالى (٦٢ : ٢) هو الذي بعث في الاميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة) فتزكيته ﷺ الامة من مقاصد البعثة (١) وتسند إلى العبد لكونه هو الفاعل لما جعله الله سبباً لطهارة نفسه وزكاها كالصدقات وغيرها من أعمال البر ومنه قوله تعالى (٩١ : ٩) قد افلح من زكاها (١٠) وقد خاب من دساها) وقوله (٨٧ : ١٤) قد افلح من تزكى (١٥) وذكر اسم ربه فصلى) وأما قوله تعالى

(١) راجع تفسير آية البقرة الثانية في هذا المعنى ص ٢٩ ج ٢ تفسير

(٤ : ٤٨ ألم تر الى الذين يزكون انفسهم بل الله يزكي من يشاء) وقوله (٥٣ : ٣٢) فلا تزكوا انفسكم هو أعلم بمن اتقى) فهو في زكاء النفس بدعوى اللسان ، فلزكية تطلق على الفعل الزكي وهو الاصل وعلى القول الدال عليه ومنه تزكية الشهود

﴿ وصل عليهم ان صلاتك سكن لهم ﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص (صلاتك) بالمفرد أي جنسها والباقون (صلواتك) بالجمع وهو باعتبار جماعة المتصدقين . والصلاة اسم من صلى يصلي تصلية وقد هجر لفظ التصلية في الاسلام ومنه : تركت الدنان وعزف اقيان وأدمنت تصلية وابتهاالا

ومعناها الاصيلي الدعاء وهو المراد من الآية ، وسميت العبادة الاسلامية المحصورة صلاة من تسمية الشيء بأهم أجزائه ، فان الدعاء مخ العبادة وروحها . وقيل في التعليل غير ذلك . والصلاة من الله على عباده الرحمة والحنان ، ومن ملائكته الدعاء والاستغفار قال تعالى (٣٣ : ٤٣) هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات الى النور وكان بالمؤمنين رحيما) ثم قال (٥٥) ان الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) وصلاتنا على نبينا ﷺ دعاؤنا له بما أمرنا به في الصلاة بعد التشهد الاخير وما في معناه كقولنا في دعاء الاذان المأثور « اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محمودا الذي وعدته » رواه الجماعة الا مساما . والسكن ما تسكن اليه النفس وترتاح من اهل ومال ومتاع ودعاء وثناء

والمعنى ادع ايها الرسول للمتصدقين واستغفر لهم عاطفا عليهم ان دعائك واستغفارك سكن لهم يذهب به اضطراب انفسهم إذا أذنبوا ، وتطمئن قلوبهم بأن تقبل توبتهم إذا تابوا ، ويرتاحون إلى قبول الله صدقاتهم بأخذك لها ، ووضعك إياها في مواضعها ﴿ والله سميع عليم ﴾ أي سميع لدعائك سماع قبول وإجابة ، عليم بما فيه من الخير والمصلحة ، فالمراد من السماع والعلم لازمها . وسميع لاعترافهم بذنوبهم ، عليم بندمهم وتوبتهم منها ، وباخلاصهم في صدقاتهم وطيب أنفسهم بها ، فهو الذي يثيبهم عليها ، فجملة (ان صلاتك) تعليل للامر بالدعاء ، وتذليلها

بالتذكير بسم الله وعلمه إشعار بقبول الدعاء وقبول الطاعات والجزاء عليها ،
وتصرح به الآية التالية

روى الشيخن من حديث عبد الله بن أبي أوفى قال كان النبي ﷺ إذا أتاه قوم بصدقتهم قال « اللهم صل على فلان » فأتاه أبي بصدقته فقال « اللهم صل على آل أبي أوفى » فقوله: بصدقته، صريح في ان المراد بها زكاة الفريضة . وهو يدل على ان المراد بالآية صدقة الفريضة او مايعم الفريضة وغيرها ، وعلى أنه ﷺ كان مواظبا على هذا الدعاء ، ولذلك قيل ان الامر في الآية للوجوب وهو خاص به ﷺ وقال بعض الظاهرية بوجوب الدعاء على آخذي الزكاة من الأئمة أيضا ، والجمهور على انه مستحب لهم . وقد بوب البخاري للحديث بقوله: (باب صلاة الامام ودعائه لصاحب الصدقة ، وقوله تعالى (خذ من أموالهم صدقة - إلى قوله - سكن لهم) والجمهور على أن الدعاء باللفظ الصلاة خاص بدعائه (ص) لغيره وبدعاء المسلمين له ، وقيد الاول بعض العلماء بما عدا هذا اللفظ الذي كان يدعو به للمتصدقين « اللهم صل على فلان » عند اعطاء الصدقة . وقد ثبت انه ﷺ كان يدعو بغيره أيضا فقد روى النسائي من حديث وائل بن حجر انه ﷺ قال في رجل بعث بناقاة حسنة في الزكاة « اللهم بارك فيه وفي ابله » وقال الشافعي: السنة للامام اذا اخذ الصدقة أن يدعو للمتصدق ويقول آجرك الله فيما أعطيت ، وبارك لك فيما أبقيت . والأفضل الجمع بين الصلاة والسلام عليه (ص) وعلى آله ، وأكثر المسلمين يخص بالسلام الانبياء والملائكة ، وكذا جماعة آل بيته ﷺ والشيمة يلزمون السلام على السيدة فاطمة وبعلمها وولديهما والأئمة المشهورين من ذرية السبطين ويوافقهم كثير من اهل السنة وغيرهم في الزهراء والسبطين ووالدهما سلام الله ورضوانه عليهم إذا ذكروا جماعة أو أفرادا ، وأما الصلاة والسلام على الآل بالتبع الرسول ﷺ فهو مجمع عليه ، ومنه صلاة التشهد ، وكذا عطف الصحابة والتابعين على الآل ذائع في الكتب والخطب والاقوال

﴿ فصل في فوائد الزكاة المفروضة والصدقات واصلاح المالي للبشر ﴾

وامتياز الاسلام بذلك على جميع الاديان

ما ذكره الله تعالى من تطهير الصدقة للمؤمنين وتزكيتهم بها يشمل أفرادهم وجماعتهم، فهي تطهر أنفس الافراد من أرجاس البخل والدناءة والقسوة والاثرة والطمع والجشع، ومن أكل أموال الناس بالباطل من خيانة وسرقة وغصب وربا وغير ذلك، فإن الذي يتربى بالايمان على بذل بعض مافي يده أو ما أودعه في خزائنه وصندوقه في سبيل الله ابتغاء مرضاته ومغفرة ذنوبه ورفع درجانه، جدير بأن ينزه نفسه عن أخذ مال غيره بغير حق. وهذا التطهير لأنفس الافراد وتزكيتهم بالعلم والعرفان، والتقوى التي هي مجموع ثمرات الايمان، يستلزم تطهير جماعة المؤمنين (ومايعبر عنه في عرف هذا العصر بالهيئة الاجتماعية) من أرجاس الرذائل الاجتماعية التي هي ماثار التحاسد والتعادي والبغى والعدوان والفن والحروب ذلك بأن الأموال قوام حياة الناس^(١) وقطب الرحى لمعايشهم ومراقهم العامة والخاصة، وهم متفاوتون في الاستعداد للكسب والتشجير، والاسراف والتقتير، والقصد والتدبير، والجود والبخل، والتعاون على البر، فلا ينفك بعضهم محتاجا إلى بعض في كسب الرزق وفي إنفاقه، وأشدهم استعداداً لجمع الثروة الذين يغلب على طباعهم الحرص والبخل حتى على أنفسهم وأولي قرباهم، وبهذا يكون بعضهم فتنة — اي امتحانا — لبعض ومثاراً للتنازع والتخاصم كما قال تعالى (وجعلنا بعضهم لِبعض فتنة أتصبرون؟) أي ذلك مقتضى سنته في تفاوت البشر في الاستعداد والاخلاق والاعمال. وقد بينا حكمة ذلك من قبل

ولما كان الدين مرشداً للبشر إلى تزكية أنفسهم وتقويم أخلاقهم بما تصاح به فطرتهم، ويرتقي به أفرادهم وجماعتهم — شرع الله فيه من الاحكام التعبدية والعملية ما يقيهم شر هذه الفتنة، وينقذهم مما يترتب على إهمالها من المحنة، فأوجب

١ « قوام الشيء بالفتح والكسر عماده الذي يقوم به وينتظم، ونقاب واو المكسور ياء جوازا ومنه » ولا تؤثروا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً

على أصحاب الاموال من النفقات والصدقات ، ما يبدل سيئات الثروة في الاسلام حسنات ، واننا لم نجد في كتب التفسير ولا كتب الفقه ولا دواوين التاريخ الاسلامي بياناً علمياً لحكمة الشريعة في السياسة المالية وما انفردت به من الاصلاح العقول فيها ، وكنت عازماً على شرح ذلك في تفسير هذه الآية فلما وصلت اليه وفكرت في أصول هذه المسألة وفروعها تبين لي أنه لا يمكن تفصيل القول فيها الا بتأليف سفر مستقل ، ورأيت أن أكتفي هنا بإيراد أهم الحقائق التي تشير إلى عظم شأن هذه المسألة واصلاح الاسلام فيها فأقول:

ان اتساع دوائر العلوم والفنون والمصالح العامة في هذا العصر قد اضطر الباحثين إلى انفراد بعض الافراد والجماعات الاختصاص في كل فرع من فروعها لتخصيص مسائنها والاحاطة بها بقدر الامكان ، حتى ان الرجال الماليين لا يستحقون هذا اللقب فيه (أي لقب المالي) إلا بعد إتقان عدة علوم منها ، والتمرن بالعمل في بعض فروعها ، واننا نرى بعض الاجتماعيين منهم يجزمون بان جميع الثورات والحروب السياسية والدينية ذات الشأن في تاريخ البشر قد كان المال سببها الصحيح ، او أحد الاسباب المؤثرة فيها أشد التأثير ، ولم يستثنوا من ذلك حروب اوربة الدينية ولا حروبها الصليبية للاسلام

بل نشر منذ سنتين كتاب عربي طبع في القدس موضوعه (الحركات الفكرية في الاسلام) زعم مؤلفه (١) تابعا لبعض مؤرخي الافرنج: ان الاسلام لم يكن فكرة دينية محضا بل كان مسألة اقتصادية واجتماعية أيضا ، او كان هذا هو الغرض الاول المقصود بالذات منه ولم يكن الدين الا وسيلة له ونقل عن (كاتاني) المؤرخ الايطالي المشهور ان الاسلام لم يكن دينيا إلا في الظاهر ، وان جوهره كان سياسيا واقتصاديا (قال) « ومن فضل مؤسس الدين الاسلامي ومظاهر عبقريته انه أدرك مصدر الحركة الاقتصادية والاجتماعية التي ظهرت في أيامه بمكة عاصمة الحجاز ، وعرف كيف يستفيد منها ويسخرها لأغراضه السامية دينية كانت او اجتماعية » ثم بسط ذلك من طريق ظواهر التاريخ بما هو باطل في نفسه ، خادع (١) هوبند لي جوزي السوري الروسي التابعة أحد أساتذة جامعة باكو الروسية

ببعض مظاهره ، وما أظن ان الناقل عنه - وهو نصراني الديانة ، شيوعي السياسة - يمتد اعتقاده هذا ، وانما يريد فيما يظهر نشر الشيوعية التي ابتدعها بلاشفة دولته الروسية في العرب ، وزلزلة العقائد الاسلامية في المسلمين ، وربما نجد فرصة للرد على كتابه في المنار ، وحسبي هنا أن أقول لو كان الاسلام كما ذكر لظهر أثره في أعلم الناس بحقيقته ، وأصدقهم في إقامة أركانه بالعلم والعمل ، وفي طليعتهم الخلقاء الراشدون ، والأئمة المجتهدون ، وقد قال عمر بن عبدالعزيز الجامع بين الاماتين في كتاب له الى بعض عماله الماليين « إن محمداً (ص) بعث هادياً ، ولم يبعث جابياً » والحق ان الاسلام هو الدين الوسط ، الجامع بين مصالح الروح والجسد ، للسيادة في الدنيا والسعادة في الآخرة ، فهو وسط بين اليهودية المادية الدنيوية ، والنصرانية الروحانية الزهدية (١) وان من مقاصده الاصلاحية في الاجتماع البشري هداية الناس إلى العدل والفضل في أمر المال ، ليكتفي الناس شر طغيان الاغنياء ، وذلة الفقراء ، ونصوص القرآن والسنة في هذا هي الغاية القصوى في الاصلاح ، وهي هادمة لمزاعم هؤلاء المغتاتين على الاسلام بالجهل والهوى ،

غلا عباد المال من اليهود والافرنج في جمعه واستغلاله ، واستعباد الالوف والوف الالوف من العمال الفقراء به ، بجعله دولة بينهم ، وغلا خصومهم من الاشتراكيين في مقاومتهم ومحاولة جعل الناس فيه شرعاً ، وجعله بينهم حقاً شائعاً ، فانتهى هذا الغلو بالشيوعية الروسية في عصرنا أن استعبدت أكثر من مائة ألف من البشر تسخرهم في تنفيذ مذهبها كالانعام والدواب ، وتبذل جل ما تنتزعه من ثروتهم في بث الدعاية له في جميع الاقطار . ويخشى العقلاء من عاقبة هذا الاسراف والغلو من الجانبين حرباً عامة طامة ، وفتنة لاتصيب الذين ظلموا منهم خاصة

ولا منقذ الامم من هذه الفتنة وعواقبها إلا بدين الاسلام - أعني بالدين به والعمل بأحكامه المالية وغيرها ، ولا يمكن التزامها بالعمل إلا باذعان الدين ، وقد بدأ عقلاء الافرنج يشعرون بالحاجة إلى دين معقول يصلح بالتزامه قساد هذه المدنية المادية ، ولن يجدوا حاجتهم إلا في دين القرآن ، وسنة خاتم النبيين

(١) راجع تفسير (٢ : ١٤٣) وكذلك جعلناكم أمة وسطاً (ص ٣ ج ٢ تفسير

عليه الصلاة والسلام ، وأخشي ألا يهتدوا اليه الا بعد البطشة الكبرى ، والطامة العظمى ، وهي حرب التدمير المنتظرة من تنازع البلشفية والرأسمالية ، واني أذكر هنا أهم أصول الاصلاح الاسلامي في المسألة المالية التي تبندر فكري وتبدهه فأقول :

(الاول) اقرار الملكية الشخصية وتحريم أكل أموال الناس بالباطل

(٢) تحريم الربا والقمار

(٣) منع جعل المال دولة بين الاغنياء - أي يتداولونه بينهم من دون الفقراء ، ولم يكن هذا التداول في عصر من أعصار البشر كما في عصر النظام المالي المتبع في الحضارة الغربية نظام البيوت المالية (المصارف) والشركات والاحتكارات التي يحاربها العمال ، ويمادون لاجلها أرباب الاموال

(٤) الحجز على السفهاء في أموالهم حتى لا يضيعوها فيما يضرهم ويضر أمتهم

(٥) فرض الزكاة المطلقة في أول الاسلام ، وكانت اشتراكية باعثها إذعان

الوجدان لا اكراه الحكام ، ثم نسخت اوقيدت بالمعينة الاجبارية عند ما صار للاسلام دولة ، ولو وجدت تلك الحال التي كان عليها المسلمون في مكة قبل الهجرة لوجبت عليهم فيها تلك الزكاة الاشتراكية ، أعني انه إذا وجد في مكان جماعة محصورون منهم الموسر والمعسر ، وصاحب الثروة وذو الفقر المدقم ، وجب أن يقوم اغنياؤهم بكفاية فقرائهم وجوبا دينياً إذا كانت الزكاة المعينة لا تكفيهم

(٦) جعل الزكاة المعينة ربع العشر في النقدين والتجارة ، والعشر او نصف

العشر في الغلات الزراعية التي عليهم - مدار الاقوات . وزكاة الانعام معروفة في كتب الحديث والفقه

(٧) فرض نفقة الزوجية والقراة

(٨) إيجاب كفاية المضطر من كل جنس ودين ، وضيافة الغريب حيث لا مأوى

ولا فئادق للمسافرين ، إلا إذا كان مهدور الدم أو محارباً للمسلمين

(٩) جعل بذل المال كفارة لبعض الذنوب (ومنها الظهار وإفساد صيام يوم

من رمضان بشروطها المعروفة)

(١٠) ندب صدقات التطوع والترغيب فيها

(١١) ذم الاسراف والتبذير، والبخل والشح والتقتير، وعده من أسباب الهلكة وسوء المصير، أي للأفراد وللأمة والدولة

(١٢) إباحة الزينة والطيبات من الرزق بشرط اجتناب الاسراف والخيلاء الموقعين في الامراض والادواء البدنية، المضيعين للثروة المالية، المثيرين للحسد والعداوة والمفاسد الاجتماعية، وهي من أعظم أسباب ترقى الثروة (١٣) مدح القصد والاعتدال، في النفقة على النفس والعيال.

(١٤) تفضيل الغني الشاكر، على الفقير الصابر، بجعل اليد العليا، خيراً من اليد السفلى، وأعمال البر المتعدي نفعها إلى الناس، أفضل من الأعمال القاصر نفعها على فاعلها، وجعل الصدقة الجارية، من المنوبات الدائمة الباقية. أرايت أمة من الأمم تقيم هذه الأركان ويوجد فيها فقر مدقع، أو غرم موجه، أو شقاء مفضع؟

ألم تر أن زكاة النقدين الواجبة - وهي ربع العشر - هي أوسط ربح تدفعه المصارف المالية لمودعي نقودهم فيها للاستغلال، وقد يقل عن ذلك؟ قدر الثروة القومية في النقد والتجارة للشعب المصري وانظر مقدار ربع عشرها الواجب دفعه في كل عام لفقرائها ومصالحها، وارجع البصر إلى سائر أنواع الزكاة ومقاديرها، تعرف قدر سعادته إذا وضعها في مواضعها، وتعلم صدق ما قلناه في تفسير آية مصارف الصدقات، من أن أداء الزكاة وحده كاف لإعادة مجد الإسلام الذي أضاعه المسلمون

اقرأ (وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) واقرأ (ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) وتدبر جد التدبر (ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل، ومن يبخل فأنما يبخل عن نفسه، والله الغني وأنتم الفقراء . وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم، ثم لا يكونوا أمثالكم)

وقد جاء في الكتاب والسنة من الترغيب في بذل المال في سبيل البر، وجعله من أكبر آيات الإيمان، وموجبات الثواب والرضوان، وتبويء غرف الجنان، وتسميته أقرضا للرحمن، مالم يجيء مثله في أي عمل من أعمال البر والاحسان.

وتجد أ كثر الشواهد على ذلك في سورة البقرة (*) ثم في هذه السورة (براءة)
ما تقدم تفسيره منها وما تأخر

﴿ ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ﴾ أي ألم يعلم أولئك التائبون من ذنبهم ان الله هو الذي يقبل توبة التائبين من عباده ، ولم يجعل ذلك لرسوله ، بلاء من دونه من خلقه ، فلاستفهام لتقرير ما دل عليه القرآن وكونه هو الذي حملهم على التوبة ، - أو ألم يعلم المؤمنون كافة هذا وهو مقتضى الايمان وموجبه ؟ والاستفهام على هذا تحضيض على هذا العلم وما يستلزمه من التوبة . وقبول التوبة عنهم ، قيل انه بمعنى قبولها منهم ، نحو : لاصدقة إلا عن غنى ومن غنى ، وقيل ان القبول هنا قد تضمن معنى التجاوز والصفح ، أي هو الذي يقبلها منهم متجاوزاً

عن ذنوبهم عفواً عنها وهذا أبلغ ﴿ ويأخذ الصدقات ﴾ أي يتقبلها بأنواعها ويثيب عليها ، وبعدها اقراضا له فيضاعف ثوابها ، بمقتضى وعده في مثل قوله (ان تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم ويغفر لكم) وقوله (من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة) فأخذ الصدقات له ثلاث صور (احداها) أخذ الفقراء والمساكين وغيرهم إياها من المستحقين من يد المتصدق (الثانية) أخذ النبي ﷺ في عهده والائمة من بعده إياها لاجل وضعها في مصارفها التي أمر الله بها (الثالثة) أخذ الله عز وجل إياها وهو قبولها للثأب عليها بالمضاعفة التي وعدها . وفي التعبير بأخذ الله تعالى بعد قوله للنبي (خذ من أموالهم صدقة) تشريف للنبي

ﷺ بكونه تعالى هو الذي يأخذ ما أمره بأخذه ﴿ وان الله هو التواب الرحيم ﴾ أي وانه هو الذي يقبل التوبة بعد التوبة من كل مذنب يشعر بضرر ذنبه ، ويتوب عنه منيباً الى ربه ، مهما يتكرر ذلك - الرحيم بالتائبين الذي يثيبهم . فصيغة المبالغة (التواب) تتحقق بكثرة التائبين وبتكرار التوبة من المذنب الواحد الذي يمنعه

(*) راجع صفحة ٢٩٣ من الجزء الاول وص ١٢٦ - ١٥٩ وص ٤٥٦ ج ٢ وص ١٥ و ٥٩ و ٦٧ و ٧٨ - ٩٢ و ٣٧١ ج ٣ و ١٣٢ ج ٤ - و ٩٧ - ٤٠١ و ٣٢٧ و ٤٠٥ ج ٥ وراجع ألفاظ الزكاة والصدقات والمال في فهرس الجزء العاشر وغيره

الخوف من ربه ، أن يصر على ذنبه ، كما قال تعالى في وصف المتقين (٣ : ١٣٥)
والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ، ومن
يعفر الذنوب إلا الله ؟ ولم يصرروا على ما فعلوا وهم يعلمون) وفي الحديث « ما أصر
من استغفر وإن عاد في اليوم سبعين مرة » (١) روى الشيخان من حديث أبي
هريرة مرفوعا « ما تصدق أحدكم بصدقة من كسب حلال طيب - ولا يقبل الله
إلا الطيب - إلا أخذها الرحمن بيمينه وإن كانت تمرة ، فتربو في كف الرحمن
حتى تكون أعظم من الجبل كما يربي أحدكم فلوه أو فصيله » (٢) والحديث تمثيل
لمضاعفته تعالى للصدقة المقبولة

وهذه الجملة الاسمية المؤكدة بان وبضمير الفصل الدالة على الحصر ، وما فيها
من صيغة المبالغة بمعنى الكثرة من التوبة ، ومبالغة الصفة الراسخة من الرحمة ، تفيد
أعظم البشرى للتائبين ، وأبلغ الترغيب في التوبة للمذنبين ، كما يخفى على المتدبرين .

﴿ وقال اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ﴾ هذا عطف على
قوله تعالى (خذ من أموالهم صدقة) الخ أي وقل لهم أيها الرسول اعملوا لندنياكم
وآخرتكم ولا أنفسكم وامتكم (حذف متعاق العمل يدل على العموم ، وقدره بعضهم
اعملوا ما شئتم) فانما العبرة بالعمل لا بالاعتذار عن التقصير ، ولا بدعوى الجدوالتشهير ،
وخير الدنيا والآخرة منوطان بالعمل ، وهو لا يخفى على الله ولا على الناس أيضا ،
فسيرى الله عملكم خيرا كان أو شرا ، فيجب عليكم أن تراقبوه تعالى في أعمالكم ،
وتذكروا أنه ناظر اليكم ، عليم بمقاصدكم ونياتكم ، لا يخفى عليه منكم خافية ، وجدير
بمن يؤمن برؤية الله لعمله أن يتقنه ، وأن يخلص له النية فيه ، فيقف فيه عند
حدود شرعه ، ويتحرى به تزكية نفسه والخير لخلقه ، ولا يكتفي فيه بترك
معاصيه ، واجتناب مناهيه ، راود رجل امرأة عن نفسها في فلاة قائلا أنه لا يرانا
هنا إلا الكواكب ، قالت فأين مكوكبها ؟ فحجل وانصرف . وسيراه رسوله

« ١ » رواء أبو داد والترمذي عن أبي بكرة مرفوعا « ٢ » الفلو بتشديد الواو
(كدو) المهر ، أي ولد الفرس يفصل عن أمه ، والفصيل ولد الناقة حين يفصل عن أمه
« تفسير القرآن الحكيم » « ٥ » « الجزء الحادي عشر »

٣٤ الأمة وجماعة المؤمنين شهداء الله لا يجتمعون على ضلالة التفسير ج ١١

والمؤمنون ، ويزنونه بميزان الايمان ، المميز بين الاخلاص والنفاق ، وهم شهداء الله على الناس ، قال رسول الله ﷺ فيما رواه احمد وابو يعلى وابن حبان والبيهقي « لو ان أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة لا يخرج الله عمله للناس كائنما كان » وقال زهير :

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وان خالها تخفى على الناس تعلم
فاذا كانت الخلائق النفسية ، والاعمال السرية ، لا تخفى على الناس مهما يكن من محاولة صاحبها اخفائها ، فماذا يقال في الاعمال التي هي مقتضى العقائد والاخلاق ، وما انطبعت عليه النفس من المملكات ، ومرنت عليه من العادات ؟ ترى المؤمنين الصادقين يخفون بعض أعمال البر التي يستحب اخفاؤها كالصدقة على الفقير المتعفف سترا عليه ، ومبالغة في الاخلاص لله تعالى الذي ينافيه الرياء وحب السمعة ، ولكنهم لا يلبثون أن يشتهروا بها ، وترى بعض المنافقين يخفون بعض أعمال النفاق خوفا من الناس لا من الله ، ولكنهم لا يلبثون أن يفتضحوا بها . ومن أمثال العوام : ان الذي يخفى هو الذي لا يقع

والآية تهدينا الى أن مرضاة جماعة المؤمنين القائمين بحقوق الايمان ، المقررة صفاتهم في القرآن ، تلي مرضاة الله ورسوله ، وانهم لا يجتمعون على ضلالة . وفي معناه حديث أنس في الصحيحين قل : مروا بجماعة فأنشوا عليها خيراً فقال النبي ﷺ « وجبت » ثم مروا بأخرى فأنشوا عليها شراً فقال « وجبت » فقال عمر ابن الخطاب (رض) ما وجبت ؟ قال « هذا أنتم عليه خيراً فوجبت له الجنة ، وهذا أنتم عليه شراً فوجبت له النار ، انتم شهداء الله في الارض » وفي لفظ مسلم تكرار « وجبت » ثلاث مرات في الموضعين ، وكذا تكرار « أنتم شهداء الله في الارض » وفي معناه حديث ابن عمر مرفوعاً « إن الله لا يجمع أمتي -- أو قال أمة محمد -- على ضلالة ، ويد الله على الجماعة ومن شذ شذ الى النار » أخرجه الترمذي من طريق سليمان المدني وقال : هذا حديث غريب من هذا الوجه وسليمان المدني عندي هو سليمان بن سفيان اه أقول وهو ضعيف منكر الحديث باتفاقهم ويعزى الحديث الى الطبراني بلفظ « لا يجتمع أمتي على ضلالة » والعلماء يستدلون به على حجية

الاجماع لصحة معناه بموافقة للآيات والصحاح من الاخبار، وإنما يدل على اجماع الامة، أمة الاجابة وأهل الاستقامة، لا على الاجماع المصطلح عليه عند الاصوليين . وفي معناه قول ابن عباس «مارآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن» رواه عنه احمد في السنة لا في المسند، ومن الناس من يظن انه حديث مرفوع، ويستدل به الجهال حتى من المعممين ادعياء العلم على استحسان البدع الفاشية حتى في العقائد الثابتة، كبدع القبور التي كان يامن النبي ﷺ فاعليها في مرض موته، من بناء المساجد عليها، والصلاة اليها، وايقاد السرج والمصابيح عندها، بل ما هو شر من ذلك وهو عبادتها بالطواف حولها، ودعاء اصحابها، والنذر لهم، والاستغانة بهم، حتى في الشدائد وهو ما لم يكن يفعله عباد الاصنام في مثل هذه الحال، بل كانوا فيه يخاضعون للدعاء لله، فلا حول ولا قوة الا بالله

بعد هذا الارشاد الى ما يقتضي الاحسان في الاعمال من مراقبة الله وتحري مرضاته ومروءة رسوله وجماعة المؤمنين واخير لعباده بها، ذكرهم تعالى بما يقتضي ذلك من جزاء الآخرة صليها، فقال ﴿وستردون إلى عالم الغيب والشهادة﴾ بالبعث بعد الموت ﴿فينبئكم بما كنتم تعملون﴾ في الدنيا مما كان مشهوداً للناس منه، وما كان غائباً عن علمهم منه ومن نياتكم فيه، ينبئكم به عند الحساب، وما يترتب عليه من الجزاء بحسن الثواب، أو سوء العذاب

(١٠٦) وَآخِرُونَ مُرْجُونَ لِمِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ
وَاللَّهُ دَلِيمٌ حَكِيمٌ

هذه الآية عطف على قوله تعالى (وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً) وهؤلاء هم القسم الاخير من المتخلفين عن غزوة تبوك . فقد علم مما تقدم ان المتخلفين منهم المنافقون وهم أكثرهم، وقد تقدم بيان أقسامهم ومن اعتذر ومن لم يعتذر منهم، ومنهم المؤمنون وهم قسمان (أحدهما) الذين اعترفوا بذنوبهم وقابوا وزكوا توبتهم بالصدقة وطلب دعاء الرسول

واستغفاره فتاب الله عليهم ، و (ثانيهما) الذين حاروا في أمرهم ولم يعتذروا للرسول (ص) لأنهم لا عذر لهم ، وأرجأوا توبتهم فأرجأ الله الحكم القطعي في أمرهم للحكمة التي يأتي بيانها قريبا . قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة والضحاك وغيرهم : هم الثلاثة الذين خلفوا أي عن التوبة ، وهم مرارة بن الربيع وكعب بن مالك وهلال بن أمية ، قعدوا عن غزوة تبوك في جملة من قعد كسلا وميلا إلى الدعة والخط وطيب النمار والظلال لاشكا ونفاقا ، فكانت طائفة ربطوا أنفسهم بالسواري كما فعل أبو لبابة وأصحابه ، وطائفة لم يفعلوا ذلك وهم هؤلاء الثلاثة المذكورون ، فنزلت توبة أولئك قبل توبة هؤلاء ، وأرجي هؤلاء عن التوبة حتى نزلت آيتا التوبة الآتيتين (١١٧ و ١١٨)

﴿ وآخرون مرجون لأمر الله ﴾ أي ونم أناس آخرون من المتخلئين مؤخرون لحكم الله في أمرهم ، أولأمره لرسوله بما يعاملهم به . قرأ نفع وحزمة والكسائي وحفص عن عاصم (مرجون) بحذف الهمزة للتخفيف ، والآخرون (مرجؤن) بالهمزة على الاصل ، فهو اسم مفعول من أرجأه إذا أخره ، وقيل هما الغتان . رجاه يرجوه وأرجأه يرجئه . وروي ان هذا الإرجاء كان ٥٠ يوما

﴿ إما يعذبهم وإما يتوب عليهم ﴾ أي إيهام الأمر عليهم وعلى الناس ، لا يدرون ما ينزل فيهم ، هل تنصح توبتهم فيتوب الله عليهم كما تاب على الذين اعترفوا بذنوبهم ، أم يحكم بعذابهم في الدنيا والآخرة كما حكم على الخالفين من المنافقين ؟ فالترديد بين الأمرين هو بالنسبة الى الناس لا إلى الله عز وجل ، وحكمة إيهام امر هؤلاء عليهم إثارة الهم والخوف في قلوبهم لتصح توبتهم ، وحكمة إيهامه على الرسول ﷺ والمؤمنين تركهم مكائهم ومخالطتهم ، تربية للفريقين على ما يجب في أمثالهم من الذين يؤثرون الراحة ونعمة العيش ، على طاعة الله ورسوله والجهاد في سبيله لأعلاء كلمة الحق والعدل ، ودفع عدوان الكفار عن المؤمنين ، حتى ما

كان من أمرهم ما ينه في الآية (١١٨) ﴿ والله عليم حكيم ﴾ عليم بحال عبادته ويريهم وبزكيتهم ويصلح حال أفرادهم ومجموعهم ، حكيم فيما يشرعه لهم من

فلا يحكم المفيدة لهذا الصلاح ما عملوا بها . ومن آثار علمه وحكمته إرجاء النص على توبتهم في كتابه ، ومن هذه الحكمة تكرار تأثير تلاوة المؤمنين الآيات في ذلك في الاوقات المتفرقة ، فانها من اعظم آيات القرآن ترهيباً ونحويفاً ، وعظة وتهذيباً

(١٠٧) وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفَرِّقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَارْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ، وَلَيَخْفَنَ أَنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى، وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٨) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا، لَمَْسْجِدٍ أُسَسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ، فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ (١٠٩) أَفَمَنْ أُسَسَ بِنُذْرِنَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أُسَسَ بِنُذْرِنَهُ عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَأَنْهَارُ بِهِ فِي نَارٍ جَهَنَّمَ؟ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١١٠) لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ

نزلت هذه الآيات الاربع في واقعة حال من مكابدة المنافقين الرسول ﷺ والمؤمنين ، لم أر أحداً بين حكمة خاصة لتأخيرها عن أمثالها مما نزل في أعمال المنافقين ، ووضعها هنا في سياق توبة المذنبين من المؤمنين : ما تقدم منها فقبل ، وما تأخر فأرجي . ، وقد بينا الحكمة العامة في تفريق الآيات في الموضوع الواحد — وهو تجديد الذكرى والعظة ، وما تقتضيه من التأثير والعبرة — في مواضع متعددة من الكلام على التناسب ووجوه الاتصال بين الآيات . وامل بعض ضعفاء المؤمنين كانوا قد شايعوا اولئك المنافقين الاثنى عشر الذين بنوا مسجد الضرار في علمهم جاهلين مقاصدهم منه ، فأريد بوضع القصة هنا وإيهام عطفها على من أرجأ الله الحكم

في امرهم، ان يتمظاوا لئلك امافلون من المؤمنين المذرورين بمسجد الضرار ومتمخذه
وبخافوا أن يؤاخذوا بمشايعتهم لهم ، ولوبصلاتهم معهم في مسجدهم .

روي ان مجمع بن حارثة كان، امامهم في مسجد الضرار فكلم بنو عمرو بن
عوف أصحاب مسجد قباء عمر بن الخطاب في خلافته بان يأذن لمجمع فيؤمهم في
مسجدهم، فقال لا ولا نعمة عين، أليس بامام مسجد الضرار؟ فقال يا امير المؤمنين
لا تمجل علي ، فوالله لقد صليت بهم والله يعلم اني لا اعلم ما أضمروا فيه ، ولو علمت
ما صليت معهم فيه ، كنت غلاما قارئاً للقرآن وكانوا يتيوخالا يقرءون من القرآن
شيئاً . فعذره وصدقه وأمره بالصلاة بقومه قال تعالى

﴿والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً
لمن حارب الله ورسوله من قبل﴾ يحتمل أن تكون هذه الجملة ابتدائية معطوفة
على ما قبلها من السياق في جملته حذف خبرها لاعلم به ، ويبعد ان تكون معطوفة
على قوله (وآخرون مرجون) إلا على قول ضعيف روي عن الحسن وهو انه
في المنافقين ، والافصح أن يكون لفظ « الذين » منصوباً على الاختصاص بالذم ،
وجعله محتملاً لما ذكر واقيره نراه من الابهام ، الذي تقتضيه البلاغة في هذا المقام ،
لما أشرنا اليه آنفاً من الابهام ، وقد قرر علماء البيان ان البلاغة تقتضي أحيانا
ايراد عبارة تذهب النفس في فهمها عدة مذاهب محتملة فيها . وقرأ نافع وابن عامر
(الذين) بغير واو . وهي أقرب الى قول الحسن منها الى قول الجمهور ، وما
أشرنا اليه من حكمة وضع الآيات هنا أظهر في هذه القراءة منه في قراءة
جمهور القراء (فتأمل)

ذكر المفسرون أن هؤلاء الذين اتخذوا هذا المسجد كانوا اثني عشر رجلاً
من منافقي الاوس والخزرج وسموهم باسمائهم، وقد بين الله تعالى ان الاغراض
التي بنوه لاجلها أربعة ذكرت منصوبة على المفعول لأجله وهي :

(١) انهم اتخذوه لمضارة المؤمنين أي محاولة إيقاع الضرر بهم ، وهم أهل مسجد قباء ، (الذي بناه لهم رسول الله ﷺ مقدّمه من مكة مهاجراً وقبل وصوله إلى المدينة) إذ بنوه بجواره مضادة لهم في الاجتماع للصلاة فيه

(٢) الكفر أو تقوية الكفر ، وتسهيل أعماله من فعل وترك ، كتمكين المنافقين من ترك الصلاة هناك مع خفاء ذلك على المؤمنين لعدم اجتماعهم في مسجد واحد ، والتشاور بينهم في السكيد لرسول الله ﷺ وغير ذلك ، قيل لا بد هنا من تقدير مضاف لأن بناء المسجد نفسه ليس كفراً ، ولكن التعليقات الاربعة في الآية هي للقصد من البناء المعبر عنه بالأتخاذ ، والكفر يطلق على الاعتقاد وعلى العمل المنافقين للإيمان

(٣) التفريق بين المؤمنين الذين هنالك ، فانهم كانوا يصلون جميعاً في مسجد قباء ، وفي ذلك من مقاصد الاسلام الاجتماعية ما فيه ، وهو التعارف والتآلف والتعاون وجمع الكلمة ، ولذلك كان تكثير المساجد وتفريق الجماعة منافياً لمقاصد الاسلام ، ومن الواجب على المسلمين في كل بلد أن يصلوا الجمعة في مسجد واحد إذا تيسر ، فان تفرقوا عمداً وصلوا في عدة مساجد والحالة هذه كانوا خاطئين ، وذهب بعض الاثمة إلى أن الجمعة الصحيحة تكون حينئذ لاهل المسجد الذين سبقوا بالتجميع وهذا يدل على أن بناء المساجد لا يكون قرينة مقبولة عند الله إلا إذا كان بقدر حاجة المؤمنين المصلين ، وغير سبب لتفريق جماعتهم ، ومنه يعلم أن كثيراً من مساجد مصر القريب بعضها من بعض — وكذا أمثالها في الامصار الاخرى — لم تبني لوجه الله تعالى ، بل كان الباعث على بنائها الرياء ، واتباع الاهواء ، من جهلة الامراء والاعنياء .

(٤) الارصاد لمن حارب الله ورسوله من قبل اتخاذ هذا المسجد ، أي الانتظار والترقب لمن حارب الله ورسوله أن يجيء محارباً ، فيجد مكاناً مرصداً له ، وقوماً راصدين مستعدين للحرب معه ، وهم هؤلاء المنافقون الذين بنوا هذا المسجد مرصداً لذلك . يقال : رصدته أي قعدت له على طريقه أترقبه ، وراصدته راقبته .

وأرصدت هذا الجيش للقتال، وهذا الفرس للطراد اهملخصاً من الاساس، ووافقه المفسرون على ان الذي أغراهم ببناء هذا المسجد لهذا الغرض رجل من الخزرج يعرف بأبي عامر الراهب، وعدم بان سيأتيهم بجيش من الروم لقتال النبي ﷺ وأصحابه

﴿ وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى ﴾ إخبار مؤكد بالقسم أنهم سيحلفون إنهم ما أرادوا ببنائه إلا الخصلة أو الخطة التي تفوق غيرها في الحسن ، وهي الرفق بالمسلمين وتيسير صلاة الجماعة على أولي العجز والضعف ومن يحبسهم المطر منهم ، ليصدقهم الرسول صلى الله عليه وسلم ويصلي لهم فيه ﴿ والله يشهد إنهم لكاذبون ﴾ في قولهم ، حاثون بيمينهم . قال العماد ابن كثير :

سبب نزول هذه الآيات الكريمات أنه كان بالمدينة قبل مقدم رسول الله ﷺ إليها رجل من الخزرج يقال له أبو عامر الراهب ، وكان قد تنصر في الجاهلية وقرأ علم أهل الكتاب ، وكان فيه عبادة في الجاهلية وله شرف في الخزرج كبير . فلما قدم رسول الله ﷺ مهاجراً إلى المدينة واجتمع المسلمون عليه وصارت للاسلام كلمة عالية وأظهرهم الله يوم بدر، شرق العين أبو عامر بريقه وبارز بالعداوة وظاهر بها، وخرج فاراً إلى كفار مكة من مشركي قريش ، فألهم لحرب رسول الله ﷺ فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب واندموا عام أحد ، فكان من أمر المسلمين ما كان ، وامتحنهم الله عز وجل ، وكانت العاقبة للمتقين ، وكان هذا الفاسق قد حفر حفائر فيما بين الصفيين فوق في احداهن رسول الله ﷺ وأصيب ذلك اليوم فخرح وجهه وكسرت رباعيته اليمنى السفلى وشج رأسه صلوات الله وسلامه عليه ، وتقدم أبو عامر في أول المبارزة إلى قومه من الانصار فخطبهم واستألمهم إلى نصره ومواقفته ، فلما عرفوا كلامه قالوا : لا أنعم الله بك علينا يا فاسق يا عدو الله ، ونالوا منه وسبوه ، فرجع وهو يقول : والله لقد أصاب قومي بمدي شر ، وكان رسول الله ﷺ قد دعاه الى الله قبل فراره وقرأ عليه من القرآن فأبى أن يسلم وتمرد ، فدعا عليه رسول الله ﷺ أن يموت بعيداً طريداً ، فزالته

هذه الدعوة ، وذلك أنه لما فرغ الناس من أحد ورأى أمر الرسول ﷺ في ارتفاع وظهور ، ذهب الى هرقل ملك الروم يستنصره على النبي ﷺ فوعده ومنهاه ، وأقام عنده وكتب الى جماعة من قومه من الانصار من اهل النفاق والريب يعدهم ويمنيهم انه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله ﷺ ويغلبه ويرده عما هو فيه ، وأمرهم ان يتخذوا له معقلا يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لاداء كتبه ، ويكون مرصداً له إذا قدم عليهم بعد ذلك . فشرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد قباء ، فبنوه وأحكموه وفرغوا منه قبل خروج رسول الله ﷺ الى تبوك ، وجاءوا فسألوا رسول الله ﷺ ان يأتي اليهم فيصلي في مسجدهم ليجتجوا بصلاته فيه على تقريره وإثباته ، وذكروا انهم انما بنوه للضعفاء منهم وأهل العلة في الليلة الشاتية ، فعصمه الله من الصلاة فيه فقال « إنا على سفر ولكن إذا رجعنا ان شاء الله » فلما قفل عليه السلام راجعا الى المدينة من تبوك ولم يبق بينه وبينها الا يوم او بعض يوم نزل عليه جبريل بنخبير مسجد الضرار وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين في مسجدهم (مسجد قباء) الذي اسس من اول يوم على التقوى ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الى ذلك المسجد من هدمه قبل مقدمه المدينة كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية - وذكر روايته بمعنى ما ذكر مختصرة اهـ

وذكر البغوي في خبر أبي عامر الفاسق هذا انه مازال يقاتل النبي ﷺ ويحرض عليه المشركين الى يوم حنين فلما انهزمت هوازن يئس وخرج هاربا الى الشام ، وأرسل الى المنافقين ان استعدادوا بما استطعتم من قوة وسلاح ، وابنوا لي مسجداً فني ذاهب الى قيصر ملك الروم فأت بجند من الروم الخ مائة قدم أنفا ﴿ لا تقم فيه أبدا ﴾ هذا نهى للرسول ﷺ والمؤمنين بالتمتع له عن الصلاة فيه مؤكداً بلفظ الابد الذي يستغرق الزمن المستقبل ، وتفسير القيام بانصلاص هنا مروى عن ابن عباس وهو معهود في التنزيل كقوله (وقوموا لله قانتين) وقوله (قم الليل إلا قليلا) والنهي عن القيام المطلق يتضمن النهي عن القيام للصلاة ، ولا كنهها

هي المقصودة بالنهاي اطلبهم لها منه ﷺ ﴿مسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه﴾ التلام الداخلة على المسجد للقسم أو للابتداء . والتأسيس وضع الاساس الاول للبناء الذي يقوم عليه ويرفع ، والمراد منه هذا القصد والغرض من البناء ، والتقوى الاسم الجامع لما يرضي الله ويقي من سخطه ، أي ان مسجداً قصد بينائه منذ وضع أساسه في أول يوم تقوى الله تعالى باخلاص العبادة له . وجمع المؤمنين فيه على ما يرضيه من التعارف والتعاون على البر والتقوى هو أحق أن تقوم فيه أيها الرسول مصلياً بالمؤمنين من غيره ، ولا سيما ذلك المسجد الذي وضع أساسه على المقاصد الاربعة الحبيثة ، والسياق يدل على ان المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم مسجد قباء ، وقد صح في أحاديث رواها الامام احمد ومسلم والترمذي والنسائي وغيرهم ان النبي ﷺ سئل عنه فأجاب بانه مسجده الذي في المدينة ففي رواية مسلم عن أبي سعيد انه لما سأله أخذ ﷺ كما من حصاء ف ضرب به الأرض ثم قال « هو مسجدكم هذا » وفي رواية ل احمد عنه وعن سهل بن سعد « هو مسجدي هذا » ولفظ الآية لا يمنع من ارادة كل من المسجدين ، لان كلامهما قد بناه النبي ﷺ ووضع أساسه على التقوى من أول يوم شرع فيه بينائه أو من أول يوم وجد في موضعه (والتحقيق أن « من » تدخل على الزمان والمكان)

﴿ فيه رجال يحبون أن يتطهروا ﴾ هذه جملة وصف بها المسجد الذي أسس على التقوى تؤكد ترجيح القيام مع أهله المطهرين في مقابل أهل مسجد الضرار وهم رجس والمعنى : فيه رجال يعمرونه بالاعتكاف وإقامة الصلاة ، وذكر الله وتسبيحه . فيه بالغدو والآصال ، يحبون أن يتطهروا بذلك من كل ما يعلق بأنفسهم من درن الآثام ، أو التقصير في إقامة دعائم الاسلام ، كما تطهر المتخلفون منهم عن غزوة تبوك بالتوبة والصدقات ، ومن لوازم عمارته المعنوية والعكوف فيه طهارة الثوب والبدن الحسية ، وطهارة الوضوء والغسل الحكمية ، فالتطهر صيغة مبالغة تشمل الطهارتين النفسية والبدنية ، ووردت الروايات بكل منهما ، ولكل من الاستعمالين موضع من التنزيل ، واجمع بينهما هو الاولى

﴿ والله يحب المطهرين ﴾ أي المبالغين في الطهارة الروحية والجسدية، وإنما يجبالقون فيها إذا أحببوها، وحينئذ تكمل انسانيتهم المؤلفة من الروح والجسد . ولا يطبق نجاسة البدن وقذارته إلا ناقص الفطرة والادب، وأنقص منه من يطبق خبث النفس بالاصرار على المعاصي والعادات القبيحة، والتخلق بالاخلاق الذميمة. دع رجس المذاقين المرائين في الاعمال، الاشحة بالخلين بالاموال. وأما حب الله المستحقين لحبه، فهو من صفات كماله، لان العالم يتفاوت الاشياء في الحسن والقبح، والكمال والنقص، يكون من أفضل صفاته حب الجمال والكمال والحق والخير وبغض اضدادها وكرهاتها. ووجه اللائق برؤيته منزعه عن مشابهة حبنا، كتنزه ذاته وسائر صفاته عن مشابهة ذواته وصفاته، ولكن يظهر أثره في المحبوبين من عبادته في اخلاقهم وأعمالهم، ومعارفهم وآدابهم، واعلامه ما أشار اليه حديث البخاري القدسي «ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فاذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به» الخ (١) وقد قال الله تعالى مملأ ما وعظ به نساء نبيه ﷺ من أمره ونهيته لهن بما يليق بمكانتهن من رسوله (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا) وقد فسر بعض المفسرين محبته تعالى للمطهرين برضاه عنهم واحسانه اليهم، وهو تأويل فسر به اللفظ ببعض لوازمه، فإن كان هربا من نظرية من قال من المتكلمين ان اتصاف الله تعالى بالحب محال، لأنه انفعال نفسي يستحيل على ذي الجلال، فيجب تفسيره بلازمه المذكور كما قال بعضهم في الرحمة وغيرها من الصفات — فهو هروب من مذهب السلف الحق، ووقوع فيما فروا منه بالتأويل، وهو تشبيه الله بخلقه . إذ يقال لهم إن الرضا عاطفة نفسية كالحب، والاحسان عمل بدني كبسط اليد بالبذل، وهما يستندان الى الناس فلا يصح أن يوصف بهما الخالق عز وجل، لانه تشبيهه بالخلق، وكذا العلم والقدرة والمشيئة والكلام، وغيرها من صفات الذات، فإن كلا منها وضعت في اللغات، لمعانيها المعروفة في المخلوقات، ككون العلم صور المعلومات المنتزعة منها في الذهن، وهو بهذا المعنى محال على الله عز وجل. وإذا كان الامر كذلك فالحق أن يوصف تعالى بما وُصف به نفسه على ظاهره بقيوده

الثلاثة التي قررها الساف الصالح : اي بالاعتطيل ولا تمثيل ولا تأويل . فعلمه تعالى انكشاف يليق به ، وحبه معنى نفسي يليق به الخ
ذكر السيوطي في الدر المنثور عدة روايات حاصلها ان النبي ﷺ سأل أهل قباء عن سبب ثناء الله تعالى عليهم بهذه الآية فأجابوه بانهم يستنجون بالماء وفي بعضها انهم يتبعون الحجارة بالماء . وذكر ان ابن ماجه وابن المنذر وابن أبي حاتم والدارقطني والحاكم وغيرهم رويوا عن طلحة بن نافع قال حدثني ابو أيوب وجابر بن عبد الله وأنس بن مالك (رض) ان هذه الآية لما نزلت (فيمرجال يحبون أن يتطهروا) قال رسول الله ﷺ « يا معشر الانصار ان الله قد أثنى عليكم خيراً في الطهور فما تطهرواكم هذا ؟ » قالوا نتوضأ للصلاة ونغتسل من الجنابة . قال « فهل مع ذلك غيره ؟ » قالوا ان أحداً إذا خرج من الغائط أحب أن يستنجي بالماء قال « هو ذاك فعليكموه »

أقول طلحة بن نافع هذا ثقة روى عنه الجماعة كلهم ولكن رواية البخاري عنه مقرونة بغيره وهي أربعة أحاديث رواها عن جابر . واعلمه اقتصر عليها ، لقول شيخه علي بن المديني إنه لم يرو عن جابر غيرها ، أي لم يصح عنده غيرها . وقول ابو حاتم انه لم يسمع من أبي أيوب ، ولكنه هنا صرح بالسماع منه فيما روي من ذكر وغيرهم . وحديثه هذا على كل حال أقوى من أحاديث سؤال النبي ﷺ أهل مسجد قباء وجعله الثناء عليهم ، وهو في سؤال الانصار ، والمسؤلون منهم كلهم من سكان المدينة ، ويؤيده الأحاديث الصحيحة الناطقة بان المسجد الذي أثنى الله عليه وعلى أهله هو مسجده فيها . وقد قلنا انه لا مانع من ارادة كل منهما ، وهو أولى من القول بتعارضهما ، كما أن الروايات فيهما لا تنافي ارادة نوعي الطهارة كليهما ، ويؤيد ارادة الطهارة المعنوية قوله تعالى

﴿ أَمِنَ أُسُسٌ بَنِيَانُهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ ؟ أَمْ مِنْ أَسْسٍ بَنِيَانُهُ ﴾

على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم ؟ ﴿ هذا بيان مستأنف للفرق بين أهل المسجدين في مقاصدهما منها : أهل مسجد الضرار الذي زادوا به رجساً إلى

رجسهم ، وأهل مسجد التقوى وهم الرسول ﷺ وانصاره الذين يحبون أكمل الطهارة لظاهرهم وباطنهم ، فاستفادوا بذلك محبة الله لهم ، وورد بصيغة استفهام التقرير ، لما فيه من تديه الشعور وقوة التأثير ، والبيان مصدر كالعمران والغفران ، ويراد به المبنى من دار أو مسجد وهو المتعين هنا . وتقدم آفامعنى التأسيس . واشفا (بالفتح والقصر) الحرف والشخير الجرف والنهر وغيره . والجرف (بضمين) جانب الوادي ونحوه الذي يتحفر أصله بما يجرفه السيل منه فيجتاح أسفله فيصير مائلا للسقوط . والمثار الضعيف المتصدع المتداعي للسقوط^{١١} وهذا التعبير يضرب مثلاً لما كان في منتهى الضعف والاشراف على الزوال ، وهو من أبلغ الأمثال ، لمنتهى الوهي والانحلال المراد بالمثل هنا بيان ثبات الحق الذي هو دين الاسلام وقوته ودوامه ، وسعادة أهله به ، وذكره بأثره وثمرته في عمل أهله وجماعها اتقوى ، وبجزائهم عليه وأعلاه رضوان الله تعالى ، وبيان ضعف الباطل واضمحلاله ، ووهيه وقرب زواله ، وخيبة صاحبه وسرعة انقطاع آماله ، ونشر أدله المناقطين ، ونشر أعمالهم ما اتخذوه من مسجد الضرار للمفاسد الاربعة المبينة في الآية الاولى من هذا السياق وقد ذكر في وصف بنيان الفريق الاول وهم المؤمنون المشبهون المشبه به لانه المقصود بالذات ولم يذكر فيما قبله من علمهم إلا المبالغة في الطهارة . وذكر من وصف بنيان الفريق الثاني الهيئة المشبه بها دون المشبه ، لانه ذكر فيما قبل مقاصدهم منها كلها ، وهذا من دقائق إيجاز القرآن

تقول في المعنى الجامع بين المشبه به في الفريقين : أمن أسس بنيانه الذي يتخذهُ مأوى وموئلاً ، يقيه من فواعل الجوع وعدوان كل حي ، وموطناً لراحته ، وهناء معيشته ، على أمتن أساس وأثبتته ، وأقواه على مصابرة العواصف والسيول ، وصد الهوام والوحوش - هو خير بنيانا ، وراحة وأماناً ؟ أم من أسس بنيانه على أوهى القواعد وأقلها بقاء واستمساكاً ، فهي عرضة الانهيار ، في كل لحظة من ليل أو نهار ؟ وأما معنى المشبه المقصود بالذات في كل منهما فيصور هكذا : أمن كان مؤمناً صادقاً يتقي الله في جميع أحواله ، ويتقي رضوانه في أعماله ، بتزكية نفسه بها ونفع (١) أصله هار من هار يهور فهو هار وهار ، ومثله شائك وشاك ، وصائت وصات

عياله ، (والخلق كلهم عيال الله كما ورد في الخبر عن رسوله ﷺ) - افمن كان كذلك خيراً عملاً ، وأفضل عاقبة وأملاً ، ومن نزل فيهم (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً) أم من هو منافق مرتاب ، مرء كذاب ، يبتغي بأفضل مظاهر اعماله الضرر والضرار ، وتقوية أعمال الكفر وموالاة الكفار ، وتفريق جماعة المؤمنين الاخيار ، والارصاد لمساعدة من حارب الله ورسوله من الاشرار ، وما يكون من عاقبة ذلك في الدنيا من الفضيحة والعار ، والحزي والبوار ، وفي الآخرة من الانهيار في نار جهنم وبئس القرار ؟ وفي معنى هذا المثل (١٣ : ١٧ أنزل من السماء ماء فسات أودية بقدرها) الآية . وخلاصة المثليين ان الايمان الصادق ، وما يلزمه من العمل الصالح . هو المثمر الثابت ، وان النفاق وما يستلزمه من العمل الفاسد ، هو الباطل الزاهق ، وهذا المعنى يوافق قول علماء الكون إنه لا يتنازع شيثان في الوجود إلا ويكون الغالب هو الصالح منهما . ويسمون هذه السنة (ناموس الانتخاب الطبيعي وبقاء الامثل) وسبق بيانه في هذا التفسير (١)

صدق الله العظيم ، فقد ثبت الله المؤمنين بالقول الثابت ، وهداهم بايمانهم إلى العمل الصالح ، ففتحوا البلاد ، وأقاموا الحق والعدل في العباد ، وأهلك الله المنافقين ، فلم يكن لهم من أثر صالح في العالمين ، هكذا كان وهكذا يكون ، ولكن المنافقين لا يفقهون ولا يعتبرون ، وشر النفاق وأضره نفاق العلماء ، للولك والامراء (٢)

﴿ والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ أي مضت سنته في ارتباط العقائد والاخلاق بالاعمال ، بان الظالم لا يكون مهتدياً في أعماله إلى الحق والعدل ، فضلاً عن الرحمة والفضل . ولا أظلم في الناس من المنافقين (٣ : ٨٦ كيف يهدي الله قوما كفروا بعد ايمانهم وشهدوا ان الرسول حق وجاءهم البينات والله لا يهدي القوم الظالمين) ﴿ لا يزال بنياهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم ﴾ الريبة اسم من الريب وهو ما

(١) تجده في مواضع من اجزائه أولها آخر صفحة من الجزء الثاني

(٢) راجع ص ٥١٧ ، ٥٣٩ ج ١٠ تفسير

تضطرب فيه النفس ، ويتردد الوهم ويسوء الظن ، فيكون صاحبه منه في شك وحيرة إن لم يكن مثاره الشك . قال قوم صالح عليه السلام له ، منكربن دعوته إياهم إلى عبادة الله وحده (١١ : ٦٢) وإنا لفي شك مما تدعونا إليه مريب) ولهذا الاستعمال أمثل في التنزيل ، وهو صريح في أن الشك مثار للرب وموقع فيه لا أنه عينه ، وقد يفسر به باعتبار لزومه له وإيقاعه فيه . قال الشاعر :

وكنت إذا ماجئت ليلي تبرعت وقد رايتني منها الغداة سفورها

والظاهر أن ارتياهم فيه كان منذ بنوه إلى أن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بهدمه فهدم ، وذلك أنهم أسوء نيتهم في بنائه كانوا يخافون أن يطلع الله رسوله على مقاصدهم السوء فيه ، وكان ذلك شأن سائر أخوانهم كما تقدم في قوله تعالى (٦٤) يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم) وذكرنا في تفسيرها قوله تعالى (يحسبون كل صيحة عليهم) (ص ٥٢٥ - ٥٢٨ ج ١٠) وأجدر بهم أن يكونوا بعد هدمه أشد ارتياها ، وأكثر اضطرابا ، بما يحذرون من عقابهم في الدنيا كما أنذرتهم هذه السورة مرارا ، وأن يستمر ذلك

ملازمهم (إلا أن تقطع قلوبهم) قرأ ابن عامر وحفص عن حمزة (تقطع) بفتح التاء وتشديد الطاء من التقطع ، وقرأ الباقر بن بضم التاء من التقطيع ، أي إلا أن تقطع الريبة قلوبهم أفلاذًا ، فتنقطع بها وتكون جذاذًا ، وقرأ يعقوب (إلى) بدل (إلا) وفسر ذلك بالموت والهلاك ، وبالחסرة والندم المقتضي للتوبة ، وقال الزمخشري وتبعه معتادو الأخذ عنه : لا يزال هدمه سبب شك ونفاق زائد على شكهم ونفاقهم ، لا يزول وسمه عن قلوبهم ، ولا يضمحل أثره (إلا أن تقطع قلوبهم) قطعًا ، وتفرق أجزاء ، فينثني سلون عنه ، وأما مادامت سالمة مجتمعة ، فالريبة باقية فيها متمكنة ، فيجوز أن يكون ذكر التقطع تصويرًا لحال زوال الريبة عنهم ، ويجوز أن يراد حقيقة تقطيعها وما هو كائن منه بقتلهم ، أو في القبور أو في النار . وقيل معناه إلا

أن يتوبوا توبة تقطع بها قلوبهم ندما وأسفا على تفريطهم اهـ (والله عليم حكيم) فحكم في أمرهم وبين من حالهم ما اقتضته الحكمة والعلم المحيط بكل شيء .

هاتان الآيتان في بيان حال المؤمنين حق الايمان ، البالغين فيه ماهو غاية
له من الكمال ، وضعتا بعد بيان حال المنافقين ، وأنصاف المؤمنين المقصرين ،
ومنهما تعرف جميع درجات المسلمين ، ولا سيما المتخلفين عن الجهاد في سبيل الله
﴿ ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ﴾ هذا تمثيل
لإثابة الله المؤمنين على بذل أنفسهم وأموالهم في سبيله بتمليكهم الجنة دار النعيم
الابدي ، والرضوان السرمدي ، تفضل جل جلاله وعم نواله بجعلها من قبيل من
باع شيئاً هو له لا آخر ، لطفاً منه تعالى وكرماً وتكريماً لعباده المؤمنين بجعلهم كالمتعاقدين
معه كما يتعاقدا البيعان على المنافع المتبادلة وهو عز وجل المالك لانفسهم اذ هو الذي
خلقها ، والمالك لاموالهم اذ هو الذي رزقها ، وهو غني عن أنفسهم وأموالهم ، وانما المبيع
والثمن له وقد جعلها بكرمهم ، وقوله ﴿ يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون ﴾
بيان لصفة تسليم المبيع وهو انهم يقاتلون في سبيل الحق والعدل الموصلة إلى مرضاته
تعالى فيبذلون أنفسهم وأموالهم فيكونون اما قاتلين لاعدائه الصادين عن سبيله ،
واما مقتولين شهداء في هذه السبيل - قرأ الجمهور بتقديم (يقاتلون) المبني للفاعل ،
وحزرة السكاسي بتقديم المبني للمفعول ، فدللت القراءتان على أن الواقع هو أن

يقتل بعضهم وبسلم بعض ، وانه لا فرق بين القاتل والمقتول في الفضل ، والمثوبة عند الله عز وجل ، إذ كل منهما في سبيله لاحقاً في سفك الدماء ، ولا رغبة في اغتنام الاموال ، ولا توسلا الى ظلم العباد ، كما يفعل عباد الدنيا من الملوك ورؤساء الاجناد

﴿ وعداً عليه حقاً في التوراة والانجيل والقرآن ﴾ أي وعدهم بذلك وعداً أوجبه لهم على نفسه ، وجعله حقاً عليه أثبتته في الكتب الثلاثة المنزلة على أشهر رسله ، ولا تتوقف صحة هذا الوعد على وجوده في التوراة والانجيل اللذين في أيدي أهل الكتاب بنصه لما أثبتناه من ضياع كثير منهما ، وتحريف بعض ما بقي لفظاً ومعنى ، بل يكفي اثبات القرآن لذلك وهو مهيمن عليهما . (راجع ص ٣٤٢ ج ١٠)

﴿ ومن أوفى بعهده من الله ؟ ﴾ أي لا أحد أوفى بعهده وأصدق في انجاز وعده من الله عز وجل ، إذ لا يمنعه من ذلك عجز عن الوفاء ، ولا يمكن أن يتعرض له فيه التردد أو البداء ، (١) ﴿ فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به ﴾ الاستبشار الشعور بفرح البشري أو استشعارها ، الذي تنبسط به بشرة الوجه

غيتاً لوقورها ، والجملة تقرير لتمام صفقة البيع من الجانبين ﴿ وذلك هو الفوز العظيم ﴾ الذي لا يتعاضده فوز ، دون ما يتقدمه من النصر والسيادة والملك ، الذي لا يعد فوزاً إلا بجملة وسيلة لاقامة الحق والعدل . أعلی الله تعالى مقام المؤمنين المجاهدين في سبيله فجعلهم بفضله مالکين معه ، ومبايعين له ، ومستحقين ثمنه الذي بايعهم به ، وأكد لهم أمر الوفاء به وانجازده ، ويروي عن جدنا الامام جعفر الصادق عليه السلام في معنى الآية

أنا من بالنفس النفيسة ربها فليس لها في الخلق كاهم ممن
بها أشترى الجنات ، إن أنا بعثتها بشيء سواها إن ذلكم غبن (٢)
إذا ذهبت نفسي بدنيا أصبتها فقد ذهبت مني وقد ذهب الثمن

« ١ » البداء بالفتح أن يدولك في الامر ما لم يكن في علمك ولا حسابك فترجع عما كنت تريد امضاه فيه (٢) الغبن بالتحريك وبفتح فسكون واحد من غبنه في البيع إذا غلبه بغش أو خديعة

« تفسر القرآن الحكيم » « ٧ » « الجزء الحادي عشر »

ويروى عنه انه قال : ليس لأبدانكم ثمن إلا الجنة فلا تبيعوها إلا بها .
ومعناه ان الذي يقتل أو يموت في سبيل الله كان باذلاً لبدنه الفاني لالروح الباقية ،
وليس معناه أن يبيع لربه جسده دون نفسه الناطقة كما توهم بعض المتفلسفين .
أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال نزلت هذه الآية
على رسول الله ﷺ وهو في المسجد فكبر الناس في المسجد فأقبل رجل من
الانصار ثانياً طرفي ردائه على عاتقه فقال يا رسول الله أنزلت فينا هذه الآية ؟ قال
« نعم » فقال الانصاري بيع ربيع ، لا نقييل ولا نستقبل - يعني البيع -
وأخرج ابن جرير ان عبد الله بن رواحة قال لرسول الله ﷺ اشترط لنفسك
ولربك فقل « أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، واشترط لنفسي
أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم » قالوا فإذا فعلنا ذلك فما لنا ؟ قال
« الجنة » قال : ربح البيع لا نقييل ولا نستقبل . فنزلت الآية . وظاهر هذا أنها
نزلت في مبايعة الانصار للنبي ﷺ وتفصيله فيما يلي وان لم يصرح بأنه سبب النزول .
وأخرج ابن سعد عن عباد بن الوليد بن عباد بن الصامت ان سعد بن
زرارة أخذ بيد رسول الله ﷺ ليلة العقبة فقال : يا أيها الناس هل تدرون علام
تبايعون محمداً ؟ انكم تبايعونه على أن تحاربوا العرب والمجم والجن والانس كافة .
فقالوا نحن حرب لمن حارب ، وسلم لمن سالم . فقل أسعد بن زرارة يا رسول الله
اشترط علي فقال « تبايعوني على أن تشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله
ﷺ ، وتقيموا الصلاة وتؤنوا الزكاة ، والسمع والطاعة ، ولا تنازعوا الامر أهله
وتمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأهليكم » قالوا نعم ، قال قائل الانصار : نعم هذا لك
يا رسول الله فما لنا ؟ قال « الجنة والنصر »

وأخرج ابن سعد عن الشعبي قال : انطلق النبي ﷺ بالعباس بن عبد المطلب
وكان ذا رأي إلى السبعين من الانصار عند العقبة فقال العباس ليتكلم متكلمكم
ولا يطيل الخطبة فإن عليكم المشركين عينا ، وان يملأوا بكم يفضحواكم . فقال
قائلهم : وهو ابو امامة أسعد - يا محمد سل لربك ما شئت ثم سل لنفسك ولاصحابك
ما شئت ، ثم أخبرنا ما لنا من الثواب على الله وعليكم إذا فعلنا ذلك ، فقال « أسألكم

لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأسألكم لنفسي وأصحابي أن تؤنونا وتنصروننا
وتمنعوننا مما تمنعون منه أنفسكم» (١) قل فإلنا إذا فعلنا ذلك؟ قال الجنة» فكان الشهي
إذا حدث هذا الحديث قال ما سمع الشيب والشباب بخطبة أقصر ولا أبلغ منها
ومعنى نزولها في مبايعة الانصار انها تدخل في عموم الآية دخولاً أولياً
لانها خاصة بها . وقد روى ابن مردويه من حديث أبي هريرة مرفوعاً
« من سل سيفه في سبيل الله فقد بايع الله » وروى ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن
الحسن قل : ما على ظهر الارض مؤمن إلا وقد دخل في هذه البيعة . وفي لفظ :
اسعوا إلى بيعة بايع الله بها كل مؤمن (ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم)
ولكن العجب ممن يدعون الايمان وهم ينكثون ببيعة الله عز وجل فهم لا يبذلون
أنفسهم ولا شيئاً من أموالهم في سبيل الله ، وإنما يطلبون الجنة بغير نية كما يطلبون
سعادة الدنيا وسعادتها من غير طريقها ، ولا طريق لها إلا الجهاد بالمال والنفس . والقرآن
حجة عليهم وهو حجة الله البالغة التي لا يدحضها شيء وهي تدحض كل شيء .
ثم وصف الله تعالى هؤلاء المؤمنين الباطنين أنفسهم وأموالهم لله تعالى بحجته ودار

كرامته ، فقال ﴿ التائبون ﴾ أي هم التائبون الكاملون في توبتهم وهي الرجوع إلى
الله تعالى عن كل ما يبعد عن مرضاته ، وتختلف باختلاف احوال أهلها ، فتوبة
الكفار الذين يدخلون في الاسلام هي الرجوع عن الكفر الذي كانوا عليه
من شرك وغيره كما تقدم في قوله تعالى (١١) فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا
الزكاة فإخوانكم في الدين) وتوبة المنافق من النفاق وتقدم ذكرها في هذه السورة
أيضاً ، وتوبة العاصي من المعصية ، ومنه توبة من تخلف عن غزوة تبوك من
المؤمنين ، وتقدم قريباً ذكر من تاب منهم ومن أرجي أمره ، - وتوبة المقصر
في شيء من البر وعمل الخير إنما تكون في التشمير فيه والاستزادة منه - وتوبة
من يغفل عن ربه ، إنما تكون في الاكثار من ذكره وشكره ، وسيأتي ذكر توبة
الله تعالى على الجميع في الآيتين (١١٧ و ١١٨)

﴿العابدون﴾ لله ربهم وحده مخلصين له الدين في جميع عباداتهم في عامة أوقاتهم ، لا يتوجهون إلى غيره بدعاء ولا استعانة ، ولا يتقربون إلى سواه بعمل مما يقصد به القربة ومشوبة الآخرة

﴿الحامدون﴾ لله ربهم في السراء والضراء بالثناء عليه بلفظ الحمد وغيره من الذكر المشروع الدال على الرضاء منه تعالى . ومهما يصب الانسان من مصائب الدنيا فانه يبقى له من النعم فيها وفي الدين بل يبقى له من اللطف الالهي في نفس المصائب ما يجب عليه أن يحمد الله ويشكره عليه (وتقدم بيان الحمد والعبادة في تفسير سورة الفاتحة وغيرها)

﴿السائحون﴾ في الارض يجوبون الاقطار لغرض صحيح من علم أو عمل كالجهاد في سبيل الله ، وروي عن عطاء ، او للهجرة حيث تشرع الهجرة وروي عن عبد الرحمن بن زيد ، قال السائحون هم المهاجرون ليس في أمة محمد سياحة إلا الهجرة . او لطلب العلم النافع للسائح في دينه أو دنياه او النافع لقومه وأمتة وروي عن عكرمة وخصه بعضهم بطلب الحديث (لانهم كانوا يسافرون من مصر إلى أخرى للرواية) او للنظر في خلق الله وأحوال الشعوب والامم للاعتبار والاستبصار ومعرفة سنن الله تعالى وحكمه وآياته ، وهذا ما تدل عليه الآيات المتعددة في الحث على السير في الارض كما بيناه في الاصلين (١٣ و ١٤) من الاصول العلمية التي استنبطناها من سورة الانعام (ص ٢٨٩ ج ٨)

وروي عن عبد الله بن مسعود ان المراد بالسائحين الصائمون وقوله في تفسير (سائحات) من سورة التحريم ، وتعلق به مصنفو التفاسير لاستبعادهم مدح الله تعالى النساء بالسياحة في الارض ، وانما يحظر في الاسلام سفر المرأة منفردة دون زوجها أو أحد محارمها ، واما إذا كانت تسيح مع الزوج والمحرم حيث يسيح لغرض صحيح من علم نافع أو عمل صالح أو طلب الصحة أو الرزق فلا اشكال في مدحها بالسياحة . بل ينبغي اشتراك الرجال والنساء في جميع أعمال الحياة النافعة ، وأزيد على ذلك السياحة والسفر لطلب الرزق الحلال من تجارة وغيرها .

وإذا صح أن النبي ﷺ وصحابه كانوا يصحبون نساءهم في غزواتهم عند
الامكان ، وهن غير مكلفات بالقتال ، بل يساعدن عليه بتهيئة الطعام والشراب ،
وتضميد الجراح وغير ذلك كما تقدم في تفسير (٧١ -) والمؤمنون والمؤمنات بعضهم
أولياء بعض (٥٤١ ج ١٠) فلأن يصحبهم في سائر الاسفار أولى ، وفي
سفر المرأة مع زوجها احصان له ولها ، فهو مانع المسلم من التطلع في السفر إلى غيرها
وعمل سفيان بن عيينة تفسير السائحين بالصائمين بأن الصائم يترك اللذات
كلها كالسائح للتعبد ، ومثله أو منه قول الازهري : يسمى الصائم سائحاً لأن الذي
يسيح في الارض متعبداً لا يحمل زاداً فكان ممسكاً عن الاكل . ولهذا التعليل
خص بعضهم اطلاق وصف السائحين على الصائمين بالذين يديمون الصيام ، وأخذ
بعضهم بظاهر اللفظ ، فقال يكفي في صحة لوصف صيام الفرض ، وكل ذلك ضعيف
والصوفية يخصوصون السائحين الممدوحين بالذين يهيمون في الارض لتربية
إرادتهم ، وتهذيب أنفسهم باحتمال المشاق ، والبعد عن مظان السمعة والرياء ،
لجمع القلب على الرب عز وجل بالاخلاص في عبادته ، والتكفل في منازل معرفته ،
كالسائحين من الائم قبلهم ، وقد كان اطلاق السياحة بهذا المعنى ذائعاً من قبل
الاسلام حتى قال صاحب القاموس : السياحة الذهاب في الارض للعبادة ومنه
سمي المسيح الخ واعترضوه فيه فانما هو عرف ليس من أصل اللغة ، وتقدم معنى
السياحة اللغوي في تفسير قوله تعالى (فسيحوا في الارض أربعة أشهر) وهو أول
آية من هذه السورة (ص ١٥٢ ج ١٠)

وقد حدث للمتصوفة بدع في السياحة كقصد مشاهد القبور المنسوبة إلى
الانبياء والصالحين للتبرك بها ، والاستمداد من أرواح من دفنوا فيها ، وكثير
منهم يكون له هوى في التنقل من بلد إلى آخر فيظل هائماً في الاسفار ، وينقطع
بذلك عن الاعمال التي تنفع الناس وعن الزواج ، ويرتكب بعضهم فيها كثيراً
من المنكرات ، ويكون لهم طمع في استجداء الناس ، والسؤال حرام إلا
لضرورة ، والفقهاء ينكرون عليهم سياحتهم هذه
قال ابن الجوزي : السياحة في الارض لا المقصود ولا إلى مكان معروف

منهي عنها . وقد روينا ان النبي ﷺ قال « لا رهبانية في الاسلام ولا تبطل ولا سياحة في الاسلام » وقال الامام احمد ما للسياحة من الاسلام في شيء ولا من فعل النبيين والصالحين ، ولان السفر يشتت القلب فلا ينبغي المهريد أن يسافر إلا في طلب علم أو مشاهدة شيخ يقتدي به اهـ

وأقول روى ابن جرير من حديث أبي هريرة مرفوعا وموقوفا حديث « السائحون هم الصائمون » ولا يصح رفعه وروى عن عائشة وابن عباس ومجاهد وغيرهم من أقوالهم ، ومن مرسل عمرو بن دينار عن عبيد بن عمير وروى ابو داود من طريق القاسم أبي عبد الرحمن عن أبي امامة ان رجلا قال يا رسول الله ائذن لي بالسياحة ؟ قال النبي ﷺ « إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله عز وجل » قال الحافظ المنذري: القاسم هذا تكلم فيه غير واحد . اهـ أقول منهم الامام احمد كان يقول فيما يروى عنه من المناكير . إنها من قبله ، ويقول بعضهم إنها ممن روى عنه من الضعفاء ، لأمته ، وقال ابن حبان : كان يروي عن الصحابة المعضلات . وللإمام الغزالي في كتاب السفر من الاحياء كلام نفيس في فوائد السياحة والاعتبار بآيات الله تعالى فيها لا يوجد في غيره مثله

﴿ الراكون الساجدون ﴾ لله تعالى في صلواتهم . والصلاة تذكر تارة بلفظها وتارة بعبارة أركانها كالقيام والركوع والسجود . وهذا الوصف يفيد التذكير بهذه الهيئة وتمثيلها للقاريء والسامع

﴿ الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ﴾ تقدم معنى هذا الامر والنهي ومكانته من صفات المؤمنين في تفسير الآية (٧١) من هذه السورة (ص ٥٤١ ج ١٠) وهذه الصفة وما بعدها من الصفات المتعلقة بجماعة المؤمنين فيما يجب على بعضهم لبعض وكل ما قبلها من صفات الافراد

﴿ والحافظون لحدود الله ﴾ أي شرائعه وأحكامه التي حدد فيها ما يجب وما يحظر على المؤمنين من العمل بها وما يجب على أئمة المسلمين وأولي الامر وأهل الحل والعقد منهم إقامتها وتنفيذها بالعمل في أفراد المسلمين وجماعتهم إذا أخلوا بما يجب عليهم من

الحفظ لها ﴿ وبشر المؤمنين ﴾ أي وبشر أيها الرسول المؤمنين الموصوفين بهذه
 البضع الصفات، ولم يذكر ما يبشرهم به لتعظيم شأنه وشموله لخير الدنيا وسعادة الآخرة
 ومن مباحث اللغة ان المعدودات تسرد بغير عطف وانما عطف النهي عن
 الذكر على الامر بالمعروف للايذان بانهما فريضة واحدة لتلازمهما في الغالب .
 واما عطف « الحافظون لحدود الله » على جملة ما تقدم فقليل لان التعداد قد تم
 بالوصف السابع من حيث ان السبعة هو العدد التام والثامن ابتداء عدد آخر
 معطوف عليه وان هذه الواو تسمى واو الثمانية . وأنكر هذه الواو النحاة المحققون ،
 وقيل لأنه اجل لما تقدم من التفصيل قبله ، فلا يصح أن يجعل فرداً من أفرادها فيسرده
 معه . وأقوى منه عندي أنه وصف جامع للتكاليف عامة ، والمنهيات خاصة ،
 والسبعة المسرودة قبله من المأمورات ، ولا يحصل الكمال للمؤمن بها إلا مع اجتناب
 المنهيات ، وهو اول ما يلاحظ في حفظ حدود الله قال تعالى (تلك حدود الله
 فلا تقربوها * تلك حدود الله فلا تمعدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم
 الظالمون *) وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه (وعلى هذا يكون
 معنى نظم الآية ان المؤمنين الكاملين الذين باعوا أنفسهم لله تعالى هم المتصفون
 بالصفات السبع ، والحافظون مع ذلك لجميع حدود الله في كل أمر ونهي ، ويعبر
 عن هذا في عرف هذا العصر بقولهم : « المثل الاعلى » ويطلقونه على الافراد
 النابقين في بعض الفضائل العامة ، وعلى الجماعات والامم الراقية ، ويكنى ان يقال
 فيه « المثل » في كذا . كما قال تعالى (ولما ضرب ابن مريم مثلاً) وقال (وجعلناه
 مثلاً لابي اسرائيل) او يقال : مثل عال ، او مثل شريف . واما الاعلى فهو الله عز
 وجل كما قال عن نفسه (والله المثل الاعلى) وقال (وله المثل الاعلى في السموات
 والارض وهو العزيز الحكيم)

وجملة القول فيهم أنهم الحافظون لجميع حدود الله تعالى . وخصت تلك الخلال
 السبع بالذكر لانها هي التي تمثل في نفس القاريء أكل ما يكون المؤمن به
 محافظاً على حدود الله تعالى

(١١٣) مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ
وَلَوْ كَانُوا أَوْلَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ
(١١٤) وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وََدَّهَا أَبَاهُ،
فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ، إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ
(١١٥) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمُ
مَا يَتَّقُونَ ، إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١٦) إِنْ أَلَّكَ اللَّهُ لَهْ مُنْكَ السَّوَاتِ
وَالْأَرْضِ يُحِبِّي وَيُعِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ

تقدم في الآية الثمانين من هذه السورة ان الله تعالى لا يغفر للمنافقين لانهم
كفروا بالله ورسوله الخ، فاستغفار الرسول لهم وعدمه بيان . وتقدم في سورة النساء
(ان الله لا يغفر أن يشرك به) (٤٨: ٤ و ١١٦) وقد شرع الله المؤمنين في
أوائل سورة الممتحنة التأسي بابراهيم عليه السلام والذين آمنوا معه في البراءة من
قومهم المشركين ومن معبوداتهم واستثنى من هذه الاسوة استغفار ابراهيم
عليه السلام لأبيه فقال (إلا قول ابراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله
من شيء) وقد بين هنا حكم الاستغفار لمن ذكر وفقى عليه بقاعدة التشرع العامة
التي يبنى عليها الجزاء فقال عز وجل

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ هذا نفي بمعنى
النهي، فهو أبلغ من النهي الجرد ، وهذا التعبير فيه يسمي نفي الشأن ، وهو أبلغ
من نفي الشيء نفسه ، لانه نفي معال بالسبب المقتضي له . والمعنى : ما كان من شأن
النبي ولا مما يصح أن يصدر عنه من حيث هو نبي — ولا من شأن المؤمنين
ولا مما يجوز أن يقع منهم من حيث هم مؤمنون — أن يدعوا الله طالبين منه المغفرة
للمشركين (ولو كانوا أولي قربى) لهم في الاصل حق البر وصلة الرحم . وكانت عاطفة

القرابة تقتضي الغيرة عليهم وحب المغفرة لهم «ولو» هذه تفيد انفاية معطوف عليه بحذف حذفاً مطرداً للعلم به ، والمرار انه ليس مما تبديحه النبوة ولا الايمان ولا مما يصح وقوعه من أهلها : الاستغفار للمشر كين في حال من الاحوال، حتى لو كانوا أولى قربي ، فان لم يكونوا كذلك فعدم جوازه أولى . ثم قيد الحكيم بقوله تعالى

﴿ من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم ﴾ أي من بعد ما ظهر لهم بالدلائل أنهم من أهل النار الخالدين فيها بأن ماتوا على شركهم وكفرهم ولو بحسب الظاهر كاستصحاب حالة الكفر الى الموت ، أو نزل وحي يسجل عليهم ذلك كاخباره تعالى عن أناس من الجاحدين المعاندين من أصحاب النار خالدين فيها، أو أنهم طبع قلوبهم وختم عليها . وقوله لرسوله ﷺ (سواء عليهم أن نذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون) ومثله في المنافقين (سواء عليهم أستغفرت لهم) الخ

وقد ورد في الصحيحين وغيرهما ان هذه الآية نزلت في أبي طالب، اذ دعاه صلى الله عليه وسلم عند ما حضره الموت الى قول (لا إله إلا الله) فامتنع وأبى . طالب مات بمكة قبل الهجرة ، فهل نزلت الآية عقب موته ثم لحقت به هذه السورة المدنية لمناسبتها لاحكامها ، أم نزلت مع غيرها من براءة مدينة لحكم استغفار الرسول صلى الله عليه وسلم له ؟ وروي من طرق انها نزلت حين زار ﷺ قبر أمه واستغفر لها (١) والله أعلم . والآية نص في تحريم الدعاء لمن مات على كفره بالمغفرة ولرحمة وكذا وصفه بذلك كقولهم المغفور له المرحوم فلان ، كما يفعله بعض المسلمين الجرافيين الآن ، اعدم تحققهم بمقتضى الايمان ، وتقيدهم بأحكام الاسلام ، ومنهم بعض المعتمدين والحاملين لدرجة العالمية من الازهر أخرج أحمد والبخاري ومسلم والنسائي وغيرهم من حديث سعيد بن المسيب عن أبيه قال : لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة فقال « أي عم : قل لا إله إلا الله ، كلمة أحاج لك بها عند الله » فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية : أترغب عن ملة

(١) راجع هذا البحث في تفسير (٦ : ٣٥) واذا قال ابراهيم لايه آذر) ص

عبد المطلب ؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ويعيدها به بتلك المقالة حتى قال ابو طالب آخر ما كلمهم : على ملة عبد المطلب . وأبى أن يقول لا اله إلا الله . فقال رسول الله ﷺ « والله لأستغفرن لك ما لم أُنْهَ عنك » فأنزل الله (ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين) وأنزل الله في أبي طالب فقال لرسول الله ﷺ (انك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء) هذا لفظ البخاري في تفسير الآية الأخيرة من سورة القصص وأخرجه في تفسير آية براءة وفي الجناز أيضا .

قال الحافظ في شرحه للحديث : ووقع في رواية مجاهد قال : يا ابن أخي ملة الاشياخ . ووقع في حديث أبي حازم عند مسلم والترمذي والطبري قال : لولا أن تعيرني بها قريش يقولون ما حملة على ذلك إلا جزع الموت لأُقررت بها عينك . ثم قال الحافظ وروى الطبري من طريق شبل عن عمرو بن دينار قال قال النبي ﷺ « استغفر إبراهيم لابيه وهو مشرك فلا ازال أستغفر لابي طالب حتى ينهاني عنه ربي » فقال أصحابه لنستغفرن لا بائنا كما استغفر نبينا لعمه ، فنزلت

(قل) وهذا فيه إشكال لان وفاة ابي طالب كانت بمكة قبل الهجرة اتفاقا ، وقد ثبت ان النبي ﷺ أتى قبر امه لما اعتمر فاستأذن ربه ان يستغفر لها فنزلت هذه الآية - والاصل عدم تكرار النزول وقد أخرج الحاكم وابن أبي حاتم من طريق أيوب بن هاني عن مسروق عن ابن مسعود قال خرج رسول الله ﷺ يوما إلى المقابر فاتبعناه فجاء حتى جلس الى قبر منها ففناجاه طويلا ثم بكى فبكينا لبكائه فقال « ان القبر الذي جلست عنده قبر ابي واني استأذنت ربي في الدعاء لها فلم يأذن لي فأنزل علي (ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين) » وأخرج أحمد من حديث ابن بريدة عن ابيه نحوه ، وفيه نزل بنا ونحن معه قريب من ألف راكب ولم يذكر نزول الآية ، وفي رواية الطبري من هذا الوجه لما قدم مكة أتى رسم قبر ومن طريق فضيل بن مرزوق عن عطية لما قدم مكة وقف على قبر أمه حتى سخنت عليه الشمس رجاء ان يؤذن له فيستغفر لها ، فنزلت . وللطبراني من طريق عبد الله بن كيسان عن عكرمة عن ابن عباس نحو حديث ابن

ممسعود وفيه : لما هبط من ثنية عسفان . وفيه نزول الآية في ذلك — فهذه طرق بعضها بعضها وفيها دلالة على تأخير نزول الآية عن وفاة أبي طالب . ويؤيده أيضا أنه ﷺ قال يوم أحد بعد أن شج وجهه «رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون» لكن يحتمل في هذا أن يكون الاستغفار خاصاً بالاحياء وليس البحث فيه — ويحتمل أن يكون نزول الآية تأخر وان كان سببها تقدم ويكون لنزولها سببان متقدم وهو امر أبي طالب ومتأخر وهو امر آمنه، ويؤيد تأخير النزول ما تقدم في تفسير براءة من استغفاره ﷺ للمنافقين حتى نزل النهي عن ذلك، فان ذلك يقتضي تأخير النزول وان تقدم السبب ، ويشير الى ذلك أيضا قوله في حديث الباب «وأنزل الله في أبي طالب (انك لا تهدي من أحببت)» لانه يشعر بأن الآية الاولى نزلت في أبي طالب وفي غيره ، والثانية نزلت فيه وحده ، ويؤيد تعدد السبب ما أخرج أحمد من طريق أبي اسحاق عن أبي الخليل عن علي قال سمعت رجلا يستغفر لوالديه وهما مشركان فذكرت ذلك للنبي ﷺ فأمر الله (ما كان للنبي) الآية وروى الطبري من طريق ابن أبي نجیح عن مجاهد قال قال المؤمنون ألا تستغفر إلا بآثنا كما استغفر إبراهيم لأبيه ؟ فنزلت . ومن طريق قتادة قال ذكرنا له ان رجلا فذكر نحوه . وفي الحديث ان من لم يعمل خيراً قط اذا ختم عمره بشهادة أن لا إله الا الله حكم بإسلامه ، وأجريت عليه احكام المسلمين ، فان قرأ نطق لسانه عمدا قلبه نغمه ذلك عند الله تعالى بشرط أن لا يكون وصل الى حد انقطاع الامل من الحياة وعجز عن فهم الخطاب، ورد الجواب، وهو وقت المعاينة ، واليه الاشارة بقوله تعالى (وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى اذا حضر أحدهم الموت قال اني تبت الآن) والله أعلم اه كلام الحافظ وقد تعددت الروايات في استغفار بعض الصحابة لأبائهم وأولئ قرباهم من المشركين تأسيساً به ﷺ حين استغفر لعمه حتى نزل النهي فكفوا

﴿ وما كان استغفار إبراهيم لأبيه ﴾ مما يدخل في عموم تأسيسكم به على إطلاقه،

فانه ما كان وما وقع لسبب ولا علة ﴿ إلا عن موعدة وعدها إياه ﴾ في حياته

إذ كان يرجو إيمانه فقال له (٤:٦٠) لا أستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء، أي لا أملك لك هداية ولا نجاة وإنما أملك دعاء الله تعالى . وقد وفى بوعده وما كان إلا وفياً كما شهد له تعالى بقوله (و ابراهيم الذي وفى) فكان من دعائه (٢٦: ٨٦) واغفر لابي انه كان من الضالين ٨٧ ولا تحزني يوم يبعثون ٨٨ يوم لا ينفع مال ولا بنون ٨٩ إلا من أتى الله بقلب سليم) أي من الشرك والكفر والشك المقتضي للمفاق ، فمن استغفر لحي يرجو إيمانه يقصد سؤال الله ان يهديه لما يكون به أهلاً للمغفرة فلا بأس

﴿ فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ﴾ قل ابن عباس : لم يزل ابراهيم يستغفر لأبيه حتى مات فلما مات تبين له أنه عدو لله فتبرأ منه . وفي رواية عنه : فلما تبين له أنه عدو لله يقول لما مات على كفره . وقال قتادة تبين له حين مات وعلم أن التوبة انقطعت عنه . وقيل انه تبين له ذلك بوحي من الله تعالى ، فحينئذ تبرأ منه ومن قرابته ، وترك الاستغفار له كما هو مقتضى الايمان (لا تجدوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم) الآية ورد أن ابراهيم بعد من الحزني له يوم القيامة أن يكون أبوه في النار كما رواه البخاري من حديث رؤيته في النار وأنه يقول « يارب انك وعدتني أن لا تحزني يوم يبعثون » فأبي خزي أخزي من أبي الأبعد » فيمسح الله أباه ذبحاً . وهو ذكر الضباع الكثير الشعر - حتى لا يحزني ابراهيم ابنه برؤيته في النار على صورته المعروفة له ولقومه . وقد تقدم لفظ الحديث في قصة ابراهيم مع أبيه من تفسير سورة الانعام (ص ٥٣٩ ج ٧)

﴿ ان ابراهيم لأواه حليم ﴾ هذه الجملة تلوكدة بوصف ابراهيم ﷺ بالمبالاة في خشية الله والخشوع له ، وبالحلم واشبات في أموره كلها ، تعليل لامتناعه عن الاستغفار لأبيه بعد العلم برسوخه في الشرك وعداوة الله عز وجل . الأواه الكثير التأوه والتحسر وإنما يتأوه ابراهيم من خشية الله ويتحسر على المشركين من قومه ولا سيما أبيه ، ويدأق الأواه على الخاشع الكثير الدعاء والتضرع لله - وأصل التأوه قول « أوّه » أو آه (بالكسر منونا وغير منون) أو واه ، أو اوّه ، وفيه

حديث مرفوع في التفسير المأثور «الأواه الخاشع المتضرع» وعن ابن عباس فيه روايات منها أنه المؤمن أو الموقن بلسان الحبشة، والحليم الذي لا يستفز الغضب ولا يعبث به الطيش، ولا يستخفه الجبل أو هوى النفس، ومن لوازمه الصبر والثبات والصفح والتأني في الأمور واتقاء العجلة في كل من الرغب والرهب وذهب الزمخشري إلى أن الجملة تعليل لما كان من استغفاره لآبيه، قل بعد تفسير الأواه بالذي يكسر التأوه: ومعه أنه لفرط ترحمه ورقته وحلمه كان يتعطف على آبيه الكافر ويستغفر له مع شكاسته عليه وقوله (لارجنك) اهـ

﴿وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم﴾ أي وما كان من شأن الله تعالى في حلمه ورحمته، ولا من سننه في خلقه التي هي مظهر عدله وحكمته، أن يصف قوما بالاضلال، ويجري عليهم أحكامه بالذم والعقاب، بعد إذ هداهم إلى الإيمان، وشرح صدورهم بالإسلام، بمجرد قول أو عمل صدر عنهم بخطأ الاجتهاد ﴿حتى يبين لهم ما يتقون﴾ من الأفعال والأفعال، بيانا جليا واضحا لا شبهة فيه ولا إشكال ﴿ان الله بكل شيء عليم﴾ فهو يشرع لهم من الأحكام ما تكمل به فطرتهم، ويستقيم به رأيهم وفهمهم، فيبين لهم مهمات الدين بالنص انقطاع حتى لا يضل فيه اجتهادهم باهواء نفوسهم، ويترك لهم مجالا للاجتهاد فيما دون ذلك من مصالحهم، فهو لهذا لم يؤاخذ إبراهيم في استغفاره لآبيه قبل أن يتبين له حاله، وكذلك لا يؤاخذ النبي والذين آمنوا بما سبق لهم من الاستغفار لوادبهم وأولي القربى منهم قبل هذا التبيين لحكم الله في ذلك، وإن كان من شأنه أن يعلم أنه من لوازم الإيمان، قل مجاهد في تفسير الجملة: بيان الله للمؤمنين في الاستغفار المشركين خاصة، وفي بيان طاعته وموصيته عامة، ما فعلوا أو تركوا. اهـ يعني أن الآية عامة وإن نزلت في مسألة استغفارهم للمشركين. وعن ابن عباس أنها نزلت حين أخذوا الفداء من المشركين يوم الأسارى قال: لم يكن لكم أن تأخذوه حتى يؤذن لكم. ولكن ما كان الله ليعذب قوما بذنب أذنبوه حتى يبين لهم ما يتقون، قال حتى ينههم قبل ذلك اهـ

وأقول الآية من آخره انزول عن غزوة بدر ولكنها شاملة لحكمها فقد تقدم أن أخذ الفداء من الأسرى هو في معنى الاستغفار للمشركين هنا من حيث أنه خلاف ما يقتضيه شأن النبوة والايان لقواه تعالى (ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الارض) فهذا نفي للشأن كنفى الاستغفار هنا. ثم قل تعالى هنالك بعد عتابهم الشديد (لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب أليم) فابن عباس يفسر هذا الكتاب بحكمه تعالى في هذه الآية بأنه لا يحكم بضلال قومه في شيء فيعاقبهم عليه إلا بعد أن يبين لهم ما يتقون بيانا واضحا تاما لا مجال معه للاجتهد الذي يكون عذراً في المخالفة، سواء كانت هذه الآية نزلت وقتئذ أم لا - فهذا حكم الله تعالى .

أخرج ابن المنذر أن عبد الله بن مسعود (رض) كان يخطب أصحابه كل عشيبة خميس ثم يقول : فمن استطاع منكم أن يغدو عالماً أو متعلماً فليفعل ولا يغدو لسوى ذلك ، فان العالم والمتعلم شريكان في الخير . أيها الناس : إني والله ما أخاف عليكم أن تؤخذوا بما لم يبين لكم وقد قل الله تعالى (وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون) فقد بين لكم ما تتقون .

ويؤخذ من هذا كله قاعدة أن أحكام الاسلام العامة التي عليها مدار الجزاء في الآخرة ، ويكلف العمل به كل من بلغه إن كان من الأحكام الشخصية وتؤخذ بها الأمة كلها وينفذه أئمتها وأمرؤها فيها هو ما كان قطعي الدلالة ببيان الله تعالى ورسوله لا حجة معه لأحد في تركه . وإن ما عداها منوط بالاجتهاد ، فمن ظهر له من نص ظني الدلالة حكم واعتقد أنه مراد الله من الآية وجب عليه اتباعه ، ومن لا فلا . كما وقع عند نزول آية البقرة في الخمر والميسر إذ فهم بعض الصحابة من قوله تعالى (وإمهما أكبر من نفعهما) تحريمهما فترك ، وبقي من لم يفهم هذا يشرب الخمر حتى بين الله تحريمهما مع الميسر بآيات المائدة . وأصل مذهب الحنفية أن الفرائض والتحريم الديني لا يثبتان إلا بالنص القطعي أو بنص القرآن القطعي بل هذا ما كان عليه علماء السلف . وتقدم تحقيق المسألة (في ص ٣٧١ ج ١٠ تفسير) والآية تدل على بطلان قول بعض المبتدعة بالمؤاخذه على ما يجب بحكم

العقل كالصدق والأمانة صرح به مفسرهم لمخشري واستثناءه من حكم الآية بأنه غير موقوف على التوقيف « نعم ان حسنه يعلم بالعقل ، ولكن التكليف الذي يبنى عليه جزاء الآخرة لا يصح إلا بالشرع ، كما تدل عليه الآية وغيرها ، وقد أمر الله بالصدق والأمانة وأوجبهما وحرم الكذب والخيانة . كما بين كل ما أراد جعله ديناً للناس . وقد أخبرنا رسول الله ﷺ ان ما سكت عنه فلم يبينه لما فهو عفو منه تعالى غير نسيان، فليس لما ان نسأل عنه ولا أن نضع له احكاما بآراء عقولنا . وقد بسطنا هذه المسألة في تفسير (٥ : ١٠٤ يا أيها الذين امنوا لا تسألوا) الخ (راجع ص ١٣٠ ج ٧) مع الفصل الملحق به (١٣٨) الخ

﴿ ان الله له ملك السموات والارض ﴾ لا شريك له في خلقهما ولا في تدبير شؤونهما ولا في التشريع الديني للمكلفين فهما ﴿ بحجي وبميت ﴾ أي سبب الحياة الحيوانية والحياة المعنوية الروحية بمحض قدرته ومشيئته ومقتضى سننه في التكوين والهداية الفعلية وبميت ما شاء من الابدان بانقضاء آجالها المفدرة في علمه، ومن الانفس بنكوبها عن صراط هدايته ﴿ وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير ﴾ أي وليس لكم أيها المؤمنون أحد غير الله يتولى أمركم ، ولا نصير ينصركم على عدوكم ، فلا تحيدوا عن هدايته فيما نهاكم عنه من الاستغفار لأولي القربى الذين هم أهل الولاية والنصرة من عصياتكم في الانساب. ولا في غير ذلك من أوامره ونواهيها

(١١٧) لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُجْرِمِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ، إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١١٨) وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَافَتْ عَلَيْهِمُ الْآرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَآجَاءَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ، ثُمَّ تَابَ

عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ، إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٩) يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ

هذه الآيات تنمة ما تقدم من موضوع توبة المتخلفين عن غزوة تبوك،
أخرت على سنة القرآن في تفريق الآيات في الموضوع الواحد لأنه أدنى أن لا يسأم
التالي لها في الصلاة وغيرها ، وأفوى في تجديد الذكرى والتأثير في النفس كما يبداه
مراراً ، وهو مناسب لما قبله من النهي عن الاستغفار للمشركين وهو ما يتاب منه

﴿ لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والانصار ﴾ هذا خبر مؤكد بلام
القسم على حرف التحقيق بين به تعالى فضل عطفه على نبيه وأصحابه المؤمنين
الصادقين من المهاجرين والانصار وتجاوزته عن هفواتهم في هذه الغزوة وفي
غيرها ، لاستغراقها في حسناتهم الكثيرة على كونهم لا يصرون على شيء منها ،
وانما كانت هفواتهم هذه مقتضى الطباع البشرية واجتهاد الرأي فيما لم يدينه الله
تعالى لهم ببياناً قطعياً يعد مخالفه عاصياً . وقد بينا في تفسير الآية (١٠٤) أن للتوبة
درجات تختلف باختلاف طبقات التوابين الرجاعين الى الله من كل اعراض عنه .
وتوبته تعالى على عبادته لها معنيان عطفه عليهم . وهذا أعلاهما . وتوفيقهم للتوبة
وقبولها منهم ، وانما يتوبون من ذنب ، وما كل ذنب معصية لله عز وجل ، وقد
فسر ابن عباس التوبة على النبي ﷺ هنا بقوله تعالى في سياق هذه الغزوة (٤٣) عفا
الله عنك - لم أذنت لهم ؟) الآية وحققنا في تفسيرها مسألة ذنوب الانبياء وكونها
من الاجتهاد الذي لم يقرهم الله عليه لان غيره خير منه ^١ وأما المهاجرون والانصار
(رض) وهم خلص المؤمنين ﴿ الذين اتبعوه في ساعة العسرة ﴾ فمنهم من كان
ذنبه التشاغل في الخروج حتى ورد الامر الحتم فيه والتوبخ على التشغل الى الارض ،
ومنهم من كان ذنبهم السماع للمنافقين فيما كانوا يبعثون من فتنة المؤمنين بالقوة
والاستدراك ، وبالفعل

فما العسرة فهي الشدة والضييق . وكانت عسرة في الزاد اذ كانت عند انتهاء فصل الصيف الذي نفذت فيه مؤنتهم من التمر ، وأول فصل الخريف الذي بدأ فيه ارباب الموسم الجديد ولا يمكن حمل شيء منه ، فكان يكتفي الواحد منهم او الاثنان بالتمر الواحدة من التمر القديم ومنه المدود واليابس ، وقد تزود بعضهم أيضا بالشعير المسوس والاهالة الزنخة - وعسرة في الماء حتى كانوا ينحرون البعير على قلة الرواحل ليعتصروا الفرت الذي في كرشه ويلوا به السنتهم - وعسرة في الظاهر حتى كان العشرة يعتقدون بعيراً واحداً - وعسرة في الزمن اذ كان في حرارة القيظ وشدة الحر ، ولعل التعبير بساعة العسرة للتذكير بذلك الوقت العصيب ، قال جابر بن عبد الله (رض) في ساعة العسرة: عسرة الظاهر وعسرة الزاد وعسرة الماء ، وقال ابن عباس لعمر (رضي الله عنهم) حدثنا من شأن ساعة العسرة ، فقال: اخرجنا مع رسول الله ﷺ الى تبوك في قيظ شديد فنزلنا منزلاً فأصابنا فيه عطش شديد حتى ظننا ان رقابنا ستقطع حتى ان كان الرجل لينجر بعيره فيمصر فرثه فيشر به ويجعل مائقي على كبده فقال ابو بكر الصديق (رض) يا رسول الله ان الله قد عودك في الدعاء خيراً فادع لنا ، فرفع يديه فلم يرجعها حتى قات السماء ، فأهطلت ثم سكبت فملأوا ما معهم ، ثم ذهبنا ننظر فلم نجد لهاجاوزت العسكر ، أخرجته ابن جرير وابن خزيمة وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي في دلائلهم والضياع في المختارة

﴿ من بعد ما كاد يزيف قلوب فريق منهم ﴾ أي اتبعوه من بعد ما قرب أن يزيف قلوب فريق منهم عن صراط الاسلام ، بعصيان الرسول حين أمر بالتغير العام ، إذ ثاقل بعضهم عن النفر ووبخهم الله تعالى في الآيات ٣٨ و ٣٩ و ٤٠ * أو المعنى انه تاب على المؤمنين كافة من بعد ما كاد يزيف بعضهم عن الايمان ، والمراد بهم الذين تخلفوا بالفعل منهم لغير علة النفاق ، وهم الذين خلفوا عملاً

(*) راجع تفسيرها في ٤٢٣ - ٤٣٤ ج ١٠

« تفسير القرآن الحكيم » « ٩ » « الجزء الحادي عشر »

صالحاً وآخر سيئاً واعترفوا بذنوبهم ثابتين فقبل الله توبتهم كما تقدم ، وقل هنا فيهم ﴿نم تاب عليهم﴾ وهو الظاهر من العطف بهم ، وأما على التوجيه الآخر فهو تأكيد لما في أول الآية من التوبة على الجميع ﴿انه بهم رؤوف رحيم﴾ وهذا تعليل لقبول توبتهم فالرأفة العناية بالضعيف والرفق به والعطف عليه . والرحمة أعم وأوسع وتقدم تحقيق معناها في تفسير الفاتحة . قرأ (كاد يزئغ) بالياء التحتانية حمزة وحفص ، وقرأها الباقون (تزئغ) بالفوقانية ، والمعنى واحد فيهما إلا ان في هذه من احتمال الاعراب النحوي ما ليس في تلك

﴿وعلى الثلاثة الذين خلفوا﴾ أي وتاب أيضا على الثلاثة الذين خلفوا عن الخروج الى تبوك معه ﷺ وهم المرجون لأمر الله في الآية (١٠٦) او خلفوا بمعنى أرجئوا حتى ينزل فيهم أمر الله ، وهم كعب بن مالك من بني سلمة وهلال ابن أمية من بني واقف ومرارة بن الربيع من بني عمرو بن عوف ﴿حتى اذا ضاقت عليهم الارض بما رحبت﴾ اي خلفوا وأبهم الله أمرهم الى ان شعروا بأن الارض قد ضاقت عليهم برحبها أي بما وسعت من الخلق خوفا من العاقبة وتألما وامتعاضا من إعراض النبي ﷺ والمؤمنين عنهم وهجرهم اياهم في المجالسة والمحادثة والتحية ﴿وضاقت عليهم أنفسهم﴾ اي وضاعت أنفسهم على انفسهم ، وانما كان ذلك بما كانوا يشعرون به من ضيق صدورهم بامتلاء قلوبهم من الهم والغم حتى لا تمتنع فيها شيء من البسط والسرور ، فكأنهم لا يجدون لأنفسهم مكانا تراح اليه وتطمئن به ﴿وظنوا ان لا ملجأ من الله إلا اليه﴾ واعتقدوا انه لا ملجأ لهم من سخط الله ياجئون اليه إلا اليه تعالى بان يتوبوا اليه ويستغفروه ويرجون رحمته فان الرسول ابر الرؤف الرحيم باصحابه ما عاد ينظر اليهم ولا يكلمهم حتى يطلبوا دعاءه واستغفاره ، وهو ﷺ لا يشفع في الدنيا ولا في الآخرة إلا لمن ارتضى الله أن يشفع لهم ﴿نم تاب عليهم﴾ اي بعد ذلك كله عطف تعالى ورجع عليهم وأنزل قبول توبتهم

أو وفقهم للتوبة المقبولة عنده ﷺ ليتوبوا ﷻ ورجعوا اليه بعد إعراضهم عن هدايته
واتباع رسوله ﷺ ﷻ أن الله هو التواب الرحيم ﷻ أنه تعالى هو كثير القبول
لتوبة التائبين، الواسع الرحمة للمحسنين، وتقدم مثله قريباً

وإن العبرة بهذه القصة لا تتم إلا بذكر أصح الروايات وأوسعها في شرح ما بين
الله من حالهم فيها وهو حديث كعب بن مالك (رض)

أخرج أحمد والبخاري ومسلم وأشهر مدوني التفسير المأثور من طريق الزهري
قال أخبرني عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك أن عبد الله بن كعب بن
مالك - وكان قائد كعب من بني حنينة عمي - قال : سمعت كعب بن مالك يحدث
حديثه حين تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك قال كعب لم أخلف عن
رسول الله ﷺ في غزوة غزاها قط إلا في غزوة تبوك غير أنني تخلفت في غزوة
بدر ولم يعاتب أحداً تخلف عنها إنما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون يريدون
غير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد . ولقد شهدت مع رسول
الله ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام وما أحب أن لي بها مشهد بدر ،
وإن كانت بدر أذكر في الناس منها وأشهر ، وكان من خبري حين تخلفت عن
رسول الله ﷺ في غزوة تبوك أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين
تخلفت عنه في تلك الغزوة ، والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما في
تلك الغزوة ، وكان رسول الله ﷺ فلما يريد غزوة إلا ورأى غيرها حتى كانت
تلك الغزوة ، فغزاها رسول الله ﷺ في حر شديد واستقبل سفراً بعيداً ومفازاً ،
واستقبل عدواً كثيراً ، فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم فأخبرهم بوجوههم
الذي يريد والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير لا يجمعهم كتاب حافظ -
يريد الديوان

قال كعب رضي الله عنه : فقل رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك سيخفى
به ما لم ينزل فيه وحي من الله عز وجل . وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين

طابت النمار والظلال ، وانا اليها أصغر ، فتجهز اليها رسول الله ﷺ والمسلمون معه ، وطفقت أغدو لكي تجهز معهم فأرجع ولا أقضي شيئاً ، فأقول لنفسي أنا قادر على ذلك إن أردت ، فلم يزل ذلك يتماذى بي حتى استمر بالناس الحد فأصبح رسول الله ﷺ غاديا والمسلمون معه ، ولم أقض من جهازي شيئاً ، وقلت الجهاز بعد يوم أو يومين نعم الحق ، فغدوت بعد ما فصلوا لا تجهز فرجعت ولم أقض من جهازي شيئاً ، ثم غدت فرجعت ولم أقض شيئاً ، فلم يزل يتماذى بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو ، فهممت ان أرشح فادر كهم ، وايت أني فعلت ، ثم لم يقدر لي ذلك فطفقت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ يحزنني اني لا أرى لي أسوة إلا رجلاً مغموصاً عليه في النفاق ، أو رجلاً ممن عذر الله (١) ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك فقال وهو جالس في القوم بتبوك « ما فعل كعب ابن مالك ؟ » فقال رجل من بني سلمة : يا رسول الله حبسه برداه والنظر في عطفه . فقال له معاذ بن جبل ، بئسما قلت ، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً ، فسكت رسول الله ﷺ

قال كعب بن مالك : فلما بلغني أن رسول الله ﷺ قد توجه قافلاً من تبوك حضرني بني فطفقت أتذكر الكذب وأقول بماذا أخرج من سخطه غداً وأستعين على ذلك بكل ذي رأي من أهلي ، فلما قيل ان رسول الله ﷺ قد أظلم قادمًا زاح عني الباطل حتى عرفت أني لم أنج منه بشيء أبداً ، فأنجمت صدقه ، وأصبح رسول الله ﷺ قادمًا ، وكان اذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع ركعتين ثم جلس للناس ، فلما فعل ذلك جاءه المخلفون فطفقوا يمتدرون اليه ويحلفون له وكانوا بضعا وثمانين رجلاً ، فقبل رسول الله ﷺ منهم علانيتهم ، وبايعهم واستغفر لهم ، ووكل سرائرهم إلى الله ، حتى جئت فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب ثم قل لي « تعال » فجئت أمشي حتى جلست بين يديه فقال لي « ما خلفك ؟ ألم تكن قد اشتريت ظهرك ؟ » فقلت يا رسول الله ، والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر ، لقد أعطيت جدلاً ، ولكني والله لقد

علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى عني به ليوشكن الله يسخطك علي ،
واثن حدثتك بحديث صدق تجد علي فيه ، اني لأرجو فيه عقي من الله ، والله ما كان
لي عذر ، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك . فقال ﷺ «أما
هذا فقد صدق ، فقم حتى يتضي الله فيك » فقامت وبأدري رجال من بني سلمة
واتبعوني فقالوا لي والله ما علمناك كنت أذبت ذنباً قبل هذا ، لقد عجزت أن
لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به المتخلفون فلقد كان كافيك
من ذنبك استغفار رسول الله ﷺ قال فوالله ما زالوا يؤنبوني حتى أردت
أن أرجع إلى رسول الله ﷺ فأكذب نفسي ، ثم قلت لهم هل لقي هذا معي أحد؟
قالوا نعم لقيه معك رجلان قالا ما قلت ، وقيل لهما مثل ما قيل لك فقلت من هما؟
قالوا مرارة بن الربيع وهلال بن أمية الواقفي ، فذكروا لي رجابين صالحين قد
شهدا بدرالي فيهما أسوة ، فضيت حين ذكر وهما لي

قال ونهى رسول الله ﷺ الناس عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من
تخلف عنه فاجتنبنا الناس - أو قال تغيروا لنا - حتى تنكرت لي في نفسي الأرض
فما هي بالأرض التي كنت أعرف ، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة ، فأما صاحباي
فاستكانا وقعدا في بيوتهما . وأما أنا فكنت أشد القوم وأجلدهم ، فكنت أخرج
فاشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف بالأسواق فلا يكلمني أحد ، وآتي رسول
الله ﷺ فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة وأقول في نفسي هل حرك شفتيه
برد السلام أم لا؟ ثم أصلي قريباً منه وأسارقه النظر ، فإذا أقبلت على صلاتي نظر
إلي فإذا التفت نحوه أعرض عني ، حتى إذا طال علي ذلك من هجر المسلمين مشيت
حتى تسورت حائط أبي قتادة - وهو ابن عمي وأحب الناس إلي - فسلمت عليه ،
فوالله ما رد علي السلام . فقلت له يا أبا قتادة انشدك الله تعالى هل تعلم اني احب
الله ورسوله ؟ قال فسكت ، قال فعدت فنشدته فسكت ، فعدت فنشدته . قال الله
ورسوله اعلم . ففاضت عيناي وتوليت حتى تسورت الجدار .

وبينا أنا امشي بسوق المدينة اذا نبطي من أنباط الشام من قدم بطعام
يبيعه بالمدينة يقول من يدل على كعب بن مالك ؟ فطفق الناس يشيرون له إلي

حتى جاءني فدفع إلي كتابا من ملك غسان وكنت كاتباً، فقرأته فإذا فيه :
أما بعد فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفك، ولم يملك الله بدار هوان ولا
مضيعة، فالحق بنا نواسك. فقلت حين قرأتها وهذه أيضاً من البلاء فتيمنت بها
التمور فسجرتها

حتى إذا مضت أربعون ليلة من الحسين إذا برسول رسول الله ﷺ
يأتيني فقال ان رسول الله ﷺ يأمرك أن تعزل امرأتك ، فقلت : أطلقها أم
ماذا أفعل ؟ قال بل اعزلها ولا تقربنها ، وأرسل الى صاحبي مثل ذلك ، فقلت
لا مرأني إلحقي باهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الامر ، فجاءت امرأة
هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت يا رسول الله إن هلالا شيخ ضائع وليس
له خادم فهل تكره أن أخدمه ؟ قال « لا ولكن لا يقربنك » فقالت انه والله مابه
من حركة الى شيء ، والله ما زال يبكي من لدن ان كان من أمرك ما كان الى يومه
هذا ، فقال لي بعض أهلي : لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك فقد أذن
لامرأة هلال أن تخدمه. فقلت والله لا استأذن فيها رسول الله ﷺ وما أدري
ما يقول اذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب ،

قال فلبثنا عشر ليال فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى عن كلامنا ، قال
ثم صليت الفجر صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا ، فبينما أنا جالس على
الحال التي ذكر الله منا قد ضاقت علي نفسي وضاقت علي الأرض بما رحبت سمعت
صارخا أوفى على جبل سلع يقول بأعلى صوته يا كعب بن مالك ابشر ، فخررت
ساجدا وعرفت أن قد جاء الفرج ، فأذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين
صلى الفجر . فذهب الناس يبشروننا وذهب قبل صاحبي مبشرون ، وركض إلي
رجل فرسا وسعى ساع من اسلم قبلي وأوفى على الجبل فكان الصوت أسرع من
الفرس ، فلما جاء الذي سمعت صوته يبشرنني نزعته له ثوبي فكسوتهما إياه ببشارته ،
والله ما ملك غيرهما يومئذ ؟ فاستعرت ثوبين فلبستهما فانطلقت أؤم رسول الله
ﷺ يتلقاني الناس فوجا بعد فوج يهنئوني بالتوبة ويقولون ليهنك توبة الله عليك.
حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله ﷺ جالس في المسجد وحوله الناس ، فقام

إلى طلحة بن عبيد يهرول حتى صاحني وهنأني، والله ما قام إلي رجل من المهاجرين غيره، قال فكان كعب رضي الله عنه لا ينساها لطلحة.

قال كعب رضي الله عنه: فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال وهو يبرق وجهه من السرور «ابشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك» قلت أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ قال «لا بل من عند الله» وكان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه، فلما جلست بين يديه قلت يا رسول الله ان من توبتي أن انخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله ﷺ قال «أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك» فقلت اني أمسك سهمي الذي بخير، وقلت يا رسول الله انما أنجاني الله بالصدق، وان من توبتي أن لا أحدث إلا صدقا ما بقيت، قال فوالله ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه الله من الصدق في الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلاني الله تعالى، والله ما تعدت كلمة منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا كذبا واني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي، وأنزل الله (لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار -- إلى قوله -- وكونوا مع الصادقين) قال كعب فوالله ما أنعم الله علي من نعمة قط بعد أن هداني الله للإسلام أعظم في نفسي من صدقي رسول الله ﷺ يومئذ أن لا أكون كذبتة فأهلك كما هلك الذين كذبوه، فإن الله قال للذين كذبوه حين أنزل الوحي شر ما قال لاحد فقال (سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس -- إلى قوله -- الفاسقين)

قال كعب وكنا خلفنا أيها الثلاثة عن أمر أوائك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا فبايعهم واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه فلذلك قال الله (وعلى الثلاثة الذين خلفوا) وليس الذي ذكر مما خلفنا تخلفنا عن الغزو وإنما هو تخليفه إيانا وأرجأه أمرنا عن حلف له واعتذر إليه فقبل منه اه (أقول) ان في هذه القصة لا كبر عبرة تفيض لها عبرات المؤمنين، وتخضع لها قلوب المؤمنين، وكان الامام احمد لا يبكيه شيء من القرآن كما تبكيه هذه الآيات وحديث كعب في تفصيل خبرهم فيها. وأي مؤمن يملك عينيه أن تفيض من الدمع، وقلبه

أن يحف ويرجف من الخوف اذا قرأ او سمع هذا الخبر ، وتأمل ما فيه من العبر ، التي لا يمكن بسطها إلا في كتاب مستقل ، ولا ادري ما عسى أن ينال من قسوة قلوب المقلدين ، وجهل المغرورين ، الذين يقتفون الفواحش والمنكرات ، ويتركون الفرائض والواجبات ، ويصرون على ما فعلوا وهم يعلمون . فلا يتوبون ولا هم يذكرون ، وإذا وعظهم واعظ أو ذكرهم مذكر ، وجد اللابسين لباس الاسلام منهم بين جازم بالمغفرة والعفو عنه ، وبين متسكل على شفاعة الشافعين له ، ومنهم من يحفظ من أخبار المكفرات للذنوب ما لا يصح له سند ، ولا يستقيم له على أصول الدين متن ، وما له أصل من هذه الاخبار يراد به تكفير الصغار ، بشرط اجتناب الكبائر ، لقوله تعالى (إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وما كان العمل الصالح فيه مقرونا بالتوبة أخذاً من قوله تعالى (١٦ : ١١٩) ثم ان ربك للذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا . ان ربك من بعدها لغفور رحيم) وتقدم بيان هذه المسألة في مواضع (آخرها ص ١٧٥ ج ١٠)

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ﴾ باتباع ما أمر به بقدر الاستطاعة ، وترك ما نهى عنه وبين تحريمه مطلقاً ﴿ وكونوا مع الصادقين ﴾ أي مع جماعة الصادقين او منهم (وفاقاً لقراءة ابن مسعود وقد تكون تفسيراً) دون المنافقين الذين يتصلون من ذنوبهم بالكذب ويؤيدونه بالخلف . والصادقون هم المعتصمون بالصدق والاخلاص في جهادهم إذا جاهدوا ، وفي عهودهم إذا عاهدوا ، وفي أقوالهم ووعودهم إذا حدثوا ووعدوا ، وفي توبتهم إذا أذنبوا أو قصرُوا والمنافقون ضدهم في ذلك وغيره

تقدم في آخر حديث كعب بن مالك المتفق عليه ان هذه الآية نزلت فيه وفي أصحابه بما صدقوا رسول الله ﷺ ولم ينتحلوا لأنفسهم عذراً كاذباً في التخلف عن النفر معه . وبه قال نافع والسدي . وقال عبد الله بن عمر [رض] (وكونوا مع الصادقين) مع محمد ﷺ وأصحابه . وقال سعيد بن جبير والضحاك : مع أبي بكر وعمر - وابن عباس وأبو جعفر : مع علي . والحق انها عامة كما قال ابن عمر في عهده ، ومثله

يقال في الصادقين من بعده ، وان الثلاثة الذين نزلت في قصتهم يدخلون في عمومها دخولا أولياً . وان أبا بكر وعمر وعلياً أفضل من هؤلاء الثلاثة وأعرق في الصدق وأكمل . ولكني أئتم من الروايتين رائحة وضع النواصب والروافض ، وقيل ان المراد بالصادقين المهاجرون وان أبا بكر احتج بالآية على الانصار يوم السقيفة . وهذا القول لا وجه له والاحتجاج به لا يصح ، ووجهه القائلون به بانه جعل الصادقين هنا هم الصادقين في آية سورة الحشر (٨٩ : ٩) للفقراء المهاجرين - الى قوله - . اولئك هم الصادقون) ومقتضاه أن يكون هذا الوصف خاصاً بالمهاجرين حيث وجد في القرآن معرّفاً كآية (٤٩ : ١٥) إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله - الى قوله - . اولئك هم الصادقون) وقوله (ليسأل الصادقين - ليجزي الله الصادقين) وغيرهن - وهو باطل ولم يقل به أحد ، ومع هذا لا يدل على وجوب اتباع الانصار وغيرهم لهم في الامامة كما قال الطوفي

أخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وأشهر رواة التفسير والبيهقي في الشعب عن عبد الله بن مسعود (رض) لا يصالح الكاذب في جد ولا هزل ، ولا يعبد أحدكم صبيه شيئاً ثم لا ينجزه ، اقرؤا إن شئتم (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) فهل تجدون لأحد رخصة في الكذب ؟ وأخرجه عنه الحاكم وصححه ، والبيهقي مرفوعاً الى النبي ﷺ ، بلهظ « ان الكاذب لا يصالح منه جد ولا هزل ، ولا يعبد الرجل ابنه ثم لا ينجزه له ، ان الصدق يهدي الى البر ، وان البر يهدي الى الجنة ، وان الكاذب يهدي الى الفجور ، وان الفجور يهدي الى النار ، انه يقال للصادق : صدق وبر ، ويقال للكاذب : كذب وفجر . وان الرجل - ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً ، ويكذب حتى يكتب عند الله كذاباً » وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عنه قال قال رسول الله ﷺ « عليكم بالصدق فان الصدق يهدي الى البر وان الرجل ليصدق - الخ ما تقدم آنفاً - وإياكم والكذب فان الكذب يهدي الى الفجور ، وان الرجل ليكذب - الخ ما تقدم فيما قبله - والاحاديث في فضيلة الصدق ورذيلة الكذب وكونها من صفات المنافقين كثيرة تقدم بعضها ، وفي روايات عديدة « ان المؤمن قد يطبع على كل

خالق إلا الكذب والخيانة» وأنه لا رخصة في الكذب إلا لضرورة من خديعة حرب أو إصلاح بين اثنين أو رجل يحدث امرأته ليرضها — يعني في مثل التعجب اليها بوصف محاسنها ورضاه عنها، لا في مصالح الدار والعيال وغيرها، والرواية في هذا على علاتها تقيد بحديث « أن في المعاريض لمندوحة عن الكذب — وفي رواية — ما يعني الرجل العاقل عن الكذب » روى ابن عدي الأول عن عمران ابن حصين والثاني عن علي رضي الله عنهما

(١٢٠) مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ *

(١٢١) وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ

هاتان الآيتان في تأكيد وجوب الغزو مع رسول الله ﷺ وما فيه من الأجر العظيم، وحظر تخلف أحد عنه إلا بإذنه، بما فيه من تفضيل أنفسهم على نفسه

﴿ ما كان لأهل المدينة ﴾ ما كان بالذي يصح لأهل المدينة عاصمة الاسلام ومقر

الرسول ﷺ ولا بالذي يستقيم أو يحل لهم ﴿ ومن حولهم من الاعراب ﴾ كمزينة

وجبهة وأشجع وأسلم وغفار ﴿ أن يتخلفوا عن رسول الله ﴾ إذا خرج غازيا في سبيل الله كما فعل بعضهم في غزوة تبوك ولا في غير هذا من أمور الملة ومصالح الامة

﴿ ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ﴾ أي ولا ان يفضلوا أنفسهم على نفسه فيصونوها ويرغبوا بإثارتها وسلامتها عن بذلها فيما يبذل فيه نفسه الشريفة القدسية

من احتمال الجهد والمشقة في سبيل الله عز وجل . يقال رغب في الشيء إذا أحبه وآثره ، ورغب عنه إذا كرهه وأعرض عنه ، وقد جمع هنا بينهما بهذه العبارة المؤثرة الدالة على أن المتخلف يفضل نفسه ويؤثرها على نفس رسول الله ﷺ التي لا يكمل إيمان أحد حتى يحبه أكثر من حبه لنفسه ، وهذا يصح بعده ﷺ في كل راغب عن سنته والتأسي به ، كلما لحددة الذين يقولون لا يجب اتباعه بعد موته ، والمبتدعة والمقلدة الذين يؤثرون بدعهم ومذاهبهم على سنته

قال الزمخشري - ونعم ما قال : أمروا أن يصحبوه على البأساء والضراء ، وأن يكابدوا معه الأهوال برغبة ونشاط واغترباط ، وإن يلقوا أنفسهم من الشدائد ماتلقاه نفسه ، علما بأنها أعز نفس على الله وأكرمها . فإذا تعرضت مع كرامتها وعزتها للخوض في شدة وهول وجب على سائر الأنفس أن تنهافت فيما تعرضت له ولا يكثر لها أصحابها ولا يقيمون لها وزناً ، وتكون أخف شيء عليهم وأهونه ، فضلاً عن أن يربوا بأنفسهم عن متابعتها ومصاحبها ، ويضنوا بها على ما سمح بنفسه عليه . وهذا نهى بليغ مع تقبيح لامرهم ، وتوبيخ لهم عليه ، وتوبيخ لمتابعته بأنفة وحمية اه

ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ﷻ أي ذلك الذي دل عليه النفي من النهي عن التخلف عنه ، ووجوب الاتباع له ، بسبب أن كل ما يصيبهم في جهادهم من أذى وإن قل ، ومن إيذاء لعدو وإن صغر ، فهو عمل صالح لهم به أكبر الاجر ، فلا يصيبهم ظمأ لقلّة الماء - أو نصب لبعْد الشقة أو قلة الظهر - أو مخمصة الزاد -

في سبيل إعلاء كلمة الله وإعزاز دينه ﷻ ولا يطأون موطئاً يغيظ الكفار ﷻ وطؤهم إياه لانه من دارهم ، ويعدون وطأه اعتداء عليهم واستهانة بقوتهم ، فيغيظهم أن تمسه أقدام المؤمنين أو حوافر خيولهم وأخفاف رواحلهم ، فكيف إذا يسر الله فتحه لهم

ولا ينالون من عدو نيلاً ﷻ أي ولا يبلغون من أي عدو من أعداء الله ورسوله

شيئاً ما أرادوا من جرح أو قتل أو أمر أو هزيمة أو غنيمة ﷻ إلا كتب لهم به عمل صالح ﷻ أي كتب لهم بكل واحد مما ذكر عمل صالح مرضي لله تعالى مجزي عليه بالثواب العظيم ، فما أكثر هذه الاعمال الصالحات التي تعم الامور العارضة كالجوع

٧٦ جزاء الجهاد احسن الجزاء اذ يكون احسن الاعمال التفسير : ج ١

والعطش ، وتشمل كل حركة من بطشة يد أو وطئة قدم ؟ ﴿ ان الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ هذا تمايل لهذا الاجر العظيم يدل على عموم الحكم ، وإن كان من المعلوم بالضرورة ان هذا الجهاد مع رسول الله ﷺ أعظم أجراً ، وأنفس ذخراً ، قال قتادة : ان حكم الآية خاص به ﷺ وبمن جاهد معه ، وقال الاوزاعي وعبد الله بن المبارك وغيرهما من علماء التابعين : هذه الآية للمسلمين الى ان تقوم الساعة . وهذا القول اصح ، على ما لا يخفى من التفاوت في الاجر ، فالجهاد في سبيل الله احسان ، و (هل جزاء الاحسان إلا الاحسان) ؟ في كل زمان ومكان

﴿ ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم ﴾ أي كذلك شأنهم فيما ينفقون في سبيل الله صغر أم كبير ، قل أم كثير ، وفي كل واد يقطعونه في سيرهم غادين أو راحلين (وهو مسيل الماء في منفرجات الجبال وأنغوار الآكام ، خصه بالذكر لما فيه من المشقة) لا يترك شيء منه أو ينسى بل يكتب لهم ﴿ ليجزيهم الله ﴾ بكتابته في صحف أعمالهم ﴿ احسن ما كانوا يعملون ﴾ وهو الجهاد ، فانه عند وجوبه وفرضيته بالاستنفار له يكون احسن الاعمال ، اذ يتوقف عليه حفظ الايمان ، وملاك الاسلام ، وجميع ما يتبعهما من فضائل الاعمال ، يقال جزاء العمل وجزاه به . كما قال (ثم يجزاه الجزاء الأوفى) والنص على جزائهم احسن ما كانوا يعملون لا ينافي جزاءهم بما دونه وقد قل آنفاً (ان الله لا يضيع أجر المحسنين) وهو فيه ، وانما المراد النص على أن هذا العمل احسن أعمالهم أو من أحسنها لانه جمع بين الجهاد بالمال والجهاد بالنفس وما قبله من الثاني فقط ، والجزاء على الاحسن يكون احسن منه على قاعدة (من جاء بالحسنة فله خير منها) وبيان ذلك بقاعدة (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) وقال بعضهم إن معنى الجملة أنه تعالى يجزيهم بكل عمل مما ذكر احسن جزاء على أعمالهم الحسنة ، أي في غير الجهاد بالمال والنفس ، بأن تكون النفقة الصغيرة فيه كالنفقة الكبيرة في غيره من المبرات ، والمشقة القليلة فيه كالمشقة الكثيرة فيما عداه من الاعمال الصالحات .

(١٢٢) وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً ، فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ

هذه الآية من تنمة أحكام الجهاد بالقتال، مع زيادة حكم طلب العلم والتفقه في الدين وهو آلة الجهاد بالحجة والبرهان، الذي عليه مدار الدعوة إلى الإيمان، وإقامة دعائم الإسلام، وإنما جهاد السيف حماية وسياس. وسببها أن ما ورد في فضل الجهاد وثوابه وفي ذم القاعدين عنه وكونه من شأن المنافقين دون المؤمنين الصادقين، قوى رغبة المؤمنين فيه حتى كانوا إذا أراد الرسول ﷺ إرسال سرية للقاء بعض المشركين وإن قتلوا ينتدب لها جميع المؤمنين ويتسابقون إلى الخروج فيها، ويدعون الرسول ﷺ وحده أو مع نفر قليل كما ورد، وإنما يجب هذا في النفير العام إذا وجد سببه بقدر الحاجة لا في كل استنفار لمقاومة الكفار، على أن النفير العام قد يتعذر أو تكثر فيه الأعذار، وقيل أنه لم يكن واجبا على عمومهم إلا في عهده ﷺ أو على الانصار بمقتضى مبايعتهم له (راجع ص ٣٠٨ ج ١٠)

﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافة ﴾ أي ما كان شأن المؤمنين ولا مما يجب عليهم ويطلب منهم، أن ينفروا جميعاً في كل سرية تخرج للجهاد، فإن هذه السرايا من فروع الكفاية لا من فروع الأعيان، وإنما يجب ذلك إذا خرج الرسول واستنفرهم للخروج ﴿ فلولا نفر من كل فرقة ﴾ لولا حرف تخفيض وحث

على ما تدخل عليه، أي فهلا نفر للقتال من كل فرقة كبيرة ﴿ منهم ﴾ كالقبيلة أو أهل المدينة ﴿ طائفة ﴾ أي جماعة بقدر الحاجة ﴿ ليتفقهوا في الدين ﴾ أي ليتأتى لهم أي المؤمنين في جملتهم التفقه في الدين بأن يتكلف الباقيون في المدينة الفقهاء في الدين بما يتجدد نزوله على الرسول ﷺ من الآيات، وما يجري عليه ﷺ

من بيانها بالقول والعمل ، فيعرف الحكم مع حكمته ، ويفصل العلم المجمل بالعمل به .

﴿ ولينذروا قومهم ﴾ الذين نفروا للقاء العدو ﴿ اذا رجعوا اليهم ﴾ أي يجعلوا
جل همهم من الفقاهاة بأنفسهم ارشاد هؤلاء وتعليمهم ما علموا ، وانذارهم عاقبة

الجهل ، وترك العمل بالعلم ﴿ لعلمهم يحذرون ﴾ أي رجاء أن يخافوا الله ويحذروا
عاقبة عصيانهم . ويكون جميع المؤمنين علماء بدينهم قادرين على نشر دعوته ، وإقامة
حجته ، وتعميم هدايته ، فهذا ما يجب أن يكون غاية العلم والتفقه في الدين والغرض
منه ، لا الرياسة والعلو بالمناصب ، والتكبر على الناس وطلب المنافع الشخصية منهم .

والآية تدل على وجوب تعميم العلم والتفقه في الدين والاستعداد لتعليمه في
مواطن الإقامة وتفقيه الناس فيه على الوجه الذي يصلح به حالهم ، ويكونون به هداة
لغيرهم ، وإن المتخصصين لهذا التفقه بهذه النية ، لا يقلون في الدرجة عند الله عن
المجاهدين بالمال والنفس لأعلاء كلمة الله والدفاع عن الملة والامة . بل هم أفضل منهم في
غير الحال التي يكون فيها الدفاع فرضاً عينياً والدلائل على هذا كثيرة ، وما قاله
بعض الأصوليين من دلالة الآية على الاحتجاج بخبر الواحد متكافئ بعيد عن
معنى النظم الكريم ، ومبني على أن لفظ طائفة يطابق على الواحد كاقيل وهو باطل
كنت أطلب العلم في طرابلس وكان حاكمها الإداري (المتصرف) فيها

مصطفى باشا بابان من سروات الكرد ، وكان من أهل العلم والفقه في مذهب
الشافعية ، وقد قال لي مرة في دارنا بالقلمون : لماذا تستثني الدولة العلماء وطلاب
العلوم الدينية من خدمة العسكرية وهي واجبة شرعاً وهم أولى الناس بالقيام بهذا
الواجب ؟ - يعرض بي - أليس هذا خطأ لأصل له في الشرع ؟ فقلت له على
البداهة بل لهذا أصل في نص القرآن الكريم وتلوت الآية ، فاستكثر الجواب
على مبتدئي مثلي لم يقرأ التفسير وأثنى ودعا . وقد تعارضت الروايات المأثورة في
هذه الآية فاختلفت الأقوال في تفسيرها والحق فيها ما قلنا وعليه الجمهور

أخرج أبو داود في ناسخه ، وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن
عباس (رض) قل نسخ هؤلاء الآيات (انفروا خفافاً وثقالاً - وإلا تنفروا

يعذبكم عذاباً أليماً) قوله (وما كان المؤمنون لينفروا كافة) يقول لتنفرد طائفة ولتمكث طائفة مع رسول الله ﷺ فلما كثون مع رسول الله ﷺ هم الذين يتفقهون في الدين وينذرون اخوانهم اذا رجعوا اليهم من الغزو لعلمهم يحذرون ما نزل من بعدهم من قضاء الله في كتابه وحدوده .

واخرج ابن المنذر وابن ابي حاتم وابن مردويه والبيهقي في المدخل عنه في الآية : يعني ما كان المؤمنون لينفروا جميعاً ويتركوا النبي ﷺ وحده - فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة يعني عصابة يعني السرايا فلا يسرون الا باذنه . فذا رجعت السرايا وقد نزل قرآن تعلمه القاعدون من النبي ﷺ قالوا ان الله أنزل على نبيكم بعدكم قرآناً وقد تعلمناه فتمكث السرايا يتعلمون ما أنزل الله على نبيهم ﷺ بعدهم ، ويبعث سرايا آخر ، فذلك قوله (ليتفقهوا في الدين) يقول يتعلمون ما أنزل الله على نبيهم ويعلمونه السرايا إذا رجعت اليهم (لعلمهم يحذرون)

فاما قوله في الرواية الأولى بان هذه الآية نسخت آيات التنفير العام فهو قد يوافق إطلاق السلف في النسخ ومنه عندهم تخصيص العام وتقبيد المطلق ، ولا يصح هنا النسخ المصطلح عليه في اصول الفقه ، لان موضع التنفير الخاص غير موضع التنفير العام ، فلا تنافي بين الاحكام . وبهذا يقول جمهور العلماء

وأخرج ابن جرير عن الحسن البصري انه جعل الضمير في قوله تعالى (ليتفقهوا في الدين) للطائفة التي تنفر للغزو لا للتي تبقى مع النبي ﷺ في المدينة وذلك قوله : ليتفقه الذين خرجوا بما يريهم الله من الظهور على المشركين والنصرة وينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم . وزعم الطبري ان هذا القول أولى بالصواب ، وأوضح ذلك بأن هذه الطائفة النافذة تتفقه بما تعان من نصر الله اهل دينه وأصحاب رسوله على أهل عداوته والكفر به فيفقه بذلك من معاينة حقيقة علم أمر الاسلام وظهوره على الأديان من لم يكن فقهه (ولا ينذروا قومهم) فيحذروهم أن ينزل بهم من بأس الله مثل الذي نزل بمن شاهدوا ممن ظفر بهم المسلمون من أهل الشرك (إذا) هم (رجعوا اليهم) من غزوهم (لعلمهم يحذرون) يقول لعل قومهم إذا هم حذروهم ما عاينوا من ذلك يحذرون فيؤمنون بالله ورسوله حذراً أن ينزل بهم ما نزل

بالذين أخبروهم خبرهم اه وهذا تاويل متكلف يذبو عنه النظم الكريم فان اعتبار طائفة السرية بما قد يحصل لها من النصر - وهو غير مضمون ولا مطرد - لا يسمى تفقها في الدين وإن كان يدخل في عموم معنى الفقه ، فان التفقه هو التعلم الذي يكون بالتكلف والتدرج والمتبادر من الدين علمه . ولا يصح هذا المعنى في ذلك العهد إلا في الذين يبقون مع النبي ﷺ فيزدادون كل يوم علما وفقها بنزول القرآن كما تقدم آنفا في تفسير (وأجدر أن لا يعلموا حدود ما انزل الله) وما يأتي قريبا فيما ينزل من السور فيزداد به الذين آمنوا إيماناً . واخذ بعضهم من قول الحسن أنه يشمل السفر لاجل طلب العلم لما في الرحلة من اسباب زيادة الاستفادة بالانقطاع للعالم ولقاء اساطينه ، وعمل بعضهم فضيلة لسياحة بذلك كما تقدم قريبا وقد بينا معنى الفقه في عرف اللغة واستعمال القرآن ، وانه اخص من العلم بفروع الاحكام ، وحققناه بشواهد الآيات في تفسير (٧ : ١٧٩) لهم قلوب لا يفقهون بها) - (صفحة ٤٢٠ ج ٩ تفسير)

(١٢٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ

اعلم أن هذه الآية قاعدة من قواعد القتال الذي نزلت أهم قواعده وأحكامه في هذه السورة والتي قبلها ، وانما وضعت ههنا على سنة القرآن في تفريق الموضوع الواحد الكثير الاحكام في مواضع متفرقة وبيننا حكمته آنفاً عوداً على بدء

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ ﴾ اي الذين يدنون منكم وتتصل بلادهم ببلادكم ، وذلك ان القتال شرع لتأمين الدعوة إلى الاسلام وحرية الدين والدفاع عن أهله ، وقد كانت الدعوة موجهة الى الاقرب فالاقرب من الكفار كما قال تعالى لرسوله (لننذراهم القرى ومن حولها) وقال لاهل مكة (واوحى هذا القرآن لاندركم به ومن بلغ) اي وكل من بلغته دعوته . بل أمره أن يخص

التوبة: س ٩ الغلظة في القتال ولا سيما في هذا العصر ومعية الله للمتقين بالنصر ٨١

الأقرب إليه في النسب من أهل بلده أم القرى قل (واذر عشيرتك الأقربين)
أخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد في الآية قل : كان الذين يلونه من الكفار
العرب فقاتلهم حتى فرغ منهم - وعن قتادة قال : الادي فلادنى - وأخرج
ابن مردويه عن ابن عمر انه سئل عن غزو الديلم فقال سمعت رسول الله ﷺ
يقول (قاتلوا الذين يلونكم من الكفار) قل « الروم » اه يعني ان الروم هم
المراد بالكفار في الآية لانهم كانوا عند نزولها في هذه السورة بعد الفراغ من أمر
يهود المدينة وخيرهم الذين يلونهم في تبوك وسائر بلاد الشام

ورجيج البدء بالأقرب فالأقرب معقول من وجوه كثيرة كالحاجة والامكان
والسهولة والنفقة ، ولذلك كانت القاعدة فيه عامة في الدعوة والقتال والنفقات
والصدقات ، وكذا ما يدار في المجاس من شراب ونحوه فكان ﷺ يعطي من
على يمينه وإن لم يكن أفضل الجالسين ثم الذي يليه فالذي يليه ، وأمر بان يأكل الانسان
من يمينه . وانما تطرد القاعدة في الحالة العادية . وأما ما يعرض من ضرورة في كل
ذلك فله حكمه فاحكام الضرورات مستثناة في الواجبات والمحرمات والآداب .

﴿ وليجدوا فيكم غلظة ﴾ أي وليجدوا فيكم شدة وخشونة في القتال ومتعلقاته كما
تقدم في تفسير آية (٧٣) يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم (ص
٥٤٩ ج ١٠) والغلظة على المقاتلين في زمن الحرب من مقتضيات الطبيعة والمصلحة
وتنكيرها في الآية يدل على ان لأولي الامر أن يحدوها في كل زمن وكل حال
بما يتفق مع المصلحة ، وانما أمروا بها على كونها طبيعية لتقييد أمروا به في الاحوال
العامة من الرفق والعدل والبر في معاملة الكفار حتى صار ذلك من أخلاق الاسلام .
وامر القتل مبني على الشدة والغلظة في كل الامم وقد حرم فظائعها الاسلام
كما تقدم في تفسير سورة الانفال . وقد بلغت فظائعها عند الافرنج في هذا العصر

ما يخشى ان ينضي الى تدمير العمران كله ﴿ واعلموا ان الله مع المتقين ﴾ له في
مراعاة أحكامه وسننه بالمعونة والنصر ، وأهمها ما يجب اتقاؤه في الحرب ، من
التقصير في أسباب النصر والغلب ، التي بينها في كتابه ، والتي تعرف بالعلم
والتجارب . كاعداد ما استطاع من قوة ، والصبر والثبات ، والطاعة والنظام ،

وترك التنازع والاختلاف ، وكثرة ذكر الله ، والتوكل عليه فيما وراء الاسباب .
وقد بينا حقيقة معنى التقوى وانواعها واختلاف المراد منها باختلاف مواضعها في
تفسير (٨ : ٢٩ ص ٦٤٨ ج ٩)

(١٢٤) وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ، فَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ
إِيمَانًا؟ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٥) وَأَمَّا
الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ
كَافِرُونَ (١٢٦) أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ
ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ (١٢٧) وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ
بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ : هَلْ يَرَيْنَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا، صَرَفَ اللَّهُ
قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ

هذه الآيات الأربع آخر منازل في المنافقين، وتأثير نزول القرآن فيهم وفي
المؤمنين ، ومن قام الدليل على اليأس من إيمانهم ، واخبار الله بموتهم على كفرهم

﴿ وإذا ما أنزلت سورة ﴾ كلمة « ما » بعد « إذا » تفيد التأكيـد لمضمون
شرطها، يعني وإذا تحقق انزال الله تعالى على رسوله سورة من القرآن ﴿ فمنهم من ﴾
يقول أيكم زادته هذه إيماناً ﴿ أي ﴾ فمن المنافقين من يتساءل مع اخوانه الاختبار،
أو مع من يلقاه من المسلمين كافة للتشكيك، قائلًا أيكم زادته هذه السورة إيماناً ؟
أي يقيناً بحقية القرآن والاسلام ، وصدق الرسول ﷺ فإن في كل سورة من
القرآن آيات على صدقه ﷺ بما فيها من ضروب الاعجاز العامة الدالة على انها
من عند الله تعالى ، وكون محمد ﷺ لا يستطيع ان يأتي بمثلها من تلقاء نفسه ،
فالسؤال عن الايمان باصل الاسلام وصدق الرسول (ص) في تبليغه عن الله عز وجل .
وهو التصديق الجازم المقترن باذعان النفس وخضوع الوجدان الذي يستلزم العمل ،

لا مجرد اعتقاد صدق الخبر ، الذي يقابله اعتقاد كذبه ، فإن أشد الناس كفراً أولئك المصدقون الجاحدون الذين قال الله لرسوله فيهم (فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) ومثله قوله (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً) ولا شك أن الإيمان بمعناه الذي قلناه يزيد بنزول القرآن في عهد الرسول وناهيك بمن يحضر نزوله عليه ويسمعه منه ، وكذا يزيد بتلاوته وسماعه من غيره أيضاً ثبات في قلب المؤمن وقوة أذعان ، وصدق وجدان ، ورغبة في العمل والتقرب من الله . قال الله تعالى في جواب هذا السؤال وهو العليم الخبير ﴿فما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً﴾ فثبت تعالى للمؤمن زيادة الإيمان بزيادة نزول القرآن وهو يشمل الزيادة في حقيقة وصفته من اليقين والأذعان وأطمئنان القلب ، وفي متعلقه وهو ما في السورة من مسائل العلم ، وفي أثره من العمل والتقرب إلى الرب . وإنما يتساءل المنافقون عن الأول وهو الذي يفقدونه ، وإنما غيره تابع له . ﴿وهم يستبشرون﴾ أي والحال أنهم يسرون بنزولها وتستدعي زيادة الإيمان في قلوبهم البشري والارتياح بما يرجون من خير هذه الزيادة بتزكية أنفسهم ، وأثر ذلك في أعمالهم في الدنيا والآخرة ﴿وأما الذين في قلوبهم مرض﴾ أي شك وارتياح ، يدعو إلى النفاق بإسرار الكفر وإظهار الإسلام ﴿فزادتهم رجساً إلى رجسهم﴾ أي كفراً ونفاقاً مضموماً إلى كفرهم ونفاقهم السابق الذي هو اقتران الرجس النفسي وشر أنواعه ﴿وماتوا وهم كافرون﴾ أي واستحوذ ذلك عليهم ورسخ فيهم ، فكان مقتضى سنة الله تعالى في تأثير الأعمال في صفات النفس أن من مات منهم مات على كفره ، وسيموت من بقي منهم وهم متلبسون بالكفر . وهاك الدليل على ذلك :

﴿ولا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين﴾ الاستفهام لتقرير مضمون الحكم عليهم والحجة عليه وهو داخل على فعل محذوف لاعلم به من المقام ، والمعنى أيجهلون هذا ويغفلون عن حالهم فيما يعرض لهم عاماً بعد عام من تكرار الفتون والاختبار ، الذي يظهر به استعداد النفس للإيمان أو الكفر ، والتمييز بين الحق والباطل ،

٨٤ كراهة المنافقين لسماع القرآن من النبي (ص) وانصرافهم عنه التفسير: ج ١١

كآيات الدالة على صدق الرسول ﷺ في كل ما أخبر به من نصر الله له ولمن اتبعه ،
وخذلان أعدائه من الكفار والمنافقين ووقوع ما أنذرهم ، ومن إنباء الله رسوله
بما في قلوبهم ، وفضيحتهم بما يسرون من أعمالهم ، كما فصل في هذه السورة وذكر بعضه في
غيرها — وقرأ حمزة ويعقوب (او لا ترون) على ان الخطاب المؤمنين الذين قد
يروعهم الخبر المؤكد وقوعه بموتهم على كفرهم ، كأنه يقول أتعجبون من الحكم
عليهم بهذه العاقبة السوءى ولا ترون الدلائل الدالة عليها من فتنتهم وابتلائهم
المرّة بعد المرة سنة بعد سنة ، بما من شأنه ان يذهب بشكهم ويشفي مرض قلوبهم ،
من آيات الله فيهم وفي غيرهم ﴿ ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون ﴾ أي نعم تمر
الاعوام على ذلك ولا يتوبون من نفاقهم ، ولا يتعظون بما حلّ بهم مما أنذرهم
الله تعالى به ، وهل بعد هذا من برهان على انطفاء نور الفطرة والاستعداد
الايمان أقوى من هذا ؟ ان كان وراءه برهان أقوى منه فهو أنهم يفرون من
العلاج الذي من شأنه أن يشفيهم من مرض قلوبهم وهو ما أكد به ما قبله بقوله :

﴿ واذا ما انزلت سورة نظر بعضهم الى بعض ﴾ هذا بيان لحل المنافقين
الذين كانوا يكونون في مجلس الرسول (ص) عند نزول سورة وما يكون من فعلهم
وقوله عند تلاوته لها ، وما قبلها في بيان حالهم اذا بلغهم نزول سورة من حيث
البحث عن تأثيرها ، وقد يقال ان الاولى تشمل من سمع منه ومن باغ عنه ،
والعبرة بموضوعها ، لا بطريقة العلم بها ، وان هذه أدل على رسوخهم في الكفر
وعدم الطمع في رجوعهم عنه ، بثباتها انهم يكرهون سماع القرآن من الرسول
ﷺ وهو اشد تأثيراً من سماعه من غيره في الهداية ، ولذلك كان المشركون
يمنعونه من تلاوته على الناس لئلا يهتدوا بسماعه منه ، فان لم يتمكنوا من اسكاته
اعرضوا عن سماعه ولغوا فيه . ومنعوا صاحبه الصديق أيضاً من الصلاة في المسجد
الحرام ثم من مسجده الخاص لا رأوا النساء والصبيان مجتمعين لسماع القرآن منه
ويتأثرون بنخشوعه فيه فيقول : واذا انزلت سورة وهم في المجلس تسارقوا النظر ،
وتغامزوا بالعيون ، على حين تخشع ابصار المؤمنين ، وتنحني رؤوسهم ، وتجب

التوبة: س ٩ سبب صرف القلوب عن هداية القرآن ، اثبات زيادة الايمان ٨٥

قلوبهم ، وترامقوا بالعيون يتشاورون في الانسلاخ من المجلس خفية لئلا يفتضحوا بما يظهر عليهم من الانكار والسخرية بالوحي ، وثلا بعضهم ببعض بالاشارة والمعبرة : ﴿ هل يراكم من احد ﴾ أي من الرسول والمؤمنين اذا نحن انصرفنا كارهين اسماعها ﴿ ثم انصرفوا ﴾ يتسللون لو اذا الى مجامعهم الخاصة بهم ، والتعبير بتم لبيان تراخي فعلهم عن وقت قولهم ، الى سنوح فرصة الغفلة عنهم ولو افراداً ، فكلمنا ملح احد منهم غفلة من المؤمنين عنه انصرف ﴿ صرف الله قلوبهم ﴾ هذه الجملة تحتل الدعاء والخبر ومضمونها النهائي في كلام الله واحد كما تقدم نظيره قريباً . والمعنى صرف الله قلوبهم عن صدق الايمان ، والاهتداء بآيات الله في القرآن ، المرشدة الى آياته في الاكوان ﴿ بانهم قوم لا يفقهون ﴾ اي بسبب انهم قوم فقدوا صفة الفقه الفطرية وفهم الحقائق وما يترتب عليها من الاعمال ، لعدم استعمال عقولهم فيها ، فهم لا يفقهون ما يسمعون من هذه الآيات لعدم تدبرها ، والاعراض عن النظر والتأمل في معانيها ، ومواقفتها للعقل ، وهدايتها الى الحق والعدل ، ذلك بانهم اتخذوا انفسهم اعداء وخصوما للرسول ، فوطنوا انفسهم على الاعراض عن كل ما جاء به من غير بحث ولا تأمل فيه أم معقول أم غير معقول ؟ احق أم باطل ؟ اخير أم شر ؟ اهدى أم ضلال ، انافع أم ضار ؟ فأنى يرجى لهم وهذه حالهم ان يهتدوا بتعدد نزول الآيات والسور ؟ انما مثلهم كمثل اعداء الاسلام من اهل المال التي جروا على نظام تعليمي وتربيه وجدانية عملية في عصبيتهم الدينية والقومية وارتباط منافعهم الاجتماعية والسياسية بها : لقنهم رؤساؤهم انه يوجد دين اسمه الاسلام بني أساسه على عداوتكم لذاتكم ، فيجب عليكم أن لا تنظروا فيه إلا أن يكون للبحث عن مطمن ولومتكلف تلزونه به ، ولا تفكروا في شيء من حال أهله في دينهم ودنياهم إلا للعداوة والتحقيق لهم ، وتدبير المكاييد للعدوان عليهم ، واذا ظهر لكم شيء حسن من دينهم فوجهوا كل قواكم العقلية وبلاغتكم الكلامية الى تشويهه وذمه والصد عنه ، وهذا ما يفعله رجال الكنائس النصرانية على اختلاف مذاهبهم كما بيناه في غير هذا الموضع ومن المباحث الكلامية في الآيات الخلاف في زيادة الايمان ونقصه ،

على مذهبين في اثبات ذلك ونفيه، وجمهور السلف من الصحابة والتابعين وحفاظ السنة على الاثبات . وهذه المسألة من اغرب مسائل عصبية المذهب عند النظائر الجدليين ومقلديهم ، وما كان ينبغي لمسلم أن يجعل هذا موضع خلاف لمبحث بعض من ينتسب اليهم في مفهوم لفظ الايمان الذي يتحقق باعتقاده الدخول في الملة هل يقبل الزيادة والنقصان في ذاته؟ أم المراد من هذه الآية وما في معناها متعلق الايمان من العقائد والاحكام التي كانت تشتمل عليها السورة؟ واستبعاد ان يكون التصديق الذي يكون به الكافر مؤمناً قابلاً للزيادة والنقصان ، وهي نظرية باطلة، وقد بينا معنى الآية بما يدل على ان قصر زيادة الايمان فيها على التصديق بزيادة العلم بما تضمنته باطل، لأن هذا بديهي لا يمكن ان يكون هو الذي سال عنه المنافقون ، ونصوص القرآن الكثيرة صريحة في زيادة الايمان ونقصه، وكذلك الاحاديث الصحيحة التي صرح فيها الرسول ﷺ بأن اقل الايمان وهو المنجي من الخلود في النار كالذرة او الخردلة من الايمان الكامل الذي لا يمس اهله من عذاب النار شيئا، كالذين وصفهم الله بقوله (اما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم) الخ وقوله (اما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا) الخ والتحقيق ان اليقين في الايمان وغيره له درجات متفاوتة في القوة والضعف. واليقين الذي يصح به الايمان هو اليقين اللغوي وهو الاعتقاد الجازم في غير الحسيات والضروريات كما بيناه في مواضع اولها تفسير (٢ : ٣) وبالأخرة هم يوقنون) وهو درجات ، منها التقليد الجازم ومنها المعلوم بالنظر والاستدلال ، وقد يطرأ عليهما الشك والزال ، ولولا ذلك ما تصور ارتداد مؤمن عن دينه، ومنها ما يصير وجدانا ضروريا بشرح الصدر، والنور الالهي بكثرة الذكر والفكر والعبادة، وأما اليقين المنطقي العلم القطعي بالبرهان بأن هذا الشيء كذا مع العلم القطعي باستحالة ان يكون غير كذا ، فهو الذي قالوا انه لا يقبل الزيادة والنقصان، ولكنه نادر الوقوع في غير الضروريات ولا تتوقف عليه صحة الايمان ، ومع هذا يمكن ان يقال انه قابل للزيادة في وصفه وطأ نينة القلب به ، وفي ترتب آثاره عليه . ومثال الاول أن ترى شبحاً في سدة الفجر فتعلم انه انسان في انتصاب قامته ثم

تزداد علما به كلما انتشر الضياء حتى يكون العلم به تفصيليا. والبرهان المنطقي المفيد لهذا اليقين عندهم لا تكون مقدماته النظرية في درجة الضروريات قوة وثباتا. وقد قسم بعضهم اليقين الى ثلاث درجات علم اليقين وهو ما يعلم بالدليل ، وعين اليقين وهو ما يكون بالمشاهدة والكشف، وحق اليقين وهو ما يكون بالذوق والوجدان. ومثل لها بعضهم بالغناء عند الصوفية، وبعضهم بالموت، فكل أحد عنده علم اليقين بأنه يموت فاذا عين ملائكة الموت عند الحشيرة وقبل قبض الروح كان عين اليقين، فاذا مات بالفعل وصل الى درجة حق اليقين، لكن هذه الدرجة وما قبلها لا يتعلق بهما التكليف.

(١٢٨) لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٩) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ

ختم الله تعالى هذه السورة بهاتين الآيتين اللتين قال أبي بن كعب (رض) لهما آخر ما نزل وبيننا في الكلام على السورة قبل الشروع في تفسيرها ما يعارضه وسنحقق المسألة بعد الفراغ من تفسير الآيتين

﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم﴾ جمهور المفسرين على ان الخطاب هنا للعرب فهو في معنى قوله (هو الذي بعث في الاميين رسولا منهم) فالمنته به (ص) على قومه أعظم ، والحجة عليهم به وبكتابه أنهض ، وأخص قومه به قبيلته قريش فمشيرته الاقربون بنو هاشم وبنو المطلب ، ولو لم يؤمن به وبكتابه العرب لما آمن العجم ، وهو مبعوث الى جميع الناس كما تقدم في قوله (٥٨:٧) قل يا أيها الناس اني رسول الله اليكم جميعا) وايكنه وجه دعوته الى الاقرب فالاقرب على القاعدة التي بينها آنفا في قتال الاقرب فالاقرب، فالعرب آمنوا بدعوته مباشرة والعجم آمنوا بدعوة العرب ، العرب آمنوا بفهم القرآن وبيانه ﷺ له بالتبليغ والعمل ، وبما شاهدوا من آيات الله تعالى في شخصه ، والعجم آمنوا بدعوة العرب وما

شاهدوا من عدلهم وفضائلهم ، ثم بدعوة بعضهم لبعض بعد انتشار الاسلام فيهم ، وقال الزجاج : ان الخطاب للعالم كله لعموم بعثته فيكون بمعنى ما يأتي في أول السورة التالية (أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم) الخ ولكن آية أول سورة يونس هذه في الرد على منكري كون البشر رسولا من الله وهو المحكي عن جميع كفار الامم ، وآية آخر سورة براءة في امتنان الله عز وجل على من أرسل اليهم الرسول من أنفسهم وصميم قومهم ، لتأييد الحجة بالمنة ، والترغيب في اجابة الدعوة ، فان من طبع كل قوم حب الاختصاص بالفضل والشرف على غيرهم ، كما قال تعالى في امتنانه عليه بالقرآن المجيد (وانه لذكر لك ولقومك) أي شرف لك ولهم ، تذكرون به في العالم ، ويدون لكم في التواريخ ، وانما قومه وعانده أكبر قومه حتى من بني هاشم انفة واستكباراً عن اتباعه وهم يرونه دونهم ، ولما يتضمن اتباعه من الاقرار بكفرهم وكفر آبائهم وأجدادهم الذين يفاخرون بهم ، مع عدم ثقتهم بفوزهم وبأنهم يناولون باتباعه من مجد الدنيا فوق ما كانوا عليه بمسافات تطاول السماء رفعة وشرفاً ، دع ما هو فوق مجد الدنيا من سعادة الآخرة ، ثم انهم صاروا يفتخرون بكونه صلى الله عليه وسلم منهم ، بأكثر مما يبيحه دينه لهم ، حتى صار أقربهم يتسكل على نسبه فيقصر في العلم والعمل ، وقد أكد تعالى هذه المنة الخاصة بوصفه هذا

الرسول بقوله ﴿ عزيز عليه ما عنتم ﴾ الخ العنت المشقة ولقاء المكروه الشديد وقيدته الراغب بما يخاف منه الهلاك ، وعز على فلان الأمر : ثقل واشتد عليه ، وقالوا هو كناية عن الأنفة عنه ، وما مصدرية - أي شديد على طبعه وشعوره القومي عنتم لانه منكم ، وهذا يشمل ما يكون في الدنيا وما يكون في الآخرة ، فلا يهون عليه أن يكونوا في دنياهم أمة ضعيفة ذليلة يعتتها أعداؤها بسيادتهم عليها وتحكمهم فيها ،

ولا أن يكونوا في الآخرة من أصحاب النار ﴿ حريص عليكم ﴾ الحرص شدة الرغبة في الحصول على المفقود ، وشدة العناية بحفظ الموجود ، وكان (ص) حريصاً على اهتداء قومه به بايمان كافرهم وثبات مؤمنهم في دينه كما قال تعالى له (١٦ : ٣٧) إن تحرص على هداهم (الآية) وقال (١٢ : ١٠٣) وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين)

﴿ بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾ أي شديد الرأفة والرحمة بالمؤمنين فكل ما يدعوهما اليه من العمل بشرائع الله تعالى فهو دليل على ثبوت هذه الصفات الكاملة والعواطف السامية له ﷺ ينص الله تعالى وهو أرحم بالمؤمنين ورأف ، وكل شاق منها كالجهاد فهو منجاة مما هو أشق منه ، ولا شيء من الشاق منها يبالغ حد العنت ، للقطع في هذا الدين بنفي العسر والحرج .

وصف الله تعالى رسوله بصفتين من صفاته العلى ، وسماه باسمين من أسمائه الحسنى ، بعد وصفه بوصفين هما أفضل نعوت الرؤساء والزعماء المدبرين لأُمور الأمم بالحق والعدل والفضل ، وفي الصحاح والقاموس ان الرأفة أشد الرحمة . وجعلهما بعض اللغويين والمفسرين بمعنى واحد . وقال بعضهم ان الرأفة أخص لا تكاد تقع في الكراهية ، والرحمة تد تقع في الكراهية المصاحبة ، واختار الرازي انها مبالغة في رحمة مخصوصة من دفع المكروه وإزالة الضرر . وقل أستاذنا انها لا تستعمل إلا في حق من وقع في بلاء ، اختياراً لقول الرازي (ص ١٢ ج ٢ تفسير) وأصح منه أنهم تستعمل في مكان الضعف والشفقة والرقّة كقولهم رأف بولده وترأف به وتقديمه على الرحيم هو الواجب كأنه قول رؤوف بضعفاء المؤمنين وأولي القربى منهم ، ورحيم بهم كلهم ونخصيص رأفته ورحمته بص المؤمنين ، في مقابلة ما أمر به من الغلظة على الكفار والمنافقين ، لا يعارض كون رسالته رحمة للعالمين ، كما هو ظاهر ، فإن هذه الرحمة مبذولة لجميع الأمم أعموم بعثته (ص) وليكن منهم من قبلها ومنهم من ردها ، وقد بينا في تفسير (واغلاظ عليهم) انه إنما أمر بذلك صلوات الله تعالى عليه لان الغالب على طبعه الشريف الرقة والرحمة والادب في المقابلة والمعاشرة . وقد قل تعالى (ولو كنتم فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك)

وفي التفسير المأثور عن ابن عباس (رض) في الآية (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) قال ليس من العرب قبيلة إلا وقد ولدت النبي (ص) مضربها وربيعها ويما نيتها . يعني ان نسبه متشعب في جميع قبائل العرب وبطونها . وعنه في (عزيز عليه ما عنتم) قال شديد عليه ما شق عليكم (حريص عليكم) أن يؤمن كفاركم .

ومن القراءة الشاذة في الآية قراءة (أنفسكم) بفتح الفاء من النفاسة رواها ابن مردويه من حديث علي مرفوعاً وقرأ بها ابن عباس والزهري وابن محيصن ورويت عن الإمام جعفر الصادق عن أبيه الإمام محمد الباقر ، وهي خبر واحد لا يثبت بها القرآن ، وفيها ان المعبود في فصيح الكلام ان النفيس والانفس مما يوصف به الاشياء لا الاشخاص

﴿ فان تولوا فقل حسبي الله ﴾ هذا التفات عن خطاب أمة الرسول او قومه الذين آمن بالله تعالى عليهم بمجيئه رسولا اليهم من انفسهم وبفضائله العائدة عليهم ، إلى خطابه ﷺ وبيان ما يجب عليه في حال إعراضهم عن الاهتداء والانتفاع بما خاطبهم به ربهم في شأنه . يقول : فان تولوا وانصرفوا عن الايمان بك والاهتداء بما جئتكم به ، فقل حسبي الله أي هو محسبي الذي يكفيني أمر توابعهم وإعراضهم ،

وما يعقبه من عداوتهم لي وصددهم عن سبيله وقد بلغت وما قصرت ﴿ لا اله الا هو ﴾ أي لا معبود غيره ألجأ اليه بالدعاء والاستعانة كما يلجئون إلى آلهتهم المنتحلة ﴿ عليه توكلت ﴾ وحده ، فلا أكل أمري فيما اعجز عنه إلى غيره ، وكيف لا اخصه

بالتوكل وهو رب العرش العظيم الذي هو مركز تدبير أمور الخلق كلها كما قل الآية الثالثة من السورة التالية (ثم استوى على العرش يدبر الامر) قرأ جمهور القراء العظيم بالخفض على انه صفة للعرش . وقرأه بالرفع على انه صفة لرب ، ورويت هذه القراءة عن ابن كثير . وعظمة العرش بعظمة الرب الذي استوى عليه ، وعظمة الملك الكبير الذي هو مركز تدبيره ووحدة النظام فيه ، وعظمتها في الملأ الأعلى وفيما دونه هي المظهر الوجودي لعظمة هذا الرب التي لا تحد ، ولا يدرك كنهها احد ، ودليل على انه الاله الحق الذي لا يصح أن يعبد غيره ولا يتوكل على سواه ، وكيف يعبد غيره بالدعاء أو غيره أو يتوكل على سواه من يعلم انه هو الرب المالك للعالم كله والمدير لاموره . ويراجع هنا تفسير (٨ : ٦٤ يا أيها النبي حسبك الله) [في ص ٧٤ ج ١٠] وفسر بعضهم العرش هنا

جاملك (بالضم) لانه يطلق عليه تجوزاً ، وهو خطأ منهم لان هذا التجوز لا مسوغ له ، ولا يصح في كل الآيات التي ورد فيها اللفظ ، والمعنى الحقيقي أبلغ منه وأعم ، فانه يدل على المعنى المجازي وزيادة إذ ليس لكل ملك في الارض عرش حقيقي هو المركز الوحيد لتدبير كل شيء فيه . فالعرش العظيم يدل على الملك العظيم وعلى وحدة النظام والتدبير فيه ، ولفظ: الملك العظيم لا يدل على هذا ، لاحتمال وجود الخل فيه وكون تدبيره ليس له مرجع وحدة تكفل النظام ، وتمنع الخل والفساد ، ونظار المتكلمين ومفسروهم يتأولون العرش والاستواء عليه قراراً من التشبيه الذي يستلزمه بزعمهم المبني على قياس عالم الغيب على عالم الشهادة ، وقياس الخالق على المخلوق ، وهو قياس باطل باجماعهم ، وقال ابن عباس سمي العرش عرشاً لارتفاعه ، وفي الدر المنثور روايات في وصف العرش ومادته هي من الاسرائيليات لا يصح فيها شيء مرفوع .

ونحنم تفسير الآيتين بتحقيق مسألتين ذكرتا في تفسيرهما المأثور ولم نراهما أحققهما :

﴿ الاولى ماورد في كتابة الآيتين عن النبي ﷺ وكونهما آخر ما نزل ﴾
إن معنى هاتين الآيتين لا يظهر إلا في دعوته ﷺ الى الاسلام بمكة في أول زمن البعثة . وقد ذكرت في الكلام على هذه السورة قبل البدء بتفسيرها ان ابن أبي الفرس قل انهما مكيتان ، وأنه يرد قوله ماورد من انهما آخر ما نزل من القرآن ، ثم ذكرت هنالك أصح ماورد في آخر ما نزل من القرآن وهو غير هاتين الآيتين . وأقول الآن إن قول ابن أبي الفرس هو الوجيه من جانب المعنى فهو يؤيد الرواية وأما القول بأنهما آخر ما نزل فقد أخرج في بعض المسانيد والتفسير المأثورة عن أبي بن كعب بالفاظ متقاربة (منها) عن ابن عباس عنه : ان آخر آية أنزلت على النبي صلى الله عليه وسلم وفي لفظ ان آخر ما انزل من القرآن (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) الخ الآية (ومنها) عن الحسن عنه انه كان يقول : إن أحدث القرآن عهداً بالله - وفي لفظ بالسما - هاتان الآيتان (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) الخ السورة (ومنها) من طريق أبي العالية عنه انهم جمعوا القرآن في مصحف في

خلافة أبي بكر فـ كان رجال يكتبون ويمثلُ عليهم أبي بن كعب حتى انتهوا الى هذه الآية من سورة براءة (ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون) فظنوا ان هذا آخر ما نزل من القرآن فقال أبي بن كعب ان النبي ﷺ قد أقراني بعد هذا آيتين (لقد جاءكم - الى - رب العرش العظيم) فل فخم الامر بما فتح به : بلاإله الا الله . اه وهو صريح في انها آخر ما نزل من هذه السورة ، لامن القرآن مطلقا الا اذا صح أن سورة براءة آخر سورة نزلت والصحيح في الرواية أن آخر ما نزل من السور سورة النصر ومن الآيات (٢: ٢٨١) واتقوا يوم ما ترجعون فيه الى الله) كما تقدم في محله وفي حديث زيد بن ثابت في جمع القرآن المكتوب الذي كان متفرقا في عهد أبي بكر عند ابن سعد وأحمد والبخاري والترمذي والنسائي وغيرهم - انه قل : حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع خزيمه بن ثابت الانصاري لم أجدهما مع احد غيره (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) الى آخرهما اه والمراد انه لم يجدهما مكتوبتين عندما جمع المكتوب في الرقاع والاكتاف والعصب في هذه السورة إلا عند خزيمه ، وفي رواية في البخاري وغيره عند أبي خزيمه وهي أرجح كما سيأتي ، الا ان تكونا وجدتاه عند كل منهما - وكانتا محفوظتين معروفتين للكثيرين كما صرح به في الروايات الأخرى. فقد أخرج ابن اسحاق واحمد وابن أبي داود في المصاحف عن عباد بن عبد الله بن الزبير قال : أتى الحارث بن خزيمه بهاتين الآيتين من آخر براءة (لقد جاءكم رسول - الى قوله - وهو رب العظيم) الى عمر فقال من معك على هذا ؟ فقال : لا أدري والله الا اني اشهد لسمعتهما من رسول الله ﷺ ووعيتهما وحفظتهما ، فقال عمر وأنا اشهد لسمعتهما من رسول الله ﷺ لو كانت ثلاث آيات لجمعتها سورة على حدة ، فانظروا سورة من القرآن فألحقوها بها ، فألحقت في آخر براءة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ ان رجلا من الانصار جاء بهما عمر فقال عمر لا أسألك عليها بينة ابداً كذلك كان رسول الله ﷺ يقرأها وأخرج ابن أبي داود في المصاحف ان خزيمه بن ثابت جاء عثمان حين تصدى لكتابة القرآن بعد مقتل عمر فقال اني رأيتكم تركتم آيتين لم تكتبوهما ، فقالوا ما هما ؟ قال تلقيت من رسول الله ﷺ (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز

عليه ما عزم) الخ السورة . فقال عثمان : وأنا أشهد انهما من عند الله فبين ترى ان نجم لهما ؟ قال اخم بهما آخر ما نزلت من القرآن فحتمت بهما براءة فيؤخذ من مجموع الروايات ان الآيتين كانتا محفوظتين مشهورتين الا انهم اختلفوا في موضعهما ، ففي بعضها انهما آخر سورة براءة بالتوقيف من النبي ﷺ ، وفي بعضها انهما وضعتا بالرأي والاجتهاد ، والمعتمد الاول قطعا لان من حفظ التوقيف حجة على من لم يحفظ . والظاهر ان سبب الاختلاف في موضعهما ان موضوعهما يدل على انهما مكيتان ، ولم تصح لجماعة جامعي المصحف رواية بكتابتهما في إحدى السور المسكية ، ولكن وجدت عند أبي خزيمة مكتوبتين في آخر براءة . وفي الصحيح ان زيد بن ثابت - الذي كان يكتب الوحي لرسول الله ﷺ وهو الذي امره أبو بكر بجمع القرآن مع آخرين وكان عمر يحضرم وهم يكتبون قال : فوجدت آخر براءة مع خزيمة بن ثابت او ابى خزيمة بالشك وهو من الراوي لا من زيد ، وفي رواية عنه مع خزيمة ، والتحقيق الذي قرره الحافظ ابن حجر ان آخر التوبة وجد عند ابى خزيمة ، وأما الذي وجد مع خزيمة فهو آية الاحزاب . وذلك ما رواه البخاري في تفسير سورتها عن زيد بن ثابت قال : لما نسخنا المصحف في المصاحف فقدت آية من سورة الاحزاب كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرأها لم أجدها مع احد الا مع خزيمة الانصاري الذي جعل رسول الله ﷺ شهادته شهادة رجلين من المؤمنين (رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه) قال الحافظ في شرحه : هذا يدل على أن زيدا لم يكن يعتمد في جمع القرآن على علمه ولا يقتصر على حفظه . لكن فيه إشكال لان ظاهره انه اكتفى مع ذلك بخزيمة وحدد القرآن انما يثبت بالتواتر . والذي يظهر في الجواب ان الذي اشار اليه انه فقد وجودها مكتوبة لا فقد وجودها محفوظة ، بل كانت محفوظة عنده وعند غيره ، ويدل على هذا قوله في حديث جمع القرآن « فجعلت أتبعه من الرقاع والعسب كما سيأتي مبسوطة في فضائل القرآن اهـ »

وأقول انني قد ذكرت آنفا ان هذا هو المراد منه وهو ما كنت افهمه دون غيره وأجيب به من سألني عنه مستشكلا . فقول الحافظ : والذي يظهر الخ

كان يجب أن يكون : والذي يتعين القطع به كذا ، وحسبك دليلا على هذا انه قال انهم كانوا يسمعون رسول الله ﷺ يقرأها فهو صريح في أن البحث كان عن كتبها فقط . وجملته القول ان الآيتين كانتا محفوظتين ومكتوبتين ومعروفتين . لكثير من الصحابة وانما اختلفوا عند الجمع في موضع كتابتهما حتى شهد من شهد ان النبي ﷺ هو الذي وضعهما في آخر سورة براءة وفاقا لقول أبي بن كعب الذي ثبت في الصحيح أنه أحد الذين تلقوا القرآن كله مرتباً عن النبي ﷺ وكذا زيد بن ثابت . وكان عدد المختلئين في موضعهما قليلا فلما كتبنا في المصاحف وافق الجميع على وضعهما ههنا ، ولم يرو أي اعتراض على ذلك عن كتبوا لانفسهم مصاحف اعتمدوا فيها على حفظهم كابن مسعود (رض)

بقى البحث في حكمة وضعهما في آخر هذه السورة المدنية وموضوعهما مكي يؤيده كون الخطاب فيهما لقومه ﷺ على ما جزم به جماهير المفسرين ، وما هما بأول ما وضع من الآيات المكية في السور المدنية لمناسبة اقتضت ذلك . وامل الحكمة في ذلك ان يفيدا بموضعهما صحة الخطاب بهما لكل من تباعه الدعوة من أمة الاجابة ، وهو ما ذهب إليه الخطائي ، كما دل موضوعهما ونزولهما بمكة - كما قال ابن أبي الفرس - على كون الخطاب فيهما لقومه ﷺ وهو ما جزم به الجماهير . ويكون ما قلناه جامعا بين الاقوال كلها

(طهارة نسبه ﷺ وفضل قومه واصطفاءؤه من خيارهم)

من المأثور في تفسير الآيتين ما ذكرنا في قوله تعالى (رسول من أنفسكم) من الاحاديث المرفوعة في طهارة نسبه ﷺ من سفاح الجاهلية ومن فضل قومه وعشيرته وعثرته واهل بيته على غيرهم وأصح ما ورد في هذا ما رواه مسلم والترمذي من حديث وثالة (رض) مرفوعا « ان الله اصطفى كنانة من ولد اسماعيل ، واصطفى قريشاً من كنانة ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم » ولم أر لاحد من العلماء بيانا لمعنى هذا الاصطفاء بم كان ؟ وقد وفقني الله لاستنباطه من التاريخ العام ، وبينته في المنار وفي خلاصة السيرة المحمدية في

جواب السؤال عن حكمة بعثة خاتم النبيين، بالرسالة العامة للناس أجمعين، بالدين العام للبدو والحضر. من العرب الذين غلبت عليهم جهالة البدو، وبعد عهدهم بما سبق لامتهم من الحضارة والعلم، ولم يبعث من بعض شعوب الحضارة القريبة كالفرس والروم والهند والصين، ويليه السؤال عن مزية كنانة في العرب من آل اسماعيل، الذين امتازوا على سائر العرب بأنهم ممن اصطفى الله من آل ابراهيم، ثم عن مزية قريش في بني كنانة وفضل بني هاشم على سائر قريش؟

خلاصة ما بينته في فضل العرب على سائر الامم، الذي أعدهم به الله لبعثة سيد البشر من العرب والعجم، بالدين العام الباقي هي ان جميع شعوب الحضارة المشار اليها وغيرها كانت قد فسدت غرائزها وأخلاقها الفطرية، وعقائدها الدينية، وآدابها التقليدية، بفساد رؤساء الدين والدنيا فيها، وتعاون الفريقين على استعبادها واستغلالها لها، وتسخيرها لتوفير لذاتها وتشديد صروح عظمتها، بسلب حريتهم العقلية بالتقاليد الدينية التي يفرض عليهم الكهنة والاحبار والقسوس الخضوع لها، بدون أن يكون لهم أدنى رأي أو اختيار أو فهم فيها، وسلب حرية ارادتهم في حياتهم الشخصية والاجتماعية، بما يضع لهم الملوك والحكام من القوانين والنظم الادارية والعسكرية الاستبدادية، وبتحكمهم فيهم بدون قانون ولا نظام ايضا، فجميع الامم والشعوب كانت مرهقة مستعبدة في دينها ودنياها الا العرب ولاسيما عرب الحجاز واما العرب فلم يكن عندهم رياسة حكم استبدادية تستذلهم وتفسد بأسهم وتقهر ارادتهم على ما لا يريدون، ولا رياسة دينية تقهرهم على اتباع تقاليد تعبدية لا يعقلونها، بل كانوا على أتم الحرية العقلية واستقلال الارادة في دينهم ودنياهم، وفي أعلى ذروة من عزة النفس، وشدة البأس، فبحرية عقولهم كانوا على أتم الاستعداد لفهم دين العقل والفطرة، وباستقلال ارادتهم كانوا على أكل الاستعداد للنهوض بما اعتقدوا حقيقته وصلاحه وخيريته، ولإقامته في قومهم، ونشره في غيرهم، والدفاع عنه باختيارهم، وتصرفهم في كل ذلك بمقتضى الوازع النفسي، دون تحكم رئيس ديني ولا دنيوي، فان هذا الدين انما أوجب طاعة الأئمة والقواد بالمعروف والاذعان للشرع، وما تضمنه الامة لنفسها من النظام بالشورى بين ممثليها من اهل الحل

والعقد ، حتى فرض الله على الرسول ﷺ مشاورتها في أمورها ، وقال له ربه في صيغة مبايعة نساها له (ولا يعصينك في معروف) وبها كان يبايع الرجال كائناً سواء ولذلك قال ﷺ « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق إنما الطاعة في المعروف » رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي من حديث علي كرم الله وجهه وأما كنانة فقد كان أشهر ذرية اسماعيل في العلم والحكمة ، والكرم والنبيل ، حتى كانت العرب تخرج اليه ، وينقلون عنه حكماً رائعة ، وكفى بهذا اصطفاً عليهم ، وامتيازاً فيهم ،

وأما امتياز قريش على سائر العرب فهو معروف متواتر وأنه أن ما ذكرناه من عزة النفس ، واستقلال الإرادة والعقل ، كان أكمل فيهم ، فإن بعض العرب في أطراف جزيرتهم خضعوا لسيادة الفرس والروم خضوعاً ملاً ، وجملة انهم كانوا أصرح ولد اسماعيل أنساباً ، وأشرفهم أحساباً ، وأعلامهم آداباً ، وأفصحهم أسنة ، وهم المهدون لجمع الكلمة العامة ، بعد أن جمع قصي جميع قبائلهم بمكة ، واستقلوا بخدمة المسجد الحرام من الحجابة وسقاية الحاج والرفادة وهي أسعاف الفقراء والمساكين من الحاج وغيرهم ، وأسسوا دار الندوة لأجل الشورى في الأمور المهمة ، وكانوا أعرف العرب بطون العرب في جميع جزيرتهم بما كانوا يتناولونه من رحلة الشتاء والصيف ، وبذلك كانوا أغنى العرب أيضاً وأشرفهم بلا منازع ، وناهيك بما عقدوا من حلف الفضول في حادثة سن الرسول وهو انهم تعاقدوا وتعاهدوا أن لا يجذوا بمكة مظلوماً إلا قاموا معه ، وكانوا عوناً له على من ظلمه . إلى أن ترد مظلمته ، وفي حديث الزبير بن العوام وأم هانئ عن الطبراني وتاريخ البخاري « فضل الله قريشاً بسبع خصال : فضلمهم بأنهم عبدوا الله عشرين سنين لا يعبد الله إلا قرشي (أي لا يعبدونه وحده من العرب إلا قرشي) وفضلهم بأنه نصرهم يوم الفيل وهم مشركون (أي نصرهم على قوة تفوق قوتهم كثيراً بما يشبه نصره لرسوله في كونه بدون استعداد كسبي يقرب من استعداد عدوهم) وفضلهم بأنه نزل فيهم سورة من القرآن لم يدخل فيها أحد من العالمين وهي (ليلاف قريش) وفضلهم بأن فيهم النبوة والخلافة والحجابة والسقاية »

وأما اصطفاؤه تعالى لبني هاشم على قريش فقد كان بما امتازوا به من الفضائل والمكارم فقد كان جدهم هاشم هو صاحب إيلاف قريش الذي أخذ لهم العهد من قبصر الروم على حمايتهم في رحلة الصيف إلى الشام، ومن حكومة اليمن في رحلة الشتاء، وهو أول من هشم الثريد للفقراء من قومه ولاهل موسم الحج كافة، وقد أربي عليه في السخاء والكرم ولده عبدالمطلب، وجلة القول ان بني هاشم كانوا أكرم قريش أخلاقاً وأبعدهم عن الكبر والاثرة، لا ينازعهم أحد في ذلك، وقد قال أبو جهل في حسده إياهم على كون الرسول ﷺ منهم: تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف: أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا . . . حتى إذا زاحمناهم بالمناكب قالوا منا نبي يأتيه الوحي من السماء. فتي ندرك هذه؟ ويؤخذ منه أنهم كانوا يعلمون ان النبوة لا يمكن أن تكون بالاجتهاد والمباراة الكسبية في الفضائل، وان القرآن لا يمكن أن يعارضه أحد في بلاغته ولا هدايته، لانه من الله لا من علم محمد ﷺ وفصاحته وبلاغته، ولولا ذلك لعارضه من كانوا أشهر العرب في ذلك ولم يكن محمد منهم وقد ورد في فضل هذه الخاتمة لهذه السورة المباركة ما رواه أبو داود عن أبي الدرداء موقوفاً وابن السني عن أبي الدرداء مرفوعاً قال قال رسول الله ﷺ «من قل حين يصبح وحين يمسي : حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم - سبع مرات - كفاه الله ما أهمه من أمر الدنيا والآخرة» كذا في الدر المنثور ويراجع ما قاله ابن كثير آخر في تفسير السورة فيه، وهو لا يمنع العمل به، وحسبنا الله ونعم الوكيل، والحمد لله رب العالمين

(نم تفسير سورة براءة بفضل الله وتوفيقه في شهر صفر سنة خمسين

وثلاثمائة والف وبقي تلخيص ما فيها من أصول الدين وأحكامه

وحكمه وسياسته وآدابه وسنن الله في ذلك، فنسأله تعالى

توفيقنا فيه للحق الذي يرضاه وينفع عباده)

خلاصة سورة برأءة (التوبة)

(وهي خمسة أبواب وفيها فصول)

(هذه السورة آخر السور المدنية الطول نزولا فيقل فيها ذكر أصول الدين وملة يناسبها من الحجج العقلية والسنن الكونية وكذا أحكام العبادات البدنية . - راجع مقدمة خلاصة سورة الانفال في ص ١١٨ والتناسب بين السورتين في ص ١٤٧ ج ١٠)

الباب الاول

(في صفات الله تعالى وأفعاله وشؤونه في خلقه وأحكامه وسننه فيها)

وفيه أربعة فصول

(الفصل الاول في الاسماء والصفات الالهية والاضافات اليه تعالى)

(١ - الاسماء والصفات)

في هذه السورة من أسماء الله الحسنى وصفاته العلى : الغفور الرحيم ، الرؤف الرحيم ، العليم الحكيم ، العزيز الحكيم ، السميع العليم ، عالم الغيب والشهادة . ومنها المكرر مرتين وثلاثا أو أكثر ، وكل منها موضوع في موضعه المناسب لمعناه في السياق أو الآية . وأما الفائدة العامة لذكر أسماء الله تعالى وصفاته وتكرارها في المواضع المختلفة فهي تذكير تالي القرآن وسامعه المرة بعد المرة بربه وخالقه وما هو متصف به من صفات الكمال الذي يشمر له زيادة تعظيمه وحببه ، والرجاء في رحمته وإحسانه ، والخوف من عقابه ، لمن أعرض عن هداية كتابه ، أو خالف حكمته وسننه في خلقه ، وهذا أعلام مقاصد القرآن ، في إكمال الايمان ، وإعلاء شأن الانسان (فراجع في ص ١١٩ ج ١٠)

ومما ورد فيها في العلم الالهي قوله تعالى (٧٨ ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم ، وأن الله علام الغيوب) وقوله (١٦ أم حسبتم أن تتركوا ولم يعلم الله الذين جاهدوا منكم - الى قوله - والله خبير بما تعملون) وهما أعظم ما يجدد في القلب مراقبته عز وجل عند كل قول وعمل ، وحسبك بهما وازعا وراقعا

(٢ - المعية الالهية)

في هذه السورة من المعية العليا قوله تعالى في آية الفار عن رسوله ﷺ (٤٠) إذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا) وهي معية النصر والمونة ، والحفظ والمعصية ، والتأييد والرحمة ، كما يقتضيه المقام في حال الهجرة ، وهذه المعية أفضل من كل ما ورد في معناها ، ومن أعظمه قوله تعالى لكليمه موسى وأخيه هارون عليهما السلام (لا تخافا انني معكما أسمع وأرى) فراجع (ص ٤٢٧ ج ١٠) وفي الآية ١٢٣ (واعلموا أن الله مع المتقين) وهذه معية النصر لانها معطوفة على الامر بالقتال ويقال في كل منها مع العلم بمعناها انها معية تليق به تعالى

(٣ - الدرجة والعندية الالهية وسكنته تعالى)

قال تعالى (٢٠) الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله أعظم درجة عند الله) الآية . وقد قلنا في تفسير هذه العندية [ص ٢٢٠ ج ١٠] انها حكيمة [بضم الحاء] شرعية ، ومكانية جزائية ، أي هم أعظم درجة في الفضل والكمال في حكم الله ، وأكبر مشوبة في جوار الله

وقال بعد بشارتهم بالرحمة والرضوان والجنات والنعيم المقيم والخلود فيها من الآية (٢٢) ان الله عنده أجر عظيم) وهو استئناف بياني فالعندية فيه مفسرة لما قبلها . وقال (٣٦) ان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والارض) فالعندية هنا يفسرها ما بعدها وهو كتاب الله الذي كتب فيه مقادير السموات والارض ونظام الايام والليالي والشهور والسنين . وقيل كتابه المنزل الذي فيه حكمه التشريعي في الشهور وهو قوله بعد ما ذكر [منها أربعة حرم] الخ وفي الآية (٥٢) ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا) فعندية العذاب عبارة عن كونه بفعله تعالى دون كسب للمؤمنين وهو ما يسمى بالمصائب السماوية بدليل مقابله بقوله [أو بأيدينا] والاضافة في العندية الحكيمة للتوقيف والتعريف ، وفي العندية المكانية للتشريف ، ومثلها إضافة السكينة اليه تعالى

٤ - حب الله ورضاه وكرهه وسخطه وغضبه

قال تعالى (٧ ان الله يحب المتقين) وقال في المهاجرين والانصار [١٠٠ رضي الله عنهم ورضوا عنه] وقال في جزاء المهاجرين المجاهدين [٧٢ ورضوان من الله] ويدخل في معناه ما صح في الاحاديث من مقام الرؤية كما بيناه في تفسيرها وقال في شأن المنافقين [٩٦ فان ترضوا عنهم فان الله لا يرضى عن القوم الفاسقين] أسند الله تعالى الى نفسه الحب والرضى في هذه الآيات وفي سور أخرى ، كما أثبت لنفسه الكره في قوله من هذه السورة [٤٧ ولكن كره الله ان يعاينهم] والسخط والغضب في سور أخرى . والمتكلمون يتأولون هذه الصفات بالاثابة والاحسان من لوازم الحب والرضى ، وبالعقاب من لوازم السخط والكره والغضب ، فراراً من تشبيه الخالق بعباده الذين تعد هذه الصفات انفعالات نفسية لهم يتنزه الله عنها . ومذهب السلف الصالح إثبات ما أثبتته الله تعالى لنفسه وأثبتته له رسوله من غير تعطيل ولا تمثيل ولا تأويل ، فيقولون ان حب الله تعالى وكرهه ورضاه وغضبه صفات تليق به تترتب عليها آثارها ، وهي لا تماثل ما سمي باسمها من صفات البشر ، كما ان ذاته ونفسه وعلمه وقدرته لا تماثل ذوات البشر وعلمهم وقدرتهم بلا فرق . بل نقول ان من خلق الله في عالم الغيب من الجن والملائكة لا تماثل في إدراكاته ولا في غيرهما ما في عالم الشهادة ، بل روي في ثمر الجنة أنه يشبه ثمر الدنيا وليس مثله وعن ابن عباس [رض] انه ليس في الجنة من أطعمة الدنيا الا الاسماء . وقال تعالى في نعيم الآخرة [فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين] وقال النبي ﷺ في تفسيره له « قال الله تعالى : أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » وأمر بقراءة الآية متفق عليه

وأما الكلام مع أهل التأويل من ناحية الأدلة العقلية التي يزعمون لانفراد بها دون علماء السلف فهو أن حب الحق والخير كالإيمان والعدل وأهلها ، وكرهه الباطل كالكفر ، والشر كالظلم ومجترحيهما ، كلاهما من صفات الكمال المحض ، وكل ما كان كمالاً محضاً فالعقل يوجبه لواجب الوجود بأعلا مما يكون

التوبة : س ٩ أفعاله وتصرفه تعالى لا يقتضي الجبر ولا ينافي الاختيار في الكسب ١٠١

منه للوجود الممكن - فقد اتفق العقل مع النقل على إثبات هذه الصفات لله بمعنى أكمل مما هي في خيار الناس ، ولكن لا يمكن وضع أسماء لها من كلام الناس تدل على الفرق بين مسمياتها في الخالق والمخلوق ، فوجب الرجوع في ذلك إلى الوحي الفاصل وهو قوله تعالى [ليس كمثله شيء وهو السميع البصير] فالتنزيه في الجملة الأولى السالبة أزال ما يستلزمه التشبيه في الجملة الثانية الموجبة ، بل قال الشيخ محيي الدين بن عربي في تفسير هذه الآية ان الايمان الصحيح هو الجمع بين التنزيه والتشبيه

(الفصل الثاني)

﴿ أفعال الله في تصرفه وتدبيره لا مورد خلقه بمقتضى سننه ، لا يجعلهم مجبرين بقدرته ﴾

قال تعالى (١٤) قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم) الآية . يتوهم أهل الجبر انها تدل على نجاتهم ، وورده انه تعالى أمرهم بقتال المشركين ، ولو كانوا مجبرين لكان أمرهم لغواً وعبثاً . وقوله (يعذبهم الله بأيديكم) معناه يعذبهم بتمكين أيديكم من رقابهم قتلاً ، ومن صدورهم ونحوهم طعناً ، ويؤكد الوعد بعده بنصرهم وفي معناه قوله (٥٢) ونحن نترصد بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا)

وقال تعالى في آية (١٩) والله لا يهدي القوم الظالمين * وقال في آيتي ٢٤ و ٨٠ والله لا يهدي القوم الفاسقين * وقال (٣٧) والله لا يهدي القوم الكافرين) وليس معنى هذه الآيات ان الله تعالى منهم من الهداية بقدرته فصاروا عاجزين عنها ومجبرين على الفسق والظلم والكفر إجباراً ، وإنما معناها ما بيناه في تفسيرها وهو ان هذه الصفات التي رسخت في انفسهم بكسبهم منافية لهدى الله تعالى الذي بعث به رسوله بحسب سننته تعالى في الاسباب والمسببات (راجع ص ٢١٩ و ٢٣٦ و ٤١٩ و ٥٦٧ ج ١٠) ويقابله قوله تعالى قبل الآية الأولى من هذه الآيات فيمن ترجى لهم الهداية بحسب سنن الله تعالى (١٨) إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله ، فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين)

وبدخل في هذا الباب من بيان السنن وطبائع البشر قوله في خوالف المنافقين (٨٧ وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون) ثم قوله فيهم (٩٣ وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون) فهو بيان لسنة الله في تأثير أعمالهم التي منها رضاهم بخطئة الحسف والذل وهو التخلف عن الجهاد ان قلوبهم كالمطبوع عليها التي لا تنقه كنه حالها ولا تعلم سوء مآلها (ص ٥٩٠ ج ١٠) وفي معناه قوله في الذين ينصرفون منهم متسللين من مجلس القرآن (١٢٧) ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون) أي بسبب انهم قوم فقدوا صفة الفقاها الفطرية وفهم الحقائق وما يترتب عليها من الاعمال لعدم استعمال عقولهم فيها الخ ما فصلناه في تفسيرها (ص ٨٥ ج ١١) وبهذه المراءة ترى حقيقة المراد من قوله تعالى فيهم (٤٦) ولكن كره الله انبعاثهم فبطهم) وراجع في ص ٤٧١ ج ١٠ وقوله (٦٧) نسوا الله فانساهم) وراجع في ص ٥٣٤ ج ١٠

﴿ الفصل الثالث ﴾

في تعليل أفعال الله تعالى وأحكامه وسننه فيهما

- ١- ترى تعليل الامر بإتمام اليهود الموقته بقوله تعالى (ان الله يحب المتقين)
 - ٢- » » » بتخليه سبيل التائبين من المشركين بقوله تعالى (ان الله غفور رحيم)
 - ٣- » » » باجارة المشرك المستجير لسمع كلام الله بقوله (ذلك بأنهم قوم لا يعلمون)
 - ٤- » » » بقتال المشركين الناكثين للعهد بقوله (لعلهم ينتهون)
 - ٥- » » » عدم قبول صدقات المنافقين بفسقهم ثم بكفرهم في آيتي ٥٣ و ٥٤
 - ٦- » » » المغفرة لهم بكفرهم بالله ورسوله وفسقهم في الآية ٧٩
 - ٧- » » » النهي عن الصلاة على موتاهم بكفرهم بالله ورسوله في الآية ٨٤
 - ٨- » » » الامر بأخذ الصدقة من المؤمنين بتطهيرهم وتزكيتهم بها [١٠٣]
 - ٩- » » » فتنة المنافقين في كل عام بأمل التوبة والتذكر [١٢٦]
- فيعلم من كل تعليل ان حكمته تعالى في أفعاله وأحكامه منفعة عباده ومصلحتهم وخيرهم

سننه تعالى في أفراد البشر وأقوامهم وأممهم

بيننا سنن الله تعالى في تأثير العقائد والصفات النفسية في الاعمال وترتب الاعمال عليها في مواضع [منها] إخزاء الكافرين في الآيات الأولى [ومنها] نفي هداية الله تعالى للظالمين والفاسقين والكافرين في الآيات ١٩ و ٢٤ و ٣٧ و ٨٠ [ومنها] كراهته تعالى انبعاث المنافقين للقتال وتثبيطهم وقوله [اقعدوا مع القاعدین] في الآية ٤٦ [ومنها] طبعه على قلوبهم في الآيتين ٨٧ و ٩٣ وفي معناه صرف قلوبهم عن الايمان بالقرآن في الآية ١٢٧ وتقدم بيان هذا في الفصل الذي قبل هذا

ومن بيان سننه تعالى في الامم قوله تعالى (٣٩) لا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم) بقاء الامم وعزتها يتوقفان على قوة الدفاع الحربية [راجع تفسيرها في ص ٤٢٥] ومنها قوله [٤٧] لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا [راجع تفسيرها في ص ٧٢] ومنها قوله (١١٥) وما كان الله ليضل قوما بعد اذ هداهم حتى يتبين لهم ما يتقون

﴿ الفصل الرابع ﴾

في قضاء الله وقدره وولايته للمؤمنين وتوكلهم عليه

هذه عدة عقائد من أصول الايمان ، وكال التوحيد والايقان ، جمعت كلها في آية واحدة من هذه السورة أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يرد بها على المنافقين الذين أخبرهم عنهم بأنهم تسوءهم كل حسنة تصيبه كالنصر والغنيمة في غزوة بدر ، وتفرحهم كل مصيبة تصيبه كالنكبة التي وقعت في غزوة أحد وهي (٥١ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون) فتصور حال مؤمن يوقن أنه لن يصيبه إلا ما كتبه الله له - وأنه ان لم يكن يعرف هذا المكتوب له بعينه فهو يعتقد أنه لا يعدو في جلته وعده تعالى له من حيث هو مؤمن من الخير والنصر والشهادة في سبيل الله المعبر عنهما بالحسنين في الآية التي بعد هذه [أي آية ٥٢] ويعتقد أن الله تعالى هو مولاه الذي يتولى نصره وتوقيفه ، فهو بمقتضى إيمانه يتوكل عليه ويفوض أمره اليه ، تصور حال مؤمن تمكنت هذه العقائد من نفسه ، وملكت عليه وجدانه ، هل يخاف من غير الله ؟ هل ييأس من روح الله ؟

هل يمنعه أي خطب من الخطوب عن الجهاد لاعلاء كلمة الله ، واقامة دين الله ، وبذل الجهد ، في اقامة الحق والعدل ، ومد بساط البر والفضل ؟؟ وتصور حال أمة يغلب على أفرادها ما ذكر ألا تكون أعز الامم نفساً، وأشدّها بأساً ؟

ويؤيد هذه العقائد ويزيدها رسوخاً في قلب تالي هذه السورة ختمها بقوله عز وجل (١٢٩) فان تولوا فقل حسبي الله لا إله الا هو، عليه توكلت وهو رب العرش العظيم) فينبغي للمؤمن أن يتأمل معناها ويطالب نفسه بالتحقق به، فانه يجد به من حلاوة الايمان وعزة النفس ما يحتقر به خسائس المادة التي يتكالب الماديون عليها، ويبخعون أنفسهم انتحاراً اذا فاتهم أو أعيامهم شيء منها، وقد ورد في ذلك عن أم الدرداء عن أبي الدرداء [رض] من قال إذا أصبح وإذا أمسى « حسبي الله لا إله الا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم سبع مرات كفاه الله ما أهمه » وقد تقدم هذا في تفسير الآية (ص ٩٧)

الباب الثاني

(في مكانة محمد رسول الله وخاتم النبيين عند ربه وفي هداية دينه وحقوقه على أمته)

وفيه ثلاثة فصول

﴿ الفصل الاول في اقتران اسمه باسم ربه وحقه ﷺ بحقه عز وجل ﴾

وفيه أربعة عشر شاهداً

(١ و ٢) افتتحت هذه السورة بقوله تعالى (براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين) وعطف عليها قوله تعالى (وأذان من الله ورسوله الى الناس يوم الحج الاكبر) الخ فقرن تعالى اسم نبيه باسمه في تبليغ أحكامه وتنفيذها (٣) قل تعالى في وصف كلمة المؤمنين من الآية (١٦) — ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة) أي دخيلة وبطانة من غيرهم يطاعونهم على الاسرار ، ولهذا أشرك المؤمنين في هذا لانه يتعلق بحقوقهم في ولاية بعضهم لبعض دون أعدائهم ، ويضرهم أن يكون بينهم ولائج ودخائل من غيرهم . دون

ما قبله الذي هو تشريع هو حق الله تعالى وتبليغ وتنفيذ : هما حق رسوله ﷺ في عهده ، وورثته من بعده

(٤) قوله تعالى (٢٤) قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره) فجعل كمال الإيمان مشروطاً بتفضيل حب الله تعالى ورسوله على كل ما يحب في هذا العالم من الناس والمصالح والمنافع ، ولكنه جعل الجهاد في سبيل الله وحده دون رسوله لأنه عبادة يتقرب بها إلى الله وحده وليس الرسول ﷺ أدنى حق ولا شراكة مع الله عز وجل في عبادته (٥) قوله تعالى في صفات أهل الكتاب الذين شرع قتالهم من الآية (٢٩) — ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله (على القول بأن « رسوله » في الآية هو الفرد الأكمل خاتم النبيين وهو قول المفسرين يقابله أن المراد به رسوله تعالى إليهم وهو موسى (ع . م) لليهود وعيسى (ع . م) للنصارى

وهل العطف في الآية يدل على أن الرسول قد أعطاه الله حق التحريم من تلقاء نفسه أم حظه منه التبليغ عن الله تعالى نصاً ولو في غير القرآن أو استنباطاً ؟ اختلف علماءنا في التشريع الديني في هذه المسألة دون الديني المحض فذهب بعضهم إلى الأول وجعلوا منه تحريمه ﷺ المدينة كمكة أن يصاد صيدها أو يختلج خلاها الخ وذهب آخرون إلى الثاني ومنهم الإمام الشافعي وقد بينا هذه المسألة في موضع آخر بالتفصيل

(٦) قوله تعالى في سبب منع المنافقين أن تقبل منهم نفقاتهم من الآية ٥٤ (إنهم كفروا بالله ورسوله) ومثله في سبب عدم انتفاعهم باستغفار النبي ﷺ من الآية (٧٩) — ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله (وهذا ظاهر فإن الدين إنما يكون بالجمع بين الإيمان بالله والإيمان برسوله وما جاء به ، وأنى يعرف الله وما يرضيه من عبادته إلا من طريق رسله وما أوحاه إليهم ؟

(٧) قوله تعالى في الذين لمزوا النبي ﷺ أي عابوه في قسمة الصدقات وكانوا يرضون إذا أعطوا ويسخطون إذا منعوا (٥٩) ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله

ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله ، إنا إلى الله راغبون (والجمع فيها بين اسم الله واسم رسوله في موضعين أحدهما الرضاء بما آتيا وأعطيا بالفعل ، والثاني الرجاء فيما يؤتيان من بعد ، فأما العطاء من الله تعالى فهو أنه هو الذي أنعم وينعم بالإنعام في الحرب وهو الذي شرع قسمتها بين الغانمين ، وجعل خمسها فيما تقدم في أول الجزء العاشر في مصالح المسلمين ، ومنها مواساة الفقراء والمساكين ، وهو المنعم بسائر الاموال ، والذي فرض فيها ما تقدم تفصيله من الصدقات ، وأما الرسول ﷺ فهو القاسم للأنعام والصدقات بأعطائها لمستحقها بالحق والعدل ، ولذلك خص الله تعالى في الآية بالفضل ، وفيها من أصول التوحيد ، والتمييز بين ما لله وحده وما له وللرسول أمران (أحدهما) أن المحاسب الكافي للعباد هو الله وحده ، ولهذا أرشدكم أن يقولوا « حسبنا الله » ولم يقل ورسوله كما قال في الإيتاء (وثانيهما) أن توجه المؤمن فيما يرغب ويرجوه من الرزق وغيره يجب أن ينتهي إلى الله تعالى وحده وهو نص قوله (إنا إلى الله راغبون) ومنه (وإلى ربك فارغب) أي دون غيره (راجع ص ٤٨٨ ج ١٠)

(٨) قوله تعالى (٦٢) يحلفون بالله لكم ليرضوكم ، والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين) فمقتضى الإيمان الذي لا يصح بدونه تحري المؤمنين بإرضاء الله ورسوله في المرتبة الأولى ، وإرضاء المؤمنين بما يتعلق بمعاملتهم في المرتبة الثانية التابعة للأولى ، ذلك بأن كل ما يرضي الله عز وجل يرضي رسوله ، وكل ما يرضي رسوله ﷺ يرضيه ، فهما متلازمان ، وأما المؤمنون فقد يرضي بعضهم ما لا يرضي الله ورسوله لجهله بما يرضيهما أو غفلته عنه أو اتباعه لهواه فيه . ومنه في موضوع الآية أن بعض المؤمنين من الصحابة الكرام ربما كانوا يصدقون أولئك المنافقين الذين يحلفون لهم بأنهم صادقون في اعتذارهم عما اتهموا به في غزوة تبوك ، لأنهم لا يعلمون ما يعلمه الله تعالى من باطن أمرهم وما أعلم به رسوله منه ، ولذلك قال في آية أخرى (يحلفون لكم لترضوا عنهم فان رضوا عنهم فان الله لا يرضى عن القوم الفاسقين)

(٩) قوله تعالى (٦٣) ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فان له نار جهنم

الآية وهذه مقابلة لما قبلها فان من يجادل الله أي يعاديه يعادي رسوله كما أن من يرضي أحدهما يرضي الآخر، ومن ثم كان الجزاء واحداً

(١٠) قوله تعالى في المنافقين الذين كانوا يخوضون في مسألة غزوة تبوك ويهزؤون بمحاولة غزو الروم ورجاء الرسول ﷺ النصر عليهم وبما كان وعده به أصحابه من الظفر بملسكم (٦٥) ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب. قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون)؟ فحكم الاستهزاء بالله وآياته الكفر، وهو حكم الاستهزاء برسوله، لأن الله تعالى هو الذي وعد رسوله بالنصر وأمره بالغزو، ورسوله إنما بلغ عنه آياته ووعدته في ذلك.

(١١) قوله تعالى (٩٠) وجاء المذنبون من الأعراب ليؤذن لهم وقعد الذين كذبوا الله ورسوله الآية. معنى كذبهم إياها إظهار الإيمان بها كذباً وخداعاً ومن كذب الرسول في دعوى الإيمان فقد كذب الله - وإن لم يشعر بذلك - واستحق الجزاء الذي في الآية

(١٢) قوله تعالى في أصحاب الأعداء الصادقة في التخلف عن الجهاد الواجب (٩١) ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا فصحوا لله ورسوله) فاشترط لقبول عذرهم في القعود عن القتال النصح لله ورسوله في كل قول وعمل يقدران عليها في مقاومة الأعداء ومساعدة المؤمنين وغير ذلك فالنصح من أعظم شعب الإيمان، وراجع تفسير الآية

(١٣) قوله تعالى في المعتذرين من المنافقين عن الخروج إلى تبوك (٩٤) يعتذرون اليكم إذا رجعت إليهم قل لا تعتذروا إن نؤمن لكم قد نبأنا الله من أخباركم، وسيرى الله عملكم ورسوله الآية. والمراد من ذكر رؤية الرسول لها إعلامهم أنه هو الذي سيعاملهم بمقتضاها في الدنيا، دون أقوالهم في الاعتذار عن تخلفهم وغيره من سيئاتهم. وأما رؤية الله تعالى لها فهي التي عليها مدار الجزاء في الآخرة كما صرح به في تنمة الآية (ص ٣ ج ١١) وفي معناها قوله تعالى (١٠٥) وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) هذه الآية حث على العمل النافع للدنيا والآخرة وإنما ذكر المؤمنون هنا بعد ذكر الله ورسوله لتذكير العاملين

بان الله يرى أعمالهم وهو الذي يجازيهم عليها فيجب عليهم الاحسان والاخلاص له والوقوف عند حدود شرعه فيها. وبان رسوله يراها ويعاملهم بمقتضاها. وهذا خاص بحال حياته ﷺ - وهو الشهيد عليهم فيها عند الله تعالى لينحروا أن يشهد لهم لا عليهم. ثم لتذكيرهم بان المؤمنين يرونها فينبغي لهم أن يتبعوا فيها سبيلهم ويتحروا فيها ما يوافق المصلحة العامة التي يشتركون فيها. وجماعة المؤمنين شهداء بعضهم على بعض وشهادتهم مقبولة عند الله تعالى (راجع تفسير الآية في ص ٣٣ ج ١١)

(١٤) قوله تعالى (٩٩ ومن الاعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول) فهذا ضرب من اقتران اسم الرسول ﷺ باسم الله تعالى في موضوع واحد مع الفصل فيه بين ماله تعالى ومه لرسوله . فالذي لله عز وجل من هذه العبادة هو قصد القرية وابتغاء الرضا والمثوبة ، والذي للرسول ﷺ هو طلب صلواته أي ادعيته إذ كان يدعو للمتصدقين كما بيناه في تفسير الآية (ص ١١ ج ١١)

وكل هذه الآيات مما يفند دعوى بعض الملاحدة ان دين الاسلام هو القرآن وحده دون سنته رسوله ، وكذلك ما ترى في الفصاين اللذين بعده

﴿ الفصل الثاني ﴾

﴿ في علو مكانته وعناية الله تعالى به وتكريمه وتأديبه وتكميله إياه ﴾

(وفيه ١١ منقبة بالاجمال وأضعاف ذلك بالتفصيل)

(المنقبة الاولى) جعل الايمان به وطاعته وحبه وارضائه مقرونة في المرتبة والثناء والثواب بماله عز وجل من ذلك على عباده — وجعل ما يقابل ذلك من الكفر به وعصيانه وبغضه واغضابه وايدائه مقرونة في الحظر والكفر والوعيد واستحقاق العذاب الاليم بالكفر بالله وعصيانه الخ ونجد ما في السورة من الامرين مفصلا في الفصل الاول الذي قبل هذا ، فهي بضع عشرة لا منقبة واحدة

(الثانية) انزال الله سكينته عليه وتأيدته بمجنوده من الملائكة في يوم حنين

التوبة :س ٩ عفوہ تعالیٰ عن نبیہ وتحدیدہ لہ معاملۃ المنافقین ١٠٩

حين انهزم المؤمنون وولوا مدبرين كما هو مبين في الآيتين ٢٥ و ٢٦ (ويراجع تفسيرهما في ص ٢٤٣ - ٢٤٨ ج ١٠)

(الثالثة) نصر الله له عند خروجه للهجرة مع صاحبه الصديق ومعينته الخاصة لهما وانزال مكينته عليهما وتأييدهما بجنوده من الملائكة ، وفيها عدة مناقب كما تراه في آية الفار (٤٠) وتفسيرها البديع من ص ٤٢٦ - ٤٥٩

(الرابعة) إتمام الله تعالى نوره به كما تراه في الآية ٣٢ وقال بعض المفسرين إنه هو ﷺ نور الله المراد من الآية فانظر تفسيرها في ٣٨٣ ج ١٠ (الخامسة) قوله تعالى بعدها (٣٣) هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله (الآية وهي مشتملة على عدة مناقب فانظر تفسيرها في ص ٣٨٨ - ٣٩٤ مج ٩٠

(السادسة) قوله تعالى له (٤٣) عفا الله عنك لم أذنت لهم (الآية وفيها من لطفه تعالى به وتكريمه إياه ان أعلمه بعفوہ عنه قبل اعلامه بخطا الاجتهاد في اذنه لبعض المنافقين بالتخلف عن الخروج معه الى تبوك . وتجد في تفسيرها تحقيق الكلام في ذنوب الانبياء عليهم السلام [ص ٤٦٤]

[السابعة] إعلامه تعالى إياه بأن استغفاره للمشركين وعدمه سيان في جانب حكم الله فيهم وهو انه لا يغفر للمصرين على نفاقهم . وذلك في الآية [٧٠] وهذا تقييد لنفع الدعاء والشفاعة

(الثامنة) اعلامه تعالى بأنه ليس من شأن النبي من حيث هو نبي ولا من شأن المؤمنين أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى بعد العلم بوثهم على كفرهم بعد ان فعلوا ذلك . وهذا نص الآية ١١٣ وهي ارشاد من الله لهم فيما يجب أن يقفوا عنده من مودة القرابة والنسب (راجع ص ٥٦ ج ١١)

(التاسعة) نهيه تعالى إياه عن الصلاة على المنافقين أو القيام على قبورهم عند الدفن بعد صلاته على زعيمهم الأكبر الأكر عبد الله بن أبي بن سلول والقيام على قبره عند دفنه تكريما لنجدة المؤمن الصادق وتأليفا لقومه وكان أكثر المنافقين منهم ، وهذا النهي يتضمن الانكار والتأديب والحد الذي يجب الوقوف عنده في معاملۃ المنافقين ، وسيأتي تفصيله

[العاشرة] نبيه عن الاعجاب بأموالهم وأولادهم وإعلامه بأن الله يعذبهم في الدنيا قبل الآخرة، وهو في الآيتين ٥٥ و ٨٥ على القول بأن الخطاب فيهما له صلوات الله وسلامه عليه ويجوز أن يكون عاما لكل من يسمع القرآن أو يقرؤه، وهو على كل تقدير تأديب من الله تعالى وتكميل للنبي والمؤمنين بالسمو بانفسهم عن تعظيم شأن قوة الاموال وعزة الاولاد وزينتهما يكونان للمحرومين من قوة الايمان وعزته وهما اللتان لا يعلوهما شيء. وتعليمهم ما لم يكونوا يعلمون من ان النعم الصورية الدنيوية لا تتم لاهلها النعمة بها الا باطمئنان القلوب بنعمة الايمان، وتزكي الانفس باعمال الاسلام، وان السعادة الحقيقية انما هي سعادة النفس بالعلم والعرفان وعلو الاخلاق، ومن متماتها الدنيوية كثرة الاموال والاولاد، وان هؤلاء المناقين بتقديم هذه النعم الباطنة، لاسعادة لهم بتلك النعم الظاهرة، وانما هي مغفصات لهم في الدنيا نفسها بما ينشأ في تفسير الآيتين [في ص ٤٨٤ و ٥٧٤ ج ١٠]

(الحادية عشرة) توبته تعالى عليه وعلى خيار أصحابه المؤمنين وهذا منتهى التطهير والتزكية لهم من ربهم عز وجل في اثر غزوة تبوك التي ارققوا فيه أشد العسر، وقاسوا أعظم الجهد، من الجوع والظلم والنصب، ومفارقة موسم الرطب، في شدة الحر، وقلة الزاد والظهر، [الرواحل] فكان لابد أن يعرض لهم بعض الهفوات الجديرة برأفة الله ورحمته في جانب تلك الحسنات، التي أشير الى مضاعفة أجرها فيما يلي الاخبار بالتوبة عليهم من الآيات، وهو قوله عز وجل [١١٧] اقدتاب الله على النبي والمهاجرين والانصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعدما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم انه بهم رؤوف رحيم [ثم ذكر فيما يليها توبته على الذين خلفوا من هؤلاء الصادقين عن تبوك بغير عذر] حتى اذا ضاقت عليهم الارض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم [الخ

والتوبة من العبد إلى ربه هي رجوعه اليه عن كل ما لا يرضيه وتجرية ما يرضيه وهي تختلف باختلاف حال التائبين فيما يتوبون عنه حتى ان منهم من يتوب اليه ويستغفره من الغفلة، ومن التقصير في استكمال الجهد في الطاعة وأما التوبة من الرب على عبده فهي قبول توبته، والتجاوز عن ذنبه أو هفوته،

أوعن تقصيره في عبادته والخطأ في الاجتهاد في إقامة سنته، وتنفيذ شريعته، وعطفه عليه بما يكون مزيد كمال في إعلاء درجته ، ولذلك قال بعض المحققين : ان التوبة هي أول درجات الطاعة والمعرفة وهي آخر درجات الكمال في الايمان ونمراته ، وانها كالطهارة في الصلاة لا بد من استمرارها من أول سن التكليف إلى آخرها [راجع ص ٦٤ - ٧٢ ج ١١]

(الفصل الثالث)

﴿ في فضله ﷺ على أمته، وحقوقه الواجبة عليها، وحكم إخلالها بها وتقصيرها فيها ﴾
﴿ وهي ثلاثة أقسام ﴾

(القسم الاول في صفاته الخاصة وفيه بضع مزايا وفضائل)

(الاولى) وصف الله تعالى إياه بأنه صلوات الله وسلامه عليه في الآية ٦١ (أذن خير) في الرد الحكيم على قول بعض المنافقين (هو أذن) يعنون انه يصدق كل ما يقال له فيسهل عليهم خداعه ، وقد فسر وصفه بأنه أذن خير بقوله تعالى [يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين] ووجه الرد عليهم بهذا انه ﷺ انما يؤمن بالله ويصدق ما يوحى اليه في شأن المنافقين وغيرهم، وهو التصديق القطعي اليقيني ، وبليته انه يصدق المؤمنين بالله تعالى وبرسالته تصديق ثقة بهم واثمان لهم فيما هو خير في نفسه، وخير للناس حتى المنافقين منهم، لانه لا يسمع سماع قبول الا ما كان حقاً وخيراً ، دون الكذب والغيبة والتميمة - راجع تفسيرها في ص ٥١٦ ج ١٠

[الثانية] وصفه تعالى إياه بعد ما ذكر بقوله [ورحمة للذين آمنوا منكم] أي بما كان سبباً لهدايتهم وإسباغ الله عليهم سعادة الدنيا والآخرة بايمانهم به وعملهم بما دعاهم اليه من أسبابها ، دون المنافقين المكذبين أو المرتابين فيها ، وأما قوله تعالى في سورة الانبياء [وما أرسلناك الا رحمة للعالمين] فهو في معنى إرساله للناس كافة بما هو سبب الرحمة والسعادة . وما يأتي قريباً من وصفه بأنه رحيم بالمؤمنين فهو معنى آخر وستعرف الفرق بينهما

[الثالثة] وصفه في آية ١٠٣ بتطهير المؤمنين وتزكيتهم بما يأخذه منهم من الصدقات. وذلك انه صلوات الله وسلامه عليه لم يكن مثله في تبليغه لفرض الصدقات والنفقات ، وفي أخذه لها وقسمتها على مستحقيها كمثل الملوك والحكام الذين يجعلون المفروض على الناس من الاموال اتاوات وضرائب قهرية يؤدونها كما يؤدون سائر المغارم، ويمتقدون انها تنفق بحسب أهواء الملوك والحكام، ويكون لهم منها أكبر نصيب بغير استحقاق ، وإنما كان ﷺ يبين للمؤمنين حكمة ما فرضه الله تعالى عليهم ، وان فيه خير الدنيا وسعادة الآخرة لهم في أفرادهم وجماعتهم ، وكان يقسمه بين مستحقيه بالعدل ، ويحرم باذن الله على نفسه وعلى أهل بيته أخذ شيء منه ، فبهذا وذلك أسند الله تعالى اليه فعل التطهير والزكاة لهم ، وهو داخل في حكمة بعثته في قوله [يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة] وتجد التفصيل في تفسير الآية [ص ٢٤ ج ١١]

[الرابعة] وصف دعائه المتصدقين بعد ما ذكر بأنه سكن لهم تطمئن به قلوبهم ، وترتاح إليه أنفسهم ، ويثقون بقبول الله لصدقاتهم ، وتقول ان كل مؤمن متصدق مخلص ينا له حظ من دعائه ﷺ المتصدقين الى يوم القيامة، ولكن لم يرد في القرآن ولا في السنة ولا في سيرة الصحابة والتابعين ان النبي ﷺ يطلب منه بعد وفاته الدعاء لأحد

[الخامسة] وصفه تعالى بإياه بما امتن به على قومه من قوله في خاتمة السورة [١٢٨] لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم [فاثبت له شدة الحب لهم والحرص على هدايتهم وسعادتهم، وانه يعز ويشق عليه أن يصيبهم العنت والارهاق في دينهم أو دنياهم]

[السادسة] وصفه بعد ما تقدم بقوله [بالمؤمنين رءوف رحيم] وهاتان الصفتان من أعظم صفات الربوبية غير الخاصة بالله عز وجل الا في كمالها، ورأفته ورحمته ﷺ بالمؤمنين غير ارسال الله تعالى بإياه رحمة لهم خاصة ، وغير ارساله رحمة للناس كافة، فان رحمته بهم من صفات نفسه الشريفة القدسية التي ظهر أثرها في سياسته ومعاشرته لهم ، وتأديبه إياهم، وتنفيذ حكم الله تعالى فيهم، كما ترى في هذه

السورة كغيرها، وشواهد سيرته ﷺ في تفسيرها، فتأمل خطبته ﷺ في الانصار في أثر إنكار بعض شبانهم وعواهم حرمانه إياهم من غنائم حنين [ص ٢٥٨ - ٢٦٠ ج ١٠] فهي المعجب العجيب، والكمال، الذي لم يتم لبشر كما تم له عليه الصلاة والسلام وأما ارساله رحمة للعالمين وللمؤمنين فهو بيان لحكمة رسالته وفوائدها فيما اشتملت عليه من الحق والعدل والخير التي هي أسباب رحمة الله ومثوبته ورضوانه لمن اهتدى بها كما تقدم بيانه في محله

﴿ القسم الثاني فيما يجب له على أمته وفيه خمس واجبات ﴾

[الاول] وجوب حبه ﷺ بالتبع لحب الله تعالى وفي الدرجة التي تلي درجته في ثمرة الايمان، وتفضيل نوع حبها على كل ما يجب بمقتضى الفطرة ومصالح الدنيا، فراجع بيان ذلك في تفسير الآية (٢٥) تجد فيه مالا تجد مثله في تفسير آخر [ص ٢٢٥ ج ١٠]

[الثاني] وجوب تحري مرضاته بالتبع لمرضاة الله عز وجل في الآية ٦٢
[الثالث] وجوب طاعته بالتبع لطاعة الله في صفات المؤمنين من الآية ٧١
[الرابع] وجوب النصيح له بالتبع للنصح لله عز وجل في صفات المعذورين في التخلف عن القتال من الآية (٩١)

وهذه الواجبات له قد ذكرت في الفصل الاول من هذا الباب في سياق آخر

[الخامس] وجوب نصره كما يؤخذ من آية [٤٠] إلا تنصروه فقد نصره الله [ويؤيدها ما يأتي في القسم الثالث من حظر التخلف عنه

﴿ القسم الثالث فيما يحظر عليهم من ابداء وتقصير في حقه وهو خمسة محظورات ﴾

[الاول] حظر ابدائه فداؤه أبي وأمي ونفسي والوعيد عليه في الآية [٦١]

[الثاني] حظر محادثته أي معاداته والوعيد عليها في الآية [٦٣]

[الثالث] الكفر الصريح بالاستهزاء به في الآية [٦٥]

[الرابع] حظر القعود عن الخروج معه للجهاد في الآيتين [٨١ و ٩٠]

« تفسير القرآن الحكيم » « ١٥ » « الجزء الحادي عشر »

[الخامس] حذر تخلفهم عنه والرغبة بانفسهم عن نفسه في الآية [١٢٠] وهذا تعبير بليغ جدا يتضمن ان كل من يصون نفسه عن جهاد وعمل بذل الرسول ﷺ نفسه فيه فهو مفضل لنفسه على نفسه الكريمة في عهده ، ويمكن أن يقال ذلك فيمن بعده وان كان الفرق بين الحالين ظاهراً من ناحية ملاحظة ذلك وعدمها ، ومن ناحية قيام الحجة على من كان معه بما لا تقوم به على من لم يكن معه فضلاً عن بعده . وإنما نعي بالامكان انه ينبغي لكل مؤمن أن يتأمن به ﷺ في بذله ماله ونفسه لله والجهاد في سبيل الله بقدر إمكانه | لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً [فراجع تفسير الآية [ص ٧٤ ج ١١]

الباب الثالث

في دين الاسلام وما في السورة من حججه وأصوله وصفات أهله وفيه ٣٣ فصول

الفصل الاول في حجج الاسلام من البشارات والنذرو الاخبار بالغيب وهي عشرة

(الاولى) قوله تعالى المشركون في الآية الاولى (واعلموا انكم غير معجزي الله وأن الله مخزي الكافرين)

(الثانية) قوله (١٤) قاتلوم بعدهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم)

(الثالثة) قوله للمؤمنين (٢٨) وان ختم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله)

(الرابعة) بشارته بخذل اليهود والنصارى فيما يحاولون من اطفاء نوره تعالى

(الاسلام) ووعدته باتمامه واظهار دينه على الدين كله وذلك في الآيتين (٣٢ و ٣٣)

يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم - إلى قوله - ولو كره المشركون)

(الخامسة) قوله تعالى (٦٤) يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم)

(السادسة) قوله (٦٥) وان سألهم ليقول انما كنا نخوض ونلعب) الآية ولذلك

كله ولما سيأتي قال (٧٨) ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ومجاوهم وأن الله علام الغيوب)

(السابعة والثامنة والتاسعة) قوله (٩٤) يعتذرون اليكم إذا رجتم اليهم قل

لا تعتذروا لنؤمن لكم قد نبأنا الله من أخباركم) الآية وقوله (٩٥) سيحطون

بالله لكم اذا انقلبتم اليهم لتعرضوا عنهم - وقوله - (٩٦) يحلفون لكم ان رضوا عنهم) الآيات وهي أظهر في خبر الغيب من قوله (٥٦) ويحلفون بالله انهم لمنكم) وقوله (٦٢) يحلفون بالله لكم ليرضوكم) لاحتمال أن يكون الاخبار بهذين الحلفين بعد وقوعهما لبيان غرضهم وما في باطنهم وهو عين تعليل حلفهم في الآية ٩٦ (العاشرة) قوله (١٠١) ومن حولكم من الاعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين) أي في الدنيا وقد تم كل ذلك وصدق وعد الله ووعدوه وخيره وفي السورة أخبار أخرى بالغيب يحتمل أن تكون من باب طبيعة العمران وستن الله في البشر وترى مثاله في الفصل الثالث من الباب الأول

(الفصل الثاني)

(في صفة الاسلام ومدخله واهم أصول التشريع فيه - وفيه عشرة أصول) (الاصل الاول) أن دين الاسلام هو نور الله تعالى العام، وهدهد الكامل التام، الذي نسخ به ما تقدمه من الاديان، ووعد الله عز وجل بآتمامه، وخذلان مريدي إطفائه، وذلك نص الآيتين (٣٠ و ٣٣) وتجد في تفسيرهما [من ص ٣٨٣ - ٣٩٤ ج ١٠] ما لا تجد مثله في شيء من كتب التفسير الاخرى من إظهاره على جميع الاديان، بالحجة والبرهان، والهداية والعرفان، والهدى والعمران، والسيادة والسلطان، (الاصل الثاني) مدخل الاسلام ومفتاحه وما يتحقق به وهو قوله تعالى في المشركين (٥) فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم) وكذا قوله (١١) فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين) والمراد التوبة من الشرك وتحصل بالاقرار بالشهادتين، وتجد في تفسيرهما خلاف العلماء في كفر تارك الصلاة وما منع لزكاة من أفراد المسلمين (ص ١٦٨ و ١٨٧ ج ١٠) (الاصل الثالث) بناء الاسلام على العلم الصحيح دون التقليد الذي ذمه القرآن في آيات كثيرة وشتم به على المشركين. ودليله في هذه السورة قوله تعالى في تعليل الامر باجارة المشرك الحر في دار الاسلام ليرسم القرآن (٦) ذلك بأنهم

قوم لا يعلمون) وقوله في الآية (١١) ونفصل الآيات لقوم يعلمون (وأصرح منها قوله في مقالة أهل الكتاب (٣١) اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله) مع تفسير النبي ﷺ ذلك باتباعهم إياهم فيما يحلون لهم ويحرمون عليهم [ص ٣٦٣ ج ١٠] [الاصل الرابع] ان التكليف العام من العبادات والحلال والحرام الديني لا يثبت الا بنص قطعي وهو ما كان عليه السلف الصالح وأصل مذهب الحنفية وشاهده في هذه السورة قوله تعالى [١١٥] وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون [وبيانه في تفسيرها [ص ٦١ ج ١١]

(الاصل الخامس) جهاد المشركين في سبيل الله وعدم السماح لهم بالاقامة في بلاد العرب أو يدخلوا في الاسلام وهو في آيات منها الآية التي سموها آية السيف وهي الخامسة (فاذا انسلخ الاشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) وهي غير ناسخة لآيات العفو والصفح والاعراض عن المشركين كما قيل وترى في تفسيرها تحقيق الآيات الناسخة والمنسوخة (ص ١٦٦ ج ١٠) ونستأني أحكام القتال وقواعده في الباب الرابع الآتي

(الاصل السادس) جعل الغاية من قتال أهل الكتاب أداء الجزية لنا بشرطها إلا ان يدخلوا في الاسلام . وهو في الآية ٢٩ وستذكر في أحكام القتال [الاصل السابع) المساواة بين الرجال والنساء في ولاية الايمان المطلقة وصفاته الشخصية والعامة المشتركة في قوله (٧١) والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله) ويدخل في إطلاق الولاية ولاية النصر والدفاع عن الامة والبلاد ، إلا انه لا يجب على النساء القتال الا في حال النفير العام (ص ٥٤١ ج ١٠)

(الاصل الثامن) المساواة بين الرجال والنساء في جميع نعيم الآخرة تبعاً للمساواة في التكليف ، وهو نص قوله تعالى (٧٢) وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات (الخ (الاصل التاسع والعاشر) وجوب طلب العلم والتفقه في الدين - ووجوب بث العلم مقروناً بالوعظ والانداز الذي يرجى تأثيره النافع - وهما في الآية ١١٦ وفي السورة من أصول الايمان عقيدة البعث وجزاء المؤمنين والكافرين والمنافقين

في آيات كثيرة كسائر القرآن (تراجع الآيات ٣ و ٧ و ١٨ و ١٩ و ٢١ و ٢٢ و ٣١ و ٤٤ و ٤٥ و ٤٩ و ٦١ و ٦٣ و ٦٨ و ٦٩ و ٧٤ و ٨١ و ٩٥)
وفائدة هذا التكرار أن ترسخ هذه العقيدة في قلوب المتعبدین بتلاوة القرآن
بكثرة تذكرها في المواضع المختلفة من ذكر الاعمال التي يترتب عليها ذلك الجزء
وان من ضرور إعجاز القرآن أن يرد فيه المعنى الواحد في العشرات أو المئات من
المواضع ، ولا يمل تكراره القاريء ولا السامع

(الفصل الثالث)

(في آيات الايمان الصادق وصفات أهله وطبقاتهم وفيه ٣٢ شاهداً)

(الشاهد الاول) آية صدق الايمان المميزة بين الصادقين والمنافقين ومرضى
القلوب التي تظهر بالامتحان وهو الجهاد وحفظ أمر الله والدولة أن يغضى بها إلى
وليعة أو بطانة من دون المؤمنين ومنهم جواسيس الاعداء . وهو نص الآية ١٦
(ص ٢٠٢ ج ١٠)

(٢) آية صدق الايمان وما ينافيه من ولاية الآباء والاخوان الذين يستحبون
الكفر على الايمان في الآية ٢٣ (ص ٢٢٣ ج ١٠)

(٣) آية صدق الايمان تفضيل حب الله ورسوله والجهاد في سبيله على حب
الآباء والابناء والاخوان والعشيرة والمال والتجارة والمساكن المرضية . وذلك
مفصل في الآية ٢٤ ونجد من بيان معانيها في تفسيرها مالا نجد مثله في شيء من
كتب التفسير (ص ٢٢٥ - ٢٤٢ منه)

(٤) أخوة الاسلام الدينية في الآية ١١ وتفسيرها في (ص ١٨٧ و ١٩٠)

(٥) عمارة مساجد الله حساً ومعنى وعدم خشية أحد إلا الله في الآية ١٨

(٧) ولاية بعض المؤمنين لبعض ذكوراً وإناثاً (٨) الامر بالمعروف والنهي

عن المنكر (٩) طاعة الله ورسوله - في الآية ٧١ *

(*) وفي هذه الآية إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وهما أهم أركان الاسلام العملية كما تقدم في ذكر أصوله

- (١٠) صفات المؤمنين المميزة لهم من المنافقين في المقابلة بين الآيتين ٤٤ و ٤٥ (ص ٤٦٨ و ٤٦٩) وبين الآية ٦٨ وما بعدها (ص ٥٣٣) والآية ٧١ وما بعدها (ص ٥٤١) والآية ٨٦ وما بعدها (ص ٥٨١) والآية ٨٨ وما بعدها (ص ٥٨٢) وبين الآيتين ٩٨ و ٩٩ (ص ٩-١٢ ج ١) وبين الآيات ١٢٤-١٢٧ (ص ٨٢ منه)
- (١١) طبقات خيار المؤمنين الثلاث: المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم باحسان في الآية المتممة للمائة (ص ١٣ منه) وفي الآية ١١٧ (ص ٦٤ منه)
- (١٢) المؤمنون الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا في الآية ١٠٢ (ص ٢٠ منه) والمؤمنون الذين أرجأ الله قبول توبتهم في الآية ١٠٦ (ص ٣٥ منه)
- (١٣) الاخلاص في الانفاق في سبيل الله ابتغاء القربات عند الله ، وصلوات الرسول أي أدعيته - الآية ٩٩
- (١٤) العمل النافع للدنيا والدين الذي يرضي الله ورسوله والمؤمنين - الآية ١٠٥
- (١٥) حب التطهر من الادران الحسية والارجاس المعنوية - الآية ١٠٨
- (١٦) بيع المؤمنين أنفسهم وأموالهم لله تعالى بالجنة في الآية ١١١
- (١٧-٢٥) صفات هؤلاء المؤمنين : التوبة. العبادة الخالصة . الحمد لله على كل حال . السياحة . ركوع الخضوع . سجود الخشوع . الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والحفظ لحدود الله في الآية ١١٢
- (٢٦) آية المؤمنين عدم الاستغفار للمشركين ولو كانوا أولي قربى - الآية ١١٣
- (٢٧) تقوى الله عز وجل (٢٨) ملازمة الصادقين - الآية ١١٩
- (٢٩) التفقه في الدين (٣٠) إنذار الناس وتعليمهم - الآية ١٢٢
- (٣١) الغلظة في القتال على الكفار المحاربين - الآية ١٢٣
- (٣٢) زيادة الايمان بنزول القرآن في الآيتين ١٢٤ و ١٢٥

الباب الرابع

(في المسائل المالية والعسكرية والسياسية ، وما فيها من أحكام القتال واليهود . وفيه ٣ فصول)

﴿ الفصل الاول في أحكام الاموال ﴾

(تقدم في سورة الانفال أحكام الغنائم وما في معناها من أموال الحرب وفرض الخمس فيها ومصارفها وحق آل الرسول ﷺ فيه وحكمته وما للامة فيه من المصلحة ، وبيان أنواع الاموال الشرعية في الاسلام وامهات مقاصدها في الدولة الاسلامية . فما في هذه السورة متم لما قبله في الاموال كما انها متممة لما فيها من أحكام القتال وشؤون المنافقين والكفار)

والكلام في هذا الموضوع ثلاثة أقسام (١) المسائل الدينية والاجتماعية في الاموال (٢) أنواع الاموال ومصارفها (٣) فوائد اصلاح الاسلام للمالي للبشر

(القسم الاول)

﴿ في مكان اتفاق المال من الايمان ، والبخل به من النفاق ، وفيه ١٠ مسائل ﴾
(المسألة الاولى) كون الزكاة المعينة أحد أركان الاسلام لا تقبل دعواه من الكفار بدون التزامها ، ولا تحصل اخوته الدينية الا بأدائها ، واعتبار ما نفعها من الجماعات مرتدين يجب مقاتلتهم . وفي الافراد خلاف تقدم تحقيق الكلام فيه .
فونص ذلك في قوله تعالى (٥ - فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم)
وقوله (١١ - فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين) ويؤكد كده عدد الزكاة كالصلاة من صفات المؤمنين الراسخة في آية (٧١) والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض) الخ

(م ٢) كون بذل الاموال في سبيل الله آية الايمان الصحيح وقوام الدين ، ومن شواهد الآياتان المشار اليهما آنفا في فريضة الزكاة ، ومنها الآية (٢٠) الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله) إلى قوله في الآية (٢٢) إن الله عنده أجر عظيم * ومنها الوعيد الشديد لمن أمواله وتجارته وسائر حظوظه أحب اليه من الله ورسوله وجماد في سبيله ، وهو في

١٢٠ مكان انفاق المال من الايمان والبخل به من النفاق التفسير : ج ١١

الآية (٢٤) ومنها قوله تعالى في آية النذير العام (٤١) انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله) وقوله (٤٤) لا يستأذنتك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم) ويتم معناها الآيتان بعدها ومنها قوله تعالى (٥٥) فلا تمجلك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا (م ٣) كون البخل والامتناع عن الانفاق في سبيل الله آية الكفر والنفاق فمن شواهد عدم قبول نفقة المنافقين وكون أموالهم بلاء ووبالا عليهم في الدنيا والاخرة في الآيات ٥٣ و ٥٤ و ٥٥ (ومنها) لمز المنافقين للنبي ﷺ في قسمة الصدقات لقطع في المال في الآية ٥٨ (ومنها) وصف المنافقين بالبخل وقبض الايدي عن الانفاق في قوله (٦٨) المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض - إلى قوله - ويتقبضون أيديهم) ويؤكد هذا ضرب المثل لهم في الآية ٧٠ بعدها بالذين من قبلهم من الغرورين بالقوة والمال، ووصف المؤمنين بعدها بصفات منها (ايتاء الزكاة)

(ومنها) قوله تعالى (٧٥) ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن (الآية والوعيد الشديد على البخل في الآيات التي بعدها (ومنها) لمز المنافقين للمتطوعين من المؤمنين في الصدقات في الآية ٧٦ (ومنها) ٨١ فرح الخلفون بمقدم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله) الآية

(م ٤) وصف كثير من رؤساء الدين من أهل الكتاب بأكل أموال الناس بالباطل تحذيراً من فعلتهم، ورفعاً لقدركل مسلم أن يسف ويسفل إلى دركهم (م ٥) الوعيد على كنز الاموال وعدم انفاقها في سبيل الله في الآيتين (٣٤ و ٣٥) يأبها الذين آمنوا ان كثيرا من الاجبار والرهبان لياكلون أموال الناس بالباطل - إلى قوله - فذوقوا ما كنتم تكنزون)

(م ٦) آية (٩٨) ومن الاعراب من يتخذ ما ينفق مفرماً) وهم منافقون كفي أسد وغطفان كانوا يعطون الصدقات رياء وخوفا لا يرجون منها نفعا بتأييد الاسلام ولا ثوابا في الآخرة لعدم ايمانهم، فهي في نظرم مغارم يلتزمون بها ليعتدوا بما يظهرون من اسلامهم، وهكذا شأن المنافقين في الدين وفي القومية والوطنية لا يبذلون شيئا من مالهم لاجل المصلحة العامة ، بل للرياء والسعة ، وهو في نظرم غرامة

(م ٧) آية (٩٩) ومن الاعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول) وهم بنو أسلم وغفار وجهينة وحسبك شهادة الله تعالى لهم بصدق إيمانهم وحسن نيتهم في نفقاتهم ، وحكمها عام
(م ٨) الترغيب في الصدقات بالتميير عن قبولها والاثابة عليها باخذ الله عز وجل لها كما في الآية (١٠٤)
(م ٩) الترغيب فيها بقوله تعالى (١١) إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم واموالهم بأن لهم الجنة) الآية
(م ١٠) فضل النفقة في الجهاد قلت او كثرت وكون الجزاء عليها احسن الجزاء وهو نص الآية (١٢١) وتفسيرها في ص ٧٦ ج ١١

(القسم الثاني)

(أنواع الاموال الشرعية وأحكامها بالاجمال ومصارفها وفيه ١٤ مسألة)

- (١) مال الجزية — وقد بينا معناها وتاريخها وأحكامها وشروطها في تفسير آية الجزية (٢٩) وهو في ص ٢٨١ — ٣٠٦ ج ١٠
- (٢) أنواع الصدقات الواجبة المقدرة الموقوتة وهي النقدان من الذهب والفضة والتجارة في استغلالها والأنعام والزرع الذي عليه مدار الاقوات والركاز وهو المدفون في الارض يعثر عليه والمعدن (ص ٤٨٩ و ٥٠٨ ج ١٠)
- (٣) سهم الفقراء والمساكين وهل هما صنفان أو صنف واحد ينقسم بالوصف الى قسمين ؟ (راجع ص ٤٩٠ ج ١٠)
- (٤) سهم العاملين على الصدقات من جباة وخزنة وكتبة (ص ٤٩٣)
- (٥) سهم المؤلفنة قلوبهم وهم ستة أصناف (ص ٤٩٤)
- (٦) سهم الرقاب أي تحرير الرقيق باعائه على شرائه لنفسه المبرعه بالكتابة أو شرائه من مالكه وعتقه (ص ٤٩٧)
- (٧) سهم الغارمين الذين ركبته ديون تعذر عليهم أدائها، والذين يعرمون

عمدا ما ينفقونه لاصلاح ذات البين ومنع الفتن الثرة (ص ٤٩٨)

(٨) سهم الانفاق في سبيل الله على الغزاة والمرابطين الذين لا نفقة لهم من

بيت المال ، وما يدخل في عموم ذلك من المصالح العامة (ص ٤٩٩ — ٥٠٤

(٩) سهم ابن السبيل وهو المقطوع عن بلده في سفر لا يتيسر له فيه الوصول

الى ماله ان كان له مال فيعطى بقره العارض ما يستعين به على اتمام سياحته والعود الى بلده وأهله (ص ٥٠٤)

(١٠) الدليل على كون عروض التجارة مما تجب فيه الزكاة (ص ٥٠٨)

(١١) توزيع الصدقات على الاصناف كلهم أو بعضهم (ص ٥٠٩)

(١٢) الزكاة المطلقة والمعمنة ومكانتها في الدين وحكم دار الاسلام ودار

الكفر فيها والبلاد المذبذبة بين الدارين (ص ٥١١)

(١٣) لا تعطى الزكاة للمرتدين ولا الالابحيين والملاحدة (ص ٥١٣)

(١٤) التزام أداء الزكاة كاف لاعادة مجد الاسلام (ص ٥١٤)

﴿ فصل في فوائد الزكاة المفروضة والصدقات واصلاح الاسلام المالي للبشر ﴾

(وامتياز الاسلام بذلك على جميع الاديان)

وفيه مقدمة في منافع المال وارتباط جميع مصالح البشر الدنيوية والدينية به

وشأنهم في حبه وكسبه وانفاقه وامساكه ، وارشاد الدين فيه ، وكون الاسلام

وسطا بين اليهودية والمادية فيه ، وغلو عباده من اليهود والافرنج في جمعه

واستغلاله - وبين بدعة البلشفية الاشتراكية في مقاومة الشعوب والدول المالية

وغلوها في ذلك وفي هدم الاديان . وتلخيص الاصلاح الاسلامي المالي في أربعة

عشر أصلا (فراجع في ص ٢٧ - ٣١ ج ١١)

(الفصل الثاني في أحكام القتال والمعاهدات والصلح وهي ٢٠ حكماً)

(الحكم الاول) البراءة من المشركين ونبذ عهود المعاهدين منهم، ذلك أن مشركي مكة قد ناصبوا النبي ﷺ العداوة منذ دعا الى التوحيد وتبعهم سائر العرب فكانوا حرباً له ولمن آمن به يقتلون كل من ظفروا به منهم أو يعذبونه اذا لم يكن له من يحميه من المشركين، ولما هاجروا من مكة صاروا يقاتلونهم في دار هجرتهم وكان الله ينصر رسوله والمؤمنين عليهم كما وعده . حتى اذا ما كثروا وصارت لهم شوكة اضطر المشركون الى عقد أول صلح معهم في الحديبية فعاهدوهم سنة ست للهجرة على السلم والامان مدة عشر سنين ولم تلبث قريش مع أحلافها من بني بكر أن غدروا ونقضوا العهد، فكان ذلك سبباً لفتح النبي ﷺ مكة سنة ثمان ، ثم جمع المشركون جموعهم لقتاله في حنين والطائف فنصره الله عليهم ، وأمره في السنة التالية بأن ينبذ للمشركين عهودهم ويتبرأ منهم في موسم الحج (ص ١٩ ج ١٠)

(الثاني) أذان المشركين (إعلامهم) بذلك أذانا عاما في يوم الحج الأكبر وهو عيد النحر الذي تجتمع به وفود الحاج من جميع القبائل في منى بحيث يعلم هذا البلاغ جميع قبائل العرب في اقرب وقت ، لان الاسلام يحرم الغدر وأخذ المعاهدين على غرة فكان لا بد من اعلامهم بذلك بما ينتشر في جميع قبائلهم ، وكانت تلك الوسيلة الوحيدة لعلم كل فرد منهم بعود حالة الحرب بينهم وبين المسلمين، وهذا من عدل الاسلام ورحمته لان المشركين لم تكن لهم دولة ولا رئيس عام يبلغهم ما يتعلق بشؤونهم ومصالحهم العامة فيكتفى بابلاغه مثل هذا كما هو المعهود في الدول الملكية أو الجمهورية المدنية، ولم يكن في عصرهم صحف منشرة عامة ولا آلات للاخبار البرقية تنشر مثل هذا البلاغ

(الثالث) منحهم هدنة اربعة اشهر يسبحون في الارض حيث شاؤوا آمنين مطمئنين أحراراً في سيرهم وإقامتهم وسائر اعمالهم الدينية والدنيوية ليتروا في امرهم، ويتشاوروا في عاقبتهم . وفي هذا من رحمة القادر بعدوه ما يفتخر به المسلمون بحق . وهذه الاحكام صريحة في الآيات الثلاث الاولى من السورة (ص ١٤٩ ج ١٠)

(الرابع) وعظهم بأنهم إن تابوا من شرهم وما يفرهم به من عداوة المؤمنين

وقتلهم والغدر بهم فهو خير لهم ، لانهم ان يعجزوا الله في الارض ولن يعجزوه
 هربا منها ، وقد وعد بنصر رسوله عليهم من قبل ان يكثروا اتباعه ويبايعه انصاره ،
 وأنجز له وعده في جملة غزواته معهم ، وسبب هذا الوعد ان الايمان امر اختياري
 طريقه الموصل اليه الدعوة ودلائل الاقناع ، وذلك قوله في بقية الآية الثالثة (فان
 تبتم فهو خير لكم) الخ وفيها من الاخبار عن المستقبل مصادقه الواقع

(الخامس) استثناء بعض المشركين من نبذ عهدهم وهم الذين عاهدهم المؤمنون
 عند المسجد الحرام في الحديبية سنة ست ولم ينقصوهم من شروط العهد ومواده
 شيئا ، ولم يظاهروا ويعاونوا عليهم احداً من أعدائهم المشركين ولا اهل الكتاب ،
 كما نقض اهل مكة العهد بمظاهرة أحلافهم بني بكر على أحلاف النبي ﷺ بني
 خزاعة ، والامر باتمام عهدهم إلى نهاية مدته ، وتعليله بأنه من التقوى التي يحبها الله
 تعالى . وهذا نص الآية الرابعة بشرط ان يظلو مستقيمين عليه كما بيده في الآية السابعة
 (السادس) الامر في الآية الثامنة باستعمال جميع اسباب القتال معهم بعد
 انسلاخ أشهر الهدنة التي ضربت له وحرم فيها ، وهي القتل والاسر والحصر
 والعودة لهم في جميع المراحل ما راقبتهم ومنعهم من التجوال والتقلب في البلاد ، وهو
 يدل على شرعية استعمال ما يتجدد بين البشر من وسائل القتال الموافقة لاصول
 الاسلام العادلة الرحيمة - فان استعمل العدو ما هو مخالف لها قابلناه بالمثل لعموم
 قوله تعالى (ومن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله)
 (السابع) تخفية سبيل من يتوبون من الشرك بالنطق بالشهادتين ويقومون
 الصلاة ويؤتون الزكاة ، لانهم بهذا يدخلون في الاسلام ، ومن قبل الصلاة والزكاة
 والنزاهة فلا بد أن يلتزم غيرهما . وهذا نص الآية الخامسة

(الثامن) ايجاب اجارة من يستجير النبي ﷺ منهم - وفي حكمه الامام
 الاعظم ونائبه والقائد العام في حال الحرب - لاجل ان يسمع كلام الله ويقف على
 دعوة الاسلام وإبلاغه بعد ذلك المكان الذي يأمن فيه على نفسه من سلطان المسلمين
 (التاسع) تعليل نبذ عهده المشركين السابق وعدم استثنائهم معهم بالاسباب الآتية
 (١) انهم نقضوا عهد الحديبية بالغدر فلم يخبروا المؤمنين بذلك لياخذوا اهلهم

(ب) ان من دأبهم وشأنهم انهم إذا ظهوروا على المؤمنين برجحان قوتهم لا يرقبون فيهم عهداً ولا ذمة ولا قرابة، بل يفتكون بهم بدون رحمة
(ج) انهم ينافقون ويكذبون عليهم في حال الضعف فيرضونهم بأفواههم، ويقولون بالسننهم لهم ما ليس في قلوبهم، وأكثرهم ابي السواد الاعظم منهم فاسقون اي خارجون من قيود العهود والمواثيق والصدق والوفاء.

(د) انهم يصدون عن سبيل الله ويعادون الاسلام وأهله لاجل منفعة قليلة يتمتعون بها ويخافون ان تسلب منهم بالتزام شريعته التي تحرم اكل اموال الناس بالباطل كالربا والتمار والغصب والغزو لاجل الكسب وكانوا يستبيحون كل ذلك
(هـ) انهم- على كونهم لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة في حال القوة ولا في حال الضعف- هم المعتدون على المسلمين بالقتال، فلا يمكن أن يظلموا معهم كذلك في كل حال
(و) انهم نكثوا عهودهم السابقة، فكذلك ينكثون غيرها فلا ثقة بها فتراعى
(ز) انهم هموا باخراج الرسول من وطنه، بل هم الذين اضطروا الى الخروج هو وسائر من آمن معه، وذلك بعد ان تواطؤوا على قتله

(ح) انهم هم الذين بدؤوا المؤمنين بالقتال أول مرة، وبقيت الحرب مستمرة، فلما أنهت معاهدة الحديبية حالة القتال أعادوها بغدرهم فيها ونقضهم لها، وهذه الاسباب الثمانية صريحة في الآيات ٧-١٠

(الحكم العاشر) وجوب قتال مشركي العرب كافة الا أن يسلّموا وهو نص الاية الخامسة المعروفة بآية السيف، وقوله في الاية ٣٦) وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة (ووجهه ما علم من جملة الايات في قتال مشركي العرب وهو عدم قبول الجزية منهم وعدم إقرارهم على السكنى والمجاورة للمسلمين في بلادهم مع بقائهم على شركهم لانهم لا أمان لهم ولا عهود فيمكن ان يعيش المؤمنون معهم بسلام
(الحكم ١١) تحريم ولاية الكفار من الآباء والاخوان كغيرهم على المؤمنين وكونها من الظلم العظيم في الآية ٢٣

(الحكم ١٢) حكم قتال أهل الكتاب بشرطه حتى يعطوا الجزية في الآية (٢٨)

ومن فروع هذه المسألة الفرق في القتال بين مشركي العرب وسائر الوثنيين. ومنها أن مافي هذه السورة من قتالهم وقاتل أهل الكتاب إنما هو في بيان غايته لا في بدايته ، وإن أول ما نزل من التشريع في القتال آيات سورة الحج (٢٢ : ٣٩) ثم آيات سورة البقرة التي أولها ٢ : ١٩٠ (راجع آخر ص ٢٧٩ ج ١٠ وما بعدها و ص ٢٨٩) ويليها آيات سورة الأنفال فسورة آل عمران فسورة محمد فهذه السورة (الحكم ١٣) وصف أهل الكتاب الذين بين حكم قتالهم هنا بأربع صفات سلبية هي عداوتهم للإسلام ووجوب خضوعهم لحكمه ليأمن أهله على أنفسهم وحرية دينهم معهم (فيراجع تفسير آية الجزية في ص ٢٨١ وما بعدها)

(فصل في حقيقة الجزية لغة وشرعا وتاريخها وشروطها وأحكامها وسيرة الصحابة

فيها) ص ٢٩٠ — ٣٠٦ ج ١٠

﴿ استنظرا في حقيقة معنى الجهاد والحرب والغزو وإصلاح الإسلام فيه ﴾

ص ٣٠٦ — ٣١٢ ج ١٠

﴿ فصل في دار الإسلام والعدل . ودار الحرب والبغي ، وحقوق

الاديان والاقوام في هذا العصر ﴾ ص ٣١٣ — ٣٢١ ج ١٠

(الحكم ١٤) ابطال النسيء في الأشهر لاجل القتال وكونه تشرعيا جاهليا

وهو نص الآية ٣٧

(الحكم ١٥) النفير العام ، وهو ما يكون القتال به واجبا بشرطه على الاعيان

كما فصل في الآيات ٣٨ و ٣٩ و ٤١ وأما النفير الخاص فهو في الآية ١٢٢

(الحكم ١٦) الاستئذان في التخلف عن الجهاد بالمال والنفس من علامات

النفاق ومنافيات الايمان بالله واليوم الآخر كما ترى في الآيتين ٤٤ و ٤٥ وما

قبلهما وبعدهما من أحوال المنافقين وتنمة ذلك في الآيات ٨٦ — ٩٠

(الحكم ١٧) وجوب مجاهدة الكفار والمنافقين في المعاملات المدنية والادبية

والمخاضعون لأحكام الإسلام كما في الآية (٧٣)

- (الحكم ١٨) الاعذار المبيحة للتخلف عن الجهاد في قواه تعالى (٩١ ليس على الضعفاء ولا على المرضى) الى آخر الآية ٩٣
- (الحكم ١٩) وجوب بذل النفس والاموال في القتال المشروع لاعلاء كلمة الله وهي الحق والعدل باشتراء الله إياها من المؤمنين بأن لهم الجنة ، وهو نص الآية ١١١ وتقدم تحريم الفرار من الزحف في سورة الانفال
- (الحكم ٢٠) قتال الاقرب فالاقرب من الكفار الحربيين وهو نص الآية ١١٣

﴿الفصل الثالث﴾

في القواعد والاصول السياسية والحربية المأخوذة من المسائل والاحكام السابقة

وهي ١٣ أصلاً

- (١) جواز البراءة من اليهود وبذها للمعاهدين لدفع المفاسد المترتبة على بقائها . وهو في الآيتين الأولى والثانية من السورة
- (٢) فقد المعاهدات مع الدول والأمم من حقوق الامة لأن لها غنمها وعليها غرمها ، وإنما يعقدها الامام أو نائبه من حيث إنه هو الممثل لوحدة الامة . وهو منطوق إسنادها الى المؤمنين في قوله في الآية الأولى (عاهدتم من المشركين) مع العلم بأن الذي تولى العقد وكتب باسمه في الحديدية هو النبي ﷺ
- (٣) نبذ المعاهدات يجب أن يذاع وينشر بحيث يعرفه المخاطبون بالعمل به كما أمر الله بالاذان به يوم الحج الاكبر ، والاذاعة تختلف باختلاف الازمنة والامكنة وأحوال البشر في حضارتهم وبدائيتهم
- (٤) وجوب الوفاء بالمعاهدة مادام الطرف الآخر من الاعداء يفي بها ولا ينقص منها شيئاً كما ترى في الآيات ٤ و ٧ و ١٠ و ٣ . إكمالاً لما تقدم في سورة الانفال
- (٥) المعاهدة الموقوتة تنتهي بانتهاء مدتها بنص قوله تعالى (فاقموا اليهم

غدهم الى مدتهم) وقوله — (فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم)
(٦) ان القبائل والشعوب التي ليس لها دين ولا شرع يحرم عليها نقض
العهود وجرب عليها نكشها للايمان لا يجب التزام معاهداتها السابقة ولا تجديد
ما انتهت مدته منها كما تراه مفصلاً في الآيات الثلاث عشرة الأولى من السورة ،
ودول الافرنج تعمل بهذه القاعدة فلا تعقد المعاهدات الا مع الدول المنظمة التي
تلتزم الشرائع والقوانين الدولية

(٧) الهدنة بين المحاربين مشروعة والمسلمين أن يبدأوا بها اذا اقتضت
ذلك المصلحة ومنها الرحمة بالمشركين فيما لا يضر المؤمنين ، وهو نص قوله تعالى
في الآية الأولى (فسيحوا في الارض أربعة أشهر)

(٨) تأمين الحربي بالاذن له بدخول دار الاسلام جائز المصلحة فاذا
استأمن لأجل سماع كلام الله أو الوقوف على حقيقة الاسلام وجبت إجارته ثم
إبلاغه مأمنه عند الخروج من دار الاسلام ، وهو في الآية السادسة

(٩) انتهاء قتال مشركي العرب منوط بالدخول في الاسلام ومفتاحه التوبة
من الشرك والتزام أحكام الاسلام وأهمها ركنا الصلاة والزكاة

(١٠) انتهاء قتال أهل الكتاب ومن في معناهم بناط بالاسلام أو باعطاء الجزية مع
الخضوع لأحكام شرعنا كما ترى في آية الجزية ٢٩ وفي تفسيرها بيان حكم سائر الملل
(١١) النفير العام الذي يكون به الجهاد فرضاً على الاعيان في الآية ٤١ وترى
في تفسيرها ما تكون به فرضيته ، وما يكون به فرض كفاية

(١٢) امتناع نفر المؤمنين كلهم للجهاد في غير حال النفير العام في الآية ١١٦

(١٣) العجز عن القتال أو عن الخروج اليه عذر في التخلف عنه ونجد بيان أنواعه

الشخصية والمالية في الآيات الثلاث ٩١ — ٩٣ وهي تختلف باختلاف أحوال
الزمان والمكان والاستعداد للقتال

الباب الخامس

(في شؤون الكفار والمنافقين وحكم الاسلام عليهم وسياسة فيهم وفيه فصول)

(الفصل الاول في ذم القرآن للكفار والمنافقين ونزاهته فيه عن السب والشتم)

(تنبيه وتمهيد)

الذم الوصف بالقبيح ، والسب والشتم ما يقصد به التعبير والتشفي من الذم سواء كان مناه صريحاً واقماً أو افكاً مفترى ، والقرآن منزّه عن ذلك ، قال تعالى (٨ : ١٠٨) ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم) فنهي عن سب آلهة الكفار ومعبوداتهم ومنها الاضنام ، وقال النبي ﷺ « المستبان شيطانان يتهاوران ويتكاذبان » رواه أحمد والبخاري في الادب المفرد من حديث عياض بن حمار بسند صحيح . فإني القرآن من ذم الكفار والمنافقين بيان لحقيقة حالهم وقبح أعمالهم ، وما يعقبها من الفساد والضرر بهم وسخط الله تعالى عليهم ، واستحقاقهم لعقابه ، وبعدم من رحمته وثوابه ، بقصد الانذار والوعظ ، لاجل التنفير والزجر ، ولذلك تراها موجهة اليهم بوصفهم أو الى وصفهم العام : المشركين ، الكافرين ، المنافقين ، الفاسقين ، الظالمين ، المجرمين ، المفسدين . أو الخاص ببطانة منهم كبعض الاحبار والرهبان لا كلهم دون الاشخاص المميزين بامماتهم والقباهم ، مهما يكن من شدة كفرهم وابتذالهم للنبي ﷺ والمؤمنين كعبد الله ابن أبي بن سلول رئيس المنافقين الذي كان شرهم وأجرأهم على الضرر ، فقد كان ضرره في المدينة أشد من ضرر أئمة الكفر والشرك في مكة (كافي جمل)

ومن اطلع على شيء من هجاء العرب وسبابهم البذي وقذعهم الفاحش أدرك

نزاهة القرآن ، وعلوه عن مثل بذاهم في الكلام

ويستنتى من هذه القضية الكلية في ذم الشخص المعين من أعداء الاسلام والرسول (ص) ما نزل في ذم أبي لهب وامراته في سورة وجيزة لما بيناه من حكمة ذلك في قصة ابراهيم مع أبيه آزرو والاستطراد إلى آباء الانبياء وأولي قريهم

« تفسير القرآن الحكيم » « ١٧ » « الجزء الحادي عشر »

وما صح في الاحاديث في أبي النبي ﷺ وعميه أبي طالب وأبي لمب ، لا ثبات قاعدة عظيمة في الفرق بين دين الله تعالى على السنة أنبيائه ورسله والاديان الوثنية ، وهي أن دين الله تعالى مبني على أن مدار السعادة والنجاة من عذاب الآخرة والفوز بنعيمها إنما هو الايمان الصحيح والاعمال الصالحة التي تنزكي بها الانفس وتكون بصفاتنا العالية أهلاً لجوار الله تعالى ومرضاته . وأن الاديان الوثنية مبنية على أن السعادة والنجاة والفوز إنما تكون بوساطة بعض المخلوقات التي توصف بالولاية والقداسة أو النبوة ويدعى لها التأثير في النفع والضرر بأنفسها أو بالشفاعة عند الله تعالى وكونها نحاي شفاعتها ووساطتها أولى القرابة منها والمتقربين اليها بالمدح لها والاستغاثة بها ودعائها من دون الله أو مع الله عز وجل

وقد كان أبو لمب اغنى بني هاشم ومن اكثر المشركين غروراً بما له وثورته ونشبه ونسبه وكان بهذا الغرور اول من جاهر بعداوة ابن اخيه (محمد رسول الله صلوات الله وسلامه عليه) محترماً له لانه كان هو وابوه الذي لم يدركوه وعه الذي كلفه بسدجده اقر بني هاشم ، وقال له حين جمع عشيرته وبلغهم دعوة ربه أمثالاً لاصره (وانذر عشيرتك الاقربين) : تبالك سائر اليوم لهذا جمعتنا ؟ وكان يقول لقريش : خذوا على يديه ، قبل أن تجتمع العرب عليه . وكان أشد المشركين صداً للناس عنه وتكذيباً له كلما دعا أحداً منهم إلى الاسلام ، وكان كلامه مقبولا عندهم أكثر من كلام سائر الرؤساء الذين جاوروا بعداوته كابي جهل وعقبة بن أبي معيط وأبي سفيان بن حرب لقرابته ، وكذلك كانت امرأته أم جميل أخت أبي سفيان مسرفة في عداوته وذمه والصد عن دعوته بالنبوة ونقل الاخبار الكاذبة عنه لتبخيصه للناس ، وهو المراد من كنيته « حمالة الخطب » كما هو معروف عند العرب . وروي انها كانت تجمع الخطب الشائكة وتلقيه في طريقه بالفعول ، ومع هذا كله لم تكن السورة التي نزلت فيه الادعاء عليه بالتياب وهو الخسار المفضي إلى الهلاك أو اخباراً به ، وبكونه لا يغني عنه ماله الكثير وما كسبه من الجاه والولد شيئاً . في مقابلة قوله للرسول ﷺ تبالك سائر اليوم — فهو إخبار بعاقبة أمرها وموتها على كفرهما ، وخسرانها سعادة الدنيا والآخرة ، وقد صدق

خبر الله ووعيده له، فهو قد مات بعد وقعة بدر التي ساعد عليها بماله، أسفاً لمجزه عن الخروج اليها بنفسه، فذاق وبال امره بخذلان اقرانه من صناديد قريش ورؤوس الشرك، وخسران ماله الذي أنفقه فيها مصداقاً لقوله تعالى (ان الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون) ورأي مصداقها مبادئ عز الاسلام ونصره . مات بعدها بأيام قليلة بالعدسة شرمية، وترك ميتاً حتى أنين، ثم استؤجر بعض السودان حتى دفنوه . وكان نجع بعد نزول السورة بولده عتبة الذي كان يعتز به، افتريسه أسد في طريق الشام، ولو أسلم كما أسلم أخوه وثانيه في جمع المال (العباس رضي الله عنه) رأى مثل ما رأى هو وذريته من عز الاسلام، وصدق ابن أخيه عليه أفضل الصلاة والسلام، في وعده لهم بأن كلمة « لا إله إلا الله » تجمع عليهم العرب، وتدين لهم بها العجم . ذكرت هذا التنبيه الطويل لبيان غلط بعض العلماء في قوهم إن القرآن اشتمل على سبهم وسب آلهتهم، وتفنيداً لما جهذي به بعض ملاحدة الكتاب في المقارنة بين أدبه والأدب الجاهلي . وما روي من قول رؤوس المشركين للنبي ﷺ لقد سببت الآباء وعبت الدين وسفنت الاحلام وشتمت الآلهة - فذكر السب والشتم فيه مبالغة في الانكار على أنه مرسل ضعيف السند وفيه رجل مبهم . وهالك ما وصف الله تعالى به أعداءه وأعداء رسوله والمؤمنين من هؤلاء المنافقين والكافرين في هذه السورة وهو أشده .

﴿ شواهد ذم القرآن النزيه للكفار والمنافقين ﴾

(١-٤) وصف المشركين في الآيات (١٠ و ٩ و ٨) بأنهم لا يرفقون ولا يراعون في أحد من المؤمنين إلا ولا وذمة، حتى قطعوا أرحامهم بهم خلافاً لمعادتهم في عصبية النسب، وأنهم يصدون عن سبيل الله، وأن أكثرهم فاسقون وأنهم هم المعتدون . (٥) قوله تعالى في منعهم عن عمارة المسجد الحرام وغيره ومن التعبد فيه (١٧) ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر، أولئك حبطت أعمالهم وفي النار هم خالدون)

(٦) قوله تعالى (٢٨) إنما المشركون نجس . فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا) وكانت نجاستهم معنوية وهي الشرك وخرافاتة ، وحسية اذ كانوا يأكلون الميتة ولا يدينون بالطهارة من النجاسة ولا الحيض والجنابة

(٧ - ١٠) وصف كفار أهل الكتاب في الآية (٣٠) بأنهم يأخذوا بن الله سبحانه يضاهنون قول الذين كفروا من قبلهم كوثنيي قدماء الهند والمصريين وقوله (قاتلهم الله أنى يؤفكون) ووصفهم في الآية (٣١) بأنهم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ، وفي الآية (٣٢) بأنهم يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم أي بكلامهم الباطل في الصد عن الاسلام - وفي الآية (٣٤) بأن كثيرا من أحبارهم ورهبانهم يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله . وكل هذه الصفات ظاهرة معروفة في تاريخهم الماضي وسيرتهم في هذا الزمان ، ومن دقائق الصدق في القرآن الحكم في مثل هذا على الكثير منهم دون الجميع كما قال في المشركين (وأكثرهم فاسقون) ولم يعمد مثل هذا التحري في كلام البشر وأما وصفه لشرور المنافقين وذمهم فيها فنلخصه فيما يأتي تابعا في العدد لما قبله (١١) ذكر في استئذان المنافقين واعتذارهم عن الخروج إلى غزوة تبوك وبيان ما يكون شأنهم لو خرجوا من ابتغاء الفتنة والافساد بين المؤمنين بالتثبيط وغيره ولم يزد فيها على قوله فيهم (والله عليم بالظالمين) وقوله (وإن جهنم لمحيطة بالكافرين) (راجع الآيات ٤٢ - ٤٩)

(١٢ و ١٣) تعليل عدم قبول نفقاتهم في الآية ٥٣ بنسبهم وقوله بعده (٥٤) وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون الصلاة الا وهم كسالى ولا ينفقون الا وهم كارهون)

(١٤ و ١٥) وصفهم بعد اثبات استهزائهم فيما بينهم بالله وآياته ورسله واعتذارهم عنه بقولهم « إنما كنا نخوض ونلعب » بأنهم كفروا بعد إيمانهم وأنهم كانوا مجرمين ثم قال بعد ذكر صفاتهم العامة من الآية ٦٧ (نسوا الله فنسيهم ان المنافقين هم الفاسقون) أي الخارجون من محيط هداية الدين وسلامة الفطرة (١٦) قوله في لزمهم وعيبتهم للمتطوعين من المؤمنين في الصدقات وسخرتهم

منهم في الآية ٧٩ (سخر الله منهم ولهم عذاب اليم) وهذا التعبير يسمي بالمشاركة اي عاقبتهم بمثل جرمهم فجعلهم سخرية للمؤمنين بما فصح به نفاقهم الذي كانوا يخفونه (١٧) قوله في تعليل عدم غفران الله لهم (٨٠) ذلك بانهم كفروا بالله ورسوله والله لا يهدي القوم الفاسقين) وقوله في هذا المعنى (٨٤) ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره انهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون) وقد نزل هذا في زعيمهم عبد الله بن أبي بن سلول ولكن جعل حكم النهي عاما (١٨ و ١٩) أشد ما وصفهم به في الآية (٩٥) أنهم رجس وأنه كلما نزلت سورة من القرآن زادتهم رجسا إلى رجسهم، حتى ماتوا على كفرهم كما في الآية ٢٥ وانهم عند نزولها ينصرفون من مجلس النبي ﷺ عند غفلة المؤمنين عنهم ثم قال (صرف الله قلوبهم بانهم قوم لا يفقهون) أي صرف الله قلوبهم عن الاهتداء بها بسبب انهم لا يفقهون ما فيها من البينات والهدى بمقتضى سنته في ارتباط الاسباب بمسبباتها وهذا آخر ما ذكرنا به في هذه السورة من الآية ١٢٧

فانت ترى ان كل ما وصفوا به بيان لحقيقة حالهم بأنزه تعبير يدل عليه مقرونا بتلك الاعمال القبيحة والاخلاق السافلة والسرائر التي هي شر منها - وأن المراد بوصفهم التنفير منه لاعداد من فيه استعداد لقبول الحق بالرجوع اليه وقد تاب أكثرهم ولله الحمد

(الفصل الثاني)

(في المنافقين وصفاتهم وأعمالهم وسياسة الاسلام فيهم)

النفاق خلق رديء ووصف خبيث تتلوث به الانفس الدنيئة الفاسدة الفطرة فلا يرى اهلها وسيلة الى مطاعمهم في المال ومطامحهم الى الجاه الا الكذب والرياء، واقاء الناس بالوجوه المختلفة، والتصنع والخداع ولين القول، كما قال تعالى فيهم (واذا رأيتهم تعجبك اجسامهم وان يقولوا تسمع لقولهم) وهم يوجدون في كل شعب وكل قبيلة، لا تخلو منهم بادية ولا حاضرة. والنفاق قسمان : خاص وعام، فالخاص هو الشخصي الذي يحاول صاحبه لقاء كل أحد بما يرضيه

عنه ويحبه اليه ولا سيما الحكام وأصحاب الجاه والمناصب والثراء الذين يرجى الانتفاع منهم أو يخشى ضررهم . فهو يلبس للصالحين منهم لباس التقوى والصلاح ، ويخلع للفساق جلباب الحياء ، ويفرغ على المستكبرين حلل الاطراء ، وهو اهون النفاقين واما النفاق العام فهو ما يكون في الدين والدولة ، وخيانة الامة والملة ، وما وجد النفاق في عهد الرسول ﷺ الا بعد الهجرة ، لما صار للاسلام قوة ودولة ، اذ اسلم اكثر الانصار بظهور نور هذا الدين القويم لهم ، ولم يكن لهم مصلحة دنيوية تحجب هذا النور عن بصائرهم ، أو تحملهم على مكابرة الحق وجحوده ، ككبراء قريش المغرورين بثروتهم الواسعة ، وجاههم في العرب بسدانة البيت الحرام ، واستكبارهم على سائر الناس ، واسرافهم في التمتع بالسكر والزنا واكل الربا والشهوات ، فكانوا يرون أن الاسلام يساوى بينهم وبين سائر الناس في جميع الحقوق ، ويفضل الفقير المتقي لله تعالى على الغنى المسرف في الفسوق ، ويقتص للسوقة من الامراء والملوك ، ويحقر المتكبرين ، ويكرم المتواضعين ، ويزدري الظالمين والفاسقين ، فيسلمهم بهذا جميع ما يمتازون به على دهماء الناس . ولهذا كان اكثر من اهتدى به في مكة الفقراء وبعض اصحاب الفطرة السليمة والعقول الحرة من الطبقة الوسطى وكان اعلام فطرة وأزكاهم نفسا أبو بكر الصديق وسائر العشرة الكرام المبشرين بالجنة

آمن بعض الاوس والخزرج أولا بلقاء النبي ﷺ في موسم الحج ودعوا قومهم الى الاسلام بعد عودتهم الى المدينة فصادت دعوتهم رواجاً لقوة المقتضي وهو التوحيد وفضائل الاسلام ، فلما كثروا هاجر الرسول ﷺ اليهم اذ عاهده نقباؤهم في منى على نصره ومنعه (اي حمايته والذب عنه) مما يمنعون انفسهم وأهلهم ، ومن المعقول ان يكون نور الاسلام لم يظهر لكل فرد منهم على سواء ، وان يكون منهم من اضطر الى الدخول فيما دخل فيه قومهم مواتاة لهم ، مع عدم وجود نظام لديانتهم الوثنية يرتبط به بعضهم ببعض فيقيمونه ويذبون عنه ، فكان منافقو المدينة من هؤلاء ومن حولهم من قبائل الاعراب الذين لم يعقلوا الاسلام ، كاسد وغطفان .

وكان هنالك يهود كثيرون يقيم اكثرهم في حصون لهم بالقرب من المدينة كذي قريظة وبني النضير ، وقد عاهدهم النبي ﷺ على حريتهم في دينهم وأنفسهم وأموالهم ، ولكنهم كانوا ينقضون عهده ويظاهرون عليه المشركين كلما جاؤا لقتاله ، بل كانوا يغرونهم ويحرضونهم عليه ، فكانوا في اظهار الوفاء بعهده منافقين ، وكان لهم احناف من عرب المدينة لحافظ على مودتهم منافقوها بالسر كما بينا ذلك كله في محله

فكانت سياسة الاسلام في الفريقين أن من اظهر الاسلام يعامل كما يعامل سائر المسلمين ، لان قاعدة الاسلام ان الحكم على الظواهر ، وان الله تعالى وحده هو الذي يحاسب ويعاقب على السرائر ، وأن من حافظ على الوفاء بعهده من أهل الكتاب يوفي له ، وكان اليهود ينقضون عهدهم مع النبي ﷺ سرا ، فاذا ظهر شيء من خيانتهم وغدرهم اعتذروا عنه ، حتى اذا ما افترض امرهم حاربهم ﷺ وأجلاهم عن البلاد ، كما ترى في تفسير الآيات ٥٥ - ٥٨ من سورة الانفال (ص ٤٨ - ٦٠ ج ١٠)

وقد قص الله علينا في سورة الحشر ما كان بين اليهود والمنافقين من الاخاء والولاء وانه لاخير فيه لاحد منها على ان اليهود ظاهروا المشركين على النبي ﷺ ولكن المنافقين لم يفوا لليهود بما وعدوهم به من نصرهم اذا هم اظهروا عداوتهم لان المنافق القج دون المتدين الكافر همة وشرفا وخلقا . قال تعالى (١١: ٥٩) ألم تر الى الذين نافقوا يقولون للاخوانهم الذين كفروا من اهل الكتاب : لئن اخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا ، وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون ١٢ لئن اخرجوا لا يخرجون معهم ، ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ، ولئن نصروهم ليولن الادبار ثم لا ينصرون)

كان سبب معاهدة النبي ﷺ لليهود واقاراره إياهم على دينهم ان الاسلام دين حرية وعدل ، ودعوته قائمة على البرهان والحجة ، ولذلك منع المسلمين من أخذ أولادهم الذين تهودوا وانضموا الى اليهود بالقوة ، وأمرهم بأن يخبروهم اذا نزل فيهم قوله تعالى (لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي)

وقد تقدم ان سبب معاملة المنافقين بظاهر اسلامهم هو ان امر السرائر لله وحده ، فهو الذي يعلمها ، وهو الذي يجازي عليها ، ولا يباح لحاكم ولا لنبي ان يحكم على انسان بأنه يسر الكفر في نفسه ولا أن يتهمة بذلك ويعاقبه عليه . ولا يثبت الكفر على من ظاهره الاسلام الا باقرار صريح منه أو صدور قول أو فعل يدل عليه دلالة قطعية لا تحتمل التأويل كتكذيب القرآن أو النبي ﷺ أو جحود كونه خاتم النبيين لا نبي بعده ، والشرك بالله بدعاء غيره ، وغير ذلك مما هو مجمع عليه معلوم من الدين بالضرورة لا يقبل فيه تأويل ، كجحود فرضية الصلاة والزكاة والصيام والحج ، أو استحلال الزنا والربا وشرب الخمر وأما حكمة ذلك وفائدته فهي أن من يلتزم شعائر الاسلام وأحكامه ولو بغير ايمان يقيني فإنه يرجى له بطول العمل ان ينشرح صدره للايمان ويطمئن به قلبه ، ويوقن به عقله ، وإلا كانت استفادته وإفادته للامة دنيوية فقط

(فان قيل) إن مقتضى حرية الدين التي امتاز بها الاسلام في معاملة أهل الكتاب - إذ أقرهم على العمل بدينهم حتى فيما بين لهم أنهم خالفوا فيه ما جاء به وسلمهم - ان يسمح للمنافقين بان يظهر واكفرهم (قلنا) ان الجمع بين اظهار كفرهم وحسابتهم من المسلمين لهم ما لهم من الحقوق وايس عليهم ما عليهم من الواجبات ، تناقض لا يقول به عاقل ، ولا يحكم به عادل ، ومثلهم فيه كمثل من يسمح له بمقتوى الجنسية السياسية الوطنية ولا يطالب بالخضوع لقوانينها ، ولا يعاقب على انتهاكها ومخالفة أحكامها ، وانما تكون حرية الدين المعقولة لاهله في دائرة محيطه بأن لا يحاسب أحدهم أحد على عقيدته ووجدانه فيه ، ولا اجتهاده في فهمه ، الا من طريق البحث العلمي ، وليس منها ان يخالف اصوله القطعية التي لا يكون المسلم مسلماً بدونها ويعد مع ذلك مسلماً ، وإذا ليس لاحد أن يطالب بحكومته المتدنية بالسماح له بالخروج على دينها ، كما لا يصح له أن يطالبها بالسماح له بالخروج على قوانينها ، فتكون حريته هنا متعارضة مع حريتها هي وحرية أمتها

(فان قيل) ان القرآن قد فصح بعض المنافقين في هذه السورة وحكم بكفرهم ولم ينفذ النبي ﷺ عليهم أحكام المرتدين عن الاسلام ، بل بقي يعاملهم هو وأصحابه

معاملة المسلمين (قلنا) ان ما بينه الله تعالى من حل المنافقين انما كان وصفاً لأناس غير معينين بأشخاصهم، انذاراً وزجراً لهم ليعرفوا حقيقة حالهم، ويحذروا سوء ما لهم، عسى أن يتوب المستعدون للتوبة منهم، وقد تاب الكثيرون منهم، بما ظهر لهم من إخبار القرآن عنهم، بما لا يعلمه إلا الله تعالى من أمرهم

وكان الذين عرف النبي ﷺ بعض أصحابه أشخاصهم قليلين جداً كالذين هموا باغتياله ﷺ بتشريد راحلته في عقبة في الطريق منصرفهم من تبوك ليطرحوه منها، وقال بعضهم لبعض : لئن كان محمد صادقاً لنحن شر من الخير، وفيهم نزل (٧٤) يحلفون بالله ما قالوا. ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا) ولما استأمره أصحابه بقتلهم قال « اكره أن يتحدث الناس ويقولوا ان محمداً قد وضع يده في أصحابه » أي في رقابهم بقتلهم، وهذا أكبر منفر عن الإيمان، فان كثيراً من الناس كان يستحسن هذا الدين ويفضله على ما كانوا عليه من الشرك في أحكامه وآدابه لذاتها، قبل أن تقوم عندهم الحجة على اليقين بكونه وحياً من الله تعالى، فيدخلون فيه، ثم بعد زمن قليل أو كثير من معرفته التفصيلية تطمئن قلوبهم بالإيمان اليقيني، ومنهم من كان يدخل فيه تبعاً لأكثر قومه من غير نظر الى تفضيله لقلة علمه بدعواته، وكل هؤلاء يقبل إسلامهم ويعتد به شرعاً، وفيهم نزل قوله تعالى من سورة الحجرات (قالت الاعراب آمنا. قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم . وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتمس من أفعالكم شيئاً) ولو سمع أمثال هؤلاء ان النبي ﷺ يقتل بعض من اتبعه وصحبه لظهور شيء يدل على عدم إيمانهم في الباطن، أو لاعلام الله تعالى إياه بما في قلوبهم، لنفروا من الاسلام وخافوا عاقبة الدخول فيه

ونم مفسدة أخرى في هذه الاشاعة وهي أن المنافقين والكفار يذيعون فيها ماشاؤا من التهم الباطلة والافك المغتري، كزعمهم أنه انما قتل من ظهر لهم منه ما دهم على بطلان دينه بعد أن صدقوه وجاهدوا معه

على أن الله تعالى قال فيهم بعد وصفهم بالكفر بالقول وبأهلهم بشر نتائج من الفعل (فان يتوبوا يك خيراً لهم وان يتولوا يعذبهم الله عذاباً أليماً في الدنيا والآخرة)

١٣٨ ما يراد من الاشكال على حرية الدين ومعاملة المنافقين التفسير : ج ١١

الآية ، فليراجع تفسير الآية وما قبلها من الامر بجهاد الكفار والمنافقين في (ص ٥٤٨ — ٥٥٨ ج ١٠)

وبلي هذا في السورة خبر الذي عاهد الله لئن آناه من فضله ليصدقن (في الآيات ٧٤ — ٧٧) وما رووا في سبب نزولها خاصة وانه شخص يقال له ثعلبة ، وانه بعد أن نزلت فيه الآيات تاب وأراد أن يؤدي زكاة ماله فلم يقبلها منه النبي ﷺ ثم لم يقبلها منه أبوبكر ولا عمر ولا عثمان من بعده ، وانه هلك في خلافة عثمان . وقد بينا في تفسيرها أن في حديث سبب نزولها اشكالات في سنده وفي متنه فانه مخالف لاصل الشريعة القطعي المجمع عليه من العمل بالظاهر فهو باطل قطعاً بما فصلوه به تفصيلاً (راجع ٥٥٨ — ٥٦١)

ويقرب منه في المعنى ما روي في الصحاح من نزول قوله تعالى (٨٤ ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره انهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون) وانه في عبد الله بن أبي بن سلول زعيم المنافقين الاكبر وقد بينا في تفسيرها ما في الحديث من التعارض مع القرآن فراجع (في ص ٥٧٣ — ٥٨١)

ومن المشكل في هذا الباب قصة مسجد الضرار في الآيات (١٠٧ — ١١٠) فقد بين الله تعالى فيها انهم اتخذوه لأربعة أغراض منها الكفر وسائرهما أقبح مقاصد أعداء الله ورسوله والمؤمنين . وقد أمر النبي ﷺ بهدمه فهدم ولم يأمر بقتلهم ، وقد شهد الله بكذبهم فيما حلفوا عليه من حسن نيتهم . وسبب ذلك ان الذين بنوه للمقاصد الاربعة المذكورة في الآيات كانوا كما قال المفسرون اثني عشر رجلا من منافق الاوس والخزرج أتباع أبي عامر الراهب الذي وعدهم بان يتوسل بنصرانيته الى قيصر الروم في الشام فيرسل معه جنداً يكفهم أمر الرسول ومن اتبعه من المؤمنين ، ولكن صدقهم في ظاهر عملهم وما زعموه من حسن النية فيه كثير من المؤمنين وشاركوهم وصلوا معهم فيه ، وكان التمييز بينهم متعذراً ، فصح أن يأتي في الفريقين قوله تعالى في المسلمين المستخفين من المشركين في مكة عام الحديبية (لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً)

والسبب الخاص لعدم عقاب أصحاب مسجد الضرار على الكفر الذي أثبتته

النص الصريح أمران [أحدهما] أن الآيات في قصتهم قد بدئت بما يحتمل أن يكون ذكرهم فيها معطوفاً على الذين أرجأ الله البت في أمرهم وجعل التوبة عليهم مرجوة وهو قوله تعالى (وآخرون مرجون لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم) والثاني ختم قصتهم بقوله تعالى (لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم) فيظهر في معنى تقطع قلوبهم احتمال هو أحد الأقوال في تفسيره، وهو تقطعهم من الأسف والحزن على ما فرط منهم، ووقوع هذا الاستثناء محتمل، وإذاً يكون أقوى الأدلة على توبتهم وأصدقها، ويكفي الاحتمال لمنع الحكم عليهم بالكفر وجملة القول في هذا الباب ان سياسة الاسلام في المنافقين أن يعاملوا بحسب ظواهرهم وما يبدو من أعمالهم، وان للامام الاعظم أو عليه — ومثله نوابه من اولياء الامور — أن يمرض في الخطب العامة والتصريحات الرسمية بتقييد ما يعلم من سوء أعمالهم والانداز بسوء عواقبها ليعدهم للتوبة منها، أو الحذر من إظهار ما يضمنونه من الشر الذي يترتب عليه العقاب. وتتضمن هذه السياسة الاصول الآتية

(الاصول الثلاثة في حرية الدين ، ومعاملة المنافقين)

- ١ - ان حرية الاعتقاد والوجدان مرعية لا سيطرة عليها للرؤساء الحاكين، ولا للمعلمين والمرشدين، وانما لهؤلاء حق في التربية والتعليم، فليس لأحد أن يتهم إنساناً باضرار الكفر ولا بنية الخيانة لملته أو دولته، ولا بإرادة السوء لقومه وأمته، ولا أن يعاقبه على ذلك بعقاب بدني ولا مالي، ولا بحرمانه من الحقوق التي يتمتع بها غيره من أفراد الأمة
- ٢ - انه ليس لمن يضمن الكفر بالله أو بما جاءت به رسله أن يكون فتنة للناس بإظهار ذلك لهم ودعوتهم اليه، أو الطعن في عقائدهم، أو إظهار ما يناقضها من قول أو عمل، وان لم يكن دعوة ولا طعناً، فان فعل ذلك وكان يدعي الاسلام بحكم بارتداده وخروجه من الملة، إن كان ما أظهره من الكفر صريحاً قطعياً مجمماً عليه لا يحتمل التأويل، ويترتب عليه ما هو مقرر في الشرع من استنابته وعقابه إن لم يقب (ومنه منع التوارث بينه وبين المسلمين وفسخ نكاحه بالمسلمات، وعدم تشييع جنازته والصلاة عليه ودفنه في مقابر المسلمين) لان حرية كل احد في اعتقاده تقف

عند حد حرية غيره ، ولا سيما احترام عقائد الملة التي يعيش في ظل شريعتهما ، وسائر شعائرها وعباداتها

وليعلم القاريء أن كثيراً من الفقهاء قد أسرفوا في أبواب الردة في المسائل التي يحكم فيها بالكفر المخرج من الملة ، وبنوا كثيراً منه على الموازم البعيدة ، والمحملة للتأويلات القريبة ، وما ورد في صفات المنافقين في هذه السورة حجة عليهم ، وإن قال بعض العلماء المتقدمين : إن ما كان في زمن النبي ﷺ نفاقاً لا ينافي ظاهر الإسلام ، هو الآن كفر محض لا تقبل معه دعوى الإيمان ، فهذا قول باطل ، فكتاب الله وسنة رسوله ﷺ هما الحجة في الدين ، والاهتداء بهما هو الواجب إلى يوم الدين ، فيجب قبول قول كل من أظهر الإسلام ولم يصرح بما ينافيه بما لا يحتمل التأويل ، وما يحتمل التأويل احتمالاً ظاهراً جسيم المباحث العلمية المخالفة لظاهر النصوص كما هو مقرر في الأصول .

٣ - أن من ظهر منه شيء من أمارات النفاق العملي في الدين ، أو الحياة للامة والملة بما هو غير صريح ، مما لا يعاقب عليه في الشرع بحد ولا تعزير ، فلولي الامر أن يعظه بالتعريض ، ثم بالتصريح والتكشيف ، وله أن يعاقبه بما يرجى أن يزرعه عن غيه من التأديب ، كالحرمان من مظاهر التشريف ، أو الأزوار والتقطيب ، أو التأنيب والتعنيف ، كما بيناه في تفسير (٧٣) جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم) ومنه حرمان النبي ﷺ للذين تخلفوا عن غزوة تبوك من الخروج معه إلى غزوة أخرى بقول الله تعالى (٨٣) فان رجعت الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي أبداً) الآية . ولكن الملوك المستبدون يقربون اليهم المنافقين فيزيدونهم فساداً ، ويجروئن غيرهم بل يرغبونه في النفاق وخيانة الامة جهاراً ، حتى إن المناصب الدينية المحضة صارت تنال بالنفاق ، ويزداد عنها أهل الصدق والاخلاص ، وإلى الله المشتكى ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

﴿ انتهى بيان ما فتح الله به علينا من خلاصة هذه السورة ﴾

﴿ وكتب في أوقات متقطعة في سنة عسرة شديدة ﴾

﴿ وتم في ذي الحجة سنة ١٣٥٠ ﴾

١٠ - سورة يونس

(السورة العاشرة في المصحف وآياتها ١٠٩ عند الجمهور وعند الشامي ١١٠)

هي مكية نزلت بعد سورة الاسراء (بني اسرائيل) وقبل سورة هود . وما رواه ابن مردويه من طريق عثمان بن عطاء عن أبيه عن ابن عباس من كونها مدنية غلط مخالف للروايات الكثيرة عنه وعن غيره بل للاجماع الذي يؤيده موضوع السورة من أولها إلى آخرها فهو يدور على اثبات اصول التوحيد وهدم الشرك واثبات الرسالة والبعث والجزاء ودفع الشبهات عنها وما يتعلق بذلك من مقاصد الدين الاصلية التي هي موضوع السور المكية ، وعثمان بن عطاء ضعيف متروك لا يحتج بروايته فيما يحتمل الصواب فكيف ينظر اليها في مثل هذه المسألة ، ولكن الرواة لم يتركوها متردما وقال السيوطي في الاتقان : استثنى منها (فان كنت في شك) الآيتين ٩٤ و ٩٥ - وقوله (٤٠ ومنهم من يؤمن به) الآية قيل نزلت في اليهود ، وقيل من أولها إلى رأس أربعين مكي والباقي مدني حكاه ابن الفرس والسخاوي في جمال القراء اه وأقول ان موضوع السورة لا يقبل هذا من جهة الدراية ، وهو مما لم تثبت به رواية . وكون المراد بالذين يقرؤون الكتاب (في الآية ٩٤) اليهود لا يقتضي أن تكون نزلت في المدينة . ويأنه من وجهين (أحدهما) أن المراد بالشرطية فيها الفرض لا وقوع الشك حقيقة ولذلك قال ﷺ « لا أشك ولا أسأل » وهو مرسل يؤيده قول ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن البصري كما سيأتي في تفسيرها (وثانيهما) ان هذا المعنى نزل في سور مكية أخرى كقوله تعالى في سورة الاسراء (فاسأل بني اسرائيل إذ جاءهم)

وقوله في سورتي النحل والانباء (فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون) ووجه مناسبتها لما قبلها أن تلك ختمت بذكر رسالة النبي ﷺ وهذه افتتحت بها، وإن جل تلك في بيان أحوال المنافقين ومنهما كانوا يقولونه وما كانوا يفعلونه عند نزول القرآن كآيات ١٢٤ - ١٢٧ وهذه في أحوال الكفار ومنها ما كانوا يقولونه في القرآن كآيات ١٥ و١٦ و١٧ و ٣٧ - ٤٠ .
واعلم أن التناسب الذي يوجد بين السور ليس سببا في هذا الترتيب الذي بينها، فرب سورتين بينهما أقوى التناسب في موضوع الآيات ومسائلها يفصل بينهما تارة ويجمع بينهما أخرى فمن الأول الفصل بين سورتي الهمة والهب وموضوعهما واحد . والفصل بين السور المبدوءة بالتسبيح بسورة المنافقين . ويقابلها من الوجه الثاني الوصل بين سور الطواسين وسور آل حاميم وبين سورتي المرسلات والنبأ وسورتي التكاوير والانفطار . وربما يقال إن التناسب بين أكثر السور المكية أقوى منه بينها وبين السور المدنية ومن حكمة الفصل بين القوية التناسب في المعاني كالمكية التي موضوع أكثرها العقائد والاصول العامة والزواج الصاعدة والمدنية التي موضوع أكثرها الاحكام العملية أنه أدنى إلى تنشيط تالي القرآن بالترتيب وأنأى به عن الملل . وأدعى له إلى التدبر، فهذه الحسكة تشبه حكمة تفريق مقاصد القرآن في السورة الواحدة من عقائد وقواعد وأحكام عملية، وحكم أدبية، وترغيب وترهيب، وبشارات ونذر، وأمثال وقصص، والعمدة في كل ذلك التوقيف والاتباع وهاءنذا أشرع في تفسير السورة ملتزما فيها القصد والاختصار في كل ما سبق له بيان مفصل في تفسير السور السابقة ولا سيما السورتين المكييتين من السور الطول : الانعام والاعراف : وإنما أبسط القول فيما لم أبسطه فيه تمام البسط من قبل ، وأهمه في هذه السورة مسألة الوحي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) الرَّاءُ، تِلْكَ آيَةُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (٢) أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ، قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا أَسَاحِرُ مُبِينٌ

﴿الر﴾ تقرأ هذه الحروف الثلاث بأسمائها ساكنة غير معربة هكذا: ألف، لام، را. والحرف الأخير غير مهموز. وفائدة النطق بها وبأمثالها هكذا تنبيه الذين تنلى عليهم السورة لما بعدها لاجل العناية بفهمه حتى لا يفوتهم من سماعه شيء. وهي أقوى في هذا التنبيه من حرف الهاء الموضع له في اسم الإشارة، ومن كلمة «ألا» الافتتاحية، وقد فصلنا هذه المسألة في أول تفسير سورة الاعراف.

﴿تلك آيات الكتاب الحكيم﴾ أي تلك الآيات البعيدة الشأو، الرقيقة الشأن، التي تألفت منها هذه السورة، أو القرآن كله، هي آيات الكتاب الموصوف بالحكمة في معانيه، والأحكام في مبانيه، الحقيق بهداية متدبره ووأعيه.

﴿أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم﴾ الاستفهام للتعجب من عجب الكفار واستنكار إنكارهم للوحي إلى رجل من جنسهم. والوحي الاعلام الخفي

(١) زعم بعض ملاحدة مصر أن هذه الاحرف كانت تكتب في بعض مصاحف الصحابة رمزاً لأصحابها فادخلت في القرآن عند كتابة المصاحف الرسمية ظناً أنها من السور. وفي هذا الزعم أكبر جرأة على الافتراء والافتجار ورد النقل المتواتر بدون أدنى شبهة غير وسوسة الشيطان، وعداوة الرحمن،

الخاص لا مريء بما يخفى على غيره - اي أكان إبحاؤنا إلى رجل من الناس أمراً
نكرّاً اتخذوه أعجوبة بينهم يتفكرون باستغرابها كأن مشاركتهم له في البشرية يمنع
اختصاص الله إياه بما شاء من العلم . والمراد بالناس كفار مكة ومن تبعهم في إنكار
نبوة محمد ﷺ ، وعبر عنهم بالناس لأن هذه الشبهة على الرسالة قد سبقتهم إليها
أقوام الانبياء قبله كما تقدم في قصة نوح وهود من سورة الاعراف (٧: ٦٢ و ٦٨
أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم؟) وهذا المعنى مكرر في القرآن
وقد دحضنا هذه الشبهة في آخر تفسير سورة الانعام ^{١١} ﴿ أن أنذر الناس ﴾
«أن» هذه مفسرة لما قبلها ، والاذنار الاعلام بالتوحيد والبعث وسائر مقاصد
الدين المقترن بالتخويف من عاقبة الكفر والمعاصي ، أي أوحينا اليه بأن أنذر الناس كافة
﴿ وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم ﴾ التبشير مقابل الانذار ،
أي الاعلام المقترن بالبشارة بحسن الجزاء على الايمان والعمل الصالح . والمعنى
وبشر الذين آمنوا منهم خاصة بأن لهم قدم صدق عند ربهم يحزيهم به في الآخرة -
والصدق في اصل اللغة ضد الكذب ثم أطلق على الايمان وصدق النية والوفاء
وسائر مواقف الفضائل ، ومنه في التنزيل : مقدم صدق ، ومدخل صدق ، ومخرج
صدق ، وقدم صدق . والقدم ههنا السابقة والتقدم . قال البيضاوي : سابقة
ومنزلة رفيعة سميت قدماً لان السبق بها كما سميت النعمة يداً لانها تعطى باليد ،
وإضافتها إلى الصدق لتحقيقها ، والتنبيه على انهم انما ينالونها بصدق القول والنية
﴿ قال الكافرون إن هذا لساحر مبين ﴾ قرأ ابن كثير والكوفيون (لساحر)
يعنون النبي ﷺ ، والباقون (لسحر) ويعنون به القرآن ، وكلا من القولين
قد قالوا وكل من القولين يشير الى إثبات رسالته ﷺ فان قولهم ان القرآن ساحر
جاء به ساحر يتضمن اعترافهم بانها فوق المهود والمعلوم للبشر في عالم الاسباب
المقدورة لهم . وتأكيد قولهم بالجملة الاسمية وإن واللام وبوصف السحر أو الساحر

بالمبين الظاهر يفيد الحصر كقول لونيدي (إن هذا إلهام يثّر) يعني القرآن .
وسمّوه سحراً لأنه خارق للعادة بقوة تأثيره في القلوب وجذبه للنفوس إلى الإيمان
وحملها على احتقار الحياة ولذاتها في سبيل الله ، حتى أنه يفرق بين المرء وأخيه ،
وأمه وأبيه ، وزوجه وبنيه ، وفصيلته التي تؤويه ، ومنعه وتحميه . وإنما السحر
ما كان بأسباب خفية خاصة ببعض الناس يتعلمها بعضهم من بعض ، وهي إما حيل
وشعوذة ، وإما خواص طبيعية علمية مجعولة للجماهير ، وأما تأثير قوى النفس
وتوجيه الإرادة . وكلها من الأمور المشتركة بين الكثيرين من العارفين بها (١)
وقد استبان لعامة العرب ثم لغيرهم من شعوب المعجم أن القرآن ليس بسحر يثّر
بالتعليم والصناعة ، بل هو مجموعة علوم عالية في العقائد والآداب والتشريع والاجتماع
مرقية للعقول ، مزية للأنفس ، مصلحة للناس ، وأنه معجز للبشر في أسلوبه
ونظمه ومعانيه وهدايته وتشريعه وإخباره بالغيب (٢) وأن محمداً ﷺ مبلغ له ،
ولم يكن ليقدّر على شيء منه ، وقد عجز عنه غيره ، فثبت أنه نبي الله ورسوله ،
وان ماجاء به وحي منه تعالى .

وقد بينا حقيقة الوحي لغة وشرباً وإثباته لنبيينا ﷺ في مواضع منها ما في بحث
دلالة القرآن على نبوة محمد ﷺ وهو في (ص ٢١٦ - ٢٢٤ ج ١ تفسير) ومنها
تفسير (إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح) الآية وهو في (ص ٦٧ ج ٦ تفسير)
ومنها رد شبهات الكفار عليه في سورة الانعام (ص ٣٠٩ - ٣٢٠ ج ٧ تفسير)
ومنها في خلاصتها (ص ٢٧٤ - ٢٨٠ ج ٨) ومنها تحقيق القول في مسألة الكلام
الالهي بمناسبة تكليم الله لموسى عليه السلام (ص ١٧٨ - ١٩١ ج ٩) وبقي علينا
بسط القول في نبوة محمد مع مثبتتي الوحي ونفاته ، وشبهة النفاة لعالم الغيب عليها
وتصويرهم للوحي اليه بغير صورته ، فنعقد له الفصل التالي :

(١) راجع حقيقة السحر في ص ٣٩٩-٤٠٥ ج ١ تفسير

(٢) راجع إعجاز القرآن ص ١٩٠ - ٢١٥ ج ١ تفسير

فصل في اقامة الحجة على مثبتي الوحي ونفاته

(في إثبات نبوة محمد ﷺ)

الكلام في الوحي لمحمد ﷺ مع مثبتي الوحي

أما الفريق الاول فهم أهل الكتاب ، وان من اطلع على كتبهم المقدسة المعبر عنها بكتب المهدين العتيق والجديد وعلى القرآن وكتب السنة والسيرة المحمدية علم علماً عقلياً وجذائياً انه لا يستطيع أحد أن يؤمن إيماناً علمياً بأن تلك كتب وحي من الله ، وان الذين كتبوها أنبياء معصومون فيما كتبوه ، ثم لا يؤمن بأن القرآن وحي من الله وان محمداً نبي معصوم فيما بلغه عن الله تعالى ، كما لا يستطيع فقيه أن ينكر فقه أبي حنيفة والشافعي ، ولا نحوي أن يجحد نحو سيديويه وابن جني ، ولا شاعر أن ينفي شاعرية الرضي والبحتري ، بل كما لا يستطيع بصير أن يكابر حسه فيفضل نور القمر والكوكب على ضوء الشمس ، أو نور السراج على نور النهار ، والله در البوصيري حيث قال :

الله أكبر ان دين محمد --- وكتابه اقوى وأقوم قيبلا

لاتذكروا الكتب السوائف عنده طلع الصباح فاطفيء القناديلا

وقد صرح بهذا المعنى علماء الافرنج الذين نشؤا في النصرانية وأحاطوا بها علماً وخبراً ثم عرفوا الاسلام معرفة صحيحة ولو غير تامة . وهاك شهادة حديثة لعالم مستشرق منهم

كتب الامتاز أدوار مونقيه المستشرق مدرس اللغات الشرقية في مدرسة جنيف الجامعة في مقدمة ترجمته الفرنسية للقرآن ما ترجمته بالعربية :

« كان محمد نبيا صادقا كما كان انبياء بني اسرائيل في القديم ، كان مثلهم يؤتى رؤيا ويوحى اليه ، وكانت العقيدة الدينية وفكرة وجود الالهية متمكنتين فيه كما كانتا متمكنتين في أولئك الانبياء أسلافه فتحدث فيه كما كانت تحدث فيهم

يونس : س ١٠ شهادة عالم أوربي بأن محمد أنبي . الوحي عند النصارى ١٤٧

ذلك الإلهام النفسي، وهذا التضاعف في الشخصية اللذين يحدثان في العقل البشري المرآئي والتجليات والوحي والاحوال الروحية التي من بابها اه
فهذا العالم الاوربي المستقل الفكر يقول ان كل ما كان به انبياء بني اسرائيل
انبياء كان ثابتا لمحمد . ونحن نقول ان جميع خصائص النبوة التي كانت فيه هي
اكمل شكلا وموضوعا وأصح رواية وأبعد عن الشبهات كما سنوضحه ، وأما ما فسر
به هذه الخصائص فهو التعاليل الذي يعلل به الماديون الوحي المطلق، وسنتكلم عليه
في القسم الثاني من هذا الفصل

وقد لخص هذا العالم خبر نزول الوحي على محمد ﷺ من كتب إسلامية
مدعنا لصحة روايتها وفصلها بعهده العالم المستشرق الفرنسي أميل درمنغام^(١) في كتابه
(حياة محمد) مدعنا لصحة الرواية ولموضوعها مفصلا لتأثير نبوته في إصلاح البشر
متمنيا الاتفاق بين المسلمين والنصارى أسفا للشقاق بينهم

واننا نقل هنا تعريف الوحي والنبوة والآيات (العجائب) عن احد علماء
الافرنج الجامعين بين العلوم العصرية والدينية والتواريخ وهو الدكتور جورج بوست
الشهير مؤلف كتاب (قاموس الكتاب المقدس) بالعربية ليذني عليها الباحث المستقل
العقل حكمه في نبوة انبياء بني اسرائيل ووحيتهم ونبوة محمد رسول الله وخاتم
النبيين والوحي الذي انزل عليه

تعريف الوحي عندهم

جاء في تفسير كلمة «وحي» من قاموس الكتاب المقدس ما نصه مع حذف رموز الشواهد:
«تستعمل هذه اللفظة للدلالة على نبوة خاصة بمدينة أو شعب وجاء في (حز ١: ١٢)
«هذا الوحي هو الرئيس» أي انه آية للشعب. وعلى العموم يراد بالوحي الإلهام. وعلى
ذلك يقال «ان كل الكتاب هو موحى به من الله» والوحي بهذا المعنى هو حلول روح

(١) يكتب هذا الاسم في مجلة السياسة (درمنجم) بالجيم المصرية حيث ينشر فيها
كتابه (حياة محمد) مترجما بالعربية. وانما اخترنا كتابته بالغين لكتاب جاء نامن المؤلف
بالعربية كتب فيه امضاءه (أميل درمنغام) ونشرناه في الجزء الاول من مجلد المنار الثلاثين

الله في روح الكتاب الملهمين وذلك على انواع (١) إفادتهم بحقائق روحية او حوادث مستقبلية لم يكن يمكنهم التوصل اليها الا به (٢) ارشادهم الى تأليف حوادث معروفة او حقائق مقررة والتفوه بها شفاها او تدوينها كتابة بحيث يعصمون من الخطأ. فيقال « تكلم اناس الله القديسون مسوقين من الروح القدس » وهنا لا يفقد المتكلم او الكاتب شيئا من شخصيته وانما يؤثر فيه الروح الالهي بحيث يستعمل ما عنده من القوى والصفات وفق ارشاده تعالى . ولهذا نرى في كل مؤلف من الكتاب الكرام ما امتاز به من المواهب الطبيعية ونمط التأليف وماشابه ذلك وفي شرح هذا التعليم دقة. وقد اختلف العلماء فيما اوردوه من شرحه ، غير ان جميع المسيحيين يتفقون على ان الله قد اوحى لأوائك الكتاب ليدونوا إرادته ويفيدوا الانسان ما يجب عليه من الايمان والعمل لكي ينال الخلاص الابدي » اهـ

تعريف النبوة والانبياء عندهم

وجاء في تفسير « نبي أنبياء نبوة » منه ما نصه:

« النبوة لفظة تفيد معنى الاخبار عن الله وعن الامور الدينية ولا سيما عما سيحدث فيما بعد . وسمي هارون نبيا لانه كان المخبر والمتكلم عن موسى نظراً لفصاحته . أما انبياء العهد القديم فكانوا يفادون بالشريعة الموسوية ، وينبئون بمجيء المسيح . ولما قلت رغبة الكهنة وقل اهتمامهم بالتعليم والعلم في ايام صموئيل أقام مدرسة في الرامة وأطلق على تلامذتها اسم بني الانبياء فاشتهر من ثم صموئيل باحياء الشريعة وقرن اسمه باسم موسى وهارون في مواضع كثيرة من الكتاب وتأسست أيضا مدارس أخرى للانبياء في بيت ايل وأريحا والجلجال وأماكن أخرى . وكان رئيس المدرسة النبوية يدعى ابا اوسيدا ، وكان يعلم في هذه المدارس تفسير التوراة والموسيقى والشعر ، ولذلك كان الانبياء شعراء وأغلبهم كانوا يرغمون ويلعبون على آلات الطرب . وكانت الغاية من هذه المدارس أن يرشح الطلبة فيها لتعليم الشعب . أما معيشة الانبياء وبني الانبياء فكانت ساذجة للغاية ، وكثير منهم كانوا متفكرين او طوافين يضافون عند الاتقياء

« ويظهر ان كثيرين من الذين تعلموا في تلك المدارس لم يعطوا قوة على الانبياء بما سيأتي ، انما اقتص هذه الخصوصية اناس منهم كان الله يقيمهم وقتا دون آخر حسب مشيئته ، ويمدحهم بتربية فوق العادة لواجباتهم الخطيرة . على ان بعض الانبياء الملهمين كان يختصهم الله بوحيه ولم يتعلموا من قبل ولا دخلوا تلك المدارس كما موسى مثلاً فانه كان راعياً وجاني جيز . اما النبوة فكانت على انواع مختلفة كالاحلام والرؤى والتبليغ . وأحياناً كثيرة كان الانبياء يرون الامور المستقبلية بدون تمييز ازمنتها فكانت تقترب في رؤاهم الحوادث القريبة العهد مع البعيدة كاقتران نجاة اليهود من الاشوريين بخلاص العالم بواسطة المسيح ، وكانتصار اسكندر ذي القرنين باتيان المسيح ، وكاقتران انسكاب الروح القدس يوم الخميس بيوم الحشر . ومن هذا القبيل اقتران خراب اورشليم بحوادث يوم الدينونة

«وقد ارسل الله الانبياء الملهمين ليعانوا مشيئته وليصاحبوا الشؤون الدينية وعلى الاخص ليخبروا بالمسيح الآتي لتخليص العالم : وكانوا القوة العظيمة الفعالة في تعليم الشعب وتنبيههم وارشادهم الى سبيل الحق . وكان لهم دخل عظيم في الامور السياسية اه بنصه

مايرد على نبوتهم من تعريفها

أما تفسيره الالهام بحلول روح الله في روح الملهم فهو تحكم للنصارى لا يعرفه ولا يعترف به أنبياء بني اسرائيل ولا علماءهم . ولا يمكنهم إثباته ولا دفع مايرد عليه من وقوع التعارض والتناقض والخلف فيما كتبه أولئك الملهمون وماخالفوا فيه الواقع ، وقد أشار الى ذلك بقوله : ان في شرح ذلك التعليم دقة وان العلماء اختلفوا في شرحه الخ ، ومن حل فيه روح الله صار الها اذ المسيح لم يكن الها عند النصارى الا بهذا الحل فكيف يقع في مثل ما ذكر ويتخلف وحيه او يخالف الواقع ؟ وأما كلامه في النبوة والانبياء فيؤخذ منه مايتأتى :

«١» ان أكثر أنبياء بني اسرائيل كانوا يتخرجون في مدارس خاصة بهم يتعلمون فيها تفسير شريعتهم التوراة والموسيقى والشعر وأنهم كانوا شعراء ومغنين وعزافين على آلات الطرب وبارعين في كل ما يؤثر في الانفس وبحرك الشعور

والوجدان ، ويشير روا كد الخيال ، فلا غرو أن يكون عزرا ونحميا من أعظم أنبيائهم ساقين من سقاة الخمر لملك بابل (ارتحششتا) ومغنين له ، وان يكونا قد استعانا بتأثير غنائهما في نفسه على سماحه لهما بالعودة بقومهما الى وطنهما واقامة دينهما فيه فالنبوة على هذا كانت صناعة تعلم موادها في المدارس وبستعان على الاقتناع بها بالتخييلات الشعرية والالهامات الكلامية ، والمؤثرات الغنائية والموسيقية . والعلوم المكتسبة . فإين هي من نبوة محمد الأُمِّي الذي لم يتعلم شيئاً ولم يقل شعراً ، وقد جاء بأعظم مما جاءوا به كلهم ؟

« ٢ » ان كثيراً من هؤلاء الانبياء وأولادهم كانوا متذسكين أو طوافين على الناس يعيشون ضيوفاً عند الاتقياء المحبين لرجال الدين كما هو المهود من دراويش المتصوفة أهل الطرق في المسلمين ، ومن المعلوم أن هؤلاء هم الذين يقبلون من رجال التنسك كل ما يقوون ، ويسلمون لهم ما يدعون ، ويذيعون عنهم كل ما يقبلون منهم ، ومن غير هؤلاء الكثيرين من الانبياء من نقلت عنهم كتبهم انقدسة بعض كبار المعاصي ، وان من أخبار الصوفية والنسك والسياح عند المسلمين من تفضل سيرتهم سيرة هؤلاء الانبياء في كتبهم ، فكيف يصح أن يرتفع أحد منهم الى درجة محمد ﷺ في نشأته الفطرية ومعيشته من كسبه ، وكونه لم يكن عالة على الناس في شيء قبل النبوة ولا بعدها

« ٣ » أشهر أنواع نبوتهم الاحلام والرؤى المنامية والتخييلات المبهمة وكلها تقع لغيرهم ، وقد كانت الرؤيا الصادقة مبدأ نبوة محمد ﷺ قبل وحي التشريع الذي كان له صور أعلى منها سببها بعد . والرؤى صور حسية في الخيال تذهب الآراء والافكار في تعبيرها مذاهب شتى قلما يعرف تأويل الصادق منها غير الانبياء كرؤيا ملك مصر التي عبرها يوسف عليه السلام ، ورؤياه هو في صغره

« ٤ » ان نبوة الاخبار عن الامور المستقبلية وهي التي يستدلون بها على كونهم مخبرين عن الله تعالى كانت أحياناً كثيرة بدون تمييز أزمنتها ولاحواادثها فكان بعضها يختلط ببعض فلا يكاد يظهر المراد منها إلا بعد حملها على شيء واضح بعد وقوعه كما يعهد في كل عصر من أخبار العرافين والنجمين ، بله الروحانيين المكشفين ،

ومنها ما ظهر خلافه كما أشأه إليه ولم يشرحه ولكن التاريخ شرحه. وكان أعظم نبوات هؤلاء الأنبياء إخبارهم عن المسيح (مسيا) وذلك أسراييل ثم إخبار المسيح نفسه عن خراب العالم ومجيء الملكوت لأجل دينونة العالم وأنه لا ينقضي الجيل الذي خاطبه حتى يكون ذلك كله . وقد مر أجيال كثيرة ولم يكن من ذلك شيء .

امتياز نبوة محمد على نبوة من قبله

فأني تضاهي هذه الأخبار (النبوات) وهي كاعلمت أنباء القرآن الكثيرة بالمغيبات كالذي بيناه في خلاصة تفسير السورة السابقة مما وقع من المنافقين وما هو في سورة الفتح . وقوله تعالى في أول سورة الروم (غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيفعلون في بضع سنين) الآية ، وقوله (وعد الله الذين آمنوا منهم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض) وأين هي من إنباء النبي ﷺ أصحابه بأنهم سيفتحون بعده بلاد الشام وبلاد الفرس ومصر وسيتولون على ملك كسرى وقيصر حتى أنه سمي كسرى عصره باسمه كأرواء البخاري عن عدي بن حاتم الخ ؟ هذا ما يقال بالاجمال في أحد موضوعي النبوة وهو الأخبار عما سيكون في مستقبل الزمان ، فما جاء به محمد ﷺ منها في وحي القرآن وغيره أظهر وأوضح وأبعد عن احتمال التأويل ، وأعصى على إنكار المرتابين ، ويزيد عليه ما جاء به من أنباء الغيب الماضية ، وسأذكر ما يتأوله به الجاحدون للنبوة والوحي في بيان بطلان شبهتهم وأما الموضوع الثاني للنبوة وهو الأهم الأعظم أي عقائد الدين وعباداته وآدابه وأحكامه فالنظر فيه من وجهين (أحدهما) ما ذكره من كونه لا يمكن أن يصل إليه عقل من جاء به وفكره ولا علومه ومعارفه الكسبية فيتعين أن يكون بوحي من الله (وثانيهما) أن يكون ما فيه من هداية الناس وصلاح أمورهم في دينهم ودنياهم أعلى في نفسه من معارف البشر في عصره ، فيتعين أن يكون وحياً

فأما الأول الخاص بشخص الرسول فإن العاقل المستقل المفكر إذا عرف تاريخ محمد ﷺ وتاريخ أنبياء بني أسراييل عليهم السلام فإنه يرى أن محمداً ﷺ قد نشأ أمياً لم يتعلم القراءة ولا الكتابة ، وإن قومه الذين نشأ فيهم كانوا أميين وثنيين جاهلين بعقائد الملل وتواريخ الأمم وعلوم التشريع والفلسفة ، حتى إن مكة عاصمة بلادهم ، وقاعدتهم

دينهم، ومشوى كبرائهم ورؤسائهم، ومثابة الشعوب والقبائل للحجج والتجارة فيها، والمفاخرة بالفصاحة والبلاغة في أسواقها التابعة لها، لم يكن يوجد فيها مدرسة ولا كتاب مدون قط، فما جاء به من الدين التام الكامل، والشرع العام العادل، لا يمكن ان يكون مكتسباً ولا ان يكون مستنبطاً بعقله وفكره كما بيناه من قبل، وسندفع ما يرد من الشبهة عليه في القسم الثاني من هذا الفصل

ويرى تجاه هذا أن موسى أعظم أولئك الانبياء في عمله وفي شريعته وفي هدايته قد نشأ في اعظم بيوت الملك لأعظم شعب في الارض وأرقاه تشريعاً وعلماً وحكمة وفناً وصناعة، وهو بيت فرعون مصر، ورأى قومه في حكم هذا الملك القوي القاهر مستعبدين مستذلين، تذبج أبناؤهم وتستحيا نساؤهم، تهيداً لفنائهم ومحوهم من الارض، ثم انه مكث بضع سنين عندحميه في مدين وكان نبياً - او كاهناً كما يقولون - فمن ثم يرى منكرو الوحي ان ما جاء به موسى من الشريعة الخاصة بشعبه ليس بكثير على رجل كبير العقل عظيم الهمة، ناشئ في بيت الملك والتشريع والحكمة الخ ثم ظهر في أوائل هذا القرن الميلادي ان شريعة التوراة موافقة في اكثر أحكامها لشريعة حمورابي العربي ملك الكلدان الذي كان قبل موسى وقد قال الذين عثروا على هذه الشريعة من علماء الالمان في حفائر العراق انه قد تبين أن شريعة موسى مستمدة منها لاوحي من الله تعالى كما شرحنا ذلك في مجلد المنار السادس وذكرنا خلاصته في تفسير سورة التوبة (٣٠: ٩) وهو في [ص ٣٤٨ ج ١٠] وأقل ما يقوله مستقل الفكر في ذلك انه ان لم تكن التوراة مستمدة منها فلا تعد أحق منها بأن تكون وحيًا من الله تعالى، ولم ينقل ان حمورابي ادعى ان شريعته وحي من الله تعالى ثم يري الناظر سائر انبياء العهد القديم كانوا تابعين للتوراة متعبدين بها، وانهم كانوا يتدارسون تفسيرها في مدارس خاصة بهم وبأبنائهم مع علوم أخرى، فلا يصح أن يذكر أحد منهم مع محمد، ويرى أيضاً أن يوحنا المعمدان الذي شهد المسيح بتفضيله عليهم كلهم لم يأت بشرع ولا بنبأ غيبي - بل يرى ان عيسى عليه السلام وهو أعظمهم قدراً وأعلامهم ذكراً، وأجلهم أثراً، لم يأت بشريعة جديدة بل كان تابعاً لشريعة التوراة مع نسخ قليل من أحكامها، وإصلاح روجي أدبي لجود اليهود المادي على ظواهر الفاظها، فأمكن لجاحدي الوحي أن يقولوا انه لا يكثر على رجل مثله زكي

القطرة ذكي العقل ناشيء في حجر الشريعة اليهودية، والمندنية الرومانية، والحكمة اليونانية، غلب عليه الزهد والروحانية، أن يأتي بتلك الوصايا الادبية، ونحن المسلمين لا نقول هذا وإنما يقوله الماديون والملحدون والعقايون وألوف منهم ينسبون إلى المذاهب النصرانية

وأما الوجه الثاني وهو عقائد الدين وعباداته وآدابه وأحكامه فلا يرتاب العقل المستقل المفكر غير المقلد لدين من الاديان أن عقائد الاسلام من توحيد الله وتزييمه عن كل نقص، ووصفه بصفات الكمال، والاستدلال عليها بالدلائل العقلية والعلمية الكونية، ومن بيان هداية رسله، ومن عباداته وآدابه التزكية للنفس المرقية للعقل، ومن تشريعه العادل وحكمه الشوري المرقى للاجتماع البشري - كل ذلك أرقى مما في التوراة والانجيل وسائر كتب العهد القديم والجديد، بل هو الاصلاح الذي بلغ به دين الله أعلى الكمال، ويشهد بهذا علماء الافرنج وقد شرحناه من وجهة نظرنا وجهة نظرهم في مواضع من المنار والتفسير [آخرها ص ٣٥٩ ج ١٠ تفسير]

ومن نظر في قصة آدم ونوح وابراهيم ولوط واسحاق ويعقوب ويوسف من سفر التكوين وسيرة موسى وداود وسليمان وغيرهم من الانبياء في سائر أسفار العهد القديم، ثم قرأ هذه القصص في القرآن يرى الفرق العظيم في الاهتداء بسيرة هؤلاء الانبياء العظام، فني أسفار العهد القديم يرى وصف الله تعالى بما لا يليق به من الجهل والندم على خاق البشر والانتقام منهم، ووصف الانبياء ايضا بما لا يليق بهم من المعاصي مما هو قدوة سوء، من حيث يجد في قصص القرآن من حكمة الله تعالى ورحمته وعدله وفضله وسننه في خلقه، ومن وصف انبيائه ورسله بالكمال وأحسن الاعمال، ما هو قدوة صالحة وأسوة حسنة تزيد قارئها ايمانا وهدى، فأخبار الانبياء في كتب العهدين تشبه بستانا فيه كثير من الشجر والعشب والشوك، والمنار والازهار والحشرات، وأخبارهم في القرآن تشبه العطر المستخرج من تلك الازهار، والعسل المشتار من تلك المنار، ويرى فيه رياضاً أخرى جمعت جمال الكون كله ونُدع هنا ذكر ما كتبه علماء الافرنج الاحرار في نقد هذه الكتب والطعن فيها، ومن أخصرها وأغربها كتاب (أضرار تعليم التوراة والانجيل) لاهد علماء الانكليز، وما فيها من مخالفة العلم والعقل والتاريخ، والقرآن خال من مثل ذلك

(صد الكنيسة عن الاسلام وبغية عوجا)

ان رجال الكنيسة لم يجدوا ما يصدون به اتباعها عن الاسلام بعد أن رأوه قد قضى على الوثنية والمجوسية وكاد يقضي على النصرانية في الشرق ثم امتد نوره إلى الغرب الا تأليف الكتب ونظم الاشعار والاغاني في ذم الاسلام ونبيه وكتابه بالافك والبهتان وفحش الكلام الذي يدل على أن هؤلاء المتدينين اكذب البشر واشدهم عداوة للحق والفضيلة في سبيل رياستهم التي يتبرأ منها المسيح عليه صلوات الله وسلامه وقد كان اتباعهم يصدقون ما يقولون ويكتبون ، ويتميجون بما ينظمون وينشدون ، حتى اذا ما اطلع بعضهم على كتب الاسلام ورأوا المسلمين وعاشروهم فضحوا قبح الفضايح ، كما ترى في كتاب (الاسلام خواطر وسواخ) للكونت دي كاستري وكما ترى في الكتاب الفرنسي الذي ظهر في هذا العهد باسم (حياة محمد) للموسيو درمنغام وهذان الكتابان افرنسيان من طائفة الكاثوليك اللاتين ، وقد صرحا كغيرهما بان كنيسةهم هي البادية بالظلم والعدوان ، والافك والبهتان ، وبأدب المسلمين في الدفاع*)

(*) قل موسيو درمنغام ما ترجمته العربية بقلم الدكتور محمد بك حسين هيكل : لما نشبت الحرب بين الاسلام والمسيحية اتسعت هوة الخاف وسوء الفهم بطبيعة الحال وازدادت حدة ويجب أن يعترف الانسان بأن الغربيين كانوا السابقين الى أكبر الخلاف . فن الجنادلين البيزنطيون الذين أوقروا الاسلام احتقاراً من غير أن كفوا أنفسهم فيما خلا جان داراسين مؤنة دراستهم لمجارب الكتاب والنظامون (عني الشعراء) مسلمي الاندلس الا بأسخف المناب . فقد زعموا محمداً لص نياق (؟) وزعموه متبهاً الكا على الله وزعموه ساحراً وزعموه رئيس عصاة من قطاع الطرق بل زعموه قسا رومانياً مغيظاً ان لم ينتخب الكرمي البابوية . . . وحسبه بعضهم لها زائفاً « يقرب له عباده الضحايا البشرية » وان جيبير دنوجن نفسه وهو رجل جد لا يذكر أن محمداً مات في توبة سكر بين (كذا) وان جسده وجد ملقى على كوم من الروث وقد أكلت منه الخنازير وذلك ايفسر السبب الذي من أجله حرم الحمر وحرم لحم ذلك الحيوان . . . وذهبت الاغنيات الى حد أن جعلت محمداً صنماً من ذهب وجعلت المساجد الاسلامية راياي (معابد أصنام) ملاي بالتمثيل والصور . وقد تحدث واضع أغنية أنطاكية حديث من رأى صنم «ماحوم» مصنوعاً من ذهب ومن فضة خالصين وقلس جلس فوق فيل على مقعد من النسيفساء وأما أغنية رولان التي تصور فرسان شارلمان يحطمون الاوثان الاسلامية فتزعم أن مسلمي الاندلس يعبدونثالوثاً مكوناً من ترفجان وماهوم (هو ماحوم ويعنون به محمد) وابولون . وتحسب « قصة محمد » ان الاسلام يبيح للمرأة تعدد الأزواج . وقد ظلت حياة الاحقاد والخرافات قوية متشبثة بالحياة . فنذ رودلف دلوهيم الى وقتنا الحاضر قام نيسكولا دكينز وفيفس وسرا اني وهو تنجرو وبيليا نلار ويريدو وغيرهم فوصفوا محمداً بأنه دجال والاسلام بأنه مجموعة من الهرطقات (الكفر) كلها وأنه من عمل الشيطان والمسلمين بأنهم وحوش والقرآن بأنه نسيج من السخافات . اه المراد منه على كثرة تهووا بهام في ترجمته ، وهو قليل من اسرافهم

ولما ظهرت طائفة البروتستان وغلب مذهبها في شعوب الأنجلوساكسون والجرمان، وكان الفضل في دعوتهم الإصلاحية لما انعكس على أوربة من نور الاسلام، لم يتعفف قسوسهم ودعاتهم (المبشرون) عن افتراء الكذب، ولا تجملوا فيه بشيء من النزاهة والادب، والذي نراه في هذا العصر من مطاعنهم وافتراءاتهم وسوء أدبهم أشد مما نراه من غيرهم، ولكن الذين أنصفوا الاسلام من أحرار علماءهم اصرح قولاً، ولعلمهم أكثر من اللاتين عدداً، وكذلك الذين اهتموا به، وسبب ذلك أن الحرية والاستقلال في تربيتهم أقوى، وسيكونون هم الذين ينشرون الاسلام في أوربة والولايات المتحدة الامير كانية ثم في سائر العالم كاجزم العلامة برناردشو الانكليزي في كتابه الحياة الزوجية

مسألة الآيات والعجائب أي الخوارق

بقي الكلام في مسألة العجائب التي بنيت على أساسها الكنائس النصرانية على اختلاف مذاهبها، وفيما يدعونه من مجرد محمد ﷺ من لباسها، وهي قد أصبحت في هذا العصر حجة على دينهم لاله، وصادة للعلماء والعقلاء عنه لا مقنعة به، ولولا حكاية القرآن لآيات الله التي ابد بها موسى وعيسى عليهما السلام ان كان إقبال أحرار الافرنج عليه أكثر، واهتدأؤهم به نعم وأسرع، لان أساسه قد بني على العقل والعلم وموافقة الفطرة البشرية، وتزكية أنفس الافراد، وترقية مصالح الاجتماع، وأما آيته التي احتج بها على كونه من عند الله تعالى هي القرآن، وأمية محمد عليه الصلاة والسلام، فهي آية علمية تدرك بالعقل والحواس والوجدان كفاك بالعلم في الامي معجزة في الجاهلية والتأديب في اليتيم

واما تلك العجائب الكونية فهي مشار شبهات وتأويلات كثيرة في روايتها وفي صحتها وفي دلالتها. وأمثال هذه الامور تقع من اناس كثيرين في كل زمان والمنقول منها عن صوفية الهند والمسلمين أكثر من المنقول عن المهديين العتيق والجديد وعن مناقب القديسين وهي من منغرات العلماء عن الدين في هذا العصر، وسندين ما جاء به الاسلام فيها من الفصل

العجائب وما للمسيح منها

جاء في تعريف العجائب وأنواعها من قاموس الكتاب المقدس ما نصه :
 «عجيبة: حادثة تحدث بقوة إلهية خارقة تجري العادة الطبيعية لاثبات ارسالية من جرت على يده أوفيه. والعجيبة الحقيقية هي فوق الطبيعة لاضدها تحدث بتوقيف نواويس الطبيعة لا بما كستها، وهي اظهار نظام اعلی من الطبيعة يخضع له النظام الطبيعي، ولما في فعل الارادة مثال يظهر لنا حقيقة امر العجائب اذ بها نرفع اليد وبذلك نوقف ناموس الثقل ويتسلط الله على قوى الطبيعة ويرشدها ويمد مدارها او يحصره لانها عوامل لمشيئته. ويناط فعل العجائب بالله وحده او بمن سمح له بذلك «واذا آمنا بالاله القادر على كل شيء لم يعسر علينا التسليم بإمكان العجائب وكانت العجيبة الاولى خليفة الكون من العدم بإرادته تعالى. اما المسيح فاقنومه عجيبة ادبية عظيمة، وعجائبه لم تكن الا اظهار هذا الاقنوم واعماله، واذا آمنا بالمسيح ابن الله العديم الخطية لم يعسر علينا تصديق عجائبه. اما الشيطان فعجائبه كذابه «ولا بد من العجائب لتعزيز الديانة فكثيرا ما يستشهد المسيح بعجائبه لاثبات لاهوته وكونه المسيح، وكان يفعلها لتمجيد الله ولمنفعة نفوس الناس وابدانهم، وكان يفعلها ظاهراً امام جماهير اصحابه واعداؤه ولم ينكرها اعداؤه غير انهم نسبوها لبعزلبول (١) وسواء امتحنها بالشهادة من الخارج وبمناسبتها الى ارساليته الالهية ظهرت اكل من كان خاليا من الغرض صحيحة. فاذا لم نسلم بصحتها التزمنا ان نقول بان مقدرها كذابون الامر الذي لا يسوغ ظنه بالمسيح والرسول «وبقيت قوة العجائب في عصر الرسل ولما امتدت الديانة المسيحية زال الاضطراب اليها (٢) ولا يلزمنا الآن سوى العجائب الادبية الحاصلة من هذه الديانة مع الشواهد الداخلية على صحتها غير انه يمكن لله تعالى ان يجردها في أي وقت شاء» اهـ

ثم وضع المؤلف جدولاً احصى فيه عجائب العهد القديم من خراب سدوم

- ﴿ ١ ﴾ اي الى الشيطان والاناجيل تثبت العجائب للشيطان كما صرح به آتفا
 ﴿ ٢ ﴾ هذا مذهب البروتستانت واما الكاثوليك فيدعون وجودها في كل عصر

يونس: ص ١٠ عجائب المسيح وما قيل في إحياء الموتى منها ١٥٧

وعمودة على قوم لوط الى «خلاص يونان» (يونس) بواسطة حوت «فبلغت ٦٧ عجيبة ووقفى عليه بجدول العجائب المقرونة بحياة المسيح من الحبل به «بفعل الروح القدس» الى «الصعود إلى السماء» فبلغت ٣٧ . وعزز الجدولين بثالث في «العجائب التي جرت في عصر الرسل» اي الذين بشوا دعوة المسيح من تلاميذه وغيرهم من «انسكاب الروح القدس يوم الخمسين» الى «شفاء أيوب بليوس وغيره» فكانت عشرين . وقد صرح بان يوحنا المعمدان لم يرد في الكتاب انه صنع عجائب

بحث في عجائب المسيح عليه السلام

اقول : ان ٢٧ من عجائب المسيح المذكورة شفاء مرضى ومجانين لا يستهم الشياطين وثلاث منها إقامة موتى عقب موتهم وما بقي فمسألة الحبل به وتحويله الماء الى خمر وسحب الشبكة في بحر الجليل ، واشباع خمسة آلاف مرة واربعة آلاف مرة أخرى ، وضرب التينة العقيمة بما أبيضها ، وقيامه المسيح وصيد السمك والصعود . واننا نلخص رواية الاناجيل لأهمها وهو إحياء الموتى ونذكر ما يقوله فيها منكمرو العجائب الميت الاول شاب من مدينة نايين كان محمولا في جنازة وأمه تبكي فاستوقف الانعمش وقال له : أيها الشاب لك أقول قم . فجلس وابتدأ يتكلم فدفعه إلى أمه فأخذ الجميع خوف ومجدوا الله قائلين قد قام فينا نبي عظيم واقتقد الله شعبه (لوقا ١١: ١٦) الثاني صببة ماتت فقال له أبوها وكان رئيساً : ابنتي الآن ماتت لكن تعال فضع يدك عليها فتحيها . فجاء بيت الرئيس ووجد المزمسين والجمع يضجعون فقال لهم « تنحوا فان الصبية لم تمت لكنها نائمة » فضحكوا عليه فلما أخرج الجمع دخل وأمسك بيدها فقامت الصبية (مت ١٨: ٩ - ٢٤)

فمنكمرو العجائب يقولون ان كلا من الشاب والشابة لم يكونا قد ماتا بالفعل وان كثيراً من الناس في كل زمان قد قاموا من نعوشهم بل من قبورهم بعد أن ظن الناس انهم ماتوا . ولذلك تمنع الحكومات المدنية دفن الميت إلا بعد أن يكتب أحد الاطباء شهادة بموته . وللمؤمنين بالآيات أن يحزموا أيضاً بأن الصبية لم تكن ميتة أخذنا بظاهر قوله عليه السلام

وأما الثالث فهو « ليعازر » حبيبه وأخو مرثا ومريم حبيبتيه : مرض في قريتهم « بيت عنيا » فأرسلتا إلى المسيح قائلتين « هو ذا الذي تحبه مريض » فمكث يومين وحضر فوجد أنه مات منذ أربعة أيام فلاقتهم مرثا وقالت : يا سيد لو كنت هنا لميت أخي ، ثم دعت أختها مريم فلما رآته خرت عند رجله قائلة كما قالت مرثا وكانوا قد ذهبوا إلى عند القبر للبكاء ، فلما رآها تبكي واليهود الذين جاءوا معها يبكون « انزعج بالروح واضطرب » وقال « أين وضعتموه ؟ » فدلوه عليه فبكى وانزعج في نفسه وجاء إلى القبر وكان مغارة وقد وضع عليه حجر ، فأمر برفع الحجر فرفعه « ورفع يسوع عينيه إلى فوق وقال : ايها الاب أشكرك لانك سمعت لي ، وأنا علمت أنك في كل حين تسمع لي ، ولكن لاجل هذا الجمع الواقف قلت ليؤمنوا أنك أرسلتني » ولما قال هذا صرخ بصوت عظيم « لعازر ! هلم خارجا » فخرج الميت ويده ورجلاه مربوطتان بأقطة ووجهه ملفوف بمنديل ، فقال لهم يسوع : حلوه ودعوه يذهب . أه ملخصاً من الفصل ١١ من انجيل يوحنا

أتدري أيها القارىء ما يقول منكرو المعجائب والآيات في هذه القصة على تقدير صحة الرواية ؟ انني سمعت طبيباً سورياً بروتستانتياً يقول انها كانت بتواطؤ بينه وبين حبيبتيه وحبيبه لاقتناع اليهود بذبوته . وحاشاه عليه السلام . وانما ننقل هذا لتبين أن النصارى لا يستطيعون إقامة البرهان في هذا العصر على نبوة المسيح فضلاً عن ألوهيته بهذه الروايات التي تدل على النبوة وتنفي الألوهية ، كما فهم الذين شاهدوها ، لانه ليس لها أسانيد متصلة إلى كاتبها ، ولا دلائل على عصمتهم من الخطأ في روايتها ، دع قول المنكرين باحتمال الاحتيال والتلبيس أو المصادفة فيها ، أو عدم اياها على تقدير ثبوتها من فلتات الطبيعة

واذا كان اعظمها وهو احياء الميت يحتمل ما ذكرنا من التأويل فما القول في شفاء المرضى وإخراج الشياطين الذي يكثر وقوع مثله في كل زمان والاطباء كلهم يقولون ان ما يدعي العوام من دخول الشياطين في اجساد الناس ما هو الا أمراض عصبية تشفى بالمعالجة أو بالوهم والاعتقاد . ودونها مسألة الحجر والسملك وبيس التينة

آية نبوة محمد عقلية علمية وسائر آياته الكونية

هذا وان مارواه المحدثون بالاسانيد المتصلة تارة وبأثر رسالة اخرى من الآيات الكونية التي أكرم الله تعالى بها رسوله محمد ﷺ هي أكثر من كل مارواه الانجيليون وأبعد عن التأويل، ولم يجعلها برهاناً على صحة الدين ولا أمر بتلقيها للناس ذلك بأن الله تعالى جعل نبوة محمد ورسالته قائمة على قواعد العلم والعقل في ثبوتها وفي موضوعها، لان البشر قد بدأوا يدخلون في سن الرشد والاستقلال النوعي الذي لا يخضع عقل صاحبه فيه لاتباع من تصدر عنهم أمور عجيبة مخالفة للنظام المألوف في سنن الكون، بل لا يكمل ارتقاؤهم واستعدادهم بذلك بل هو من موانعه، فجعل حجة نبوة خاتم النبيين عين موضوع نبوته وهو كتابه المعجز للبشر بهدايته وعلومه وإعجازه اللفظي والمعنوي (كما بيناه في تفسير سورة البقرة) ليربي البشر على الترقى في هذا الاستقلال، إلى ما هم مستعدون له من الكمال هذا الفصل بين النبوات الخاصة بالماضية، والنبوة العامة الباقية، قد عبر عنه النبي ﷺ بقوله « ما من الانبياء من نبي إلا وقد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر . وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة » متفق عليه من حديث أبي هريرة (رض)

وقص الله تعالى علينا في كتابه ان المشركين اقترحوا الآيات الكونية (العجائب) على رسوله فاحتج عليهم بالقرآن في جملة وبما فيه من أخبار الرسل والكتب السابقة التي لم يكن يعلمها هو ولا قومه، وبهدايته وعلومه وباعجازه، وعدم استطاعة احد ولا جماعة ولا العالم كله على الاتيان بمثله (١٧ : ٨٨ قل لن اجتماعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) وأما ما أكرم الله تعالى به من الآيات الكونية فلم يكن لاقامة الحجة على نبوته ورسالته بل كان من رحمة الله تعالى وعنايته به وبأصحابه في الشدائد كنصرهم على المعتدين عليهم من الكفار الذين يفوقونهم عدداً وعدداً واستعداداً بالسلاح والطعام وناهيك بغزوة بدر والنصر فيها، ثم بغزوة الأحزاب إذ تآلب المشركون واليهود

على المسلمين وأحاطوا بمدى نيتهم فردهم الله بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال من تلك الآيات شفاء المرضى وإبصار الأعمى وإشباع العدد الكثير من الطعام القليل في هذه الغزوة وفي غزوة تبوك كما وقع للمسيح عليه السلام . ومنه تسخير الله السحاب لاسقاء المسلمين وتثبيت أقدامهم التي كانت تسيخ في الرمل ببدر ولم يصب المشركين من غيظها شيء . ومثل ذلك في غزوة تبوك إذ نفذ ماء الجيش في الصحراء والحر شديد حتى كانوا يذبحون البعير ويخرجون الفرث من كرشه ليعتصروه ويبلوا به ألسنتهم على قلة الرواحل معهم ، وكان يقل من يجد من عصارته ما يشربه شرباً ، فقال أبو بكر يا رسول الله ان الله عودك في الداء خيراً فدع الماء فرفع يديه فدعا فلم يرجعهما حتى كانت السماء قد سكبت لهم مأملاً وما معهم من الروايا ولم تتجاوز عسكرهم

تأثير المعجائب في الأفراد والأمم

لقد كانت آيات المرسلين حجة على الجاحدين المعاندين استحقوا بمجحودها عذاب الله في الدنيا والآخرة ، ولم يؤمن بها ممن شاهدوها إلا المستعدون للإيمان بها : ان فرعون وقومه لم يؤمنوا بآيات موسى ، وإن أكثر بني اسرائيل لم يعقلوها ، وقد اتخذوا العجل وعبدوه بعد رؤيتها . وقال اليهود في المسيح لولا انه رئيس الشياطين لما اخرج الشيطان من الانسان . وقالوا ان ابليس أو بعزبول يفعل اكبر من فعله ، وما كان أكثرهم مؤمنين . وقال المنافقون وقد رأوا بأعينهم سحابة واحدة في ابان القيظ قد مطرت عسكر المؤمنين وحده عند دعاء النبي ﷺ : اننا مطرنا بتأثير النوء لا بدعائه .

وقد كان أكثر من آمن بتلك الآيات انما خضعت أعناقهم واستخذت انفسهم لما لا يعقلون له سبباً وقد انطوت الفطرة على أن كل ما لا يعرف له سبب فلا آتي به مظهر للخالق سبحانه ان لم يكن هو الخالق نفسه ، وكان أضعاف أضعافهم يخضع مثل هذا الخضوع نفسه للسحرة والمشعوذين والدجالين ولا يزالون كذلك وقد نقلوا عن المسيح عليه السلام انه سيأتي بعده مسحاء كذبة وأنبياء كذبة

يونس :س ١٠ الاسلام هو الدين الوحيد الذي ثبت كتابه وتاريخه بالتواتر ١٦١

ويعطون آيات عظيمة وعجائب حتى يضلوا لو أمكن المختارين أيضاً (متى ٢٤ : ٢٤)
وقد ذكر في قاموس الكتاب المقدس عدداً كبيراً منهم وأما بعضهم . وأقول :
ان منهم القادياني الذي ظهر من مسلمي الهند ، وتذكر صحف الأخبار ظهور هندي
آخر يريد اظهار عجائبه في أمريكا في هذا العام ونقلوا عن المسيح أنه قال : « الحق
اقول لكم ليس كل نبي مقبول في وطنه » وجعل القاعدة لمعرفة النبي الصادق تأثير
هدايته في الناس لا الآيات والعجائب فقال « من ثمارهم تعرفونهم » ولم يظهر
بعده - ولا قبله - نبي كانت ثماره الطيبة في هداية البشر كشار محمد ﷺ
ولا احد يصدق عليه قوله في انجيل يوحنا (١٦ : ١٢) ان لي أموراً كثيرة ايضاً
ولكن لا تستطيعون أن تَحْتَمِلُوا الآن وأما متى جاء ذلك (أي البارقليط) روح الحق
فهو يرشدكم الى جميع الحق) الخ وما جاء بعده نبي أرشد الناس الى جميع الحق في
الدين من توحيد وتشريع وحكمة وتأديب غير محمد رسول الله وخاتم النبيين

ومن استقرأ تواريخ الامم علم ان أهل الملل الوثنية اكثر اعتماداً على المعجائب
من أهل الأديان السماوية ، ورأى الجميع ينقلون منها عن معتقديهم من الأولياء
والقديسين ، اكثر مما نقلوا عن الانبياء المرسلين ، وان اكثر المصدقين بها من الخرافيين

ثبوت نبوة محمد بنفسها واثباتها غيرها

وجملة القول ان نبوة محمد ﷺ قد ثبتت بنفسها ، أي بالبرهان العلمي والعقلي
الذي لا ريب فيه لا بالآيات والمعجائب السكونية ، وان هذا البرهان قائم ماثلاً للعقول
والحواس في كل زمان ، وانه لا يمكن اثبات آيات النبيين السابقين إلا بثبوت نبوته ﷺ
وهذا القرآن الذي جاء به ، فالحجة الوحيدة عليها في هذا الطور العلمي الاستقلالي من
اطوار النوع البشري هو شهادته لها . فان الكتب التي نقلتها لا يمكن اثبات عزوها الى
من عزيت اليهم ، اذ لا يوجد نسخ منها منقولة عنهم باللغات التي كتبوها بها لا تواتر
ولا آحاداً ، ولا يمكن إثبات عصمتهم من الخطأ فيما كتبوه على اختلافه وتناقضه ،
وتعارضه ، ولا اثبات صحة التراجم التي نقلت بها ، كما قلنا آنفاً وببده بالتفصيل مراراً
الكتاب الالهي الوحيد الذي نقل بنصه الحرفي تواتراً عن جاء به بطريقتي

« تفسير القرآن الحكيم » « ٢١ » « الجزء الحادي عشر »

١٦٢ درس علماء الافرنج للسيرة المحمدية وشهادتهم بصدقه ﷺ التفسير: ج ١١

الحفظ والكتابة معا هو القرآن ، والنبي الوحيد الذي نقل تاريخه بالروايات المتصلة الاسانيد حفظا وكتابة هو محمد (ص) فالدين الوحيد الذي يمكن للعلماء المستقلين في الفهم والرأي ان يعقلوه ويبنوا عليه حكمهم هو الاسلام . وأما خلاصة ما يمكن الاعتراف به من الاديان السابقة لثبوت قضاياء الاجمالية بالتواتر المعنوي ، فهو انه وجد في جميع ائم الحضارة القديمة دعاة الى عبادة الله تعالى والى العمل الصالح والى ترك الشرور والردائل منهم انبياء مبلغون عن الله تعالى مبشرين ومنذرين ، كما انه وجد فيهم حكماء يبنون ارشادهم على الاحتجاج بما ينفع الناس ويضرهم بحكم العقل والتجربة - ووجد في جميع ما نقل عن الفريقين أمور مخالفة للعقل ولما ينفع الناس ، وأمر خاصة بأهلها وبزمانهم ، وخرافات ينكرها العقل وينقضها العلم واذا كان الاسلام ونبيه هو الدين الوحيد الذي عرفت حقيقته وتاريخه بالتفصيل فاننا نذكر هنا شبهة علماء الافرنج للماديين ومقلداتهم عليه ، بعدم مقدمة في شهادتهم الاجمالية له ، تمهيداً لدحض الشبهة ، ونهوض الحجة ، فنقول :

(درس علماء الافرنج للسيرة المحمدية وشهادتهم بصدقه ﷺ)

درس علماء الافرنج تاريخ العرب قبل الاسلام وبعده على طريقتهم في النقد والتحليل ، ودرسوا السيرة النبوية المحمدية وفلّوها فلياً ونقشوها بالمناقيش ، وقرأوا القرآن بلفظه وقرأوا ما ترجمه بأقوامهم ، وكانوا على علم محيط بكتب المهددين القديم والجديد ، وتاريخ الأديان ولا سيما الديانتين اليهودية والنصرانية ، وبما كتبه المتعصبون للكنيسة من الافتراء على الاسلام والنبي والقرآن مما أشرنا إلى بعضه آنفاً ، فخرجوا من هذه الدروس كلها بالنتيجة الآتية :

- ✽ ان محمداً كان سليم الفطرة ، كامل العقل ، كريم الاخلاق ، صادق
- ✽ الحديث ، عفيف النفس ، قنوعاً بالقليل من الرزق ، غير طموح بالمال ولا
- ✽ جنوح الى الملك ، ولم يعن بما كان يعنى به قومه من الفخر ، والمباراة في تحبير
- ✽ الخطب وقرض الشعر ، وكان يمت ما كانوا عليه من الشرك وخرافات
- ✽ الوثنية ، ويحتقر ما يتنافسون فيه من الشهوات البهيمية ، كالخمر والميسر

﴿ وأكل أموال الناس بالباطل ، وبهذا كله وثبت من سيرته وبقينه بعد ﴾
﴿ النبوة جزموا بانه كان صادقا فيما ادعاه بعد استكمال الأربعين من سنه من ﴾
﴿ رؤية ملك الوحي ، واقرأه آياه هذا القرآن ، وإنبائه بأنه رسول من الله ﴾
﴿ هداية قومه فساثر الناس ﴾

وزادهم ثقة بصدقه ان كان أول الناس إيمانا به واهتداء بنبوته أعلمهم بدخيلة أمره ، وأولهم زوجه خديجة المشهورة بالعقل والنبيل والفضيلة ، ومولاه زيد بن حارثة الذي اختار أن يكون عبدا له على أن يلحق بوالده وأهل بيته ويكون معهم حرا ، ثم أن كان الذين آمنوا به من اعظم العرب حرية واستقلالاً في الرأي ولا سيما أبي بكر وعمر فاما المؤمنون بالله وملائكته وبأن للبشر أرواحا خالدة من هؤلاء الا فرنج فقد آمنوا بنبوته محمد ﷺ على علم وبرهان ، وهم يزيدون عاما بعد عام ، بقدر ما يتاح لهم من العلم بالاسلام ، وأما الماديون فلم يكن لهم بد من تفسير لهذه الحادثة أو الظاهرة التي لا ريب في صحتها وثبوتها ، وتصويرها بالصورة العلمية التي يقبلها العقل ، الذي لا يؤمن بما وراء المادة أو الطبيعة من عالم الغيب

قدحوا زناد الفكر ، واستنوروا به نظريات الفلسفة ، فلاح لهم منه سقط أبصروا في ضوئه الضئيل الصورة الخيالية التي أجعلها الاستاذ مونتيه في عبارته التي نقلناها عنه آنفاً وفصلها أميل درمنغام وغيره بما نشرحه ههنا .

(شبهة منكري عالم الغيب على الوحي الالهي)

(وتصويرهم لنبوته محمد ﷺ)

خلاصة رأي هؤلاء الماديين أن الوحي إلهام يفيض من نفس النبي الموحى اليه لا من الخارج ، ذلك أن نفسه العالية ، وسريره الطاهرة ، وقوة إيمانه بالله وبوجوب عبادته وترك ما سواها من عبادة وثنية ، وتقاليد وراثية ، يكون لها من التأثير ما يتجلى في ذهنه ويحدث في عقله الرؤى والاحوال الروحية ، فيتصور ما يعتقد وجوبه إرشاداً إلهياً نازلاً عليه من السماء بدون واسطة ، أو يتمثل له رجل يلقنه ذلك يعتقد أنه ملك من عالم الغيب وقد يسمعه يقول ذلك ، وإنما يرى ويسمع ما يعتقد في البقطة

كما يرى ويسمع مثل ذلك في المنام الذي هو مظهر من مظاهر الوحي عند جميع الانبياء ، فكل ما يخبر به النبي من كلام ألقى في روعه أو ملك ألقاه على سمعه فهو خبر صادق عنده

يقول هؤلاء الماديون: نحن لانشك في صدق محمد في خبره عما رأى وسمع ، وإنما نقول ان منبع ذلك من نفسه ، وليس فيه شيء جاء من عالم الغيب الذي وراء عالم المادة والطبيعة الذي يعرفه جميع الناس ، فان هذا شيء لم يثبت عندنا وجوده كما أنه لم يثبت عندنا ما ينفيه ويلحقه بالحال ، وإنما نفسر الظواهر غير المعتادة بما عرفنا وثبت عندنا دون ما لم يثبت

ويضربون مثلاً لهذا الوحي قصة جان دارك الفتاة الافرنسية التي قررت الكنيسة الكاثوليكية قداستها بعد موتها بزمان ، وهذا التصوير الذي يصورون به ظاهرة الوحي قدسرت شبهته الى كثير من المسلمين المرتابين الذين يقلدون هؤلاء الماديين في نظرياتهم المادية أو يقتنعون بها . وانني أفتتح الكلام في ابطال هذه الصورة الخيالية بالكلام على جان دارك فقد ألقى الى سؤال عنها نشرته مع الجواب عنه في صفحة ٧٨٨ من المجلد السادس من المنار (سنة ١٣٢١) وهذا نصه

(شبهة على الوحي)

حضرة الاستاذ الرشيد

عرضت لي شبهات في وقوع الوحي (وهو أساس الدين) فعمدت الى رسالة التوحيد للاشيخ محمد عبده - حيث توقع اختياري عليها - وقرأت في بابي (حاجة البشر الى الوحي) و (إمكان الوحي) فوجدت الكلام وجيباً معقولاً ، غير ان الحاجة الى الشيء لا تستلزم وقوعه ، وكذا إمكانه وعدم استحالة عقلا لا يقتضي حصوله . ثم ما ذكر بعد من أن حالة النبي وسلوكه بين قومه وقيامه بجلال الاعمال وبوقوع الخبر للناس على يديه هو دليل نبوته وتأيد بعته ، فليس شيئاً ، فانه قد يكون (كون) النبي حميد السيرة في عشيرته صادقاً في دعوته - اعني معتقداً في نفسه - سبباً في نهوض أمته ، ولا يكون كل ذلك مدعاة الى الاعتقاد به والتسليم له

ولقد حدثت بفرنسا في القرن الخامس عشر الميلادي اذ كانت مقهورة للانكلين

ان بننا تدعى (جان دارك) من اجل النساء سيرة واسلمهن نية اعتقدت وهي في بيت اهلها بعيدة عن التكاليف السياسية انها مرسله من عند الله لا نقاذ وطنها ودفع العدو عنه، وصارت تسمع صوت الوحي فأخلصت في الدعوة للقتال، وتوصلت بصدق إرادتها الى رئاسة جيش صغير وغلبت به العدو فعلا، ثم ماتت غيب نصرتها موته الابطال من الرجال، إذ أخذها قومها، ووقعت في يد عدوها فألقوها في النارية، فذهبت تاركة في صحائف التاريخ اسما يصبق نشره وتضوع رياه. وهي الآن موضع إجلال القوم وإعظامهم، فلقد تيسرت لهم النهضة بعدها وجروا في العلم والرفي بهيدا. فهل نجزم لذلك ان تلك الجنت نبية مرسله ?? ربما تذهبون الى ان عملها لا يذكر مقارنا بما اتت به الرسل وما وصل للناس من الخير بسببهم، فأقول هل هناك من ميزان نزن به الاعمال النافعة لنعلم ان كانت وصلت الى الدرجة التي يجب معها ان نصدق دعوة صاحبها ؟ وهل لو ساعدت الصدف (كذا) رجلا على ان يكون اكبر الناس فعلا وأبقاهم أثرا واعتقد برسالة نفسه لو هم قام (عنده) يفضي بنا ذلك الى التيقن من رسالته ؟ اظن أن هذا كله مضافا لغيره يدعو الى الترجيح ولا يستلزم اليقين ابدًا. على اني أنتظر ان تجدوا في قولي هذا خطأ تقنعوني به أو تزيدوني ايضا حين تكشف به الحجاب وتناولون به اثواب. هذا واني اعلم من فئة مسلمة ما أعلمه من نفسي ولكنهم يتحفظون في الكتان، ويسألون الكتب خشية سؤال الانسان، ولكنني لا اجد في السؤال عارا، وكل عقل بخطيء ويصيب، ويرزق ويستقيم (احد قرائكم)

﴿ جواب المنار ﴾

لقد سرنا من السائل انه على تمكن الشبهة من نفسه لم يدع لها تمام الادعان، فيسترسل في تعدي حدود الدين الى فضاء الاهواء والشهوات التي تفسد الارواح والاجسام، بل أطاع شعور الدين الفطري، ولجأ الى البحث في الكتب، ثم السؤال ممن يظن فيهم العلم بما يكشف الشبهة، ويقيم الحجة، وان كثيرا من الناس لينصرفون عن طلب الحق عند اول قذعة من الشبه تلوح في فضاء أذهانهم، لانهم شهبوا على حب التمتع والانغماس في اللذة، ويرون الدين صادًا لهم عن

الانهك والاسترسال فيها ، فهم يحاولون إمانة شعوره الفطري ، كما امانت
النشوء في الجهل برهانه الكسبي

ارى السائل نظر من رسالة التوحيد في المقدمات ووعاها ولكنه لم يدقق النظر
في المقاصد والنتائج ، لذلك نراه مسلما بالمقدمات دون النتيجة مع اللزوم بينهما ، فاذا
هو عاد الى مبحث (حاجة البشر الى الرسالة) وتدبره وهو مؤمن بالله وانه أقام الكون
على اساس الحكمة البالغة والنظام الكامل فاني ارجو له أن يقتنع . ثم انني آنست
منه انه لم يقرأ مبحث (وقوع الوحي والرسالة) او امله قرأه ولم يتدبره ، فانه لم يذكر
البرهان على نفس الرسالة ويبنى الشبهة عليه وانما بناها على جزء من أجزاء المقدمات ،
وهي القول في بعض صفات الرسل عليهم السلام . واني اكشف له شبهته أولا فأبين
انها لم تصب موضعها ثم أعود إلى رأيي في الموضوع

ان [جان درك] التي اشتبه عليه امرها بوحي الانبياء لم تقم بدعوة الى دين
او مذهب تدعي ان فيه سعادة البشر في الحياة وبعد الموت كما هو شأن جميع المرسلين ،
ولم تأت بآية كونية ولا علمية لا يعهد مثلها من كسب البشر تتحدى بها الناس
ليؤمنوا بها . وانما كانت فتاة ذات وجدان شريف هاجه شعور الدين وحركته
مزعجات السياسة ، فتحرك ، فنفّر ، فصادف مساعدة من الحكومة ، واستعداداً
من الامة للخروج من الذل الذي كانت فيه ، وكان التحمس الذي حركته سببا
للهجمة الصادقة على العدو وخذلانه . وما اسهل تهيج حماسة أهل فرنسا بمثل هذه
المؤثرات وبما هو أضعف منها ، فان نابليون الاول كان يسوقهم الى الموت مختارين
بكلمة شعرية يقولها ككلمته المشهورة عند الاهرام

وأذكر السائل الفطن بأنه لم يوافق الصواب في إبعاد الفتاة عن السياسة ومذاهبها
فقد جاء في ترجمتها من دائرة المعارف (العربية للبستاني) ما نصه :

« كانت متعودة الشغل خارج البيت كرعي المواشي وركوب الخيل الى العين
ومنها الى البيت ، وكان الناس في جوارد وصرمي [اي بلدها] منمسين بالخرافات ،
ويميلون الى حزب اورليان في الانقسامات التي مزقت مملكة فرنسا ، وكانت جان

تَشْتَرِكُ في الهياج السيامي والحماسة الدينية، وكانت كثيرة التخيل والورع تحب ان تتأمل في قصص المذراء وعلى الاكثر في نبوة كانت شائعة في ذلك الوقت ، وهي ان احدى العذارى ستخلص فرنسا من أعدائها . ولما كان عمرها ١٣ سنة كانت تعتقد بالظهورات الغائقة الطبيعية وتتكلم عن اصوات كانت تسمعها ورؤى كانت تراها . ثم بعد ذلك يبضع سنين خيل لها انها قد دعيت لتخلص بلادها وتتوج ملكها . ثم اوقع البرغنيور تعديا على القرية التي ولدت فيها فتوى ذلك اعتقادها بصحة ما خيل لها «
ثم ذكر بعد ذلك توسلها الى الحكام وتعيينها قائدة لجيش ملكها وهجومها بعشرة آلاف جندي ضباطهم ملكيون على عسكر الانكليز الذين كانوا يحاصرون أورليان ، وانها دفعتهم عنها حتى رفعوا الحصار في مدة اسبوع ، وذلك سنة ١٤٢٩ ثم ذكر انها بعد ذلك زالت خيالاتها الحماسية ، ولذلك هوجمت في السنة التالية سنة ١٤٣٠ فانكسرت وجرحت وأمرت

فن ملخص القصة يعلم ان ما كان منها انما هو تهيج عصبي سببه التألم من تلك الحالة السياسية التي كان يتألم منها من نشأت بينهم مع معونة التحمس الديني والاعتقاد بالخرافات الدينية التي كانت ذائعة في زمنها . وهذا شيء عادي معروف السبب وهو من قبيل الذين يقومون باسم المهدي المنتظر كـ محمد احمد السوداني والباب (وكذا البهاء والقادياني) بل الشبهة في قصتها ابعد من الشبهة في قصة هذين الرجالين ، وان كانت اسباب النهضة متقاربة فان هذين كانا كأمثالها يدعوان الى شيء (ملفق) يزعمان انه اصلاح للبشر في الجملة

أين هذه النبوة العصبية القصيرة الزمن ، المعروفة السبب ، التي لادعوة فيها الى علم ولا إصلاح اجتماعي إلا المدافعة عن الوطن عند الضيق التي هي مشتركة بين الانسان والحيوان الاعجم ، التي لاحجة تعمدتها ، ولا معجزة تؤيدها ، التي اشتعلت بنفخة وطفئت بنفخة ؟ أين هي من دعوة الانبياء التي بين الاستاذ الامام انها حاجة طبيعية من حاجات الاجماع البشري ، طلبها هذا النوع بلسان استعداده فوهبها له المدبر الحكيم (الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) فسار الانسان بذلك الى كماله ، فلم يكن أدنى من سائر المخلوقات الحية النامية بل أرقى وأعلى . وأين دليها من أدلة

النبوة وأين أثرها من أثر النبوة ؟ إن الأمم التي ارتقت بما أرشدها إليه تعليم الوحي إنما ارتقت بطبيعة ذلك التعليم وتأثيره، وإن فرنسا لم ترتق بإرشاد (جان درك) وتعليمها ، وإنما مثلها مثل قائد انتصر في واقعة فاصلة بشجاعته وبأسباب أخرى ليست من صنعه، واستولت أمته بسبب ذلك على بلاد رقتها بعلوم علمائها وحكمة حكمائها وصنع صناعاتها، ولم يكن القائد يعرف من ذلك شيئاً ولم يرشده إليه، فلا يقال أن ذلك القائد هو الذي أصلح تلك البلاد، وعمرها ومدنها، وإن عد سبباً بعيداً فهو شبيه بالسبب الطبيعي، كهبوب ربح تهيج البحر فيغرق الاسطول وتنتصر الأمة

أين حال تلك الفتاة التي كانت كبارقة خفت (أي ظهرت وأومضت) ثم خفيت، وصيحة علت ولم تلبث أن خفتت، من حال شمس النبوة الحمودية التي أشرقت فأنارت الأرجاء، ولا يزال نورها ولن يزال متألق السناء، أمة يتيم قضى سن الصبا وسن الشباب هادئاً ساكناً لا يعرف عنه علم ولا تخيل، ولا وهم ديني، ولا شعر ولا خطابة، ثم صاح على رأس الأربعين بالعالم كله صيحة « انكم على ضلال مبين » فاتبعون أهدكم الصراط المستقيم » فأصاح وهو الأمي أديان البشر عنانها وآدابها وشرائعها، وقلب نظام الأرض فدخلت بتعليمه في طور جديد ؟ لا جرم أن الفرق بين الحالين عظيم إذا أمعن النظر فيه العاقل

لاسعة في جواب سؤال لتقرير الدليل على النبوة وإنما أحيل السائل على التأمل في بقية بحث النبوة في رسالة التوحيد ومراجعة ما كتبناه أيضاً من الامالي الدينية في المنار لاسيما الدرس الذي عنوانه (الآيات البينات ، على صدق النبوات) وإن كان يصدق على رسالة التوحيد المثل « كل الصيد في جوف الفرا » فإن بقي عنده شبهة فالأولى أن يتفضل بزيارتنا لأجل المذاكرة الشفاهية في الموضوع، فإن المشافهة أقوى بيانا، وأنصح برهاننا، ونحن نعااهده بأن نكتبكم أمره وإن أبي فليكتب إلينا ما يظن له من الشبهة على مافي الرسالة والامالي من الاستدلال على وقوع النبوة بالفعل، وعند ذلك نسهب في الجواب بما نرجو أن يكون مقنعاً، على أن المشافهة أولى كما هو معقول وكأثبت لنا بالتجربة مع كثير من المشتهين والمرتابين اهـ

هذا وان ما يئنه الاستاذ الامام في اثبات وقوع الوحي لا يستطيع أحد فهمه حق الفهم وهو يؤمن بوجود الله العليم الحكيم الفاعل المختار الا أن يقبله ويدعن له ، فانه بين أن الوحي والرسالة بالنبى الذي قرره لازم عقلي لعلمه تعالى وحكمته وكونه هو (الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) ولا يفهمه حق الفهم الامن أوتي نصيبا من علم الاجتماع وحكمة الوجود وسننه وأصول العقائد ، ونصيبا آخر من بلاغة اللغة العربية . وان نبوة محمد ﷺ ورسالته يمكن اثباتها بما دون هذه الفلسفة والبلاغة وهو ما قهر عقول علماء الافرنج على تصديق دعوته ، وحمل الماديين على تصويرها بما نبسطه فيما يأتي ونقفي عليه باثبات بطلانه

تفصيل الشبهة ودحضها بالحجة

قد فصل درمنغام الشبهة التي اجماعها مونتية بما لم نر مثله لغيره من كتاب الافرنج حتى اغتر بكلامه كثير من المسلمين ، فان كان حكيمننا السيد جمال الدين قال لبعض مجادلي النصرانية : انكم فصلتم قيصاً من رقع العهد القديم وألبستموها للمسيح عليه السلام - فنحن نقول لهم انكم فصلتم قيصاً آخر مما فهمتم من تاريخ الاسلام لا من نصوصه وحاولتم خلعها على محمد ﷺ ، وانني أشرح هذه الشبهة بأوضح مما كتبه درمنغام وما بلغني عن كل احد منهم ، ثم أكر عليها بالنقض والدحض فأقول :

(١) قالوا ان محمداً قد اتى بحيرا الراهب في مدينة بصرى بالشام ، وقالوا انه كان نسطوريا من أتباع آريوس في التوحيد وينكر ألوهية المسيح وعقيدة التثليث وان محمداً لا بد أن يكون علم منه عقيدته ، وقالوا في بحيرا ايضا انه كان عالماً فلياً منجماً وحاسباً ساحراً ، وانه كان يعتقد أن الله ظهر له وأنبأه بأن سيكون هادياً لآل اسماعيل إلى الدين المسيحي . بل سمعنا من بعض الرهبان انه كان معلماً لمحمد ومصاحباً له بعد رسالته ، وان محمداً ما حرم الخمر إلا لانه قتل أستاذه بحيرا وهو سكران ، وأمثال هذا من الافتراء والبهتان ، وكل ما عرفه المسلمون من رواة السيرة النبوية ان النبي ﷺ لما خرج مع عمه أبي طالب الى الشام وهو ابن تسع سنين

وقيل ١٢ سنة رآه هذا الراهب مع قريش ورأى سحابة تظله من الشمس وذكر لعمه انه سيكون له شأن وحذره عليه من اليهود - وفي المسألة روايات أخرى بمعناها ضعيفة الا ما نريد إلا رواية للترمذي ليس فيها اسم بحيرا وفيها غلط في المتن، وليس في شيء منها انه ﷺ سمع من بحيرا شيئا من عقيدته أو دينه

(٢) قالوا ان ورقة بن نوفل كان من متنصرة العرب العلماء بالنصرانية وأحد أقارب خديجة - يوهمون القارىء انه ﷺ اخذ عنه شيئا من علم اهل الكتاب - والذي صح من خبر ورقة هذا هو ما رواه الشيخان في الصحيحين وغيرهما من أن خديجة أخذته ﷺ عقب إخباره إياها برؤية الملك في حراء إلى ورقة هذا وأخبرته خبره وكان شيخا قد عمي ولم يلبث بعد ذلك أن توفي ولم يثبت ان النبي ﷺ رآه قبل ذلك (وسأذكر نص الحديث في آخر هذا المبحث) وقد استقصى المحدثون والمؤرخون كل ما عرف عن ورقة هذا مما صح سنده ومما لم يصح له سند كدأهم في كل ماله علاقة بالنبي ﷺ والاسلام فلم يذكر احد منهم انه عرف عنه دعوة إلى النصرانية او كناية فيها . وإنما ورد في بعضها انه قال حين علم من خديجة خبر محمد : انه هو النبي المنتظر الذي بشر به المسيح عيسى بن مريم . وفي بعضها انه عاش حتى رأى بلالا يعذبه المشركون ليرجع عن الاسلام ولكن هذه الرواية شاذة مخالفة لحديث عائشة الصحيح انه كان عند بدء الوحي اعمى ولم ينشب أي لم يلبث أن مات ، وقد كان تعذيب بلال بعد إظهار دعوة النبوة ودخول الناس فيها وقد كان هذا بعد بدء الوحي بثلاث سنين - وأميل درمنغام قد غلط فيما نقله من خبر فترة الوحي لاختلاط الروايات عليه فيها وعدم اطلاعه على مادون في كتب الحديث منها . وإنما كان هم المحدثين في خبر ورقة أن يعلموا انه كان صحابياً أم لا ، فان الصحابي هو من اتى النبي ﷺ بعد البعثة مؤمناً به ، ولو بلغهم عنه أي شيء من علمه بالتوراة أو الانجيل لنقلوه (٣) ذكر واما كان من انتشار اليهودية والنصرانية في بلاد العرب قبل الاسلام وتنصر بعض فصحاء العرب وشعراهم كقس بن ساعدة الايادي وأميه بن أبي الصلت وإشادة هؤلاء بما كانوا يسمعون من علماء أهل الكتاب عن قرب ظهور النبي الذي بشر به موسى وعيسى وغيرهما من الانبياء . وقد نشرنا بعض ما نقل عنهم في

التوراة والانجيل وكتب النبوات في تفسير (١٥٧) الذين يتبعون الرسول النبي
الامي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل) من سورة الاعراف
فاما قس فقد مات قبل البعثة . وروي ان النبي ﷺ رآه قبل البعثة بزمان
طويل يخطب الناس في سوق عكاظ على جمل له اوراق ، بكلام له مونق ، قال فيه :
ان لله ديناً خيراً من دينكم الذي أنتم عليه ، ونبياً قد أظلمكم زمانه ، وأدرككم اوانه ،
فطوبى لمن أدركه فاتبعه ، وويل لمن خالفه - والروايات في هذا ضميعة ، وتعددتها
يدل على أن لها أصلاً

وأما أمية بن أبي الصلت الشقفي فهو شاعر مشهور . قال ابو عبيدة اتفقت
العرب على ان أمية أشعر ثقف ، وقال الزبير بن بكار حدثني عمي قل : كان أمية
في الجاهلية نظر الكتب وقرأها وابس المسوح تعبداً وكان يذكر ابراهيم وامام عيل
والحنيفية ، وحرّم الخمر وتجنب الاوثان وطمع في النبوة لانه قرأ في الكتب ان نبيا
يبعث بالحجاز فرجا أن يكون هو ، فلما بعث النبي ﷺ حسده فلم يسلم . وهو الذي
رأى قتلى بدر (المشركين) بالفصيصة التي اولها

ماذا يبدر والعقد قتل من مرازية جماح

وفي المرأة عن ابن هشام انه كان آمن بالنبي ﷺ فقدم الحجاز ليأخذ
ماله من الطائف ويهاجر فلم بغزوة بدر وقتل صناديد قريش فيها فجدع أنف
ناقته وشق ثوبه وبكى لان فيهم ابني خاله وعاد إلى الطائف ومات فيها . وصح
ان النبي ﷺ استنشد الشريد بن عمرو من شعره فأنشده فقال «كاد ان يسلم»
ولكنه كان حنيفيا على ملة ابراهيم ولم يقتصر ومن شعره

كل دين يوم القيامة عند الله الا دين الحنيفة زور

(٤) إسلام سلمان الفارسي (رض) كان فارسيا مجوسيا فتنصر على يد بعض
الرهبان وصحب غير واحد من عبادهم وسمع منهم أو من آخرهم بقرب ظهور النبي
الذي بشر به عيسى والانبياء من العرب فقصد بلاد العرب وبيع لبعض يهود
ينرب ظلماً وعدواناً ولم ير النبي ﷺ إلا بعد الهجرة فأسلم وكاتب سيده . وفي
قصته روايات متعارضة هذا هو المراد منها لدرمنغام وغيره

(٥) ذكروا ما كان من رحلة تجار قريش في الشتاء الى اليمن وفي الصيف الى الشام واجتماعهم بالنصارى في كل منها كلما مروا بدير أو صومعة للرهبان ، وكان هؤلاء النصارى يتحدثون بقرب ظهور نبي من العرب

(٦) زعم درمنغام انه كان يوجد بمكة نفسها اناس من اليهود والنصارى ولكنهم كانوا عبيداً وخداما لان رؤساء قريش لم يكونوا يسمحون لهم أن يسكنوا في مكة حرمهم المقدس الخاص بوثنيتهم وأصنامهم . وكان هؤلاء يسكنون في أطراف مكة « في المنازل البعيدة عن الكعبة المتاخمة للصحراء » !! وكانوا يتحدثون بقصص عن دينهم لاتصل الى مسامع رؤساء قريش وعظماهم أو ما كانوا يحفلون بها لسماع أمثالها في رحلاتهم الكثيرة . ولكنه ذكر ان اباسفيان عتب على أمية بن أبي الصلت كثرة تكريره لما يذكره الرهبان من هذا الامر

فهذه مقدمات يذكرها كتاب الافرنج لتعليل ماظهر به محمد ﷺ من دعوى النبوة على طريقتهم في الاستنباط وما يسمونه النقد التحليلي ، ويقرنون بها مقدمات اخرى في وصف حالته النفسية والعقلية وحالة قومه وما استفادته منها من تأثير وعبرة ، فنلخصها مضمومة الى ما قبلها مع الامام بنقدها

(٧) قال درمنغام في كفالة أبي طالب لمحمد بعد وفاة جده: انه لم يكن غنياً فلم يتح له تعلم الصبي الذي بقي أمياً طول حياته (يوم القارىء ان أولاد الموسرين بمكة كانوا يتعلمون كأن هنالك مدارس يعلم فيها النشء بالاجور كمدارس بلاد الحضارة وهذا باطل لا أصل له — ثم قال)

« ولكنه كان يستصعبه وإياه في التجارة فيسير والقوافل خلال الصحراء يقطع هذه الابعاد المتناثية وتحقق عيانه الجبلتان بمدين ووادي القرى وديار نمود وتستمتع أذناه المرهفتان إلى حديث العرب والبادية عن هذه المنازل وحديثها وماضي نبيها . ويقال انه في إحدى هذه الرحلات الى الشام التقى بالراهب بجيرا في جوار مدينة بصرى وأن الراهب رأى فيه علامات النبوة على ما تدله عليه أنباء كتبه . وفي الشام عرف محمد احبار الروم ونصرانيتهم وكتابهم ومناوأة الفرس من عباد النار لهم وانتظار الوقعة بهم »

كل ما ذكره درمنغام هنا فهو من مخترعات خياله ومبتدعات رأيه الا مسألة بحيرا الراهب فأصلها ما ذكرنا، وكأنه لم يحمل باثباتها لما يعلمه من مفتريات رجال الكنيسة فيها فمحمد ﷺ لم يذهب مع عمه الى التجارة في الشام إلا وهو طفل كما تقدم وقد أعاده إلى مكة قبل إتمام رحلته . ثم سافر اليها في تجارة خديجة وهو شاب مرة واحدة ولم يتجاوز سوق بصرى في المرتين . والقوافل التي تذهب الى الشام لم تكن تمر بمدين وهي في ارض سيناء . ولم تكن هذه القوافل تضع شيئاً من وقتها للبحث مع العرب او الاعراب في طريقها عن أنبائها والتاريخ القديم لبلادها ، ولم يعرف عن تجارها انهم كانوا يعنون ببقاء احبار النصارى ومباحثتهم في دينهم وكتبهم ، فن أين جاء درمنغام أن محمداً هو الذي كان يشتغل في تلك التجارة بالبحث عن الامم والتواريخ والكتب والاديان ويعني بقاء رؤسائها والبحث معهم ؟ انما اخترع هذا لانه لا يستطيع تعليل ما جاء في القرآن من قصص الرسل إلا به وكذلك الانباء بغلب الروم للفرس كما سيأتي . وسرى ما نفند به تعليله وتحليله وتركه على تقدير صحة ما زعمه كله

(٨) ثم ذكر درمنغام أن العرب ولا سيما أهل مكة كانوا يصرفون معظم أوقاتهم بعد ما يكون من تجارة أو حرب في الاستمتاع بالذات من السكر والتسري وغير ذلك ، وان التاريخ يشهد بان محمداً كان يراهم ولم يكن يشاركهم في ذلك لا لفقره وضيق ذات يده قال « لكن نفس محمد كانت شغوفة بان ترى وأن تسمع وأن تعرف ، وكأن حرمانه من التعليم الذي كان يعلمه أذاده جعله أشد المعرفة شوقاً وبها تعلقاً ، كما أن النفس العظيمة التي تجلت من بعد آثارها ، وما زال يغمر العالم سلطانها ، كانت في توقها إلى الكمال ترغب عن هذا اللهو الذي يطمح اليه أهل مكة - إلى نور الحياة المتجلي من كل مظاهر الحياة لمن هداه الحق اليها لاستكناه ما تدل هذه المظاهر عليه وما يحدث الموهوبين به »

هذا الخبر من مخترعات درمنغام فمحمد لم يكن شغوفاً بان يرى ما يفعله فساق قومه من فسق وفسق ولا يتحرى أن يعرفه ، وقد ثبت عنه أنه لم يحضر سمرهم ولهوهم إلا مرتين ألقى الله عليه النوم في كل منهما حتى طلعت

الشمس فلم ير ولم يسمع شيئاً ، وقد بطل بهذا ما علل به الخبر على ما فيه من المدح المتضمن لدسيستين (احدهما) أن أنداده في قریش كانوا متعلمين وكان هو محروماً مما لقنوه من العلم وكان حرمانه هذا يزيد شغفاً بالبحث والاستطلاع (والثانية) أن نفسه كانت بسبب هذا تزداد طموحاً إلى نور الحياة المتجلي في جميع مظاهرها لاستكناه ما تدل عليه هذه المظاهر ، فهذه مدحة غرضه منها تعليل ما انبثق في نفسه بعد ذلك من الوحي ، وسترى بطلانه

(٩) ثم ذكر درمنغام مسألة أبناء النبي ﷺ القاسم والطيب والظاهر وهو يشك في وجودهم ويقول إن تكنيته بأبي القاسم لا تدل على وجود ولد له بهذا الاسم وأنه ان صح انهم ولدوا فقد ماتوا في المهد ، والتحقيق أنه ولد له غلام سماه القاسم وكني به وأنه مات طفلاً وقيل عاش إلى أن ركب الدابة وان الطيب والظاهر لقبان للقاسم . ولكن درمنغام قد كبر مسألة موت هؤلاء الاولاد الذين يشك في وجودهم ، وبنى عليها حكماً ، وأثار وهماً ، قال بعد أن زعم ان محمداً تبنى زيد بن حارثة لانه لم يطق على الحرمان من البنين صبراً :

« فمن حق المؤرخ أن يجعل لهذا الحادث بل الحوادث الثلاثة التي أصابت محمداً في بنيه ماهي جديدة بأن تتركه في حياته وفي تفكيره من أثر . والامر كذلك بنوع خاص أن كان محمد أمياً ، فلم تكن المضاربات الجدلية (كذا) لتصرفه عن التأثير بغير الحوادث ودروسها ، وحوادث ألمية كوفاة أبناءه جديدة بأن تستوقف تفكيره وأن تلفته في كل واحدة منها لما كانت خديجة تنقرب به إلى اصنام الكعبة وتنحدر لهبل واللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى تريد أن تفتدي نفسها من ألم الشكل فلا تفيد القربان ولا تجدي النحور »

« والامر كان كذلك لا ريب أن كانت عبادة الاصنام قد بدأت تنزع في النفوس تحت ضغط النصرانية الآتية من الشام منحدره اليها من الروم ومن اليمن متخطية اليها من خليج العرب (البحر الاحمر) من بلاد الحبشة »

غرض درمنغام من تكبير المصيبة بموت الابناء المشكوك في ولادتهم هو أن يجعلها مسوغة لما اختلقه من توسل خديجة الى الاصنام بالقرابين لينقدوها من

مصيبية الشكل، ثم يستنبط من ذلك زعزعة إيمانها وإيمان بعلمها بعبادتها الذي كان سببه تأثير النصرانية في مكة وغيرها من بلاد العرب، ثم ليجعل ذلك من الأسباب التحليلية لتعميل الوحي لمحمد ﷺ - والحق أنه ما تبني زيدا إلا لانه آثر أن يكون عبداً له على أن يكون حراماً والدعوى عند ما جاء مكة لافتدائه بالمال فقال لها « ادعوه فخيروه فإن اختاركم فهو لكم بغير فداء » ثم دعاه فسأله عن أبيه وعمه فعرّفهما قال « فإنا من قد علمت وقد رأيت صحبتي لك فاخترني أو اخترهما » فقال زيد ما أنا بالذي أختار عليك أحداً . أنت مني بمكان الأب والعم . فقالا وبحك يا زيد أختار العبودية على الحرية وعلى أهلك وعمك وأهل بيتك ؟ قال قد رأيت من هذا الرجل شيئاً ما أنا بالذي أختار عليه أحداً . فلما رأى رسول الله (ص) ذلك أخرجه إلى الحجر فقال « اشهدوا أن زيدا ابني يرثني وأرثه » فلما رأى ذلك أبوه وعمه طابت أنفسهم . فدعي زيد بن محمد حتى جاء الله بالإسلام . رواه ابن سعد ونحوه في سيرة ابن اسحق هذا وإن محمداً لم يكن جزواً عند موت ولد ولا غيره بل كان أصبر الصابرين ، وإن خديجة لم تياس بموت القاسم من الله أن يمن عليها بولد آخر ، ولم تنحصر للاصنام شيئاً - وإن اللات كانت صخرة في الطائف تعبد بها ثقيف ولم تكن من أصنام قريش ، والعزى كانت شجرة بيطن نخلة تعبد بها قريش وكنانة وغطفان ، ومناة كانت صنماً في قديد لبني هلال وهذيل وخزاعة . وقد كان ما ذكره من ضعف الوثنية في ذلك العهد - وزعم انه سببه انتشار النصرانية - جديراً بأن يمنع خديجة وهي من أعقل العرب وأسلمهم فطرة وأقربهم إلى الحنيفية ملة إبراهيم أن تهجر إلى هذه الاصنام لتنحصر لها وتتقرب إليها لترزقها غلاماً ، فإن لم يمنعها عقلها وفطرتها فأجدر بعملها المصطفى أن يمنعها من ذلك وهو عدو الوثنية والاصنام من طفولته كما يعترف درمنغام - ولكن اتباع الهوى ينسي صاحبه ما لم يكن لينسأ لولاه

(١٠) زعم درمنغام أن ما ذكره من تغافل النصرانية في بلاد العرب اوجد فيها حالة نفسية أدت إلى زيادة إيمانهم فيما كانوا يسمونه في الجاهلية التحنث أو التحنف وفرع على ذلك قوله :

« وكان محمد يجد في التحنث طائفة لنفسه أن كان له بالوحدة شغف ، وأن

كان يجد فيها الوسيلة الى ما برح شوقه يشتد اليه من نشدان المعرفة واستلزام ما في الكون من اسبابها ، فكان ينقطع كل رمضان طول الشهر في غار حراء بمجبل أبي قبيس مكثفياً بالقليل من الزاد يحمل اليه لمضي أياما بالغار طويلاً في التأمل والعبادة بعيداً عن ضجة الناس وضوضاء الحياة »

وأقول: ان روايات المحدثين تفيد انه حبيب اليه التحنث في غار حراء في العام الذي جاءه فيه الوحي وكان هو يحمل الزاد وما كان أحد يحمله اليه ، وما ذكره ابن اسحاق من تعبدته فيه في شهر رمضان كل سنة انما كان في زمن فترة الوحي كما سيأتي وههنا وصل در مقام إلى آخر المقدمات التي تتصل بالنتيجة المطلوبة له فأرعى لخياله العنان ، ونزع من جواده اللجام ، ونحسه بالهزار ، فعدابه سباحاً ، وجمح به جمحاً ، وقدحت حوافره له قدحا ، وأثارت له نقعاً ، وأذن لشاعرته الفرنسية أن تصف محمداً عند ذلك الغار بما تحدثه في نفسه مشاهد نجوم الليل ، وما تسفحه به شمس النهار ، وما تصور أنه كان يراه في تلك القنة من الجبل من صحارى وقفار ، وخيام وآبار ، ورعاة نهش على غنمها حيث لا أشجار ، حتى ذكر البحار على بعد البحار وقد أتقن التخيّل الشعري ، ولكنه لم يوافق به الوصف الموضوعي ، ثم قال مصوراً لما يبتغيه من مشاهداته صلى الله عليه وسلم

« وهذه النجوم في ليالي صيف الصحراء كثيرة شديدة البريق حتى ليحسب الانسان أنه يسمع بصيص ضوئها وكأنه نغم نار موقدة

» حقا ! ان في السماء لشارات المدركين . وفي العالم غيب بل العالم غيب كله . لكن ! ألا يكفي أن يفتح الانسان عينيه ليرى ، وأن يرهف أذنه ليسمع ؟ ليرى حقا ، وليسمع الكلم الخالد ! لكن للناس عيوناً لا ترى وأذاناً لا تسمع .. أما هو فيحسب أنه يسمع ويرى . وهل تحتاج لكي تسمع ما وراء السماء من أصوات إلا الى قلب خالص ونفس مخلصه وفؤاد مليء بإيماناً ؟

« ومحمد في ريب من حكمة الناس فهو لا يريد أن يعرف إلا الحق الخالص الذي لا يأتيه من بين يديه ولا من خلفه باطل ، وهو لا يستطيع العيش إلا بالحق ، والحق ليس فيما يرى حوله ، فحياة القرشيين ليست حقا ، وربما المرابين ونهب البدو وهو

الخلعاء وكل ماإلي ذلك لا شيء من الحق فيه. والاصنام المحيطة بالكعبة ليست حقاً وهبل الاله الطويل الذقن الكثير العطور والملابس ليس آلهها حقاً
« إذن فاين الحق وماهو »

« وظل محمد يتردد على حراء في رمضان من كل عام سنوات متتالية وهناك كان يزداد به التأمل ابتغاء الحقيقة حتى لكان ينسى نفسه، وينسى طعامه، وينسى كل ما في الحياة، لان هذا الذي يرى في الحياة ليس حقاً. وهناك كان يقلب في صحف ذهنه كل ماوعى، فيزداد عما يزاول الناس من ألوان الغن رغبة وازوراراً. وهو لم يكن يطمع في أن يجد في قصص الاحبار وفي كتب الرهبان الحق الذي ينشد، بل في هذا الكون المحيط به: في السماء ونجومها وقمرها وشمسها. وفي الصحراء ساعات لهيبيها المحرق تحت ضوء الشمس الباهرة اللآلء، وساعات صفوها البديع اذ تكسوها أشعة القمر أو أضواء النجوم بلباسها الرطب الندي، وفي البحر وموجه وفي كل ماوراء ذلك مما يتصل بالوجود وتشمله وحدة الوجود - في هذا الكون كان يلتمس الحقيقة العليا وابتغاء إدراكها كان يسمو بنفسه ساعات خلوته ليتصل بهذا الكون وليخترق شفاف الحجب الى مكنون سره.

قال درمنغام: فلما كانت سنة ٦١٠ او نحوها كانت الحال النفسية التي يعاينها محمد على أشدها فقد أبهظت عاتقه العقيدة بأن أمراً جوهرياً ينقصه وينقص قومه، وان الناس نسوا هذا الامر الجوهري وتشبث كل بصنم قومه وقبيلته، وخشي الناس الجن والاشباح والبوارح وأهملوا الحقيقة العليا، ولعلمهم لم ينكروها ولكنهم نسوها نسياناً هو موت الروح. وقد خلصت نفس محمد من كل هذه الآراء التافهة، ومن كل القوى التي تخضع لقوة غيرها ومن كل كائن ليس مظهراً للكائن الواحد

ولقد عرف ان المسيحيين في الشام ومكة لهم دين اوحى به، وان اقواما غيرهم نزلت عليهم كلمة الله وانهم عرفوا الحق ووعوه أن جاءهم علم من انبياء اوحى اليهم به، وكما ضل الناس بعثت السماء اليهم نبياً يهديهم الى الصراط المستقيم وينذركم
« تفسير القرآن الحكيم » « ٢٣ » « الجزء الحادي عشر »

بالحقیقة الخالدة . وهذا الدين الذي جاء به الانبياء في كل الازمان دين واحد ، وكلما افسده الناس جاءهم رسول من السماء يقوم عوجهم . وقد كان الشعب العربي يومئذ في اشد تبهاك الضلال . انما آن لرحمة الله أن تظهر فيهم مرة أخرى وأن تهديهم الى الحق ؟»

« وتزايدت رغبة محمد عن الاجتماع بالناس ، ووجد في وحدة غار حراء مسرة تزداد كل يوم عمقا ، وجعل يقضي الاسابيع معه قليل من الزاد وروحه تزداد بالصوم والسهرة والادمان على تقليب فكرته صقلا وحدة . ونسي النهار والليل والحلم واليقظة ، وجعل يقضي الساعات الطوال جاثيا في الغار ، او مستلقيا في الشمس ، او سائرا بخطى واسعة في طرق الصحراء الحجرية ، وكأنه يسمع الاصوات تخرج من خلال أحجارها تناديه مؤمنة برسالاته

« وقضى ستة أشهر في هذه الحال حتى خشي على نفسه عاقبة أمره فأسر بمخاوفه الى خديجة فطلما تته وجعلت تحدته بأنه الامين وان الجن لا يمكن أن تقترب منه . وفيما هو يوما نائم بالغار جاءه ملك فقال له اقرأ ، قال « ما أنا بقاريء » وكان هذا أول الوحي وأول النبوة

« وهنا تبدأ حياة وحدة روحية قوية غاية القوة ، حياة تأخذ بالابصار والالباب ولكنها حياة تضحية خالصة لوجه الله والحق والانسانية»

أقول ان كل ما هنا من خبر أو جله فهو غير صحيح ، فمن أين علم هذا الافرنسي أن محمدا نسي الليل والنهار ، والحلم واليقظة ، وأنه كان يقضي الساعات الطوال جاثيا في الغار أو مستلقيا في الشمس الخ وأنه قضى ستة أشهر في هذه الحال — قد افترى في الاخبار ليستنبط منها انه صار صلوات الله عليه مغلوبا على عقله ، غائبا عن حسه . واننا ننقل هنا أصح الاخبار في خبر تحنشه في الغار الاليالي ذوات العدد — من شهر رمضان في تلك السنة لا فيما قبلها — لتفنيد مفترياته والاستغناء بها عما نقله من الخاط في صفة الوحي من الفصل الآتي — وهو ما رواه الشيخان البخاري ومسلم في صحيحيهما . وهذا نص رواية البخاري رضي الله عنه

﴿ باب كيف كان بدء الوحي الى رسول الله ﷺ ﴾

افتتح الباب بل الكتاب كله بروايته لحديث « انما الاعمال بالنيات » ثم قال : حدثنا عبد الله بن يوسف قال أخبرنا مالك عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أن الحارث بن هشام رضي الله عنه سأل رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله كيف يأتيك الوحي ^(١) قال رسول الله ﷺ « أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس ^(٢) وهو أشده علي ففصم ^(٣) عني وقد وعيت عنه ما قال ، وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا ^(٤) فيكلمني فأعي ما يقول » قالت عائشة رضي الله عنها ، ولقد

(١) للوحي معنى عام يطلق على عدة صور من الاعلام الخفي الخاص الموافق لوضع اللغة منها الرؤيا الصادقة والنفث في الروح والالهام وإلقاء الملك ، وله معنى خاص هو أحد الأقسام الثلاثة للتكليم الالهي الوارد في قوله تعالى (وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء إنه علي حكيم) وهذا الحديث فيه وصف القسم الاول وذ كرنا اث ، وأما الثاني وهو الكلام الالهي من وراء حجاب بدون واسطة فقد ثبت للنبي (ص) في ليلة الاسراء والمعراج ولموسى عليها الصلاة والسلام. وغير هذه الثلاثة من الوحي العام لا يهد من كلام الله تعالى التشريعي ، والرؤيا الصادقة والالهام مما وقع ويقع لغير الانبياء

(٢) المراد من التشبيه أنه صوت كصلصلة الحديد المتصلة المتدركة التي تسمع من الجلال وجل ونحوها ليس بكلام مؤلف من الحروف والاقرب أن سببه وجود الملائكة وإن لم ير أحدا منهم في حال سماعه . وكانت هذه الحالة أشد الحالتين عليهما كما قال الحكيم ابن خلدون انسلاخ من البشرية الجسدية واتصال بالملكية الروحانية والحالة الاخرى عكسها لانها انتقال الملك من الروحانية المحضة الى البشرية الجسدية

(٣) يفصم وزان يضرب ينفك وينجلي

(٤) أي يظهر بصفة رجل ومثاله ، وذلك أن الملك روح عاقل مريد له قوة التصرف في المادة فهو يأخذ من مادة الكون الصورة التي يريد بها وان علم الكيمياء في هذا العصر يقرب إلى التصور هذا التصرف بما ثبت فيه من تحول كل مادة من الكثافة إلى اللطافة وما بينها بقوة الحرارة وأقواها حرارة الكهر بائية ، والملك يتصرف في الكهر بائية كما يشاء ، وقد شرحنا هذا المعنى في تفسير قوله تعالى (٧: ١٤٣) ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه (— راجع ص ١٦٢ — ١٦٧ ج ٩ تفسير

رأيت ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه لم يتفصد عرقاً (١)
حدثنا يحيى بن بكير قال حدثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب عن عروة
ابن الزبير عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت أول ما بدى به رسول الله ﷺ من
الوحي الرؤيا الصالحة في النوم (٢) فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح،
ثم حجب إليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه (٣) - وهو التعبد الليالي ذوات
العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى
جاءه الحق (٤) وهو في غار حراء فجاءه الملك فقال اقرأ قل ما أنا بقاريء (٥) قال

(١) كان من هذه الشدة عليه ما قاله العلامة ابن القيم في زاد المعاد : حتى ان
راحلته لتبرك به الى الارض اذا كان راكبها ولقد جاءه مرة كذلك وفخذه على
فخذ زيد بن ثابت فنقلت عليه حتى كادت ترضها اهـ

(٢) أكثر الرؤى أضغاث أحلام لها أسباب تثيرها في خيال النائم، والرؤيا الصالحة
عبارة عن نوع من انكشاف الحقائق للنفس المستعدة لا درا كها بما يكون وقت النوم من
صفائها بعدم اشتغالها بمدركات الحواس وما تثيرها من الخواطر والافكار، ورؤيا
الانبياء قبل وحي التشرع تمهيد وتأسيس للنفس تقوي استعدادها لتلقي الكلام الالهي
(٣) أصل التحنث اتقاء الحنث أي الذنب أو مقلوب التحنف وهو اتباع
الحنيفية ملة ابراهيم . وهو رواية ابن هشام . وقوله وهو التعبد ، جملة تفسيرية لراوي
الحديث وهو ابن شهاب الزهري فهو مدرج في الحديث والليالي ظرف متعلق بـ يتحنث
(٤) وفي رواية فجاءه الحق أي بفته والمراد به الوحي الصريح الذي هو من كلام
الله تعالى ، وهذه الرواية الثابتة في الصحيحين صريحة في أن هذا كان في اليقظة ،
وفي سيرة ابن هشام أن جبريل جاءه في المنام ، وهي من مراسيل عمرو بن عبيد وهو
ثقة وله صحبة ولكن رواية الصحيحين المسندة هي المعتمدة ، وجمع بعضهم بين
الروایتين بأنه رآه أولاً في المنام فاستقرأه ثم رآه في اليقظة ، ولو وقع هذا في المنام لزال
خوفه ورعبه (ص) بمجرد اليقظة ولم يذهب إلى خديجة يرجف فؤاده

(٥) الظاهر أن الامر بالقراءة أمر تكوين لا تكليف - أي كن قارئاً، ولذلك
قال له في الثالثة ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ أين كن قارئاً باسمه ومن قبله وباقداره اياك على
القراءة لا بحولك وقوتك فهو يعلم أنك أمة لا يتعلق كسبك واستطاعتك بالقراءة
أما وقد شاء ربك - الذي خلق ، خلق الانسان من علق ، وهو الحيوان المنوي
أو أول ما تتحول اليه نطفة الزوجين بعد العلوق فجعله بشراً سوياً يسمع ويبصر
ويعقل - أن يجعلك قارئاً لما يوحى اليك لتقرأه على الناس فأنت تكون قارئاً

فأخذني فغطني (١) حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال اقرأ، قلت ما أنا بقاري، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال اقرأ، فقلت ما أنا بقاري، فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني، فقال (اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم) (٢) فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها فقال « زملوني زملوني » فزملوه حتى ذهب عنه الروع فقال لخديجة وأخبرها الخبر « لقد خشيت على نفسي » (٣) فقالت خديجة كلا والله ما يخزيك الله أبداً (٤) إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري

﴿١﴾ فسروا الغط بالضم الشديد الضاغط فقالوا أي ضجني وعصرني وفي رواية الطبري للحديث فغطني بالمشاة الفوقية وعليها ابن هشام وهي بمعنى غطني واصل معناه الغمس في الماء وضيق النفس وحكمة هذا الغط تقوية روحانية النبي ﴿ص﴾ حتى يقوى على الاتصال بالملك واللهم منه

﴿٢﴾ اختصره هنا وزاد في التفسير (الذي علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم) ﴿٣﴾ اختلف العلماء في خوفه ﴿ص﴾ على نفسه فقيل خشي الجنون وإن يكون مارآه من الجن وقد أنكره ورده القاضي أبو بكر بن العربي ووافقه الحافظ ابن حجر ولكن الحافظ قال انه روي من عدة طرق أقول وهو الظاهر مما أجابته به خديجة واستشكل بأن الوحي يكون مقترنا بعلم قطعي بأنه من الله وإن الملقن له من الملائكة وأجيب بأن هذا العلم الضروري يحصل باستعراف الملك له وإعلامه إياه بذلك عند تلقينه الأمر بالتبليغ وإنما كان ظهور الملك له هي المرة لاجل الأيناس والاعداد لتلقي وحي الأحكام، والأمر فيه بالقراءة للتكوير لا للتكليف، والا كان من تكليف ما لا يطاق. وقيل انه خاف على نفسه الموت أو الهلاك وهو قريب وثم أقوال أخرى متكلفة. وهو على كل حال يدل على انه ﴿ص﴾ لم يفهم من هذه الرؤية انه صار نبيا ولا إن الذي رآه هو ملك الوحي جبريل عليه السلام ويؤيد ذلك مسألة ورقة

﴿٤﴾ الخزي الذل والهوان واخزاه أذله وإهانته. والكل بالفتح المتعب (بفتح العين) ومن هو عالة على غيره، وحمله إعطاؤه راحلة يركبها أو حمل أثقاله، وتكسب بفتح التاء وضمها لغة ورواية، والمعدوم المفقود ولا يظهر معناه إلا بتكلف وقال الخطابي الصواب المعدوم وهو الفقير الفاقد لما يكفيه، والإعانة على نوائب الحق كلمة جامعة لكل أعمال البر والتجدة والمروءة فيما عدا الباطل

الضيف وتعين على نوائب الحق . فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل ابن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة وكان امرأ تنصر في الجاهلية وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الانجيل بالبرانية ماشاء الله أن يكتب (١) وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة يا ابن عم اسمع من ابن أخيك فقال له ورقة يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ بخبر ما رأى، فقال له ورقة هذا الناموس (٢) الذي نزل الله على موسى، يا ليتني فيها جذعا. ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ أوخرجني هم؟ قال نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرأ مؤزرأ . ثم لم ينشب ورقة أن توفي (٣)

(١) وفي رواية التفسير يكتب من الانجيل بالعربية، وفي معناها رواية مسلم: فكان يكتب الكتاب العربي. ولا تنافي بين الروايات اذ كان يعرف اللغتين وورقة ابن عم خديجة، واما قولها له اسمع من ابن اخيك فهو من باب التوقير لسنه واستعطاف الرحم (٢) الناموس في اللغة صاحب السر والمراد به امين الوحي جبريل وقوله نزل على موسى ولم يقل وعيسى لان الشبه بين الوحي الى موسى ومحمد عليهما السلام اتم لان كلا منهما اوتي شريعة تامة مستقلة في عباداتها ومعاملاتها وسياستها وقوتها العسكرية وعيسى عليه السلام كان تابعا لشريعة التوراة وناسخا لبعض الاحكام التي يقتضيها الاصلاح ومبشرا بالنبي الذي يأتي من بعده بالشرع الكامل العام الدائم وهو محمد رسول الله وخاتم النبيين ، وفي بعض الروايات الضعيفة ان ورقة قال ناموس عيسى وفي رواية اخرى حسنة الاسناد في دلائل النبوة لابي نعيم ان خديجة جاءت ورقة وحدها اولاً وقد كرت له الخبر فقال لها : لئن كنت صدقتني انه ليأتيه ناموس عيسى الذي لا يعلمه بنو اسرائيل ابناهم اه والناموس واحد على كل حال . ولكن رواية الصحيحين « فانطلقت به » تدل على التعقيب اي انها ذهبت به عقب تحديقها بما رأى (٣) لم ينشب بفتح الشين المعجمة أي لم يلبث بعد هذا أن توفي ولم ينل ما يتمناه من إدراك زمن تبليغ الرسالة لينصر النبي (ص) ولكن في سيرة ابن اسحاق وتبعه غيره أن ورقة كان عمره ببلال وهو يمدب، ومقتضاه أنه أدرك زمن البعثة واضطهاد المشركين للمؤمنين . والمعتمد ما في الصحيح من انه توفي عقب هذا الحديث بقليل

وفتر الوحي (١)

قال ابن شهاب وأخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن أن جابر بن عبد الله الأنصاري قال وهو يحدث عن فترة الوحي فقال في حديثه « بينا أنا ماش إذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصري فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض فرعبت منه فرجعت فقلت زملوني فأُنزل الله تعالى (يا أيها المدثر قم فأنذر) إلى قوله (والرجز فاهجر) فحفي الوحي وتتابع (٢) اهـ

(وأقول) أخرج البخاري حديث جابر في تفسير سورة المدثر من طرق في بعضها أن أولها أول ما أنزل مطلقاً وفي البعض الآخر أنها من حديث النبي ﷺ عن فترة الوحي كالتي هنا وقد عبر ﷺ عن رعبه من رؤية الملك بقوله « فجثت منه

(١) فتر الوحي انقطع مؤقتاً ليعود - وكانت فترة الوحي ثلاث سنين - وهي ما بين بدءه بأمر جبريل له بالقراءة وبين نزول أول سورة المدثر التي أمر فيها بإفذار الناس (٢) أي انصل مدة التبليغ كلها وهي عشرون سنة ولكنه كان مجوماً متفرقة حسب الحاجة ، فتارة تنزل السورة دفعة واحدة ، وتارة تنزل الآيات المتفرقة ، وقد يكون بين ذلك فترات قصيرة ، كالذي ورد في سبب نزول سورة الضحى . وقد اختلط الأمر في هذا على درمنعام فظن أنها هي التي نزلت بعد فترة الوحي ، والمروي أنه نزل قبها بضع سور : وكان سبب نزولها كما في الصحيحين من حديث جندب بن سفيان أن النبي (ص) اشتكى (أي وجع) فلم يقدّم ليلتين أو ثلاثاً (أي إلى سرجه وتلاوته) فقالت امرأة يا محمد اني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاث. فأَنزل الله عز وجل (والضحى والليل إذا سجى * ما ودعك ربك وما قلى) اهـ نقرأ ودعك بالتشديد والتخفيف ومعناها واحد وهو الترك ، والقلى بالكسر والقصر البغض ، أي ما تركك ربك وما أبغضك - وهذه المرأة هي أم جميل امرأة أبي لهب وبنت أبي سفيان كما رواه الحاكم عن زيد بن أرقم . وكان هذا بعد نزول سورة (تبت يدا أبي لهب) وروى ابن جرير من طريقين مرسلين أن جبريل أبطأ على النبي (ص) فجزع جزعاً شديداً فقالت خديجة اني أرى ربك قد قلاك عما يرى من جزعك فنزلت - ومعارضة رواية الصحيحين لهاذه الرواية المرسلّة تسقط اعتبارها وإن جمع الحافظ بينهما بأن خديجة قالت ما قالت توجماً ، وحالة الخطب قائمه شماته

رعباً» وفي رواية أخرى «فجئنت منه حتى هويت الى الارض» أي فزعت وخفت وهو بضم الجيم وكسر الهمزة بالبناء للمفعول هذا هو المعتمد عند المحدثين في أول ما نزل من القرآن والمشهور أنه نزل بعد أول المدثر سورة المزمل تامة وبمدها بقية سورة المدثر . وقال مجاهد أول ما نزل سورة (ن والقلم) وهو غلط وروي عن علي كرم الله وجهه أن أول ما نزل سورة الفاتحة واعتمده شيخنا في توجيه كونها فاتحة الكتاب ويمكن أن يراد أنها أول سورة تامة نزلت بعد بدء الوحي بالتمهيد التكويني ثم بالامر بالتبليغ الاجمالي وتلاها فرض الصلاة ونزل سورة المزمل أو نزلتا في وقت واحد

(بسط ما يصورون به الوحي النفسي لمحمد ﷺ)

هـ. نذا قد بسطت جميع المقدمات التي استنبطوها من تاريخ محمد ﷺ وحالته النفسية والعقلية، وحالة قومه ووطنه، وما تصوروا أنه استفاده من اسفاره، وما كان من تأثير خلواته وتحننه وتفكره فيها ، وقفيت عليها بأصح ما رواه المحدثون في الصحاح من صفة الوحي وكيف كان بدؤه وفترته ، ثم كيف أمر ﷺ بتبليغه ودعوة الناس الى الحق وكيف حمي وتتابع وأبين الآن كيف يستنبطون من ذلك أن هذا الوحي قد نبع من نفس محمد وأفكاره بتأثير ذلك كله في وجدانه وعقله ، بما لم أر ولم أسمع مثله في تقريبه الى العقل ، ثم أقفي عليه بما ينقصه من اساسه بادلة العقل والنقل والتاريخ والصحيح من وصف حالته ﷺ فأقول

يقولون ان عقل محمد الهيولاني قد أدرك بذوره الذاتي بطلان ما كان عليه قومه من عبادة الاصنام كما أدرك ذلك أفراد آخرون من قومه — آمنا وصدقنا — وان فطرته الزكية قد احتقرت ما كانوا يتنافسون فيه من جمع الاموال بالربا والقمار — آمنا وصدقنا — وان فقره وفقر عمه (ابي طالب) الذي كفله صغيرا قد حال دون انفاسه فيما كانوا يسرفون فيه من الاستمتاع بالشهوات، من السكر والتسري وعزف القيان — الصحيح أنه ترك ذلك احتقاراً له لا عجزاً عنه —

وانه طل تفكره في إنقاذهم من ذلك الشرك القبيح وتطهيرهم من تلك الفواحش والمنكرات - لا مانع من ذلك - وانه استفاد من أسفاره وممن لقيه فيها وفي مكة نفسها من النصارى كثيراً من المعلومات عن النبيين والمرسلين الذين بعثهم الله في بني اسرائيل وغيرهم فأخرجوهم من الظلمات الى النور - هذا لم يصح عندنا ولا يضرنا - وان تلك المعلومات لم تكن كلها مقبولة في عقله لما عرض للنصرانية من الوثنية بالوهية المسيح وأمه وغير ذلك وبما حدث فيها من البدع - هذا مبني على ما قبله فهو معقول غير منقول - وانه كان قد سمع ان الله سيبعث نبياً مثل أولئك الانبياء من العرب في الحجاز قد بشر به عيسى المسيح وغيره من الانبياء - وأن هذا علق بنفسه فتعلق رجاءه بان يكون هو ذلك النبي الذي آن وأنه - وهذا استنباط لهم مما قبله وسيأتي ما فيه - ونتيجة ما تقدم أنه توسل الى ذلك بالانقطاع الى عبادة الله تعالى والتوجه اليه في خلوته بغار حراء فقوي هنالك ايمانه ، وسما وجدانه ، فاتسع محيط تفكره ، وتضاعف نور بصيرته ، فاهتدى عقله الكبير الى الآيات البينات في ملكوت السموات والارض على وحدانية مبدع الوجود ، وسر النظام الساري في كل موجود ، بما صار به اهلا لهداية الناس وإخراجهم من الظلمات الى النور ، وما زال يفكر ويتأمل ، وينفعل ويتأمل ، ويتقلب بين الآلام والآمال ، حتى أيقن انه هو النبي المنتظر ، الذي يبعثه الله لهداية البشر ، فتجلى له هذا الاعتقاد في الرؤى المغامية ، ثم قوي حتى صار يتمثل له الملك يلقنه الوحي في اليقظة وأما المعلومات التي جاءت في هذا الوحي فهي مستمدة الاصل من تلك المعلومات التي ذكرناها ، ومما هداه اليه عقله وتفكره في التمييز بين ما يصح منها وما لا يصح ، ولكنها كانت تتجلى له نازلة من السماء ، وأنها خطاب الخالق عز وجل بواسطة الناموس الاكبر ملك الوحي جبريل الذي كان ينزل على موسى بن عمران وعيسى بن مريم وغيرهما من النبيين عليهم السلام

وقال أحد ملاحدة المصريين إن سولون الحكيم اليوناني وضع قانونا وشرعية لقومه فليس بدعا في العقل أن يضع محمد شرعية أيضا ، وسأبين فساد هذا الرأي

(تفنيد تصويرهم للوحي النفسي وإبطاله من وجوه)

(الوجه الاول) ان اكثر المقدمات التي أخذوا منها هذه النتيجة هي آراء متخيلة ، أو دعاوي باطلة ، لا قضايا تاريخية ثابتة ، كما بيناه عند ذكرها ، وإذا بطلت المقدمات بطل التسليم بالنتيجة

مثل ذلك زعمهم ان محمداً ﷺ سمع من نصارى الشام خبر غلب الفرس وظهرهم على الروم ، أي وهما الناس ان ما جاء في أول سورة الروم من الانباء بالمسألة وبان الروم سيفعلون الفرس بعد ذلك — هو مستمد مما سمعه ﷺ من نصارى الشام . وهذا مردود بدلائل التاريخ والعقل . فأما التاريخ فانه يحدثنا بأن ظهور الفرس على الروم كان في سنة ٦١٠ م وذلك بعد رحلة محمد الأخيرة إلى الشام بأربع عشرة سنة وقبل بدء الوحي بسنة . ثم ان التاريخ أنبأنا ان دولة الروم كانت محتلة معتلة في ذلك العهد بحيث لم يكن أحد يرجو ان تعود لها الكرة والغلب على الفرس . حتى ان أهل مكة أنفسهم هزئوا بالخبر وراهن أبوبكر أحدهم على ذلك وأجازه النبي ﷺ فربح الرهان . وأما العقل فانه يحكم بان مثل محمد في سمو إدراكه المتفق عليه لا يمكن أن يجزم بان الغلب سيعود للروم على الفرس في مدة بضع سنين — لا من قبل الرأي ولا من الوحي النفسي المستمد من الاخبار غير الموثوق بها . وقد صح أن انتصار الروم حصل سنة ٦٢٢ م وكان وحي التبليغ للنبي ﷺ سنة ٦١٤ فاذا فرضنا أن سورة الروم نزلت في هذه السنة يكون النصر قد حصل بعد ثمان سنين وان كان في السنة الثانية تكون المدة سبع سنين ، وهو المعتمد في التفسير والبضع يطلق على ما بين الثلاث والتسع . والحكمة في التعبير عن هذا النبأ بقوله تعالى (غلبت الروم في أدنى الارض وهم من بعد غلبهم سيفعلون في بضع سنين) ولم يقل بعد سبع سنين أو ثمان مثلاً — هي إفادة أن الغلب يكون في الحرب الممتدة في هذه المدة . وأنباء الوحي والعبر لا تكون بأسلوب التاريخ الذي يحدد الوقائع بالسنين ، وليس في وعود القرآن الكثيرة للمسلمين بالنصر وغيره من أنباء الغيب ذكر السنين ولا الشهور فهذه الآية فريدة في بابها

ومثال آخر ما زعموه من مروره ﷺ في رحلته الى الشام بارض مدين وحديثه مع أهلها ، الذي أرادوا به ان يجعلوه أصلاً لما جاء في القرآن من أخبارها والخبر باطل كما بيناه عند نقلنا إياه في المقدمات ، ولو صح لما كان من المعقول أن يكون ما سمعته في الطريق من أناس مجوهين ومعارفهم لا يوثق بها أصلاً للوحي الذي جاءه في قصة موسى وفي قصة شعيب عليهما السلام

(الوجه الثاني) لو كان النبي ﷺ تلقى عن علماء النصارى في الشام شيئاً او عاثرهم لنقل ذلك اتباعه الذين لم يتركوا شيئاً علم عنه اوقيل فيه ولو لم يثبت الا ودونوه ووكالوا أمر صحته أو عدمها الى اسناده

(الوجه الثالث) لو وقع ما ذكر لا تخذه أعداؤه من كبار المشركين شبهة يحتاجون بها على ان ما يدعيه من الوحي قد تعلمه في الشام من النصارى ، فانهم كانوا يوردون عليه ما هو اضعف واسخف من هذه الشبهة وهو انه كان في مكة قين (حداد) رومي يصنع السيوف وغيرها فكان النبي ﷺ يقف عنده احياناً يشاهد صنعته فاتهموه بانه يتعلم منه ، فرد الله عليهم بقوله (١٦ : ١٠٣) ولقد نعلم انهم يقولون انما يعلمه بشر. لسان الذي يلحدون اليه اعجمي وهذا لسان عربي مبين) (الوجه الرابع) نصوص القرآن صريحة في انه ﷺ لم يكن يعرف شيئاً من اخبار الرسل وقصصهم قبل الوحي ، وهم متفقون معنا على انه ﷺ لم يكن يكذب على احد فضلاعن الكذب على الله عز وجل ، كما اعترف بذلك أعدى أعدائه أبوجهل ، كما أنهم متفقون معنا على قوة إيمانه بالله عز وجل وبقينه بكل ما أوحاه اليه

ومن الشواهد على ذلك قوله تعالى عقب قصة موسى في مدين وما بعدها من سورة القصص (٤٤ : ٢٨) وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا الى موسى الامر وما كنت من الشاهدين ٤٥ ولكننا أنشأنا قروناً فتناول عليهم العمر ، وما كنت ثابراً في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ، ولكننا كنا مرسلين) وقوله بعد قصة نوح من سورة هود (٤٩ : ١١) تلك من انباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها انت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين) ونحوها في قصة يونس من سورته (الوجه الخامس) انه لم يرد في الاخبار الصحيحة ولا الضعيفة ان محمداً ﷺ

كان يرجو أن يكون هو النبي المنتظر الذي كان يتحدث عنه بعض علماء اليهود والنصارى قبل بعثته ، ولو روي عنه شيء من ذلك لدونه المحدثون لانهم ماتوا كوا شيئاً بلغهم عنه إلا ودونوه كما رووا مثله عن امية بن ابي الصلت

(الوجه السادس) ان حديث بدء الوحي الذي أثبتته الشيخان في الصحيحين وغيرهما من المحدثين صريح في انه ﷺ خاف على نفسه لما رأى الملك أول مرة ولم تجد زوجه خديجة بنت خويلد العاقلة المفكرة وسيلة يطمئن بها على نفسه وتطمئن هي عليه إلا استفتاء أعلم العرب بهذا الشأن وهو ابن عمها ورقة بن نوفل الذي كان تنصر وقرأ كتب اليهود والنصارى

(الوجه السابع) لو كانت النبوة أمراً كان يرجوه محمد ويتوقعه ، وكان قد تم استعداد له باختلافه وتعبد في الغار ، وما صوروا به حاله فيه من الفكر المضطرب ، والوجدان الملتهب ، والقلب المتقلب ، حتى إذا كمل استعدادة تجلّى له رجاؤه واعتقاده ، بما تم به مراده ، لظهر عقب ذلك كل ما كانت تنطوي عليه نفسه الوثابة ، وفكرته الوقادة ، في سورة أو سور من أبلغ سور القرآن ، في بيان أصول الايمان ، وتوحيد الديان ، واجتثاث شجرة الشرك وعبادة الاوثان ، وإنذار رموس الكفر والطغيان ، ماسيلقون في الدنيا من الخزي والنكال ، وفي الآخرة من عذاب النار ، كسور المفصل ولا سيما [ق والقرآن المجيد] والذاريات والطور والنجم والقمر . ثم الحاقة والنبأ — او في سورة من السور الوسطى التي تقرأهم بالحجج ، وتأخذهم بالعبر ، وتضرب لهم المثل بسنن الله في الرسل ، كسور الانبياء والحج والمؤمنون ، ولكنه ظل ثلاث سنين لم يتل فيها على الناس سورة ، ولم يدعهم الى شيء ، ولا تحدث الى اهل بيته ولا الى أصدقائه بمسألة من مسائل الاصلاح الديني الذي توجهت اليه نفسه ، ولا من ذم خرافات الشرك الذي ضاق به ذرعه ، اذ لو تحدث بذلك لنقلوه عنه ، وناهيك بألصق الناس به خديجة وعلي وزيد بن حارثة في بيته ، وأبي بكر الصديق الذي عاشه طول عمره — فهذا السكوت وحده برهان قاطع على بطلان ما صوروا به استعدادة للوحي الذاتي الذي زعموه ، واستعدادة لعلومه من التلقي والاختبار الذي توهموه

(الوجه الثامن) ان ما نقل من ترتيب نزول الوحي بعد ذلك موافقاً لما جريات الوقائع والحوادث يؤيد ذلك ، فقد نزل ما بعد صدر سورة المدثر عقب قول الوليد بن المغيرة الخزومي الذي قاله في القرآن — فقد أراد ابو جهل أن يقول فيه قولاً يبلغ قومه أنه منكروه وأنه كاره له ، بعد ان علم انه تحرى استماعه من محمد ﷺ وأعجب به . قال له الوليد وماذا اقول ؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشمر لا يبرجزه ولا يقصيده مني ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا ، والله إن لقوله للحلابة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمنير أعلاه ، مشرق أسفله (١) وإنه ليعلم وما يعلم ، وإنه ليحطم ما تحته . قال ابو جهل لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه . فقال دعني حتى أفكر ، فلما فكر قال : هذا سحر يؤثر يا أثره عن غيره ، فنزلت الآيات (٧٤ : ١١ ذرني ومن خلقت وحيداً) الخ رواه الحاكم عن ابن عباس باسناد صحيح على شرط البخاري

(الوجه التاسع) ان هذه المعلومات الحمديّة التي تصورها هؤلاء المحللون لمسألة الوحي قليلة المواد، ضيقة النطاق عن أن تكون مصدراً لوحي القرآن وان القرآن لأعلى وأوسع وأكمل من كل ما كان يعرفه مثل بحيرا ونسطور وكل نصارى الشام ونصارى الارض ويهودها، دع الاعراب الذين كان يمر بهم النبي ﷺ بالطريق إلى الشام

وان القرآن نزل مصداقاً لكتب أهل الكتاب من حيث كونها في الاصل من وحي الله الى موسى وعيسى وداود وسليمان وغيرهم — ونزل أيضاً مهيماً عليها أي رقيباً وحاكماً كما نصت عليه الآية (٤٨) من سورة المائدة (٦) ومما حكم به على أهلها من اليهود والنصارى انهم أوتوا نصيباً من الكتاب (٥ : ٤٤ و ٥١) ونسوا نصيباً أو حظاً آخر منه وانهم حرفوا وغبروا وبدلوا (٦ : ١٢ و ١٣) وبين كثيراً من المسائل الكبرى مما خالفوا واختلفوا فيه من العقائد والاحكام والاخبار ، ومثل هذه الاحكام العليا عليهم لا يمكن أن تكون مستمدة من أفراد من الرهبان أو غير الرهبان ، فأضوها على محمد في رحلته التجارية الى الشام ، سواء أ كان عند

بعضهم بقية من التوحيد الموسوي والميسوي الذي كان يقول به آريوس وأتباعه أملاً، وسواء أكان لدى بعضهم بقية من الانجيل التي حكمت الكنيسة الرسمية بعدم قانونيتها (ابو كريف) كأنجيل طفولة المسيح وانجيل برنابا أملاً، فمحمد لم يعتقد في الشام ولا في مكة مجعاً مسيحياً كجامع الكنيسة للترجيح بين الانجيل والمذاهب المسيحية وبحكم بصحة بعضها دون بعض

ان وقوع مثل هذا منه في تلك الرحلة مما يعلم واضعو هذه الاخبار ببداية العقل مع عدم النقل أنه محال، وعلى فرض وقوعه يقال كيف يمكن أن يحكم بين تلك الانجيل وتلك المذاهب برأيه في تلك الجلسة التجارية للنظر فيها ويأمن على حكمه الخطأ؟ وقد صح عنه أنه قال لأصحابه في شأن أهل الكتاب « لا تصدقوهم ولا تكذبوهم » يعني فيما سكت عنه القرآن لئلا يكون ما كذبوهم فيه مما حفظوا، ويكون ما صدقوهم به مما نسوا حقيقته أو حرفوا أو بدلوا

(العاشر) إن في القرآن ما هو مخالف للمهدين العتيق والجديد وهو مما لا يعلم إلى الآن أن احداً من اليهود والنصارى قال به، كخالفه سفر الخروج فيمن تبنت موسى ففيه أنها ابنة فرعون وفي القرآن أنها امرأته - وفيما قرره من عزو صنم العجل الذي عبده بنو اسرائيل إلى هارون عليه السلام بعزوه إياه إلى السامري واثباته لانكار هارون عليهم فيه وغير ذلك،

بل ما جاء به محمد أكبر وأعظم من كل ما في السكتب الالهية ما صح منها وما لم يصح كما سنبينه

رويدكم أيها المفتاتون، الذين يقولون ما لا يعلمون، إن وحي القرآن أعلى مما تزعمون، وأكبر مما تتصورون وتصورون، وإن محمداً أفلاً علماً كسبياً مما تدعون، وأكل استعداداً لتلقي كلام الله عن الروح القدس مما تستكبرون

وإذا كان وحي القرآن أعلى وأكمل من جميع ما حفظ عن أنبياء الله ورسله لأنه الخاتم لهم المكمل لشرائعهم الخاصة الموقوتة، فأجدر به أن يكون أكمل مما وضعه سولون افيلسوف اليوناني الذي شبه محمداً به احد ملاحدة عصرنا في مصرنا، مع بعد الشبه بين أمي نشأ بين الاميين، وفيلسوف نشأ في أمة حكمة وتشريع ودولة

وسياسة ، ودخل في كل أمور الامة والدولة (١)

القول الحق في استعداد محمد (ص) للنبوة

التحقيق في صفة حال محمد ﷺ من أول نشأته، وإعداد الله تعالى إياه لنبوته ورسالته، هو أنه خلقه كامل الفطرة ، ليعيشه بدين الفطرة ، وأنه خلقه كامل العقل الاستعدادي الهبولاقي، ليعيشه بدين العقل والنظر العلمي، وأنه كمله بمعالي الاخلاق ، ليعيشه متمما لمكارم الاخلاق ، وأنه بغض اليه الوثنية وخرافات اهلها ورذائلهم من صغر سنه، وحبب اليه العزلة حتى لا تأنس نفسه بشيء مما يتنافسون فيه من الشهوات والذات البدنية ، او منكرات الوحشية ، كسفك الدماء والبغي على الناس ، او المطاعم الدنيئة كأكل أموال الناس بالباطل - ليعيشه مصلحاً لما فسد من أنفس الناس، ومزكياً لهم بالتأسي به، وجعله المثل البشري الاعلى، لتنفيذ ما يوحى به اليه من الشرع الاعلى ، فكان من عفته أن سلب من سني شبابه خمساً وعشرين سنة مع زوجه خديجة كانت في ١٥ منها عجزاً يائسة من النسل، فتوفيت في الخامسة والستين وهي أحب الناس اليه، وظل يذكرها ويفضها على جميع من تزوج بهن من بعدها، حتى عائشة بنت صاحبه الصديق على جمالها وحداثتها وذكائها وكمال استعدادها للتبليغ عنه - وظل طول عمره يكره سفك الدماء ولو بالحق فكان على شجاعته

١) سولون أحد فلاسفة اليونان السبعة في القرن السابع قبل المسيح ووالده من انسياء بسترانوس آخر ملوك اثينا، وكان من رجال المال ورجال الحرب وتولى في بلاده بعض الاعمال الادارية والعسكرية وقيادة الجيش .وقد انتخب في سنة ٥٩٤ ق.م «ارخونا» اي رئيسا على الامة باجماع احزابها كلهم وقلده سلطة مطلقة لتغيير ما شاء من نظم البلاد وقانونها الذي وضعه «زراكوت» من قبله فوضع لهم نظاما جديدا قررت الحكومة والامة اتخاذه دستورا متبعامدة عشرين سنين .فسولون كان في قانونه منقحا ومجددا لقانون اعظم امة من امم الحكمة والحضارة نشأ فيها فكان متعلما وفيلسوفاً وحاكما وقائدا ورئيسا، أفقاس عليه محمد (ص) الامي الذي لم يقرأ سطرا ولم يركب كتابا، ولا تولى عملا اداريا ولا سياسيا، ثم إن ما جاء به لم يكن قانونا موضعيا منقحا لقوانين أخرى قبله ، بل كان اصلاحا لجميع البشر في عقائدهم وآدابهم واحكامهم وحروبهم الخ ؟ نأمل ايها القاريء الى شبهات ملاحدة المسلمين على دينهم ونبيهم !!

الكاملة يقود أصحابه لقتال أعداء الله وأعدائه المعتدين عليه وعليهم لاجل صدهم عن دينهم ، ولكنه لم يقتل بيده إلا رجلا واحدا منهم (هو أبي بن خلف) كان موطناً نفسه على قتله ﷺ فهجم عليه وهو مدجج بالحديد من مغفر ودرع فلم يجد ﷺ بداً من قتله فطعنه في ثرقوته من خال الدرع والمغفر ، وظل طول عمره وبعد ما أفاء الله عليه من غنائم المشركين واليهود يؤثر القشف وشظف العيش على نعمته ، مع إباحة شرعه لا كل الطيبات ونهيه لمن كان يتركها تديناً ، ويرقع ثوبه ويخصف نعله ، مع إباحة دينه للزينة وأمره بها عند كل مسجد ، وكان يأكل ما وجد لا يعيب طعاماً قط ، إلا أنه كان لا يشرب إلا الماء العذب النقي

وأكمل الله تعالى استعداده الذاتي « لا الكسبي » للبعثة بأكمل دين النبيين والمرسلين ، والتشريع الكافي الكافل لاصلاح جميع البشر الى يوم الدين ، وجعله حجة على جميع العالمين ، بأن أنشأه كأكثر قومه أمياً وصرفه في أميته عن اكتساب أي شيء من علوم البشر من قومه العرب الاميين ومن أهل الكتاب ، حتى انه لم يعمل له أدنى عناية بما يتفاخر به قومه من فصاحة اللسان ، وقوة البيان ، من شعر وخطابة ، ومفاخرة ومنافرة ، إذ كانوا يؤمون أسواق موسم الحج وأشهرها عكاظ من جميع النواحي لظهار بلاغتهم وبراعتهم ، فكان ذلك أعظم الاسباب لارتقاء لغتهم ، ولوجود الحكمة في شعرهم ، فكان من الغريب أن يزهد في مشاركتهم فيه بنفسه ، وفي روايته لما عساه يسمعه منه ، وقد سمع بعد النبوة زهاء مائة قافية من شعر أمية فقال « ان كاد ليسلم » وقال « آمن شعره وكفر قلبه » وقال « ان من البيان لسحرا » وان من الشعر حكمة » رواه أحمد وأبو داود من حديث ابن عباس ، وأما قوله « ان من البيان لسحرا » فقد رواه مالك وأحمد والبخاري وأبو داود والترمذي من حديث ابن عمر

قلنا إن استعداد محمد ﷺ للنبوة والرسالة فطري لم يكن فيه شيء من كسبه يعلم ولا عمل إنساني ولا نفسي ، ولم يرو عنه انه كان يرجوها كما روي عن أمية ابن أبي الصلت ، بل روي عن خديجة (رض) انها لما سمعت من غلامها ميسرة أخبار أمانته وفضائله وكراماته وما قاله بحيرا الراهب فيه تعلق أملها بأن يكون

هو النبي الذي يتحدثون عنه ، ولكن هذه الروايات لا يصل شيء منها الى درجة المسند الصحيح كحديث بدء الوحي الذي أوردناه آنفاً ، فان قيل انه يقويه حلفها بالله ان الله تعالى لا يخزيه أبداً ، قلنا انها علت ذلك بما ذكرته من فضائله ، ورات انها في حاجة الى استفتاء ابن عمها امية في شأنه .

واما اختلاؤه عليه السلام وتعبده في الغار عام الوحي فلا شك في انه كان عملاً كسبياً مقوياً لذلك الاستعداد الفطري ، ولذلك الاستعداد السلبي من العزلة وعدم مشاركة المشركين في شيء من عباداتهم ولا عاداتهم ، ولكنه لم يكن بقصد الاستعداد للنبوّة ، لانه لو كان لاجلها لاعتقد حين رأى الملك او عقب رؤيته حصول مأموله وتحقق رجائه ، ولم يخف منه على نفسه ، وانما كان الباعث لهذا الاختلاء والتحنث اشتداد الوحشة من سوء حال الناس والهرب منها الى الانس بالله تعالى ، والرجاء في هدايته الى المخرج منها ، كما بسطه شيخنا الاستاذ الامام في تفسير قوله تعالى من سورة الضحى (ووجدك ضالاً فهدى) وما يفسره من قوله عز وجل في سورة الشورى (٤٢ : ٥١) وكذلك اوحينا اليك روحاً من امرنا ، ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا . وانك لتهدى الى صراط مستقيم * ٥٢ صراط الله الذي له ما في السموات وما في الارض ألا الى الله تصير الامور) وألم به في رسالة التوحيد المأما مختصراً مفيداً ، فقال رحمه الله تعالى : « من السنن المعروفة أن نبياً فقيراً أمياً مثله تنظيع نفسه بما تراه من أول نشأته الى زمن كهولته ، ويتأثر عقله بما يسمعه ممن يحاطه لاسيما ان كان من ذوي قرابته ، وأهل عصبته ، ولا كتاب يرشده ، ولا أستاذ ينهيه ، ولا عضد إذا عزم يؤيده ، فلو جرى الامر فيه على جاري السنن لنشأ على عقائدهم ، وأخذ بمذاهبهم ، إلى أن يبلغ مبلغ الرجال ، ويكون للفكر والنظر مجال ، فيرجع الى مخالفتهم ، اذا قام له الدليل على خلاف ضلالاتهم ، كما فعل القليل ممن كانوا على عهد (١) ولكن الامر لم يجر على سنته ، بل بغضت اليه الوثنية من مبدأ عمره ، فعاجلته طهارة العقيدة ، كما بادره

(١) كامية بن أبي الصلت وعمرو بن قنيل

حسن الخليفة ، وما جاء في الكتاب من قوله (ووجدك ضالا فهدى) لا يفهم منه أنه كان على وثنية قبل الاهتداء الى التوحيد، أو على غير السبيل القويم، قبل الخلق العظيم ، حاش لله ان ذلك هو الافك المبين ، وإنما هي الحيرة تلم بقلوب أهل الاخلاص ، فيما يرجون للناس من الخلاص. وطلب السبيل الى ما هدوا اليه من انقاذ الهالكين، وارشاد للضالين ، وقد هدى الله نبيه الى ما كانت تتلمسه بصيرته باصطفائه لرسالته ، واختياره من بين خلقه لتقرير شريعته اه

(أقول) وجملة القول ان استعداد محمد ﷺ للنبوة والرسالة عبارة عن جعل الله تعالى روحه الكريم كمرآة صقيلة حميل بينها وبين كل ما في العالم من التقاليد الدينية ، والآداب الوراثية والعادات المكتسبة، الى ان تجلى فيها الوحي الالهي باكمل معانيه ، وابلغ مبانيه ، لتجديد دين الله المطلق الذي كان يرسل به رسله الى اقوامهم خاصة بما يناسب حالهم واستعدادهم ، وجعل بعثة خاتم النبيين به للبشر عامة دائمة لا يحتاجون بعدها الى وحي آخر، فكان في فطرته السليمة وروحه الشريفة، وما نزل عليها من المعارف العالية، وما أشرق فيها من نور الله عز وجل الذي تلوته عليك من آخر سورة الشورى — هو مضرب المثل في قوله تعالى في سورة النور (٢٤ : ٣٥) الله نور السموات والارض مثل نوره كشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة، الزجاجة كانها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة، زيتونة لا شرقية ولا غربية، يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار، نور على نور، يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الامثال للناس والله بكل شيء عليم)

فزيت مصباح المعارف المحمدية، يوقد من زيتونة لا شرقية ولا غربية، ولا يهودية ، ولا نصرانية ، بل هي الهية علوية

هذا ما نراه كافيا لتفنيد مزاعم مصوري الوحي النفسي من ناحية شخص محمد واستعداده، ويتلوه ما هو أقوى دليلا ، واقوم قبيلا ، وهو تفنيده بموضوع الوحي الذي هو آية نبوته الخالدة ، وحجته الناهضة ، وهو القرآن العظيم

آية الله الكبرى - القرآن العظيم

﴿ القرآن الكريم ، القرآن الحكيم ، القرآن المجيد ، الكتاب العزيز ﴾

الذي (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد)

هو كتاب لا كالكتب ، هو آية لا كالأيات ، هو معجزة لا كالمعجزات ، هو نور لا كالأنوار ، هو سر لا كالأسرار ، هو كلام لا كالكلام ، هو كلام الله الحي القيوم الذي ليس لروح القدس جبريل الأمين عليه السلام منه إلا نقله بلفظه العربي من سماء الأفق الأعلى إلى هذه الأرض ، ولا لمحمد رسول الله وخاتم النبيين صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله منه إلا تبليغه للناس ليهتدوا به ، فهو معجز الخلق بلفظه ونظمه وأسلوبه وعلومه وهدايته ، لم يكن في استطاعة محمد ﷺ أن يأتي بسورة من سوره بكسبه ومعارفه ، وفصاحته وبلاغته ، وهو (ص) لم يكن عالماً ولا بليغاً ممتازاً إلا به ، بل فيه آيات صريحة في معاقبته على بعض اجتهاده كقداء اسرى بدر (راجع ص ٨٣ و ٩٤ و ٦٤٤ و ٤٧٣ ج ١٠ تفسير)

قد بينت في تفسير آية التحدي بالقرآن من سورة البقرة (٢ : ٢٣) أهم وجوه الإعجاز اللفظي والمعنوي بالأجمال والإيجاز ، وأعود هنا إلى الكلام في علوم القرآن المصلحة للبشر بما يحتمله المقام من البسط والتفصيل ، وهو القدر الذي يعلم منه أن هذه العلوم أعلى من كل ما حفظه التاريخ عن جميع الأنبياء والحكماء ، وواضعي الشرائع والقوانين ، وساسة الشعوب والأمم

فمن كان يؤمن بأن للعالم رباً عالماً حكماً رحيماً صريداً فاعلاماً مختاراً فلا مندوحة له ولا مناص من الإيمان بأن هذا القرآن وحي من لدنه عز وجل أنزله على خاتم أنبيائه المرسلين رحمة بهم ليهتدوا به إلى تكميل فطرتهم ، وتزكية أنفسهم ، وإصلاح مجتمعاتهم من المفسدات التي كانت عامة لجميع أممهم ، فيكون اتباع محمد فرضاً إلهياً لازماً عاماً كما قال تعالى (٧ : ١٥٨) قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم

جميعا الذي له ملك السموات والارض لا اله الا هو يحيي ويميت فأمنوا بالله ورسوله النبي الامي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون)

ومن كان لا يؤمن بوجود هذا الرب العالم الحكيم فلا مندوحة له عن الجزم بأن محمداً أكمل وأفضل وأعلم وأحكم من كل من عرف في هذا العالم من الحكماء الهادين المهديين ، ويكون الواجب بمقتضى العقل ان يعترف له هؤلاء بأنه سيد البشر على الاطلاق وأولاهم بالاتباع بعنوان (سيد البشر وحكيمهم الاعظم)

واننا رأينا بعض المنصفين من الواقفين على السيرة المحمدية الذين يفهمون القرآن في الجملة يعترفون بهذا قولاً وكتابة (منهم) الاستاذ مولانا انكليزي المشهور ، ومنهم ذلك الفيلسوف الطيب السوري الكائن ابيك النشأة الذي رأى في مجلة المنار بعض المناقب المحمدية فكتب اليها كتاباً يقول في اوله : أنت تنظر الى محمد كنبي فتراء عظيماً ، وأنا أنظر اليه كرجل فأعده اعظم وذكر ابياتاً في وصفه ووصف القرآن وما فيه من محكم الآيات ، المانعة لمن عقلها من تقييد العمران بالاعادات ، وإصلاحه للبشر بحكمة بيانه وقوة بنانه ، وختمها بقوله :

بيدانه أربي على أهل النهى وبسيفه أنحى على الهامات

من دونه الا بطل في كل الورى من سابق أو حاضر أو آت

والؤمنون بهذه الحقيقة من أحرار مفكري الشعوب كلها كثيرون ، ولكن الجاحدين لوجود رب مدبر للعالمين قائلون ، وان محمداً ﷺ الحجة عليهم في نشأته وتربيته وما علم بالضرورة من صدقه الفطري المطبوع ، ثم بما جاء به في سن الكهولة من هذه العلوم المصلحة لجميع شؤون البشر في كل زمان إذا عقلوها واهتدوا بها ، وإسناده إياها الى الوحي الالهي ، فهو ﷺ بمزاياه هذه حجة وبرهان على وجود الرب الخالق الحكيم بل مجموعة حجج عقلية وطبيعية - وهاك أيها القاريء ما أرفه اليك من قواعد تلك العلوم الاصلاحية بعد تمهيد وجيز في أسلوب القرآن وحكمة جعل تلك العلوم الكلية متفرقة في سورته بأسلوبه الغريب العجيب ، وهذا المعنى قد بيناه من قبل وإنما نعيد مع زيادة مفيدة وإيضاح اقتداء بأسلوب القرآن نفسه في تكرار المعنى الواحد في المواقع المتتالية له من ايجاز أو إسهاب ، وتفصيل أو إجمال

(أسلوب القرآن الخاص وحكمته وإعجازه به)

لو أن عقائد الاسلام المنزلة في القرآن من الايمان بالله وصفاته وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وما فيه من الحساب والجزاء ودار الثواب ودار العقاب جمعت وحدها مرتبة في ثلاث سور أو اربع أو خمس مثلاً ككتب العقائد المدونة — ولو أن عباداته من الطهارة والصلاة والزكاة والصيام والحج والدعاء والاذكار وضع كل منها في بضع سور أيضاً ككتب الفقه المصنفة — ولو أن آدابه وحكمه وفضائله الواجبة والمندوبة ، وما يقابلها من الرذائل والاعمال المحرمة والمكروهة ، أفردت هي وما يقتضيه الترغيب والترهيب من المواعظ والنذر والامثال الباعثة لشعوري الخوف والرجاء في بضع سور أخرى ككتب الاخلاق والآداب المؤلفة — ولو أن قواعد التشريعية وأحكامه الشخصية والسياسية والحربية والمدنية وحدوده وعقوباته التأديبية رتبت في عدة سور خاصة بها كأسفار القوانين الوضعية — ثم لو أن قصص النبيين المرسلين وما فيها من العبر والمواعظ والسنن الالهية سردت في سورها مرتبة كدواوين التاريخ — لو أن كل ما ذكر وما لم يذكر من مقاصد القرآن التي أراد الله بها اصلاح شؤون البشر جمع كل نوع منها وحده كترتيب أسفار التوراة التاريخي الذي لا يعلم احد مرتبه أو كتب العلم والفقه والقوانين لفقد القرآن بذلك اعظم مزايا هدايته المقصودة بالقصد الاول للغاية التي انتهت اليها ، وهو التعبد به واستفادة كل حافظ للقايل من سورته كثيراً من مسائل الايمان والفضائل والاحكام والحكم المنبثة في جميع السور لان السورة الواحدة لا يوجد فيها في هذا الترتيب إلا مقصد واحد من تلك المقاصد ، وقد يكون أحكام الطلاق أو الحيض فهو يتعبد بها ولا شك انه يعلمها ، وأما سورة المنزلة ففي كل منها حتى أقصرها عدة مسائل من الهداية قترى في سورتي الفيل وقريش (المتعلقة احداها بالآخرى حتى في الاعماب) ذكر مسألتين تاريخيتين قد جعلتا حجة على مشركي قريش فيما يجب عليهم من توحيد الله وعبادته بما من عليهم من عنايته بحفظ البيت الذي هو مناط عزهم وفخرهم وشرفهم وتأمين تجارتهم وحياتهم — ولقد بهذا الترتيب أخص أنواع إعجازه ايضاً

يعلم هذا وذلك مما نبينه من فوائد نظمه وأسلوبه الذي أنزله به رب العالمين،
العليم الحكيم الرحيم ، وهو مزج تلك المقاصد كلها بعضها ببعض وتفريقها في السور
الكثيرة ، الطويلة منها والقصيرة ، بالمناسبات المختلفة ، وتكرارها بالعبارات البليغة
المؤثرة في القلوب ، المحركة للشعور ، النافية للسامية والملل من المواظبة على ترتيلها
بنغمات نظمه الخاص به وفواصله المتعددة القابلة لأنواع من التغني الذي يحدث في
القلب وجدان الخشوع ، وخشية الاجلال للرب المعبود ، والرجاء في رضوانه ورحمته ،
والخوف من عقوبته ، والاعتبار بسننه في خلقه ، بما لا نظير له في كلام البشر من
خطابة ولا شعر ولا رجز ولا سجع ، فهذا الاسلوب الرفيع في النظم البديع ، وبلاغة
التعبير السنييع ، كان كما ورد في وصفه : لا تبلى جدته ولا تخلقه كثرة التردد . وحكمة
ذلك وغايته تعلم مما وقع بالفعل وهاك بيانه بالاجمال

الثورة والانقلاب الذي أحدثه القرآن في البشر

القرآن كتاب أنزل على قلب رجل أمي نشأ على الفطرة البشرية سليم العقل
صقيل النفس طاهر الاخلاق لم يملسه تقاليد دينية ولا أهواء دنيوية ، لا أجل إحداث
ثورة وانقلاب كبير في العرب فساتر الامم يكتسح من العالم الانساني مادنس
فطرته من رجس الشرك والوثنية الذي هبط بهذا الانسان من أفقه الأعلى في عالم
الارض إلى عبادة مثله وما هو دونه من هذه المخلوقات ، وما أفسد عقله وذهب
باستقلال فكره من البدع الكنسية ، والتقاليد المذهبية ، التي أحالت توحيد
الانبياء الأولين شركا وحققهم باطلا ، وهدايتهم غواية - وما أفسد بأسه ، وأذل
نفسه ، وسلبه ارادته ، من استبداد الملوك الظالمين ، والرؤساء القاهرين ، ثورة تحرر
العقل البشري والارادة الانسانية من رق المتحذنين لانفسهم صفة الربوبية أو النيابة
عنها في التحكم في الناس واستدلالهم ، فيكون كل امرئ اهتدى به حرا كريماً
في نفسه ، عبداً خالصاً لربه واله ، يوجه قواه العقلية والبدنية الى تكميل نفسه وجنسه
مثل هذه الثورة الانسانية لا يمكن أن تحدث الا على قاعدة القرآن في قوله
تعالى (ان الله لا يغير ما بقوم حتي يغيروا ما بأنفسهم) وكيف يكون تغيير الاقوام

يونس: نس ١٠ سنة الله في ترتيب العمل على العلم والايمان وتربية الامم ١٩٩

لما بأنفسهم من العقائد والاخلاق والصفات ، التي طبعتها عليها العبادات الورثة
والعادات الراسخة ؟

هل يكفي في ذلك قيام مصلح فيهم يضع لهم كتاباً تعليمياً جافاً ككتب الفنون
يقول فيه انكم أيها الناس ضالون فاسدون ، ومضلون مفسدون ، فاعملوا بهذا
الكتاب تهتدوا وتصلحوا ، أو قانوناً مدنياً يقول في مقدمته نفذوا هذا القانون
تحمفظ حقوقكم ، وتعز أمتكم وتقو دولتكم ؟ آنى وقد عهد من الناس الفاسدين
المفسدين سوء التصرف بكتب أنبيائهم المرسلين ، وإهمال قوانين حكمائهم المصلحين ،
(كما فعل المسلمون المتأخرون) وإنما توضع القوانين للحكومات المنظمة ذات السلطان
والقوة التي تكفل تنفيذها ، وأنى لمحمد فعل هذا في الامة العربية وقد بعث بالحجة
والبرهان ، فريداً وحيداً لا عصابة له من قومه ولا سلطان ؟ على انه جاء بأعدل الأصول
التي تبني عليها امته قوانينها عند تكوين دولتها في الاحوال الملائمة لها كما يعلم مما يأتي
كلا ان هذه الثورة ما كان يمكن أن تحدث إلا بما حدثت به وهو تأثير هذا القرآن
في الامة العربية التي كانت أشد الامم البدوية والمدنية استعداداً فطرياً لظهور الاسلام
فيها بالاقناع كما ايناه بالتفصيل في كتابنا (خلاصة السيرة المحمدية) وسنلم به قريباً
ذلك بان من طباع البشر في معرفة الحق والباطل والخير والشر ، والعمل
بمقتضى المعرفة وان خالف مقتضى الاهواء والشهوات ، والتقاليد والعادات ،
ان مجرد البيان والاعلام والامر والنهي لا يكفي في الحمل على التزام الحق ونصره
على الباطل ، ولا في أداء الواجب من عمل الخير وترك الشر اذا عارض المقتضي
العلمي لهما ما أشرنا اليه آنفاً من الموانع النفسية والعملية ، إلا في بعض الافراد
من الناس دون الجماعات والاقوام . بل مضت سنة الله في تثبيت الحق والخير
في النفس وصدور آثارهما عنهما بالعمل ، أنه يتوقف على صيرورة الايمان بهما
اذعانا وجدانياً كما على القلب ، راجحاً على ما يخالفه من رغب ورهب وألم وأمل ،
وانما يكون هذا في الاحداث بالتربية العلمية العملية والاسوة الحسنة لهم فيمن ينشئون
بينهم من الوالدين والاقربين والمعاشرين
وأما كبار السن فلا سبيل إلى جعل الايمان بالحق المطلق والخير العام اذعانه

وجداننا لجمهورهم إلا بالاسلوب الذي نزل به القرآن فقلب به طباع الكهول والشبان وأخلاقهم وتقاليدهم وعاداتهم وحوّلها إلى ضدها علما وعملا بما لم يمهّد له نظير في البشر ، فكان القرآن آية خارقة للعهود من سنن الاجتماع البشري في تأثيره ، بالتبع لكونه آية معجزة للبشر في لغته وأسلوبه

واعتبر هذا ببني اسرائيل سلالة النبيين ، فإن كل مارأوه بمصر من آيات موسى عليه السلام ، ثم مارأوه في برية سيناء مدة التيه منها ، ومن غناية الله تعالى بهم ، ومن سماعهم كلام الله تعالى بأذانهم في لهيب النار المشتعلة على ماترويه توراتهم ولم يثبت عندنا التكليم الا لنبيهم - لم يتغير به ما كان بانفسهم من تأثير الوثنية المصرية وخرافاتها ومهانتها وأخلاقها ، فقد عذبوا موسى عذابا نكرا ، وعاندوه في كل ما كان يأمرهم به ، وعبدوا صنم العجل الذهبي في أثناء مناجاته له ، حتى وصفهم الله في التوراة بالشعب الصلب الرقبة ، وهو كناية عن البلادة والعناد ، وعصل الطباع المانع من الانقياد ، وظل ذلك كذلك إلى أن باد ذلك الجيل الفاسد بعد أربعين سنة ونشأ فيهم جيل جديد ممن كانوا أطفالا عند الخروج من مصر ومن ولد في التيه أمكن أن يعقلوا التوحيد والشرعية ، وأن يعملوا بها ، ويجاهدوا في سبيلها ، وانما كان ذلك بعد موت موسى عليه السلام

فأين بنو اسرائيل من أصحاب محمد ﷺ الذين تربوا بسماع القرآن وترتيله وتدبره في رسوخهم في الايمان ، وصبرهم على أذى المشركين واضطهادهم إياهم ليفتنوهم عن دينهم ، ثم في مجاهدتهم لهم عند الامكان بعد الهجرة ، ومجاهدة اعوانهم من أهل الكتاب (اليهود) وتطهيرهم الحجاز وسائر جزيرة العرب من كفر الفريقين في هذه ﷺ وقد كانت مدة البعثة المحمدية كلها عشرين سنة أي نصف مدة التيه ، وكان ذهب نصفها في الدعوة وتبليغ الدين للأفراد بمكة ، والنصف الآخر هو الذي تم فيه الانقلاب العربي من تشريع وتنفيذ وجهاد

ثم تأمل ما كان من تدفقهم هم انفسهم كالسيل الآتي على الاقطار من نواحي الجزيرة كلها ، والظهور على ملكي قيصر وكسرى أعظم ملوك الارض وإزالة الشرك والظلم منها ، ونشر التوحيد والحق والعدل فيها ، ودخول الامم في دين الله

أفواجا مختارين اهتداء بهم ، وعنايتهم بتعلم العربية بالتبع لعنايتهم بالدين ، حتى فتحواهم وتلاميذهم نصف كرة الارض في زهاء نصف قرن ، أو ثلاثة أرباعها في ثلاثة أرباعه و كانوا مضرب المثل في الرحمة والعدل وموضع الحيرة لعلماء الاجتماع وقواد الحرب

وأنى يبلغ الشعب الذي وصفه ربه في كتابه بالشعب الصلب الرقبة رتبة الذين وصفهم رب العالمين بقوله (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا) الآيات ، فكان عمر ابن الخطاب أمير المؤمنين الذي طمع وشب على الشدة والقسوة يطبخ الطعام هو وزوجه ليلا لامرأة فقيرة تلدوبعها حاضر لا يساعدهما اذ لم يكن يعلم انه أمير المؤمنين لاجرم أن سبب هذا كله تأثير القرآن بهذا الاسلوب الذي نراه في المصحف فقد كان النبي ﷺ يجاهد به الكافرين كما أمره الله بقوله (٢٥ : ٥٢ فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيرا) ثم كان به يربي المؤمنين ويزكيهم ، وبهدايته والتأسي بمبلغه ﷺ ربوا الامم وهذبوها ، ولعلها يقرؤه احد كما كانوا يقرءون ، إلا ويهتدي به كما كانوا يهتدون ، على تفاوت في الاستعداد النفسي واللفوي واختلاف الزمان لا يخفى . ولو كان القرآن بأسلوب الكتب العلمية والقوانين الوضعية لما كان له ذلك التأثير الذي غير ما بأفئس العرب فغيروا به أمم المعجم ، فكانوا كلهم كما وصفهم الله عز وجل بقوله (٣ : ١١٠ كنتم خيرا أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ، ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون)

ولم يكن عندهم شيء من العلم بسياسة الامم وإدارتها إلا هذا القرآن ، والاسوة الحسنة بمبلغه ومنفذه الاول عاياه الصلاة والسلام ، ولن يعود للمسلمين مجدهم وعزهم الا اذا عادوا الى هدايته ، وتجديد ثورته ، واعنه الله على من يصدونهم عنه زاعمين استغناءهم عن العمل به وبسنة مبيته ، يكتب مشايخهم الجافة الخاوية من كل ما يحجب الايمان وينهض الهمم ، ويزكي الانفس ويبعث على العمل

(فعل القرآن في أنفـس العرب المستعدة له نوعان)

بيان ذلك ان فعل القرآن في أنفـس العرب وإحداثه تلك الثورة الكبرى فيهم قد كان على نوعين أولهما جذبـه الناس الى الاسلام، وثانيهما تركيبتهم وتغيير كل ما كان بانفسهم من جهل وفساد الى ضده ، حتى اعقب ما أعقب من الاصلاح في العالم كله . وهاك التفصيل الذي يحتمله المقام لذلك

بينما مرادنا ان الله تعالى قد أعد الامة العربية ولا سيما قريش ومن حولها لما أرادهم من الاصلاح العام للبشر بكونهم كانوا اقرب الالم الى سلامة الفطرة، وأرقام لغة وأقوامهم استقلالاً في العقل والارادة، لمدم وجود ملوك مستبدين ورؤساء دين أولي سلطان روحي يتحكمون في عقائدهم وأفكارهم ويسخرونهم لشهواتهم فلما بعث فيهم محمد ﷺ بهذا القرآن الداعي الى الحق والى صراط مستقيم كانوا على أتم الاستعداد الفطري لقبول دعوته، ولكن رؤساء قريش كانوا على مقربة من ملوك شعوب المعجم في التمتع بالثروة الواسعة والعظمة الكاذبة والشهوات الفاتنة والسرف في الترف ، وعلى حظ مما كان عليه رؤساء الاديان فيها من المكانة الدينية بسدانتهم لبيت الله الحرام الذي أودع الله تعظيمه في القلوب من عهد ابراهيم واسماعيل - فرأوا ان هذا الدين يسلبهم الانفراد بهذه العظمة الموروثة، وقد يفضل عليهم بعض الفقراء والموالي ، وانه يحكم عليهم وعلى من يفاخرون بهم من آبائهم بالكفر والجهل والظلم والفسوق ويشبههم بسائئة الانعام - فوجهوا كل قواهم ونفوذهم الى صد محمد عن دعوته ولو بتمليكهم عليهم، وجعله أغنى رجل فيهم، ولكن تعذر إقناعه بالرجوع عنها بالترغيب ، حتى التمويل والتخليك ، فقد أجاب عنه ابا طالب لما عرض عليه ما أرادوه من ذلك بتلك الكلمة العليا « يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الامر حتى يظهره الله او أهلك فيه ما تركته » حينئذ أجمعوا أمرهم على صده عن تبليغها بالقوة ، والحيلولة بينه وبين جماهير الناس في الاسواق والمجامع والبيت الحرام ، وبصد الناس عنه أن يأتيه ويستمعوا له ، وباضطهاد من اتبعه بالدعوة الفردية ، الا أن يكون له من يحميه منهم لقراءة او

جوار او ذمة ، فهؤلاء الرؤساء المترفون المترفون المتكبرون كانوا أعلم الناس بصدق محمد وفيهم نزل قوله تعالى (فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) فقد كابروا الحق بغيا واستكبارا للحرص على رياستهم وشهواتهم ، وكانوا اجدر العرب بقبول دعوة القرآن (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً) كفرعون وقارون وهامان

فعل القرآن في مشركي العرب

قلنا ان فعل القرآن في انفس العرب كان على نوعين : فعله في المشركين ، وفعله في المؤمنين ، فالأول تأثير روعة بلاغته ودهشة نظمه وأسلوبه ، الجاذب لفهم دعوته والامان به ، اذ لا يخفى حسنها على أحد فهمها ، وكانوا يتفاوتون في هذا النوع تفاوتاً كبيراً لاختلاف درجاتهم في بلاغة اللغة وفهم المعاني العالية فهذا التأثير هو الذي أنطق الوليد بن المغيرة المخزومي بكلمته العالية فيه لابي جهل التي اعترف فيها بانه الحق الذي يعلو ولا يعلى ، والذي يحطم ما تحته ، (راجع ص ١٨٩) وكانت كلمة فائضة من نور عقله وصميم وجدانه ، وما استطاع أن يقول كلمة أخرى في الصدع عنه بعد إلحاح أبي جهل عليه باقتراحها إلا بتكلف لمكابرة عقله وجدانه ، وبعد أن فكر وقدر ، ونظر وعبس وبسر ، وأدبر واستكبر ، كما يعلم من سورة المدثر وسبب نزول قوله تعالى (ذرني ومن خلقت وحيداً) الآيات منها وهذا التأثير هو الذي كان يجذب رءوس أوثاك الجاحدين المعاندين ليلاً لاستماع تلاوة رسول الله ﷺ في بيته ، على ما كان من نهيم عنه ونأيه عنهم عنه ، وتواصيهم وتواسيهم لا يسمعون له ، ثم كانوا يتسللون فرادى مستخفين ، ويتلاقون في الطريق متلاومين ، وهذا التأثير هو الذي حملهم على منع أبي بكر الصديق (رض) من الصلاة والتلاوة في المسجد الحرام ليلاً لما كان لتلاوته وبكائه في الصلاة من التأثير الجاذب الى الاسلام ، وعللوا ذلك بانه يفتن عليهم نساءهم وأولادهم ، فاتخذ مسجداً له بفناء داره فطفق النساء والاولاد الناشئون ينسلون إلى بيته ليلاً لاستماع القرآن ، فتناه أشرف المشركين بان العلة لا تزال ، وانهم يخشون أن يغلبهم نساؤهم وأولادهم على الاسلام ، وكانوا الجأؤه إلى الهجرة فهاجر فلتي في طريقه ابن الدغنة سيد قومه

فسأله سبب هجرته فأخبره الخبر وهو يعرف فضائل أبي بكر من قبل الاسلام فاجارمه وأعادته إلى مكة بجواره ، فعاد إلى قراءته ، وعاد النساء والنسب الحديث إلى الاستماع له ، حتى اضطر المشركون ابن الدغنة إلى اقناعه بترك رفع صوته بالقرآن أو يرد عليه جواره ، فرد أبو بكر جواره اكتفاء بجوار الله تعالى ، وخبره هذا رواه البخاري في باب الهجرة وأوردناه بطوله في تفسير آية الغار (ص ٤٣٦ من الجزء العاشر) بل هذا التأثير هو الذي حملهم على صد النبي (ص) بالقوة عن تلاوة القرآن في البيت الحرام وفي أسواق الموسم ومجامعهم ، وعلى توصيهم بما حكاه الله تعالى عنهم في قوله (وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون) وقد أدرك هذا أحد فلاسفة فرنسة فذكر في كتاب له قول دعاة النصرانية إن محمداً لم يأت بآية على نبوته كآيات موسى وعيسى وقال في الرد عليهم : إن محمداً كان يقرأ القرآن خاشعاً أوها متألها فتفعل قراءته في جذب الناس إلى الايمان ما لم تفعله جميع آيات الانبياء الاولين (أقول) ولو كان القرآن ككتب القوانين المرتبة وكتب الفنون المبوبة ، لما كان لقليله وكثيره من التأثير ما كان لسوره المنزلة

كان كل ما يطلبه النبي ﷺ من قومه أن يمكنوه من تبليغ دعوة ربه بتلاوة القرآن على الناس . قال تعالى مخاطباً له (٦ : ١٩ قل أي شيء أكبر شهادة ؟ قل الله شهيد بيني وبينكم وأوحى إلي هذا القرآن لا أنذركم به ومن باغ) أي وأنذره كل من بلغه من غيركم من الناس . وقال في آخر سورة النحل (٢٧ : ٩١ إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرمها وله كل شيء وأمرت أن أكون من المسلمين (٩٢) وأن أتلو القرآن : فمن اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فقل إنما أنا نادم للنذرين (٩٣) وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها وما ربك بغافل عما تعملون) ان رؤساء قريش عرفوا من قوة جذب الناس إلى الاسلام بوقعه في أنفسهم ما لم يعرفه غيرهم ، وعرفوا أنه ليس للجمهور العرب مثل ما لهم من أسباب الجحود والسكرانة ، فقال لهم عمه أبو لهب من أول الامر : خذوا على يديه ، قبل أن تجتمع العرب عليه » ففعلوا . وكان من ثباته على بث الدعوة واحتمال الاذى ما أفضى بهم إلى الاضطهاد وأشد الايذاء له ولمن يؤمن به ، ثم اجماع الرأي على قتله ، حتى

ألجؤهم إلى الهجرة بعد الهجرة ثم صاروا يقاتلون في دار هجرته وما حولها، وينصره الله عليهم، إلى أن اضطروا إلى عقد الصلح معه في الحديبية سنة ست من الهجرة وكان أهم شروط الصلح السماح للمؤمنين بمخالطة المشركين الذي كان سبب سماعهم للقرآن ، ودخولهم بتأثيره في دين الله أفواجا، فكان انتشار الإسلام في أربع سنين بالإسلام والامان، أضعاف انتشاره في ست عشرة سنة من أول الإسلام

فعل القرآن في أنفوس المؤمنين

كان كل من يدخل في الإسلام قبل الهجرة يلقن ما نزل من القرآن - ليعبد الله بتلاوته - ويعلم الصلاة ولم يفرض في مكة من أركان الإسلام غيرها، فيرتل ما يحفظه في صلاته اقتداء بالنبي ﷺ إذ فرض الله عليه التهجيد بالليل من أول الإسلام قال تعالى في أول سورة الزمل - التي قيل إنها أول ما نزل بعد فترة الوحي وبعدها المدثر وقيل بالعكس - وتقدم الجمع بين الأقوال (يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلا * نصفه أو انقص منه قليلا * أورد عليه ورتل القرآن ترتيلا *) ثم قال في آخرها (إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرؤا ما تيسر من القرآن) أي في صلاة الليل وغيرها ، ثم ذكر الأعذار المانعة من قيام الليل كله ما كان منها في ذلك العهد كالمرض والسفر ، وما سيكون بعد سنين وهو القتال في سبيل الله ومما ورد في صفة الصحابة (رض) أن الذي كان يمر ببيوتهم ليلا يسمع منها مثل دوي النحل من تلاوة القرآن ، وقد غلب بعضهم فكان يقوم الليل كله حتى شكا منهم نساءهم فنهاهم النبي (ص) عن ذلك ، وكان هو يصلي في كل ليلة ثلاث عشرة ركعة يوتر بواحدة منهم ، وما قبلها مثني مثني ، وكان هو يطيل فيهن حتى تورمت قدماه من طول القيام فأنزل الله عليه مرقفها ومسلها (طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى)

فتربية الصحابة التي غيرت كل ما كان بأنفسهم من مفاسد الجاهلية وزكتها تلك التزكية التي أشرنا إليها آنفا وأحدثت أعظم ثورة روحية اجتماعية في التاريخ

إنما كانت بكثرة تلاوة القرآن في الصلاة وفي غير الصلاة وتدبره ، وربما كان احدهم يقوم الليلة بآية واحدة يكررها متدبراً لها ، وكانوا يقرؤنه مستلقين ومضطجعين كما وصفهم الله بقوله (الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم) وأعظم ذكر الله تلاوة كتابه المشتمل على ذكر أسمائه الحسنی وصفاته المقدسة وأحكامه وحكمه ، وسننه في خلقه وأفعاله في تدبير ملكه ، ولو كان القرآن ككتب القوانين والفنون لما كان لتلاوته كل ذلك التأثير في قلب الطباع ، وتغيير الاوضاع ، بل كانت تلاوته تمل فتيترك ، فأسلوب القرآن الذي وصفناه آنفاً من أعظم أنواع اعجازه اللغوي ، وتأثيره الروحي ، ومن ارتاب في هذا فلينظر في المسائل التي تشتمل عليها السورة منه وياحاول كتابتها نفسها أو مثلها بأسلوب تلك السورة ونظماً أو أسلوب سورة أخرى ، كالسور التي يتكرر فيها الموضوع الواحد بالاجمال الموجز تارة وبيعض التفصيل تارة وبالاطناب فيه أخرى ، - كاعتبار بقصص الرسل مع أقوامهم في سور المفصل (كالذاريات والقمر والحاقة) وفيما فوقها (كالؤمنون والشعراء والنمل) وفيما هو أطول منها (كالاعراف وهود) - ثم لينظر مايفضي اليه عجزه من السخرية

وقد بين بعض علماء الاجتماع في هذا العصر ان تكرار الدعوات الدينية والسياسية والاجتماعية هي التي تثير الجماعات وتدعهم إلى الانهماك والتفاني فيها دعاءً ، وما كان محمد ولا أحد من أهل عصره يعلمون هذا ، ولكن الله يعلم من طباع الجماعات والاقوام فوق مايلمه حكماء عصرنا وسائر الاعصار ، وإنما القرآن كلامه ، وليس فيه من التكرار ، الا ماله أكبر الشأن في انقلاب الافكار ، وتحويل مافي الانفس من العقائد والاخلاق إلى خير منها ، وهو ما لا يمكن احداث الانقلاب الاصلاحی بدونہ كما تعلم من التفصيل الآتي

﴿ مقاصد القرآن ، في ترقية نوع الانسان ، وما فيه من التكرار ﴾

ان مقاصد القرآن من اصلاح افراد البشر وجماعاتهم وأقوامهم وادخالهم في طور الرشده وتحقيق اخوتهم الانسانية ووحدهم وترقية عقولهم وتزكية أنفسهم منها مايفي بيانه لهم في الكتاب مرة أو مرتين أو مراراً قليلة ، ومنها ما لا تحصل

الغاية منه إلا بشكراره مرارا كثيرة لاجل أن يجتث من أعماق الانفس كل ما كان فيها من آثار الوراثة والتقاليد والعادات القبيحة الضارة ويفرس في مكانها أضدادها، ويتعاهد هذا الفرس بما ينميه حتى يؤتي أكله وينبع ثمره ، ومنها ما يجب أن يبدأ بها كاملة ، ومنها ما لا يمكن كماله إلا بالتدريج ، ومنها ما لا يمكن وجوده إلا في المستقبل فيوضع له بعض القواعد العامة ومنها ما يكفي فيه الفحوى والكناية والقرآن كتاب تربية عملية وتعليم لا كتاب تعليم فقط فلا يكفي أن يذكر فيه كل مسألة مرة واحدة واضحة تامة كالمعهود في كتب الفنون والقوانين ، وقد بين الله تعالى ذلك بقوله في موضوع البعثة المحمدية (هو الذي بعث في الاميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة) واننا نذكر هنا اصول هذه المقاصد كما وعدنا عند قولنا إن ما جاء به محمد (ص) هو أعلى وأكمل مما جاء به من قبله جميع الانبياء والحكماء والحكام فهو برهان على أنه من عند الله تعالى لا من فيض استمداده الشخصي ، واننا نقسم هذه المقاصد إلى أنواع ونبين حكمة القرآن ، وما امتاز به في كل نوع منها بالاجمال لان التفصيل لا يتم الا اذا يسر الله لنا ما وعدنا به من تفسير مقاصد القرآن كلها في أبواب نبين في كل باب منها وجه حاجة البشر الى ذلك المقصد وكون القرآن وفي بهذه الحاجة بما نأتي به من جملة آياته فيه

(النوع الاول من مقاصده الاصلاح الديني لاركان الدين الثلاثة)

ان أركان الدين الاساسية التي بعث بها جميع رسل الله تعالى وناط بها سعادة البشر هي الثلاثة المبينة بقوله (٢٢: ٢) ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) وهاك الكلام على كل منها بالايجاز

(الركن الاول للدين الايمان بالله تعالى)

فالركن الاول الاعظم من هذه الاركان - وهو الايمان بالله تعالى - قد ضل فيه جميع الاقوام والامم حتى اقربهم عهداً بهداية الرسل ، فاليهود جعلوا الله كالانسان يتعب ويندم على ما فعل كخلقه الانسان لانه لم يكن يعلم انه سيكون مثله ، « او مثل الآلهة » وزعموا انه كان يظهر في شكل الانسان حتى إنه صار ع اسرائيل ولم يقدر على التغلب منه حتى باركه فأطلقه ! وعبدوا ابعلا وغيره من الاصنام . والنصارى جددوا من عهد قسطنطين الوثنيات القديمة ، فغمر الشرك بالله هذه الارض بطوفانه ، ووطعت الوثنية على أهلها ، حتى صارت كنائس النصارى كلها كل الوثنية الاولى مملوءة بالصور والتماثيل المعبودة - على أن عقيدة التثايت والصلب والفداء هي عقيدة الهنود في كرشنة وثالوثه في جملتها وتفصيلها ، وهي مدعومة بفلسفة خيالية غير معقولة وبنظام يقوم بتنفيذ الملوك والقيصرة ، ويبدل في سبيله القناطير المتقطعة من الذهب والفضة ، ويربى عليه الاحداث من الصغر تربية وجدانية خيالية لا تقبل حجة ولا برهاناً ، فهذه معاقل هذه الوثنية وحصونها المشيدة في الافكار والقلوب ما كان ليتم باقامة برهان عقلي أو عدة براهين على توحيد الله عز وجل ، بل لا بد فيه من دحض الشبهات وتفصيل الحجج العقلية والعلمية والخطابية بالعبارة المختلفة وضرب الامثال ، لذلك كان أكثر المسائل تكراراً في القرآن مسألة توحيد الله عز وجل في ألوهيته بعبادته وحده ، واعتقاد أن كل ما سواه من الوجودات سواء في كونهم مدركاً وعبيداً له لا يمكن أن يكون من دونه نفعاً ولا ضراً لأحد ولا لانفسهم إلا فيما سخره من الاسباب المشتركة بين الخلق كما شرحناه مراراً .

وأما تكرار توحيد الربوبية وهو انفراده تعالى بالخلق والتقدير والتدبير والتشريع الديني فليس سببه كثرة المشركين بربوبيته تعالى ، بل سببه إقامة الحجة به على بطلان شرك العبادة بدعاء غير الله تعالى لأجل التقرب اليه بأولئك الاولياء وابتناء شفاعتهم عنده ، فشر الشرك وأعرقه في الكفروا أكثره في ضعف العقول انما هو توجه العبد إلى غير الله تعالى فيما يشعر بالحاجة اليه من كشف ضرر وجلب نفع من غير طريق الاسباب ، فقد ذكر الدعاء في القرآن أكثر من سبعين مرة ،

بل زهاء سبعين بعد سبعين مرة ، لأنه روح العبادة ونحها ، بل هو العبادة التي هي دين الفطرة كله ، وما عداه من العبادات فوضعي تشريعي
بعض آيات الدعاء أمر بدعائه تعالى ، وبعضها نهى عن دعاء غيره مطلقا ،
ومنها حجج على بطلان الشرك أو على إثبات التوحيد ، ومنها أمثال تصور كلا منهما
بالصور الثلاثة المؤثرة ، ومنها إخبار بأن دعاء غيره لا ينفع ولا يستجاب ، وإن
كل من يدعى من دونه تعالى فهو عبده ، وإن أفضلهم وخيارهم كالملائكة والأنبياء
يدعونه هو ويبتغون الوسيلة إليه ، ويرجون رحمته ويخافون عذابه ، وأنهم يوم القيامة
يكفرون بشرك الذين يدعونهم من دون الله أو مع الله - وأمثال ذلك مما يطول تلخيصه
ونم انواع أخرى من آيات الايمان بالله تعالى تغذي التوحيد وتصد بأهله
درجات متفاوتة في السمو بمعرفته تعالى والتأله والتوله في حبه من التنزيه والتقديس
والسبوح ، وذكر أسمائه الحسنى ممزوجة ببيان الاحكام الشرعية المختلفة حتى أحكام
الظهار والنساء والأرث والأموال ، وبحكم الخلق والتدبير لأمور العالم ، وسننه في طباع
البشر وفي شؤونهم الاجتماعية . ووضع كل اسم منها في الموضع المناسب له من رحمة
وعلم وحكمة وقدرة ومشئنة وحلم وعفو ومغفرة وحب ورضا وما يقابل ذلك ، ومن
الامر بالتوكل عليه والخوف منه والرجاء في فضله الخ وناهيك بما سرد منها سرداً
لجذب الارواح العالمة إلى كماله المطلق وفنائها فيه كما تراه في خاتمة سورة الحشر
فتأملها ، وفي فاتحة سورة الحديد (سبح لله ما في السموات والأرض وهو العزيز
الحكيم * هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم) ومنها استمد
الأولياء العارفون والأئمة الربانيون تلك الكتب العالمة في معرفته تعالى وأمرار
خلقه ، بعد أن تربوا بكثرة ذكره ، وتلاوة كتابه

بهذا التكرار الذي جملة أسلوب القرآن المعجز مقبولا غير مملول طهر الله
عقول العرب وقلوبهم من رجس الشرك وخرافات الوثنية ، وزكاها بالاخلاق
العالمة والفضائل السامية ، وكذا غير العرب ممن آمن بالله وأتقن لغة كتابه وصار
يرتله في عبادته ويتدبر آياته ، حتى إذا دب في الأمة ديب الجهل بلغة القرآن وقل
« تفسير القرآن الحكيم » « ٢٧ » « الجزء الحادي عشر »

٢١٠ اصلاح الاسلام الديني والمدني بالتوحيد والمعرفة واستقلال الفكر التفسير: ج ١

تدبره واعتمد المسلمون في فهم عقيدتهم على الكتب الكلامية المصنفة ضعف التوحيد وانبعوا سنن من قبلهم شبراً بشبر وذراعاً بذراع اعتقاداً وعملاً ، وتأولوا وجدلاً ، فصار أدعياء العلم يتأولون تلك الآيات الكثيرة على التوحيد بشبهاتهم وأهوائهم كما هو مشاهد ومعلوم

على أن بعض المتكلمين والصوفية قد بالغوا في التوحيد حتى أنكر بعضهم تأثير الاسباب في مسبباتها ، وقال بعضهم بوحدة الوجود ، وانتهى بهم ذلك الى بدعة الجبر التي أفسدت على أهلها كل شيء ، بيد أن الاولين منهم كانوا يقولون بما يهتديهم اليه النظر العقلي ، أو رياضة النفس وما تشمره من الشعور للوجداني ، ثم خلف من بعدهم خلف من المقلدين لاحظ لهم من القرآن ولأمن البرهان ولا من الوجدان ، وإنما يتبعون العوام ويتأولون لهم بكلام أمثالهم من النصفين الجاهلين . ولو فقهوا أقصر سورة في التوحيد والتنزيه كما يجب - وهي سورة الاخلاص - لما وجد الشرك الى أنفسهم سبيلاً

قد كان توحيد المسلمين الاولين لله ومعرفتهم به وحبهم له وتوكلهم عليه هو الذي زكى أنفسهم ، وأعلى هممهم ، وكأهم بعزة النفس ، وشدة البأس ، وإقامة الحق والعدل ، ومكنتهم من فتح البلاد وسياسة الامم ، واعتاقها من رق الكهنة والاحبار والرهبان والبوذات والموبذانات الروحي والعقلي ، وتحريرهم من ظلم الملوك واستبدادهم ، وإقامة دعائم الحضارة ، وإحياء العلوم والفنون المنيّة وترقيتها فيهم ، وقد تم لهم من كل ذلك ما لم يقع مثله ولا ما يقاربه لأمة من امم الارض ، حتى قال الدكتور غوستاف لوبون المؤرخ الاجتماعي الشهير : ان ملكة الفنون لم يتم تكوينها لأمة من الامم الناهضة إلا في ثلاثة أجيال ، أوهاجيل التقليد وثانيها جيل الحضرة وثالثها جيل الاستقلال والاجتهاد - قال : إلا العرب وحدهم فقد استحكت لهم ملكة الفنون في الجيل الاول الذي بدؤوا فيه بمزاولتها

وأقول ان سبب ذلك تربية القرآن لهم على استقلال العقل والفكر واحتقار التقليد ، وتوطين انفسهم على إمامة البشر وقيادتها في أمور الدين والدنيا معاً ، وقد خفي كل هذا على سلائهم بعد ذهاب الخلافة الاسلامية وزوال النهضة العربية

وتحول السلطان الى الاعاجم الذين لم يكن لهم من الاسلام الا الظواهر التقليدية المنفصلة عن هداية القرآن

﴿ الركن الثاني من اركان الدين عقيدة البعث والجزاء ﴾

وأما الركن الثاني وهو الايمان باليوم الآخر وما يكون فيه من البعث والحساب والجزاء على الاعمال، فقد كان جل مشركي العرب ينكرونه اشد الانكار، ولا يكمل الايمان بالله تعالى ويكون باعثاً للامة على العمل الصالح وترك الفواحش والمنكرات والبغي والمدوان بدونه ، وكان أهل الكتاب وغيرهم من الملل التي كان لها كتب وتشريع ديني ومدني ثم فقدت كتبهم أو حرفت واستحوذت عليهم الوثنية يؤمنون بحياة بعد الموت وجزاء على الاعمال ، ولكن ايمانهم هذا قد شاب به الفساد ببذائعه على بدع ذهبت بجمل فائده في إصلاح الناس ، وأساسها عند الهنود وغيرهم من قدماء الوثنيين وخلف النصراني وجود المخلص الغادي الذي يخلص الناس من عقوبة الخطايا ويغديهم بنفسه ، وهو الاقنوم الثاني من الثالوث الالهي الذي هو عين الاول والثالث ، وكل واحد منهما عين الآخر . وكل ما يقوله النصراني في فداء المسيح للبشر وغير ذلك فهو نسخة مطابقة لما يقوله الهنود في كرشنه في اللفظ والفحوى كما تقدم ، لا يختلفان إلا في الاسمين كرشنه ويسوع .

وأما اليهود فكل ديانتهم خاصة بشعب اسرائيل ومحاياة الله تعالى له على سائر الشعوب في الدنيا والآخرة ويسمونه إله اسرائيل كأنه ربهم وحدهم لا رب العالمين ، وديانتهم أقرب إلى المادية منها إلى الروحية ، فكان فساد الايمان بهذا الركن من أركان الدين تابعاً لفساد الركن الاول وهو الايمان بالله تعالى ومعرفة ومحتاجا إلى الاصلاح مثله

جاء القرآن للبشر بهذا الاصلاح، فقد أعاد دين النبيين في الجزاء إلى أصله المعقول وهو ما كرم الله تعالى به الانسان من جعل سعادته وشقاؤه منوطين بايمانه

وعمله ، اللذين هما من كسبه وسعيه لا من عمل غيره ، وان الجزء على الكفر والمعاصي يكون بعدل الله تعالى بين جميع خلقه بدون محاباة شعب على شعب ، والجزء على الايمان والاعمال الصالحة يكون بمقتضى الفضل ، فالحسنة بعشر أمثالها وقد يضاعفها الله تعالى أضعافا كثيرة

ومدار كل ذلك قاعدة قوله تعالى (ونفس وما سواها * فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها) أي إن الله الذي خلق هذه النفس وسواها بما وهبها من المشاعر والعقل ، قد جعلها بالهام الفطرة والغريزة مستعدة للفجور الذي يرد بها ويدسها ، والتقوى التي تنجيها وتعليها ، ومتمكنة من كل منها بإرادتها ، والترجيح بين خواطرها ومطالبها ، ومنحها العقل والدين يرجحان الحق والخير على الباطل والشر ، فبقدر طهارة النفس وأثر تزيينها بالايمان ومكارم الاخلاق ومحاسن الاعمال يكون ارتقاؤها في الدنيا وفي الآخرة ، والضد بالضد . فالجزء أثر طبيعي للعمل النفسي والبدني الذي يزكي النفس او يدسها ويدنسها ، وهذا هو الحق الذي يثبت من عرف حقيقة الانسان ، وحكمة الديان ، وهو مما أصلحه القرآن من تعاليم الاديان

فاذا علمت ما كان من انكار مشركي العرب للبعث والجزء ، ومن فساد ايمان أهل الكتاب وسائر الملل في هذه العقيدة ، وعلمت أنها مكمله للايمان بالله تعالى ، وان تذكرها هو الذي يقوي الوازع النفسي الذي يصد الانسان عن الباطل والشر والظلم والبغي ، ويرغبه في التزام الحق والخير وعمل البر - علمت أن ذلك ما كان ليفعل فعله العاجل في شعب كبير الا بتكراره في القرآن بالاساليب العجيبة التي فيه من حسن البيان ، وتقريب البعيد من الازهار ، تارة بالحجة والبرهان ، وتارة بضرب الامثال ، وقد تكرر في آيات بينات ، لعلها تبلغ المثات ، ومن اعجازه انها لا تمل ولا تسأم الايمان بالبعث والجزء وهو الركن الثاني في جميع الاديان ، من لوازم الركن الأول وهو الايمان بالله المتصف بجميع صفات الكمال ، المنزه عن العبث في أفعاله وأحكامه ، ولهذا كان من أظهر أدلة القرآن عليه قوله (أحسبتم أنما خلقناكم عبثاً

وأنكم إلينا لا ترجعون) وقوله (أبحسب الانسان أن يترك سدى * ألم يك نطفة من مني بمنى * ثم كان علقة فخلق فسوى * فجعل منه الزوجين الذكر والانثى * أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى) فكفر الانسان بهذا الركن من أركان الايمان يستلزم كفره بحكمة ربه وعدله في خلقه ، وكفره بنعمته بخلقه في أحسن تقويم ، وتفضيله على أهل عالمه (الارض) حيث سخرها وكل ما فيها لمنافعه ، وعلى كثير ممن خلق في عالم الغيب الذي وعده بمصيره اليه ، وجهله بما وهبه من المشاعر والقوى والعقل ، وجهله بحكمته في خلقه مستعداً لما ليس له حد ونهاية من العلم ، الدال على انه خلق حياة لا حد لها ولا نهاية ، - ومن لوازم هذا الكفر والجهل كانه ، احتقاره لنفسه باعتقاده انه خلق عبثاً لا لحكمة بالغة ، وأن وجوده في الارض موقوف محدود بهذا العمر القصير المنقصر بالهموم والمصائب والظلم والبغي والآثام ، وانه يترك سدى لا يجزى كل ظالم من افراد بظلمه ، وكل عادل بمداه وفضله ، واذا كان هذا الجزاء غير مطرد في الدنيا لجميع الافراد ، تعين ان يكون جزاء الآخرة هو المظهر الاكبر للمعدل العام

ومما جاء في القرآن مخالفاً لما عند النصارى من عقيدة البعث والجزاء ان الانسان في الحياة الآخرة يكون انساناً كما كان في الدنيا إلا أن أصحاب الأنفس الزكية والارواح العالية يكونون أكمل أرواحاً وأجساداً مما كانوا بنزكية أنفسهم في الدنيا ، وأصحاب الأنفس الخبيثة والارواح السافلة يكونون ناقصين وأخبث مما كانوا بتدسية أنفسهم في الدنيا ، ويعلم مما ثبت عن قدماء المصريين وغيرهم من الأقدمين أن الأديان القديمة كانت تعلم الناس عقيدة البعث بالروح والجسد

ولو كان البعث للارواح وحدها لنقص من ملكوت الله تعالى هذا النوع الكريم المكرم من الخلق المؤلف من روح وجسد ، فهو يدرك الذات الروحية والذات الجثمانية ويتحقق بحكم الله (جمع حكمه) وأسرار صنعه فيها معاً ، من حيث حرم الحيوان والنبات من الاولى والملائكة من الثانية ، وما جنح من جنح من اصحاب النظريات الفلسفية إلى البعث الروحاني المجرد إلا لاحتقارهم للذات الجسدية

وتسميتها بالحيوانية مع شغف أكثرهم بها ، وإنما تكون نقصاً في الانسان إذا سخر عقله وقواه لها وحدها حتى يصرفه اشتغاله بها عن اللذات العقلية والروحية بالعلم والعرفان - وأصل هذا الافراط والتفريط غلو الهنود في احتقار الجسد وتربية النفس بالرياضة وتعذيب الجسد وتبعهم فيه نساك النصارى كما تبعوهم في عقيدة الصلب والفداء والتثليث على أنهم نقلوا ان المسيح عليه السلام شرب الخمر مع تلاميذه لما ودعهم في الفصح وقال لهم : أني من الآن لا أشرب من نتاج الكرمة هذا الى ذلك اليوم حينما أشربه معكم جديداً في ملكوت أبي . (متى ٢٦ : ٢٩) وجرى اليهود على عكس ذلك . وجاء الاسلام بالاعتدال فأعطى الانسان جميع حقوقه ، وطالبه بما يكون بها كاملاً في إنسانيته . وقد بينا كل ما يتعلق بهذه المسألة من جميع أطرافها العلمية والدينية وكشف شبهاتها في تفسير سورة الانعام التي هي اجمع سور القرآن لمسائل الايمان بالله وتوحيده والبعث والرسالة ودحض شبهات المشركين عليها (ص ٤٧٠ - ٤٨١ ج ٨ تفسير) ويؤخذ مما ورد من الآيات والاحاديث النبوية من صفة حياة الآخرة ان القوى الروحية تكون هي الغالبة والمتصرفة في الاجساد فتكون قادرة على التشكل بالصور الماطيفة وقطع المسافات البعيدة في المدة القريبة ، والتخاطب بالكلام بين اهل الجنة وأهل النار — وان ترقى البشر في علم الكيمياء وخواص السكرباء والصناعات والآلات في عصرنا قد قرب كل هذا من حس الانسان بعد أن كان الماديون الملحدون يعدون مثل قوله تعالى (٧ : ٤٤) ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ قالوا نعم فأذن مؤذن بينهم : ان لعنة الله على الظالمين) من تخيلات محمد صلوات الله وسلامه عليه - وهانحن أولاء نخاطب من مصر اهل عواصم اوربة بآلة التليفون ، ونسمع خطبهم ومعارفهم بآلة الراديو ، وسنراهم ويرونا بآلة التليفزيون مع التخاطب حينما يعم انتشارها وأما علماء الروح من الافرنج وغيرهم فقد قرروا ان الارواح البشرية قادرة على التشكل في أجساد تأخذها من مادة الكون كما يقول الصوفية . وهذه مسألة او مسائل قد شرحتها من قبل في هذا التفسير وانما نذكرها هنا بالاجمال ردّاً على من زعموا ان القرآن مستمد من كتب اليهود والنصارى ومن عقل محمد ﷺ وإلهاماته الروحية

ويناسب هذا ما جاء في القرآن من نبأ خراب العالم وقيام الساعة التي هي بدء ما يجب الايمان به من عقيدة البعث والجزاء ولم يوجد له اصل عند اهل الكتاب ولا غيرهم ولا هو مما يمكن أن يكون قد عرفه محمد ﷺ بذلك أو نظرياته العقلية. وجملة ان قارعة.. والظاهر انها كوكب - تفرع الارض وتصخرها صخا وترجها رجا فتكون هباء (غباراً رقيقاً) منبثاً في الفضاء . وحينئذ يختل ما يسمى في عرف العلماء بالجازبية العامة فتتناثر الكواكب الخ وهذا المعنى لم يكن يخطر ببال احد من علماء الكون ولا من علماء الدين فلا يمكن أن يقال ان محمداً ﷺ سمعه من احد في بلده او في سفره ، ولا يعقل أن يكون قاله برأيه وفكره، فهو من أنباء القرآن الكثيرة التي تدحض زعم القائلين بالوحي النفسي . وقد صرح غير واحد من علماء الهيئة الفلكية المعاصرين بأن خراب العالم بهذا السبب هو أقرب النظريات العلمية لخرابه

(الركن الثالث للدين العمل الصالح)

وأما الركن الثالث من مقاصد بعثة الرسل وهو العمل الصالح فهو مكرر في القرآن في سور كثيرة لاصلاح ما أفسده البشر فيه بجعله تقليدياً غير مزك للنفس ولا مصلح لشؤون الاجتماع ، ولكن دون تكرار توحيد الله وتقديسه الذي هو الاصل الذي يتبعه غيره، ولولا الحاجة الى هذا التكرار في التذكير والتأثير لكانت سورة العصر كافية في الاصلاح العلمي العملي على قصرها ، كسورة الاخلاص في الركن الاول الاعتقادي ، وكل منهما تكتب في سطر واحد فهما من معجزات ايجاز القرآن وهدايته

ثم ان العمل الصالح من لوازم الايمان بالله في الدرجة الاولى لأن من عرف الله عرف استحقة افعاله للحمد والشكر والعبادة والحب والتعظيم ، وهو من لوازم الايمان بالجزاء على الاعمال في الدرجة الثانية خوفاً من العقاب ورجاء في الثواب

وبدخل في الاعمال الصالحة العبادات التي يتقرب بها إلى الله تعالى ، وسائر أعمال البر التي يرضيه بما لها من التأثير في صلاح البشر كبر الوالدين وصلة الرحم واكرام اليتامى والساكنين . ومن أصوله الوصايا الجامعة في آيات سورة الاسراء

٢١٦ سنة القرآن في الارشاد إلى الاعمال الصالحة وتكراره التفسير : ج ١١

(١٧ : ٢٣ وقضى ربك - الى قوله - ٣٩ ذلك مما أوحى اليك ربك من الحكمة) الخ وهي اجمع واعظم من الوصايا العشر التي في التوراة . وآيات سورة الانعام (١٥١ : ٦) قل تعالوا اتل ما حرم ربكم عليكم) الخ - وغير ذلك مما ينفع الناس من الحث على الفضائل والزجر عن الرذائل والمعاصي الضارة بالابدان والاموال والاعراض والعقول والاديان ، ومثارها الاكبر اتباع الهوى وطاعة وسوسة الشيطان . ويضادهما ملكة التقوى فهي اسم جامع لما بقي النفس من كل ما يدنسها وتسوء به عاقبتها في الدنيا او الآخرة ، ولهذا تذكر في المسائل الدينية والزوجية والحربية وغيرها ، وقد فصلنا هذا في (ص ٦٤٨ ج ٩ تفسير) ولا حاجة الى التطويل بالشواهد على ما في القرآن منها وسنة القرآن في الارشاد إلى الاعمال الصالحة بيان أصولها ومجامعها وتكرار التذكير بها بالاجمال ، وأكثر ما يبحث عليه من العبادات الصلاة التي هي العبادة الروحية العليا والاجتماعية المثلى ، والزكاة التي هي العبادة المالية الاجتماعية الكبرى ، كرر الامر بهما في آيات كثيرة وبين أهم منافعهما بقوله (ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر) وقوله (ان الانسان خلق هـلوعا * إذا مسه الشر جزوعا * وإذا مسه الخير منوعا * إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون * والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم * والذين يصدقون بيوم الدين) الآيات وقوله (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكهم بها)

ولم يكرر ما يحفظ بالعمل والافتداء بالرسول من أحكام الصلاة والزكاة والصيام والحج بل لم يذكر منها إلا لما ذكره فائدة خاصة . وذكرت فيه احكام الصيام في موضع واحد ، ولم يذكر فيه عدد الركعات في كل صلاة ولا عدد الركوع والسجود ، ولا نصاب الزكاة في كل نوع مما تجب فيه . لان كل هذا يؤخذ من بيان الرسول ويحفظ بالعمل وليس في ذكره تزكية للنفس ولا تغذية للامان

ترجيح فضائل القرآن على فضائل الانجيل

واذكر فضيلتين من فضائله يزعم النصراني أن ماهو ماثور عندهم فيها أكل وأفضل مما جاء به الاسلام (الاولى) قول المسيح عليه السلام : أحبوا أعداءكم باركوا لاعنيكم . أحسنوا إلى من أساء اليكم . ومن ضربك على خدك الايمن

فأدركه الايسر » ومن المعلوم بالبداهة أن امثال هذه الاوامر يتعذر على غير الاذلة المستعبدين من الناس، وأنه قد يكون من أكبر المقاسد باغراء الاقوياء بالضعفاء الخاضعين ، وانك لتجد أعصى الناس لها من يسمون أنفسهم بالمسيحيين أمثال هذه الاوامر لاتأتي في دين الفطرة العام لان امثالها من غير المستطاع، والله تعالى يقول (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) وإنما قرر القرآن في موضوعها الجمع بين العدل والفضل والمصلحة . قال تعالى (٤٢ . ٤٠) وجزاء سيئة سيئة مثله . فمن عفا وأصلح فأجره على الله انه لا يحب الظالمين (٤١) ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل (٤٢) إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبنفون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم (٤٣) ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الامور) ولا يخفى ان العفو والمغفرة للمسيء إنما تكون من القادر على الانتصار لنفسه ، وبذلك يظهر فضله على من عفا عنه ، فيكون سبباً لاستبدال المودة بالعداوة ، في مكان الاغراء بالتمعدي ودوام الظلم ، ولذلك قال (٤١ : ٢٤) ولا تستوي الحسنة ولا السيئة . ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم (٢٥) وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم) فانظر كيف بين مراتب السكالم ودرجاته من العدل والفضل ، وكيف استدل عليه بما فيه من المصلحة وحكم العقل ، أفليس هذا الاصلاح الاعلى على لسان أفضل النبيين والمرشدين ، دليلاً على أنه وحي من الله تعالى قد أكمل به الدين ؟ بلى وأنا على ذلك من الشاهدين ، ولا يجحده إلا من سفه نفسه فكان من الجاهلين

(الثانية) مباغاة المسيح عليه السلام في التزهيد في الدنيا والامر بتركها ودم الغنى حتى جعل دخول الجمل في ثقب الابرة أيسر من دخول الغنى ملكوت السماوات . ونقول ان هذه المسألة وسابقتها إنما كانتا اصلاحاً مؤقتاً لاسراف اليهود وغلوهم في عبادة المال حتى أفسد أخلاقهم وآثروا دنياهم على دينهم . والغلو يقاوم مؤقتاً بضده ، وكذلك كانت دولة الرومان السالبة لاستقلال اليهود وغيرهم دولة مسرفة في الظلم والعدوان وأما الاسلام فهو دين البشر العام الدائم فلا يقرر فيه إلا ما هو لمصلحة الناس . كلهم في دينهم ودنياهم . وهو في هذه المسألة ذم استعمال المال فيما يضر من الاسراف

٢١٨ حكم الاسلام في الغنى والمال وإصلاحه لأصول الدين الثلاث التفسير: ج ١١

والضعفاء ، وذم أكله بالباطل ومنع الحقوق المفروضة فيه والبخل به عن الفقراء والضعفاء - ومدح أخذه بحقه وبذله في حقه ، وانفاقه في سبيل الله بما ينفع الناس ويمزق الملة ويقوي الامة ، ويكون عوناً لها على حفظ حقيقتها واستقلالها - فهذه المسألة وما قبلها مما أكل الله تعالى به الدين ، نبأ أوحاه من كتابه إلى محمد رسول الله وخاتم النبيين ، وما كان لرجل أمي ولا متعلم أن يصل بعقله إلى أمثال هذا الإصلاح لتعاليم الكتب السماوية التي يتعبد بها الملايين من البشر ، والكتب الحكماء والفلاسفة أيضاً ، فمهل الاقرب إلى العقل أن يكون بوحى من الله عز وجل أم من نفس محمد (ص) وعلى ذكر الفلاسفة أذكر شبهة لمقلداتهم على الفضائل وعمل الخير الدينية يلو كونها بالسنتهم ولا يعقلون فسادها ، وهي أن الكمال البشري أن يعمل الانسان الخير لذاته أو لانه خير لا لعله ، ويعدون من أكبر العاقل أن يعمل رجاء في ثواب الآخرة أو خوفاً من عقابها ، ومعنى هذا ان كانوا يفقهون ان من يقصد بعمل الخير والبر ما أرشد اليه الاسلام من تزكية نفسه وترقية روحه بحيث تكون راضية مرضية عند رب العالمين ذي الكمال المطلق الاعلى — وأهلاً لجوارحه في دار كرامته يكون ناقصاً ، وإنما يكون كاملاً اذا خرج عن طبعه ، وقصد النفع بعمله اغيره دون نفسه ، ودون ارضاء ربه ، ومن ذا الذي يحمد حقيقة هذا الخير للبشر ويحميهم عليه ؟

وجملة القول أن أركان الدين الثلاثة مأثورة عن جميع الامم القديمة وذلك دليل على أن اصلها واحد وهو الوحي وهداية الرسل ، وأنه كان قد دب اليها الفساد بتعاليم الوثنية وبدعها ، فجاء محمد النبي الامي بهذا القرآن من عند الله تعالى فأصلح ما كان من فسادها الذي جعلها غير كفلة لسعادة البشر الآخذين بها ، من شوب الايمان بالله بالشرك والتشبيه بالخلق ، وجعل الجزاء بالمحابة والفداء ، لا بالحق والعدل ، وجعل العبادات تقاليد كاللعب واللهو ، غير مشمرة لتزكية النفس ، ولا راجحة في ميزان العقل ، وعبادات الاسلام وآدابه كلها معقولة مكاملة لفطرة الانسان وإنا نقفي على هذا ببيان القرآن لما جهله البشر من أمر النبوة ووظائف الرسل . ثم نعود إلى بيان ما في وحي القرآن من قواعد الإصلاح العام الدائم للبشر الدال على كونه من عند الله لا من معارف محمد (ص) النابعة من نفسه

المقصد الثاني من مقاصد القرآن

﴿ بيان ما جهل البشر من أمر النبوة والرسالة ووظائف الرسل ﴾

كانت العرب تنكر الوحي والرسالة إلا أفراداً من بقايا الحنفاء في الحجاز وغيره ومن دخل في اليهودية والنصرانية لمجاورته لأهلها وقليل ما هم ، وكانت شبهة مشركي العرب وغيرهم على الوحي استبعاد اختصاص الله تعالى ببعض البشر بهذا التفضيل على سائرهم ، وهم متساوون في الصفات البشرية بزعمهم ، ويقرب منهم اليهود الذين أنكروا أن يختص تعالى بهذه الرحمة والمنة من يشاء من عباده وأوجبوا عليه أن يحصر النبوة في شعب إسرائيل وحده ، كأن بقية البشر ليسوا من عباده الذين يستحقون من رحمته وفضله ما اعطاه لليهود من هداية النبوة . على أنهم وصفوا الأنبياء بالكذب والخداع والاحتيال على الله ومصارعته وارتكاب كبائر المعاصي كما تقدم في القسم الأول من هذا البحث ، ووافقهم النصارى على حصر النبوة فيهم ، وأثبتوا قداسة غير الأنبياء من رسل المسيح وغيرهم وعبودهم أيضاً ، على أنهم نقلوا عن بعض خواص تلاميذه إنكاره إياه في وقت الشدة ، وعن بعضهم أنه أسلمه لأعدائه ، وأنه قال لهم « كلكم تشكون فيّ في هذه الليلة » واتخذ كل من الفريقين أحبارهم ورهبانهم وقسوسهم أرباباً من دون الله تعالى بأن نحلهم حق التشريع الديني من وضع العبادات والتحليل والتحرير (١) وكل ذلك من الكفر بالله وإنكار عدله ، وعموم رحمته وفضله ، ومفسدات نوع الإنسان ، وجعل السواد الأعظم منه مستعبداً لأفراد من أبناء جنسه ، فأبطل الله تعالى كل ذلك بما أنزله من كتابه على خاتم النبيين ، وأثبت بعثة الرسل والمنذرين لجميع شعوبه بقوله (٣٦ : ١٦) « لقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة » وقوله (٢٤ : ٣٥) « إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً » وإن من أمة إلا خلا فيها نذير) وكرم الإنسان بجعل التشريع الديني

من حقوق الله وحده ، وانما النبيون والرسول مبالغون عنه وليسوا بمسيطرين على الاقوام ، وطاعتهم تابعة لطاعته فقد أبطل ما تحلهم الناس من ربوبية التشريع ، كما أبطل عبادتهم وعبادة من دونهم من القديسين ، وبذلك تحرر الانسان من الرق الروحي والعقلي الذي منيت به الامم المتدينة ولا سيما النصارى

ولضلال جميع أهل الملل والنحل في ذلك كرر هذا الاصلاح في كثير من السور بالتصريح بان الرسل بشر مثل سائر البشر يوحى اليهم ، وبانهم ليسوا إلا مبلغيين لدين الله تعالى الموحى اليهم ، قال تعالى نخاتمهم المكمل لدينهم في خاتمة سورة الكهف (١٨ : ١١٠) قل انما انا بشر مثلكم يوحى الي انما اهلكم به واحد) الآية وقال في جملتهم من وسطها (٥٦ وما نرسل المرسلين الا مبشرين ومنذرين) ومثلها في سورة الانعام (٦ : ٤٨) وفي معناها آيات أخرى - بعثهم مبشرين ومنذرين بالقول والعمل والتنفيذ ، وبانهم لا يملكون للناس ولا لانفسهم نفعا ولا ضرا ولا هداية ولا نجاة من العقاب على مخالفة شرع الله وسنته في خلقه في الدنيا ولا في الآخرة . وقد شرحنا ذلك في تفسير قوله تعالى (٧ : ١٨٧) قل لا املك لنفسي نفعا ولا ضرا الا ماشاء الله ولو كنت اعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء . إن انا الا نذير وبشير لقوم يؤمنون) وسيأتي نظيرها في الآية ٤٩ من هذه السورة التي نفسرها ، وقد بين ذلك النبي ﷺ باقواله وأعماله وأخلاقه في العبودية والتواضع بما لا يدع لنا ويل الآيات سبيلا . حتى فطن لذلك بعض علماء الافرنج الاحرار فقال ان محمداً لما رأى خزي النصارى بتأليه نبيهم وعبادته لم يكتفه بتلقيب نفسه برسول الله حتى أمرهم بان يقولوا « أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله »

وأما مسألة الشفاعة التي كان مشركو العرب يثبتونها لمعبوداتهم في الدنيا وأهل الكتاب يثبتونها لأنبيائهم وقديسيهم في الدنيا والآخرة فقد نفاها القرآن وأبطلها وأثبت أن الشفاعة لله جميعا وانه لا يشفع عنده أحد إلا بأذنه (٢٨ : ٢١) يعلم

يونس: س ١٠ الايمان بجميع الرسل وكون الكفر ببعضهم كفر بكلهم ٢٢١

ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون (٢٩) ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم ، كذلك نجزي الظالمين) وقد فصلنا ذلك في تفسير سورة البقرة وغيره مرارا (ومنه ان الشفاعة الثابتة في الاحاديث غير الشفاعة الوثنية المنفية في القرآن) . وقد كور هذه المسألة دون تكرار ما قبلها لانها فرع لها فلا قناع بها أسهل

فأنت ترى ان القرآن قد بين حقيقة هذه المسألة التي ضل فيها الملايين من البشر فأشركوا بالله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ، فهل كان هذا مما استمده محمد ﷺ من علماء اهل الكتاب فجادوا به عليه وبخلوا به على اقوامهم ؟ أم هو تابع من نفسه وهو يقتضي ان ما ينبع منها اعلى من وحي الله لغيره على حسب دعوى أتباع هؤلاء الرسل ؟ كلا إنما هي من وحي الله تعالى له

الايمان بجميع الرسل وعدم التفرقة بينهم

ومما بينه القرآن في مسألة الانبياء والرسل أنه يجب الايمان بجميع رسل الله تعالى وعدم التفرقة بينهم في الايمان ، وان الايمان ببعضهم والكفر ببعض كالكفر بهم كلهم ، لان اضافتهم الى الله تعالى وحده ووظيفتهم في ارشاد المكلفين تبليغ رسالته وشرعه واحدة . قال تعالى في خواتيم سورة البقرة (آمن الرسول بما انزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله . لا نفرق بين احد من رسله) وبين في سورة النساء أن التفرقة بينهم في الايمان هو الكفر حق الكفر ، وأن الايمان بالجميع بغير تفرقة هو الايمان حق الايمان وهو في الآيات (٤ : ١٥٠ - ١٥٢) وهذا مبني على الايمان بان دين الله تعالى الذي ارسل به جميع رسله واحد في مقاصده من هداية البشر واصلاحهم وإعدادهم لسعادة الدنيا والاخرة ، وانما تختلف صور العبادات والشرائع باختلاف استعداد الاقوام ومقتضيات الزمان والمكان . فالايمان ببعضهم دون بعض اتباع للهوى في الايمان وجهل بحقيقة الدين فلا يعتد به لانه عين الكفر

وقد انفرد بهذه الحقيقة العادلة المسلمون دون اهل الكتاب الذين لا يؤمنون إلا بالانبياء بني اسرائيل وابيهم وجدهم على ما يذكرون في كتبهم من عيوب ومنكرات وفواحش يرمونها بها

واما المسلمون فيؤمنون بان رب العالمين ارسل في كل الامم رسلا هادين مهدين يؤمنون بهم اجمالا وبما قصه القرآن عن بعضهم تفصيلا، فقد كرم الاسلام بهذا نوع الانسان، ومهد به السبيل للالفة والاخوة الانسانية العامة التي نبينها بعد ومن المعلوم ببداهة العقل وبنص القرآن ان بعض الانبياء افضل من بعض بتخصيص الله تعالى وبما كان لكل من نفع العباد وهدايتهم وهي متفاوتة جدا . قال الله تعالى (٢٥٢:٢) تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات ، وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه برح القدس) ومن المعلوم بالدلائل العقلية والنقلية ان محمدا خاتم النبيين الذي اكمل الله به الدين، وارسله رحمة للعالمين، هو الذي رفعه الله عليهم كلهم درجات كما بيناه في تفسير تلك الآية بالاجمال وفصائله في هذا البحث أقصد التفصيل

وانك لتجد مع هذا انه ﷺ قال لا تبعه « لا تفضلوا بين انبياء الله » قاله انكارا على رجل من المسلمين لطم يهوديا لانه قال : لا والذي اصطفى موسى على البشر . فشكاه الى النبي ﷺ فغضب غضبا شديدا على صاحبه المسلم وقاله - وبين مزية لموسى عليهما الصلاة والسلام في الآخرة ثم قال « ولا اقول ان احدا افضل من يونس ابن متى » والحديث رواه الشيخان في الصحيحين . وفي روايات أخرى للبخاري « لا تخيروا بين الانبياء » وفي بعضها « لا تخيروني على موسى » والغرض من ذلك كله منع المسلمين من تنقيص احد من الانبياء عليهم السلام ومن التعادي بين الناس ومن الغلو فيه ﷺ والا فهو قد قال في تعاليل نهيه عن سؤال اهل الكتاب عن شيء ، « والله لو كان موسى حيا بين اظهر كم ماحل له الا أن يتبعني » رواه ابو يعلى من حديث جابر

فصل في الايات الكونية التي ايد الله بها رسوله

(وما يشبه بعضها من الكرامات ، وما يشبه بها من خوارق العادات ،

وضلال الماديين والخرافيين فيها)

تكلمنا في القسم الأول من هذا البحث في آيات الانبياء التي تسميها
النصارى بالمعجائب ويسميها علماء الكلام منا بالمعجزات ، ويمدونها قسما من
خوارق العادات التي جعلوها عدة أقسام ، ونقول هنا كلمة وجيزة في إصلاح
الاسلام لضلal البشر فيها ، والصعود بهم أعلى مراقق الايمان ، اللائق بطور الرشد
العقلي لنوع الانسان ، والعلم الواسع بسنن الاكوان ، الذي منحوه برسالة محمد
خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام ، فنقول :

آيات الله نوعان

آيات الله تعالى في خلقه نوعان : (النوع الأول) الآيات الجارية على سننه
تعالى في نظام الخلق والتكوين وهي أكثرها وأظهرها وأدلها على كمال قدرته
وارادته ، وإحاطة علمه وحكمته ، وسعة فضله ورحمته ، (والنوع الثاني) الآيات
الجارية على خلاف السنن المعروفة للبشر وهي أقلها وربما كانت أدلها عند أكثر
الناس على اختياره عز وجل في جميع ما خلق وما يخلق ، وكون قدرته ومشيشته غير
مقيدين بسنن الخلق التي قام بها نظام الكون ، فالسنن مقتضى حكمته واتقانه لكل
شيء خلقه ، وقد يأتي بما يخالفها لحكمة أخرى من حكمه البالغة ، ولولا هذا الاختيار لكان
العالم كآلات التي تتحرك بنظام دقيق لاعلم لها ولا إرادة ولا اختيار فيه ، كآلة
الساعة الصغيرة التي تعرف بها أوقات الليل والنهار ، وآلات البواخر والمعامل
الكبيرة ، والماديون المنكرون لوجود الخالق والفلاسفة الذين يسمونه العلة الفاعلة
للوجود يعمرون عن هذا النظام بنظرية (الميكانيكية) وهم يتكلفون اختراع العلل

والاسباب لكل ما يروونه مخالفاً لسننه المعروفة ، ويسمون هذه الامور المخالفة لها بفلمات الطبيعة ، ويقسمون ما لم يظهر لهم تعليله على ما اقتنعوا بتعليل له وان لم يقد عليه دليل يثبت به ، ويقولون ان ما لم يظهر لنا اليوم فلا بد ان يظهر لنا أو لمن بعدنا غداً سنن الله في عالم الشهادة وعالم الغيب

ونحن معشر المؤمنين بعالم الغيب وما فيه من الملائكة وهم جند الله الاكبر ، وما لهم من التأثير والتدبير في عالم الشهادة المادي باذن الله تعالى وتسخيرهم ، نعتقد أن الله تعالى سننا في نظام ذلك العالم غير سننه الخاصة بعالم المادة ، وان الانسان هو حاققة الاتصال بين العالمين لجسده ووظائفه الحيوية من عالم الشهادة وروحه من عالم الغيب ، وأنه مادام في عالم الجسد المادي فإن جميع مداركه تكون مشغولة من المادة وسننها وحاجاته الشخصية والنوعية منها بما يحجبه عن عالم الروح الغيبي حتى روحه المتم لحقيقته ، وانما يكون الظهور والسلطان للروح على الجسد في الحياة الآخرة ، الا من اصطفى الله تعالى من رسله وأنبيائه فاعدهم بفضلهم ورحمته الاتصال بملائكته والتلقي عنهم ، وأظهرهم على ما شاء من غيبه ليبايعوا عبادهم عنه مأسرهم به الغيب قسمان حقيقي وإضافي

الغيب ما غاب علمه عن الناس وهو قسمان : غيب حقيقي لا يعلمه الا الله ، وغيب اضافي يعلمه بعض الخلق دون بعض لاسباب تختلف باختلاف الاستعداد الفطري والعمل الكسبي ، ومن أظهره الله على بعض الغيب الحقيقي من رسله فليس لهم في ذلك كسب لأنه من خصائص النبوة غير المكتسبة (١) ومن دونهم أفراد من خواص أتباعهم أو توانصبياً من الاشراف على ذلك العالم بانكشاف ما لا يحجب ، وإدراك ما شيء من تلك الانوار ، كان بها ايمانهم برسولهم فوق إيمان أهل البرهان ، وقد روي عن أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه انه قال : لو كشف الحجاب ما زددت يقينا

(١) يراجع تحقيق هذا الموضوع بالتفصيل في الصفحة ٤٢١ و ٤٥٦ - ٤٦٩ من جزء التفسير السابع وملخصه في ص ٥١٣ من الجزء التاسع

ومن دون هؤلاء أفراد آخرون قد يكون لهم من سلامة الفطرة ، أو معالجة النفس بأنواع من الرياضة ، أو من طرء مرض يصرف قوى النفس عن الاهتمام بشهوات الجسد ، أو من سلطان إرادة قوية على إرادة ضعيفة ، تصرفها عن حسها ، وتوجه قواها النفسية إلى ما شاءت أن تدركه لقوتها الخاصة بها — قد يكون هؤلاء الأفراد في بعض الأحوال من قوة الروح ما يلحقون به بعض الأشياء أو الأشخاص البعيدة عنهم ، وتمثل لهم بعض الأمور قبل وقوعها مرتسمة في خيالهم ، فيخبرون بها فتقع كما أخبروا

الخوارق الحقيقية والصورية عند الأمم

إن الأمور التي تأتي في الظاهر على غير السنن المعروفة ، أو الخارقة للعادات المألوفة ، منقولة عن جميع الأمم في جميع المصور نقلاً متواتراً في جنسه دون أفراد وقائعه ، وليست كلها خوارق حقيقية ، فإن منها ماله أسباب مجهولة للجمهور ، وإن منها لما هو صناعي يستفاد بتعليم خاص ، وإن منها لما هو من خصائص قوى النفس وتأثير أقوياء الإرادة في ضعفائها ، ويدخل في هذين المكشفة في بعض الأمور والتنويم المغناطيسي ، وشفاء بعض المرضى ولا سيما المصابين بالأمراض العصبية التي يؤثر فيها الاعتقاد والوهم ، ومنها بعض أنواع العمى والفالج ، فإن من الناس من يفقد بصره بمرض بطراً على أعصاب عينيه وهما صحيحتان تلهمان في وجهه ، أو يفشاهما بياض عارض مع بقاء طبقاتهما صحيحة ، وليس منه الكمى والعمى الذي يقع بطمس العينين وغوورهما كالذي أبرأه المسيح عليه السلام بإذن الله تعالى . وقد بينا هذه الأنواع من الخوارق الصورية في بحث السحر من تفسير سورة الاعراف (١) وفي المقالات التي عقدناها للكرامات وأنواعها وتعليلها في المجلد الثاني من المنار وأتمناها في المجلد السادس منه

إن عوام الشعوب الذين يجملون تواريخ الأمم وما وجد عند كل منها من هذه الغرائب وما كشفه العلماء من حيل فيها وعلل يفترون بما عندهم منها ، ويخضعون

للدجالين والمحتالين الذين ينتحلونها، ويمكنونهم من أموالهم فيسلمونها، ويأتمنونهم على أعراضهم فينتهم كونها، ولا سيما إذا كانوا يأتون ما يأتون منها على أنه من كرامات الأولياء وعجائب القديسين، وبقل تصديق هذا والالتقياد لأهله حيث ينتشر تعليم التوارخ وما عند جميع الأمم من ذلك، على أنه لا يزال كثيراً في جميع بلاد أوربة وأمريكا ولعله دون ما في بلاد الشرق ولا سيما القرى وهمج الزوج وغيرهم بيد أن آيات الله الحقيقية التي نسميها المعجزات هي فوق هذه الاعمال الصناعية الغريبة لا كسب لأحد من البشر ولا صنم لهم فيها، وإن ما أيد به رسوله منها لم يكن بكسبهم ولا عملهم ولا تأثيرهم، حتى ما يكون بدؤه بحركة إرادية يأمرهم الله تعالى بها. ألم يهد لك كيف خاف موسى عليه السلام حين تحولت عصاه حية تسعى، فولى مدبراً ولم يعقب لشدة خوفه منها، حتى هدأ الله روعه وأمن خوفه؟ ألم تقرأ قوله للحمد ﷺ (وما رميت أذريت ولكن الله يرمي) ألم تفهم ما أمره الله تعالى أن يجيب مقترحي الآيات عليه من قومه بقوله (قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولا) وقوله (قل إنما الآيات عند الله) وما في معناها

جهل هذا الأصل المحكم من عقائد الإسلام أدعياء العلم من سدنة القبور المعبودة وغيرهم فظنوا أن المعجزات والكرامات أمور كسبية كالصناعات العادية، وإن الأنبياء والصالحين يفعلونها باختيارهم في حياتهم وبعد مماتهم متى شاؤا، ويغفرون الناس باتيان قبورهم ولو بشد الرحال اليها لدعائهم والاستغاثة بهم عند نزول البلاء والشدائد التي يعجزون عن دفعها بكسبهم وكسب أمثالهم من البشر بالاسباب العادية كالأطباء مثلاً، وبالتقرب اليهم بالنذور والقرايين كما كان المشركون يتقربون إلى آلهتهم من الاصنام وغيرها، وهم يأكلونها سحتاً حراماً، ويخبرونهم بأن دين الله تعالى يأمرهم أن يعتقدوا أنهم يقضون حوائجهم، حتى قال بعضهم انهم يخرجون من قبورهم بجسادهم ويقولون قضاء الحاجات، وكشف الكربات، ولو كانت كذلك لما كانت من خوارق العادات. وقال بعضهم في كتابه هطبوع ان فلانا من الاقطاب يميت ويحيي، ويسعد ويشقي، ويفقر ويغني

الفرق بين المعجزة والكرامة

ان الله تعالى لم يؤيد رسله بما أيدهم به من المعجزات الا لتكون حجة لهم على أقوامهم يهدي بها المستعد للهداية ، ونحو بها الكملة على الجاحدين المعاندين فتقع عليهم العقوبة ، وذلك لا يكون إلا باظهارها فهو واجب لأتمام تبليغ الدعوة التي أرسلوا لتبليغها ، وما كان الانبياء يدعون الله تعالى بشيء من خوارق العادات غير حجة الرسالة إلا لضرورة كالاستسقاء وكان خاتمهم وأكرمهم على الله تعالى يصير هو وأهل بيته وأصحابه على المرض والجوع والمطش ولا يدعو لهم ﷺ بما يزيل ذلك الا نادراً ، وقد سأله المرأة التي كانت تصرع أن يدعو الله لها بالشفاء فأرشدتها إلى أن الصبر على مصيبتها خير لها . فشكت اليه أنها تتكشف عند النبوة وأن يدعو لها ألا تتكشف فدعا لها واستجاب الله دعاءه .

والأصل في الكرامة الاخفاء والكمائن ، وكثيراً ما يكون ظهورها فتنة للناس ، وما كان أهلها يظهرون ما لهم كسب فيه منها كالكاشفة إلا لضرورة ، وقد صرح بهذا العلماء والصوفية فهو متفق عليه بينهم خلافاً للشهور بين العامة

قال التاج السبكي في سياق حجج منكري جواز وقوع الكرامات من طبقات الشافعية (الحجة الثانية) قالوا لو جازت الكرامة لاشتبهت بالمعجزة ، فلا تدل المعجزة على ثبوت النبوة . والجواب منع الاشتباه بقرن المعجزة بدعوى النبوة دون الكرامة فهي انما تقترن بكمال اتباع النبي من الولي - وأيضا فالمعجزة يجب على صاحبها الاشتهار والكرامة مبناها على الاخفاء ، ولا تظهر إلا على الندرة والخصوص ، لا على الكثرة والعموم ، وأيضا فالمعجزة يجوز أن تقع بجميع خوارق العادات ، والكرامة تختص ببعضها كما بيناه من كلام القشيري وهو الصحيح اهـ ثم قال

(الحجة الرابعة) قالوا لو جاز ظهور خوارق العادات على أيدي الصالحين لما أمكن أن يستدل على نبوة الانبياء بظهورها على أيديهم لجواز أن تظهر على يد الولي سرّاً فإن من أصول معظم جماعتكم أن الاولياء لا يظهرون الكرامات ولا يدعون بها ، وإنما تظهر سرّاً وراء ستور ، ويتخصص بالاطلاع عليها آحاد الناس ،

ويكون ظهورها سرّاً مستمراً بحيث لا يلتحق بحكم المعتاد، فإذا ظهر نبي وتحدى بمعجزة جاز أن تكون مما اعتاده أولياء عصره من الكرامات فلا يتحقق في حقه خرق العادة، فكيف السبيل إلى تصديقه مع عدم تحقق خرق العوائد في حقه ؟ وأيضا نكرر الكرامة يلحقها بالمعتاد في حق الأولياء وذلك يصدم عن تصحيح النظر في المعجزة إذا ظهر نبي في زمنهم »

وقال في الجواب : لا نمتنا وجهان الاول منع توالي الكرامات واستمرارها حتى تصير في حكم العوائد وإنما يجوز ظهورها على وجه لا تصير عادة فلا يلزم ما ذكره . والثاني — وهو لمعظم أئمتنا — قالوا إنه يجوز توالي الكرامات على وجه الاختفاء بحيث لا يظهر ولا يشيع ولا يعتاد لئلا يخرج الكرامات عن كونها كرامات من مجلد المنار الثاني

وأقول إن المحققين من الصوفية يوافقون علماء الكلام والاصول على منع توالي الكرامات وتكرارها ، ومنع اظهارها ، وقال الشيخ محيي الدين بن عربي ان ما يتكرر لا يكون كرامة لانه يكون عادة وإنما الكرامة من خوارق العادات ، وقال الشيخ أحمد الرفاعي ان الأولياء يسترون من الكرامة كما تستر المرأة من دم الحيض ، فأين هذه الاقوال مما عليه الدجالون الخرافيون وسدنة القبور المعتقدة من زعمهم أن الكرامة الواحدة تتكرر لأولياء كثيرين من الاحياء والاموات مرارا كثيرة وكلها ظاهرة ذائعة شائعة ، بل صناعة ذات بضاعة رابحة ؟

الكافرون بالآيات صنفان : مكذبون ومشركون وعلاج كل منهما

الكافرون بآيات الله تعالى صنفان : صنف يكذبها كلها ولا يؤمنون بشيء منها ، وصنف يشرك بالله غيره فيها ، فينحله ما هو خاص به عز وجل لا يقدر عليه سواه ، ويشرع للناس ان يعبدوا هؤلاء الاغيار بدعائهم من دونه واستغاثتهم فيما لا يقدر عليه غيره ، بدعوى أن الله تعالى هو الذي أعطاهم القدرة النبوية على ذلك لمحبه لم وجاههم عنده ، ومعناه انه سبحانه هو الذي أشركهم معه فأعطاهم هذا التصرف في عبادته ، وإنما يتحامون الفاظ العبادة والشرك والخلق دون معانيها ، فيكذبون على الله تعالى وعليهم بما يكذبهم به كتابه المنزل ، ونبيه المرسل ، ولكنهم يحرفون

آيات الكتاب فيحتجون بها على جهلهم ، فيذكرون ان الله كان يرزق مريم عليها السلام بغير حساب ، وما كان رزقها من فعلها ، ولا يدري أحد كيف سخره الله لها ، وروي انه كان يتسخير بعض الناس لها ، ووحى به إلى أم موسى وما هو من فعلها . وقد قيل بذنوبها

وان افساد هؤلاء الخرافيين للبشر في دينهم ودنياهم لاشد من افساد المنكرين للآيات المكذبين بها ، بأنهم أكبر أسباب هذا الانكار والتكذيب بزعمهم أن الانبياء ومن دونهم من الصالحين يتصرفون في الخلق بما يخالف سنن الله تعالى فيه أو يبطلها بغيرها ويحولها عما وضعت له ، وزعمهم أن الله هو الذي دعا الناس إلى هذا الاعتقاد وجعله أساس دينه ، فكذبوا بالدين من أساسه ، فتكون فتنهم شاملة لفريقي الكفار بالآيات - فريق المكذبين وفريق المشركين ، وهو مع هذا قول على الله بغير علم ، واقتراء على الله بكونه شرعاً لم يأذن به الله ، وهو أشد انواع الكفر بالله ، لان ضرره متعد بما فيه من اضرار الناس باعتقاد باطل يتبعه عبادة باطلة غير مشروعة (١)

علاج خرافة تصرف الاولياء في الكون

أما الذين يشركون بالله في عبادته بجهلهم لا ياتهم بتقليد أمثالهم من الجاهلين في خرافاتهم ، فلا علاج لهم إلا تعليمهم توحيد الله الخالص في ربوبيته وألوهيته بآيات القرآن ، دون نظريات كتب الكلام ، وتعليمهم وظائف الرسل وكونهم بشراً اختصهم الله تعالى بوحيه لتبليغ عبادته ما ارتضاه لهم من الدين بالقول والعمل ، وحصر اختصاصهم بالتعليم والارشاد تبشيراً وانذاراً ، وتنفيذ أحكام شرعه فيهم بالعدل والمساواة ، ولم يؤتهم من التصرف الفعلي في خلقه ما يقدرون به على هداية أقرب الناس وأحبهم اليهم بالطبع كالوالد والولد والزوجة ومن دونهم من أولي القربى ، فوالد ابراهيم الخليل عاش كافراً ومات كافراً عدواً لله ورسوله وخليله ، وولد نوح أول الرسل إلى الامم مات كافراً ولم يأذن الله تعالى له بحمله في السفينة فكان من الكافرين المفرقين ، وكان ابولهب عم محمد حبيب الله ورسوله أشد أعدائه الصادقين عنه المؤذين له ، وأنزل الله في ذمه ووعيده سورة من القرآن يتعبد بها (١) راجع تحقيق هذا المعنى في ص ٣٩٧-٤٠١ ج ٩ من التفسير

المؤمنون إلى يوم القيامة لم ينزل مثلها في أحد من أعدائه وأعداء رسوله ﷺ بل كان من كمال حكمة الله تعالى أن عمه الذي كفله ورباه وكف عنه أذى المشركين ما استطاع لم يؤمن به وقد عرض عليه أن ينطق بكلمة « لا إله إلا الله » يشهد به بها يوم القيامة فامتنع فأنزل الله تعالى فيه (انك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء) رواه مسلم في صحيحه ، وقد شرحنا هذا الموضوع في تفسير قوله تعالى (٦ : ٧٤) وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر (الآيات (١)) ثم بينا في خلاصة هذه السورة (الانعام) وظائف الرسل عليهم السلام بما يحسن أن يراجعه من بحب استيفاء هذا الموضوع (٢) وإذا كان الانبياء المرسلون لم يؤثروا القدرة على التصرف في الكون فكيف يؤثروا الاولياء وغيرهم

المنكرون للمعجزات وشبهة الخوارق المكسبية عليها

وأما المنكرون لها فلا يمكن أن تقوم عليهم الحجة إلا بالقرآن كما تقدم ، فهم لا يصدقون ما ينقله اليهود والنصارى من آيات موسى وعيسى وغيرها من النبيين (ع . م) ولا يسمعون صحة تواترها ، إذ يقيسون نقلهم لها على ما ينقله العوام في كل عصر عن بعض المعتقدين في بلادهم من الخوارق الخادعة التي مثارها الوهم والتخيل ، ويحتجون على ذلك بأن يوسفوس المؤرخ اليهودي المعاصر للمسيح (ع . م) لم ينقل للناس أخبار عجائبه التي تفصها الاناجيل التي ألقت بعده ، ويعلمونها على تقدير صحة النقل بما يعلمون به الخوارق الصورية التي يشاهدونها في كل عصر ، فإن لم يستطيعوا تعليلها قالوا انه لا بد لها من سبب كسبي يظهر لنا أو يعترف به فاعلوها كما وقع في أمثالها من صوفية الهندوس (الفقراء) كالارتفاع في الهواء وغير ذلك مما هو أغرب منه

روت إحدى الجرائد المصرية في هذه الايام (٣) من أخبار سائحى الافرنج في الهند حادثة فقير من هؤلاء الفقراء اسمه سارجو هاردياس وقعت في سنة ١٨٩٧ خلاصتها أن هذا الفقير جاء قصر المهرابا رانجيت سينجا أمير بنجاب وعرض

(١) ص ٥٣٤ - ٥٦٥ ج ٧ تفسير (٢) ص ٢٧٥ - ٥٧٨ ج ٨ تفسير

(٣) هي جريدة الاتحاد

عليه أن يريه بعض كراماته، وكان المهر اجا لا يصدق ما ينقل من خوارق هؤلاء الفقراء فسأله عما يريد اظهاره فقال انه يدفن أربعين يوماً ثم يعود اليهم حياً ، فاحضر المهر اجا نفرّاً من أطباء الانكليز والفرنسيين وأمرء بنجاب فجلس الفقير القرفصاء أمامهم فكفّنوه بعد أن وضعوا القطن والشمع على أذنيه وأنفه - كما أوصاهم - وخاطوا عليه الكفن ووضعوه في صندوق من الخشب السميك وسمروا غطاءه ووضع المهر اجا عليه ختمه ، ودفنوه في قبو داخل حجرة صغيرة في حديقة القصر وأقفلوا بابها ووضع المهر اجا ختمه بالشمع على قفلها ، وأمر اثنين من رجال جرسه الامناء بحراستها وطائفة من جنده بمعاونتتهما، وكان ذلك كله بمشهد من حضر من الاوربيين والبنجابيين وحاشية المهر اجا .

ولما تمت الاربعون حضر هؤلاء كلهم قصر المهر اجا وشاهدوا ختم الحجرة كما كان ، والعشب أمامها في الحديقة لم تطأه قدم أحد ، ثم فتحو باب الحجرة وامتحنوا أختام القبو ثم أخرجوا الصندوق وامتحنوا أختامه فوجدوها كلها على حالها ففتحوه وأخرجوا الفقير منه فاذا هو كما وصفه أحد أوائلك من الانجليز . قال : لما فتحوا الصندوق وأخرجوا الفقير منه وجدت الذراعين والساقين صلبة والرأس مائلاً على إحدى الكتفين فخلتني أمام جثة هامدة فارقتها الحياة منذ امد بعيد ، فطلبت من طبيبي أن يفحصها فانحنى عليها وجس القلب والصدغين والذراعين وقال انه لم يجد أثراً للنبض البتة ولكنه شعر بحرارة في منطقة الدماغ الخ

ثم نفذ ما أوصى الفقير أن يعمل بعد اخراجه فغسل الجسم بالماء الحار فرد على الاوصال لينها السابق بالتدريج ، وأزيل القطن والشمع عن الاذنين والانف ووضعت أكياس دافئة على الرأس فدبت الحياة في الجسد المسجى ، وتقلصت الاعصاب والاطراف ثم اضطربت فسال منها عرق غزير وعادت الاعضاء إلى حالتها الاولى ، وبعد دقائق اتسمت حدقتا العينين وعاد اليهما لونهما الطبيعي ، فلما رأى الفقير المهر اجا شاخصاً اليه دهشاً متحيراً قال له « رأيت يامولاي صدق قولتي وفعلتي ؟ وبعد نصف ساعة خرج من التابوت وأنشأ يحدث الحاضرين أحسن حديث وبطرفهم بما يحير العقول . اه

إن هذه الحادثة من آيات الله التي أظهرتها الرياضة المكتسبة ، وهي أعجب من رواية الانجيل لموت ليعازر ثم حياته بدعاء المسيح بعد أربعة أيام كما تقدم في بحث عجائبه (ع.م) وأغرب من حادثة أصحاب الكهف أيضا من بعض الوجوه فإن الفقير الهندي قد سد أنفه ولف في كفن ووضع في تابوت دفن تحت الارض فحبل بينه وبين الهواء الذي لا يعيش أحد بدونه عادة ، وأهل الكهف ناموا في فجوة واسعة من كهف باب به إلى الشمال مهب الهواء اللطيف وكانت الشمس تصيب مدخله من جانبيه عند شروقها وعند غروبها مائلة متزاورة عنهم ، فتلطف هواءه من حيث لا تصيبهم ، وإنما كان أكبر الغرابة في نومهم طول مدة لبثهم فيه ، وكانت طويلة جداً حتى على نقل البيضاوي وغيره من المفسرين ان قوله تعالى (ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين) الآية - حكاية عن بعض المختلفين في أمرهم . فإن كان خلاف ظاهر السياق فقد يقويه قوله تعالى في الآية بعدها (قل الله أعلم بما لبثوا) والله أعلم بكل حال على كل حال ، وإن خفي سر آياته على خلقه ولا شيء من الامرين بمحال . وقد نام بعض أهل العصر بمرض النوم عدة أشهر .

ولكن ماجرى للفقير الهندي مخالف لسنة الحياة العامة في الناس فإذا ثبت أنه وقع بطريقة كسبية من طرائق رياضة هؤلاء الصوفية لا بدانهم وأنفسهم بما تبقى به الحياة كامنة في أجسادهم مثل هذه المدة الطويلة مع انتفاء أسبابها العامة في أحوال الناس الاعتيادية من دورة الدم والنفس وغير ذلك ، فلا وجه لاتخاذ أحد من العقلاء انكار كل ما يخالف السنن العامة قاعدة عامة ، ولا سيما فعل الخالق عز وجل لها وهو خالق كل شيء بقدرته ، ووضع نظام السنن والاسباب بمشيئته ، وأكثر منكري الخوارق يؤمنون به ، وإنما ينكرون وقوع شيء مخالف لسنة بانه منافي لحكمته ، ومن ذا الذي أحاط بحكمه أو بسننه علماء ؟ وإنما الذي يقضي به العقل أن لا نصدق بوقوع شيء على خلاف السنن الثابتة المطردة في نظام الاسباب العامة إلا إذا ثبت ثبوتاً قطعياً لا يحتمل التأويل ؛ وهذا هو المعتمد عند المحققين من المسلمين وعلماء المادة وعلماء النفس وغيرهم ، وقد ثبت في هذا العصر من خواص

يونس : ص ١٠ الخوارق كسبية وحقيقية ، والمعجزات : تكوينية وروحانية ٢٢٢

المكرباء وغير هامالوقيل اعتقال الناس وحكمتهم قبل ثبوته بالفعل إنه من الممكنات ،
لحكموا على مدعي امكانه بالجنون لا بتصديق الخرافات ، كما قلنا من قبل

الفرق بين الخوارق الكسبية والحقيقية

وجلة القول ان أسرار هذا الكون لا يحيط بها إلا خاتمه عز وجل - وإنه قد
وجد في كل عصر وقائع غريبة تعد من هذه الأسرار الجارية على غير نظام السنن
الالهية في الخلق ، بحسب ما يراى للجمهور بادي الرأي ، وإن ما يتناقله الجمهور
المولم بالخرائب منها ما هو كذب محض ، ومنه ماله أسباب علمية او صناعية
خفية يجهلها الا كثرون ، ومنه ما يظن انه من خوارق العادات وليس منها ، ومنه
ما سببه الوهم كشفاء بعض الامراض ، أو انخداع البصر بالتخييل الذي يحذقه
الشعوذون ، ومنه ما فعله سحرة فرعون المبين بقوله تعالى (فاذا حياهم وعصهم
يخيل اليه من سحرهم انها تسعى) ومنه انخداع السمع كالذي يفعله الذين يدعون
استخدام الجن اذ يتكلمون ليلا بأصوات غريبة غير أصواتهم المعتادة فيظن مصدقهم
ان ذلك صوت الجنى ، وقد يتكلمون نهاراً من بطونهم من غير أن يحركوا شفاههم ،
فلا يوثق بشيء من أخبارهم ولا من نقلهم - ومن الدلائل على كذب المتحليين
لهذه القرائب انهم جعلوها وسيلة لمعايشهم الدنيئة ، وإنهم لو كانوا صادقين فيها
لتنافس الملوك وكبار علماء الكون في محبتهم والاهتداء بهم

المعجزات قسمان : تكوينية وروحانية تشبه الكسبية

المعجزات كلها من الله تعالى لا من كسب الانبياء . كما نطق به القرآن ولكنها
بحسب مظهرها قسمان : قسم لا يعرف له سنة إلهية يجري عليها فهو يشبه الاحكام
الاستثنائية في قوانين الحكومات أو ما يكون بإرادة سنية من الملوك لمصلحة خاصة
- والله المثل الاعلى - وقسم يقع بسنة إلهية روحانية لا مادية .

أما المأثور من آيات الله التي أيد بها موسى (ع.م) وأثبتها القرآن له كآيات
التسع بمصر فهي من القسم الاول ، ولم يكن شيء منها بكسب له حقيقي ولا صوري ،
وكذلك الآيات الاخرى التي ظهرت في أثناء خروجه ببني اسرائيل ومدة التيه ،

بل كل ذلك كان بفعل الله تعالى بدون سبب كسبي لموسى (ع . م) إلا ما يأمره الله تعالى به من ضرب البحر أو الحجر بعصاه التي هي آيته الكبرى . ولم يرد لاحد من الانبياء آية كهذه الآيات فضلا عن دونهم ، ولا هي مما يحتمل أن يكون بسبب من الاسباب التي تكون لاحد من الناس بالرياضة الروحية أو خواص المادة وقواها .
وأما المسيح (ع . م) فالآيات التي أيده الله تعالى بها - على كونها خارقة للمعادات الكسبية وعلى خلاف السنن المعروفة للناس - قد يظهر فيها انها كلها او جلها حدث على سنة الله في عالم الارواح كما كان خلقه كذلك ، فقد حملت أمه به بنفخة من روح الله عز وجل فيها - وهو الملك جبريل عليه السلام - كانت سبب علوقها به بفعلها في الرحم ما يفعل تلقيح الرجل بقدرة الله عز وجل . فلا غرو أن كانت مظاهر آياته أعظم من مظاهر سائر الروحيين من الانبياء والاولياء كالكشف وشفاء بعض المرضى وغير ذلك من التأثير في المادة الذي اشتهر عن كثير منهم . والفرق بينه وبين الروحانيين من صوفية الهند والمسلمين أن روحانيته عليه السلام أقوى وأكمل ، وانها لم تكن بعمل كسبي منه بل من اصل خالق الله عز وجل له بآية منه كما قال (٢١ : ٩١) والتي أحصنت فرجها فننفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين *
٢٣ : ٥٠ وجعلنا ابن مريم وأمه آية) لا يتحاشى الحمل به وخلقته بنفخ الروح الالهي ، لا بسبب التلقيح البشري ولا بما قيل من أحمال وجود ما دني الذكورة والانوثة في رحمها وأعظم آياته الروحانية التي أثبتتها له التنزيل ولم ينقلها مؤلفو الانجيل الاربعة (وروي أنها منصوفة في انجيل الطفولية الذي نبذته الجوامع الكنسية قبل البعثة المحمدية فتقدم العالم) هي أنه كان يأخذ قطعة من الطين فيجعلها بهيئة طير فينفخ فيه أي من روحه فيكون طيرا باذن الله تعالى ومشيتته . والمروي أنه كان يطير قليلا ويقع ميتا . ودون هذا إحياء الميت الصحيح الجسم القريب العهد بالحياة فان توجيه سيال روحه القوي إلى جثة الميت مع توجيه قلبه إلى الله عز وجل ودعائه كان يكون سببا روحانيا لاعادة روحه اليه باذن الله ومشيتته ، كما يمس النور ذبال السراج المنطفئ فتشتعل أو كما يتصل السلك الحامل للكهربائية الايجابية بالسلك الحامل للكهربائية السلبية بعد انقطاعها فيألق النور منها . وقد ثبت عن بعض اطباء هذا العصر إعادة الحياة

تأخيوانية الى فقدتها عقب فقدتها بعملية جراحية أو معالجة للقلب
ومن دون هذا وذلك شفاء بعض الامراض ولا سيما العصبية سواء
كان سببها مس الشيطان وتلبسه بالمجنون كما في الاناجيل أم غيره ، فان الشيطان
روح خيث لا يستطيع البقاء مع توجه الروح الطاهر الذي هو شعلة من روح
القدس جبريل عليه السلام واتصاله بمن تلبس به، وقد وقع مثل هذا للشيخ الاسلام
ابن تيمية وغيره من الروحانيين وما من مرض عصي أو غيره إلا وهو ضعف في
الحياة حقيق بأن يزول باتصال هذا الروح بالمصاب به لأنه أعظم أسباب الحياة والقوة
ومن دون هذا وذلك المكاشفات المعبر عنها فيما حكاه تعالى عنه بقوله (وأنبئكم
بمآثنا كلون وما تدخرون في بيوتكم) وقد أنبأ غيره من أنبياء بني اسرائيل
وغيرهم بما هو أعظم من هذا من الامور المستقبلية ، وكذا غيرهم من الروحانيين
ولاسيا صالحى أمة محمد ﷺ ولكنها درجات متفاوتة في القوة والضعف ، وطول
المدة وقصرها ، والثقة بالمرئي وعدمها ، وإدراك الحاضر الموجود ، والغائب المفقود ، وما
كان في الازمنة الماضية ، وما ياتي في الازمنة المستقبلية ، فأعلاها خاص بالانبياء إذ لم
يوجد ولن يوجد بشر يعلم بالكشف ما وقع منذ القرون الاولى كأخبار القرآن
عن الرسل الاولين مع أقوامهم ، أو ما يقع بعد سنين في المستقبل كأخباره عن عود الكرة
الى الروم على الفرس ، وأخباره ﷺ بفتح الامصار واتباع الامم لامتة ، ثم بتداعيمهم عليها
ومن المكاشفات الثابتة في هذا العصر ما يسمونه قراءة الافكار وقد شاهدنا من
فعله ، ومنها مراسلة الافكار

فتبين بهذا وذلك أن آيات الله تعالى المشهورة لموسى (ع.م) بمحض قدرته
تعالى دون سنة من سنته الظاهرة في قواه الروحية ، وأن آياته لعيسى (ع.م) بخلاف
ذلك . والنوع الاول أدل على قدرة الله تعالى ومشيمته واختياره في أفعاله في نظر
البشر لبعدها عن نظام الاسباب والمسببات التي تجري عليها أفعالهم
عبادة بعض الناس للمسيح وللأولياء دون موسى

وانما عبد بعض البشر عيسى واتخذوه إلهًا ولم يعبدوا موسى كذلك وآياته أعظم
لأنهم جهلوا أن آيات عيسى جارية على سنن روحية عامة قد يشارك فيها غيره فظنوا

أنه يفعالهم بمحض قدرته التي هي عين قدرة الخالق سبحانه لخلوله فيه واتحاده به بزمعهم ، وآيات موسى بمحض قدرة الله وحده ، ولم يفتنوا لاتباع عيسى لموسى في شرعه . (التوراة) إلا قليلا مما نسخه الله على لسانه من إحلال بعض ما حرم عليهم بظلمهم عقوبة لهم ، ومن تحريم ما كانوا عليه من الغلو في عبادة المال والشهوات

ومثل النصارى في هذا من يفتنون من المسلمين بعبادة الصالحين بدعائهم في الشدائد لاعتقادهم أنهم يدفعون عنهم الضرر ويحلبون لهم النفع بالتصرف الغيبي الخارج عن سنن الله في الاسباب والمسببات الداخل عندهم في باب الكرامات ، وهو خاص بالرب تعالى ، ولكنهم لا يطلقون على أحد منهم اسم الرب ولا الاله ولا الخالق ، إذ الاسماء اصطلاحية ، وانما الفرقان بين الخالق والمخلوق والرب والمربوب أن الرب الخالق هو القادر على النفع والضرر لمن شاء وصرفهما عن شاء بما يسخره من الاسباب وبدونها ان شاء — وان المخلوق الربوب هو المقيد في أفعاله الكسبية الاختيارية في النفع والضرر بسنن الله تعالى في الاسباب والمسببات التي سخرها تعالى لجميع خلقه ، ولكنهم يتفاوتون في العلم والعمل بها كما يتفاوتون في الاستعداد لها بقوى العقل والحواس والاعضاء وفي وسائلها ، وقد بلغ البشر بالعلم والعمل الكسبيين من المنافع ودفع المضار ما لم يعمد مثله لاحد من خالق الله قبلهم لا الانبياء ولا غيرهم ، لان الانبياء المرسلين لم يبعثوا لهذا وإنما بعثوا لهداية الناس الى معرفة الله وعبادته وتهذيب أخلاقهم بها . فمنافع الدنيا لا تطلب منهم أحياء ولا أمواتا ، وانما تطلب من أسبابها . وما وراء الاسباب لا يقدر عليه إلا الله عز وجل . وقد قتل الظالمون بعض الانبياء والاولياء ، وآذوا بعضهم بضروب من الايذاء ، ولم يستطيعوا أن يدفعوا عن أنفسهم . ولذلك تكرر في القرآن الحكيم نفي هذا النفع والضرر عن كل ما عبد ومن عبد من دون الله بالذات أو بالشفاعة عند الله تعالى كما قال (١٨ : ١٠) ويعبدون من دون ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون : هؤلاء شفعاؤنا عند الله (الآية ومنها آيات ، وأمر خاتم رسله أن يعلم الناس ذلك كما فعل من قبله من الرسل فقال (١٨٨ : ٧) قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون) وقال

(قل اني لا املك لكم ضرراً ولا رشداً) الآيات . وقد فصلنا هذه المسألة مراراً ونلخص الموضوع هنا في المسائل الآتية :

(١) ان الله تعالى قد أتقن كل شيء خلقه فجعله بإحكام ونظام لا تفاوت فيه ولا اختلال ، وسنن مطردة ربط فيها الاسباب بالمسببات . فخلقاته العليا والسفلى ، هي مظهر أسمائه وصفاته العلى . ولهذا قال حجة الاسلام الغزالي : ليس في الامكان أبدع مما كان . وهذا النظام المطرد في الاكوان ، الثابت بالحس والمقل ونصوص القرآن - هو البرهان الاعظم على وحدانية خالق السموات والارض (لو كان فيها آلهة الا الله لفسدنا)

(٢) ان سنن الله تعالى في ابداع خلقه ونظام الحركة والسكون والتحليل والتركيب فيه لا يحيط بها علماً غيره عز وجل . وكلما ازداد البشر فيها نظراً وتفكيراً واختباراً وتدريباً وتجربة وتصرفاً ظهر لهم من أسرارها وعجائبها ما لم يكونوا يعلمون ولا يظنون ، ومن منافعها ما لم يكونوا يتخيلون ولا يتوهمون ، وها نحن أولاء نرى مراكبهم الهوائية من تجارية وحربية تحلق في الجواء ، حتى تكاد تتجاوز محيط الهواء ، ومراكبهم البحرية تغوص في لجج البحار ، وراهم يتخاطبون من مختلف الاقطار ، كما نطق الوحي بتخاطب أهل الجنة مع أهل النار ، فيسمع أهل الشرق أصوات أهل المغرب ، وأهل الجنوب حديث أهل الشمال وخطبهم وأغانيمهم ، قبل أن يسمعها بعض أهل البلاد أو المكان الذي يصدر عنه الكلام (*) وقد يفهم أحدهم زراً كهربائياً في قارة أوربة فتتحرك بعمرته آلات عظيمة في قارة أخرى في طرفة عين ، وبينهما المهامه الفيج ، والجبال الشاهقة ، ومن دونهما البحار الواسعة ، والجاهلون بهذه السنن الالهية ، والعلوم العملية ، لا يزالون يلجثون في طلب النافع ودفع المضار من غير طريق الاسباب - التي ضيق الجهل عليهم سبلها - إلى قبور الموتى من الصالحين المعروفين والجهولين ، ليقضوا لهم حاجهم ، ويشفوا

(*) روي لنا ان آلة الراديو الناقلة للاصوات من أوربة يصل الكلام الذي تحملها إلى مصر وغيرها فتمكسه الآلات التي فيها ويسمعه أهلها قبل أن يسمعه من في الصفوف الخلفية من المكان الذي ألقى فيه

٢٣٨ خضوع كل حادث لنظام العالم وانقطاع المعجزات بختم النبوة التفسير: ج ١١

مرضاهم ، ويعينونهم على أعدائهم من زوج وقريب وجار ووطني ، وأعدائهم من الأجانب قد سادوا حكومتهم ، واستذلوا أمتهم ، واستأثروا بجمل ثروتهم ، ولا يتصرف فيهم هؤلاء الأولياء بما يدفع عن المسلمين ضررهم وتحكمهم

(٣) ان الاصل في كل ما يحدث في العالم ان يكون جاريا على نظام الاسباب والمسببات ، وسنن الله التي دل عليها العلم ، وأخبرنا الوحي بأنه لا تغيير فيها ولا تبدل لها ولا تحويل ، فكل خبر عن حادث يقع مخالفا لهذا النظام والسنن فالاصل فيه ان يكون كذبا اختلقه الخبر الذي ادعى شهوده أو خدع به ولبس عليه فيه ، فان كان قد وقع فلا بد أن يكون له سبب من الاسباب الخفية التي يجهاها الخبر ، كما حققه علماء الاصول في بحث الخبر وما يقطع بكذبه منه

(٤) ان آيات الله التي تجري على غير سننه الحكيمة في خلقه لا يمكن العلم بها إلا بدليل قطعي وقد كان من حكمته ان أيد بعض النبيين المرسلين بشيء منها لإقامة حجبتهم ونخوف المعاندين لهم ، وقد انقطعت هذه الآيات بختم النبوة والرسالة بمحمد ﷺ وسبب ذلك أو حكمته ختم النبوة برسائله ، وجعل ما أوحاه اليه آية دائمة وهداية عامة لجميع البشر مدة بقائهم في هذه الدنيا وأنزل عليه (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) لعله تعالى بأنهم لا يحتاجون بعد هذا الوحي إلى وحي آخر ، ولا إلى آية على كونه من عند الله تعالى إلا هذا القرآن نفسه ، وقد تقدم بيان دلالاته العقلية العلمية على كونه من عند الله تعالى

ختم النبوة وانقطاع الخوارق بها ومعنى الكرامات

(٥) لو كان للبشر حاجة بعد القرآن ومحمد ﷺ إلى الآيات كما يدعي المفتونون بالكرامات ومخترعو الأديان والنحل الجديدة لما كان لختم النبوة معنى ولذلك ينكر البهائية والقاديانية ختم النبوة وانقطاع الوحي ، ويدعونهم للباب والبهاء ، ولعالم أحمد القادياني وخلفائه بلا انقطاع ، حتى سامها المرتزقة منهم والرعاع وقد بين شيخنا الاستاذ الامام في رسالة التوحيد كيف ارتقى التشريع الديني في الامم بارتقاء نوع الانسان في الادراك والعقل كارتقاء الافراد من طفولة إلى شباب إلى كهولة بلغ فيها رشده واستوى ، وصار يدرك بعقله هذه الهداية العقلية

العليا (هداية القرآن) بعد ان كان لاسبيل إلى إذعانه لتعليم الوحي ، إلا ما يدعش حسه ويعمي عقله من آيات الكون

بين في الكلام على وجه الحاجة إلى الرسالة ان سمو عقل الانسان وسلطانه على قوى الكون الاعظم بما هي مسخرة له تنافي خضوعه واستكانته لشيء منها ، إلا ما عجز عن إدراك سببه ومنشأه فاعتقد انه من قبل السلطان الغيبي الأعلى لمدير الكون ومسخر الاسباب فيه ، فكان من رحمة الله تعالى به « انه أتاه من أضعف الجهات فيه وهي جهة الخضوع والاستكانة فأقام له من بين أفراد مرشدين ، هادين ، ومميزهم من بينها بخصائص في أنفسهم لا يشر بهم فيها سواهم ، وأيد ذلك زيادة في الاقناع بآيات باهرات تملك النفوس ، وتأخذ الطريق على سوابق العقول ، فيستخذي الطامح ، وينذل الجامح ، ويصطدم بها عقل العاقل فيرجع إلى رشده ، وينبهر لها بصر الجاهل فيرتد عن غيه »

ثم قال في رسالة محمد ﷺ : نبي صدق الانبياء ولكنه لم يأت في الاقناع برسالته بما يلهي الابصار ، أو يحير الحواس ، أو يدعش المشاعر ، ولكن طالب كل قوة بالعمل فيما أعدت له ، واختص العقل بالخطاب ، وحاكم اليه الخطأ والصواب ، وجعل في قوة الكلام ، وسلطان البلاغة ، وصحة الدليل ، مبلغ الحجة وآية الحق الذي (لا يأتية الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد)

لا يمكن اثبات معجزات الانبياء إلا بالقرآن

(٦) انه لا يمكن إثبات معجزات الانبياء في هذا العصر بحجة لا يمكن لمن عقلها ردها إلا هذا القرآن العظيم ، وما ثبت فيه بالنص الصريح منها ، بناء على إنكار العلماء الواقفين على كتب الاديان التي قبل الاسلام — حتى كتب اليهود والنصارى — وعلى تواريتها لتواتر ما ذكر فيها من الآيات والاشتباه في كونها خوارق حقيقة ، وحجتهم ان التواتر الذي يفيد العلم القطعي غير متحقق في نقل شيء منها ، وهو نقل الجمع الكثير الذين يؤمن تواطؤهم على الكذب لخبر أدر كونه بالحس وحمله عنهم مشاهير قرنا بعد قرن وجيلا بعد جيل بدون انقطاع ، وإنما يكون استحالة تواطؤهم على

٢٤٠ آية القرآن قطعية وحكم ما أثبتته من الآيات وما سكت عنه التفسير : ج ١١

الكذب بأمور أهمها عدم التحيز والتشبع لمضمون الخبر وعدم تقليد بعضهم بعض فيه . وآية صحة هذا التواتر حصول العلم القطعي به وإذعان النفس له ، وعدم إمكان رده اعتقاداً ووجداناً ، وهذا غير حاصل في آيات الانبياء الاولين عندهم .

وأما آية القرآن فهي باقية ببقائه إلى يوم القيامة ، وكل واقف على تاريخ الاسلام يعلم علماً قطعياً أنه متواتر تواتراً متصلاً في كل عصر ، من عصر الرسول الذي جاء به إلى الآن ، وأما الذي يخفى على كثير منهم فهو وجوه إعجازه وقد شرحنا شبهتهم عليه وبيننا بطلانها في هذا البحث ، وإذ قد ثبت بذلك كونه وحياً من الله تعالى فقد وجب الايمان بكل ما أثبتته من آياته في خلقه سواء أكانت لتأييد رساله وإقامة حجتهم أم لا ، وكما يجب على كل مؤمن به أن يؤمن بها ، يجب أن يؤمن بانقطاع معجزات الرسل بعد ختم النبوة بمحمد ﷺ

واذ كان لا يجب على مسلم أن يعتقد بوقوع كرامة كونية خارقة للعادة بعد محمد خاتم النبيين ﷺ فلا يضر مسلماً في دينه أن يعتقد كما يعتقد أكثر عقلاء العلماء والحكماء من أن ما يدعيه الناس من الخوارق في جميع الامم أكثره كذب وبعضه صناعة علم ، أو شعوذة سحر ، وأقله من خواص الارواح البشرية العالية (٧) إن الثابت بنصوص القرآن من آيات الانبياء المرسلين المعينة قليل جداً .

فما كانت دلالة قطعية من هذه النصوص فصرفه عنها بالتحكم في التأويل الذي تأباه مدلولات اللغة العربية ، وبنقض شيئاً من قواعد الشرع القطعية ارتداد عن الاسلام ، وما كانت دلالة ظاهرة غير قطعية وجب حملها على ظاهره إن لم يعارضه غص مثله أو أقوى منه ، فإن عارضه فحينئذ ينظر في الترجيح بين المتعارضين بالادلة المعروفة ، والخروج عن ذلك ابتداء

﴿ خلاصة الخلاصة لهذا الفصل ﴾

اننا نؤمن بان الله تعالى هو خالق كل شيء بقدرته وارادته ، واختياره وحكمته ، وانه « أحسن كل شيء خلقه » كما قال في سورة الم السجدة ، فهو « صنع الله الذي أتقن كل شيء » كما قال في سورة النمل ، وانه ليس في خلقه تفاوت ولا فطور ، كما قال في سورة الملك ، وانه خلقه بنظام وتقدير لاجزافا ولا انفا^(١) كما قال في سورة القمر (إنا كل شيء خلقناه بقدر) وقال في سورة الفرقان (وخلق كل شيء فقدره تقديراً) وقال في سورة الحجر (وأنبأنا فيها من كل شيء موزون^(٢) وان من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم)

وان له تعالى في نظام التكوين والابداع ، وفيما هدى اليه البشر من نظام الاجتماع ، سننا مطردة تتصل فيها الاسباب بالمسببات ، لا تتبدل ولا تتحول محابة لأحد من الناس ، وانها عامة في عالم الاجسام وعالم الارواح ، وقد ورد ذكر هذه السنن باللفظ في عدة سور

ونؤمن بان له تعالى في خلقه آيات بينات ، وان له في آياته حكما جلية أو خفية ، وان مامنحنا إياه من العقل والشرع يا بيان علينا أن نثبت وقوع شيء في الخلق على خلاف ما تقدم بيانه من نظام التقدير وسنن التدبير ، إلا برهان قطعي يشترك العقل والحس في اثباته . نحيصه ، وانه لا بد ان يكون وقوعه لحكمة بالغة لاعن خلل ولا عبث ، وان ما خفي علينا من حكمه كسائر ما يخفي علينا من أمور خلقه ، نبحت عنهما انزاد علما بكماله ونكمل به أنفسنا بقدر استطاعتنا ، ولا نتخذها حجة ولا عذراً على الكفر به لجهلنا ، وقد ثبت لا علم العلماء منا أن ما نجمل من هذا الكون أكثر مما نعلم ، ويستحيل أن يحيط البشر به علماً .

- (١) الاتف بضممتين هو الذي يفعل ابتداء من غير سبق تقدير ولا نظام فهو ضد المقدر (٢) وصف النبات بالموزون من عجائب تعبير القرآن التي اظهرتها العلوم الحديثة فكل نوع منه مؤلف من عناصر بمقادير معينة يمكن ضبطها بالوزن الدقيق في النسبة المثوية (تفسير القرآن الحكيم) (٣١) (الجزء الحادي عشر)

ونؤمن بان الله تعالى قد منحنا رسلا هدوننا بآياته إلى الخروج من مضيق مدارك الحس ، وما يستنبطه الفكر منها بادي الرأي ، إلى ما وراءها من سعة عالم الغيب ، ولولا هدايتهم لظل البشر ألوف الألوف من السنين ينكرون وجود ما لم يكونوا يدركونه بحواسهم من الأجسام وأعراضها ، وبقياسهم ما جهلوا على ما علموا منها .

وقد علمنا من التاريخ ان الايمان بالله وبآياته لرسله وباليوم الآخر وبما يكون فيه من الحساب والجزاء على الاعمال هو الذي وجه عقول البشر إلى البحث في أسرار الوجود حتى وصلوا إلى ما وصلوا اليه من الارتقاء في العلوم والفنون والصناعات في الاجيال المختلفة ، ولم يكن لغير المؤمنين بالغيب نصيب في ذلك — فهذا الايمان بالاركان الثلاثة من الغيب هو الذي أوصل البشر الى علوم وأعمال كان يعدها غير المؤمنين بالغيب من محالات العقول كالغيب الذي أنكروه ، حتى لم يعد شيء من أخبار الغيب بعيداً عن العقل بعد ثبوتها

فتبين لنا بهذا وبما قبله انه كان للبشر بآيات الانبياء ثلاث فوائد هي من حكم نصبه تعالى لتلك الآيات (الاولى) جعلها دليلاً حسيّاً على اختياره تعالى في جميع أفعاله وكون سنن النظام في الخلق خاضعة له لا حاكمة عليه ولا مقيدة لارادته وقدرته (الثانية) جعلها دليلاً على صدق رسله فيما يخبرون عنه بوحيه ونذراً للعماندين لهم من الكفار ، ولو كانت مما يقدر عليه البشر بكسبهم أو تقع منهم باستعداد روحي لما كانت آية على صدقهم (الثالثة) هداية عقول البشر برؤيتهم إلى سعة دائرة الممكنات ، وضيق نطاق المحال في المعقولات ، وإلى ان كون الشيء بعيداً عن الاسباب المعتادة والامور المعهودة والسنن المعروفة ، لا يقتضي أن يكون محالاً يجرم بعدم وقوعه ، وبكذب الخبر به ، مع قيام الدليل على صدقه ، وإنما غاية أن يكون الاصل فيه عدم الثبوت فيتوقف ثبوته على الدلائل الصحيح . وهذه قاعدة كبار علماء الكون في هذا العصر ، فلا ينقصهم لتكميل علمهم إلا ثبوت آية الله تعالى لا يمكن أن يكون لها علة من سنن الكون

ولكن الامر قد انقلب إلى ضده فان كثيراً من الذين وصلوا إلى هذه العلوم

والاعمال اقربة لآيات الرسل وما دعوا اليه من الايمان بالغيب من العقول قد صارت هذه العلوم نفسها سببا لانكارهم ما كان سببا لها وموصلا اليها (وهو الآيات والايمان بالغيب) — لا إنكار امكانه بل إنكار ثبوته بالفعل ، فهم ينكرون أن يكون الخالق قد فعل ما صاروا يفعلون باقداره وتوفيقه نظيراً له في العزابة ، وكان ينبغي لهم أن يجعلوه دليلاً عليه مبيناً لحقيقته كما قل تعالى (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق) ولكنهم كما أراهم آية من آياته الروحية في انفسهم او من آياته الكونية في الآفاق التمسوا لها سنة بقياس ما لم يعرفوا على ما عرفوا ، فأخرجوها عن كونها بمحض قدرته وإبداعه ، وظلوا على لبسهم ، كالذين طلبوا ان ينزل عليهم ملكا رسولا فقال فيهم (٦ : ٩) ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون) أي لما كانوا لا يمكن لهم أن يدركوا الملك ويتلقوا عنه إلا إذا كان بصورة رجل مثلهم وهو ما استنكروه من كون الرسل بشراً مثلهم ، ولو جعل الله الملك رجلا مثلهم للبس عليهم ثم بما يلبسونه على انفسهم من استنكار كون الرسل بشراً مثلهم وهكذا يفعلون الآن : ظهرت لهم في عصرنا عدة آيات روحية من المكشفات والتأثير في المادة فشيئوها بما عرفوا من نقل الكلام بالسيال الكهربائي وغير ذلك ، حتى لا يعترفوا بآية إبداعية من الخالق لا تخضع لهم

الخطر على البشر من ارتقاء العلم بدون الدين

ان حرمان هؤلاء العلماء من الايمان بآية الله تعالى من هذا النوع قد جعل حظ البشر من هذا الارتقاء العجيب في العلم انهم ازدادوا به شقاء حتى صارت حضارتهم مهددة بالتدمير العلمي الصناعي في كل يوم ، وجميع علماءهم المصلحين وساستهم الدهاقين في حيرة من تلافي هذا الخطر وان يتلافى إلا بالجمع بين العلم والدين ، وهذا ما جاء به محمد خاتم النبيين ، ولأنجله أثبت الآيات بكتابه وفي كتابه المبين ، إذ لا يمكن ان يخضع البشر إلا لما هو فوق استطاعتهم ، بقيام الدليل على انه من السلطان الغيبي الالهي الذي فوق استمدادهم ، وسنبين هذا الجمع فيما يأتي من هذا البحث المثبت لاعجاز القرآن

المقصد الثالث من مقاصد القرآن

﴿بيان أن الاسلام دين الفطرة السليمة ، والعقل والفكر ، والعلم والحكمة ، والبرهان والحجة ، والضمير والوجدان ، والحرية والاستقلال ﴾

قد أتى على البشر حين من الدهر لا يعرفون من الدين إلا أنه تعاليم خارجة عن محيط العقل كلف البشر بها^(١) مقاومة فطرتهم ، وتعذيب أنفسهم ، ومكابرة عقولهم وبصائرهم ، خضوعاً للرؤساء الذين يلقنونهم إياها ، فإن انتقادوا لسيطرتهم عليهم بها كانوا من الفائزين ، وإن خالفوهم سرّاً أو جهراً كانوا من الهالكين حتى إذا بعث الله محمداً خاتم النبيين ، يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم مما كانوا فيه من الضلال المبين — بين لهم أن دين الله الاسلام هو دين الفطرة ، والعقل والفكر ، والعلم والحكمة ، والبرهان والحجة ، والضمير والوجدان ، والحرية والاستقلال ، وإن لاسيطرة على روح الانسان وعقله وضميره لأحد من خالق الله ، وإنما رسل الله هداة مرشدون ، مبشرون ومنذرون ، كما تقدم بيانه في المقصد الذي قبل هذا ، ونبين هذه الزايات بالشواهد المختصرة من القرآن فنقول :

(١) الاسلام دين الفطرة

قال الله تعالى (٣٠ : ٣٠) فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله — ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون) الحنيف صفة من الحنف (بالتحريك) وهو الميل عن العوج إلى الاستقامة ، وعن الضلالة إلى الهدى ، وعن الباطل إلى الحق ، ويقابله الزيغ وهو الميل عن الحق إلى الباطل الخ وفطرة الله التي فطر الناس عليها هي الجبلة الانسانية ، الجامعة بين الحياتين : الجسمانية الحيوانية ، والروحانية الملكية ، والاستعداد لمعرفة عالم الشهادة وعالم الغيب فيهما ، وما أودع فيها من غريزة الدين المطلق الذي هو الشعور الوجداني بسلطان غيبي

(١) الظرف متعلق بالمصدر الذي بعده وفعل التكليف يتعدى بنفسه وعلماء الاصول والفقه يعدونه بالباء

فوق قوى الكون والسنن والاسباب التي قام بهما نظام كل شيء في العالم ، فرب هذا السلطان هو فاطر السموات والارض وما فيها ، والمصدر الذاتي للنفع والضرر المحركين لشعور التعبد الفطري ، وطلب العرفان الغيبي ، فالعبادة الفطرية هي التوجه الوجداني إلى هذا الرب الغيبي في كل ما يعجز الانسان عنه من نفع يحتاج اليه ويعجز عنه بكسبه ، ودفع ضرر يمسّه أو يخفه ويرى أنه يعجز عن دفعه بحوله وقوته ، وفي كل ما تشعر فطرته باستعدادها لمعرفة والوصول اليه مما لانهاية له . وأعني بالانسان جنسه فما يعجز عنه المرء بنفسه دون أبناء جنسه فإنه يعده من مقدوره ، ويعمد مساعدة غيره له من جنس كسبه ، فطلبه للمساعدة من أمثاله ليس فيها معنى التعبد عند أحد من البشر — فتمعظيم الفقير للغني بوسائل استجدائه ، وخضوع الضعيف للقوي لاستنجاهه واستعداداته على أعدائه ، وخنوع السوقة للملك أو الأمير لخوفه منه أو رجائه — لا يسمى شيء من ذلك عبادة في عرف أمة من الأمم ولا ملة من الملل ، وإنما روح العبادة الفطرية ونحها هو دعاء ذي السلطان العلوي والقدرة الغيبية التي هي فوق ما يعرفه الانسان ويعقله في عالم الاسباب ، ولا سيما الدعاء عند العجز والشدائد قال عليه السلام « الدعاء هو العبادة » ^(١) هكذا بصيغة الحصر أي هو الركن المعنوي الأعظم فيها لانه روحها المفسر برواية « الدعاء مخ العبادة » ^(٢) وكل تعظيم وتقرب قولي أو عملي لصاحب هذه القدرة والسلطان فهو عبادة له — هذا أصل دين الفطرة الغريزي في البشر

وعلى هذا الأصل يبني الدين التعليمي التشريعي الذي هو وضع إلهي يوحيه الله الى رسله لئلا يضل عباده بضعف اجتهادهم واختلافهم في العمل بمقتضى غريزة الدين كما وقع بالفعل ، ولا يقبله البشر بالاذعان والوازع النفسي إلا إذا كان الملقن لهم إياه مؤيداً في تبليغه وتعليمه من صاحب ذلك السلطان الغيبي الأعلى والتصرف الذاتي المطلق في جميع العالم ، الذي تخضع له الاسباب والسنن فيه وهو لا يخضع لها ، وهو الله رب العالمين ، وقد شرحنا هذه الحقيقة مراراً وبيدنا في مواضع من

(١) رواه أحمد وابن أبي شيبة والبخاري في الادب المفرد وأصحاب السنن الاربعة وغيرهم عن النعمان بن بشير (٢) رواه الترمذي عن انس

التفسير والتمارين معنى كون الاسلام دين الفطرة، وانه شرع لتكميل استعداد البشر للرقى في العلم والحكمة، ومعرفة الله عز وجل المدة بإياهم لمساعدة الآخرة، فليس فيه شيء يصادمها فهذا الدين التعليمي حاجة من حاج الفطرة البشرية لا يتم كمالها النوعي بدونه، فهو لنوع الانسان كالعقل لأفراده كما حققه شيخنا الاستاذ الامام

(٢) الاسلام دين العقل والفكر

تقرأ قاموس الكتاب المقدس فلا تجد فيه كلمة «العقل» ولا ما في معناها من أسماء هذه الغريزة البشرية التي فضل الانسان بها جميع أنواع هذا الجنس الحي كالب والذهي، ولا أسماء التفكير والتدبر والنظر في العالم التي هي أعظم وظائف العقل، ولا ان الدين موجه اليه، وقائم به وعليه. اما ذكر العقل باسمه وأفعاله في القرآن الحكيم فيبلغ زهاء خمسين مرة، وأما ذكر أولي الالباب ففي بضع عشرة مرة، وأما كلمة أولي الذهي اي العقول فقد جاءت مرة واحدة من آخر سورة طه أكثر ماذ كر فعل العقل في القرآن قد جاء في الكلام على آيات الله وكون مخاطبين بها والذين يفهمونها ويهتدون بها هم العقلاء، ويراد بهذه الآيات في الغالب آيات الكون الدالة على علم الله ومشيبته وحكمته ورحمته، كقوله تعالى (٢ : ١٦٤) إن في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لايات لقوم يعقلون) وبلي ذلك في الكثرة آيات كتابه التشريعية ووصاياه كقوله في تفصيل الوصايا الجامعة من أواخر سورة الانعام (١٥١ : ٦) ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون) وكرر قوله (أفلا تعقلون) أكثر من عشر مرار كأمره لرسوله أن يحتج على قومه بكون القرآن من عند الله لا من عنده بقوله (١٦ : ١٠) فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون) وجعل إعمال استعمال العقل سبب عذاب الآخرة بقوله في أهل النار من سورة الملك (٦٧ : ١٠) وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير) وفي معناه قوله تعالى من سورة الاعراف (١٧٩ : ٧) واقدذرأنا لجنهم كثيراً من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم

آذان لا يسمعون بها . أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون) وقوله في سورة الحج (٢٢ : ٤٦) أفلم يسيرا في الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها) الآية كذلك آيات النظر العقلي والتفكر والتفكير كثيرة في الكتاب العزيز، فمن تأملها علم ان أهل هذا الدين هم أهل النظر والتفكر والعقل والتدبر، وان الغافلين الذين يعيشون كالأنعام لا حظ لهم منه إلا الظواهر التقليدية التي لا تزكي الانفس ولا تصمد بها في معارج الكمال، بعرفان ذي الجلال والجمال ، ومنها قوله تعالى (قل إنما أعظكم بواحدة ان تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تفكروا) وقوله (٨ : ٣٠) أو لم تفكروا في أنفسهم ما خلق الله السموات والارض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى) وقوله في صفات العقلاء أولي الالباب (١٩١ : ٣) ويفكرون في خلق السموات والارض) وقوله بعد نفي علم الغيب والتصرف في خزائن الارض عن الرسول ﷺ وحصر وظيفته في اتباع الوحي (٦ : ٧) قل هل يستوي الاعمى والبصير أفلا تتفكرون) وقد صرح بعض حكماء الغرب، بما لا يختلف فيه عاقلان في الارض، من أن التفكير هو مبدأ ارتقاء البشر، وبقدرة جودته يكون تفاضلهم فيه . اهـ وقد كانت التقاليد الدينية حجرت حرية التفكير واستقلال العقل على البشر حتى جاء الاسلام فأبطل بكتابته هذا الحجر ، وأعتقهم من هذا الرق ، وقد تعلم هذه الحرية امم الغرب من المسلمين ثم نكس هؤلاء المسلمون على رؤسهم فخرموها على أنفسهم ، حتى عاد بعضهم يقلدون فيها من أخذوها عن أجدادهم

(٣) الاسلام دين العلم والحكمة

ذكر اسم العلم معرفة ونسكرة في عشرات من آيات القرآن الحكيم، وذكرت مشتقاته أضعاف ذلك، وهو يطلق على علوم الدين والدنيا بأنواعها فن العلم المطلق قوله تعالى في وصايا سورة الاسراء (١٧ : ٣٦) ولا تقف ما ليس لك به علم) قال الراغب : اي لا تحكم بالقيافة والظن . وقال البيضاوي ما ملخصه : ولا تتبع عالم يتعلق به علمك تقليداً او رجاء بالغيب، ومنه قوله في العلم المأثور في التاريخ (اثتوني بكتاب من قبل هذا أو أنارة من علم إن كنتم صادقين) ومنه قوله تعالى في علوم

البشر المادية (٣٠ : ٦) ولكن أكثر الناس لا يعلمون ٧ يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا الخ وقوله فيها دون العلم الروحي (١٧ : ٨٥) ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً)

وقوله في العلم العقلي (٢٢ : ٨) ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير (الظاهر ان المراد بالعلم فيه العلم النظري بدليل مقابله بالهدى والكتاب المنير وهو هدى الدين . وقوله في العلم الطبيعي (٣٠ : ٢٢) ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ان في ذلك آيات للعالمين) بكسر اللام أي علماء الكون ومثله قوله بعد ذكر اخراج الثمرات المختلف ألوانها من ماء المطر واختلاف ألوان الطرائق في الجبال وألوان الناس والدواب (٣٥ : ٢٨) انما يخشى الله من عباده العلماء) الآية فالمراد بالعلماء هنا الذين يعلمون أسرار الكون وأسباب اختلاف أجناسه وأنواعه وألوانها وآيات الله وحكمه فيها

عظم القرآن شأن العلم تعظيماً لا تملوه عظمة أخرى بقوله تعالى (٣ : ١٨) شهد الله انه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط) الآية ، فبدأ عز وجل بنفسه وثنى بملائكته ، وجعل أولي العلم في المرتبة الثالثة ، ويدخل فيها الانبياء والحكماء ومن دونهم من أهل الدرجات في قوله (٥٨ : ١١) يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) وأمر أكرم رسله وأعلمهم بأن يدعوهم بقوله (وقل رب زدني علماً) ويؤيد الآيات المنزلة في مدح العلم والحث عليه ماورد في ذم اتباع الظن كقوله تعالى (١٠ : ٣٦) وما يتبع أكثرهم إلا ظناً ، ان الظن لا يغني من الحق شيئاً) ومثله (٥٣ : ٢٧) وما لهم به علم ان يتبعون الا الظن وان الظن لا يغني من الحق شيئاً) وقوله في قول النصارى بصلب المسيح (٤ : ١٥٦) ما لهم به من علم الا اتباع الظن) وبلغ من تعظيمه شأن العلم والبرهان ان قيد به الحكم بمنع الشرك بالله تعالى والنهي عنه وهو أكبر الكبائر وأقصى الكفر فقال (٧ : ٣٢) قل انما حرم ربي الفواحش ماظهر منها وما بطن والانتم والبغي بغير الحق وان تشر كوا بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون) السلطان البرهان : وقال في بر الوالدين الكافرين (٢٩ : ٨) ووصينا الانسان بوالديه حسناً ،

وان جاهدك على ان تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما (ومعلوم من الدين بالضرورة ان الشرك بالله لا يكون بعلم ولا بهرمان ، لانه ضروري البطلان وتري تفصيل هذا فيما بعده من تعظيم أمر الحجّة والدليل وما يليه من ذم التقايد)
 وأما الحِكْمَة فقد قل تعالى في تعظيم شأنها المطلق (٢ : ٢٦٩) يؤتي الحِكْمَة من يشاء ومن يؤت الحِكْمَة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولو الاباب) وقال تعالى في بيان مراده من بعثة محمد خاتم النبيين (٦٢ : ٢) هو الذي بعث في الاميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحِكْمَة وإن كانوا من قبل افني ضلال مبين) وفي معناها آيتان في سورتي البقرة وآل عمران . وقال لرسوله ممتناً عليه (٤ : ١١٢) وأنزل عليك الكتاب والحِكْمَة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً) وقال له (١٦ : ١٢٥) ادع إلى سبيل ربك بالحِكْمَة والموعظة الحسنة) وقال له في خاتمة الوصايا بأهمات الفضائل والنهي عن كبائر الرذائل ، مع بيان علمها وما لها من العواقب (١٧ : ٣٩) ذلك مما أوحى إليك ربك من الحِكْمَة) وقال لسانه رضي الله عنهن (٢٣ : ٣٤) واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحِكْمَة)
 وقد آتى الله جميع أنبيائه ورسله الحِكْمَة ، وامكن أضعافها أقوامهم من بعدهم بالتقايد والرياسة الدينية ، ونسخها بولس من النصرانية بنص صريح . قال الله تعالى في اليهود (٤ : ٥٤) أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا ابراهيم الكتاب والحِكْمَة وآتيناهم ملكاً عظيماً) فالكتاب أعلى ما يؤت به تعالى لعباده من نعمه ويليه الحِكْمَة ويليه الملك . وقال في نبيه داود عليه السلام (٢ : ٢٥١) وآتاه الله العلم والحِكْمَة وعلمه مما يشاء) وقال لنبيه عيسى عليه السلام (٦ : ١١٣) وإذ علمتك الكتاب والحِكْمَة والتوراة والانجيل) وقال (٣١ : ١٢) ولقد آتينا لقمان الحِكْمَة) وذكر من حكمته وصاياه لابنه بالفضائل ومنافعها ونهيه عن الرذائل معللة بمضارها .
 فالحِكْمَة أخص من العلم ، هي العلم بالشيء على حقيقةه وبما فيه من الفائدة والمنفعة الباعثة على العمل ، فهي بمعنى الفلسفة العملية كعلم النفس والاخلاق وأسرار الخلق ، وبديل عليه قوله تعالى بعد وصايا سورة الاسراء (ذلك مما أوحى إليك ربك من الحِكْمَة) ولولا اقتران تلك الوصايا بحكمها وعلاها ومنافعها لما سميت حكمة . ألا ترى انه سعى

خيم البذرين للمال « إخوان الشياطين » لانهم يفسدون نظام المعيشة بأسرافهم ، ويكفرون النعمة بعدم حفظها ووضعها في مواضعها بالاعتدال ، ولذلك قال عقبه (وكان الشيطان لربه كفوراً) ثم قال (٢٩) ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسوراً) فعلى الاسراف في الانفاق بأن عاقبة فاعله أن يكون ملوما من الناس ومحسوراً في نفسه ، والمحسور من حسر عنه ستره فانكشف منه الغطى ويطلق على من انحسرت قوته وانكشفت عن عجزه ، والمحسور المغموم أيضاً . وكل هذه المعاني تصح في وصف المسرف في النفقة بوقعه إسرافه في العدم والفقر الخ وحسیر البصر كليله وقصيره

ويكثر في القرآن ذكر الفقه وهو الفهم الدقيق للحقائق الذي يكون به العالم حكيماً

(٤) الاسلام دين الحجة والبرهان

قال تعالى (٧٣ : ٤) يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم نوراً مبيناً) وقال (٢٣ : ١١٧) ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به عند ربه فأنما حسابه عند ربه انه لا يفاج الكافرون) قيد الوعيد على الشرك بكونه لا برهان لصاحبه يحتاج به عند ربه مع العلم بأنه لا يكون إلا كذلك تعظيماً لشأن البرهان ، وذلك انه تعالى يبعث الامم مع رسالهم وورثتهم الذين يشهدون عليهم ويطالبهم بحضرتهم بالبرهان على ما خالفهم فيه كما قال (٢٨ : ٧٥) ونزعنا من كل أمة شهيداً فقلنا هاتوا برهانكم ، فاعلموا ان الحق لله وضل عنهم ما كانوا يفترون)

وأقام البرهان العقلي على بطلان الشرك بقوله بعد ذكر السموات والارض من سورة الانبياء (٢١ : ٢٢) لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ..) ثم قفى عليه بمطالبة المشركين بالبرهان على ما اتخذوه من الآلهة من دونه مطالبة تعجيز فقال (٢٤) أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم) الآية ، ومثله في سورة النمل (٢٧ : ٦٤) أم من يبدؤ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والارض ؟ إله مع الله ؟ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين)

وقال في سياق محاجة ابراهيم لقومه وإقامة البراهين العلمية لهم على بطلان

شركهم (٦ : ٨١) وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون انكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون) ثم قال في آخره (٨٣) وتلك حجةنا آتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء ان ربك حكيم عليم) فلدرجات هنا درجات الحجة والبرهان العقلي على العلم ولذلك قدم فيه ذكر الحكمة على العلم ، وتقدم في الكلام على العلم آية رفع الدرجات فيه

ومما جاء فيه البرهان بلفظ السلطان قوله تعالى (٤٠ : ٣٥) الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان آتاهم كبر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا) الآية ، وفي معناها من هذه السورة (٥٦) ان الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان آتاهم ان في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه) الآية ، وفي عدة سور انه تعالى أرسل موسى إلى فرعون بآياته (وسلطان مبين)

(٥) الاسلام دين القلب والوجدان والضمير

قال الفيومي في المصباح : ضمير الانسان قلبه وباطنه والجمع ضمائر ، وقال والقلب من الفؤاد معروف - يعني انه ضميره ووجدانه الباطن (قال) ويطلق على العقل . اهـ وقد شرحنا معناه هذا وطرق استعماله في تفسير آية الاعراف (١) وقد ذكر في القرآن الكريم في مائة آية وبضع عشرة آية

منها قوله تعالى في سورة ق (ان في ذلك لذكرى لمن كان له قاب أو ألقى السمع وهو شهيد) وقوله في سورة الشعراء (يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم) ومدحه لخليله ابراهيم عليه السلام بقوله (إذ جاء ربه بقلب سليم) وقوله حكاية عنه (ولكن ليطمئن قلبي) وقوله في صفة المؤمنين (الذين آمنوا وطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب) وقوله في صفات الذين اتبعوا عيسى عليه السلام (وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها) ووصف قلوب المؤمنين بالخشوع والاحبات لله وتمحيصها من الشوائب وقلوب الكفار والمنافقين بالرجس والمرض والقسوة والزيف ، وعبر عن فقدانها للاستعداد للحق والخير بالطبع والختم والرين عليها اي انها كالتحتوم عليه فلا يدخله شيء جديد

وإذ كان الإسلام دين العقل والبرهان، وحرية الضمير والوجدان، منع ما كان عليه النصارى وغيرهم من الاكراه في الدين والاجبار عليه والفتنة والاضطهاد لمخالفهم فيه، والآيات في ذلك كثيرة بينها في محلهاء، ومن دلالتها ذم القرآن للتقليد وتضليل أهله

(٦) منع التقليد والجمود على اتباع الآباء والجدود

كل ما نزل من الآيات في مدح العلم وفضله واستقلال العقل والفكر وحرية الوجدان يدل على ذم التقليد، وقد ورد في ذمه والنهي على أهله آيات كثيرة كقوله (٢: ١٧٠) وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون) وقوله تعالى (١٠٤: ٥) وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا، أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون) ذمهم من ناحيتين (إحداهما) الجمود على ما كان عليه آباؤهم والاكتفاء به عن الترقى في العلم والعمل، وليس هذا من شأن الانسان الحي العاقل فإن الحياة تقتضي النمو والتوايد، والعقل يطلب المزيد والتجديد (والثانية) انهم باتباعهم لآبائهم قد فقدوا مزية البشر في التمييز بين الحق والباطل، والخير والشر، والحسن والقبیح، بطريق العقل والعلم، وطريق الاهتداء في العمل ويؤيده قوله (٧: ٢٨) وإذا فعلوا فاحشة قلوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها، قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون) وقال تعالى في عبادة العرب للملائكة (٤٣: ٢٠) وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم، ما لهم بذلك من علم ان هم الا بخرصون ٢١ أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون ٢٢ بل قالوا انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مهتدون ٢٣ وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قل مترفوها: انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون) وقد وردت الشواهد على هذا في قصة ابراهيم مع قومه في سور الانبياء والشعراء والصفات.

فالقرآن قد جاء يهدي جميع متبعي الملل والاديان السابقة إلى استعمال عقولهم مع ضمائرهم للوصول الى العلم والهدى في الدين، ولا يكتفوا بما كان عليه آباؤهم وأجدادهم من ذلك، فإن هذا جنابة على الفطرة البشرية والعقل والفكر

والقلب التي امتاز بها البشر ، وبهذا العلم والهدى امتاز الاسلام ودخل فيه العقلاء من جميع الامم أفواجا ، ثم نكس المسلمون على رؤوسهم ، واتبعوا سنن من قبلهم من أهل الكتاب وغيرهم في التقليد لا بأثمهم ومشايخهم المنسوبين إلى بعض أئمة علمائهم ، الذين نهوهم عن التقليد ولم يأمرهم به ، فأبطلوا بذلك حجة الله تعالى على الأمم وصاروا حجة على دينهم ، حتى ان أدعياء العلم الرسمي فيهم ينكرون أشد الانكار على من يدعوهم الى اتباع كتاب الله وهدى رسوله وسيرة السلف الصالح من أهله ، ونحن معهم في بلاء وعناء ، نقاسي منهم ماشاء الجهل والجور من استهزاء ، وطمع وبذاء ، وتهكم بلقب « المجتهد » الذي احتكره الجهل لبعض المتقدمين من العلماء ولو كان فينا علماء كثيرون يظهرون الاسلام في صورته الحقيقية العلمية العقلية لدخل الناس المستقلون في العقل والعلم أفواجا حتى يعم الدنيا . لان التعليم المصري في جميع مدارس الارض يجرى على طريقة الاستقلال في الفهم واتباع الدليل في جميع بلاد الافرنج والبلاد المقلدة لهم . ولكن أكثر هؤلاء يرون جميع الأديان تقليدية ويعتدونها نظما أدبية واجتماعية للأمم ، فلماذا يرون الأولى بحفظ نظامهم اتباع دينهم التقليدي ، وبهذا يعسر علينا أن نقنعهم بامتياز الاسلام على دينهم ، لانه يقل فينا من يقدر على إظهار الاسلام في صورته التي خصه بها القرآن ، وما بينه من سنة خاتم النبيين ﷺ وسيرة خلفائه الراشدين والسلف الصالحين ، رضوان الله عليهم أجمعين

❦ دحض شبهة ، وإقامة حجة ❦

يتوهم بعض المقلدين ان دعوة المسلمين إلى الاهتداء بالكتاب والسنة والاستقلال في فهمها التي اشتهر المنار في عصرنا بها ، هي التي جرأت بعض الجاهلين على دعوى الاجتهاد في الشريعة والاستغناء عن تقليد الأئمة والانتقاد عليهم وعلى اتباعهم بما هو ابتداع جديد ، واستبدال للفوضى بالتقليد . وهو وهم سببه الجهل بالدين والتاريخ ، فذاهب الابتداع والالحاد قديمة ، قد نجمت قرونها في خير القرون وعهد أكبر الأئمة ، وكان أشدها إفسادا للدين الدعوة الى اتباع الأئمة المعصومين ، الذين لا يسئلون عن الدليل ، على خلاف ما كان عليه أئمة السنة من تحريم اتباع أحد لذاته في الدين بعد

محمد المعصوم الذي لا معصوم بعده ﷺ ولكن المقلدين لهؤلاء المحرمين للتقليد قد اتبعوا القائلين بمصحة أئمتهم حتى ملاحدة الباطنية منهم، فهم يردون نصوص الكتاب والسنة بأقوال أئمتهم بل بأقوال كل من ينتهي اليهم من أدعياء العلم . وانما تروج البدع في سوق التقليد الذي يتبع أهله كل ناعق ، لا في سوق الاستقلال والأخذ بالدلائل - ومن باب التقليد دخل أكثر الخرافات على المسلمين لانتساب جميع الدجائين من أهل الطرائق وغيرهم إلى أئمة المذاهب المجتهدين ، وهم في دعوى اتباعهم من الكاذبين ، ونحن دعاة العلم الصحيح والاهتداء بالكتاب والسنة أحق منهم باتباع الأئمة

ان في كتب التفسير والفقه والتصوف وشروح الاحاديث للعلماء المنسوبين إلى الأئمة كثيراً من البدع والخرافات التي يتبرأ منها أئمة الهدى ، وترى علماء الرسوم الجامدين محتجون بذكرها في هذه الكتب على شرعيتها وعلى رد نصوص الكتاب والسنة الصحيحة بها ، وصاحب المنار قد انفرد دون علماء مصر بالرد على هؤلاء وعلى البابية والبهائية والقاديانية والتيجانية والقبوريين وسائر مبتدعة عصرنا ، والله الحمد والمنة

(٧) الحرية الشخصية في الدين بمنع الاكراه والاضطهاد ورياسة السيطرة

هذه المزية من مزايا الاسلام هي نتيجة المزايا التي بينا بها كونه دين الفطرة فأما منع الاكراه فيه وعليه فلا صل فيه قوله تعالى لرسوله ﷺ بمكة (١٠ : ٩٩) ولو شاء ربك لآمن من في الارض كلهم جميعاً ، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ؟ ١٠٠ وما كان لنفس أن تؤمن إلا باذن الله ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون ١٠١ قل انظروا ماذا في السموات والارض ، وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون) علم الله تعالى رسوله بهذه الآيات أن من سننه في البشر أن تختلف عقولهم وأفكارهم في فهم الدين وتتفاوت أنظارهم في الآيات الدالة عليه فيؤمن بعض ويكفر بعض ، فما كان يتمناه ﷺ من إيمان جميع الناس مخالف لمقتضى مشيئته تعالى في اختلاف استعداد الناس للإيمان وهو منوط باستعمال عقولهم وأنظارهم في آيات الله في خلقه ، والتمييز بين هداية الدين وضلالة الكفر

ثم قوله تعالى له عند ما أراد أصحابه أخذ من كان عند بني النضير من أولادهم

عند إجلائهم عن الحجاز وكان قد تهود بعضهم (٢:٢٥٦) لا إكراه في الدين قد تبين (الرشد من الغي) الآية — فأمرهم ﷺ أن يخبروهم فمن اختار اليهودية أجلي مع اليهود ولا يكره على الاسلام ، ومن اختار الاسلام بقي مع المسلمين كما بيناه في تفسير الآية

وأما منع الفتنة وهي اضطهاد الناس لاجل دينهم حتى يتركوه فهو السبب الاول لشرعية القتال في الاسلام كما بيناه في تفسير قوله تعالى (٢:١٩١) وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله) من سورة البقرة . ثم في تفسير آية ٣٩ من سورة الانفال التي بلفظها مع زيادة (كله) فراجع تفسير هذه الآية في ص ٦٦٥ ج ٩ تفسير وأما منع رياسة السيطرة الدينية كالمهوددة عند النصارى ففيها آيات مبينة في القرآن ، وهي معلومة بالضرورة من سيرة النبي ﷺ وخلفائه الراشدين وقد بيناه في الكلام على وظائف الرسل عليهم السلام ، وحسبك منها قوله عز وجل لرسوله ﷺ خاتم النبيين (ص) (٨٨ : ٢١) فذكر إنما أنت مذكر ٢٢ لست عليهم بمسيطر)

المقصد الرابع من مقاصد القرآن

(الاصلاح الاجتماعي الانساني والسياسي الذي يتحقق بالوحدات الثمان)

وحدة الامة - وحدة الجنس البشري - وحدة الدين - وحدة التشريع
بالمساواة في العدل - وحدة الاخوة الروحية والمساواة في التعبد - وحدة الجنسية
السياسية الدولية - وحدة القضاء - وحدة اللغة

جاء الاسلام والبشر أجناس متفرقون، يتعادون في الانساب والالوان، واللغات والاطنان والاديان، والمذاهب والمشارب، والشعوب والقبائل، والحكومات والسياسات، يقاتل كل فريق منهم مخالفه في شيء من هذه الروابط البشرية وإن وافقه في البعض الآخر ، فصاح الاسلام بهم صيحة واحدة دعاهم بها إلى الوحدة الانسانية العامة الجامعة وفرضها عليهم ، ونهاهم عن التفرق والتعادي وحرمه عليهم ، وبيان هذا التفرق ومضاره بالشواهد التاريخية، وبيان أصول الكتاب الالهي وسنة

خاتم النبيين في الجامعة الانسانية ، لا يمكن بسطها إلا بمصنف كبير ، فنكتفي في هذه الخلاصة الاستطراذية في اثبات الوحي المحمدي ، بسرد الاصول الجامعة في هذا الاصلاح الانساني الداعي إلى جعل الناس ملة واحدة ، ودين واحد، وشرع واحد ، وحكم واحد ، ولسان واحد ، كما ان جنسهم واحد ، ودينهم واحد ونبدأ بالاصل الجامع في هذا ونقفي عليه بالاصول والشواهد المنفصلة له

❦ الاصل الاول للجامعة الاسلامية الانسانية وحدة الامة ❦

قال الله تعالى في سورة الانبياء مخاطباً أمة الاسلام (٢١ : ٩٢) إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون)

ثم بين لها في سورة المؤمنين أنه خاطب جميع النبيين بهذه الوحدة للامة فقال (٢٣ : ٥١) يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إني بما تعملون عليم (٥٢) وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون) ولكن كان لكل نبي أمة من الناس هم قومه ، وأما خاتم النبيين فأتمته جميع الناس ، وقد فرض الله عليهم الايمان بجميع رسله وعدم التفرقة بينهم كما تقدم ، فالايان بخاتمهم كالايان باولهم وبمن بينهما ، فثلاثهم كمثل الملوك أو الولاة في الدولة الواحدة ، ومثل اختلاف شرائعهم بفسخ المتأخر منها لما قبله كمثل تعديل القوانين في الدولة الواحدة أيضاً إلى ان كمل الدين (الاصل الثاني) الوحدة الانسانية بالمساواة بين أجناس البشر وشعوبهم وقبائلهم وشاهده العام قوله تعالى (٤٩ : ١٣) يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) وقد بلغ النبي ذلك للامة يوم العيد الاكبر بمنى في حجة الوداع . وهذه الوحدة الانسانية تتضمن الدعوة إلى التألف بالتعارف ، وإلى ترك التعادي بالتخالف .

(الاصل الثالث) وحدة الدين باتباع رسول واحد جاء باصول الدين الفطري الذي جاء به غيره من الرسل وأكمل تشريعه بما يوافق جميع البشر ، وشاهده الاعم قوله تعالى (٧ : ١٦٨) قل يا أيها الناس إني رسول الله اليكم جميعا) ولما كان الاسلام دين الفطرة وحرية الاعتقاد والوجدان جعل الدين اختياريا بقوله تعالى (٢ : ٢٥٦) لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي)

(الاصل الرابع) وحدة التشريع بالمساواة بين الخاضعين لأحكام الاسلام في الحقوق المدنية والتأديبية بالعدل المطلق بين المؤمن والكافر ، والبر والفاجر ، والملاّك والسوقة ، والغني والفقير ، والقوى والضعيف ، وسندكر بعض شواهد في إصلاح التشريع فيه

(الاصل الخامس) لوحدة الدينية بالمساواة بين المؤمنين بهذا الدين في اخوته الروحية وعبادته وفي الاجتماع الاجتماعي منها كالصلاة ومناسك الحج ، فملوك المسلمين وأمرؤهم وكبار علمائهم يخلطون بالفقراء والعوام في صفوف الصلاة والطواف بالكعبة المشرفة والوقوف بعرفات وسائر مواطن الحج ، ولا تجد شعوب الافرنج المنتسبين إلى النصرانية يرضون بمثل هذه المساواة المعلومة من دين الاسلام بالضرورة للعمل بها من أول الاسلام الى اليوم قال تعالى (١٠: ٤٩) انما المؤمنون إخوة) وقال في سياق الكلام عن المشرّكين المحاربين (١١: ٩) فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين)

(الاصل السادس) وحدة الجنسية السياسية الدولية بان تكون جميع البلاد الخاضعة للحكم الاسلامي متساوية في الحقوق العامة إلا حق الإقامة في جزيرة العرب أو الحجاز فانه خاص بالمسلمين لان للحرمين وسياجهما من الجزيرة حكم للمعابد والمساجد ، وحكم الاسلام في معابد الملل كلها أنها خاصة بأهلها ولها حرمتها لا يجوز لغير أهلها دخولها بغير إذن منهم ، المسلمون وغيرهم في هذا سواء

(الاصل السابع) وحدة القضاء واستقلاله ومساواة الناس فيها أمام الشريعة العادلة إلا انه يستثنى منه الاحكام الشخصية الدينية فان الاسلام يراعي فيها حرية العقيدة والوجدان بناء على أساسه في ذلك . فهو يسمح لغير المسلمين في أمور الزوجية ونحوها أن يتحاكموا إلى علماء ملتهم ، واذا تحاكموا إلينا فاننا نحكم بينهم بعدل شريعتنا الماسخة لشرائعهم ، والاصل في قوله تعالى (٤٢: ٥) فان جاؤك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين) وقوله بعد آيات (٤٩) وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق) (تفسير القرآن الحكيم) (٣٣) (الجزء الحادي عشر)

(الاصل الثامن) وحدة اللغة ولا يمكن أن يتم الاتحاد والاخاء بين الناس وصيرورة الشعوب الكثيرة أمة واحدة إلا بوحدة اللغة . وما زال الحكماء الباحثون في مصالح البشر العامة يتمنون لو يكون لهم لغة واحدة مشتركة يتعاونون بها على التعارف والتآلف ومناهج التعليم والآداب والاشتراك في العلوم والفنون والمعاملات الدنيوية ، وهذه الأمنية قد حققتها الاسلام بجعل لغة الدين والتشريع والحكم لغة لجميع المؤمنين به والخاضعين لشريعته ، إذ يكون المؤمنون مسوقين باعتقادهم ووجدانهم الى معرفة لغة كتاب الله وسنة رسوله لفهمها والتعبد بها والاتحاد باخوتهم فيها ، وهما مناط سيادتهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة ، ولذلك كرر في القرآن بيان كونه كتابا عربيا وحكما عربيا وكرر الامر بتدبره والتفقه فيه والاعتاظ والتأدب به ، وأما غير المؤمنين فيتعلمون لغة الشرع الذي يخضعون لحكمه ، والحكومة التي يتبعونها لمصالحهم الدنيوية كما هي عادة البشر في ذلك ، وكذلك كان الامر في الفتوحات الاسلامية العربية كلها

وقد بينت من قبل وجوب تعلم اللغة العربية في دين الاسلام وكونه مجمعا عليه بين المسلمين كما قرره الامام الشافعي (رض) في رسالته وقد جرى عليه العمل في عهد الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين ثم خلفاء الامويين والعباسيين الى أن كثر الاعاجم وقل العلم وغلب الجهل فصاروا يكتبون من لغة لذين يفرضه في العبادات من القرآن والاذكار (فراجع ذلك في ص ٣١٠ من جزء التفسير التاسع)

واقصد كان النبي ﷺ يذكر على المسلمين كل نوع من أنواع التفرق الذي ينافي وحدتهم وجعلهم أمة واحدة كالجسد الواحد كما شبههم بقوله « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى له عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » رواه الامام أحمد ومسلم من حديث النعمان بن بشير (رض) وكان يخص بمقتته وإنكاره التفرق في الجنس النسبي أو اللغة ، أما الاول فمشهور وأما الثاني فيجمله مع الاول الشاهد الآتي

روى الحفظ ابن عساكر بسنده إلى مالك عن الزهري عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال جاء قيس بن مطاطية الى حلقة فيها سلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال

الحبشي فقال : هذا الاوس والخزرج قد قاموا بنصرة هذا الرجل فما بال هذا ؟
(يعني هذا المنافق بالرجل النبي ﷺ وان الاوس والخزرج من قومه العرب
ينصرونه لانهم من قومه ، فما الذي يدعو الفارسي والرومي والحبشي إلى نصره ؟)
فقام اليه عاذ بن جبل (رضى) فأخذ بتبليبه (أى بما على لبيه ونحره من الثياب)
ثم أتى النبي ﷺ فأخبره بمقالته ، فقام النبي ﷺ مغضباً يجر رداءه حتى أتى
المسجد ثم نودي : ان الصلاة جامعة — وقال ﷺ

« يا أيها الناس ان الرب واحد ، والاب واحد ، وان الدين واحد ،
وايست العربية بأحدكم من أب ولا أم ، وإنما هي اللسان ، فمن تكلم بالعربية
فهو عربي » فقام معاذ ، فقال فما تأمرني بهذا المنافق يا رسول الله ؟ قال « دعه إلى
النار » فكان قيس ممن ارتد في الردة فقتل

أرأيت لو ظل المسلمون على هذه التربية الحمودية أكان وقع بينهم من الشقاق
والحروب باختلاف الجنس واللغة كل ما وقع وأدى بهم إلى هذا الضعف العام ؟
أرأيت لو حافظوا على هذه الاخوة الاسلامية أكانت هذه الغثة من ملاحدة الترك
تجد سبيلاً لاجتثاث هذه الدوحة الباسقة من جنة حكم الاسلام ، وامتلاخ هذا
السيف الصارم من غمده ، والحيلولة بينه وبين كتاب الله المعصوم المنزل من عند الله
بالغة العربية ، وسنة رسوله المصلح لشعوب البشر وهي بالعربية ، لاجل تكوين
هذا الشعب وما أدغم ويدغم فيه من الشعوب تكويناً جديداً ، برابطة لغة تخلق خلقة
جديداً ، لاجل أن يلحق بالشعوب الاوربية دعياً ، كما يلحق الولد بغير أبيه الصاقاً قريباً ،
فيقال ان رجلاً عظيماً جدد أو أوجد شعباً ولغة ودولة وديناً ؟ هيئات هيئات لما يبعثون
لقد كان هذا الشعب (الترك) قائماً باسم الاسلام على رياسة روحية يدين لها
أوبها زهاء اربعمائة مليون من البشر ، ولو أوتي من العلم والحكمة ما يحسن به القيامة ،
ومن الحزم والعزم ما يعزز به القيادة ، ومن النظام ما يحكم به السياسة ، لا يمكنه أن يسوس
بها الشرق ، ثم يسود بنفوذها الغرب ، كما كان يقصد نابليون الكبير لو تم له البقاء في مصر
يعترض بعض أولي النظر القصير والبصر السكيل على توحيد اللغة في الشعوب المختلفة
بأنه خلاف طبيعة البشر ، ويرد عليهم بان توحيد الدين أبعث من توحيد اللغة عن طبيعة

البشر، ان اريد بالبشر جميع أفرادهم، وان الحكماء ما زالوا يسمعون لجمع البشر على لغة واحدة مشتركة مع علمهم أن ترقى بعض اللغات بترقى أهلها في العلوم والفنون والسياسة والقوة يستحيل معه أن يرغبوا عنها إلى غيرها، ولم يسمع أحد منهم لجمعهم على دين واحد، وان القرآن الذي شرع توحيد الدين مع شرعه ولغته لجميع البشر قد علمنا أن حكمة الله تعالى في خلق الانسان تأتي أن يكون الناس كلهم أمة واحدة تدين بدين واحد (١١: ١١٨) ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم) وإنما دعاهم إلى هذه الرحمة ليقل الشقاء الذي يشهده الخلاف فيهم — هذا الخلاف الذي جعل أعلم شعوب الارض وأرقاهم في العمران يبذلون في هذا العهد أكثر مما تستغله شعوبهم من ثروة العالم في سبيل الحروب التي تنذر عمرانهم الخراب والدمار دعا الاسلام البشر كلهم إلى دين واحد يتضمن توحيد اللغة وغيرها من مقومات الامم فكانوا يدخلون فيه أفواجا حتى امتد في قرن واحد ما بين المحيط الغربي إلى الهند ولولا ما طرأ عليه من الابتداع ، وعلى حكوماته من الظلم والاستبداد ، وعلى شعوبه من الجهل والفساد ، والتفرق بالاختلاف، لدخل فيه أكثر البشر، واصارت لغته لغة لكل من دخل في حظيره من الامم ، فمن غرائزهم اختيار الافضل إذا عرفوه

قال أحد كبار علماء الالمان في الاستانة لبعض المسلمين وفيهم أحد شرفاء مكة : انه ينبغي لنا أن نقيم تمثالا من الذهب لمعاوية بن أبي سفيان في ميدان كذا من عاصمتنا (برلين) قيل له لماذا؟ قال لانه هو الذي حول نظام الحكم الاسلامي عن قاعدته الديمقراطية إلى عصبية الغلب ، ولولا ذلك لعلم الاسلام العالم كله ولكننا نحن الالمان وسائر شعوب أوربة عربا مسلمين

فهل يعقل أن يكون تقرير هذه الاصول التي توحد الامم والشعوب وتؤلف بينها بما يجمع كلتهم عليها بالوازع النفسي من الوحي النفسي الذي نبع من نفس محمد ﷺ الا في سن الكهولة ففاق بها جميع الانبياء والحكماء أم الا قرب إلى العقل أن تكون بوحى الله تعالى أفاضه عليه ??

المقصد الخامس من مقاصد القرآن

(تقرير مزايا الاسلام العامة في التكاليف الشخصية من العبادات والمحظورات)
(ونليخص اهمها بالاجمال في عشر جمل)

(١) كونه وسطا جامعاً لحقوق الروح والجسد ومصالح الدنيا والآخرة قال تعالى (١٤٣:٢) وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس) الآية وقد بينا في تفسيرها ان المسلمين وسط بين الذين تغلب عليهم الحظوظ الجسدية والمنافع المادية كاليهود ، والذين تغلب عليهم التعاليم الروحية ، وتعذيب الجسد وإذلال النفس والزهد كالهنادوس والنصارى وإن خالف هذه التعاليم أكثرهم

(٢) كون غايته الوصول إلى سعادة الدنيا والآخرة بتزكية النفس بالايان الصحيح ومعرفة الله والعمل الصالح ومكارم الاخلاق، ومحاسن الاعمال، لا بمجرد الاعتقاد والاتكال ، ولا بالشفاعات وخوارق العادات، وتقدم بيانه

(٣) كون الغرض منه التعارف والتأليف بين البشر لا زيادة التفريق والاختلاف وتقدمت شواهد في كونه عاما مكملا ومتما لدين الله على ألسنة رسله في الكلام على آية القرآن وعموم بعثة محمد ﷺ وفي الكلام على الرسل من المقصد الثاني . وإنما تفصيل أصوله في تلك الوحدات الثمان التي بينها في المقصد الرابع (٤) كونه يسرا لا حرج فيه ولا عسر ولا إرهاق ولا إغناء ، قال الله

عز وجل (٢٨٦:٢) لا يكلف الله نفسا إلا وسعها (وقال بلغت حكمته (٢:٢٢٠) ولو شاء الله لاعتنكم) وقال عظمت رأفته (١٨٥: ٢) يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) وقال جلت منته (٢٧:٢٢) وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج) وقال عمت رحمته (٧:٥) ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج) ومن فروع هذا الاصل ان الواجب الذي يشق على المكلف أدائه ويخرجه يسقط عنه إلى بدل أو مطلقا كالمريض الذي يرجى برؤه والذي لا يرجى برؤه ومثله الشيخ الهرم — الاول يسقط عنه الصيام ويقضيه كالمسافر، والثاني لا يقضي

٢٦٢ يسر الاسلام ومنع الغلو فيه وقلة تكاليفه وسهولتها التفسير : ج ١١

بل يكفر باطعام مسكين إذا قدر . وأما المحرم فيباح للضرورة بنص القرآن ، وإن كان تحريمه أو النهي عنه لسد ذريعة الفساد فيباح للحاجة كما بيناه في تفسير آيات الربا وآيات الصيام ، وآية محرمات الطعام

وقد بينا مسألة يسر الاسلام العام بالتفصيل في تفسير (١٠٤ : ٥) يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤم (من الجزء السابع وجمع في رسالة خاصة . (٥) منع الغلو في الدين وإبطال جعله تمذيباً للنفس باباحة الطيبات والزينة بدون إسراف ولا كبرياء وقد فصلنا ذلك في تفسير الآيات الواردة في الأمر بالأكل من الطيبات في سورة البقرة وسورة المائدة وفي تفسير (٣١ : ٧) يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ٣٢ قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون) وقال تعالى (يا أهل الكتاب لا تغلو في دينكم) وهو في (١٧١ : ٥) و (٧٧ : ٦) وفي هذا النهي اعتبار المسلمين لأنهم أولى بالانتهاء عن الغلو بأن دينهم دين الرحمة واليسر : والاحاديث الصحيحة في نهى المسلمين عن الغلو في العبادة وعن ترك الطيبات وعن الرهبانية والخصاء مبينة لهذه الآيات وهي مصداق تسمية النبي ﷺ له بالخليفة السمحة

(٦) قلة تكاليفه وسهولة فهمها وقد كان الاعرابي يجي النبي ﷺ من البادية فيسلم فيعلمه ما أوجب الله وما حرم عليه في مجلس واحد فيعاهده على العمل به فيقول « أفلح الاعرابي إن صدق » وكان هذا أعظم أسباب قبول الناس له . ولكن الفقهاء أكثروا التكاليف بأرائهم الاجتهادية حتى صار العلم بها متعسراً ، والعمل بها متعذراً

(٧) انقسام التكليف إلى عزائم ورخص ، وكان ابن عباس يرجح جانب الرخص وابن عمر يرجح العزائم . والناس درجات في التقصير والتشهير

والاعتدال ، فيوافق البدوي الساذج والفيلسوف الحكيم وما بينهما من الطبقات ، قال الله تعالى (٢٢:٣٥) ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا : فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات باذن الله ذلك هو الفضل الكبير)

(٨) نصوص الكتاب وهدى السنة مراعى فيهما درجات البشر في العقل والفهم وعلو الهمة وضعفها ، فالقطعي منها هو العام ، وغير القطعي تتفاوت فيه الافهام ، فيأخذ كل أحد منه بما أداه اليه اجتهاده ، ولذلك كان ﷺ يقر كل أحد من أصحابه فيه على اجتهاده كما فعل عند ما نزلت آية البقرة في الحر والميسر الدالة على تحريمها دلالة ظنية فتركها بعضهم دون بعض ، وأقر كلا على اجتهاده الى أن نزلت آيتنا المائدة بالتحريم القطعي . قال تعالى (٤٣: ٢٩) وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون) وبيان ذلك أن الفرائض الدينية العامة فيه والمحرمات الدينية العامة لا يثبتان إلا بنص قطعي يفهمه كل أحد ، والاول مذهب الحنفية وأما الثاني وهو التحريم فهو مذهب جمهور السلف أيضاً ، وأما الآيات الظنية الدلالة والاحاديث الآحادية الظنية الرواية أو الدلالة فهي موكولة إلى اجتهاد من تثبت عنده في العبادات والاعمال الشخصية ، وإلى اجتهاد أولى الامر في الاحكام القضائية والمسائل السياسية . وقد بينا هذا في مواضع من التفسير والمنار

(٩) معاملة الناس بظواهرهم وجعل البواطن موكولة إلى الله تعالى فليس لاحد من الحكام ولا الرؤساء الرسميين ولا خليفة المسلمين أن يعاقب أحداً ولا أن يحاسبه على ما يعتقد أو يضمّر في قلبه وإنما العقوبات على المخالفات العملية للأحكام العامة المتعلقة بحقوق الناس ومصالحهم ، وقد فصلنا هذا في خلاصة تفسير سورة براءة - التوبة (١٠) مدار العبادات كلها على اتباع ما جاء به النبي ﷺ في الظاهر فليس لاحد فيها رأي شخصي ولا رئاسة ، ومدارها في الباطن على الاخلاص لله تعالى وصحة النية ، والآيات والاحاديث في الامرين كثيرة

المقصد السادس من مقاصد القرآن

(بيان حكم الاسلام السياسي الدولي : نوعه وأساسه وأصوله العامة)

الاسلام دين هداية وسيادة وسياسة وحكم لان ما جاء به من إصلاح البشر في جميع شؤونهم الدينية ومصالحهم الاجتماعية والقضائية يتوقف على السيادة والقوة والحكم بالعدل ، وإقامة الحق ، والاستعداد لحماية الدين والدولة ، وفيه أصول وقواعد

(القاعدة الأساسية الاولى للحكم الاسلامي)

الحكم في الاسلام للامة ، وشكله شورى ، ورئيسه الامام الاعظم أو (الخليفة) منفذ لشرعه ، والامة هي التي تملك نصبه وعزله ، قال الله تعالى في صفات المؤمنين (٣٨ : ٤٢) وأمرهم شورى بينهم) وقل لرسوله ﷺ (١٥٩ : ٣) وشاورهم في الامر) وكان ﷺ يشاور أصحابه في المصالح العامة من سياسية وحربية ومالية مما لا نص فيه في كتاب الله تعالى وقد بينت في تفسيرها حكمة ترك الشورى لاجتهاد الامة (١) وقال تعالى (٥٨ : ٤) يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الامر منكم فان تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا) وأولوا الامر هم اهل الحل والعقد والرأي الحصيف في مصالحها الذين تشق بهم الامة وتنبعهم فيما يقررونه بدليل قوله تعالى بعد تلك الآية من سورتها (٨٣) وإذا جاءهم أمر من الامن أو الخوف أذاعوا به . ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الامر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم) فأولو الامر الذين كانوا مع الرسول وكان الامر يراد اليه واليه في الشؤون العامة للامة من الامن والخوف وغيرهما هم الذين كان ﷺ يستشيرهم في الامور الدقيقة والسرية المهمة . وكان يستشير جمهور المسلمين فيما لهم به علاقة عامة ويعمل برأي الاكثر وإن خالف رأيه كاستشارتهم في غزوة أحد في أحد الامرين : الحصار في المدينة أو

الخروج إلى أحد للقاء المشركين فيه . وكان رأيه ورأي بعض كبار الامة الاول ورأي الجمهور الثاني فنفذ رأي الاكثر، ولكنه استشار في مسألة أسرى بدر خواص أولي الامر وعمل برأي أبي بكر ، كما فصلناه في تفسير سورة الانفال

وقد بينت في تفسير الآية الاولى (٥٨:٥) ما تدل عليه من قواعد الحكم الاسلامي وكونه أفضل من الحكم النيابي الذي عليه دول هذا العصر (١)

ومن الدلائل الكثيرة على أن التشريع القضائي والسياسي هو حق الامة المعبر عنها في الحديث بالجماعة أن القرآن يخاطب بها جماعة المؤمنين في هاتين الآيتين الخاصتين بالحكم العام والدولة وفي سائر الاحكام العامة كقوله (براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين) وما يليها من الآيات المتعلقة بالمعاهدات والحرب والصلح ، وما في معناها من سورة الانفال والبقرة وآل عمران ومثل قوله تعالى (٤٩:٩) وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت إحداهما على الاخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله ، فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين) وكذلك خطابه لهم في أحكام الاموال كالغنائم وتخميصها وقسمتها وأحكام النساء وغيرها (وقد بينا هذا كله في مواضعه من التفسير)

وقد صرح كبار النظار من علماء الاصول بان السلطة في الاسلام الامة يتولاها أهل الحل والعقد الذين ينصبون عليها الخلفاء والأئمة ويعزلونهم إذا اقتضت المصلحة عزلهم ، قال الامام الرازي في تعريف الخلافة : هي رئاسة عامة في الدين والدنيا لشخص واحد من الاشخاص . وقال في القيد الاخير (الذي زاده على من قبله) هو احتراز عن كل الامة اذا عزلوا الامام لفسقه . قال العلامة السعد المتفازاني في شرح المقاصد عند ذكر هذا التعريف وما علل به القيد الاخير : وكأنه أراد بكل الامة أهل الحل والعقد واعتبر رئاستهم على من عداهم أو على كل من آحاد الامة اه وقد فصلنا مسألة سلطة لامة في كتابنا (الخلافة أو الامامة العظمى) فهذه القاعدة الاساسية لدولة الاسلام أعظم إصلاح سياسي للبشر قررناها

لقرآن في عصر كانت فيه جميع الامم مرهقة بحكومات استبدادية استعبدتها في أمور دينها ودنياها ، وكان أول منفذ لها رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يكن يقطع بأمر من أمور السياسة والادارة العامة للأمة إلا باستشارة أهل الرأي والمكانة في الامة ، ليكون قدوة لمن بعده

ونم جرى على ذلك الخلفاء الراشدون فقال الخليفة الأول أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) في أول خطبة خطبها على منبر رسول الله ﷺ عقب مبايعته :
أما بعد فقد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإذا استقمتم فأعينوني ، وإذا زغت فقوموني . وقال الخليفة الثاني عمر بن الخطاب (رض) من رأى منكم في عوجا فليقومه . فقال له اعرابي لو رأينا فيك عوجا لقومناه بسيوفنا ، فقال الحمد لله الذي جعل في المسلمين من يقوم عوج عمر بسيفه . وكان يجمع أهل العلم والرأي من الصحابة ويستشيرهم في كل مسألة ايس فيها نص من كتاب الله ولا سنة أوقضا من رسوله ﷺ وقال الثالث عثمان (رض) أمري لأمركم تبع . وكذلك كان عمل الخليفة الرابع علي المرتضى رضي الله عنه وكرم وجهه ولا أذكر له كلمة مختصرة مثل هذه الكلمات على المنبر .

وإذا أوجب الله المشاورة على رسوله فغيره أولى ، ولا يصح أن يكون حكم الاسلام ادنى من حكم ملكة سبأ العربية فقد كانت مقيدة بالشورى ، ووجد ذلك في أمم أخرى ، وإن جهل ذلك من جهله من الفقهاء

ولكن ملوك المسلمين زاغوا بعد ذلك عن هذا الصراط المستقيم إلا قليلا منهم ، وشايعهم علماء الرسوم المنافقون ، وخطباء الفتنة الجاهلون ، حتى صار المسلمون يجهلون هذه القاعدة الأساسية لحكومة دينهم ، وكان من حسن حظ الأفرنج في حربهم الصليبية أن كان سلطان المسلمين الذي نصره الله عليهم يقتني في حكمه أثر الخلفاء الراشدين وعمر بن عبدالعزيز وهو صلاح الدين الايوبي (رح) الذي قال لأحد رجاله المتميزين عنده وقد استعداه على رجل غشه « ما عسى أن أصنع لك وللمسلمين قاض يحكم بينهم والحق الشرعي مبسوط للخاصة والعامة وأوامره ونواهيه ممتثلة ، وإنما أنا عبد الشرع وشحنته ، فالحق يقضي لك أو عليك » ومعنى عبارة السلطان انه ليس إلا

منفذاً لحكم الشرع - كالشحنة وهو صاحب الشرطة - وأن القضاة مستقلون بالحكم لأنهم يحكمون بالشرع العادل المساوي بين الناس. وقد اقتبس الصليبيون منه طريقة حكمه ثم درسوا تاريخ الاسلام فمرفوا منه ما جهله أكثر المسلمين المتأخرين حتى أسسوا حكم دولهم على قاعدة سلطة الامة التي جاء بها الاسلام ، وصاروا يدعونها لأنفسهم ، ويعيرون الحكومات الاسلامية باستبدادها ، ثم يجعل الاسلام نفسه سبب هذا الاستبداد والحكم الشخصي، وصار المسلمون يصدقونهم ويرى المشتغلون بالسياسة وعلم الحقوق منهم انه لا صلاح لحكوماتهم إلا بتقليدهم ، فكان هذا من أسباب ضياع اعظم مزايا الاسلام السياسية التشريعية وذهاب أكثر ملامحه

(أصول التشريع في الاسلام)

المعروف عند جمهور أهل السنة ان أصول التشريع الاساسية أربعة (١) القرآن المجيد ، والمشهور عند علماء الاصول ان آيات الاحكام العملية فيه من دينية وقضائية وسياسية لا تبلغ عشر آياته ، وعددها بعضهم خمسمائة آية للعبادات والمعاملات ، والظاهر انهم يعنون الصريح منها وأكثرها في الامور الدينية لان أكثر أمور الدنيا موكولة إلى عرف الناس واجتهادهم (٢) ماسنه رسول الله ﷺ للعمل والقضاء به من بيان لكتاب الله تعالى وقالوا أيضا ان أحاديث الاحكام الاصول خمسمائة حديث تمدها أربعة آلاف فيما أذكر (٣) إجماع الامة واتفق الائمة على الاحتجاج بإجماع الصحابة في الدينيات ، وفي إجماع المجتهدين بعدم تفصيل (٤) اجتهاد الائمة والامراء والقضاة والقواد في الامور القضائية والسياسية والادارية والحربية ، وخصه بعض الفقهاء بالقياس وأنكر بعضهم القياس وقيده آخرون كما فصلنا ذلك في تفسير آية (١٠١:٥) وورد في هذا الترتيب أحاديث وآثار تدل على العمل به في عهد النبي ﷺ والخلفاء الراشدين (منها) حديث معاذ أن النبي ﷺ لما أرسله إلى اليمن قال له « كيف تصنع إذا عرض لك قضاء ؟ » قال أقضي بما في كتاب الله ، قال « فان لم يكن في كتاب الله ؟ » قال فبسنة رسول الله ﷺ قال « فان لم يكن في سنة رسول الله ﷺ » قال أجتهد رأيي لا آلو . قال معاذ : فضرب رسول الله ﷺ صدره ثم

قال « الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله (ص) رواه أبو داود والترمذي من طريق الحارث بن عمرو وفيه مقال وله شواهد ، وأما العمل بهذا الترتيب فهو معروف عن الخلفاء الراشدين وقد بيناه في محله وبه أمر عمر (رض) قاضيه شريح في كتابه المشهور في القضاء ولكن الفقهاء يقدمون الاجماع حتى العرفي عند علماء الاصول - وهو مختلف فيه - على النص .

والاصل في شرعية اجتهاد الرأي للحكام حديث « إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر واحد » رواه الجماعة كلهم بل كان النبي ﷺ يعطي أمراء الجيوش والسرايا حق الحكم بما يرون فيه المصلحة بقوله للواحد منهم « وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك على أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله ولكن أنزلهم على حكمك فانك لا تدري أنصيب فيهم حكم الله أم لا » رواه أحمد ومسلم والترمذي وابن ماجه من حديث بريدة . وقال مثل ذلك في إنزالهم على دمة الاميردون دمة الله ورسوله لئلا يخفروا .

(قواعد الاجتهاد من النصوص)

أحكام الكتاب والسنة منها أحكام خاصة بالاعمال والوقائع ومنها قواعد عامة للتشريع ، والاحكام الخاصة منها ما هو قطعي الرواية والدلالة لاجمال للاجتهاد فيه ولا معدل عن الحكم به إلا لما نفع شرعي من فوات شرط كدرء حد بشبهة أو عذر ضرورة ، وقد أمر عمر (رض) في المجاعة ألا يحبس سارق . ومنها ما هو غير قطعي يعمل فيه باجتهاد من يناط به الحكم والتنفيذ من أمير أو قاض أو قائد جيش كما تقدم قريباً في العبادات والمحرمات .

وأما القواعد العامة فهي ما تجب مراعاته في الاحكام المختلفة ، وأهمها في الاسلام تحري الحق والعدل المطلق العام ، والمساواة في الحقوق والشهادات والاحكام ، وتقرير المصالح ، ودرء المفسد ، ومراعاة العرف بشرطه ، ودرء الحدود بالشبهات وكون الضرورات تبيح المحظورات ، وتقدير الضرورة بقدرها . ودوران المعاملات على اكتساب الفضائل ، واجتناب الرذائل ، ونكتفي بالشواهد في العدل والظلم

(نصوص القرآن في ايجاب العدل المطلق والمساواة فيه وحظر الظلم)

لما كان العدل أساس الاحكام وميزان التشريع وقسطاسه المستقيم أكد الله تعالى الامر به والمساواة فيه بين الناس في السور المكية والمدنية . قال تعالى (١٦ : ٩٠) ان الله يأمر بالعدل والاحسان) وقال (٤ : ٥٧) ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل) وقال (٥ : ١٣٥) يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما ، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ، وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً)

أمر تعالى المؤمنين بالمبالغة في القيام بالقسط وهو العدل فإن القوام (بتشديد الواو) صيغة مبالغة للفاعل بالقيام بالامر وعدم التهاون والتقصير فيه، وبأن تكون شهادتهم في المحاكمات وغيرها لله عز وجل لا لهوى ولا مصلحة احد ، ولو كانت على أنفسهم أو والديهم والأقربين منهم ، وأن لا يحبوا فيها غنياً لغناه تقرباً اليه أو تكريماً له ، ولا فقيراً لفقره رحمة به وشفقة عليه ، ونهاهم عن اتباع الهوى في الحكم أو الشهادة كراهة ان لا يعدلوا فيها لمراعاة من ذكر من الناس ، وأنذرهم عقابه إن لووا ومالوا عن الحق أو أعرضوا عنه

وقال تعالى (٥ : ٨) يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون) فهذه الآية متممة لما قبلها فهناك يأمر بالمساواة في العدل والشهادة بين النفس وغيرها ، وبين القريب والبعيد ، وبين الغني والفقير ، وههنا يأمر بالمساواة فيها بين الانسان وأعدائه مهما يكن سبب عداوتهم لافرق فيها بين ديني ودنيوي ، فالشنآن البغض والعداوة وقيل مع الاجتهاد وقد قال (ولا يجرمنكم

شأن قوم على أن لا تعدلوا) لا يحملنكم بغضهم وعداوتهم لكم او بغضكم وعداوتكم لهم على ترك العدل فيهم ، فالعدل بالمساواة اقرب الى تقوى الله ، وأنذر تارك العدل للشأن بمثل ما أنذر به تاركة للمحاربة ، أنذر كلا منهما بأن الله خير بما يعمله لا يخفى عليه منه شيء ، فهو يحاسبه على عمله وعلى نيته وقصده منه ، فيثيبه او يعاقبه على ما يعلم من امره فالعدل هو الميزان في قوله تعالى (٤٢ : ١٧) الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان) وقوله (٥٧ : ٢٥) لقد أرسلنا رسالنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس) الآية : فخير الناس من يصد هم عن الظلم والعدوان هداية القرآن ، ويليه من يصد هم العدل الذي يقيمه السلطان ، وشرهم من لا علاج له إلا السيف والسنان ، وهو المراد بالحديد فقوام صلاح العالم بالايان بالكتاب الذي يحرم الظلم وسائر المفاسد فيجتنبها المؤمن خوفا من عذاب الله في الدنيا والآخرة ورجاء في ثوابه فيها ، وبالعدل في الاحكام الذي يردع الناس عن الظلم بعقاب السلطان

ويؤيد قاعدة إقامة العدل ماورد في تحريم الظلم والوعيد الشديد عليه . فقد ذكر الظلم في مئات من آيات القرآن اسوأ الذكر ، وقرن في بعضها بأسوأ العواقب في الدنيا والآخرة ، وان الجزاء عليه فيها اثر لازم له لزوم المعلول للعللة والمسبب للسبب ، وان الناس هم الذين يظلمون أنفسهم (ولا يظلم ربك احداً) ومن اثره وعاقبته في الدنيا انه مهلك الامم ومخرب العمران . قال تعالى (وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون) اي ما كان من شأننا ولا من سنته في نظام الاجتماع ان يهلك الامم بظلم منه لهم ، او بشرك به يقع منهم ، وهم مصلحون في سيرتهم وأعمالهم ، وإنما يهلكهم بظلمهم وإفسادهم ، كما قال (وتلك القرى اهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا) وقال في الاحكام (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون) ورد هذا في حكم القصاص ،

(قواعد مراعاة الفضائل في الاحكام والمعاملات)

من استقرأ الاحكام الشرعية في الكتاب والسنة بأنواعها من شخصية ومدنية وسياسية وحربية يرى أن الغرض منها كلها قاعدة مراعاة الفضائل فيها من الحق والعدل والوفاء بالعهود والعقود ، والرحمة والمحبة والمواساة والبر والاحسان ، واجتناب الرذائل من الظلم والغدر ونقض العهود والعقود والكذب والخيانة والقسوة والغش والخداع وأكل أموال الناس بالباطل كالربا والرشوة والسحت وشره التجارة بالدين والخرافات . وسيأتي الكلام في الإصلاح الحربي والعبرة في كل هذه القواعد التي فضل بها الاسلام جميع شرائع الانبياء وقوانين الحكماء والعلماء أنها قد جاءت على لسان نبي أمي نشأ بين أميين ، فهل كانت بوحي نبع بعد الكهولة من نفسه ، أم هو كما بلغنا وحي من ربه ؟

المقصد السابع من فقه القرآن

(الارشاد إلى الإصلاح المالي)

(تمهيد) بينا مقاصد القرآن أو أصول فقهه في إصلاح البشر من طريق الدين والايمان ، والعمل والأذعان ، ومن طريق العقل والبرهان والفكر والوجدان ، ومن طريق الحكيم العادل والسلطان ، وما يتعلق منه بالأفراد ، وما يتعلق منه بوحدة الانسانية والاجناس ، وبقي ما يتعلق بفقهه في إصلاح المفاصل الاجتماعية الكبرى الذي يتوقف كماله على ما تقدم كاه وهي : — (١) طغيان الثروة ودولتها (٢) عدوان الحرب وقسوتها (٣) ظلم المرأة واستباحتها (٤) ظلم الضعفة والاسرى وسلب حريتها ، وهو الرق المطلق — ذلك بان جميع حظوظ الدنيا منوطة بها ، ولا يتم الإصلاح فيها إلا بتعاون الدين والعقل ، والعلم والحكمة والحكم ، وإننا نتكلم عليها بالاجمال ، مبتدئين بالمدل ، والآيات فيه تدور على سبعة أقطاب ، فنقول :

(١ — القاعدة العامة في المال كونه فتنه واختباراً في الخير والشر)

القاعدة الاساسية للقرآن في المال انه فتنة أي اختبار وامتحان للبشر في حياتهم الدنيوية من معاش ومصالح اذ هو الوسيلة إلى الاصلاح والافساد، والخير والشر، والبر والفجور، وهو مثار التنازع والتنافس في كسبه وإنفاقه، وكنزه واحتكاره، وجعله دولة بين الاغنياء، وتداوله في المصالح والمنافع بين الناس قال الله عز وجل (١٨٦ : ٣) لتبلون في أموالكم وأنفسكم) وقال حكاية عن نبيه سليمان عليه السلام حين رأى عرش ملكة سبأ مستقراً عنده (٤٠ : ٢٧) هذا من فضل ربي ليبلوني أشكر أم أكفر) الآية . وقال (٣٤ : ٣٧) وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً فاولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا) الآية وقال [٣٠ : ٣٩] وما آتيتم من ربا ليربو في اموال الناس فلا يربو عند الله، وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون [وقال [١٤ : ٣] زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة [الآية وقال تعالى [٨ : ٢٨] واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم [ومثلها في سورة التغابن [٦٤ : ١٥] ويليها الترغيب في الانفاق وقصر الفلاح على الوفاية من شح النفس . وقال تعالى [١٨ : ٤٦] المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخيراً أملاً [انظر هذا مع قوله تعالى في اول هذه السورة وهي الكهف [٧] إنا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم أيهم احسن عملاً [والمراد من العمل ما يتعلق بما على الارض من العمران وأحسنه أنفعه للناس وأرضاه لله بشكره، ثم ماضربه من المثل بصاحبي الجنة ، والمثل للحياة الدنيا بنبات الارض . وقال تعالى في تعليل قسمة الفيء بين مستحقيه [٥٩ : ٧] كي لا يكون دولة بين الاغنياء منكم [والدولة بضم الدال المال المتداول أي ثلثا يكون المال محصوراً

في الاغنياء متداولاً بينهم وحدهم . وقال تعالى [٣٤: ٩] والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعباب آليم / الخ السكّنز هو المنع من التداول الذي يكون به المال نافعا للناس

والشواهد في فتنه المال في القرآن كثيرة تجد الكلام عليها في مواضع من هذا التفسير ولا سيما الجزء العاشر منه ^(١) فمن الآيات في ارتباط السعادة والفلاح بانفاق المال والشقاء بمنعه ما هو للترهيب وما هو للترغيب ، وجمع بين الترغيب والترهيب في قوله [١٩٥ ، ٢] وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة [الآية (٢)] أي ان منع انفاق المال في سبيل الله من أسباب التهلكة . ثم قال في الترغيب (وأحسنوا إن الله يحب المحسنين) أو كما قوله تعالى من سورة الليل [١١-٦٤٩٢] ويؤيد ذلك شواهد القطب الثاني من آيات الدل وهي :

(٢ - الآيات في ذم طغيان المال وغروره وصدده عن الحق والخير)

قال تعالى في سورة العلق [كلا إن الانسان ليطغى * أن رآه استغنى] أي حقاً ان الانسان ليتجاوز حدود الحق والعدل والفضيلة برؤية نفسه غنياً بالمال . وقد نزلت هذه وما بعدها في أبي جهل أشد أعداء النبي ﷺ والاسلام في أول ظهوره وهي أول ما نزل في ذلك . ومثلها سورة [تبت يدا أبي لهب وتب * ما أغنى عنه ماله وما كسب] الخ ومثلها سورة الهمزة [الذي جمع ما لا وعدده * يحسب أن ماله أخذه] الخ وفي معناها آيات من سورتي المدثر والقلم وغيرها

(٣ - ذم البخل بالمال والكبرياء به والرياء في انفاقه)

قال تعالى (٣: ١٨٠) ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم ، سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة) وقال (٢ : ٢٦٠) الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء) الآية . فسرُوا الفحشاء بالبخل أي الشيطان

(١) راجع في فهرسه كلمة المال فتنته (٢) ص ١٣ ج ٢ تفسير . طبعة ثانية

٢٧٤ مدح المال والغنى بكونه من نعم الله وجزائه على الإيمان والعمل التفسير : ج ١١

يصدكم عن الانفاق في سبيل الله بتخويفكم من الفقر ويأمركم بالبخل الذي فحش شره وضرره . وقال بعد الامر بالاحسان بالوالدين وبذي القربى واليتامى والمساكين والجيران (٤ : ٣٥) والله لا يحب كل مختال فخور ٣٦ الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل (ومن الشواهد آيات ٩ : ٧٧ و ٧٨ وآية ٤٧ ، ٣٨ وآية ٤ : ١٩ وآية ٢ : ١٨٨ وآية ٤ : ١٦١ وآية ٤ : ١٩ وآية ٤٩ : ٣٤ و ٣٥)

(٤ - مدح المال والغنى بكونه من نعم الله وجزائه على الإيمان والعمل الصالح)

قال تعالى في سورة نوح عليه السلام حكاية عنه [فقلت استغفروا ربكم انه كان غفاراً * يرسل السماء عليكم مدراراً * ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً] وفي معناه ما حكاه عن هود عليه السلام في سوره [١١ : ٥٢] وفي معناه قوله تعالى من سورة الجن [٧٢ : ١٣ - ١٧] والأصل في ذلك كما بيان نعمته على آدم وحواء وذريتهما بهداية الدين في آخر قصته من سورة طه [٢٠ : ١٢٢ و ١٢٣] الآيات .

ومن الشواهد على هذه الحقيقة التي غفل عنها المفسرون وغيرهم قوله تعالى عطفاً على الامر بمنع المشركين من دخول المسجد الحرام (٩ : ٢٨) وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء) أي وإن خفتم فقراً يعرض لكم بحرمان مكة مما كان ينفقه فيها المشركون في موسم الحج وغيره فسوف يغنيكم الله تعالى بالاسلام وفتوحه وغناؤه ^١ وكذا قوله للذين أعطوا الفداء من أسرى بدر [٨ : ١٠٠] إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم [وكذلك كان ، فقد أغنى الله العرب الفقراء عامة ومن أسلم من أولئك الأسرى بالاسلام ، فجعلهم أغنى الأمم والاقوام ^٢] وقد امتن الله تعالى على نبيه الاعظم بقوله (ووجدك عائلاً فأغنى) وامن على قومه بتوفيرهم للتجارة الواسعة برحلة الشتاء والصيف في سورة خاصة بذلك ، وسمى المال الكثير خيراً بقوله في صفات الانسان (وانه لحب الخير لشديد) وقال (٢ : ١٨٠) إن ترك خيراً الوصية للوالدين والاقربين) الآية

(١) راجع تفسير الآية في ص ٢٧٧ ج ١٠ تفسير (٢) راجع ص ١٠٠ منه

٥ — ما أوجب الله من حفظ المال من النضياح والاقتصاد فيه ﴿

قال تعالى (٥:٤) ولا توتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قيام الشيء وقوامه (بالكسر والفتح) ما يستقيم به ويحفظ ويثبت ، أي جعلها قوام معيشكم ومصالحكم ، والسفهاء هم المسرفون المبذرون لها لصغر سنهم دون الرشد أو لفساد أخلاقهم وضعف عقولهم وقال تعالى في صفات المؤمنين (٦٧:٢٥) والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما (الاسراف التبذير والافراط والقتل والقتور والاقتار الاقلال والتضييق في النفقة

٦ — إنفاق المال آية الايمان والوسيلة لحياة الامة وعزة الدولة)

هذا هو القطب الاعظم من أقطاب الآيات المنزلة في المال وأكثرها فيه، وما ذكر قبله وسائل له، وما بعده بيان للعمل به، وأظهر الشواهد فيه ان الله تعالى جعله هو الفصل بين الاسلام الصحيح المقترن بالاذعان، المبني على اساس الايمان، وأن دعوى الايمان بدون شهادته باطلة، وإن كانت دعوى الاسلام تقبل مطلقا لان احكامه العملية تبني على الظواهر، والله تعالى هو الذي يحاسب على السرار، والاصل في هذه المسألة قوله تعالى (٤٩: ١٤ و ١٥) قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا (الآيتين فقدم الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس في تحقيق صحة الايمان. ويلى هذا الشاهد آية البر الناطقة بان بذل المال على حبه بالاختيار، أول آيات الايمان، (١٧٧: ٢) ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب (الخ ومن الآيات في تفضيل المؤمنين المنفقين على غيرهم وتفاوتهم في ذلك قوله تعالى (٩٥: ٤) لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلاً وعد الله الحسنى (اقرأ تمة الآية وما بعدها . وقال تعالى (١٠: ٥٧) وما لكم ألا تنفقوا في سبيل الله ولله ميراث السموات والارض، لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل، أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد

وقالتوا، وكلاً وعد الله الحسنى) والآيات في هذا الموضوع كثيرة، ويراجع تفصيلها في تفسير الجزء الثاني والجزء العاشر وهذا الجزء [١١] من التفسير ومن الآيات البليغة في الترغيب فيه ومضاعفة ثوابه، وبيان آدابه، عشرون آية من أواخر سورة البقرة هي من أواخر ما نزل من القرآن ينخللها الوعيد الشديد على أكل الربا فراجعها من آية ٢٦١-٢٨١ مع تفسيرها من جزء التفسير الثالث ثم راجع في فهرس الجزء العاشر كلمة (المال: الجهاد به أقوى آيات الايمان وقوام الدين والدولة) يرشدك الى عشر صفحات متفرقة فصلنا فيها هذه المسألة

﴿٧ الحقوق المفروضة والمندوبة في المال والاصلاح المالي في الاسلام﴾

قد عقدت لتفسير قوله تعالى (٩ : ١٠٣ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها) فصلاً « في فوائد الزكاة المفروضة والصدقات والاصلاح المالي للبشر وامتنياز الاسلام بذلك على جميع الاديان » ولخصت أصول هذا الاصلاح في أربعة عشر أصلاً، فراجعها فما هي منك ببعيد (ص ٢٧) وموضوع بحثنا في هذا الاستطراد وهو دلائل الوحي الحمدي انه لا يعقل أن يكون محمد النبي الامي الذي عرفنا خلاصته تاريخه قد اهتدى بعقله أو بوحى من نفسه لنفسه إلى هذه الحقائق التي قاقت وعلت جميع الكتب الالهية والبشرية في أرق عصور العلم والحكمة والقوانين، وإنما المعقول ان يكون هذا بوحى منه عز وجل أفاضه على خاتم النبيين فلا يحتاجون بعده إلى وحي آخر

المقصد الثامن من فقه القرآن

﴿اصلاح نظام الحرب ودفع مفاسدها وقصرها على ما فيه الخير للبشر﴾

التنازع بين الاحياء في مرافق المعيشة ووسائل المال والجاه غريزة من غرائز الحياة، وإفضاء التنازع إلى التعادي والاقتتال بين الجماعات والاقوام، سنة من سنن الاجتماع، أو ضرورة من ضروراته، فذلكون وسيلة من وسائل العمران، فإن كان

(التفسير : ج ١١) خطر الحرب في زماننا ودخل معاهداتها المفسدة لها ٢٧٧

التنازع بين الحق والباطل كان الفلج للحق ، وإن كان بين العلم والجهل كان الظفر للعلم ، وإن كان بين النظام والاختلال كان النصر للنظام ، وإن كان بين الصلاح والفساد كان الغلب للصلاح ، كما قال تعالى في الحق والباطل (٢١ : ١٨) بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق) وقال في بيان نتيجة المثل الذي ضربه لها (١٣ : ١٧) فلما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض)

وأما التنازع والتعادي والتقاتل على الشهوات الباطلة ، والسلطة الظالمة ، واستعباد القوي للضعيف ، والاستكبار والعلو في الأرض ، فإن ضرره كبير ، وشره مستطير ، يزيد ضراوة البشر بسفك الدماء ، وبورثهم الحق ويورث بينهم العداوة والبغضاء ، وقد اشتدت هذه المفسدات في هذا الزمان ، حتى خيف أن تقضي على هذا العمران العظيم في وقت قصير ، بما استحدثه العلم الواسع من وسائل التخريب والتدمير ، كالمغازات السامة ومواد الهدم والتحريق تقذفها الطائرات المحلقة في جو السماء ، على المدائن المكتظة بالآلاف من الرجال والنساء والأطفال ، فتقتلهم في ساعة واحدة أو ساعات معدودة

وقد حارت الدول الحربية في تلافي هذا الخطر ، وترى دهاقين السياسة في كل منها يتفاوضون مع أقرانهم لوضع نظام لتقرير السلام ، ودرء مفسد الخصام ، بمعاهدات يعقدونها ، وأيمان يتقاسمونها ، ثم ينفضون خائبين ، أو ينقضون ما أبرموا متأولين ، ويعودون إلى مثله مخادعين

وقد بين الله تعالى في كتابه سبب هذه الخيبة بما وجدنا مصداقه في هذه الدول بأظهر مما كان في عرب الجاهلية الذين نزل هذا البيان في عهدهم ، كأنه نزل في هؤلاء الأفرنج دون غيرهم ، وهو من عجائب القرآن في لفظه ومعناه. وذلك قوله تعالى بعد الأمر بالإيفاء بعهده ، والنهي عن نقضه (١٦ : ٩٢) ولا تكونوا كآتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة) والمعنى لا تكونوا في نقض عهودكم والعود إلى تجديدها كالمراة الحقةاء التي تنقض غزلها من بعد قوة إبرامه نقض أنكاث (وهو جمع نكث بالكسر ما نقض ليغزل مرة أخرى) حال كونكم تتخذون عهودكم دخلا بينكم

(والدخل بالتحريك الفساد والغش الخفي الذي يدخل في الشيء وما هو منه) لاجل ان تكون أمة أربي من أمة أخرى رجالا ، وأكثر رجحا ومالا ، وأقوى اسنة ونصالا والمراد ان معاهدات الصلح والاتفاق بين الامم يجب أن يقصدها الاصلاح والعدل والمساواة فتبنى على الاخلاص دون الدخل والدغل الذي يقصد به ماذكر ولو طلبوا المخرج والسلامة من هذا الخطر لوجدوها في دين الاسلام ، فهو هودين الحق والعدل والسلام ، وهاك بعض الشواهد على هذا من قواعد الحرب والسلم في آيات القرآن .

﴿ أهم قواعد الحرب والسلام ، في دين الاسلام والشواهد عليها من آيات القرآن ﴾

قد استنبطنا من آيات سورة الانفال ٢٨ قاعدة من القواعد الحربية العسكرية والسياسية في القتال والصلح والمعاهدات أجملناها في الباب السابع من خلاصة تفسير السورة (ص ١٣٩ - ١٤٤ من جزء التفسير العاشر) وأحطنا في تفصيلها على تفسير الآيات المستنبطة منها ، ثم استنبطنا من آيات سورة التوبة ١٣ قاعدة حربية أكثرها في المعاهدات ووجوب الوفاء بها وشرط نبذها وفي الهدنة وتأمين الحربي للدخول في دار الاسلام - و ٢٠ حكما من أحكام الحرب والجزية سردها في خلاصة تفسير هذه السورة (*) ثم أتينا ببضع قواعد منهما ومن غيرها من السور فيما أفردناه من هذا البحث ، لان المقام مقام إيراد الشواهد المجملة على أنواع الاصلاح الاسلامي من القرآن للاستدلال بها على ان جملة هذه العلوم لا يعقل أن تكون كلها من آراء محمد النبي الامي الذي عاش قبل النبوة عيشة العزلة والانفراد ، إلا قليلا من رعي القمح في الصبا والتجارة في الشباب . وقد قصرت عن كل نوع منها كتب الاديان الالهية ، وكتب الحكمة والقوانين البشرية

﴿ القاعدة الاولى في الحرب المفروضة شرعا ﴾

ورد الامر بقتال المعتدين لما سيأتي من درء المفسد وتوطيد المصالح مقترنا بالنهي عن قتال الاعتداء والبغي والظلم ، والشاهد عليه قوله تعالى (٢ : ١٩٠) وقتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين) وتعليل النهي عن قتال الاعتداء بأن الله تعالى لا يحب المعتدين مطلقا دليل على أن هذا النهي محكم غير قابل للنسخ ، ومن ثم يبين في تفسير هذه الآية من جزء التفسير الثاني أن حروب النبي ﷺ للكفار كانت كلها دفاعا ليس فيها شيء من العدوان ،

﴿ القاعدة الثانية في الغرض من الحرب ونتيجتها ﴾

وهي أن تكون الغاية الايجابية من القتال — بعد دفع الاعتداء والظلم واستتباب الأمن — حماية الاديان كلها ، وعبادة المسلمين لله وحده ، ومصالحة البشر ، وإسداء الخير اليهم ، لا الاستعلاء عليهم والظلم لهم ، والشاهد الاول عليه قوله تعالى بعد الاذن الاول بالقتال الدفاعي المظلومين الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق لاجل عبادة الله وحده (٢٣ : ٤٠) ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز ٤١ الذين إن مكناهم في الارض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الامور)

ذكر في تعليل اذنه لهم بالقتال المذكور ثلاثة أمور (أولها) كونهم مظلومين معتدى عليهم في أنفسهم ، ومخرجين نفيا من أوطانهم وأموالهم لاجل دينهم وإيمانهم ، وهذا سبب خاص بهم بقسميه الشخصي والوطني ، أو الديني والدنيوي (ثانيها) إنه لولا إذن الله للناس بمثل هذا الدفاع لهدمت جميع المعابد التي يذكر فيها اسم الله تعالى أتباع الانبياء كصوامع العباد وبيع النصراني وصلوات اليهود

٢٨٠ قاعدة ايثار السلم على الحرب ، وقاعدة التسلاح السلمى (التفسير ج ١١)

(كئناسهما) ومساجد المسلمين بظلم عباد الاصنام ومنكري البعث والجزاء ، وهذا سبب دينى عام صريح فى حرية الدين فى الاسلام وحماية المسلمين لها ولعابدها ، وكذلك كان (ثالثها) أن يكون غرضهم من التمكن فى الارض والحكم فيها إقامة الصلاة المزكية للانفس بنهيها عن الفحشاء والمنكر كما وصفها تعالى ، والمربية للانفس على مراقبة الله وخشيته ومحبته - وإيتاء الزكاة المصاحبة للأمور الاجتماعية والاقتصادية - والامر بالمعروف الشامل لكل خير ونفع للناس - والهي عن المنكر الشامل لكل شر وضر يلحق صاحبه او غيره من الناس

(القاعدة الثالثة — إيثار السلم على الحرب)

هذه القاعدة مبنية على القاعدتين اللتين قبلها اذ علم بهما أن الحرب ضرورة يقتضيها ما ذكر فيهما من المصالح ودفع المقاسد ، وان السلم هي الاصل التي يجب أن يكون عليها الناس ، فلمذا أمرنا الله بإيثارها على الحرب اذا منح العدو لها ، ورضي بها ، والشاهد عليه قوله تعالى (٨ : ٦١) وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم) فراجع تفسيرها فى ص ٦٩ و ١٤٠ من جزء التفسير العاشر

(القاعدة الرابعة الاستعداد التام للحرب لأجل الارهاب المانع منها)

إن الذي يجب أن تكون عليه الدولة قبل الحرب هو إعداد الامة كل ما تستطيع من أنواع القوة الحربية ورباط الخيل فى كل زمان بحسبه على أن يكون القصد الاول من ذلك إرهاب الاعداء وإخافتهم من عاقبة التعدي على بلاد الامة أو مصالحها ، أو على أفراد منها أو متاع لها حتى فى غير بلادها ، لأجل أن تكون آمنة فى عقر دارها ، مطمئنة على أهلها ومصلحتها وأموالها ، وهذا ما يسمى فى

عرف هذا العصر بالسلم المسلحة أو التسليح السلمي ، وتدعيه الدول العسكرية فيه زوراً وخداعاً فتكذبها أعمالها ، ولكن الإسلام امتاز على الشرائع كلها بأن جعله ديناً مفروضاً ، فقيده به الأمر بأعداء القوى والمرابضة للقتال ، وذلك قوله عز وجل (٨ : ٦٠) وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم)

(القاعدة الخامسة الرجعة في الحرب)

إذا كان الغلب والرجحان في القتال للمسلمين المعبر بالاثخان في الاعداء وأمنوا على أنفسهم ظهور العدو عليهم فله تعالى بأمرهم أن يكفوا عن القتال ، ويكتفوا بالأسر ، ثم يخيروهم في الأسارى إما بالمن عليهم بإطلاقهم بغير مقابل ، وإما بأخذ الفداء عنهم ، وذلك نص قوله تعالى في سورة محمد ﷺ (٤٧ : ٤) فإذا لقيتم الذين كفروا فاضرب الرقاب ، حتى إذا اثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما مناً بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ، ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض) الآية وقد أوردناها وبيننا معناها (في تفسير ٨ ، ٦٧ ما كان النبي أن يكون له أمرى حتى يشخن في الأرض الآية) (راجع تفسيرها في الجزء العاشر)

(القاعدة السادسة الوفاء بالمعاهدات وتحريم الخيانة فيها)

وجوب الوفاء بالمعهود في الحرب والسلم وتحريم الخيانة فيهما سرا أو جهرا ، كتحریم الخيانة في كل أمانة مادية أو معنوية ، كلاهما من أحكام الإسلام القطعية ، والآيات في ذلك متعددة محكمة لا تدع مجالاً لاجتهاد نقض العهد بالخيانة فيه وقت القوة ، وعده قصاصة ورق عند إمكان نقضه بالحيلة (منها) والآيات فيها كثيرة تقدم أهمها في الجزء العاشر من التفسير ^(١)

﴿ القاعدة السابعة الجزية وكونها غاية للقتال لاعلة ﴾

قلت في تفسير قوله تعالى في قتال أهل الكتاب من آية الجزية (٢٩: ٩) حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون (مائنه :

هذه غاية للأمر بقتال أهل الكتاب ينتهي بها اذا كان الغلب لنا ، أي قاتلوا من ذكر عند وجود ما يقتضي وجوب القتال كالاغتيال أو على بلادكم أو اضطهادكم وفتنتكم عن دينكم أو تهديد أمنكم وسلامتكم كما فعل الروم فكان سبباً لغزوة تبوك ، حتى تأمنوا عدوانهم باعطائكم الجزية في الحالين اللذين قيدت بهما (ثم قلت)

هذا - وان الجزية في الاسلام لم تكن كالضرائب التي يضعها الفاتحون على من يتغلبون عليهم فضلاً عن المقارم التي يرهقونهم بها ، وإنما هي جزاء قليل على ما تلزمه الحكومة الاسلامية من الدفاع عن أهل الذمة وإعانة للجند الذي يمنهم أي يحميهم ممن يعتدي عليهم كما يعلم من سيرة أصحاب رسول الله ﷺ وهم أعلم الناس بمقاصد الشريعة وأعداهم في تنفيذها . والشواهد على ذلك كثيرة أوردنا طائفة منها في تفسير الآية بعد ما تقدم آنفاً (١)

ومن تأمل هذه القواعد رأى انه لم يسبق الاسلام إلى مثلها دين من الأديان ، ولا قانون دولي ، ولا إرشاد فلسفي أو أدبي ، ولا تبعته بها أمة بتشريع ولا عمل . أفليس هذا وحده دليلاً واضحاً لدى من يؤمن بوجود رب للبشر عليم حكيم ، بأن محمداً العربي الامي قد استمدّها بوحي منه عز وجل ، وان عقله وذكاءه لم يكن ليبلغ هذه الدرجة من العلم والحكمة في هذه العضلات الاجتماعية بدون هذا الوحي ؟ فكيف إذا أضفنا إليها ما تقدم وما يأتي من المعارف الالهية والادبية والاجتماعية والانباء الغيبية وغير ذلك من دلائل نبوته ﷺ ؟

المقصد التاسع من فقه الفرائد

﴿ إعطاء النساء جميع الحقوق الانسانية والدينية والمدنية ﴾

كان النساء قبل الاسلام مظلومات ممتحنات مستعبدات عند جميع الامم وفي جميع شرائعها وقوانينها ، حتى عند أهل الكتاب ، حتى جاء الاسلام ، وأكل الله دينه ببعثة خاتم النبيين محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، فأعطى الله النساء بكتابه الذي أنزله عليه ، وبسننه التي بين بها كتاب الله تعالى بالقول والعمل ، جميع الحقوق التي اعطاها للرجال ، إلا ما يمتنضيه اختلاف طبيعة المرأة ووظائفها النسوية من الاحكام ، مع مراعاة تكريمها والرحمة بها والمطف عليها ، حتى كان النبي ﷺ يقول « ما أكرم النساء إلا كريم ، ولا أهانهن إلا لئيم » رواه ابن عساكر من حديث علي (ع.م) واني أشير هنا الى أهم أصول الاصلاح النسوي التي بسطتها بكتاب وسيط في حقوق النساء في الاسلام بينت في مقدمته حالهن قبل البعثة المحمدية عند أمم الارض اجمالاً بقولي :

« كانت المرأة تشتري وتباع ، كالبهيمة والمتاع ، وكانت تكره على الزواج وعلى البغاء ، وكانت تورث ولا ترث ، وكانت تملك ولا تملك ، وكان اكثر الذين يملكونها يحجرون عليها التصرف فيما تملكه بدون إذن الرجل ، وكانوا يرون الزوج الحق في التصرف بما لها من دونها ، وقد اختلف الرجال في بعض البلاد في كونها انساناً ذات نفس وروح خالدة كالرجل ام لا ؟ وفي كونها تلقن الدين ونصح منها العبادة أم لا ؟ وفي كونها تدخل الجنة أو الملكوت في الآخرة ام لا ؟ فقرر أحد المجامع في رومية أنها حيوان نجس لا روح له ولا خلود ، ولكن يجب عليها العبادة والخدمة ، وأن يكلم فيها كالبعير والكلب العقور لمنعهما من الضحك والكلام ، لأنها احيولة الشيطان ، وكانت اعظم الشرائع تبيح للوالد بيع ابنته ، وكان بعض العرب يرون أن للاب الحق في قتل بنته بل في وأدها «دفعها حية» ايضاً . وكان منهم من يرى انه لا قصاص على الرجل في قتل المرأة ولا دية »

وكتبت في مقدمة الكلام على حقوق النساء المالية في الاسلام ما مختصره
« قد أبطل الاسلام كل ما كان عليه العرب والعجم من حرمان النساء من التملك
أو التضييق عليهن في التصرف بما يملكن ، واستبدال أزواج المتزوجات منهن
بأموالهن ، فأثبت لهن حق الملك بأنواعه والتصرف بأنواعه المشروعة ، فشرع الوصية
والارث لهن كالرجال ، وزادهن ما فرض لهن على الرجال من مهر الزوجية والنفقة
على المرأة وأولادها وإن كانت غنية ، وأعطاهن حق البيع والشراء والاجارة والهبة
والصدقة وغير ذلك . ويتبع ذلك حقوق الدفاع عن مالها كالدفاع عن نفسها
بالتقاضي وغيره من الاعمال المشروعة ، وإن المرأة الفرنسية لا تزال إلى اليوم مقيدة
بارادة زوجها في جميع التصرفات المالية ، والعقود القضائية »

وانني ألخص من ذلك الكتاب المسائل الآتية بالاجاز

- (١) كان بعض البشر من الافرنج وغيرهم يعدون المرأة من الحيوان الاعجم أو
من الشياطين لا من نوع الانسان وبعضهم يشك في ذلك فجاء محمد ﷺ يتلو عليهم
قول الله تعالى (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى) الآية وقوله (خالقكم من
نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء) وما في معناهما
- (٢) كان بعض البشر في أوربة وغيرها يرون أن المرأة لا يصح أن يكون
لها دين حتى كانوا يحرمون عليها قراءة الكتب المقدسة رسمياً فجاء الاسلام يخاطب
بالتكاليف الدينية الرجال والنساء معا بلقب المؤمنين والمؤمنات ، والمسلمين والمسلمات
كان أول من آمن بمحمد خاتم النبيين ﷺ امرأة وهي زوجته خديجة بنت
خويلد (رض) وقد ذكر الله تعالى مبايعة ﷺ للنساء في نص القرآن ثم بايع الرجال
بما جاء فيها - ولما جمع القرآن في مصحف واحد جمعاً رسمياً وضع عند امرأة هي
حفصة أم المؤمنين وظل عندها من عهد الخليفة الاول أبي بكر الصديق إلى عهد
الخليفة الثالث عثمان (رضي الله عنهم) فأخذ من عندها واعتمدوا عليه في نسخ
المصاحف الرسمية التي كتبت وأرسلت إلى الامصار لاجل النسخ عنها والاعتماد عليها
- (٣) كان بعض البشر يزعمون أن المرأة ليس لها روح خالدة فتكون مع
الرجال المؤمنين في جنة النعيم في الآخرة - وهذا الزعم أصل لعدم تدبيرها -

فنزل القرآن يقول (ليس بآمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب : من يعمل سوءاً يجز به ولا يجده من دون الله ولياً ولا نصيراً *) ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئاً) ويقول (فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضهم من بعض) الآية وفيها الوعد الصريح بدخول الفريقين جنات تجري من تحتها الأنهار

(٤) كان بعض البشر يحتقرون المرأة فلا يعدونها أهلاً للاشتراك مع الرجال في المعابد الدينية والمحافل الادبية ، ولا في غيرها من الامور الاجتماعية والسياسية والارشادات الاصلاحية، فنزل القرآن يصارحهم بقوله تعالى (٧١:٩) والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض) الآية ثم قال (٧٢) وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن وورضوان من الله أكبر ، ذلك هو الفوز العظيم) فراجع تفسيرهما في ص ٥٤١ من جزء التفسير العاشر (٥) كان بعض البشر يحرمون النساء من حق الميراث وغيره من التملك وبعضهم يضيق عليهن حق التصرف فيما يملكن ، فأبطل الاسلام هذا الظلم وأثبت لهن حق التملك والتصرف بأنفسهن في دائرة الشرع ، قال الله تعالى (الرجال نصيب مما ترك الوالدان والاقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والاقربون مما قل منه أو كثر نصيباً مفروضاً) وقال (الرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن) ونحن نرى أن دولة الولايات المتحدة الاميركية لم تمنح النساء حق التملك والتصرف إلا من عهد قريب في عصرنا هذا ، وأن المرأة الفرنسية لا تزال مقيدة بإرادة زوجها في التصرفات المالية والعقود القضائية، وقد منحت المرأة المسلمة هذه الحقوق منذ ثلاثة عشر قرناً ونصف قرن

(٦) كان الزواج في قبائل البدو وشعوب الحضارة ضرباً من استرقاق الرجال للنساء فجعله الاسلام عقداً دينياً مدنياً لقضاء حق الفطرة بسكون النفس من اضطرابها الجنسي بالحب بين الزوجين وتوسيع دائرة المودة والالفة بين العشيرتين واكتمال عاطفة الرحمة الانسانية وانتشارها من الوالدين إلى الاولاد ، على ما أرشد

اليه قوله تعالى (ومن آياته ان خلق لكم من انفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون)

(٧) القرآن ساوى بين المرأة والرجل باقتسام الواجبات والحقوق بالمعروف مع جعل حق رياسة الشركة الزوجية للرجل لانه أقدر على النفقة والحماية بقول الله عز وجل في الزوجات (ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة) وقد بين هذه الدرجة بقوله تعالى (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم) فجعل من واجبات هذه القيامة على الزوج نفقة الزوجة والاولاد لا تسكف الزوجة منه شيئا ولو كانت أغنى منه ، وزادها المهر فالمسلم يدفع لامرأته مهراً عاجلاً مفروضاً عليه بمقتضى العقد حتى اذا لم يذكر فيه لزمه فيه مهر مثلها في الهيئة الاجتماعية ، ولها أن يؤجلا بعضه بالتراضي ، على حين ترى بقية الامم حتى اليوم تسكف المرأة دفع المهر للرجل

وكان أولياء المرأة يجبرونها على الزوج بمن تكره او يعضلونها بالمنع منه مطلقا وإن كان زوجها وطلقها فحرم الاسلام ذلك ، والنصوص في هذا معروفة في كلام الله وكلام رسوله وسنته وتقدم بيانها في الجزء الثاني من التفسير

(٨) كان الرجال من العرب وبني اسرائيل وغيرهم من الامم يتخذون من الأزواج ماشاءوا غير مقيدين بعدد ، ولا مشروط عليهم فيه العدل ، فقيدهم الاسلام بان لا يزيدوا على أربع ، وان من خاف على نفسه ان لا يعدل بين اثنتين وجب عليه الاقتصار على واحدة ، وانما أباح الزيادة لمحتاجها القادر على النفقة والاحصان لانها قد تكون ضرورة من ضرورات الاجتماع ولا سيما حيث يقل الرجال ويكثر النساء وقد فصلنا ذلك في تفسير آية التعداد من سورة النساء ثم زدنا عليه في كتاب (حقوق النساء في الاسلام) ما هو مقنع لكل عاقل منصف بان مآشرع الاسلام في التعداد هو عين الحق والعدل ومصلحة البشر

(٩) الطلاق قد يكون ضرورة من ضروريات الحياة الزوجية اذا تعذر على الزوجين القيام بحقوق الزوجية من إقامة حدود الله وحقوق الاحصان والنفقة

والمعاشرة بالمعروف، وكان مشروعا عند أهل الكتاب والوثنيين من العرب وغيرهم، وكان يقع على النساء منه وفيه ظلم كثير وغبن يشق حتمه لخاصة الاسلام فيه بالاصلاح الذي لم يسبقه اليه شرع ولم يلحقه بمثله قانون، وكان الافرنج يحرمونه ويعيبون الاسلام به، ثم اضطروا إلى إباحته، فاسرفوا فيه اسرافا منذرا بفوضى الحياة الزوجية وانهلال روابط الاسرة والعشيرة

جعل الاسلام عقدة النكاح بيد الرجل ويتبعه حق الطلاق لانهم احرص على بقاء الزوجية بما تكلفهم من النفقات في عقدتها وحماها وكونهم اثبت من النساء جأشا واشد صبرا على ما يكرهون، وقد أوصاهم الله تعالى على هذا بما يزيدهم قوة على ضبط النفس وحبسها على ما يكرهون من نسايتهم فقال (وعاشروهن بالمعروف فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا) على ان الشريعة تعطي المرأة حق اشتراط جعل عصمتها بيدها فتطلق نفسها اذا شاءت واعطتها حق طلب فسخ عقد الزواج من القاضي اذا وجد سببه من العيوب الخلقية او المرضية كالرجل وكذا اذا عجز الزوج عن النفقة . وجعلت للمطالبة عليه حق النفقة مدة العدة التي لا يحل لها فيها الزواج، وذم النبي ﷺ الطلاق بأن الله يبغضه للتنفير عنه — إلى غير ذلك من الاحكام التي بينها في تفسير الآيات المنزلة فيها وفي كتابنا الجديد في حقوق النساء في الاسلام

(١٠) بالغ الاسلام في الوصية ببر الوالدين فقرنه بعبادة الله تعالى، واذكروا النبي ﷺ فيه حق الأم فجعل برها مقدما على بر الأب . ثم بالغ في الوصية بتربية البنات وكفالة الاخوات، بأخص مما وصى به من صلة الارحام، بل جعل لكل امرأة قبا شرعيا يتولى كفايتها والعناية بها، ومن ليس لها ولي من اقاربها وجب على أولي الامر من حكماء المسلمين أن يتولوا أمرها

وجملة القول انه ما وجد دين ولا شرع ولا قانون في أمة من الامم اعطى النساء ما أعطاهن الاسلام من الحقوق والعناية والكرامة، أفليس هذا كله من دلائل كونه من وحي الله العليم الحكيم الرحيم لمحمد النبي الامي المبعوث في الاميين؟ بلى وانا على ذلك من الشاهدين المبرهنيين، والحمد لله رب العالمين

المقصد العاشر من فقه القرآن تحرير الرقبة

ان استرقاق الاقوياء للضعفاء قديم في شعوب البشر ، بل هو معهود في الحشرات التي تعيش عيشة الاجتماع والتعاون أيضا كالحمل ، فاذا حاربت قرية منه أخرى فظفرت بها وانتصرت عليها فانها تأسر ماسم من القتال وتستعبده في خدمة الظافر من البناء وجمع المؤونة وخزنها في مخازنها وغير ذلك .

كانت شعوب الحضارة القديمة من المصريين والبابليين والفرس والهنود واليونان والروم والعرب وغيرها تتخذ الرقيق وتستخدمه في أشق الاعمال ، وتعامله بمنتهى القسوة والظلم ، وقد أقرته الديانتان اليهودية والنصرانية ، وظل الرقيق مشروعا عند الافرنج إلى أن حررت الولايات الاميريكية المتحدة رقيقها في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي ، وتلتها انكلترة بأخذ الوسائل لمنعهم من العالم كله في أواخر القرن التاسع عشر ، ولم يكن عمل كل منهما خالصا لمصلحة البشر وجنوحا المساواة بينهم ، فان الاولى لا تزال تفضل الجنس الابيض الاوربي المتغلب على الجنس الاحمر الوطني الاصلي بما يقرب من الاستعباد السياسي المباح عند جميع الافرنج للشعوب ، كما ان انكلترة تحقر اليهود وتستخدمهم ، ولكن النهضة الهندية في هذا العهد قد خفضت من غلوهم ، وطأمنت من إشناق كبيرياتهم .

فلما ظهر الاسلام ، وأشرق نوره الماحي لكل ظلام ، كان مما أصلحه من فساد الامم إبطال ظلم الرقيق وإرهاقه ، ووضع الاحكام لابطال الرق بالتدريج السريع ، إذ كان إبطاله دفعة واحدة متعذرا في نظام الاجتماع الدشري من الناحيتين : ناحية مصالح السادة المسترقين ، وناحية مهيئة الارقاء المستعبدين .

فان الولايات المتحدة لما حررت رقيقها كان بعضهم يضرب في الارض يلتمس وسيلة الرزق فلا يجدها فيحور الى سادته يرجو منهم العود إلى خدمتهم كما كان وكذلك جرى في السودان المصري ، ففقد جرب الحكم من الانكليز أن يجدوا لهم رزقا يعمل يعملونه مستقلين فيه مكتفين به فلم يتمكن ، فاضطروا إلى الاذن لهم بالرجوع إلى خدمة الرق السابقة ، بيد انها أن لا تسمح للمخدومين ببيعهم والاتجار بهم

لهداية الاسلام في تحرير الرقيق وأهله

قد شرع الله تعالى لا بطلان الرق طريقين: عدم تجديد الاسترقاق في المستقبل،
وتحرير الرقيق القديم بالتدريج الذي لا ضرر ولا ضرار فيه
(الطريقة الأولى) منع الاسلام جميع ما كان عليه الناس من استرقاق الاقوياء
للمضعفاء إلا استرقاق الاسرى والسبايا في الحرب التي اشترط فيها ما تقدم بيانه
من دفع المفسد وتقرير المصالح ومنع الاعتداء ومراعاة العدل والرحمة^(١) وهي
شروط لم تكن قبله مشروعة عند المسلمين، ولا عند أهل الحضارة فضلا عن المشركين
الذين لا شرع لهم ولا قانون، ولست أعني بالاستثناء أن الله تعالى شرع لنا من هذا
النوع من الاسترقاق كل ما كانت الامم تفعله معاملة لهم بالمثل، بل شرع لأولي
الامر من المسلمين مراعاة المصلحة للبشر في امضائه أو إبطاله بأن خيرهم في أسرى
الحرب الشرعية بين المن عليهم بالحرية والفداء بهم، وهو نوعان فداء المال وفداء
الانفس، اذا كان لنا أسارى أو سبي عند قومهم، وذلك قوله تعالى الذي أوردناه
في قواعد الحرب (فشدوا الوثاق فاما منا بعدا وإما فداء)^(٢) ولما كنا نخبرين
فيهم بين إطلاقهم بغير مقابل والفداء بهم، جاز أن يعد هذا أصلا شرعيا لا بطلان
استئناف الاسترقاق في الاسلام، فان ظاهر التخيير بين هذين الامرين ان الامر
الثالث الذي هو الاسترقاق غير جائز، لو لم يعرضه أنه هو الأصل المتبع عند جميع
الامم، فمن أكبر المفسد والضرر أن يسترقوا أسرانا ونطلق أسراهم ونحن ارحم
بهم واعدل كما يعلم مما يأتي . ولكن الآية ليست نصا في الحصر، ولا صريحة في
النهي عن الأصل، فكانت دلالتها على تحريم الاسترقاق مطلقا غير قطعية، فبقي
حكمه محل اجتهاد أولي الامر، اذا وجدوا المصلحة في إبقائه أبقيه، واذا وجدوا
المصلحة في ترجيح المن عليهم بالحرية وهو ابطال اختياري له أو الفداء بهم عملوا به

(١) راجع المقصد الثامن من فقه القرآن ص ٢٧٦ (٢) ص ١٥٣

﴿ الطريقة الثانية ما شرع لتحرير الرقيق الموجود وجوباً وندباً وهو أربعة أنواع ﴾

(النوع الاول من أحكام الرق ووسائل تحريره اللازمة وفيه عشر مسائل)

(١) إن الأصل في الإنسان هو الحرية ويترتب عليه أحكام (٢) تحريم الاسترقاق وبطلانه غير ما تقدم بشرطه (٣) الكتابة وهي شراء المملوك نفسه من سيده بمال يكسبه وقد أمر الله بها لمن يبتغيها وأمر بمساعدته عليه بالمال من المالك نفسه (٤) إذا خرج الأرقاء من دار الكفر إلى دار الإسلام يصيرون أحراراً . (٥) من أعتق بعض عبده عتق كله عليه وإن كان البعض الآخر غيره فله أحكام (٦) من عذب مملوكه أو مثله به كأن خصاه أو جبهه عتق عليه وزال ملكه عنه (٧) من آذى مملوكه بما دون التمثيل والعذاب الشديد فكفارة ذنبه أن يعتقه (٨) التدبير عتق لازم وهو أن يعتق مملوكه بعد موته فله أن يستخدمه مدة حياته ولكن ليس له أن يبيعه لأنه صار حراً بعد موته (٩) إذا ولدت الجارية لسيدها ولداً منه حرم عليه بيعها وهبتها لغيره وتصير حرة بموته لا تورث عنه (١٠) من ملك أحد أقاربه عتق عليه وقد بينا الآيات والاحاديث الدالة على هذه الأحكام في كتاب (الوحي المحمدي) الذي بسطنا به هذا البحث من التفسير

﴿ النوع الثاني من وسائل تحرير الرقيق الموجود الكفارات ﴾

والمراد بها القربات التي تمحو الذنوب وأعظمها عتق الرقاب وهي ثلاثة أقسام (أحدها) واجب حتم على القادر على العتق بملك الرقبة أو ثمنها ككفارة قتل النفس خطأ ، وكفارة الظهار وهو تشبيه الرجل زوجته بأمه وكان طلاقاً في الجاهلية ، وكفارة إفساد الصيام عمداً بشرطه وقيدته المعروفين في الفقه

(ثانيها) واجب مخير فيه وهو كفارة اليمين فمن حلف بيميناً وحنث فيها فكفارته إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم أو تحرير رقبة كما قال الله تعالى وحكمة التخيير ظاهرة (ثالثها) مندوب وهو العتق لتكفير الذنوب غير المعينة وهو من أعظم مكفراتها

﴿ النوع الثالث من وسائل إلغاء الرق الموجود ﴾

جعل سهم من مصارف الزكاة الشرعية المفروضة (في الرقاب) بنصر القرآن ، هو يشمل العتق والاعانة على شراء المملوك نفسه (الكتابة) ومن المعلوم ان زكاة الامة الاسلامية قد تبلغ مئات الالوف واثوف الالوف من الدرهم والدنانير ، فلونفذت أحكام الاسلام فيها وحدها لا يمكن تحرير جميع الرقيق في دار الاسلام

﴿ النوع الرابع منها العتق الاختياري لوجه الله تعالى أي ابتغاء مرضاته ﴾

قد ورد في الكتاب والسنة وآثار السلف من الترغيب في العتق ما يدخل تدوينه في سفر كبير ، ومما يدل على انه من أعظم العبادات وأصول البر آية البر من سورة البقرة (٢ : ١٧٦)

ومن أشهر أحاديث الترغيب في العتق قوله ﷺ « إنما رجل عتق امرأ مسلماً^(١) استمقذ الله بكل عضو منه عضواً من النار » متفق عليه من حديث أبي هريرة ، وفي رواية « عضواً من أعضائه من النار حتى فرجه بفرجه » وحديث أبي ذر قال سألت رسول الله ﷺ أي العمل أفضل ؟ قال « إيمان بالله وجهاد في سبيله » قلت فأبي الرقاب أفضل ؟ قال « أغلاها ثمناً وأنفسها عند أهلها » الحديث . ومنها حديث أبي موسى الأشعري الذي رواه الجماعة كلهم الا مالك « إنما رجل كانت له جارية أدبها فأحسن تأديبها وعلمها فأحسن تعليمها وأعتقها وتزوجها فله أجران » وفي الصحيح ان أبا هريرة لما روى قوله ﷺ « للمملوك الصالح أجران » قال والذي نفسي بيده لولا الجهاد والحج وبر أمي لأحببت ان أموت وأنا مملوك

﴿ الوصية بالماليك ﴾

أضف الى هذا وصايا الله ورسوله بالماليك ومنها تخفيف الواجبات عليهم جعل حد المملوك في العقوبات نصف حد الحر ، وقد قرن الله الوصية بهم بالوصية والدين والاقربين ، ونهى النبي ﷺ عن قول السيد « عبدي وأمتي » وأمره ان اتفق العلماء على شرعية عتق الكافر وانما اختلفوا في عتقه في الكفارة

يقول «فتاى وفتاى وغلامي» وأمر بأن يطعموهم مما يأكلون ولبسوهم مما يلبسون، ويمسحونهم على خدمتهم أن كفوهم ما يغلبهم كما في حديث أبي ذر في الصحيحين وغيرهما وكان يوصي بالنساء وما ملكت الايمان حتى في مرض موته الى أن التحق بالرفيق الاعلى ﷺ وسأله ابن عمر كم أعفو عن الخادم؟ قال «أعف عنه كل يوم سبعين مرة» وهذا مبالغة أي كلما أذنب

ولهذا كان المسلمون في الصدر الاول يبالغون في تكريم الرقيق ومعاملتهم بالحلم حتى صاروا يقصرون في الخدمة. ولعمر الحق ان العبد المملوك في حكم الاسلام الاول كان أعز نفساً وأطيب عيشاً من جميع الاحرار الذين ابتلوا في هذه العصور بحكم دول الافرنج من غيرهم أو نفوذهم، وان حكومة الولايات المتحدة لتعامل الجنس الاحمر من سكان البلاد الاصلين الذين تمن عليهم بالحرية بغير الاحكام التي تعامل بها الجنس الابيض حتى ان من اعتدى منهم على امرأة بيضاء يقتل شر قتلة — ان لم تقتله الحكومة قتله الشعب — بخلاف العكس، ولا يتسع هذا المقام لتفصيل ذلك والشواهد عليه

خلاصة البحث

راجع ما تقدم من الكلام على الوحي والنبوة وآيات الانبياء عندنا وعند الفصاري ومن الكلام في تفنيد شبهة الوحي النفسي، والكلام في اعجاز القرآن اللغوي والعلمي. وما أحدثه من الانقلاب البشري من كل وجه، ثم أضف اليها هذه العشرة الانواع من مقاصد القرآن، في إصلاح البشر وتكميل نوع الانسان، من جميع نواحي التشريع الروحي والادبي والاجتماعي والمالي والسياسي، وهي التي اشتدت حاجة الشعوب والدول في هذا العصر اليها موضحة بأصول وقواعد هي أصح وأكمل وأكفل للمصالح العامة، ودفع المفسد القديمة والطارئة، من كل ما سبقها من تعاليم الانبياء، وفلسفة الحكماء، وقوانين الملوك والحكام، على اختلاف الاعصار، مع العلم القطعي من تاريخ محمد ﷺ انه كان أمياً يؤثر بطبعه عيشة العزلة فلم يتفقه الاطلاع على كتب الانبياء ولا غيرها من الكتب والقوانين،

وانه لم يعرف عنه انه كان يبحث في شيء من العلوم ، ولا انه نطق بشيء من مسائلهم . والعلم بأنه انما جاء بها في هذا القرآن بعد استكمال سن الأربعين — وهي سن لم يعرف في استعداد أنفس البشر ومدركات عقولهم ولا في تاريخهم ان صاحبها يأتلف مثلها ، اتفاقا لم يسبق له البدء بشيء منه في آنف عمره ، وآنفة شبابه وشرخه ، راجع هذا كله وتأمله جملة واحدة تجد عقلك مضطرا إلى الجزم بأن هذا كله فوق استعداد بشر أمي أو متعلم وأنه وحي من الله تعالى .

فإذا فرضنا انه يحتمل أن يكون قد تسرب الى ذهنه بعض مسائلها من أفواه عقلاء قومه أو غيرهم ممن لقي في أسفاره القليلة ، أو انه فكر في حاجة البشر الى مثلها مما أدركه بذكائه الفطري من سوء حالهم ، فهل يعقل أن تكون تلك الفلتات الشاردة ، وهذه الخطرات الواردة ، تبلغ هذا الحد من التحقيق والوفاء بحاجة الأمم كلها ، وان تظل كلها مكتومة من سن الصبا وعهد حب الظهور الى أن تظهر في سن الكهولة ، بهذه الروعة من البيان ، وسلطان البلاغة على القلوب ، وقوة البرهان في العقول ، فتحدث هذه الثورة في الأمة العربية الغيرة لطباعتها ، المبدلة لأوضاعها ، بحيث تسود بها شعوب المدينة كلها ، ويتلو ذلك ما قصه التاريخ من الانقلاب في العالم كله ؟ وأعجب من هذا كله ان يظهر في هذا العصر ان أمم العلم والحضارة العجيبة أشد حاجة اليها ممن قبلهم ؟ كلا ان هذا لم يعرف مثله في البشر وإذ قد ثبت هذا فلو اجب على كل من بلغه من البشر ان يتبعه ويهتدي به لتكميل إنسانيته وإعدادها لسعادة الدنيا والآخرة . فإن اعتراضه شبهة عليه فلا يبحث عنها أو لينبذها ، فما كان لعاقلي ثبت عنده نفع علم الطب أن يترك مراعاته في حفظ صحته أو مداواة مرضه لشبهة في بعض مسائله أو خيبة الأطباء في بعض معالجاتهم المرضى وان حاجة البشر الى طب الارواح والاجتماع ، لا شد من حاجتهم الى طب الابدان

قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (الانعام ٦ : ١٤٩)

« رضيت بالله ربا ، وبالإسلام دينا ، وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا »

﴿ ونعود الى نسق التفسير باسم الله وحمله ﴾

(٣) إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ
أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ، مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ
بَعْدِ إِذْنِهِ ، ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ؟

افتتح السورة بذكر آيات الكتاب ، الناطق بالحكمة وفصل الخطاب ،
وانكر على الناس عجبهم أن يوحى ربهم إلى رجل منهم أن يعلمهم به ما لا يعلمون من
الدين الذي فيه سعادتهم ، منذرا من كفر بالعقب ، ومبشرا من آمن بالثواب ،
وحكى عن الكافرين وصفهم لهذا الكتاب الحكيم والرسول الذي جاء به بالسحر ،
إذ كان كل منهما من خوارق العادات ، وقد وجد في البشر مشعوذون ودجالون
يأتون بعض الخوارق التي لا يعرف الجاهير أسبابها ، فرأوا أن هذا الكتاب
المعجز للبشر بأسلوبه وبلاغته ، وبعلمه وحكمته ، وتأثيره في العقول والقلوب ،
يصح أن يكون أو يوصف بأنه من هذا السحر المعبود وجوده ، المجهول سببه ،
وإن هذا الرجل الذي جاء به ولم يعرف عنه قبله شيء من بلاغة القول ، ولا من حكمة
التشريع والعلم ، يصح أن يعد منتحلا للسحر ، ولكن السحر لم يكن في يوم من
الأيام حقائق علمية ولا هداية نافعة كما تقدم ، والسحرة لم يكونوا إلا أناسا من
المكتسبين باطلاع الناس على غرائبهم المجهولة لهم ، فأين هذا وذاك من القرآن ومن
جاء به ، من حقائق ساطعة وهو لا يسأل عليها أجرا ، ولا يبتغي بها لنفسه نفعا هي
باقية بنفسها وبآثارها النافعة ، والسحر باطل لا بقاء له ؟ فالمتعين عند العقل أن يكون
ما فيها من علو على كلام البشر ، والاعجاز الذي قامت به الحجة بالتحدي ، وحيا
من رب العالمين ، ونعمة منه عليهم بهداية الدين ، الذي هو لجنهم ، كالعقل لأفرادهم ،
ووجب على كل من يؤمن بهذا الرب العليم الحكيم ، البر الرحيم ، أن يؤمن بأن هذا
من حكمة ربو بيته ورحمته بالعالمين ، وإلا كانت صفاته ناقصة بحرمان هذا الإنسان ،
من هذا النوع الأعلى من العرفان ، والبيئات من الهدى والفرقان ، ولذلك قفى حكاية
عجبهم وما علوه به ، من التذكير بالحجة التي تنقضه من أساسه ، فقال عز وجل

يونس : ١٠ : إثبات خلقه تعالى للسموات والارض واستوائه على عرشه يدبر الامر ٢٩٥

﴿إِنْ رَبُّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ بِدَبْرِ الْأَمْرِ﴾

العرش يدبر الامر ﴿هذه الآية دليل على تفنيدهم في عجبهم من وحي القرآن ، وبيان للرؤية التي يقتضي كلها ثبوته وبطلان الشرك ، والخطاب فيها للناس الذين عجبوا أن يوحى الى رجل منهم ما فيه هدايتهم بأملوب الالتفات المنبه للذهن ، يقول لهم إن ربكم هو الله الذي خلق العوالم السماوية التي فوقكم وهذه الارض التي تعيشون عليها في ستة أزمنة تم في كل يوم منها طور من أطوارها ، فان اليوم في اللغة هو الوقت الذي يحده حدث يحدث فيه ، وان كان ألوف السنين من أيام هذه الارض الفلكية التي وجدت بعد خلقها ، أي أوجدها كلها بمقادير قدرها فان الخلق في اللغة التقدير ، ثم استوى على عرشه الذي جعله مركز التدبير ، لهذا الملك الكبير ، استواء يليق بعظمته وجلاله ، وتنزيهه وكاله ، يدبر أمر ملكه ، بما اقتضاه علمه من النظام ، وحكمته من الاحكام ، فالاستواء على العرش بعد خلقهما ، وهو مخلوق له من قبلهما ، شأن من شؤونه فيما لانعلم كنهه ولا صفته من تدبير هذا الملك ، وكل يوم هو في شأن ، لا يدرك كنه شؤونه إنس ولا جان ،

والتدبير في أصل اللغة التوفيق بين أوائل الامور ومبادئها ، وأدبارها وعواقبها ، بحيث تكون المبادي مؤدية الى ما يريد من غاياتها ، كما أن تدبر الامر أو القول هو التفكير في دبره وهو ما وراءه وما يراد منه وينتهي اليه . ووجه دلالة هذه الجملة على ما ذكر أن الرب الخالق المدبر لجميع أمور الخلق لا يستنكر من تربته لعباده وتدبيره لأمرهم أن يفيض ما شاء من علمه على من اصطفى من خلقه ، ما يهديهم به لما فيه كمالهم وسعادتهم من عبادته وشكره وصلاح أنفسهم ، بل يجب على العاقل العالم بهذا التدبير والتقدير الذي تشهد به آياته تعالى في السموات والارض ، أن يؤمن بأن هذا الوحي منه عز وجل ، إذ هو من كمال تقديره وتدبيره ، ولا يقدر عليه غيره . وقد ذكرنا في تفسير آية الاعراف التي بمعنى هذه الآية (٤: ٧) الاختلاف بين علماء الكلام المبتدع وأئمة السلف وأتباعهم من علماء الاثر في مسألة الاستواء على العرش وأشباهاها من آيات علو الخالق تعالى فوق خلقه وسائر صفاته وحققنا أن مذهب السلف هو الحق الجامع بين النقل والعقل

نم قال ﴿ ما من شفيع إلا من بعد إذنه ﴾ وهذه الجملة حجة ثانية على منكري الوحي ، في ضمن حقيقة ناقضة لعقيدة الشرك ، ذلك ان مشركي العرب وغيرهم ومقلداتهم من أهل الكتاب كانوا يعتقدون ان معبوداتهم من أولياء الله تعالى وعباده المقربين من الملائكة والبشر يشفعون لهم عند الله تعالى بما يدفع عنهم الضر ويحلب لهم النفع في الدنيا ، والذين يؤمنون بالآخرة من الفريقين يشتمون لهم الشفاعة في الآخرة بالاولى ، ويسمون الاصنام التي وضعت للذكرى وتلك الاولياء شفعاء أيضا بالتبع ، وسيأتي في (الآية ١٨) من هذه السورة حكاية ما يقولونه في هذه الشفاعة . ويقال في بيان وجه الحجة عليهم فيها : إنكم اذا كنتم تؤمنون بأن الله شفعاء من أوليائه وعباده المقربين يشفعون لكم عنده بما يقربكم اليه زلفى ويدفع عنكم الضر ويحلب لكم النفع ، وهو قول منكم على الله تعالى بغير علم ، فما لكم تنكرون وتعجبون أن يوحى تعالى الى من يشاء ويصطفى من هؤلاء العباد من يعلمكم من العلم ما يهديكم الى العمل الموصل الى كل ما تطلبونه من هؤلاء الشفعاء باستحقاق بدون عمل منكم ولا استحقاق لما تطلبون منهم ؟ وأما الحقيقة الناقضة لعقيدة الشرك في الشفاعة فهي انه لا يمكن أن يوجد شفيع يشفع لأحد عنده تعالى إلا من بعد إذنه ، كما قل في سورة البقرة (٢٥٥: ٢) من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ؟) وايس لاحد حق في الاخبار عنه تعالى بمن يشفع عنده ومن يقبل شفاعته إلا باعلام منه ، وذلك لا يكون إلا بوحى منه . وقد ثبت في وحي هذا القرآن أنه لا يشفع أحد عنده بإذنه إلا من ارتضاه للشفاعة (١٠٩: ٢٠) يومئذ لا تنفع الشفاعة الا من أذن له الرحمن ورضي له قولا) وان هؤلاء المأذون لهم بالشفاعة لا يشفعون الا لمن كان الله تعالى راضيا عنه بإيمانه وعمله الصالح كما قال (٢٨: ٢١) ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) مصداقا لقوله (قل لله الشفاعة جميعا)

﴿ ذلكم الله ربكم فاعبدوه ﴾ احتجاج بما يؤمنون به من وحدانية الربوبية ، على شركهم في وحدانية الالهية ، أي ذلك الموصوف بالخلق والتقدير ، والحكمة والتدبير ، والتصرف في أمر الشفاعة يأذن بها لمن شاء فيما شاء هو الله ربكم ، ومتولي أمور العالم ومنها أموركم ، فاعبدوه وحده ولا تشركوا به شيئا ، ولا معه

أحد ، لا لأجل الشفاعة ولا لأجل مطلب آخر من مطالبكم ، فاشفعاء لا يمكن أن يكون لكم من دونه نفع ولا ضرر ، وإنما يملك ذلك ربكم وحده ، وقد هداكم إلى أسباب الضرر والنفع الكسبية بعقولكم ومشاعركم وسخرها لكم ، وهداكم إلى أسباب النفع والضرر الغيبية بوحيه وأقدركم عليها ، وكل ما يطلب من المنافع والمضار فتما يطلب من أسبابه التي سخرها تعالى وبينها لكم وما عجز عنه العبد أو جهله من ذلك فالواجب عليه أن يدعو الله تعالى وحده فيه ، وهذا هو الركن الأول للدين الإلهي . ﴿ أفلا تدكرون ؟ ﴾ أي تجهلون هذا الحق المبين فلا تتذكرون أن الذي خلق السموات والأرض وحده ، واستوى على عرش الملك يدبر الأمر وحده ، ولا يمكن أن يشفع أحد عنده إلا بإذنه ، هو ربكم الذي يجب أن تعبدوه ولا تعبدوا غيره ؟ وهو مقتضى الفطرة ، وما أنكره إلا ضرب من الغفلة علاجها التذكير

هذا الاستفهام التمجيد من غفلة المشركين منكري الوحي عن هذه الحقيقة وهي أنه لا يستحق العبادة من الخلق أحد إلا ربهم وخالقهم ومدبر أمورهم بوجه بالاولى إلى المؤمنين بالقرآن من القبوريين وعباد الصالحين كيف لا يتذكرون هذه الآيات وأمثالها كلما شعروا بالحاجة إلى ما عجزوا عنه بكسبهم من دفع ضرر أو جلب نفع ؟ إذ تراهم بوجهون وجوههم إلى قبور المشهورين من الصالحين في بلادهم ، ويشدون الرحال إلى ما بعد منها عنهم ، ويتقربون اليها بالتذوق ويطوفون بها كما يطوف الحجاج بيت الله عز وجل ، داعين متضرعين مستغيثين خاشعين ، وهذا مخ العبادة وروحها وأجلى مظاهرها ، ولا ترى مثلاً من أحد ممن يصلي منهم في صلاة الجماعة ولا صلاته منفرداً في بيته ، على أن أكثرهم لا يصلون ولا يعتقدون أن الصلاة تنفعهم كهذه القبور ، ذلك بأن أكثرهم يجهلون هذه الآيات وأمثالها من القرآن وإنما يتلقون عقائد دينهم بالعمل والقول من آباءهم وأمهاتهم ومعاشرتهم ، وهم قبوريون لا يعرفون ما جاء ولا ملتجداً عند الشدائد والشعور بالحاجة إلى السلطان الرباني الغيبي إلا هذه القبور ، وأقلامهم يتلقون بعض كتب العقائد الكلامية الجافة ممن ألفوا عبادة القبور قبل أن يقرءوها ، وأكثرهم يتأولون لأنفسهم وللعوام تلك العبادة ويسمون بها بغير اسمها كالوسل والاستشفاع ، وحجتهم عليها نفس حجة المشركين وأهل الكتاب ، لا فرق إلا في بعض الالفاظ وأسماء الأشخاص

(٤) إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ

هذه الآية بيان للركن الثاني من أركان الدين وهو البعث بعد الموت والجزاء على الأعمال يقول تعالى ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ أي إلى ربكم دون غيره من معبوداتكم وشفعاتكم وأوليائكم ترجعون جميعا بعد الموت وفناء هذا العالم الذي أنتم فيه لا يتخلف منكم أحد ﴿وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا﴾ أي وعد الله هذا وعدا حقا لا يخلف ﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ هذا بيان لمعلق الوعد المؤكد مرتين بدليله، أي أن شأنه تعالى أن يبدأ الخلق وينشأه عند التكوين ثم يعيده في نشأة أخرى بعد انحلاله وفنائه فالتمثيل بفعل المستقبل (يبدأ) لتصوير الشأن وهو يشمل الماضي والمستقبل، وللفظ الخلق عام يراد به الخاص أولا وبالذات، بدليل ما قبله وما بعده من السياق، وقد أجمع علماء السكون الماديون منهم والروحيون على أن الأرض وجميع الأجرام السماوية ما يرى منها بالابصار والآلات المقربة للابعاد وما لا يرى كلها قد وجدت بعد أن لم تكن، وإن كانوا لا يزالون يبحثون في نشأة تكوينها والقوة الازلية المتصرف في أصل مادتها، كما أنهم متفقون على توقع خراب هذه الأرض والكواكب المرتبطة معها في هذا النظام الشمسي الجامع لها، وعلى أن أقرب الأسباب الموافقة لأصول العلم الثابتة أن تصيب الأرض قارعة من الأجرام السماوية فتبسطها بسا، حتى تكون هباء منبثا، كما تشير إليه سورة القارعة والواقعة وغيرها فاما بدؤه فقد حصل بالفعل وأما أعادته فدليلها أن القادر على البدء يكون قادرا على الإعادة بالطريق الأولى، كما قال في سورة الروم (٣٠ : ٢٧) وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه) الآية ومن المسائل المتفق عليها عند علماء السكون في هذا العصر - وهي تقرب إلى العقول عقيدة البعث - أن هذه الأجساد الحية

ينحل منها في كل وقت ما يتبخر في الهواء وما يموت في داخل الجسم ثم يخرج منه، ويحل محل كل ما يزول ويندثر مواد حية جديدة حتى يفتى جسد كل حيوان، فهو يزول في سنين قليلة ويتجدد غيره، فالبدء والاعادة في كل جسد دائمان مادام حيا، وقد فصلنا مسألة البعث بالبيان العلمي في تفسير سورة الانعام (ص ٤٧٠ - ٤٨١ ج ٨)

﴿ليجزى الذين آمنوا و عملوا الصالحات بالقسط﴾ هذا تعليل للاعادة أي يعيده لاجل جزائهم، والقسط العدل وقال الراغب النصيب من العدل أي ليجزىهم بعله وهو عبارة عن إعطاء كل عامل حقه من الثواب الذي جعله الله لعمله بمعنى انه لا يظلم منه شيئا كما قال في سورة الانبياء (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا) الآية . ولا يمنع ذلك أن يزيدهم ويضاعف لهم كما وعد في آيات أخرى منها قوله (٤ : ١٧٢ فيوفيههم أجورهم ويزيدهم من فضله) وقوله في هذه السورة (٢٦ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) فالحسنى هي الجزاء بالقسط المضاد للجور والظلم ، والزيادة فضل منه عز وجل . وسيأتي فيها أيضا قوله (٤٧ و ٥٤ وقضى بينهم بالقسط) وقيل ان المراد بجزيهم بما كانوا عليه من القيام بالقسط وهو الحق والعدل في الامور كلها الذي هو مقتضى الايمان في قوله تعالى (٥٧ : ٢٥ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط) وقوله (٧ : ٢٨ قل امر ربي بالقسط) على أن القسط في الآيتين عام شامل لأمر الدين كلها ، وقيل بل المراد منه الايمان أو التوحيد المقابل لظلم الشرك في قوله تعالى (ان الشرك اظلم من الظلم) والتبادر الموافق لسائر الآيات الصريحة هو الاول ولا يصح ارادة الثاني الا بالتبع للاول أو الجمع بين المعنيين على القول بأن كل ما يحتمله اللفظ من المعاني المشتركة فيه أو حقيقة ومجازة بمقتضى اللغة من غير مانع من الشرع يكون مرادا منه

﴿والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون﴾ الحميم الماء الحار أو الشديد الحرارة الذي يستحم به والعرق ، يقال استحم الفرس اذا عرق ، والحمام الذي هو مكان الاستحمام من الاول أو من الثاني . والجملة بيان لجزاء الكافرين في مقابلة جزاء المؤمنين الصالحين على منهج القرآن في الجمع بينهما . والمعنى ان الكافرين لهم من الجزاء شراب من ماء حميم يقطع أمعاءهم

٣٠٠ بلاغة القرآن وكون عقاب الآخرة أثراً طبيعياً للكفر والعمل (يونس: ١٠)

وعذاب شديد الألم (وهذا من عطف الامام على الخاص) ونكتة هذا الخاص ان العرب الذين خوطبوا به أولاً ونزل بلغتهم ولا سيما عرب الحجاز يشعرون بما لا يشعر غيرهم من اوعيد بشرب الماء الحميم والحرم من الماء البارد — وانما كان لهم هذا الجزاء بسبب ما كانوا يعملون من أعمال الكفر المستمرة الى الموت كدعاء غير الله تعالى والنذر لغيره وذبح القرابين لغيره وسائر الاعمال السيئة التي يزينها لهم الكفر ويصد عنها الايمان ، فقوله (والذين كفروا) مقابل لقوله (الذين آمنوا) وقوله (بما كانوا يكفرون) مقابل لقوله (وعملوا الصالحات) لان الذي يتجدد من الكفر أعماله لاعقيدته . على ان العمل بمقتضى العقيدة هو أثرها بزيادة قوة ورسوخا واستمرارا ، وسيعاد ذكر جزاء الفريقين بعد آيتين بتفصيل آخر لعمليهما ولعل نكتة اختلاف النظم أو الاسلوب — في جزاء الفريقين وتعليل الرجوع اليه تعالى هنا — هي إفادة ان المقصود بالذات من الرجوع الى الله تعالى هو جزاء المؤمنين الصالحين لانه هو الذي يكون به منتهى كمال الارتقاء البشري للذين زكوا أنفسهم في الدنيا بما يكون لهم في الجنة من غلبة سلطان الارواح على الاجساد ، وجعلها تابعة لها في الجمع بين خصائص المادة والروح الذي هو حقيقة الانسانية ، فيلقى الانسان الكامل هنالك من النعيم المادي الخالي من الشوائب والتنجيس الذي عهده في الدنيا ، ومن النعيم الروحاني المعبر عنه برضوان الله الاكبر كما تقدم في آية سورة التوبة (٧٢) ما يتحقق به فضل الانسانية الجامعة ، على الروحانية الخالصة ، وما أعده تعالى لصاحبها مما لا يعلم كنهه في هذه الحياة أحد كما قال تعالى في سورة ألم السجدة [فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين] وما فسرت به في الحديث القدسي « أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » رواه البخاري وأعلاه مقام رؤية الله عز وجل كما شرحناه في تفسير آية سورة الاعراف (٧ : ١٤٣) وادناه ماسيأتي قريباً في الآية العاشرة

وأما جزاء الكافرين المفسدين الظالمين لأنفسهم وللناس على تدسيثهم وتدنيسهم لأنفسهم بالكفر والخطايا — وهي لها كأعراض الامراض التي سببها مخالفة سنة الله في حفظ الابدان وصحتها — فليس من المقاصد التي اقتضتها الحكمة

(يونس : ١٠) معنى جعل الضوء والنور وكون الشمس ضياءً وهو جمع ضوء ٣٠١

الالهية في خلق الانسان، وليكنها مقتضى العدل في النظام والحقوق، ومقتضى اطراد السنين الحكيمه في ارتباط الاسباب بالمسببات، والعمال بالمعلولات، فهو جزاء كما صرح به في آيات أخرى وليكنه ليس المقصود بالذات من الرجوع الى الله عز وجل. وقد سألني رجل من أذكاء الانكليز: هل يليق بعظمة الله أن يمدب هذا الانسان الضعيف على ذنوبه التي هي مقتضى ضعفه؟ قلت ان الشرك بالله والكفر بنعمه واقتراف الخطايا الخالفة لشرائعه والوجدان الفطري في الانسان تدنس نفس فاعلمها وتفسدها بما يجعلها غير أهل للنعم الروحاني الخاص بالانفس الزكية، فيكون العقاب في الآخرة أثراً طبيعياً لهذا الفساد، كما يكون المرض أثراً طبيعياً لمخالفة قوانين الصحة ووصايا الطبيب. فقال اذا كان سبب العذاب من الداخل لا من الخارج فهو معقول

(٥) هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِّينَ وَالْحِسَابَ، مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٦) إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ

في هاتين الآيتين المنزلتين إرشاد إلى أنواع كثيرة من آيات الله الكونية الدالة على قدرته على البعث والجزاء وكونه من مقتضى حكمته، واطراد النظام التام في جميع خلقه، وهذه الآيات تفصيل لما أجمل في الآية الثالثة في خلق السموات والأرض، واستواء الخالق على عرشه يدبر الامر، ويقيم النظام في الخلق، التي سبقت للاستدلال على التوحيد وحقية الوحي

هو الذي جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً ﴿ الضياء اسم مصدر من أضاء يعني، وجمع ضوء، كسياط وسوط وحياض وحوض، وقرأ ابن كثير (ضياء) على القلب بتقديم لام الكلمة على عينها. قال في القاموس وشرحه: (الضوء) هو (النور وبضم) وهما مترادفان عند أئمة اللغة، وقيل الضوء أقوى من النور قاله الزمخشري ولذا شبه الله هداه بالنور دون الضوء وإلا لما ضل أحد وتبعه

الطبي واستدل بقوله تعالى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وأنكره صاحب الفلك الدائر وسوى بينهما ابن السكيت، وحقق في الكشف أن الضوء فرع النور وهو الشعاع المنتشر، وجزم القاضي زكريا بترادفهما لغة بحسب الوضع، وإن الضوء أبلغ بحسب الاستعمال، وقيل الضوء لما بالذات كالشمس والنار، والنور لما بالعرض والاكتساب من الغير، هذا حاصل ما قاله شيخنا رحمه الله تعالى. وجمعه أضواء (كالضواء والضياء بكسرهما) لكن في نسخة لسان العرب ضبط الاول بالفتح والثاني بالكسر، وفي التهذيب عن الليث الضوء والضياء ما أضاء لك، ونقل شيخنا عن المحكم أن الضياء يكون جمعاً أيضاً، قلت هو قول الزجاج في تفسيره عند قوله تعالى (كلما أضاء لهم مشوا فيه) اهـ

وأقول: يدل على التفرقة بين الشمس والقمر في نورهما قوله تعالى (١٦: ٧١) وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً وقوله (٦١: ٢٥) وجعل فيها سراجاً وقراً منيراً) والسراج ما كان نوره من ذاته. واستبعد بعض المفسرين قول الزجاج إن الضياء في الآية جمع ضوء لأن المناسب لكون القمر نوراً أن يكون الضياء مفرداً مثله. وجهل هذا المستبعد وأمثاله ما علمه الله تعالى من أن شعاع الشمس مركب من ألوان النور السبعة التي يراها الناس في قوس السحاب فهو سبعة أضواء لا ضوء واحد، فهذا التعبير من مفردات القرآن الكثيرة التي كشف لنا ترقى العلوم الطبيعية والفلكية من المعنى فيها ما كان الناس أو العرب يجهلون في عصر التنزيل كتعبيره عن كل نوع من النبات بأنه موزون، وتقدم بيانه في مباحث الوحي.

﴿وقدره منازل﴾ التقدير جعل الشيء أو الأشياء على مقادير مخصوصة في الزمان أو المكان أو الذوات أو الصفات، قال تعالى (والله يقدر الليل والنهار) وقال في القرى التي كانت بين سبأ والشام (وقدرنا فيها السير) وقال في المقادير العامة (وخلق كل شيء فقدره تقديراً) والمنازل أماكن النزول جمع منزل، والضمير للقمر كما قال في سورة يس (والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم) أي قدر له أو قدر سيره في فلكه في منازل ينزل في كل ليلة في واحد منها لا يخطئه ولا يتخطاه وهي ثمانية

(يونس :س ١٠) آيات الله في خلق النيرين والليل والنهار بالحق على البعث ٣٠٣

وعشرون منزلاً معروفه تسميها العرب بأسماء نجومها المحاذية لها وهي: الشرطان .
البطين . الشري . الدبران . الهقعة . الهنعة . الذراع . النثرة . الطرف
الجبهة . الزبرة . الصرفة . العواء . السمك . الاعزل . الغفر . الزباني .
الاكليل . القلب . الشولة . الثعائم . البلدة . سعد الذابح . سعد
بلع . سعد السعود . سعد الاخبية . فرغ الدلو المقدم . فرغ الدلو
المؤخر . (وبسمياز الفرغ الاول والفرغ الثاني) الرشاء . ويراجع مسميات
هذه الاسماء في معاجم اللغة وكتب الفلك من شاء . فهذه المنازل هي التي يرى
فيها القمر بالابصار ، ويبقى من الشهر ليلة إن كان ٢٩ وياليتان إن كان ٣٠ يوما
يحتجب فيهما فلا يرى . ﴿ لتعلموا عدد السنين والحساب ﴾ أي لأجل أن تعلموا
بما ذكر من صفة النيرين وتقدير المنازل حساب الاوقات من الاشهر ولايام لضبط
عباداتكم ومعاملاتكم الدينية والمالية والمدنية ، فلو لا هذا النظام المشاهد لتعذر
على الاميين من أهل البدو والحضر العلم بذلك ، لان حساب السنين والشهور
الشمسية فن لا يعلم إلا بالدراسة ، ولذلك جعل الشرع الاسلامي العام للبدو والحضر
شهر الصيام وأشهر الحج وعدة الطلاق ومدة الايلاء وغير ذلك بالحساب القمري
الذي يعرفه كل أحد بالمشاهدة ، فلا يتوقف على علم فني لا يكاد يوجد إلا في بلاد
الحضارة . واعبادتي الصيام والحج حكمة أخرى وهي دورانها في جميع الفصول ،
فيميد المسلمون ربهم في جميع الاوقات من حارة وباردة ومعتدلة . وهذا لا يمنع
أهل العلم من الانتفاع بالحساب الشمسي وله فوائد أخرى ، وقد أرشدكم اليه في سورة
الرحمن (الشمس والقمر بحسبان) وفي سورة الاسراء (١٧ : ١٢) وجعلنا الليل والنهار
آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم وتعلموا
عدد السنين والحساب) وفي هذه الآيات ترغيب في علم الهيئة والجغرافية الفلكية
وقد برع فيهما أجدادنا بإرشادها

نم قال ﴿ ما خلق الله ذلك إلا بالحق ﴾ أي ما خلق الله الشمس ذات ضياء

تفيض أشعتها على كواكبها التابعة لنظامها. فتبث الحرارة والحياة في جميع الاحياء فيهن ، وجعل لكل ضوء منها من الخواص ما ليس للآخر ، وببصر الناس فيها جميع المبصرات فيقومون بأمور معاشهم وسائر شؤونهم ، وما خلق القمر ذاتور مستمد من الشمس تذفع به السيارة في سرائهم وغيرهم ، وقدره منازل يعرف بها جميع الناس السنين والشهور - ما خلق ذلك إلا متلبسا ومقترنا بالحق ، الذي تقتضيه الحكمة العامة لحياة الخلق ، ونظام معاشهم ومنافعهم ، فليس فيه عبث ولا خلل بل ظهر للبشر في هذا العصر من أسرار الضوء وحكمه ما صار به علما واسعا تحار العقول في نظمه وحكمه ، من أصغر ذراته الى أعظم مجامع نيراته ، فكيف يعقل من هذا الخالق الحكيم ، أن يخلق هذا الانسان في أحسن تقويم ، ويعلمه البيان ، ويعطيه مالم يعط غيره في عالمه ؛ من الاستعداد لاظهار مالا يحصى من حكمه ، وخواص خلقه ، وسفنه في عبادته ، ويجعل مدار سعادته وشقائه على ما أعطاه من علم وإرادة ، ثم يتركه بعد ذلك سدى ، يموت ويفنى ، ثم لا يبعث ولا يعود ، ليجزى المرتقون منه في معارج الكمال من المعارف الالهية والفضائل النفسية والاعمال الصالحة بإيمانهم وصفاتهم وأعمالهم ، وليجزى المشركون الخرافيون ، والظالمون المجرمون ، بكفرهم وجرائمهم ومفسدهم ، واننا نرى كثيرا منهم أنعم في الدنيا معيشة من الصالحين المصلحين ؟ (٦٨ : ٣٥ أفنجل المسلمين كالمجرمين ؟ ٣٦ ما لكم كيف تحكمون ؟) (٣٨ : ٢٨ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الارض ؟ أم نجعل المتقين كالفجار ؟)

﴿ تفصل الآيات لقوم يعلمون ﴾ استئناف لبيان المنتفعين بهذه الحجج أي تبين الدلائل من حكم خلقنا ، على ما أوحيناها إلى رسوانا من أصول العقائد وأحكام الشرائع ، مفصلة متنوعة من كونية وعقلية لقوم يعلمون وجوه دلالة الدلائل ، والفرق بين الحق والباطل ، باستعمال عقولهم في فهم هذه الآيات ، فيجزمون بأن من خلق هذين النيرين وما فيهما من النظام بالحق ، لا يمكن أن يكون خلقه لهذا الانسان العجيب عبثا ، ولا أن يتركه سدى ، وفي الآية تنويه بفضل العلم وكون

الاسلام ديناً علمياً لا تقليدياً ، ولذلك قفى على هذه الآيات السماوية في الشمس والقمر بآية مذكورة بسائر الآيات السماوية والارضية فقال

﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴿١﴾ فِي حُدُوثِهِمَا وَتَعاقُبِهِمَا فِي طُولِهَا وَقُصْرِهَا بِحَسَبِ اخْتِلَافِ مَوَاقِعِ الْأَرْضِ مِنَ الشَّمْسِ وَالنِّظَامِ الدَّقِيقِ لَهَا بِحَرَكَتِهَا اليَوْمِيَّةِ وَالسَّنَوِيَّةِ ، وَطَبِيعَةِ كُلِّ مَتْنَمَا وَمَا يَصْلُحُ فِيهِ مِنْ نَوْمٍ وَمَسْكُونٍ وَعَمَلٍ دِينِيٍّ وَدُنْيَوِيٍّ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿٣﴾ مِنْ أَنْوَاعِ الْجَمَادِ وَالنَّبَاتِ وَالْحَيَوَانِ ﴿٤﴾ لَا آيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٥﴾ أَيُّ أَنْوَاعٍ مِنَ الدَّلَائِلِ وَالْبَيِّنَاتِ عَلَى سُنَنِهِ فِي النِّظَامِ ، وَحُكْمِهِ فِي الْإِبْدَاعِ وَالْإِتْقَانِ ، وَفِي تَشْرِيعِ الْعُقَائِدِ وَالْأَحْكَامِ ، لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ عَوَاقِبَ مُخَالَفَةِ سُنَنِهِ فِي التَّكْوِينِ ، وَسُنَنِهِ فِي التَّشْرِيعِ ، فَالْأَفْرَادَ الَّذِينَ يَخَالِفُونَ سُنَنَ الصَّحَّةِ الْبَدَنِيَّةِ بِمَرْضُوعٍ ، وَالشُّعُوبَ الَّتِي تَخَالِفُ سُنَنَ الْاجْتِمَاعِ وَالْعِمْرَانِ تَخْرُبُ بِأَلَادِهَا ، وَتَضَعُفُ دَوْلَاهَا ، وَيَغَيِّرُ اللَّهُ تَعَالَى مَا بِهَا بِتَغْيِيرِهَا مَا فِي أَنْفُسِهَا ، كَذَلِكَ الْأَفْرَادَ الَّذِينَ يَخَالِفُونَ هُدَايَتَهُ الشَّرْعِيَّةَ فِي تَرْكِهِ الْأَنْفُسَ فَيَدْنِسُونَهَا بِالشُّرْكِ وَالْخِرَافَاتِ ، وَيُفْسِدُونَهَا بِالْفَوَاحِشِ وَالْمُنْكَرَاتِ ، يَجْزُونَ عَلَى ذَلِكَ كُلِّهِ فِي الْآخِرَةِ ، وَيَجْزَى بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الدُّنْيَا (كَمَا بَيَّنَّا ذَلِكَ فِي مَوَاضِعٍ أُخْرَى)

(٧) إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (٨) أُولَٰئِكَ مَا لَهُمْ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِآيَاتِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (١٠) دَعَوْهُمْ فِيهَا سُبْحَنَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ، وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

هذه الآيات بيان لحال منكري البعث والغافلين وحال المؤمنين الصالحين

في الدنيا وجزائهما في الآخرة ، فيه تفصيل لما سبق في الآية الرابعة . دل .
 ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ قال الفيومي في المصباح : رجوته أرجوه رجوا
 — على فعول — آملته أو أردته ، قال تعالى (لا يرجون نكاحاً) أي لا يريدونه
 والامم الرجاء بالمد ، ورجيته أرجيه من باب رمى لغة ، ويستعمل بمعنى الخوف ،
 لأن الراجي يخاف أنه لا يدرك ما يترجاه اه وقال الراغب : الرجاء ظن يقتضي
 حصول ما فيه مسرة ، وقوله تعالى (مالكم لا ترجون لله وقاراً؟) قيل مالكم لا تخافون؟
 ومثل الزمخشري في الأساس لحقيقة الرجاء بالمغفرة من الله ، والرشد في الولد .
 والاحسان من أهل الاحسان ثم قال : ومن المجاز استعمال الرجاء في معنى الخوف
 والاكثر يقال : لقيت هولاً ما رجوته وما أرتجيته . ومثله بشعر . والتحقيق أن
 الرجاء الأمل والتوقع لما فيه خير ونفع ، وأن الخوف توقع ما فيه شر وضر ، فهما
 متقابلان كما قال تعالى (١٧ : ويرجون رحمته ويخافون عذابه) وما في هذه الآية
 والآيتين ١١ و ١٥ من هذه السورة والآية ٢١ من سورة الفرقان من رجاء لقاء
 الله منفياً يحتمل الرجاء والخوف جميعاً لأن لقاء الله تعالى في يوم الحساب مظنة الخوف
 لقوم والرجاء لا خرب ، ولذلك قال في الكافرين (٧٨ : ٢٧) إنهم كانوا لا يرجون
 حساباً) وفسر بمض المحققين الرجاء هنا بمجرد التوقع الذي يشمل ما يسر وما يسوء .
 واللقاء الاستقبال والمواجهة

والمعنى أن الذين لا يتوقعون لقاءنا في الآخرة للحساب ، وما يتلوه من الجزاء
 على الأعمال ، لا ينكارهم البعث ، ويلزمه أنهم لا يؤملون لقاء الخاص بالمتقين في دار
 الكرامة ، وخصه بعضهم بلقاء الرؤية ﴿ورضوا بالحياة الدنيا﴾ بدلاً من الآخرة
 فصار كل همهم من الحياة محصوراً فيها وكل عملهم لها كما قال في المتشاكين عن
 النفير للجهد (١٠ : ٣٨) أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة؟ الآية ﴿واطمأنوا بها﴾
 بسكون نفوسهم وارتياح قلوبهم بشهواتها ولذاتها وزينتها ليأسهم من غيرها
 ﴿والذين هم عن آياتنا غافلون﴾ فلا يتدبرون المنزلة منها على رسولنا وما فيها
 من المواعظ والعبر ، والمعارف والحكم ، ولا يتفكرون في الكونية وما تدل عليه

(يونس : ١٠) هداية الله للمؤمنين الصالحين بإيمانهم وجزاؤه لهم ٣٠٧

من حكمته وسننه في خلقه ، وما يقتضيه كل منهما من الجهاد وصالح الأعمال ، فكانوا بهذه الغفلة كالفريق الأول الذي لا يرجو لقاءنا ، في أن كلا منها تشغله دنياه عن آخرته فلا يستعد لحسابنا له وما يتلوه من نعيم مقيم أو عذاب أليم

﴿ أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون ﴾ الإشارة بأولئك إلى الفريقين أي مأواهم في الآخرة دار العذاب (النار) بما كانوا يكسبون مدة حياتهم الدنيا من الخطايا والذنوب المدنسة لأنفسهم بخرافات الوثنية ، وأعمال الشهوات الحيوانية ، وظلمات المظالم الوحشية ، واستمرارهم عليها الذي دنس أنفسهم وأحاط بها ، فلم يعد لنور الحق والخير مكان فيها . والمأوى في أصل اللغة الملجأ الذي يأوي إليه المتعب أو الخائف أو المحتاج من مكان آمن أو انسان نافع ، كما ترى في استعمال أفعاله في جميع الآيات كقوله تعالى (ألم يجدك يتيما فآوى * إذ آوى الفتية إلى الكهف * والذين آووا ونصروا * آوى إليه أخاه * أو آوى إلى ركن شديد) الخ إلا لفظ المأوى فإنه أطلق على الجنة في ثلاث آيات وعلى النار في بضع عشرة آية منها آية يونس هذه ، وفي تسمية دار العذاب مأوى معنى دقيق في البلاغة دخیل في أعماقها ، قاض من جميع أرجائها ، يشعر بأن أولئك المظمئين بالشهوات ، والغافلين عن الآيات ، ليس لهم مصير ينجوون إليه بعد هول الحساب ، إلا جهنم دار العذاب ، فويل لمن كانت هذه الدار له كالملاجئ والموتل ، إذ لا مأوى له يلجأ إليه بعدها . هذا بيان لجزء الفريق الأول من المكلفين بقسميه والقاري . والسامع له تستشرف

نفسه لجزء الفريق الآخر والعلم بسببه وقد بينه بقوله ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا

الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم ﴾ أي يهديهم بسبب إيمانهم به صراطه المستقيم في كل عمل من أعمالهم التي تزكي أنفسهم وتهذب أخلاقهم ، وصفهم أولا بالإيمان والعمل الصالح الذي هو لازم الإيمان ومقتضيه ومكمله بصيغة الماضي لبيان صفهم وفريقهم المقابل للفريق الذي ذكر قبلهم ، وأخبر بهداية إيمانهم لهم بصيغة المضارع الدالة على الاستمرار والتجدد ، كما أخبر عن كسب الكفار بهذه الصيغة ، وجعل الإيمان وحده سبب هذه الهداية لأنه هو الباعث النفسي لها ، والمعنى أنه يهديهم الصراط

المستقيم الذي ينتهي بهم إلى دار الجزاء التي قال في بيان حالهم فيها ﴿ تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم ﴾ أي تجري من تحت مقاعدهم من غرفات تلك الجنات ومن تحت أشجارها ، وتقدم لفظ « جنات النعيم » في سورة المائدة (٦٨:٥) ولفظ (تجري من تحتهم الأنهار) في سورة الاعراف (٤٢:٧) وأما (تجري من تحتها الأنهار) يعني الجنة فقد تقدم مكرراً في سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والتوبة . والآية صريحة في معنى الآيات الكثيرة الناطقة بأن دخول الجنة بالإيمان والعمل الصالح معاً ، لأن الإيمان الصحيح بدون الإسلام وهو العمل لا يوجد إلا في حال من يموت عقب إيمانه قبل أن يتمكن من العمل ، ودخول مثل هذا الجنة لا يعارض هذه النصوص العامة للأحوال العادية الغالبة .

﴿ دعواهم فيها سبحانك اللهم ، ونجيتهم فيها سلام ، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ﴾ في هذه الآية بيان لكلمات ثلاث تمثل حياة أهل الجنة الروحانية في عامة أحوالهم من مبادي دعاء ربهم وتغزيه ، وما يدعونه أي يطلبونه من فضله وكرامته ، ومن نجيتهم تعالى ونجية ملائكتهم لهم ، ومن نجيتهم فيما بينهم عند تزاورهم أو تلاقحهم ، ومن حمدهم له في خواتيم أقوالهم وأفعالهم ، وهي خير الكلام وأخصره وأعذبه . الدعوى في اللغة الدعاء بمعانيه والدعوى في الشيء والدعاء للشيء ، والدعاء للناس هو النداء والطلب المعتاد بينهم في دائرة الأسباب المسخرة لهم ، والدعاء التعبد لله نداؤه وسؤاله والرغبة فيما عنده الصادر عن الشعور بالحاجة اليه والضراعة له فيما لا يقدر عليه أحد من خلقه ، ولا سيما دفع الضر وجلب النفع مما يعجز عنه العبد من طريق الأسباب ، للإيمان بأنه سبحانه هو المسخر لها والهادي اليها ، والقادر على تصرفها ، وعلى المن بها من غير طريقها ، والدعوى للشيء تشمل في اللغة تمنيه وقوله وطلبه من مالكه ، وأدعاء مملوكه ، وهذه المعاني كلها للفظ الدعوى تصح إرادتها من أهل الجنة إلا الأخير منها . وقول بعض المفسرين وغيرهم إن من معاني الدعاء العبادة لا يصح على إطلاقه في العبادة الشرعية التكليفية فإن الصيام لا يسمى دعاء لغة ولا شرعاً ، وإنما الدعاء هو مخ العبادة الفطرية ، وأعظم أركان التكليفية

منها ، كما ورد في الحديث ، فكل دعاء شرعي عبادة وما كل عبادة شرعية دعاء .
والسبب تنزيه الله تعالى وتقديسه ، وكلمة (اللهم) نداء له عز وجل أصله يا الله
والمعنى أنهم يمدّون كل دعاء وثناء يناجون به الله عز وجل وهو النعيم
الروحاني ، وكل طلب لكرامة أولدة من لذات الجنة وهو النعيم الجسماني ،
بهذه الكلمة : سبحانك اللهم ، أي تنزيها وتقديسا لك يا الله ، قيل أو بما تدل
عليه وإن كان بلفظ آخر ، وأن تحيتهم فيها كلمة (سلام) الدالة على السلامة من
النقص والآثام ، وهي تحية المؤمنين في الدنيا ، وهذه التحية تكون منه عز وجل
لهم كما قال في سورة الاحزاب (٣٣ : ٤٤) تحيتهم يوم يلقونه سلام) وفي سورة يس
(٣٦ : ٥٨) سلام قولا من رب رحيم) وتكون من الملائكة لهم عند دخول الجنة
كما قال في سورة الزمر (٣٩ : ٧٣) وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها
خالدِينَ) ومثله في سورة النحل (١٦ : ٣٢) الذين تتوفاهم الملائكة طيبين ، يقولون
سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون) وفي كل وقت يدخلون فيه عليهم كما
قال في سورة الرعد (١٣ : ٢٣) والملائكة يدخلون عليهم من كل باب (٢٤) سلام
عليكم بما صبرتم فنعيم عقبي الدار) وتكون منهم بعضهم لبعض وهو المتبادر من
قوله تعالى في سورة صريم (١٩ : ٦٢) لا يسمعون فيها لغواً إلا سلاماً) وفي
سورة الواقعة (٥٦ : ٢٥) لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً ٢٦ إلا قِيلاً سَلاماً سَلاماً)
فإن اللغو والتأثيم من شأن كلام البشر فلما نفى وقوعهما منهم في الجنة واستدرك
على نفيه باستثناء كلمة « سلام » استثناء منقطعاً ترجح أن يكون المراد به سلام بعضهم
على بعض أو عاماً يشملهم . والجملة في آيتنا (وتحيتهم فيها سلام) تشمل الانواع
كأهلها وأنه لا يجوز بايغ غفل عنه من نعرف من المفسرين لغفلتهم عن هذه الانواع
وأما قوله (وأخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين) فمعناه أن الحمد له جل ثناؤه
هو آخر كل حال من أحوال أهل الجنة من دعاء يناجون به الله تعالى ، ومطلب يطالبونه
من إحسانه وإكرامه ، كما أنه أول ثنائهم عليه عند دخولها كما قال في آخر سورة
الزمر بعد آية السلام عليهم من الملائكة (٧٤) وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده
وأورثنا الأرض نقبوا من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين) وأخر كلام الملائكة

٣١٠ استمع جال الناس الشر وكونه تعالى لا يعجله لهم (التفسير : ج ١١)

أيضا وهو قوله بعده (٧٥) وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم ، وقضي بينهم بالحق . وقيل الحمد لله رب العالمين)
فعلى كل قارىء هذه الآية الجامعة - وقد فسرناها له هنا بما في معناها من الآيات في السور الاخرى - أن يمثل لنفسه حالة أهل الجنة في هذه الكلمات الثلاث المبينة لنعيمهم الروحاني بقاء الله عز وجل ومناجاته في جميع أطوارهم ، ولما يكون بينهم وبين ملائكته وبين بعضهم مع بعض ، ومنه يعلمون أن معظم نعيم الجنة روحاني فعلمهم أن يستعدوا لها بتزكية أنفسهم ، وترقية أرواحهم ، وأن يعلموا أنهم لن يكونوا أهلا لها بالاتكال على التوسلات بأشخاص الاولياء والتمني لشفاعاتهم (ليس بأمانيتكم ولا أمانى أهل الكتاب ، من يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا *) ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئا) (ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا)

ومن التفسير المأثور في الآية ما أخرجه ابن مردويه عن أبي بن كعب مرفوعا عن أهل الجنة « إذا قالوا : سبحانك اللهم - أناهم ما شتهوا من الجنة » وروى مثله عن بعض التابعين فالكلمة علامة بين أهل الجنة وخدمهم في إحضار الطعام وغيره فإذا أكلوا حمدوا الله تعالى . وهذا مما يدخل في عموم ما تقدم سواء أصحت الرواية أم لا ؟

(١١) وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ ، فَيَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٢)
وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا ، فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ . كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ

هاتان الآيتان في بيان شأن من شؤون البشر وغرائزهم فيما يعرض لهم في حياتهم الدنيا من خير وشر ، ونفع وضر ، وشعورهم فيه بالحاجة إلى الله تعالى والاجوء إلى دعائه لأنفسهم وعليها ، واستعجالهم الأمور قبل أوانها ، وهو تعريض بالمشر كين وحجة على ما يأتون من شرك ، وما ينفكرون من أمر البعث ، متمم لما قبله ولذلك عطفه عليه

تعميل الشيء : تقديمه على أوانه المضروب أو المقدر له أو الموعود به ، والاستعجال به طلب التعجيل ، والعجل من غرائز الانسان القابلة للتأديب والتثقيف كي لا تطفئ به فتورده الموارد . قال تعالى (١٧ : ١١) ويدعو الانسان بالشر دعاءه بالخير وكان الانسان عجولا) وقال تعالى (٣٧ : ٢١) خلق الانسان من عجل سأريكم آياتي فلا تستعجلون) فأما استعجاله بالخير والحسنة فلشدة حرصه على منافعه وقلة صبره عنها ، وأما استعجاله بالضر والسيئة فلا يكون لذاته بل لسبب عارض كالغضب والجهل والعناد والاستهزاء والتعجيز ، ولما يكون مقصوداً بنفسه إلا للنجاة مما هو شر منه ، كما يفعل اليائسون من الحياة ، أو النجاة من ذل وخزي أو ألم لا يطاق إذ يتقحمون المهالك أو يبخعون أنفسهم انتحاراً .

قال تعالى ﴿ ولو يعجل الله للناس الشر ﴾ الذي يستعجلونه به كاستعجال مشركي مكة رسول الله ﷺ بالعذاب الذي أنذرهم نزوله بهم إجمالاً بما قصه عليهم في هذه السورة وغيرها من سنة الله تعالى في أقوام الرسل المعاندين وهو عذاب الاستئصال ، وفيما دونه من عذاب الدنيا كخزيهم والتنكيل بهم ونصره عليهم ، أو قيام الساعة ، وعذاب الآخرة . وقد حكى الله تعالى كل ذلك عنهم كقوله (ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلثات) الآية (ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة) وتقدم قوله (١٢ : ٨) وإذا قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم) وقال في الساعة (يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق) وفي العذاب (يستعجلونك

بالعذاب وان جهنم لمحيطه بالكافرين) وكل هذه الضروب من الاستعجال كانوا يقصدون بها تعجيز الرسول (ص) مباينة في التكذيب، واستهزاء بالوعيد، وقوله ﴿استعجلهم بالخير﴾ معناه كاستعجلهم بالخير الذي يطلبونه لذاته بدعاء الله تعالى أو بمحاولة الاسباب التي يظنون أنها قد تأتي به قبل أوانه ﴿لنقضي اليهم أجلهم﴾ قرأ ابن عامر ويعقوب الجملة بالبناء للفاعل أي نقضى الله اليهم أجلهم ، وقرأها الجمهور بالبناء للمفعول للعلم بالفاعل . وقضاء الاجل اليهم انتهاء اليهم باهلاكمهم قبل وقته الطبيعي ^(١) كما هلك الذين كذبوا الرسل واستعجلوهم بالعذاب من قبلهم . ولكن الله تعالى أرحم بهم من أنفسهم ، وقد بعث رسوله محمداً خاتم النبيين رحمة للعالمين ، بالهداية الدائمة إلى يوم الدين ، وقضى بأن يؤمن به قومه من العرب ، ويحملوا دينه إلى جميع أمم العجم ، وأن يعاقب المعاندين من قومه في الدنيا بما يكون تأديبا لسايرهم ، بما بينه بقوله (١٤:٩) قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم) الآية ، ويؤخر سائر الكافرين منهم ومن غيرهم إلى يوم القيامة ، فهو لا يقضى اليهم أجلهم باهلاكمهم واستئصالهم ، لان هذا العذاب اذا نزل يكون عاما بل يذرم وما هم فيه إلى نهاية اجلهم وذلك قوله ﴿فندركم الذين لا يرجون لقاءنا في طغيانهم يعمهون﴾ الطغيان مجاوزة الحد في الشر من كفر وظلم وعدوان . هذا هو الاصل وطغيان السيل والبحر والدم مستعار منه والعمه . (كالتعب) التردد والتحير في الامر أو في الشر ، والمعنى فنترك الذين لا يرجون لقاءنا ممن تقدم ذكرهم فيما هم فيه من طغيان في الكفر والتكذيب ، يترددون فيه متحيرين لا يهتدون سبيلا للخروج منه لانعجل لهم العذاب في الدنيا باستئصالهم ، حتى يأتي أمر الله تعالى في جماعتهم ينصر رسوله عليهم ، وفي أفرادهم بقتل بعضهم وموت بعض ، وماوهم النار وبئس المصير ، الامن تاب وآمن منهم ، أي هذه سنتنا فيهم لانعجل شيئا قبل أوانه المقدر له بمقتضى علمنا وحكمتنا .

(١) راجع تفسير (ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده) في أول سورة الأنعام (ج ٧ تفسير

(يونس : ١٠) دعاء الكافر ربه عند الشدة ونسيانه عقب استجابته له ٣١٣

وفي الآية وجه عام غير خاص بالكافرين بقدره: ولو يعجل الله للناس الشر الذي يستعجلونه بذنوبهم المقتضية له من ظلم وقد في الارض وفسوق لأهلكهم كما قل في آية أخرى (ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهورها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى) الآية ويدخل في المعنى هذا دعاؤهم على أنفسهم عند اليأس ودعاء بعضهم على بعض عند الغضب، لو يعجله الله لهم لأهلكهم أيضاً (وما دعاء الكافرين) برهم أو بنعمه عليهم فيما يخالف شرعه وسننه في خلقه (إلا في ضلال) أي ضياع لا يستجيبه الله لهم، لحلمه ورحمته بهم .

﴿واذا مسَّ الانسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً﴾ هذا بيان لفريضة الانسان العامة وشأنه فيما يمسّه من الضر، يعلم منه أن استعجال أولئك الناس بالشر تعجيزاً لنبيهم ومبالغة في تكذيبه لما هو من طغيانهم الذي خرجوا فيه عن مقتضى طبيعتهم، فهو يقول ان الانسان اذا أصابه من الضر ما يشعر بشدة ألمه أو خطره من إشراف على غرق وغيره من أنواع التهلكة، أو شدة مسغبة، أو إضعاف داء، دعانا ملحاً في كشفه عنه في كل حل يكون عليه: دعانا مضطجماً لجنبه، أو قاعداً في كسر بيته، أو قائماً على قدميه حائراً في أمره، فهو لا ينسى حاجته إلى رحمة ربه، مادام يشعر بمس الضر والدفع له، ويعلم من نفسه العجز عن النجاة منه، قدم من هذه الحالات الثلاث ما يكون الانسان فيها أشد عجزاً وأقوى شعوراً بالحاجة إلى ربه فإتي تليها وتليها، وتم حلقه رابعة هي سعيه لدفع الضر من طريق الاسباب فلم تذكر لأن الانسان غير المؤمن قلماً يتذكر ما أودع في فطرته من الايمان بربه ذي السلطان الغيبي الذي هو فوق جميع الاسباب ويشعر بحاجته إلى اللجوء اليه، ودعائه والاستغاثة به، إلا عند عجزه عن الاسباب المسخرة له، والمشركون بالله تعالى أقل الناس تذكراً لذلك، لانهم عند عجزهم عن الاسباب العامة المعلومة، يلجئون إلى مظنة الاسباب الموهومة، وهي المخلوقات المعبودة التي يعتقدون أن لها سلطاناً غيبياً فوق الاسباب من جنس سلطان الرب الخالق عز وجل، إما لذاتها وإما بما لها من المكانة عند الله، والمثل مضروب هنا لهؤلاء .

﴿فلما كشفنا عنه ضره مرَّ كأن لم يدعنا إلى ضره مسه﴾ كان الظاهر أن

يقال « فإذا كشفنا عنه ضره » إذ هو المناسب للشرط في أول الآية وهو في جنس الانسان ومقتضى طبعه لا في فرد من أفرادہ ، ونكتة هذا التعبير أن يتصور القاريء والسامع للآية كشف الضر بعد الدعاء واقعا مشاهداً من شخص معين ويرى ما يفعل بعده لأنه أبلغ في العبرة . أي فلما كشفنا عنه ضره الذي دعانا له في حال شعوره بعمزه عن كشفه بنفسه وبغيره من الاسباب ، مرّ ومضى في شؤونه على ما كان من طريقته في الغفلة عن ربه والكفر به ، كأن الحال لم تتغير عليه ، فلم يدعنا إلى ضرّ مسه ، ولم نكشف عنه ضره ﴿ كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون ﴾ أي كهذا النحوم من معرفة الله والاحلاص في دعائه وحده في الشدة ونسيانه والكفر به بعد كشفها زين للمسرفين من طاعة مكة وغيرهم ما كانوا يعملون من أعمال الشرك، حتى بلغ من عنادهم لارسل واستهزأهم بما أنذرهم من عذاب أن استعجلوه بالعذاب ، والاسراف رديف الطغيان وأخوه ، وسبب مثل هذه الآية بعد عشر آيات ببيان أبلغ وقد أسند التزيين هنا إلى المفعول لأنه المقصود بالعبرة دون فاعله . وسبق مثله في آل عمران (١٤:٣) والانعام (٢٢:٦) والتوبة (٣٨:٩) وقد أسند إلى الشيطان في سورة الانعام والانفال ، وأسند إلى الله تعالى في الانعام أيضاً بقوله (١٠٨ زينا لكل أمة عملهم) وبينا في تفسير هذه نكتة اختلاف الاسناد في كل موضع (راجع ص ٦٦٨ ج ٨ تفسير الطبعة الثانية)

(١٣) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونََ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا إِيُّهُمْ يَخْشَوْنَ
الْمُجْرِمِينَ (١٤) ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ
كَيْفَ تَعْمَلُونَ

بين الله تعالى في الآيتين السابقتين شأنه في الناس وشأنهم معه بمقتضى الطبع البشري وطغيان الشرك والكفر ليعتبر به مشركو مكة وغيرهم ممن يعمله إذ هو من العلم الصحيح المستمد من طبع الانسان وسيرته ، وفقى عليه في هاتين

الآيتين بتصادقه من سيرة الامم الماضية وسنته تعالى فيهم فقال عاطفا
 له على ما قبله ﴿ ولقد أهلكنا القرون من قبلك لما ظلموا ﴾ الخطاب لأمة الدعوة
 المحمدية توجه أولا وبالذات إلى قوم النبي ﷺ وأهل وطنه مكة إذ أنزلت السورة
 فيها فهم التفات يفيد مزيد التنبيه وتوجيه أذهان الحاطين لموضوعه ، والقرون الامم
 وهو جمع قرن بالفتح ومعناه القوم المقترنون في زمن واحد ، وقد ذكر اهلاك
 القرون في آيات عديدة من السور المسكية ، وبدأ هذه بتأكيد القسم المدلول عليه
 باللام (ولقد) وصرح بأن سبب هلاكهم وقوع الظلم منهم كما قال في سورة
 الكهف (١٧ : ٦٠) وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لهم موعداً («لما»
 ظرف يدل على وقوع فعل لوقوع غيره مما هو سبب له ، والمراد بالقرى الامم والقرون
 كما تقدم مراراً ، وقال في سورة هود (١١ : ١٠٢) وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى
 وهي ظالمة إن أخذهم أليم شديد) وقد بعث الله الرسل في أهل الحضارة دون الهمج
 واهلاك الله الامم بالظلم نوعان (أحدهما) هو مقتضى سنته في نظام الاجتماع
 البشري وهي أن الظلم سبب لفساد العمران وضعف الامم ، ولاستيلاء القوية منها
 على الضعيفة استيلاء مؤقتاً إن كان إفساد الظلم لها عارضاً لم يجهز على استعدادها
 للحياة واستعدادها للاستقلال ، كما تقدم في تفسير (فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم)
 من سورة البقرة ^١ فو دائماً إن كانت غير صالحة للحياة حتى تنقرض أو تدغم
 في الغلبة كما قال في سورة الانبياء (٢١ : ١١) وكل قصصنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا
 بعدها قوماً آخرين) الآيات - وهذا النوع أثر طبيعي للظلم بحسب سنن الله في
 البشر ، وهو قسمان ظلم الافراد لانفسهم بالفسوق والاسراف في الشهوات المضعفة
 للابدان المفسدة الاخلاق ، وظلم الحكام الذي يفسد بأس الامة في جملتها ، وهذه
 السنة دائمة في الامم ، ولها حدود ومواقيت تختلف باختلاف أحوالها وأحوال أعدائها
 هي آجالها المشار اليها في الآية (٤٩) الآتية وأمثالها

(ثانيها) عذاب الاستئصال للاقوام التي بعث الله تعالى فيها رسلا هدايتها
 بالايمان والعمل الصالح وأعظم أركانها العدل ، فماندوا الرسل فأنذروهم عاقبة

البحرود والعناد بعد مجيء الآيات وهو ما بينه تعالى بقوله ﴿ وجاءتهم رسالهم بالبينات ﴾ الدالة على صدقهم فيما جاؤهم به ﴿ وما كانوا يؤمنوا ﴾ أي وما كان من شأنهم ولا مقتضى استعدادهم أن يؤمنوا لانهم مرتوا على الكفر واطمأنوا به ، وصارت لذاتهم ومصالحهم القومية من الجاه والرياسة والسياسة مقترنة بأعماله الاجرامية من ظلم وفسق وفجور ﴿ كذلك نجزي القوم المجرمين ﴾ تذييل لانهذار مشركي مكة لانهم كانوا مجرمين وتقديره كالذي مر قبله في المسرفين ، وراجع تفسير (٧ : ٣٩) وكذلك نجزي المجرمين) وتفسير (٨٣) فانظر كيف كان عاقبة المجرمين) من سورة الاعراف

﴿ ثم جعلناكم خلايف في الارض من بعدهم ﴾ الخطاب معطوف على الذي قبله أي ثم جعلناكم خلايف في الارض من بعد أولئك الاقوام كلهم بما آتيناكم في هذا الدين من أسباب الملك والحكم وقدرناه لكم باتباعه ، إذ كان الرسول الذي به جاءكم هو خاتم النبيين فلا يوجد بعد أمته أمة أخرى لنبي آخر ، والخلايف جمع خليفة وهو من يخلف غيره في الشيء أي يكون خلفه فيه ، ولقد كان لتلك الامم دول وحكم في الارض ، كملك النصارى واليهود والمجوس ، والوثنيين من قبلهم كالفرعنة والهنود ، فالله يبشر قوم محمد وأمة محمد بأنها ستخلفهم في الارض اذا آمنت به واتبعت النور الذي أنزل معه ، كما صرح بذلك في قوله (٥٥ : ٢٤) وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم) الآية ، وقد علل هذا الاستخلاف عند الاخبار الاول به هنا بقوله ﴿ لننظر كيف تعملون ﴾ أي لنرى ونشاهد أي عمل تعملون في خلافتكم فنجازيكم به بمقتضى سنتنا فيمن قبلكم ، فان هذه الخلافة انما جعلها لكم لاقامة الحق والعدل في الارض ، وتطهيرها من رجس الشرك والفسق ، لا ليجرد التمتع بلذة الملك ، كما قل في أول آيات الاذن لهم بالقتال (٤١ : ٢٢) الذين إن مكناهم في الارض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمرؤا بالمعروف ونهوا عن المنكر) فأعلمهم سبحانه بأن أمر بقاء خلافتهم منوط بأعمالهم ، وانه تعالى يكون ناظراً إلى هذه الاعمال لا يغفل عنهم فيها ، حتى لا يغتروا بما سينالونه ويظنوا انه

بأنهم لم يأتواهم إلى نبيه ﷺ وإنما يتفلقون من سنته في الظالمين وقد بينا لهم آتفاً وقال في سورة الاعراف (٧: ١٠٠) أو لم يهد للذين يرثون الارض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم) الآية ، وقد قص علينا فيها ما حذر به قوم موسى عند ما وعدهم على لسانه بآرث الارض التي وعدها آباءهم في إثر ما شكوا اليه من إيذاء قوم فرعون لهم قبل مجيئه وبعده وذلك قوله تعالى حكاية عنه (١٢٩) قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الارض فينظر كيف تعملون) وليراجع القارئ تفسير آية الاعراف في الجزء التاسع ، وتفسير قوله تعالى في استخلاف الامم العام من آخر سورة الانعام (وهو الذي جعلكم خلائف الارض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليلوكم فيما آتاكم) الآية (ص ٢٤٩ ج ٨) وقد صدق الله وعده ووعيده للمسلمين كغيرهم بما تبين به إعجاز كتابه وصدق رسوله ﷺ وكونه ربي آمنه بما علمه ربه من هداية الدين وطبائع العمران وسنن الاجتماع التي لم يكن يعلمها هو ولا قومه الاميون ، بل لم تضر علماً مدوناً إلا من بعد نزول القرآن بعدة قرون ، لغفلة علماء المسلمين عما فيه من أصولها وقواعدها الصريحة كهذه الآيات . وقد كان أول من دونها المؤرخ الفقيه عبد الرحمن بن خلدون في مقدمة تاريخه مؤملاً أن يعنى بها من بعده من العلماء فيأتوا بتوسيع مابداً به من مباحثها ، ولكن العلم والحكم في دولة الاسلام ، كان داخلاً في طور الانحطاط والاضمحلال ، ثم ارتقى الافرنج فيها فترجوا تلك المقدمة بلغاتهم العلمية كلها وأخذوا منها عدة علوم في سنن العمران ، ونحن نأخذها اليوم عنهم غافلين عن هداية القرآن ، لا بل علماء السوء المقلدين حجبونا عن هدايته بل حرموها على المسلمين استغناء عنه بكتب مذاهبيهم ، فأخذهم الله بذنوبهم ، وإن يكشف عنهم انتقامه حتى يعودوا إلى هدايته التي استخلف بها سلفهم في الارض ، ولئن عادوا اليها باقامة سنن القرآن ، ليتمن لهم وعده بخلافة الارض إلى آخر الزمان . فبقدر اقامة هذه السنن يكون الملك والسلطان . فمن ذا الذي يقيمها؟

(١٥) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا انْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ، قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٦) قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَسُكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٧) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ

بدئت السورة بالكتاب الحكيم (القرآن) وانكار المشركون الوحي بشبهتهم المعروفة وسيقت بعدها الآيات في إقامة الحجج عليهم من خلق العالم علويه وسفليه ومن طبيعة الانسان وتاريخه متضمنة لاثبات أهم أركان الدين وهو الوحي والتوحيد والبعث ، وجاءت هذه الآيات الثلاث بعد ذلك في شأن الكتاب نفسه وتفنيد ما اقترحه المشركون على الرسول فيه وحجته البالغة عليهم في كونه وحيا من الله تعالى

﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات﴾ في الآية التفات عن خطاب هؤلاء المواعظين إلى الغيبة عنهم وتوجيه له إلى الرسول ﷺ وأسلوب الالتفات في القرآن كثير جداً وفائدته العامة تلوين الكلام بما يجدد الانتباه له والتأمل فيه، وفي كل التفات فائدة خاصة لو أردنا بيان مانفهمه منها لطال بنا بحث البلاغة الكلامية، بما يشغل القراء عن الهداية المقصودة بالذات من تفسيرنا. ويظهر في هذه الآية ان نكتة حكاية هذا الاقتراح السخيف بأسلوب الاخبار عن قوم غائبين افادة أمرين (أحدهما) اظهار الاعراض عنهم كأنهم غير حاضرين لانهم لا يستحقون الخطاب به من الله تعالى (ثانيهما) تلقينه ﷺ الجواب عنه بما ترى من العبارة البليغة التأثير ، والمعنى وإذا تتلى على أولئك القوم آياتنا المنزلة حالة كونها بارزة في أعلى معارض البيان، وأظهر مقدمات الوحي والبرهان ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾

وهم من تقدم ذكرهم قريباً - وأعادوا واضعاً إياه موضع الضمير للاشعار بعلّة القول - أي قولاً لمن يتلوها عليهم وهو الرسول ﷺ ثم انت بقراءة غير هذا أو بدله ﴿ لاظهر في سبب قولهم هذا انه ﷺ باعهم أن هذا القرآن من عند الله أو حاه اليه لينذرهم به ، ونحذاهم بالاتيان بمثله أو بسورة من مثله فمجزوا ، وكانوا في ريب من كونه وحياً من الله لبشر مثاهم كما تقدم في أول السورة ، وفي ريب من كونه من عند محمد ﷺ وهو لم يكن يفوقهم في الفصاحة والبلاغة ولا في شيء من العلم ، بل كانوا يرونه دون كبار فصائحهم من بلغاء الشعراء ومصارع الخطباء ، فأرادوا أن يمتحنوه بمطالبتهم بالاتيان بقراءة غير في جملة ما بلغهم من سورته في أسلوبها ونظمها ودعوتها ، أو بالتصرف فيه بالتغيير والتبديل لما يكرهونه منه كتحقير آلهتهم وتكفير آبائهم ، حتى إذا فعل هذا أو ذاك كانت دعواه انه كلام الله أو حاه اليه منقوضة من أساسها ، وكان قصارى أمره أنه امتاز عليهم بهذا النوع من البيان بقوة نفسية فيه كانت خفية عنهم كأسباب السحر لا يوحى الله اليه ، وهو ما يزعّمه بعض الأفرنج ومقلداتهم في عصرنا وقد فندناه في تفسير الآية الأولى من هذه السورة ﴿ قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي ﴾ أي قل لهم أيها الرسول إنه ليس من شأني ولا مما تبيحه لي رسالتي أن أبدله من تلقاء نفسي أي بمحض رأيي ومقتضى اجتهادي ، وكلمة تلقاء بكسر التاء مصدر من التقاء كتيان من البيان وكسر التاء فيها سماعي والقياس في هذا المصدر فتحها كال تكرار والتطواف والتجوال ﴿ إن أتبع إلا ما يوحى إلي ﴾ أي ما أتبع فيه إلا تبليغ ما يوحى إلي والاهتداء به ، فإن بدل الله تعالى منه شيئاً بنسخه بلغته عنه ، وما علي إلا البلاغ المحض ، وأقول إذا كان الله لم يعط رسوله الحق في تبديل القرآن فما حكمه تعالى فيمن يبدلونه بأعمالهم المنافية لصدق وعده لا هله وهم يدعون أنهم أهله كالذين قال فيهم (١٥:٤٨) يريدون أن يبدلوا كلام الله) أو يترك أحكامهم لمذاهبيهم كالذين قال فيهم (فن بدله بعد ماسمه فأنما إسمه على الذين يبدلونه) ﴿ إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم ﴾ هذا تعليل لمضمون ما قبله ، الذي هو بيان لنفي الشأن الذي قبله . أي إني أخاف

٣٢٠ حجة القرآن القطعية على انه كلام لا يقدر النبي على مثله التفسير : ج ١١

إن عصيت ربي أي عصيان كان ، عذاب يوم عظيم الشان ، وهو يوم القيامة ، فكيف اذا عصيته بتبديل كلامه اتباعا لاهوائكم ؟ وقوله (إن عصيت) من باب الغرض ، إذ الشرطية المبدوءة بان يمبر بها عما شأنه ألا يقع . وهذا جواب عن الشق الثاني من اقتراحهم

ثم لقنه الجواب عن الشق الاول مفصولا لأهميته بقوله ﴿ قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ﴾ أي لو شاء الله تعالى أن لا أنزل عليكم هذا القرآن ما تلوته عليكم فانما أنزلوه بأمره تنفيذاً لمشيئته ﴿ ولا أدراكم به ﴾ أي ولو شاء أن لا يدرىكم ويعلمكم به بأرسالي اليكم لما أرساني ولما أدراكم به . ولكنه شاء أن يمن عليكم بهذا العلم الاعلى لتدروا فتمتدوا به وتكونوا بهدائه خلافت الارض ، وقد علم أن هذا انما يكون به لا بقرآن آخر كما قال (٤ : ١٦٦) لكن الله يشهد بما أنزل اليك أنزله بعلمه (وقال (٧ : ٥٢) ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون) [راجع تفسير هذه وما بعدها في ج١ تفسير] فهو قد أنزلها علماً بأن فيه كل ما يحتاجون اليه من الهداية وأسباب السعادة ، وأمرني بتبليغه اليكم ولم يكن لي علم بشيء من

ذلك قبله ﴿ فقد أثبت فيكم عمرًا من قبله ﴾ أي فقد مكثت فيما بين ظهرانيكم عمرًا طويلاً من قبله وهو أربعون سنة لم أنزل عليكم فيه سورة من مثله ، ولا آية

تشبه آياته ، لافي العلم والعرفان ، ولا في البلاغة وروعة البيان ﴿ أفلا تعقلون ؟ ﴾ ان من عاش أربعين سنة لم يقرأ فيها كتاباً ، ولم يلقن من أحد علماً ، ولم يتقلد ديناً ، ولم يعرف تشريعاً ، ولم يمارس أساليب البيان ، في أفانين الكلام ، من شعر ونثر ، ولا خطابة وفخر ، ولا علم وحكم ، لا يمكنه أن يأتي من تلقاء نفسه بمثل هذا القرآن المعجز لكم بل هو يعجز جميع الخلق حتى الدارسين الكتب الاديان والحكمة والتاريخ أن يأتوا بمثله ؟ فكيف تقترحون عليّ اذاً أن آتي بقرآن غيره ؟ وسيتحدثهم في الآية ٣٨ سورة مثله

ومما يمتاز به الوحي المحمدي على ما كان قبله أن أكثر أنبياء بني اسرائيل كانوا قبل نبوتهم على شيء من العلم الكسبي كما بيناه في مباحث الوحي القريبية ، وفاتنا فيها

(يونس : ١٠) ما كان لغير خاتم النبيين من علم وحكم قبل النبوة ٣٢١

التذكير بما أوتي بعضهم من العلم والحكم الوهبي قبلها أيضاً . قال تعالى في موسى (٢٨ : ١٤) ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكماً وعلماً) وبلغ الأشد يكون في استكمال الثلاثين وذكر بعد هذا خروجه إلى مدين ونزول الوحي عليه في أثناء عودته منها . وكان موسى على علم بشرائع المصريين ومعارفهم أيضاً ، وقال تعالى في يوسف (٢٢ : ١٢) ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً) ولم يقل واستوى فالظاهر انه قبل النبوة أيضاً ، وكان العلم الذي امتاز به يوسف تأويل الاحاديث والرؤى أي الاخبار بما آله . وقال في يحيى (وآتيناه الحكيم صبياً) ولم يقل عن نبينا ﷺ قبل النبوة علم ولا حكم في الامور اللهم إلا حكمه في تنازع زعماء قريش عند بناءهم الكعبة أيهم يضع الحجر الاسود في مكانه من الركن وكادوا يقتتلون فطاع عليهم فقالوا هذا الامين فحكمه ونرضى بحكمه أي لأنه أمين صادق لا يحابي . فحكم بوضعه في ثوب يأخذ سيد كل قبيلة ناحية منه ثم ارتقى هو الى موضعه من الركن فرفعه اليه فوضعه فيه . والخبر عن مراسيل السير لم يرد مرفوعاً وأخرجه البيهقي عن ابن شهاب الزهري وقد عبر عنه بكلمة غلام وفي السيرة الحلبية ان سنة ﷺ كانت عند بناء الكعبة خمساً وثلاثين سنة هذه حجة عقلية ناهضة ، على بطلان شبهتهم الداحضة ، التي بنوا عليها مظالمة محمد ﷺ بالاتيان بقرآن غير هذا القرآن ، وقد ظهر لعلماء هذا العصر ما أيد دلالتها العلمية فانهم بما حذقوا علم النفس وأخلاق البشر وطبائعهم ، وما عرفوا من درجات استعدادهم العلمي والعقلي باستقراء تاريخهم ، قد حققوا أن استعداد الانسان العقلي للعلوم ، واستعداده النفسي للنهوض بالاعمال القومية أو العالمية ، يظهر كل من الاستعدادين فيه من أوائل نشأته ، ويكون في منتهى القوة والظهور بالفعل عند استكمال نموه في العقدین الثاني والثالث من عمره ، فاذا بلغ الخامسة والثلاثين ولم يظهر نبوغه في علم من العلوم التي سبق اشتغاله بها ، ولا النهوض بعمل من الاعمال العامة التي كان استشرف لها ، فان من المحال أن يظهر منه

شيء من هذا أو ذاك من بعدها جديداً أنفاً^١ ويكون فيه نابطاً ناجحاً ، وقد قدمنا في مباحث اثبات (الوحي المحمدي) أن هذا القرآن مشتمل على تمحيص الحقائق في جميع العلوم والمعارف الدينية والتشريعية التي يتوقف عليها صلاح جميع البشر ، وأن الرسول الذي أنزله الله عليه قام بتنفيذ هذا الإصلاح بما غير وجه الأرض ، وقلب أحوال أكثر أممها فحولها إلى خير منها ، وأن ذلك كله كان بعد أربعين سنة قضاها في الأمية . فهذا العلم الجديد الذي أيد حجة القرآن العقلية في هذا العصر له في علوم القرآن نظائر أشيرنا إلى بعضها آنفاً ، وبيدنا كثيراً منها في تفسيرنا هذا ، وهو مما يمتاز به على جميع التفاسير بفضل الله تعالى ، وإن كان أكثر المسلمين غافلين عنه تبعاً لغفلتهم عن القرآن نفسه ، وعدم شعورهم بالحاجة إلى هدايته ، بصدد عادة التقليد المعممين إياهم عنه ، ومن الغريب أن ترى أساطين المفسرين لم يفهموا من الآية أن فيها جواباً عن الشق الأول من اقتراح المشركين وهو الاتيان بقرآن آخر ، وقد هدانا الله تعالى إليه مع برهانه بفضله ، وكم ترك الأول للآخر !!

﴿ فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته ﴾ هذه تنمة الرد على اقتراح المشركين فانه رد عليهم أولاً ببيان حقيقة الامر الواقع ، وهو أن تبديل القرآن ليس من شأن الرسول في نفسه ، ولا مما أذن الله له به ، بل يعاقبه عليه أشد العقاب في الآخرة إن فرض وقوعه منه - لانه كلامه الخاص به - وثانياً باقامة الحجة العقلية على أنه كلام الله وأنه ليس في استطاعته [ص] الاتيان بمثله ، ثم عزز هاتين الحجتين بثلاثة أدبية وهي ان شر أنواع الظلم والاجرام في البشر شيثان أحدهما افتراء الكذب على الله ، وهو ما اقترحوه عليه بيجودهم ، وثانيهما التكذيب بآيات الله ، وهو ما اجترحوه باجرامهم ، وقد بين هذا بصيغة الاستفهام الانكاري ، أي لا أحد أظلم عند الله وأجدر بغضبه وعقابه من هذين الفريقين

(١) الالف بضمين من قولهم روضة أنف أي جديدة الزيت لم ترع . وعبر به القدرة عن مذهبهم في خلق الله الاشياء عندما يريد الله كل شيء منها بدون تقدير سابق . فقالوا الامر أنف ومنه يعلم مرادنا من الكلمة هنا

(يونس: ص ١٠) عبادة المشركين مالا يضرهم ولا ينفعهم وشبهتها ٣٢٣

من الظالمين ، وأنا أتبعك الشاني منها فكيف أرضى لنفسي بالاول وهو شر منه ؟ وأي فائدة لي من هذا الاجرام العظيم وأنا أريد الاصلاح وأدعو اليه وأحتمل المشق في سبيله ، وأعلم ﴿ انه لا يفلح المجرمون ﴾ أي لا يفوزون بمطلوبهم الذي يتوسلون اليه بالكذب والزور .

وقد تقدم مثل هذا الاستفهام في ثلاث آيات من سورة الانعام (٢١:٦ و ٣٩ و ١٤٤) وفي آية من سورة الاعراف (٣٧:٧) فراجع تفسيرهن في ج ٨ تفسير

(١٨) وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ
وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ ، قُلْ أَتَنْبِئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ
فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ

هذه الآية في دحض شبهتهم على عبادة غير الله تعالى وهي الشفاعة وتقدم في الآية الثالثة بطلانها وإقامة الحجة على وجوب عبادة الرب الخالق المدبر وحده ، وصرح هنا باسناد هذا الشرك اليهم وباحتجاجهم عليه بالشفاعة . ثم اقرن رسوله الحجة على بطلان هذا الاحتجاج فقال

﴿ ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ﴾ الكلام معطوف على ما قبله من بيان شركهم وسخافتهم فيه ، ومكابرتهم في جحود الحق الذي دعاهم اليه الوحي ، أي ويعبدون مالا يملك لهم ضرراً ولا نفعاً من الاصنام وغيرها من دون الله أي غير الله ، والمعنى أنهم يعبدونها حال كونهم متجاوزين لما يجب من عبادته وحده ، لا أنهم يعبدونها وحدها فاما معنى كونهم مشركين إلا أنهم يعبدونه ويعبدون غيره (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) وفي وصفها بأنها لا تضرهم ولا تنفعهم إيدان بسبب عبادتها وضلالهم فيه وتذكير بأنه هو القادر على نفع من يعبده وضر من يكفره ويشرك بعبادته غيره في الدنيا والآخرة ، وأصل غريزة العبادة الفطرية في البشر في سداجتهم التي لا تافين فيها الحق ولا

باطل هي الشعور الباطن بأن في الوجود قوة غيبية وسلطانا علويا على التصرف في الخلق بالنفع لمن شاء وإيقاع الضرر على من شاء ، وكشفه بعد وقوعه عن شاء ، غير مقيد في ذلك بسبب من الأسباب السخرة للناس ، فمن اطلع على تواريخ البشر في كل طور من أطوار حياتهم البدوية والحضرية يظهر له أن هذا هو أصل الدين الغريزي فيهم ، وأما صور التعبد وتسمية المعبودات فمنها ما هو من اجتهادهم ، ومنها ما هو من تلقين دعاة الدين فيهم من الأنبياء وغيرهم ، فكل ماعبد من دون الله بالرأي والاجتهاد فانما عبده من عبده لشبهة فهم منها قدرته على النفع والضرر بسلطان له فوق الأسباب ، وقد بينا ذلك في مواضع أخرى أولها تفسير العبادة من سورة الفاتحة وأوسطها وأبسطها تفسير قصة إبراهيم عليه السلام مع أبيه آزر من سورة الانعام ، ومن آخرها في تفسير هذه السورة ما جاء في بيان الركن الاول من أركان الدين وفي الكلام على الخوارق من بحث الوحي الاستطرادي

فليس المراد من كون هذه المعبودات لا تضرهم ولا تنفعهم - هو بيان عجزها عن النفع والضرر لانها إما جمادات مصنوعة كالأوثان المتخذة من الحجارة أو الخشب والأصنام المتخذة من المعادن وكذا الحجارة ، أو غير مصنوعة كاللات وهي صخرة كانت بالطائف يأت عليها السويق ثم عظمت حتى عبدت ، وإما أشجار كالعزى معبودة قريش والشجرة التي قطعها الشيخ محمد عبد الوهاب في نجد وشجرة المنصورة التي يقصدها النساء في مصر لاجل الحبل ، فإن أكثر الأوثان والأصنام قد وضعت ذكرى لبعض الصالحين من البشر كإرواء البخاري عن ابن عباس (رض) في أصنام قوم نوح ثم انتقلت عبادتهم إلى العرب ، وكانوا يعتقدون أن فيها أرواحا من الجن كما روي في حديث قطع شجرة العزى أو شجراتها الثلاث اذ ظهرت عند قطعها لخالد ابن الوليد امرأة سوداء عريانة ناشرة شعرها ، كانوا يزعمون أنها جنية ، فأرادت أن توابه وتخيفه فقتلها ، فهي كالتقبور التي تشرف وتبخصص ويوضع عليها الستور وتبنى عليها القباب لمثل السبب الذي وضعوا له تماثيل الأوثان ، وعبدة هذه القبور يعتقدون أن المدفونين فيها أحياء يقضون حاجات من يدعونهم ويستغيثونهم ، وعلماء الخرافات يقولون لهم ان عملهم هذا شرعي

نعم ليس المراد هنا من نفي ضررها ونفعها أنها جمادات لا عمل لها فقط كما قيل وإن كانت الحجة على عبادة هذه الاصنام أظهر من الحجة على عبادة الشعابيين والبقر والقروء — ولا يزال لها بقية في الهند — وعلى عبادة البشر التي هي أساس النصرانية الآرية التي وضعها الامبراطور قسطنطين ، ومن أنعم سنن النصارى والهنود من جهلة المسلمين ، وإنما المراد المقصود بالذات بيان بطلان الشرك بالالوهية وهو عبادة غير الله مهما يكن المعبود ، وبطلان الشرك بالربوبية وهو قسمان ادعاء وساطتهم في الخلق والتدبير ، واحتجاجهم عليه بشفاعتهم عند الله ، وهو كذب في التشريع الذي هو حق الرب وحده ولا يعلم إلا بوحيه . بيان الاول ان كل ما عبد ومن عبد من دون الله حتى الجن والملائكة لا يملكون لما بديهم النفع والضرر بالقدرة الذاتية الغيبية التي هي فوق الاسباب التي منحها الخالق للمخلوقات على اختلاف أنواعها ، لا بدواتهم وكراماتهم ولا بتأثير خاص لهم عند الخالق يحملونه به على نفع من شاؤا أو ضرر من شاؤا أو كشف الضر عنه ، كما يمتدح عباد الانبياء والاولياء من البشر إلى هذا اليوم ، ولهذا أمر الله تعالى رسوله أن يحتج على النصارى في عبادتهم للمسيح عليه السلام بقوله (٧٦:٥) قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرراً ولا نفعاً والله هو السميع العليم) وهذه حجة على عبادة القبور وعلى أصحاب العمام الذين يتأولون لهم عبادتهم بما يظنون أنه يبعدهم عن عباد الاصنام ، بقولهم إن هؤلاء الاولياء احياء عند ربهم كالشهداء فهم يضررون وينفعون لا كالأصنام ، ولكن الله تعالى يقول للنصارى إن المسيح لا يملك لهم ضرراً ولا نفعاً بعبادتهم له على ما آتاه من المعجزات ، وإن هؤلاء الدجالين من الشيوخ يؤمنون بأن المسيح أفضل من البدوي والحسين والسيدة زينب وغيرهم ممن يزعمون أنهم يملكون الضر والنفع لمن يطلبه منهم ، وحياته لا تزال في اعتقادهم حياة عنصرية وحياتهم برزخية ، ومعجزاته قطعية وكراماتهم غير قطعية

كذلك أمر الله تعالى رسوله خاتم النبيين وأفضلهم أن يخبر الناس بنفي ملكه لضر الناس ونفعهم وهو حي كما يأتي في الآية (٤٩) من هذه السورة. وسبق مثلها في سورة الاعراف (١٨٨:٧)

﴿ ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾ أي ويقولون في سبب عبادتهم لهم مع اعتقادهم أنهم لا يملكون الضر والنفع بأنفسهم لا يمانهم بأن الرب الخالق هو الله تعالى : هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، فنحن نعبدهم بتعظيم هياكلهم وتطعيمها بالمطر والطواف بها . وبتقديم النذور لهم ، والاهلال عند ذبح القرابين بأسمائهم ، وبتدعائهم والاستغاثة بهم ، لأنهم شفعاؤنا عند الله يقربوننا إليه زلفى فيدفع مجاهدنا عنا البلاء ، ويمطينا ما نطلب من النعماء ، هذا ما يقوله منكرو البعث منهم وهم الذين لا يرجون لقاء الله تعالى في الآخرة ، على أنهم إذا فرضوا وجودها زعم مجرموهم أنهم يكونون فيها كما كانوا في الدنيا كما حكى الله تعالى عنهم بقوله (وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين) وقوله في الإنسان الكافر (ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي ، وما أظن الساعة قائمة ، ولئن رددت إلى ربي إن لي عنده للحسنى) وروي عن عكرمة أن النضر بن الحارث من كبار مجرميهم قال : إذا كان يوم القيامة شفعت لي اللات والعزى . وكذلك كل من يؤمن بالآخرة ممن يعبدون غير الله يعتقدون أن معبوديهم يشفعون لهم فيها كما يشفعون لهم في الدنيا ، فإن أساس عقيدة الشرك أن جميع ما يطالبونه من الله لا بد أن يكون بوساطة المقربين عنده ، لأنهم لا يمكنهم القرب من الله والخطوة عنده بأنفسهم لأنها مدنسة بالمعاصي ، بخلاف دين التوحيد فإنه يوجب على العاصي أن يتوجه إلى الله وحده تائباً إليه طالباً مغفرته ورحمته

﴿ قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض ﴾ أي قل لهم أيها الرسول منكراً عليهم جهالتهم واقتراءهم على ربهم : أنخبرون الله تعالى وتعلمونه بشي لا يعلمه من أمر هؤلاء الشفعاء في السموات من ملائكته ولا في الأرض من خواص خلقه ، فإنه لو كان فيهما شفعاء يشفعون لكم عنده لكان أعلم بهم منكم ، فإنه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، فكيف يخفى عليه من لهم من المسكنة عنده أن جعلهم وسطاء بينه وبين خلقه في قضاء حاجهم من نفع وضر وفي تقريبهم إليه زلفى كالوسطاء عند ملوك البشر الجاهلين بأمور رعيتهم والعاجزين

عن تنفيذ مشيئتهم فيهم بدون وساطة الوزراء والحجاب والقواد ﴿سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ أي تنزيهاً له وتعالى عما يشركون به من الشفعاء والوسطاء . وما يفترونه عليه بجهلهم هذا ديناً يتقرب به اليه . فهذا تذييل للجواب مبين لما في هذا الشرك من إهانة مقام الربوبية والالوهية ، وتشبيه رب العالمين ، بعبيده من الملوك الجاهلين العاجزين ، وقرأ حمزة والكسائي (تشركون) بناء الخطاب ، على أنه تنمة للجواب . وحكمة القراءتين تنزيهه تعالى عن شرك الجميع من غائب محكي عنه وحاضر مخاطب .

وفي هذا الجواب من أصول الدين ان شؤون الرب وسائر مافي عالم الغيب توقيفية لا يعلم الا بخبر الوحي ، ومنه انخاذ الوسطاء عند الله ، مما ذكر وانزه عن الشرك . ولكن من علماء الازهر من يثبتون هذه الوساطة بالرأي . ويحرفون ما ينقضها من الآيات المحكمات والاحاديث المتفق عليها كأنها هي الاصل ، حتى انهم يبيحون دعاء الموتى واستغاثتهم عند قبورهم ، ويحتجون على ذلك بأنهم أحياء فيها ، وبأن الافرنج أثبتوا وجود الارواح وعلاقتها بالناس ، ولما سكن الذين قالوا بهذا من علمائهم وهم أقامهم ، لم يقولوا انها تنفعهم وتضرهم ، أو تشفع عند الله لهم ، ولو قالوا هذا لما كان لنا ان نتخذ قولهم حجة نعارض بها نصوص ديننا او نتأولها لتوافقها ، ولمشيخة الازهر الرسمية مجلة تنشر باسمها هذه البدع والخرافات في جميع بلاد المسلمين . وتطعن على المعتصمين بالسنة وسيرة السلف الصالحين ، وعلى المعتصمين بالقرآن أيضاً وهو حبل الله المتين ، لزعمهم ان الواجب عليهم هو أخذ الدين كله عن كتب مقلدة الفقهاء والمتكلمين ، حتى المتأخرين منهم دون الأئمة المجتهدين

(١٩) وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا، وَلَوْلَا كَلِمَةٌ

سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ

تقدم في هذا السياق من أول السورة إلى هنا ان أهل مكة لم يكن دأبهم في تكذيبهم للوحي المحمدي إلا كدأب من قبلهم من الاقوام الذين كذبوا رسلهم .

ولم يكونوا في استعجال نبيهم العذاب إلا كاذبين استعجلوا وسلمهم العذاب أيضاً وتقدم فيه بيان بعض طباع البشر ولا سيما الكفار في الرعونة والعجلة ، وفي الضراعة إلى الله والاخلاص له عند الشدة ونسيانه عند الرخاء ، وفي الاشرار بالله بدعوى ان لهم شفعا عند الله يدفعون عنهم الضر ويحلبون لهم النفع بوجهتهم عنده ، ثم جاءت هذه الآية في بيان ما كان عليه الناس من الوحدة ، وما صاروا عليه من الاختلاف والفرقة ، فالتناسب بينهما وبين ما قبلها في غاية القوة .

﴿ وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلّفوا ﴾ قيل إن المراد بالناس هنا العرب فانهم كانوا حنفاء على ملة ابراهيم إلى أن ظهر فيهم عمرو بن لحي الذي ابتدع لهم عبادة غير الله وصنع لهم الاصنام - كما ثبت في صحيح البخاري - فاختلّفوا بأن أشرك بعضهم وثبت على الحنيفية آخرون . (١)

وقيل وهو المختار ان المراد الجنس البشري في جماعته فانهم كانوا أمة واحدة على الفطرة ، إذ كانوا يعيشون عيشة السداجة والوحدة كأسرة واحدة ، حتى كثروا وتفرقوا فصاروا عشائر فقبائل فشعوبا تختلف حاجاتها وتعارض منافصها ، فتتعادى وتتقاتل في التنارع فيها ، فبعث الله فيهم النبيين والمرسلين لهدايتهم ، وإزالة الاختلاف بكتاب الله ووحيه ، ثم اختلفوا في الكتاب نفسه أيضاً بغياً بينهم واتباع لاهوائهم ، وتقدم تفصيل هذا في تفسير (٢ : ٢١٣) وأقوال المفسرين في المسألة والترجيح بينها

﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم فيما فيه يختلفون ﴾ أي ولولا كلمة حق فاصلة سبقت من ربك في جعل جزاء الناس العام في الآخرة لعجله لهم في الدنيا باهلاك المبطلين الباغيين منهم ، فالمراد من الكلمة قوله تعالى في هذه السورة (٩٣) إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) ومثله في سور أخرى والآية تتضمن الوعيد على اختلاف الناس المفضي إلى الشقاق والعدوان ولا سيما الاختلاف في كتاب الله الذي أنزله لازالة الشقاق بحكمه ، وإدالة الوحدة

(١) بينا تاريخ وثنية العرب في فصل عقدناه عقب تفسير الآية ١٤٤ من سورة الانعام ومنه هذه المسألة فيراجع في الجزء الثامن من التفسير

(يونس : ١٠) اقتراح المشر كين الآيات الكونية على النبي (ص) ٣٢٩

والوافق منه ، وتقدم بيانه وحكمته في تفسير آية البقرة (٢١٣) وفي غيرها وسنعود إلى بيان حكمته وحكمة خلق الانسان مستعداً للاختلاف في تفسير آية سورة هود (١١ : ١١٧) ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة) الخ

(٢٠) وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ

الكلام في منكري الوحي من المشر كين المنكرين للبعث ، حكى عنهم عجبهم من الوحي إلى بشر مثلهم ورد عليهم بأنواع الحجج المتقدمة المتضمنة لبطلان شر كهم وانكارهم للبعث ، ثم حكى عنهم مطالبة الرسول ﷺ بالاثيان بقرآن غير هذا القرآن الدال بأسلوبه ونظمه وعلومه وهدايته على أنه وحي من كلام الله عز وجل أو تبديله ، ورد عليهم بما علمت . ثم حكى عنهم في هذه الآية الاحتجاج على إنكار نبوته بعدم إنزال ربه عليه آية كونية غير هذا القرآن وما فيه من الآيات العلمية والعقلية على النبوة والرسالة مع الرد عليها . والجملة معطوفة على جملة ما قبلها من حكايات أقوال المشر كين واعمالهم في جحود الرسالة ، ومن دعوة الرسول ﷺ إلى التوحيد والايان بالبعث ، لا على آخر ما حكاه عنهم في قوله (ويمبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا) خاصة اقربيه وكون كل منها بلفظ المضارع ، فان المحكي هنا غير مشارك للمحكي قبله في خاصة موضوعه أو ما يناسبه ، ولا على ما حكاه عنهم من طلب الاثيان بقرآن غير هذا أو تبديله خاصة وإن كانا في موضوع واحد ، لبعده والاختلاف بينهما في حكاية ذاك بالماضي وهو (قال الذين لا يرجون لقاءنا) وحكاية هذا بالمضارع الخ

وقال الزمخشري في الكشاف في ترجيحه إن المضارع هنا بمعنى الماضي هناك وانما أثر المضارع على الماضي ليبدل على استمرار هذه المقالة وانها من دأبهم وعادتهم مع ما في ذلك من استحضار صورتها الشنيعة إياه وقد أخطأ في الترجيح وبعده ، وإن سدد في التعليل وقارب ، والتحقيق إن المعنى الجامع بين الجمل المتعاطفة في هذا

٣٣٠ الآيات المنزلة في الآيات الكونية المقترحة على النبي (ص) (التفسير : ج ١١)

السياق حكاية أنواع جحودهم في جملتها ، وإن التعبير بالمضارع في هذه وما قبلها وفيما سيأتي من قوله (أم يقولون افتراه) وقوله (ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين) إنما هو لما يتكرر من أقوالهم في الجحود ، فإن اقتراح نزول آية كونية عليه قد تكرر منهم وذكر في سور منها ما نزل قبل هذه السورة (يونس) ومنها ما نزل بعدها كما سنوضحه بشواهد ، فمضى الآية هكذا :

﴿ ويقولون لولا أنزل عليه آية من ربه ﴾ أي قد قالوا ولا يزالون يقولون هلا أنزل على محمد ﷺ آية كونية كآيات الأنبياء الذين يحدثنا عنهم ، حكى سبحانه عنهم هذا الاقتراح هنا مجملا وأجاب عنه جوابا مجملا لأن كلا منهما قد سبق مفصلا في سور أخرى ، وقد جهل هذا كفار الأفرنج وتلاميذهم من ملاحدة مصر ، فقالوا في مثله إن النبي ﷺ كان في مكة يفر من مناظرة للمشركين

﴿ قل إنما الغيب لله ﴾ والآيات من عالم الغيب عند الله تعالى وبيده وحده لأنها خوارق فوق قدرة البشر ، وإنما أنا بشر والغيب لله لا يعلمه غيره ، فإن كان قدر إنزال آية علي فهو يعلم وقتها وينزلها فيه وأنا لا أعلم إلا ما أوحاه إلي ﴿ فانتظروا إني معكم من المنتظرين ﴾ لما يفعله بي وبكم كما قال تعالى بعد حكاية ربه ﷺ بافتراء القرآن (٩: ٤٦) قل ما كنت بدعا من الرسل وما أدري ما يفعل بي ولا بكم ، إن أتبع إلا ما يوحى إلي وما أنا إلا نذير مبين) ويفسر ما ينتظره وينتظرونه منه قوله في أواخر هذه السورة (فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم قل فانتظروا إني معكم من المنتظرين) وفيه إنذار لهم بالعذاب وهو قسمان : عذاب الاستئصال لمن أوتوا ما اقترحوا على رسلهم من الآيات فأصروا على الجحود والعناد ، وعذاب من لم يؤتوا ذلك وهو خذلانهم ونصر الرسل عليهم في الدنيا وما وراءه من عذاب الآخرة

حكى الله تعالى عنهم اقتراح آية أو آيات مبهمة في بعض السور ، واقتراح آيات معينة في سور أخرى منها ما نزل بعد هذه السورة وهي الحجر (١٥ : ٦ - ٨) خالانعام (٦ : ٨ و ٩ و ٣٩ - ٤١ و ١٠٩ - ١١١) فالأنبياء (٢١ : ٥) فالعنكبوت

(٢٩ : ٥) فالرعد (١٢ : ٨ و ٢٨) وفيها أجوبة أخرى فأما الانعام ففيها تفصيل ليكون الآيات لا تزيدهم إلا عناداً واصراراً على الجحود فتحق عليهم كلمة عذاب الاستئصال ، وتنافي مراد الله تعالى من بعثة خاتم النبيين ، وتقدم تفسيرها في الجزءين ٧ و ٨ من تفسيرنا هذا فيراجع ، ثم أجمل ذلك في سورة الانبياء فقال (ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون) ثم أجاب عنها في سورة العنكبوت بقوله (أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ؟)

لكنه كان قد فصل مقترحاتهم مع الرد عليها في السور التي أنزلت قبل ذلك كله . كقوله تعالى في سورة الفرقان (٢٥ : ٧) وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل اليه ملك فيكون معه نذيراً (٨) أو يلقي اليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها ؟) ثم حكى عنهم في سورة بني اسرائيل (١٧) أنهم طالبوه ﷺ بواحدة من بضع آيات وعلقوا إيمانهم على إجابة طلبهم فقال بعد بيان عجز الانس والجن عن الاتيان بمثل هذا القرآن ، وما صرفه فيه للناس من جميع ضروب الامثال ، (٩٠) وقالوا ان تؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعاً) الخ الآيات الاربع ثم لقن رسوله ﷺ الرد عليهم بقوله (٩٣) قل سبحان ربي هل كنت الا بشرا رسولا ٩٤ وما منع الناس أن يؤمنوا اذ جاءهم الهدى الا ان قالوا أبعث الله بشرا رسولا ٩٥ قل لو كان في الارض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا) أي سبى ربك في جوابهم ، تسبيح التعجب من قولهم ، وذكركم بأنك بشر مثلهم ، وليس في قدرة البشر أن يأتوا بالآيات الخارقة لسنن الكون ، وان آفتهم هي آفة من كان قبلهم من الاقوام الذين لم يصدقوا ما جاء به الرسل من الهدى وانه متى تبين وجب على العاقل اتباعه لذاته ، فاحتقروا الرسل الذين جاؤهم به لانهم بشر مثلهم ، واقترحوا أن يجيئهم به الملائكة ، وانه لو كان في الارض ملائكة يمشون فيها كالبحر يمكنهم التناهي عنهم لنزل عليهم ملكا ، ثم بين لهم انه اذا نزل الملك فهو لا ينزل إلا بالعذاب ، إلا أن يجعل بشراً ، واذا لاحتجوا عليهم بأنه مثلهم ، كما قال في سورة الحجر حكاية لخطابهم للذي نزل عليه الذر (١٥ : ٧) لو مانايننا بالملائكة ان كنت من الصادقين ٨ ما نزل الملائكة

٢٢٢ الآيات الكثيرة في حصر آية نبوته (ص) في القرآن التفسير : ج ١١

الا بالحق . وما كانوا اذا منظرين) وقال في الانعام (٦ : ٨ وقالوا لولا أنزل عليه ملك ! ولو أنزلنا ملكا لقضي الامر ثم لا ينظرون (٩) ولو جملناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون)

ولقنه في هذه السورة (بني اسرائيل) حجة أخرى في حكمة عدم نزول الآيات الكونية عليه أو سببه وهي قوله (٦٠ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الاولون) أي وما صرفنا عن ارسال الآيات الا التي اقترحتها قريش الا تكذيب الاولين الذين هم أمثالهم في الطبع والمادة كعاد ونمود وانها لو أرسلت لكذبوا بها تكذيب أولئك واستوجبوا عذاب الاستئصال على ما مضت به سنتنا . وقد قضينا أن لا نستأصلهم لانهم أمة خاتم النبيين الباقية ، وأنه هو رحمة العامة الشاملة ، ولأن فيهم من يؤمن أو يولد لهم من يؤمن . ثم ذكر بعض الامم المهلكة بتكذيب الآيات المقترحة فنذكره مع عبارة البيضاوي الوجيزة في تفسيره وهو : (وآتيناهم نوحا الناقة) اسؤالهم (مبصرة) بينة ذات إِبصار أو بصائر أو جاعلتهم ذوي بصائر (فظلموا بها) أي فكفروا وظلموا أنفسهم بسبب عقربها (وما نرسل بالآيات) أي المقترحة (الا تخويفا) من نزول العذاب المستأصل فان لم يخافوا نزل اه وفي سورة القصص وقد نزلت بعد الفرقان وقبل بني اسرائيل تفصيل لقصة موسى في مولده ونشأته وفراره من فرعون الى مدين وبعثته في طور سيناء الخ وقد صرح في آخرها انها تدل على رسالته ﷺ لانه لم يكن يعلم من أمرها شيئا فهي من علم الغيب كما تراه في الآيات (٢٨ : ٤٤ - ٤٥) منها وقد تقدم نصها (في مباحث الوحي ص ١٨٧ ج ١١ تفسير) ثم قال (٤٧) ولولا ان تصيبهم مصيبة بما قدمت ايديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت الينا رسولا فننتبع آياتك ونكون من المؤمنين ٤٨ فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا آتوني مثل ما آتوني موسى ؟ أولم يكفروا بما آتوني موسى من قبل ؟ قالوا سحران تظاهرا . وقالوا إنا بكل كافرون) الخ فجملة ماورد في اقتراح الآيات الكونية من مجمل ومفصل يفسر بعضها بعضها وهو مقرر لما علم بالقطع من دين الاسلام ان الله تعالى جعل حجته على رسالة خاتم النبيين هذا القرآن المشتمل على كثير من الآيات العقلية والعلمية والاصلاحية

وأخبار الغيب وأعجاز الأسلوب والنظم والتأثير في الهداية إلخ ما فصلناه في الفصل الاستطرادي الذي عقدناه لاثبات الوحي في أول تفسير السورة (ص ١٩٥ ج ١١) وقد آتى الله رسوله خاتم النبيين آيات أخرى علمية وكونية ولكنه لم يجعلها حجة على رسالته ولا أمره بالتحدي بها وإنما كانت تكون لضرورات اشتدت حاجة الأمة إليها كاستجابة بعض ادعيته ﷺ وتقديم بيانه (ص ١٥٩ منه)

ويؤيد هذه القاعدة المأخوذة من هذه الآيات كلها ما رواه الشيخان والترمذي والنسائي من حديث أبي هريرة مرفوعاً « ما من نبي من الأنبياء إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة » وقد يعارضه آية انشقاق القمر مع ما ورد في أحاديث الصحيحين وغيرهما من أن قريشاً سألوا النبي ﷺ آية على نبوته فانشق القمر فكان فرقتين ، ولكن في الأحاديث الواردة في انشقاقه عللاً في متنها وأسانيداً واشكالات علمية وعقلية وتاريخية فصلناها في المجلد الثلاثين من المنار ^(١) وبيننا أن ما تدل عليه الآيات القرآنية المؤيدة بحديث الصحيحين الصريح في حصر معجزة نبوته ﷺ في القرآن وكون الآيات المقترحة تقتضي إجابة مقترحها عذاب الاستئصال ، هو الحق الذي لا ينهض لمعارضته شيء ، وسنعود إليها في تفسير سورة القمر إن أحيانا الله تعالى ووفقنا لإتمام التفسير بفضل

(٢١) وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا ، قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُوبُونَ مَا تَمْكُرُونَ (٢٢) هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ

عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ
دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ
مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٣) فَلَمَّا أَنجَيْنَاهُمْ إِذَا هُمْ يَمْنُونُ فِي الْأَرْضِ بَغْيَرٌ
الْحَقُّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ كُنْتُمْ تَلِي أَنْفُسَكُمْ مَتَعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا
ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَتَنْذِبُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

لما كان الجواب عن اقتراحهم الآية الكونية للدلالة على النبوة يتضمن بمعونة
ما يفصله من الآيات ان أولئك المشركين المعاندين لا يقتنعون بالآيات ، وانهم
اذا رأوها بأعينهم يكابرون حسهم ولا يؤمنون ، ضرب الله تعالى مثله في آياته
الكونية الدالة على وحدانيته في أفعاله وحكمه فيها وما لهؤلاء المشركين المعاندين
من المكربها وكونها لا تزيدهم إلا ضلالا فقال

﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسْتَهْمٍ ﴾ هذه الشرطية منتظمة
مع أختيها في الآيتين ١٥ و ١٢ في نسق واحد ، والذوق في أصل اللغة إدراك الطعم
بالفم ، والمدر ك له عصب خاص في اللسان ، واستعمل مجازاً في إدراك غيره من
الملائمات كالرحمة والنعمة ، والمؤلمات كالعذاب والنقمة ، والضراء الحالة من الضر
المقابل للنعمة ، ويقابلها السراء من السرور ، أي وإذا كشفنا ضراء مس الناس
ملها ، برحمة منا أذقناهم لذتها على أنفها ، لان الشعور بها عقب زوال ضدها يكون

أتم وأكمل ﴿ إِذَا هُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا ﴾ اذ هذه تسمى المفجائية والجملة جواب للشرط
أي ما كان منهم إلا أنهم بادروا الى المكرب ، وأسرعوا بالمفاجأة به في مقام الشكر ،
فاذا كانت الرحمة مطراً أحيا الارض ، وأنبت الزرع ، ودربه الضرع ، بعد جذب
وقحط أهلك الحرث والنسل ، قالوا مطرنا بالانواء ، واذا كانت نجاة من هلكة
وأعوزتهم اسبابها ، عللوها بالمصادفات ، واذا كان سببها دعاء نبيهم أنكروا

إكرم الله له وتأيد به ، كما فعل فرعون وقومه عقب آيات موسى ، وكما فعل مشركو مكة إثر القحط الذي أصابهم بدعاء رسول الله ﷺ عليهم ، ثم رفع عنهم بدعائه فما زادهم ذلك إلا كفراً وجحوداً ، ومكراً وكنوداً .

أخرج الشيخان من حديث عبد الله بن مسعود [رض] أن قريشاً لما استمعوا على رسول الله ﷺ دعا عليهم بسنين كسني يوسف فأصابهم قحط وجهد حتى أكلوا العظام واللبنة من الجهد ، حتى جعل أحدهم يرى ما بينه وبين السماء كهيئة الدخان من الجوع ، فأنزل الله تعالى (فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين * يغشي الناس هذا عذاب ألیم) فأنى رسول الله ﷺ فقبل له يا رسول الله استق لمضر فانها قد هلكت فقال «مضر؟» متعجباً ، وفي رواية فجاءه أبو سفيان فقال يا محمد انك جئت تأمرنا بصلة الرحم وإن قومك قد هلكوا فادع الله ، فدعاهم فبكشف الله عنهم العذاب ومطروا ، فعادوا إلى حالهم ومكرهم الأول الذي تقدم فيه قوله تعالى (٨: ٣٠) وإذ يامر بك الذين كفروا) الآية ، وقد بينا في تفسيرها وتفسير آية (٧: ٩٨) وآية (٣: ٥٤) معنى المكر في اللغة وكونه حسناً وسيئاً ومعنى اسناده إلى الله تعالى . وخلاصته أن المكر عبارة عن التدبير الخفي الذي يفضي بالممكور به إلى ما لا يحتسبه ولا يتوقعه ، وإن مكره تعالى وهو تدبيره الذي يخفى على الناس إنما يكون باقامة سننه وإتمام حكمه في نظام العالم وكلاءه حق وعدل وحسن ، ولكن مايسوء الناس منه يسمونه شرّاً وسوءاً ، وإن كل جزاء عدلاً ، ويراجع تحقيقه في الجزئين ٣ و ٩ من التفسير ﴿ قل الله أسرع مكرآ ﴾ أي قل إنها الرسول لهؤلاء الذين يسرعون في المكر كما دلت عليه المفاجأة : أن الله تعالى أسرع مكرآ منكم ، إذ سبق في تدبيره لأموال العالم وتقديره للجزاء على الأعمال قبل وقوعها أن يعاقبكم على مكركم في الدنيا قبل الآخرة ، وهو عالم به لا يخفى عليه شيء منه ، وأكد هذا بقوله ﴿ إن رسائنا يكتبون ما تمكرون ﴾ يعني الحفظة من الملائكة الذين وكلهم الله تعالى باحصاء أعمال الناس وكتبتها للحساب عليها في الآخرة . وكتابة المكر عبارة عن كتابة متعلقه من الأعمال اللاتي كان هو الباعث عليهما ، ويجوز أن تكتب نيتها وهي المعنى

المصدرى المكر . والجملة تنمة الجواب الذي لقنه الله لنبيه ﷺ بناء على أنه يبلغه عنه عز وجل بلغظه الوحي إليه لا بمعناه ، ولذلك يدخل في التبليغ لفظ (قل) وهو خطاب الله له ﷺ مع مقوله الخاص بهم كقوله (قل يا أيها الكافرون) وأمثاله الكثيرة في القرآن ، بل أقول أنه ﷺ بلغهم الآية برمتها: ما حكاه تعالى عنهم وما أمره أن يحبسهم به ، وقد يكون ذلك في ضمن السورة كلها لا وحده ، ومثل هذا يقال في أمثاله .

فعلم بهذا أنه ليس المراد أن يقول ﷺ لهم كلمة « الله أسرع مكرآ » من قبل نفسه فيستشكل الالتفات فيها عن الغيبة إلى التكلم في « ان رسلنا » بل هو جار على سنة القرآن فيه ، وهو أبلغ في تصوير تسخير الله تعالى للملائكة في كتابة الأعمال من التعبير بضمير الغيبة (ان رسله يكتبون) الخ لان في ضمير الجمع من تصوير العظمة في هذا التدبير العظيم ، والنظام الدقيق ، ما يشعر به كل من له ذوق في هذه اللغة سيدة اللغات ، التي اعترف علماء اللغات من الافرنج بأنها تفوق جميع لغاتهم ، في التعبير عن صفات الله تعالى وكأله وعظمته ، ومثل هذا الالتفات فيها قوله تعالى في آخر سورة الكهف (قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً) وقرأ نافع ويعقوب [يمكرون] بالمشناة التحنية وقائده الاعلام بأن ذلك شامل للغائبين كالحاضرين

وقد فصلنا القول في كتابة الملائكة الحفظة لأعمال الناس وحكمتها في تفسير (٦١: ٦) وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة) من سورة الانعام وشرحنا قبلها مسألة كتابة مقادير الخلق كلها في تفسير الآية (٥٩) وعنده مفاتيح الغيب) منها فيراجع الموضوع كله في جزء التفسير السابع من شاء ، ومن اكتفى بالاجمال فحسبه الايمان بأن الملائكة تكتب الأعمال كتابة غيبية لم يكلفنا الله تعالى معرفة صفتها ، وانما كلفنا أن نؤمن بأن له نظاماً حكماً في إحصائها ، لاجل مراقبتها فيها ، لنلتزم الحق والعدل والخير ونجتنب أضرارها

ومن مباحث اللفظ في الآية ان اسم التفضيل [اسرع] فيها على أصله من الفعل الثلاثي : سرع كضخم وحسن سرعا وسرعة فهو سرع وسريع وسراع والمستعمل بكثرة الرباعي أسرع ، وفي اللسان ان سديمويه فرق بينها فقال : اسرع طلب ذلك من نفسه وتكافه كأنه اسرع المشي اي عجله ، واما سرع فكأنها غريزة ، وان ابن جني استعمل اسرع متعديا ، اه وجوز بعض النحاة كون اسم التفضيل من مثل أسرع مطلقا ، أو إذا لم تكن همزته للتعدية . ثم ضرب الله تعالى مثلا لهؤلاء الناس هو من أبانغ أمثال القرآن فقال :

﴿ هو الذي يسيركم في البر والبحر ﴾ السير الماضي والانتقال من مكان إلى آخر والتسيير جعل الشيء أو الشخص يسير بتسخيره أو إعطائه ما يسير عليه من دابة أو مركبة أو سفينة ، اي ان الله تعالى هو الذي يسيركم أيها الناس في البر والبحر بما وهبكم من القدرة على السير ، وما سخر لكم من الابل والدواب والفلك التي تجري في البحر (وزادنا في هذا العصر القطارات والسيارات البخارية والطائرات التي تسير في الجواء) ﴿ حتى اذا كنتم في الفلك ﴾ اي حتى اذا كنتم في إحدى حوادث سيركم البحري راكبين في الفلك التي سخرها لكم ، والفلك بالضم اسم للسفينة المفردة وجمعها وهو السفن والسفائن [مفردة وجمعه واحد] والمراد به هنا الجمع إذ قال ﴿ وجرين بهم برح طيبة ﴾ أي وجرت هذه الفلك بمن فيها بسبب برح طيبة اي رخاء مواتية لهم في جهة سيرهم ، والطيب من كل شيء ما يوافق الغرض والمنفعة ، يقال رزق طيب ونفس طيبة ، وبلدة طيبة وشجرة طيبة . وفي قوله [بهم] التفات عن الخطاب إلى الغيبة فأنثته كما قال الزمخشري المبالغة كأنه يذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها ويستدعي منهم الانكار والتقبيح لها ، اي لما وصفهم به بعد ذلك من كفر النعمة ﴿ وفرحوا بها ﴾ لما يكون لهم في هذه الحالة من الراحة والانتعاش والامن من دوار البحر والتمتع بمنظره الجميل ، في ذلك الهواء العليل ﴿ جاءتها ريح عاصف ﴾

اي جاءت الفلك أو الريح الطيبة اي لاقتها ريح شديدة قوية يقال عصفت الريح فهي عاصف وعاصفة اي تعصف الاشياء وتكسرهما فتكون كمصف النبات وهو الحطام المتكسرة منه ﴿ وجاءهم الموج من كل مكان ﴾ اي واضطرب البحر وتموج سطحه كله فتلقاهم موجه من جميع الجوانب والنواحي بتأثير الريح ، فهي أنواع منها ما يهب من ناحية واحدة كالرياح الاربع ، ومنها المكباء وهي المنحرفة التي تقع بين ريحين مختلفتين ، ومنها المتناوذة التي تهب من جميع النواحي ، ومنها الاعصار وهي التي تدور فتكون عمودية فيرتفع بها ما تدور عليه من التراب والحصى من الارض ، والماء من سطح البحر بما عليه وما فيه من سمك وغيره ثم ياتي في مكان آخر ﴿ وظنوا أنهم أحيط بهم ﴾ اي اعتقدوا اعتقاداً راجحاً انهم هلكوا باحاطة الموج من كل جانب ، كما يحيط العدو المحارب بعدوه إذ يطوقه بما يقطع عليه سبل النجاة . ذلك بأن فعل العاصف يهبط بهم في لجج البحر تارة كأنهم سقطوا في هاوية سحيقة ، ولا يلبث ان يثب بهم الى أعلى غوارب الموج كأنهم في قنة جبل شاهق اصابه رجفة زلزلة شديدة ﴿ دعوا الله مخلصين له الدين ﴾ هذا جواب لما تضمنه قوله تعالى (حتى اذا كنتم في الفلك) الخ ، اي حتى اذا ما نزل بهم كل ذلك من نذر العذاب ، وتقطعت بهم دون النجاة جميع الاسباب ، دعوا الله في كشفه عنهم مخلصين له الدين ، لا يتوجهون معه الى ولي ولا شفيع ، ولا ند ولا شريك ، ممن كانوا يتوسلون بهم اليه في حال الرخاء عازمين على طاعته قائلين ﴿ لنن أنجيئنا من هذه لنكونن من الشاكرين ﴾ اي نقسم لك يا ربنا لنن أنجيئنا من هذه التهلكة أو العاصفة لنكونن لك من جماعة المؤمنين الشاكرين لنعمتك لا تكفر منها شيئاً ، ولا نشرك بك أحداً ، ولا ندعو من دونك ولياً ولا شفيعاً ، ولا نتوجه في تفرج كروبنا وقضاء حاجتنا الى وثن ولا صنم ، ولا الى ولي ولا نبي ولا ملك ، وفي هذه الآية وأمثالها بيان صريح لكون المشركين كانوا لا يدعون في أوقات الشدائد وتقطع الاسباب بهم الا الله ربهم ، ولكن من لا يحصى عددهم من مسلمي هذا الزمان يزعمون لا يدعون عند أشد الضيق الا معبوديهم من الميتين كالبديوي والرفاعي والدسوقي

(يونس: ١٠) اخلاص المشر كين الأواين لله في الشدة دون مشر كي زماننا ٣٣٩

والجبلاني والمتبولي وابي سريع وغيرهم ممن لا يحصى عددهم، وتجد من حملة العمائم
الازهرين وغيرهم ولا سيما سدة المشاهد المعبودة الذين يتمتعون بأوقافها ونذور
من يغريهم بشر كهم ويتأوله لهم بتسميته بغير اسمه في اللغة العربية كالتوسل وغيره
وقد سمعت من كثير من الناس في مصر وسورية حكاية يتناقلونها ربما تكررت
في القطرين لتشابه أهلها وأكثر مسلمي هذا العصر في خرافاتهم وملخصها ان
جماعة ركبوا البحر فهاج بهم حتى أشرفوا على الغرق فصاروا يستغيثون معتقديهم
فبعضهم يقول ياسيد يابدوي وبعضهم يصيح يازفاني وآخر يهتف يا عبد القادر
يا جيلاني ... الخ وكان فيهم رجل موحد ضاق بهم ذرعاً فقال: يارب اغرق اغرق «
ما بقي أحد يعرفك .

وفي هذا المعنى قال السيد حسن صديق الهندي في الكلام على الآية من
تفسيره فتح الرحمن :

«وفي هذا دليل على ان الخلق جبلوا على الرجوع الى الله في الشدائد، وان
المضطرب بحاج دعائه وإن كان كافراً، وفي هذه الآية بيان ان هؤلاء المشر كين
كانوا لا ياتفتون الى أصنامهم في هذه الحالة وما شابهها ، فباعجبا لما حدث في
الاسلام من طوائف يعتقدون في الاموات ، فاذا عرضت لهم في البحر مثل هذه
الحالة دعوا الاموات ولم يخلصوا الدعاء لله كما فعله المشر كون كما تواتر ذلك اليانا
تواتراً يحصل به القطع ، فانظر هداك الله ما فعلت هذه لاعتقادات الشيطانية ؟ وأن
وصل بها أهلها ؟ والى أين رمى بهم الشيطان ؟ وكيف اقتادهم وتسلط عليهم حتى
انقادوا له انقياداً ما كان يطعم في مثله ولا في بعضه من عباد الاصنام، فانا لله
وانا اليه راجعون »

وقال السيد محمود الالوسي العراقي في تفسيرها من روح المعاني مانصه :

أي دعوه تعالى من غير اشر اك لرجوعهم من شدة الخوف الى الفطرة التي
جبل عليها كل أحد من التوحيد وانه لا متصرف إلا الله سبحانه المركز في طبائع
العالم . وروي ذلك عن ابن عباس ، ومن حديث أخرجه ابو داود والنسائي

وغيرهما عن سعد بن ابي وقاص قال : لما كان يوم الفتح فر عكرمة بن ابي جهل
 فركب البحر فأصابتهم عاصف فقال أصحاب السفينة لاهل السفينة أخلصوا فان
 آلهتكم لا تنغي عنكم شيئا ، فقال عكرمة لئن لم ينجني في البحر الا الاخلاص
 ما ينجيني في البر غيره ، اللهم ان لك عهدا ان أنت عافيتني مما أنا فيه ان آتي
 محمداً حتى أضع يدي في يده فلا أجده عفواً كريماً ، قال فجاء فأسلم ، وفي رواية
 ابن سعد عن ابي مليكة ان عكرمة لما ركب السفينة وأخذتهم الريح فجعلوا يدعون
 الله تعالى ويوحّدونه قال ما هذا ؟ فقالوا هذا مكان لا ينفع فيه إلا الله تعالى ، قال
 فهذا إله محمد ﷺ الذي يدعوننا اليه فارجموا بنا فرجع وأسلم . وظاهر الآية انه
 ليس المراد تخصيص الدعاء فقط به سبحانه ، بل تخصيص العبادة به تعالى أيضاً (١)
 لانهم بمجرد ذلك لا يكونون مخلصين له الدين ، وأيا ما كان فالآية دالة على ان
 المشركين لا يدعون غيره تعالى في تلك الحال ، وأنت خير بأن الناس اليوم اذا
 اعتراهم أمر خطير ، وخطب جسيم ، في بر او بحر ، دعوا من لا يضر ولا ينفع ، ولا
 يرى ولا يسمع ، فمنهم من يدعو الخضر والياس ، ومنهم من ينادي أبا الحنيس
 والعباس ، ومنهم من يستغيث بأحد الائمة ، ومنهم من يضرع الى شيخ من
 مشايخ الامة ، ولا ترى فيهم أحداً يخص مولاه ، بتضرعه ودعاه ، ولا يكاد يمر
 له ببال ، انه لو دعا الله تعالى وحده ينجو من هاتيك الاهوال ، فبالله تعالى عليك
 قل لي أي الفريقين من هذه الحثيثة أهدى سبيلا ، وأي الداعيين أقوم قبلا ، وإلى
 الله تعالى المشتكى من زمان عصفت فيه ريح الجهالة ، وتلاطمت أمواج الضلالة ،
 وخرقت سفينة الشريعة ، وانخذلت الاستغاثة بغير الله تعالى للنجاة ذريعة ، وتعذر
 على العارفين الامر بالمعروف ، وحالت دون النهي عن المنكر صنوف الختوف اه
 أقول يعني الشهاب الآلوسي رحمه الله إن فشو هذا الشرك في الناس عامتهم
 وشيوخ البدع من علمائهم ، والمنافقين من حكامهم ، جعل نهى العارفين عنه ،
 وأمرهم بالتوحيد المحض ، من الامور المتعذرة ، التي يخشى على المجاهر بها الختوف
 (١) الدعاء مخ العبادة فكان ينبغي ان يقول : بل تخصيص كل عبادة به ايضا

والملكة . ونحن ما أمكننا هذه المجاهرة في مصر الا بما رسخ فيها من الحرية المطلقة بتفويض الحكومة. ولما جهرت بها أول مرة في درس عام بالمسجد الحسيني سنة ١٣١٦ هاج علي الناس هيجة شؤمي، وحاول بعضهم أن يقتلني جبراً، فما يقول شيخ الازهر ومحررو مجلة المشيخة (نور الاسلام) في السيد الآلوسي وفي السيد حسن صديق؟ لا يبعد ان تطعن هذه المجلة في دينهما وعقيدتهما كما طعنت على دين الامام الشوكاني في جزئها الذي صدر أثناء كتابتنا لتفسير هذه الآية .

﴿ اهتداء بارج انكليزي بهذه الآية وأمثالها ﴾

ساق الله تعالى نسخة من ترجمة القرآن العظيم باللغة الانكليزية الى بارج من ربايين البواخر الكبرى التي تمخر البحار بين انكلترة والهند فرأى فيها ترجمة هذه الآية فراعته بلاغة وصفها لطغيان البحر واصطخابه وما تفعله الرياح الموسمية العاتية بالباخر والبوارج العظيمة في المحيط الهندي في فصل الصيف، فطفق يتأمل سائر الآيات في وصف البحر، والسفائن الكبرى فيه التي وجدت في هذا العصر ولم يكن لها نظير في عصر النبي ﷺ كقوله تعالى (مرج البحرين يلتقيان * بينهما برزخ لا يبغيان * فبأي آلاء ربكما تكذبان * يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان * فبأي آلاء ربكما تكذبان * وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام) ورأى ان المترجم الانكليزي ينقل عن أشهر تفاسير القرآن لبعض علماء المسلمين التي ألفت بعد افتتاح العرب للمالك واستيلائهم على البحار انهم لم يكونوا يعرفون ما عرفه الانكليز وغيرهم من بعدم ان اللؤلؤ والمرجان يخرج من البحار الحلوة كما يخرج من البحار المالحة فتأولوا قوله تعالى (يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان) بأنه يخرج من مجتمعهما الصادق بأحدهما لأنه يزعمهم يخرج من البحر الملح فقط، غافلين عن قوله تعالى (ومن كل تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها) ونبه نظره تشبيه الجوارى المنشآت بالأعلام في هذه الآية وفي قوله تعالى (٤٢ : ٣٢) ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام * إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره) والعلم الجبل، وأصلها أعلام الطريق العالية التي تعرف بها المسالك، أطال الفكر هذا

الربان الانكليزي في هذه الآيات فتعمد أن يعرف بعض المسلمين في بعض ثغور الهند ، فسألهم أنعلمون ان نبيكم محمدًا ﷺ سافر في البحار ؟ قالوا لا انه لم يرو عنه انه سافر في البحر قط ، فاعتقد ان مافي القرآن بما ذكر لم يكن إلا بوحى من الله تعالى لهذا النبي العظيم ، وأعظم منه ما فيه من آيات التوحيد والتشريع والتهذيب ، التي هي أكمل وأقرب الى العقل والفكرة من كل مافي التوراة والانجيل ، فأسلم عن علم وبصيرة ، وظل زمنا طويلا يتعبد بما يفهمه من ترجمة القرآن ، حتى أتبع له ترك عمله في البحار ، فأقام في مصر وتعلم العربية وعاشر فضلاء المصريين ، وهو مستر عبد الله براون رحمه الله تعالى ، وأنا قد أدركته وعرفته ، ولا يزال في مصر من يعرفه ، وقد ضرب الاستاذ الامام به المثل في صلاته التي كان يصليها في البحر بقدر ما يفهم من القرآن بكل خشوع وتوجه إلى الله تعالى ، في كلام له في روح الصلاة ومغزاها ، وصورتها وأركانها ، قال قد كانت تلك الصلاة أقرب الى مرضاة الله تعالى وقبوله من الصلاة الصورية التقليدية التي يمثلها من لا يخطر في قلوبهم فيها أنهم متوجهون الى الله ومناجون له مع استشعار عظمتة ووحدانيته الخ

قال تعالى في وصف أولئك القوم ﴿ فلما أنجأهم اذا هم ييغون في الارض ﴾ أي اذا هم يفاجئون الناس في الارض التي يهبطون اليها بالبغي عليهم وهو الظلم والعدوان والافساد يعمنون في ذلك ويصرون عليه ، وأصل البغي طلب ما زاد على القصد والاعتدال ، إلى الافراط المفضي الى الفساد والاختلال ، من بغي الجرح اذا زاد حتى ترمى إلى الفساد ، ومنه قولهم : بغت السماء ، اذا تجاوزت في المطر الحد المحتاج اليه للزرع والشجر وامتداد البنايع ، وبغت المرأة اذا تجاوزت في بضعها الحق الخاص بالزوج الى الفجور ، والاصل فيه أن يكون كما وصفه ﴿ بغير الحق ﴾ فتكون الصفة كاشفة للواقع للتذكير بقبحه وسوء حال أهله ، وقد يكون البغي وهو تجاوز حد الاعتدال بحق اذا كان عقابا على مثله أو ما هو شر منه كما يقع في الحروب وقتال البغاة من اضطرار أهل الحق والمعتدى عليهم ، الى تجاوز الحدود في أثناء الدفاع عن أنفسهم ، وقد قل تعالى (٤٢ : ٣٧) والذين اذا أصابهم

(يونس : ١٠) عود البغي على الباغي في الدنيا وعقابه في الآخرة ٣٤٣

البغي هم ينتصرون — الى قوله — انما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون
في الارض بغير الحق) وقال في بيان اصول الجرائم (٣٢:٧ قل انما حرم ربي
المفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغي بغير الحق) الخ

﴿ يا أيها الناس انما بغيتكم على أنفسكم ﴾ هذا التفات عن حكاية المثل الى
مخاطبة البغاة أيما كانوا ، وفي أي زمان وجدوا ، مبدوءاً بالنداء الذي يصبح به
الواعظ المندر بالبعيد في مكانه ، أو الغافل الذي يشبه الغائب في حاجته الى من
يصبح به لينبهه ، يقول يا أيها الضالون عن رشدكم ، الغافلون عن أنفسكم ، حسبكم
بغياً على المستضعفين منكم ، وغروراً بكبريائكم وقوتكم ، انما بغيتكم في الحقيقة على
أنفسكم ، لان عاقبة وبالها عائدة عليكم ، أو لان من تبغون عليهم من قومكم أو من
أبناء جنسكم ، كقوله (ولا تقتلوا أنفسكم) المراد به ولا يقتل بعضهم بعضاً ،

والشر داعية الشر ، ﴿ متاع الحياة الدنيا ﴾ اي حال كون بغيتكم او تتمتعون ببغيتكم متاع
الحياة الدنيا الفانية الزائلة ، فهو ينقضي وعقابه باقية ، وأقلها توبيخ الوجدان ،
وقرأ الجمهور « متاع » بالرفع على انه خبر لما قبله وفيه وجهان ، أو على تقدير هو متاع
الحياة الدنيا ﴿ ثم الينا مرجعكم ﴾ أي ثم انكم بعد هذا التمتع القليل ترجعون الينا وحدنا

﴿ فننبئكم بما كنتم تعملون ﴾ دائماً من الظلم والبغي والتمتع بالباطل مصرين فنجازيكم به
دلت الآية على ان البغي يجازى أصحابه عليه في الدنيا والآخرة ، فاما في
الآخرة فهو ما دل عليه انذار أهله الرجوع الى الله وانباؤه إياهم بما كانوا يعملونه،
إذ المراد به لازمه وهو الجزاء به ، وقد تكرر مثله في التنزيل . واما في الدنيا فهو
قوله تعالى (انما بغيتكم على أنفسكم) ويؤيده قوله ﷺ « ما من ذنب يعجل الله
لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخر له في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم » رواه
احمد والبخاري في الادب المفرد والترمذي وابن ماجه والحاكم من حديث ابي
بكر (رض) وأخرج ابن عدي وابن النجار من حديث علي (رض) مرفوعاً
« احذروا البغي فانه ليس من عقوبة هي أحضر من عقوبة البغي !! » والترمذي

وابن ماجه عن عائشة « أسرع الخير ثوابا البر وصلته الرحم ، وأسرع الشر عقوبة البغي وقطيعة الرحم » وأخرج البخاري في الادب المفرد عن ابن عباس موقوفا « لو بغي جبل على جبل لذلك الباغي » ورواه ابن مردويه مرفوعا وموقوفا والموقوف أصح كما قال ابن أبي حاتم وفي الجامع الصغير عن أبي هريرة بزيادة « لذلك الباغي منها » أخرجه ابن لال بسند ضعيف

وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه وأبو نعيم والخطيب في تاريخه والديلمي في مسند الفردوس عن أنس (رض) قال قال رسول الله ﷺ « ثلاث هن راجع على أهله : المكر والنكث والبغي » ثم تلا رسول الله ﷺ (يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم * ولا يحق للمكر السيئ إلا بأهله * ومن نكث فإني نكث على نفسه) والمراد نكث اليهود مع الله أو مع الناس وأخرج الحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي بكرة قال قال رسول الله ﷺ « لا تبغ ولا تكن باغيا فان الله يقول (إنما بغيكم على أنفسكم) » وأخرج ابن أبي حاتم مثله عن الزهري وأقول أنه يجب علينا ان نرجع في تحقيق الحق في هذا الموضوع الى سنن الله تعالى في العمران وطبائع الاجتماع البشري التي تثبتها وقائع التاريخ ، فهي التي تفسر لنا ان البغي - وهو من أخص ضرور الظلم للناس - يرجع على فاعله ، ذلك بأنه سبب من أقوى أسباب العداوة والبغضاء بين الافراد ، وإيقاد نيران الفتن والثورات في الاقوام ، فالفرد الذي يبغي على مثله يخاق له بغيه عدواً أو أعداء ممن يبغي عليهم ، ومن يكرهون البغي وأهله ، فوجود الأعداء والبغضين ضرب من ضرور العقوبة وإن لم يستطيعوا إيذاء الباغي لمجزمهم ، فكيف اذا قدروا وفعلوا وهو الغالب ؟ وأما بغي الملوك والحكام على الاقوام والشعوب فأهون عاقبته عداوتهم والطعن عليهم ، وقد تفضي الى اغتيال اشخاصهم ، أو الى ثل عروشهم والقضاء على حكمهم ، إما بثورة من الشعب تستبدل بها عرشاً بعرش ، او نوعاً من الحكم بنوع آخر ، وإما باغارة دولة قوية على الدولة التي يضعفها البغي تسليها استقلالها ، وتستولي على بلادها ، ولا تنس ما تكرر عليك في هذا التفسير من ان ذنوب الافراد من بغي وظلم وغيرهما لا يطردها العقاب عليها في الدنيا بخلاف ذنوب الامم.

والدول ، فإن عقابها أثر طبيعي لظلمها وفسادها ، وإنما يوفى كل أحد جزاءه في الآخرة (فإن قيل) إن الأرض كلها تستغيث ربها من بقى دول أوربة وظلمها ، فما لنا لا نرى بغيها يعود وباله عليها ، وما لنا لا نرى وعيده تعالى للظالمين نازلها ، ومدى لا للشعوب الشرقية المظلومة منها ومن شعوبها المؤيدة لها

(قلنا) إن هذا السؤال ما جاء إلا من الغفلة عن الأمر الواقع ، والجهل بسنن الله في العمران ، فإن في بلاد هذه الدول من المصائب والنوائب والجوائح والفقر ما هو أشد مما في بعض بلاد الشرق ، وإنها قد قتلت من رجالها في الحرب الأخيرة العامة أضعاف من قتلتهم بغيًا وعدوانًا من أهل الشرق منذ اعتدت عليهم إلى اليوم ، وإنها قد خربت من عمراتها أكثر مما خربت في الشرق ، وإنها قد خسرت من أموالها في أربع سنين أضعاف ما ربحت من الشرق في مائة سنة ، وإن ما بين شعوبها بعضها لبعض من الإحقاق والاضغان ، وترص الدوائر المؤثبان ، والفتك بالارواح وتدمير العمران ، لأشد مما في قلوب شعوب الشرق لظالمهم ومستدائهم منهم - فهذا بعض انتقام العدل الإلهي المشاهد

فأما الجوائح السماوية فلا يعتبرون بها ، لأنهم يسندونها إلى أسبابها ما صح منها وما لم يصح ، فكم في آياته أشد من مكر من قبلهم . وأما المصائب الكسبية فيتوخون تخفيفها ، ونلافي شرورها ، بالمفاوضات والمؤتمرات ، وهيئات هيات . وأما ما تنمناه من الأدالة لشعوبنا منهم فلا تزال غير أهل له لما هي عليه من الجهل وفساد الأخلاق ، والتقاطع والتخاذل ، وترك كل ما هداها الله إليه في كتابه من أسباب السيادة والاستخلاف في الأرض كما نهبنا إليه آفًا ، وشرحناه في تفسيرنا هذا الآيات كتابه مرارًا ، ومن المكابرة للحس أن ننكر أن أكثر ما في بلادنا من عمران فهو من عملهم ، وإن كان جله لمصلحتهم ، وإن من يستخدمون من ملوكنا وأمرائنا وحكامنا هم شر علينا منهم ، بل لم يسودونا ويغلبونا في قطر من أقطارنا ، إلا بمساعدة سادتنا وكبرائنا إياهم علينا (٥٣: ٨) ذلك بأن الله لم يك مغيرًا نعمته . انعمها على قوم حتى يغيروا ما بآ أنفسهم) فراجع تفسيره في ص ٣٦-٤٧ من جزء التفسير العاشر (تعلم أننا إذا غيرنا ما بآ أنفسنا الآن ، بما كان عليه سلفنا من إيمان وأخلاق

٣٤٦. مثل الاخلاص لله في الدعاء عند الشدة لاصناف الناس الثلاثة التفسير: ج ١١

تتبعها الاعمال ، وأولها الجهاد بالنفس والمال ، فان كل ما سلب منا يرجع اليها ، ونزاد عليه بالسيادة على غيرنا ، ولو اتبعوا هم كتابنا كله لاصلحوا الارض كلها .

ضرب الله هذا المثل هنا للكافرين بنعمه من الباغين في الارض والظالمين للناس ، فذكر من اخلاصهم في دعائه عند الشدة أنهم يقسمون له انهم أنجاهم منها ، ليكونون من الشاكرين له عليها ، وضربه في أواخر سورة العنكبوت للمشركين في عبادته ، من المؤمنين بربوبيته ، فقال (٢٩ : ٦٥) فاذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاههم إلى البر اذا هم يشركون) وضربه في أواخر سورة لقمان لجميع أصناف الناس فقال (٣١ : ٣١) ألم تر ان الفلك تجري في البحر بنعمة الله ليريكم من آياته إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور ٣٢ واذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين ، فلما نجاههم إلى البر فأنهم مقتصد ، وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور) الختار الكفور هنا ضد مقابل للصبار الشكور فيما قبله ، واختار الغدر الذي يحمل عليه ضعف الارادة

والعبرة في هذه الآيات كلها انه تعالى أخبر عن المشركين به . وعن الكافرين بنعمه ، وعن الختارين الفاقدين لفضيلتي الصبر والشكر ، أنهم كلهم يدعونه في شدة الضيق ومساورة خطر البحر لهم مخلصين له الدين ، لا يتوجهون إلى غيره ممن اتخذوهم شركاء لله تعالى بعبادتهم لهم وتوسلهم بهم واتخاذهم وسطاء عنده ، وأنهم انما يفترون هذا الشرك وما يناسبه من البغي والظلم وكفر النعمة بعدم اسنادها إلى المنعم الحقيقي في أوقات التمتع بها والسلامة من منغصاتها ، وان الذين يثبتون على توحيدهم وشكره هم المقتصدون أي المعتدلون في عقائدهم وأخلاقهم فلا تقنطهم الشدة ، ولا تبطروهم النعمة

ولكن يوجد في زماننا من هم أشد شركا وكفرا بالنعم والمنعم وهم قوم يدعون غيره من دونه في أشد أوقات الضيق والخطر ، ويدعون مع ذلك أنهم مسلمون موحدون لأنهم ينطقون بكلمة التوحيد الموروثة بألسنتهم وهم لا يعقلون معناها . والله تعالى يقول (فاعلم انه لا إله إلا الله) ولا حول ولا قوة إلا بالله

(٢٤) إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ
فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا
أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازِيدَتْ وَطْنَ أَهْلِهَا أَنَّهُمْ قَدِيرُونَ عَلَيْهَا
أَنَّهُمْ أَمْرٌ نَارًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَّمْ تَغْنَبِ الْأَمْسُ
كَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ

لما كان سبب ما ذكر من البغي في الارض وفساد العمران هو الافراط في حب
المنع بما في الدنيا من الزينة واللذات ضرب لها مثلاً بليغاً يصرف العاقل عن
الغرور بها ، ويهديه إلى القصد والاعتدال فيها ، واجتناب التوسل اليها بالبغي
والظلم ، وحب الملو والفساد في الارض ، وهو عبارة عن تشبيه زينتها ونعيمها
في افتتان الناس بهما وسرعة زوالها بعد تمكنهم من الاستمتاع بها ، بحال الارض
يسوق الله اليها المطر فتنبت أنواع النبات الذي يسر الناظرين ببهجته ، فلا يلبث
أن تنزل به جائحة تحسه وتستأصله قبيل بدو صلاحه والانتفاع به ، قال عز وجل

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أي لاشبه لها في صورتها وما لها
إلا ماء المطر في جملة حاله الآتية ﴿ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ ﴾ أي فأنبتت
الارض أزواجاً شتى من النبات تشابكت بسببه واختلط بعضها ببعض في تجاورها
وتقاربها ، على كثرتها واختلاف أنواعها ﴿ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ ﴾ بيان
لأزواج النبات وكونها شتى كافية للناس في أقواتهم ومراعى انعامهم ، وكل
مراعى آماهم ﴿ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازِيدَتْ ﴾ أي حتى كانت
الارض بها في خضرة زروعها السندسية ، وألوان أزهارها الربيعية ، كالعروس
إذا أخذت حليها من الذهب والجواهر ، وحلها من الحرير الملون بالألوان المختلفة
ذات البهجة ، فتحات وازينت بها استعداداً للقاء الزوج — ولا تغفل عن حسن

الاستعارة في أخذ الارض زينتها ، حتى كان استكمل جمالها ، كأنه فعل عاقل .
 حريص على منتهى الابداع والانتقان فيهما (صنع الله الذي أتقن كل شيء)
 ﴿ وظن أهلها أنهم قادرون عليها ﴾ متمكنون من التمتع بشمراتها ، وادخار غلاتها .
 ﴿ أتأنها أمرنا ليلاً أو نهاراً ﴾ أي نزل بها في هذا الحلال أمرنا لنقدر لاهلاكها بجائحة
 سماوية ليلاً وهم نائمون ، أو نهاراً وهم غافلون ﴿ فجعلناها حصيداً ﴾ أي كالارض
 المحصودة التي قطعت واستؤصل زرعها ، فالحصيد يشبه به الهلاك من الاحياء
 كما قال في أهل القرية الظالمة المهلكة (فجعلناهم حصيداً خامدين) ويشبه هذا
 الهلاك في نزوله في وقت لا يتوقعه فيه أهله قوله (أقمن أهل القرى ان يأتيهم بأسنا
 بياتاً وهم نائمون * أو أمن أهل القرى ان يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلهيون)
 ﴿ كأن لم تكن بالأمس ﴾ أي هلكت فجأة فلم يبق من زروعها شيء ، حتى كأنها
 لم تنبت ولم تمكث قائمة نضرة بالأمس ، يقال غني في المكان اذا أقام به طويلاً
 كأنه استغنى به عن غيره ، قال تعالى في الاقوام الهالكين في أرضهم (كأن لم
 يغنوا فيها) والامس الوقت الماضي ، وقال الزمخشري في الكشاف : والامس
 مثل في الوقت القريب كأنه قيل : كأن لم تكن آنفاً هـ وأما أمس غير معرف
 فهو اسم لليوم الذي قبل يومك ﴿ كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون ﴾ أي كهذا
 المثل في جلالة وتمثيله لحقيقة حال الحياة الدنيا وغرور الناس فيها وسرعة زوالها ، عند
 تعلق الآمال بنواها ، نفصل الآيات في حقائق التوحيد وأصول التشريع وامثال الوعظ
 والتهذيب وكل ما فيه صلاح الناس في عقائدهم وأنفسهم وأخلاقهم ومعاشهم ،
 واستعدادهم لمعادهم ، لقوم يستعملون عقولهم وأفكارهم فيها ، ويزنون أعمالهم
 بموازينها ، فيقبنون ربها وخسرانها

والعبرة لمسلمي عصرنا في هذه الآيات البينات المنزلة وامثالها التي اهتدى بها
 الشعب العربي فخرج من شركه وخرافات وأميته وبدأوته الى نور التوحيد والعلم
 والحكمة والحضارة ، ثم اهتدى بدعوته اليها الملايين من شعوب المهجم ، فشاركته
 في هذه السعادة والنعمة ، انه لم يبق لهم حظ منها الا ترتيبها بالنعمة في بعض اللواسب

والمآثم، ولا يخطر لهم ببال أنه يجب عليهم التفكير فيها للاهتمام بها، ولو تفكروا لاهتدوا. وإذا علموا أن كل ما يشكو منه البشر من الشقاء بالامراض الاجتماعية والروحية، والذائل النفسية، والعداوات القومية، والحروب الدولية، فأنما سببه التمافس في متاع هذه الحياة الدنيا، وأن من تفكر في هذا وكان على بصيرة منه، فهو جدير بأن يلتزم القصد والاعتدال في حياته الدنيوية المادية، ويصرف جل ماله وجمته في إعلاء كلمة الله، وعزة أهل ملته، وقوة دولته، والاستعداد لآخرته، فيكون من أهل سعادة الدارين وما صرف الناس عن هذا الاهتمام بكتاب الله، وهو أعلى وأكمل ما أنزله الله، إلا علماء السوء المقلدون الجامدون، وزعمهم الباطل أنه لم يبق في البشر أحد أهلاً للاهتمام به وبيان الرسول ﷺ له، لأن هذا يتوقف على ما يسمونه الاجتهاد، ويؤمنون أنه أصبح ضرباً من المحال، وقد أنشأت مشيخة لازهر في هذا العهد وهي أكبر المعاهد الدينية الإسلامية بمجلة رسمية شهرية باسم (نور الاسلام) تصرح بهذه الجمالة، وتظعن على الدعاة إلى هذه الهداية، وإلى ترك البدع، واتباع السنن، وأنها لدركة من عداوة الله ورسوله لم يبلغوا قعرها إلا بخذلان من الله

(٢٥) وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢٦) لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ حَرٌّ وَلَا ذِلَّةٌ، أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧) وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَمْكُورًا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِن عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا. أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ

لما بين عز وجل غرور المشركين الجاهلين بمتاع الحياة الدنيا قفى عليه ببيان ما يدعو اليه من سعادة الآخرة ووصف حال المحسنين والسيئين فيها فقال ﴿والله يدعو إلى دار السلام﴾ الجملة عطف على محذوف يدل عليه السياق

وقربة المقابلة، أي ذاك الأثر لمناجاة الدنيا والاسراف والبغي فيه، هو ما يدعو إليه الشيطان، فيسوق متبعيه إلى النار، دار الخزي والنكال، والله يدعو عباده إلى دار السلام وهي الجنة، وفي المراد بالسلام الذي أضيفت إليه الدار وجوه يصح أن تراد كلها (أولها) أنه السلامة من جميع الشوائب والمصائب والمعائب، والثقة بالنفس والاكدار، والعداوة والخصام (الثاني) أنه تحية الله وملائكته لاهلها وتحية بعضهم لبعض الدالة على نجاحهم وتوابعهم وقد تقدم شرحه قريباً (ثالثها) أن السلام من أممائه عز وجل وأضيفت دار النعيم إليه تعظيماً لشأنها، وهو مصدر وصف به العبادة كالعدل، ويدل على كمال التنزيه والسلامة من كل مالا يليق برب العالمين الرحمن الرحيم، وفي بعض الأحاديث إضافة هذه الدار إلى ضمير الذات (داري)

﴿ ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ عطف على ما قبله أي يدعو كل أحد إلى دخول دار السلام، ويهدي من يشاء إلى الطريق الموصل إليها من غير تعويق لأنه مستقيم لا عوج فيه ولا تنواء، وهو الإسلام عقائده وفوائده وعبادته وأحكامه، والهداية في الأصل الدلالة بلطف، وتكون بالتشريع وهو بيانه، وهي عامة، وبانتوفيق للسير عليه والاستقامة الموصلة إلى الغاية وهي خاصة بالمستعدين لذلك كما فصلناه في تفسير سورة الفاتحة، وهي المرادة هنا ولذلك قيدها بالمشيئة

﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ هذا بيان لصفة الذين هداهم إلى صراط الإسلام، فوصلوا بالسير عليه إلى غايته وهي دار السلام، أي الذين أحسنوا أعمالهم في الدنيا المثوبة الحسنى أي التي تزيد في الحسن على إحسانهم وهي مضاعفتها بعشرة أمثالها أو أكثر، كما قال في سورة النجم (ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى) ولهم زيادة على هذه الحسنى، هي فوق ما يستحقونه على أعمالهم بعد مضاعفتها التي هي من جزائها ما تكن حسنة كما قال (١٧٢: ٤) فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفى لهم أجورهم ويزيدهم من فضله) وقد ورد في الأحاديث الكثيرة من الطرق العديدة أن هذه الزيادة هي النظر إلى وجه الله الكريم وهو أعلى مراتب الكمال الروحاني الذي لا يصل إليه المتقون المحسنون العارفون إلا في الآخرة. وقد فصلنا القول فيه في تفسير سورة الاعراف (ص ١٢٨ ج ٩) بما يقربه

من العقل والعلم المصري ، ويدحض شبهات المعتزلة المنكرين له بزعمهم انه محل عقلاء ، وما هذا المحال إلا نظريات عقولهم التي تقيس عالم الغيب على عالم الشهادة ، وقد ظهر في هذا العصر من علوم المادة ما لم يكن يقبله عقل من العقول المقيدة بتلك النظريات المتولدة من الفلسفة اليونانية والكلام الجهمي فكيف يكون عالم الغيب الالهي مقيداً بها ؟
ونعم وراء العقل علم يدق عن مدارك غايات العقول السليمة

﴿ ولا يرهق وجوههم فتر ولا ذلة ﴾ رهق الرجل الشيء (كتب) أدركه ورهقه الشيء كالدين والذل غشيه ، وغلب عليه حتى غطاه وحجبه (ولا ترهقني من أمرى عسراً) لاتكلفني ما يعسر عليّ ، والقتر الدخان الساطع من الشواء والخطب وكل غبرة فيها سواد . أي لا يغشي وجوههم في الآخرة شيء مما يغشي وجوه الكفرة الفجرة من الكسوف والظلمة والذلة ، كما يأتي قريباً في المقابلة بين الفريقين ﴿ أو أهلك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾ أو أهلك الموصوفون بما ذكر أصحاب الجنة دار السلام والاكرام ، خالدون مقيمون فيها لا يرحلون

﴿ والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها ﴾ جزاء وفاقاً ، لا يزدون على ما يستحقون بسيئاتهم من العذاب شيئاً ﴿ وترهقهم ذلة ﴾ أي تفشاهم ذلة الفضيحة وكسوف الحزني بما يظهره حسابهم من شرك وظلم وزور وجور ﴿ ما لهم من الله من عاصم ﴾ ما لهم من أحد ولا من شيء يعصمهم ويمنعهم من عذاب الله ، كالذين اتخذوهم في الدنيا من الشركاء ، وزعموهم من الأولياء والشفعاء ، واتخذوهم من الوسائل والوسطاء ، لانه اليوم الذي تنقطع فيه الاسباب التي مضت بها سنن الله تعالى في الدنيا ، فأنى تفيد فيه المزاعم الشريكية الوهمية (يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والامر يومئذ لله) أو ما لهم من عند الله ومن فضله من عاصم يحفظهم من عذابه كفؤ ومغفرته ، فانه لا يغفر ان يشرك به ، كالشفعاء الذين يشفعون باذنه لمن ارتضى من عباده اظهاراً لكرامتهم ، لان هذه الشفاعة الخاصة لا نصيب فيها لمنتهجلي الشفاعة الشريكية الذين كانوا يزعمون في الدنيا ان لشفاعتهم تأثيراً في مشيئة الله وأفعاله حتى يحملوه على فعل ما لم يكن يفعله لولا شفاعتهم ، فيجعلون ذاته وصفاته وأفعاله معلولة تابعة لما يطالبونه منه ، وأما

شفاعة الايمان الصحيحة فهي تابعة لمشيئته ولمرضاته (ولا يشفعون الا لمن ارتضى)

﴿ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مَظْلُمًا ﴾ أي كأنما قد لوجوههم قطع من أديم الليل حالة كونه حالكا مظلما، ليس فيه بصيص من نور قر طالع، ولا نجم ثاقب، فأغشيتها قطعة بعد قطعة، فصارت ظلمات بعضها فوق بعض، وأنه لتشبيهه عظيم في بلاغة المبالغة في خذلانهم وفضيحتهم التي تكسف نور الفطرة، والظاهر

ان سواد وجوههم حقيقي ومجازي ﴿ أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ أي أولئك الموصوفون بما ذكرهم أصحاب النار خالدون فيها لا يخرجونها لأنه ليس لهم مأوى سواها كما تقدم في آية أخرى ، وقد يدخلها بعض عصاة المؤمنين فيعاقبون على ما اجتروا من السيئات ثم يخرجون منها

هذا الوصف لاهل الجنة وأهل النار له نظير في آخر سورة الاعمى (وجوه يومئذ مسفرة* ضاحكة مستبشرة* ووجوه يومئذ عليها غبرة* ترهقها فترة* أولئك هم الكفرة الفجرة) وفي سورة القيامة (وجوه يومئذ ناضرة* إلى ربها ناظرة* ووجوه يومئذ باسرة* تظن أن يفعل بها فقرة) وهذه المقابلة في سورة القيامة ترجح ان الزيادة على الحسنى في آية يونس هي مرتبة النظر الى الرب، فنسأله تعالى أن يجعلنا وأولادنا وأهل بيئتنا وإخواننا الصادقين من أهلها

(٢٨) وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَهِيمًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائُكُمْ، فَزَلَّلْنَاهُ بَيْنَهُمْ، وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَارًا تَحْبُودُونَ (٢٩) فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ، إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ غَافِلِينَ (٣٠) هُنَالِكَ تَبْلَوْا كُلُّ نَفْسٍ مَا أُنْسَلَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقَّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ

هذا لون آخر من ألوان البيان لمقيدة البعث والجزاء وقد بينا حكمة هذا

التكرار المختلف الاساليب والالوان وأمثاله في الكلام على أسلوب القرآن واعجازه ﴿ ويوم نحشرهم جميعا ﴾ أي واذكر أيها الرسول الفريقين الذين ضربنا لهم ماسبق من الامثال ، وبيننا ما يعملون من الاعمال ، يوم نحشرهم جميعا في موقف الحساب لا يتخلف منهم أحد ، أو الطرف متعلق بقوله تعالى في الآية التالية (هنالك تبلو كل نفس ما اسلفت) وفي بعض الآيات (ويوم نحشرهم وما يعبدون)

﴿ ثم نقول للذين أشركوا : مكانكم ﴾ اي ثم نقول للمشركين منهم بعد وقوف طويل لا يخاطب فيه احد بشيء كاندل عليه بعض الآيات : الزموا مكانكم لا تبرحوه حتى تنظروا ما يفعل بكم ﴿ أنتم وشركاؤكم ﴾ اي الزموا أنتم وشركاؤكم اي الذين جعلتموهم شركاء لله لفصل بينكم فيما كان من سبب عبادتكم لهم وما يقول كل منكم فيها ﴿ فزيلنا بينهم ﴾ اي فرقنا بين الشركاء ومن أشركوهم مع الله وميزنا بعضهم من بعض كما يميز بين الخصوم عند الحساب ، والتزييل من زاله يزاله كنهاله يذله بمعنى نحاه (وهو يائي) وزايلته فارقتها وتزيلوا تميزوا بافتراق بعضهم من بعض ، ومنه قوله في أهل مكة واختلاط مؤمنهم بكفارهم قبل الفتح (لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما) أو المراد من التزييل والتفريق تقطيع ما كان بينهم في الدنيا من الصلات ، وما للمشركين في الشركاء من الامال ، وكل من المعنيين صحيح ، والعبادة الشريكة أنواع ، والمعبودات والمعبودون أنواع يصح في بعضهم مالا يصح في الآخر ، ولذلك تكرر معنى حشر الفريقين وحسابهم في صور أخرى بعضها في عبادة الملائكة وعبادة الجن ، وبعضها في عبادة البشر ، وما اتخذ لهم من التماثيل والصور ، ومثلها القبور المعظمة وسنشير الى شواهد

﴿ وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون ﴾ اي ما كنتم تخلصوننا بالعبادة وإنما كنتم تعبدون أهواءكم وشهواتكم وشياطينكم المغوية لكم ، وتتخذون أسماءنا وتماثيلنا هياكل ومواسم لمنافعكم ومصالحكم ، وليس هذا شأن العبودية الصادقة للمعبود الحق ، الذي يطاع ويعبد لانه صاحب السلطان الاعلى على الخلق ، وبيده تدبير الامر ، ومصادر النفع والضرر والمراد انهم يتبرئون منهم كما صرح به في آيات أخرى « تفسير القرآن الحكيم » « ٤٥ » « الجزء الحادي عشر »

﴿ فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم ﴾ اي فكفى الله شهيداً وحكماً بيننا وبينكم فهو العليم بمحالاتنا وحالكم ﴿ إن كنا عن عبادتكم لغافلين ﴾ اي اننا كنا في غفلة عن عبادتكم لانظر اليها ولا نفكر فيها ، وقيل ان المراد بالغفلة عنها عدم الرضا بها .
 ﴿ هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت ﴾ اي في ذلك المكان وهو موقف الحساب او في ذلك الوقت أو اليوم تختبر كل نفس من عابدة ومعبودة ومؤمنة وجاحدة ، وشاكرة وكافرة ، ما قدمت في حياتها الدنيا من عمل ، وما كان لتكسبها في صفاتها من أثر ، من خير وشر ، ونفع وضر ، بما ترى من الجزاء عليه ، وكونه ثمرة طبيعية له ، لا شأن فيه لولي ولا شفيع ، ولا معبود ولا شريك . وهنالك مواقف وأوقات أخرى لا سؤال فيها ولا جدال ، تغني فيها دلالة الحال عن المقال ، ولكل مقام مقال ﴿ وردوا الى الله مولاهم الحق ﴾ اي أرجعوا الى الله الذي هو مولاهم الحق دون ما اتخذوا من دونه بالباطل من الاولياء والشفعاء ، والانداد والشركاء ، على اختلاف الاسماء ، كما ثبت في الآيات الكثيرة كقوله (الى الله مرجعكم ، الى ربكم مرجعكم ، الى ربهم مرجعهم ، والى الله المصير ، واليه المصير) ﴿ وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ اي وضاع وذهب عنهم ما كانوا يفترونه عليه من الشفعاء والاولياء ، فلم يجدوا أحداً ينصرهم ولا ينقذهم (يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والامر يومئذ لله)
 هذه الآيات في موقف المشركين مع الشركاء ، والمرءوسين مع الرؤساء ، والمتكبرين مع الضعفاء ، والمضلين مع الضالين ، والغاوين مع المغوين ، قد تكرر بيانها في سور أخرى مجملاً مبهماً ، وفي بعضها مفصلاً ومبيناً ، فمنها ما يسأل الله فيه العابدين ، ومنها ما يسأل فيه المعبودين ، من غير تعيين ، ومنها ما عين فيه اسم الملائكة والجن والشیاطين ، وفي كل منها يتبرأ المضلون من الضالين ، فراجع فيها سورة الفرقان ٢٥ : ١٧ - ١٩ وسورة الانعام ٦ : ٢٢ - ٢٤ وسورة سبأ ٣٤ : ٤٠ - ٤٢ وسورة القصص ٢٨ : ٦٢ - ٦٤ ومنها ما يتناقش فيها الفريقان فراجع سورة ابراهيم ١٤ : ٢١ و ٢٢ وسورة الصافات ٣٧ : ٢٢ - ٢٣ فبمراجعة هذه الآيات كلها وما في معناها كآيات سورة البقرة (٢ : ١٦٦ و ١٦٧ ومع تفسيرنا لها تين (ج ٢) يتبين لك ما يفسر به بعضها بعضاً ، وقد بينا حكمة هذا التكرار في موضعه الذي دللنا عليه آنفاً

(٣١) قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ، وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ، وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ؟ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ، فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ؟

(٣٢) فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ، فَمَآذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ؟

فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (٣٣) كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ

هذا نوع آخر من أسلوب اقامة الحجج على المشركون في إثبات التوحيد والبعث وهو أسلوب السؤال والجواب ، وبليته اثبات النبوة والرسالة والقرآن .

﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ اي قل أيها الرسول لهؤلاء المشركون المعاندين من أهل مكة : من يرزقكم من السماء بما ينزله من المطر، ومن الارض بما ينبت فيه من أنواع النبات نجمة وشجره مما تأكلون وتأكل أنعامكم ؟

﴿ أَمْ مِنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ ﴾ بل قل لهم أيضاً من يملك ما تتمتعون به أنتم وغيركم من حواس السمع والابصار التي لولاها لم تكونوا تعلمون من أسر العالم شيئاً ، بل تكون الانعام والحشرات وكذا الشجر خيراً منكم باستغنائها عن يقوم بضرورات معاشها ، من يملك خلق هذه الحواس وهبتها للناس ، وحفظها من الآفات ؟ وخص هاتين الحاستين بالذكر لان عليهما مدار الحياة الحيوانية وكال البشرية ، وتحصيل العلوم الاولية، يشعر بذلك المستولون بمجرد إلقاء السؤال ، وكما ازدادوا فيه تفكراً ازدادوا علماً وإعجاباً وإكباراً لانعام الله تعالى بهما ، وإيماناً بانه لا يقدر غيره عليهما ، ولا سيما إدراك الكلام بحاسة السمع ، وما يرسمه صوت المتكلم في الهواء من معلوماته التي يدلي بها الى غيره ، فتتكيف بها كل ذرة من ذراته (أي الهواء) فتقرع به طبلة كل أذن من آذان السامعين وإن كثروا ،

فينقلها العصب المتصل بها الى مركز إدراك الكلام من دماغه ، فيدرك معناها المدلول عليه بها بأقوى مما يدركه من قرأها مخطوطة في كتاب ، لما لجرس الصوت من التأثير الخاص ، فمن ذا الذي خلق هذه الآلات ؟ ومن ذا الذي ألهمها إبداع هذه المعاني في الاصوات ؟ ومن ذا الذي وضع هذا النظام في الهواء ؟

ثم اذا ازداد علماً بأدراك البصر للمبصرات ، وما لها من المقادير والالوان والصفات ، وما للعين الباصرة من الشكل المحدث ، وما لها من الطبقات والرطوبات ، الموافقة لسنن الله في النور الذي تدرك به المرئيات ، مما هو مبسوط في الاسفار وموجز في المختصرات ، ازداد يقيناً بان ذلك من آيات الله الدالة على علمه وحكمته في الكائنات ، وإن غفل عنها المشغولون عن عظمة الصانع بعظمة المصنوعات ، وقد وحد السمع لأن إدراكه للجنس واحد هو الاصوات ، وجمع البصر لتعدد أجناس المبصرات ،

﴿ ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ﴾ أي ومن ذا الذي يملك الحياة والموت في العالم كله فيخرج الأحياء والاموات بعضها من بعض فيما تعرفون من المخلوقات التي تحدث وتتجدد وفيما لا تعرفون ؟ فما كانوا يعرفون أن النبات يخرج من الأرض الميتة بعد إحياء الله تعالى إياها بماء المطر النازل عليها من السماء أو النابع منها بعد أن سلكه الله تعالى فيها كما قال (٣٩ : ٢١) ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض ثم يخرج به زرعا مختلفا ألوانه (الآية . بل كانت الحياة المعروفة عندهم قسمين حياة النبات وآيتها النمو ، وحياة الحيوان وآيتها النمو والاحساس والحركة بالارادة ، وكانوا يعدون وصف الأرض بالحياة مجازا ، ولم يكونوا يصفون أصول الأحياء بالحياة كالحب والنوى وبيض الحيوان ومنيه ، ولذلك فسر بعض المفسرين اخراج الحي من الميت والميت من الحي بخروج النخلة من النواة والطارئ من البيضة وعكسهما وما يشابههما ، وهو تفسير صحيح عند أهل اللغة غير صحيح عند علماء الحياة النباتية والحيوانية ، وتحصل به الدلالة المقصودة من الآية على قدرة الله وحكمته وتديره ورحمته عند المخاطبين ، وليس المراد به وضع قواعد فنية الحياة وأنواعها وتحديد وظائفها ، على أنه يمكن تفسيرها بما يتفق وقواعد الفنون ومجارب العلوم التي تزداد عصرا بعد عصر ، فاذا كان أهلها

يثبتون ان في أصول النبات من بزر ونوى وبيض ومني حياة ، فهم يثبتون أيضا أن أصول الاحياء في الارض كلها خرجت من مادة ميتة فان الارض عندهم كانت كتلة نارية ملتزمة انفصلت من الشمس ثم صارت ماء ثم نبتت اليابسة في الماء ثم تكون من الماء النبات والحيوان في أطوار سبق الكلام فيها ، ويثبتون أيضا أن الغذاء من الطعام الميت الذي يحرق بالنار يتولد منه دم ومن هذا الدم يكون البيض والمني الشتملان على مادة الحياة ، ويثبتون أيضا ان بعض مواد البدن الحية تموت وتخرج منه مع البخار والعرق وغيرها مما يفرزه البدن ويلفظه ، ويتجدد فيه مواد حية جديدة تحل محل ما اندثر وخرج منه ، والمراد من الآية إثبات قدرة الخالق وتدبيره ونعمه على عباده ، وهو عام لا يتوقف على الفن ومحدثات العلم بل تزيده كالا للمؤمن المعتبر ، وقد تكون حجابا لغيره فحجبه عن ربه ، فالقاعدة عند علماء الحياة ان الحي لا يخرج إلا من حي ، فتعين أن تكون الحياة الاولى من خلق الله الحي بذاته الحي لغيره

وورد في التفسير المأثور تفسير الحياة والموت في مثل هذه الآية بالمعنويين منهما كخروج المؤمن من سلالة الكافر والعالم من الجاهل والبر من الفاجر وعكسها ، وقد قدمناه في تفسير آية آل عمران (٣: ٢٧) الوارد فيها لانه المناسب لسياقها . وهناك رواه ابن جرير وأبو الشيخ عن الحسن البصري وسعيد بن منصور ورواه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الاسماء والصفات وأبو الشيخ في العظمة عن سلمان (رض) وكذا ابن مردويه عنه وعن ابن مسعود (رض) فراجع في تفسيرها من الدر المنثور (*) وسياق هذه الآيات هنا يناسب ما فسرناها به من الحياة والموت في العالم كله ويؤيده قوله تعالى :

﴿ ومن يدبر الامر ﴾ في الخليفة كلها بما أودعه في كل منها من السنن وقدره

من النظام ، وتقدم تفسير التدبير عند ذكره في أول هذه السورة ﴿ فسيقولون الله ﴾ أي فسيكون جوابهم عن هذه الاستفهامات الخمس ان فاعل ذلك كله هو الله رب (*) انما ذكرت الرواية هنا لان مجلة مشيخة الازهر (نور الاسلام) طعنت في هذا التفسير وعدته من جهل بعض المعاصرين وانما هو جهل مفتيها بالمأثور وغيره

٣٥٨ اختلاف لفظي الرب والاله في المفهوم وجهل عالم ازهري (التفسير : ج ١١)

كل شيء ومليكه ، اذ لا جواب غيره وهم لا يجهلونه ، فلا استفهام عنه لحماهم على الاقرار به ، ليرتب عليه قواه ﴿ فقل أفلا تتقون ﴾ أي فقل لهم أيها الرسول أتعملون هذا وتقررون به فلا تتقون سخط الله وعقابه لكم بشركم به وعبادتكم لغيره ممن لا ملك لكم من تلك الامور شيئا ، وهو المالك لها كلها ؟

﴿ فذللهم الله ربكم الحق ﴾ هذه فذللك ما تقدم ، أي فذللكم الذي يفعل ما ذكر الله ربكم ، أي الرب الذي لكم بنعمه والمدير لاموركم ، الحق الثابت بذاته ، لانه هو الحي القيوم ، الحي بذاته ، الحي لغيره ، القائم بنفسه ، المقيم لغيره ، واذا كان هو ربكم الحق الذي لا ريب فيه ، المستحق للعبادة دون سواه ﴿ فماذا بعد الحق إلا الضلال ﴾ الاستفهام إنكارى ، وفي الجملة إدماج بما يسمونه الاحتباك ، أي فماذا بعد الحق الا الباطل ؟ وماذا بعد الهدى الا الضلال ؟ والواسطة بين الطرفين المتضادين المتناقضين ممنوعة كالمقائد ، فالذي يفعل تلك الامور هو الرب الحق قال قول ربوبية ما سواه باطل ، وهو الاله الذي يعبد بحق ، وعبادته وحده هي الهدى ، فما سواها من عبادة الشركاء والوسطاء ضلال ، فكل من يعبد غيره معه فهو مشرك مبطل ضال ﴿ فإني تصرفون ﴾ أي فكيف تصرفون وتتحولون عن الحق الى الباطل ، وعن الهدى الى الضلال ، بعد العلم والاقرار بما كان به الله هو الرب الحق ، وانما الاله الحق ، الذي يعبد بالحق ، هو الرب الحق ، فما بالكم تقررون بتوحيد الربوبية دون توحيد الألوهية ؟ فتتخذون مع الله آلهة أخرى ولا تتحقق الألوهية الا بتحقيق الربوبية ؟

فآية تقرر أن التوحيد لا يصح مع الفصل بين الربوبية والالوهية كما كانوا يفعلون ، وقد جهل هذا بعض علماء الازهر في هذا الزمان ، الذين أخذوا عقيدتهم من بعض الكتب الكلامية المبتدعة وجهلوا عقائد القرآن ، فلم يفرقوا بين مفهومي الرب والاله في اللغة العربية ، وما كان عليه أهلها في الجاهلية ، على ان الاسلام انما وحد بينهما في الماصدق الشرعي ، لا في المفهوم اللغوي ، واحتج بهذا على المشركين هنا وفي آيات كثيرة كما صرح به الحافظ ابن كثير في تفسيره وغيره من قبله ومن بعده ،

وفي الآية من قواعد العقائد الدينية وأصول التشريع والعلم ان الحق والباطل فيهما ضدان لا يجتمعان ، وأن الهدى والضلال ضدان لا يجتمعان ، ولهذا الاصل فروع كثيرة في الدين والعلم العقلي . وفيها من حسنات الایجاز في التعبير ما يسميه علماء البديع بالاحتباك ، وهو ان يحذف من كل من المتقابلين ما يدل عليه مقابله في الآخر ، وهو ظاهر في الآية أم الظهور ، وان غفل عنه الجمهور .

﴿ كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا ﴾ أي مثل ذلك الذي حقت به كلمة ربك أيها الرسول في وحدة الربوبية والالوهية ، وكون الحق ليس بعده لتاركة إلا الباطل ، والهدى ليس وراءه إلا الضلال ، حقت كلمة ربك أي سنته أو وعيده على الذين فسقوا أي خرجوا من حظيرة الحق وهو توحيد الالوهية والربوبية وهداية الدين الحق . ففي كلمة الرب وجهان ، لسكل منهما أصل في القرآن ، أحدهما أنها كلمة التكوين وهي سنته في الفاسقين الخارجين من نور الفطرة واستقلال العقل الذين لا يتوجهون الى التمييز بين الحق والباطل والتفرقة بين الهدى والضلال لرسوخهم في الكفر واطمئنانهم به بالتقليد والعمل ف قوله ﴿ انهم لا يؤمنون ﴾ على هذا بيان لكلمة أو بدل منها ، أي اقتضت سنته في غرائز البشر وأخلاقهم أنهم لا يؤمنون بما يدعوهم اليه رسلنا من التوحيد والهدى مهما تكن آياتهم بيّنة ، وحججهم قوية ظاهرة ، وليس معناه انه تعالى يمنهم من الايمان منعاً قهرياً مستأنفاً بمحض قدرته ، بل معناه انهم يمتنعون منه باختيارهم ترجيحاً للكفر عليه . ويؤيد هذا الوجه قوله تعالى في هذه السورة (٩٦ ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ٩٧ ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الاليم)

والوجه الثاني انها كلمة خطاب التكليف بوعيد الفاسقين الكافرين بعذاب الآخرة كقوله في سورة ألم السجدة (٣٢ : ٢٠ وأما الذين فسقوا فأوهم النار) وقوله في سورة غافر (٤٠ : ٦ وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار) ويكون قوله (أنهم لا يؤمنون) على هذا تمليلاً لما قبله بحذف حرف الجر أي لانهم أو بأنهم لا يؤمنون . وكل من الوجهين حق ظاهر والاوّل أظهر هنا .

وقرأ نافع وابن عامر (كلمة) في آيتي يونس وآية غافر بالجمع (كلمات) ولا أجل ذلك رسمت في المصحف الامام بالتاء المبسوطة (كلمات) ووجه قراءة الجمع ان هذا المعنى بوجهيه قد تعدد وتكرر في آيات الكتاب

(٣٤) قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ؟
قُلِ اللَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ، فَإِنِّي تَوَفَّكُمُونَ (٣٥) قُلْ هَلْ مِنْ
شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ؟ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ، أَفَمَنْ يَهْدِي
إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ؟ أَمْ مَنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِيَ؟ فَمَا آتاكم
كَيْفَ تَحْكُمُونَ؟ (٣٦) وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا، إِنَّ الظَّنَّ
لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ

﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ لم يعطف هذا الامر ولا ما بعده على ما قبله من تلقين النبي ﷺ الاحتجاج على المشركين لان حكم البلاغة فيه الفصل كأمثاله مما يسرد سردا من جنس واحد من المفردات والجل . أي قل لهم أيها الرسول : هل أحد من شركائكم الذين عبدتموهم مع الله أو من دون الله من له هذا الشأن في السكون وهو بدء الخلق في طور ثم إعادته في طور آخر ، سواء كان من الاصنام المنصوبة ، أو من الارواح التي تزعمون انها حالة فيها ، أو من الكواكب السماوية أو غيرها من الاحياء كالجن والملائكة؟ ولما كان هذا السؤال مما لا يجيبون عنه كما أجابوا عن أسئلة الخطاب الاول لانكارهم البعث والمعاد - لا لاعتقادهم

ان شركاءهم تفعل ذلك - لقن الله رسوله الجواب ﴿قُلْ هَلْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ فأدمج إثبات البعث في توحيد الربوبية لانه يقتضيه ويستلزمه فان الرب القادر على بدء الخلق يكون قادرا على إعادته بالاولى على أن الذي ينكرونه هو إعادته تعالى الاحياء

(يونس : ١٠) كون الذي يهدي للحق هو الله رب العالمين ٣٦١

الحيوانية دون مادونها من الاحياء النباتية، فهم يشاهدون بدء خلق النبات في الارض عند ما يصيبها ماء المطر في فصل الشتاء وموته بجفافها في فصل الصيف والحريف ثم إعادته بمثل ما بدأ به مرة بعد أخرى، ويقررون بأن الله هو الذي يفعل هذا البدء والاعادة، لانهم يشاهدون كلا منهما، فهم أسرى الحس والعيان، ثم ينكرون قدرته على إعادة خلق الناس، لانهم لم يشاهدوا أحدا منهم حي بعد موته وقد فقدوا العلم ببرهان القياس، واننا لانزال نرى أمثالا لهم في جاهليتهم ممن تعلموا المنطق وطرق الاستدلال، وعرفوا ما لم يكونوا يعرفون من سلطان الارواح في عالم الاجسام، وقد أمر الله رسوله أن يرشدكم الى جهلهم بأنفسهم وينبهم للتفكير في أمرهم بقوله ﴿ فَأَنى تَوَفىكُون ﴾ أي فكيف تصرفون عن ذلك وهو من دواعي الفطرة وخاصة العقل في التفكير، للعلم بالحقائق والبحث عن المصير ؟

﴿ قل هل من شركائكم من يهدي الى الحق ؟ ﴾ هذا سؤال عن شأن آخر من شؤون الربوبية، المقتضية لاستحقاق الألوهية، وتوحيد العبادة الاعتقادية والعملية، وهو الهداية التي تتم بها حكمة الخلق كما يدل عليه ذكرها عقبه في آيات أخرى كقوله تعالى (الذي خلقني فهو يهدين * ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى * الذي خلق فسوى * والذي قدر فهدى) وهي أنواع هداية الفطرة والغريزة، وهداية الخواص، وهداية العقل، وهداية التفكير والاستدلال بكل ذلك، وهداية الدين، وهو للنوع البشري في جلته كالعقل لأفراده، وهداية التوفيق الموصل بالفعل الى الغاية بتوجيه النفس الى طلب الحق وتسهيل سبيله ومنع الصوارف عنه. ولما كان لا يمكنهم أن يدعوا ان أحدا من أولئك الذي أشر كوههم في عبادة الله تعالى بادعاء التقريب اليه والشفاعة عنده يهدي الى الحق من ناحية الخلق والتكوين، ولا من ناحية التشريع، لقن الله رسوله الجواب بقوله ﴿ قل الله يهدي للحق ﴾ فعل الهدى يتعدى بنفسه كقوله تعالى (اهدنا الصراط المستقيم * ويهديك صراطا مستقيما * لنهدينهم سبيلا) ويتعدى بالى كقوله (وهديناهم الى صراط مستقيم * ويهدي الى صراط مستقيم * يهدي الى الرشد * واهدنا الى سواء الصراط) وبالإلام كقوله

(الحمد لله الذي هدانا لهذا * ان هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم * بل الله يمن عليكم ان هداكم للإيمان .) فتعديته بنفسه تفيد اتصال الهداية بمتعلقها مباشرة ، وتعديته باللام تفيد التقوية أو العلة والسببية ، وبالي للغاية التي تنتهي إليها الهداية ، فهي تشمل مقدماتها وأسبابها ، من حيث كونها موصلة إلى المنتهى المقصود للهادي السائق إليها ، وقد يكون قصده مجهولاً لمطيعه كقوله تعالى في الشيطان (كتب عليه أنه من تولاه فانه يضلله ويهديه إلى عذاب السعير) وكل من هذه الثلاث مستعمل في التبريل في موضعه اللائق به ، يعلم ذلك من له ذوق سليم في هذه اللغة الدقيقة العالية . وقد جمع في هذه الآية بين التعدية بالحرفين وبين ترك التعدية وهو حذف المتعلق الدال على العموم وكل منها وقع في موقعه الذي تقتضيه البلاغة فهاكه فلم نر أحداً يذنبه أما الأول فقد عداه نال في حيز الاستفهام الإنكاري للإيدان بأنه لا أحد من هؤلاء الشر كاء المتخذين بالباطل يدل الناس على الطريق الذي ينتهي سالكه إلى الحق من علم وعمل وهو التشريع فهو ينفي المقدمات ونتائجها ، والأسباب ومسبباتها ، ولو عداه بنفسه لما أفاد إلا إنكار هداية الاتصال إلى الحق بالفعل ، دون هداية التشريع الموصلة إليه ، ولو عداه باللام لكان بمعنى تعديته بنفسه إن كانت اللام للتقوية ، أو لانكار هداية يقصد بها الحق إن كانت للتعليل ، والأول أعم وأبلغ كما هو ظاهر . وأما الثاني وهو تعديته باللام فهو يستلزم الأول ، وإذا جرينا على جواز استعمال اللام بمعنيها على مذهبنا الذي اتبعنا فيه الامامين الشافعي وابن جرير يكون معناه قل الله يهدي لما هو الحق لأجل أن يكون المهتدون به على الحق .

وأما الثالث أي حذف المتعلق فهو في الشق الثاني من قوله ﴿ أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أم من لا يهدي إلا أن يهدي ﴾ قرأ (بهدي) يعقوب وحفص بكسر الهاء وتشديد الدال وأصله بهندي كما سيأتي في بحث لغة الكلمة ، وقرأها حمزة والكسائي بالتخفيف كبير مي ، ومعنى القراءتين مع ما قبلهما نصاً واقتضاء : أفمن يهدي إلى الحق ويهدي له ويهديه وهو الله تعالى أحق أن يتبع فيما يشرعه أم من لا يهدي غيره ولا هو بهندي بنفسه ممن عبد من دونه إلا أن يهديه غيره أي الله تعالى

إذ لا هادي غيره ؟ وهذا استثناء مفرغ من أهم الاحوال ، لان من نفى عنهم الهداية من اتخذوا شركاء لله تعالى يشمل المسيح عيسى بن مريم وعزير أو الملائكة عليهم السلام وهؤلاء كانوا يهدون إلى الحق بهداية الله ووحيه كما قال تعالى في الانبياء من سورتهم (٢١ : ٧٣ وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا) وقال النحاس الاستثناء منقطع كما تقول : فلان لا يسمع غيره إلا أن يسمع ، أي لكنه يحتاج أن يسمع ، فمعنى (إلا أن يهدي) لكنه يحتاج أن يهدي اه فيا الله العجب من هذه البلاغة التي يظهر للمدققين في تعبير القرآن من بدائعها في كل عصر مافات أساطين بلغاء المفسرين فيما قبله

﴿ فما لكم كيف تحكمون ﴾ هذا تعجب من حالهم في جعلهم من هذه حالهم من المعجز المطلق شركاء مع القادر على كل شيء ، أورده باستفهامين تقرعيين متواليين ، والمعنى : أي شيء أصابكم وماذا حل بكم حتى اتخذتم شركاء هذه حالهم وصفتهم فجعلتموهم وسطاء بينكم وبين ربكم الذي لا خالق ولا رازق ولا مدبر ولا هادي لكم ولا لأحد منهم سواه ؟ كيف تحكمون بجواز عبادتهم ، وبما زعمتم من وساطتهم وشفاعتهم عنده بدون اذنه ؟

ومن القراءات اللفظية التي لا يختلف بها المعنى قراءة يهدي المشددة الدال بفتح الياء والهاء بنقل حركة التاء في أصلها (يهتدى) إلى الهاء وادغامها فيها ، وقراءتها بكسرهما معا فهاء لا لتمام الساكنين والياء لمناسبتها لها ، وقراءتها بفتح الياء وكسر الهاء لمناسبة الدال وهي قراءة جنص التي عليها أهل بلادنا

﴿ وما يتبع أكثرهم إلا ظناً ﴾ هذا بيان لحال المشركين الاعتقادية ، في إثارة إقامة أنواع الحجج على توحيد الربوبية والالهية ، بأسلوب الاسئلة والاجوبة المفيدة للعلم ، الهداية إلى الحق ، ومنها أنه ليس في شركائهم من يهدي إلى الحق المطلوب في العقائد الدال على ارتقاء العقل وعلو النفس ، وهو ان أكثرهم لا يتبعون في شركهم وعبادتهم لغير ربهم ، ولا في إنكارهم للبعث ، وتنكذيبهم للرسول ﷺ إلا ضرباً من ضروب الظن قد يكون ضعيفاً كما يشير إليه تنكيره ، وذلك كاستبعاد غير

المألوف ، وقياس الغائب والمجهول ، على الحاضر والمعروف ، وتقاييد الآباء ثقة بهم ، وتعظيماً لشأنهم ، أن يكونوا على باطل في اعتقادهم ، وضلال في أعمالهم ، وأما غير الأكثر فكانوا يعلمون أن ما جاءهم به الرسول هو الحق والهدى ، وإن أصنامهم وغيرها مما عبدوا لا تنفع ولا تشفع ، ولكنهم يمجحدون بآيات الله ويكذبون رسوله عناداً واستكباراً في الأرض ، وضناً برياستهم وزعامتهم أن يهبطوا منها إلى اتباع من دونهم ثروة وقوة ومكانة في قومهم ، ويجوز أن يكون التعبير بالأكثر جاء ، على سنة القرآن في الحكيم على الأمم والشعوب بالحق والعدل ، فانه تارة يحكم على أكثرهم ، وتارة يستثني من الاستغراق والإطلاق القليل منهم ، كما تقدم نظائره من قبل . فيكون الحكم على الأكثر للإشارة إلى أنه يقل فيهم ذو العلم ، فإن قيل : وما حكم الله في الظن ؟ فالجواب

﴿ إن الظن لا يعني من الحق شيئاً ﴾ من الاغناء ولو قليلاً ، أي لا يعمل صاحبه غنياً بعلم اليقين في الحق فيكون أي الظن بدلاً من اليقين في شيء مما يطلب فيه اليقين كالدين ، فإن الحق هو الامر الثابت المتحقق الذي لا ريب في ثبوته وتحققه ، والمظنون وإن كان راجحاً عند صاحبه عرضة للشك يتزلزل ويزل إذا عصفت به أي عاصفة من الشبهات ، والاعناء يتعدى بعن كقوله (ما أغنى عنكم جمعكم * ما أغنى عني ماليه * فما أغنت عنهم آلهتهم) وقد عدي هنا بمن ، وفي مثله من سورة النجم ، وفي قوله في ظل دخان النار (لا ظليل ولا يعني من اللهب) وقوله في الضريع من طعام أهلها (لا يسمن ولا يعني من جوع) فعدي بمن لفادة القلة أو لتضمنه معنى البذل ، أي إن ظل دخان النار لا وارف يمنع الحر ولا يعني من اللهب بأن يقلله أو يزيله ويكون بدلاً منه ، وإن الضريع الذي هو طعام أهل النار لا يسمن البدن بالتغذية الكافية ولا يقلل الجوع أو يزيله فيكون بدلاً من الطعام الرديء التغذية

واستدل العلماء بهذه الآية هنا وفي سورة النجم على أن العلم اليقيني واجب في الاعتقادات ، وإن إيمان المقلد غير صحيح ، ويدخل في الاعتقادات الإيمان بوجود أركان الاسلام وغيرها من الفرائض والواجبات القطعية والإيمان بتحريم المحظورات القطعية كذلك ، وقد بينا من قبل أن اليقين المشروط في صحة الإيمان

شرعا هو اليقين اللغوي وهو الاعتقاد الصحيح الذي لا شك معه — لا المصطلح عليه عند نظار الفلسفة والمنطق المؤلف من علمين [أحدهما] ان الشيء كذا [والثاني] أنه لا يمكن أن يكون إلا كذا . وأما قولهم إن الاحكام العملية يكفي فيها الدليل الظني ففيه أن الدلائل الظني لا يثبت به الايمان بالمظنون ، بل التصديق بالمظنون لا يسمى إيمانا . وإنما يعمل في الاجتهادات خروجاً من الخيرة والترجيح بهوى النفس **﴿إن الله عليم بما يفعلون﴾** هذه قضية ثانية مستأنفة خاصة بالعمل شأنها أن يسئل عنها بعد القضية التي قبلها في الاعتقاد، فهو يقول ان الله عليم بما كانوا يفعلون بمقتضى اعتقاداتهم الظنية والقطعية ، فهو يحاسبهم ويجازيهم على كل عمل منها بحسبه ، فالجزاء على مخالفة الاعتقاد القطعي بصدق الرسول من تكذيب وجحود أشد أنواع الجزاء ، ويليه التكذيب باتباع الظن كالتقليد ، ومن تلك الافعال الصديق عن الايمان وإيذاء الرسول ﷺ والمؤمنين بأنواعه ومنها سائر الشرور والمعاصي الشخصية والاجتماعية كالقتل والفاحشة والسكر والربا الخ والمبرة للمؤمن بالقرآن في هذه الآية والتي قبلها وهما من آياته المحكمات في أصول الايمان والاسلام أن يكون غرضه من حياته تزكية نفسه وتكميلها باتباع الحق في كل اعتقاد ، والهدى وهو الصلاح في كل عمل ، وبناءؤها على أساس العلم ، دون الظن ومادونه من الخرص والوهم ، فالعلم المفيد للحق والمبين للهدى في الدين هو ما كان قطعي الرواية والدلالة من الكتاب والسنة الذي قامت به الجماعة الاولى ، وهو الشرع العام الذي لا يجوز للمسلمين التفرق والاختلاف فيه ، فهو مناط وحدتهم ، ورابطة جامعهم ، ومادونه مما لا يفيد إلا الظن فلا يؤخذ به في الاعتقاد ، وهو متروك للاجتهاد في الاعمال ، اجتهاد الافراد في الاعمال الشخصية ، واجتهاد أولي الامر في القضاء والادارة والسياسة ، مع تقييدهم فيه بالشورى في استبانة العدل والمساواة والمصالح العامة ، كما فصلناه من قبل في مواضعه .

وقد غفل عن هذه القواعد بعض أئمة الفقه فحكم بتحريم بعض العادات المباحة في الاصل كلعن الشطرنج ، وكذا المستحبة كلاعبة الرجل لزوجته وسماع الغناء بشبهة أنها من الباطل أو من الضلال ، ولا يثبت تحريم شيء من ذلك بدلائل ظني

فضلا عن قطعي ، وفاقا للقاضي أبي بكر بن العربي المالكي المخالف فيه للرواية عن إمامه ، وأما المقلدون من المنتمين في الفقه الى كل مذهب فقد حرموا على الناس مالا يحصى بالرأي والاقبسة الوهمية ، التي هي دون الادلة الظنية ، وهدى النبي ﷺ في الشبهات الاحتياط كما صرح به في حديث « الحلال بين والحرام بين » المتفق عليه واستفتاء (الوجدان) لحديث « استغفرت نفسي » رواه البخاري في التاريخ وانما الباطل من الاعمال ما ثبت بطلانه بدليل شرعي قطعي ، كما أن الحق فيها ما ثبتت حقيقته بدليل قطعي ، ويدينها واسطة هي مالا دليل فيه بخلاف الاعتقاد فانه ليس فيه واسطة بين الحق والباطل ، ومن الاشياء العملية ما الاصل فيه الاباحة وهو النافع ، ومنه ما سكت الشارع عن فرضه وعن تحريمه وعن قواعد حدوده كما قال ﷺ « وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها » كما في حديث أبي ثعلبة في الاربعين النووية وقد حققنا هذا البحث في تفسير (١٠١: ٥) لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤم) من جزء التفسير السادس والذي أريد أن أذكر به كل مسلم هنا أنه لا يوجد الآن في الارض دين متبع ، ولا قانون دولي منفذ ، ولا نظام حزبي ولا جماعي ملتزم ، يفرض على الناس الحق والهدى فرضاً دينياً ، والاعتماد في استبانتها على العلم الصحيح ، وحصر الاجتهاد والترجيح فيما سواهما ، والاعتماد فيه على الوجدان في الشخصيات ، والشورى في المصالح العامة . ولن يصلح حال البشر الفردي ولا الاجتماعي والدولي إلا بهذه الاصول التي فرضها الاسلام ، وجعلها ديناً يدان الله به ليس لاحد تجاوزه ، وقد عجزت علوم البشر على اتساعها ، وعقولهم على ارتقاها ، عن الاستغناء عنها بغيرها ، فهم كلما ازدادوا علماً يزدادون باطلا وضلالا وبغياً ، خلافا لدعاة حضارتهم الكاذبين . قال شيخ فلاسفة الاخلاق وعلم الاجتماع في هذا القرن (وهو هربرت سبنسر الانكليزي) لحكيم الاسلام ، شيخنا الاستاذ الامام ، ان فكرة الحق قد زالت من عقول أمم أوربة البتة ، فلا يعرفون حقاً إلا للقوة ، وإن الافكار المادية قد أفسدت أخلاقهم ، وانه لا يرى من سبيل إلى علاجهم ، وإنه لا يزال بعضهم يختبئ ببعض - ولعله ذكر الحرب - ليتبين أيهم الاقوى يسود العالم

وقد وقع ماتوقعه هذا الحكيم في سنة ١٩٠٣ م بالحرب الكبرى مدة أربع سنين (من ٩١٤ - ٩١٨) فزددت الأمم والدول شقاء وفساداً وطغياناً وإباحة ، حتى جزم كثير من عقلائهم بأنه لا علاج لهذا الفساد في البشر إلا الهداية الروحية الدينية ، وسيمقدون لذلك مؤتمراً عاماً في الولايات المتحدة الاميركانية ، ولن يجدوا العلاج المطلوب إلا في هذه الاصول من القرآن ، وما فصلناها به في مباحث (الوحي المحمدي) من هذا التفسير ، ثم جمعناه في كتاب مستقل مع زيادة في تفصيله ، فعسى أن يسبقهم المسلمون إلى العمل به ونشره .

(٣٧) وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ
وَالَّذِينَ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ
مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٣٨) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ
وَأَذِّنُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣٩) بَلْ
كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ، كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ
مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ

بعد ما تقدم من إقامة البرهان على ان القرآن من عند الله وان محمداً ﷺ كان عاجزاً كغيره عن الاتيان بمثله في هدايته ، وفي علمه وواقته - وما تلاه من إقامة الحجج على بطلان شركهم - وما بعده من بيان حالهم في اتباع أكثرهم لأدنى الظن وأضعفه في عقائدهم وتكذيبهم - عاد الى تنفيذ رأيهم الاقبن في الطعن على القرآن بمقتضى الظن الضعيف من الاكثرين ، والجحود العنادي من الاقلين ، كالزعماء المستكبرين ، فقال ﴿ وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ﴾ النفي هنا لاشأن الذي هو أبلغ وأكثر من نفي الشيء مباشرة كما تقدم مراراً ، وان غفل عن ذلك من عربيه اعراباً آخر لقصر نظره على ظاهر اللفظ ، دون ما يقتضيه المقام من المبالغة

في الرد ، أي وما كان هذا القرآن العظيم في علو شأنه ، المجلي له في أسلوبه ونظمه ، وعلومه العالية ، وحكمته السامية ، وتشريع العادل ، وآدابه المثلى ، وتمحيصه للحقائق الالهية والاجتماعية ، وإنبائه بالغيوب الماضية والآتية ، وجعل المقصد من اصلاحه ما يمينه آنفا من اتباع الحق والهدى ، واجتناب الضلال باتباع الهوى ، والاعتماد فيهما على العلم الصحيح — ما كان وما صح ولا يعقل أن يفترية أحد على الله من دونه ويسنده اليه ، إذ لا يقدر غيره عز وجل عليه ، فان فرض أن بشراً يستطيع الاتيان بمثله فان يكون الا بشراً أرقى وأكمل من جميع الحكماء والانبياء وكذا الملائكة ومثله ان يفترى على الله ، بل قال أشد الكفار عنادا وعداوة لمحمد ﷺ وهو أبو جهل لعنه الله : ان محمدا لم يكذب على بشر قط أفيكذب على الله؟ ﴿ واسكن تصديق الذي بين يديه ﴾ أي واسكن كان تصديق الذي سبقه

من الوحي لرسول الله تعالى بالاجمال كنوح وابراهيم وموسى وعيسى (ص) بدعوته الى اصول دين الله الاسلام التي دعوا اليها من الايمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح ، بعد أن نسي بعض ذلك بقايا اتباعهم وضلوا عن بعض ، وشوهوه بالتقاليد المبتدعة مما لم يكن يعلمه محمد الامي ﷺ أو تصديق ذلك بكونه جاء وفقاً لما دعا به ابراهيم لاهل حرم الله ، ولما بشر به موسى وعيسى والنبيون كما بيناه بالتفصيل ، في تفسير قوله تعالى (٧ : ١٥٧) الذين يتبعون الرسول النبي الامي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل) من جزء التفسير التاسع ، ويجوز الجمع بين المعنيين

﴿ وتفصيل الكتاب ﴾ الالهى أي جنسه وهو ما شرعه الله تعالى ليكتب ويهتدى به جميع البشر من العقائد والشرائع والعبر والمواعظ وشؤون الاجتماع وسائر الله في خلقه ﴿ لاريب فيه ﴾ هو لاريب فيه أو حال كونه لاريب فيه أي ليس فيه مشار للشك ولا موضع للريب ، لانه الحق والهدى ﴿ من رب العالمين ﴾ من وحيه لا يقدر عليه غيره (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً) ﴿ أم يقولون افتراء ﴾ انتقال من بيان كونه أجل وأعلى من ان يفترى لعجز الخلق عن الاتيان بمثله ، إلى حكاية زعم هؤلاء الجاهلين والمعادين أن محمداً ﷺ افتراء ،

والاستفهام فيه الانكار والتعجيب ، أو التمهيد به إلى الرد عليه بتحدي التعجيز وهو ﴿ قل فأتوا بسورة مثله ﴾ في أسلوبه ونظامه وتأثيره وهدايته وعلمه مفتراة في

موضوعها ، لانهلزمون أن تكون حقاً في أخبارها ، ﴿ وادعوا من استطعتم من دون الله ﴾ واطلبوا الله مظهرة لكم والاعانة على ذلك من استطعتم دعاءهم من دون الله فإن جميع الخلق معجزون عن ذلك مثلكم ، فهذا كقوله تعالى (٨٨ : ١٧) قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً

وهذه الآية في سورة الاسراء وقد نزلت قبل يونس ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ في زعمكم أني افتريته . والجمهور على أن لفظ سورة هنا يصدق بالقصيرة كالطويلة وبيننا وجه في تفسير آية التحدي من سورة البقرة (٢ : ٢٣) وهو المتبادر من تنكير السورة إلا أن يقال إن التنكير للتعظيم أو لنوع من السور يدل عليه دليل كالسور التي فيها قصص الانبياء وأخبار وعيد الدنيا والآخرة لأن الافتراء تتعلق مهمته بالأخبار لا بالانشاء من أمر ونهي كما أشرت إليه في تفسير سررة البقرة ﴿ ورجح بعضهم أن المراد السورة الطويلة أي مثل هذه السورة نفسها (يونس) في اشتمالها على أصول الدين والوعد والوعيد كما يطلق لفظ الكتاب أو كتاب أحياناً ويراد به السورة الواحدة التي يذكر فيها ، كقول من قال في أول سورة الاعراف (ألمص ، كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه) أي هذه السورة كتاب الخ ومن تنكير لفظ سورة المراد بها النوع دون الوحدة قوله تعالى (٤٧ : ٢٠) ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة (أي يفرض فيها القتال بدليل قوله بعده) فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال (الآية . وسنعود الى هذا البحث في تفسير التحدي

بمشر سور مثله مفتريات من سورة هود إن شاء الله تعالى

ومن المعلوم بالبداهة أنه ما كان لما قل مثله ﷺ أن يتحداهم هذا التحدي لم لم يكن عالماً موقناً بأنه لا يستطيع الانس والجن الاثنان بمثل هذا القرآن في جملة ولا بسورة مثله لأفراد العلماء والبلغاء منهم ولا جماعاتهم ولا جماعاتهم إن « تفسير القرآن الحكيم » « ٤٧ » « الجزء الحادي عشر »

فرض إمكان اجتماعهم وتعاونهم ومظاهرة بعضهم لبعض. فلو كان هو الذي أنشأه وألفه لمصلحة الناس برأيه كما ارتأى بعض المعجيين بعقله وذكاؤه وعلو أفكاره من الفلاسفة المتقدمين ، وعلماء الماديين المتأخرين - لكان عقله وذكاؤه وعلو فكره ما نعات له من هذا الجزم بعجز عقلاء الخلق من العوالم الظاهرة (الانس) والخفية (الجن) عن الاتيان بسورة مثل ما أتى هو به، فإن كل عاقل متوسط الذكاء والفكر يعلم أن كل ما أمكنه من الأمر فهو يمكن غيره ، بل لا يأمن أن يوجد من هو أقدر عليه منه ، فهذه آية بيّنة للعقل على أن النبي ﷺ كان موقناً بأنه من عند الله تعالى وأنه هو كغيره لا يقدر على الاتيان بسورة مثله ، وهي إحدى حجج الذين قالوا انه لا يعقل أن يكون كاذباً مفترياً له (فان قيل) إنه يمكن أن يعتقد عجز نفسه وغيره في حال كونه وحياً من نفسه ، معتقداً أنه من ربه (قلنا أولاً) إن دعوى الوحي النفسي باطله بأدلة كثيرة كما تقدم (وثانياً) ان عجز غيره ممن كانوا أفصح منه دليل على عجزه بطريق الاولى

ثم إن أكثر المتكلمين ومن على مذاهبهم من المفسرين يعتمدون في إقامة الحجة على نبوته ورسالته ﷺ على تحديه للعرب بالقرآن أن يأتوا بمثله إجمالاً وبحديث مثله فبعض سور مثله مفتریات فبسورة مثله فبسورة من مثل محمد ﷺ أي في أميته ، وبما ظهر من عجز العرب وغيرهم عن ذلك ، إذ لو قدر أحد على الاتيان بسورة مثله أو قريب منه لفعلوا لتوفر الدواعي من أعدائه على تكذيب دعواه ولا سيما بعد استفحال قوته ، واضطرارهم الى بذل أموالهم وأنفسهم في مكائده ، وبهذا يعلم الفرق الواضح بين تحديه ﷺ بالقرآن وتحدي بعض الدجاليين الغرورين ببعض ما هذوا به من نثر ونظم وسموه وحياً كالباب والبهاء والقادياني ، فانه كان سخريه للعلماء والبلغاء ، وقد اخفى البهائيون كتابه (الاقدس) عن الناس

ثم إن أكثرهم على أن تحدي العرب إنما كان بما امتاز به من الفصاحة والبلاغة اللغوية . وقد صنعوا في بيان إعجاز القرآن بها كتباً مستقلة ، ولم يوفوه - حقاً من ناحيتها ولا سيما نظمه المعجيب بله النواحي المعنوية (وقالوا) ان وجه الدلالة في ذلك على صدقه ﷺ في دعوى النبوة وأنه من عند الله هو انه يتضمن تصديقه

تعالى له كأنه قال « صدق عبيدي فيما يبلغه عني » ولذلك رجحوا ان هذه الدلالة
وضعية كدلالة الكلام الالهي وقيل انها عقلية وتقدم بسط ذلك في تفسير آية البقرة
وهذا الذي قلناه في اعجازه بالبلاغة قد اعترض عليه بعض الناس حتى
المتقدمين الذين كانوا أقرب إلى فهمه وامتيازه بها من أهل عصرنا. قال الفريقان :
إن لكل بليغ من فصحاء كل أمة أسلوباً يمتاز به ، وأنتم أيها المسلمون تقولون
إن محمداً ﷺ كان أفصح قريش وهم أفصح العرب فلا غرو أن يمتاز فيهم بهذا
الاسلوب والنظم القرآني كما امتاز بعض شعراء الجاهلية والاسلام بأسلوب خاص ،
وكما امتاز شكسبير في شعراء الانكليز وفيكتور هيجو في شعراء الفرنسيين ، فمعجز
العرب عن الاتيان بمثل القرآن في بلاغته لا يدل على أنه من الله عز وجل
(ونقول) إن هذا الاعتراض يذوب فيزول اذا عرض على الاشعة التي
اقتبسناها من ضياء شمس القرآن في إعجازه اللفظي والمعنوي في أول تفسير هذه
السورة ثم في تفسير الايتين (١٥ و ١٦) منها . وأما قولهم في إحدى مقدماته
إن محمداً ﷺ كان أفصح قريش وأبلغهم في لغته ، فقد بينا بالنقل الثابت أنه ﷺ
لم يكن قبل نزول القرآن عليه يذكر في غول فصحاءهم ولا في وسطهم بل لم
يكن يعد منهم ، وإنما صار كلامه ممتازاً بالفصاحة والبلاغة بما استفاد من وحي
القرآن كما استفاد من دونه منه ، على أنه ظل ككلام غيره من البشر في البعد عن
مشابهة نظم القرآن وأسلوبه وتأثيره ، وهذا التفاوت لا نظير له في كلام بلغاء البشر
(فان قيل) ان ما يظهر في السور الطويلة من روعة البلاغة وبراعة النظم لا يظهر
في السور القصيرة (قلنا) لكن الناس عجزوا عن معارضة السور القصصار كغيرها ،
ولخفاء وجه الاعجاز فيها على بعضهم قل من قال منهم ان عجزهم كان بصرف
الله تعالى لقد هم عن المعارضة ، وقال بعضهم ان التحدي إنما كان بسورة طويلة كما نقلناه
نفا عن الرازي ووجهنا بأظهر مما وجه به ، وهو أن تكون مما أرادوه من تهمة اقترانه
وبيانه أنه اذا كان التحدي بسورة مثله مقترأة خاصا بالسور التي فيها قصص
ارسل مع أقوامهم بالتفصيل فهذه كلها من السور الطويلة كالاعراف ويونس
هود والحجر وطه والمؤمنين والطواسين والعنكبوت . وإن كان يعم السور

المشتملة على نذر أولئك الاقوام المكذبين لرسلمهم من غير تفصيل لدعوتهم لهم فيدخل في عمومهم بعض سور المفصل أيضاً كالذاريات والنجم والقمر والحاقة والفجر ولا يدخل فيه على كل من التقديرين شيء من السور القصيرة لانه ليس فيها شيء من ذلك. والتحدي في هذه السورة وسورة هود وسورة الطور مبني على تهمة الافتراء والتكذيب كما ترى أيضاً في آية (بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه) التي تلي هذا ومن تأمل ما في هذه السور من المفصل من التعبير عن المعنى الواحد بالعبارات العديدة مع تعدد أساليبها ، واختلاف نظمها ، وأنواع فواصلها ، وألوان بيانها ، وقوارع نذرها ، وصواعع وعيدها ، وقابليتها للترتيل بالانغاث المؤثرة اللائقة بكل منها ، فأجدر به إن كان قد أوتي حظاً من بيان هذه اللغة والشعور الذوقي ببلاغتها أن يقتنع بأن اعجازها اللغوي كاعجاز قصص السور الطويلة أو اظهره بصرف النظر عن كون موضوعها حقاً موحى به من الله تعالى أم لا ؟ وأن يتبين به سر تأثيرها العجيب في أولئك المكذبين من بلغاء قريش وغيرهم الذي عبر عنه الوليد بن المغيرة المخزومي وهو في الذروة العليا منهم بمبارته المشهورة ومنها قوله : « وانه ليعلم ولا يعلم ، وانه ليعظم ما تحته » وغير ذلك مما بيناه في مباحث الوحي ، وان يعلم صدق الامام عبد القاهر في قوله : « أسأل عليهم الوادي عجزاً ، وأخذ عليهم منافذ القول أخذاً » علماً ذوقياً وجدانياً

وأما من لا يعرف من بلاغة هذه اللغة إلا القواعد الفنية وأمثلتها الجزئية المدونة في مثل مختصر السعد التفتازاني ومطوله من كتب المعاني والبيان ، فأجدر به أن يطبقها على كل كلام ، وناهيك به اذا عد منها ما ذكره المتنطعون من المتأخرين فيما يسمونه المحسنات البديعية ، وشروط الفصاحة وعيوبها ، وقد سمعت ان بعضهم ميج ذوقه بعض فواصل سورة القمر ، فكان بعض المستشرقين أصح منه فيها وذوقاً إذ قال إنها من أبلغ سور القرآن أو أبلغها كلها بلا استثناء

(فان قيل) ان التحدي في السور الثلاث (يونس وهود والطور) جاء رداً على تهمة الافتراء والتقول كما قلتم ، فيظهر فيه أن يختص بالسور التي تظهر فيها تهمة الافتراء كما قررتم ، ولكن التحدي في آية سورة البقرة ليس كذلك (قلنا) لاسكنه

جواب للمرتابين فيه وهم المكذبون فهو تأكيد لما قبله ، لانه نزل بعده . وهي مدنية وهن مكيات . فان معنا هذا قلنا ان التمسك فيها يصدق باصغر سورة وهي الكوثر ، وسلمنا أنه لا يظهر فيها اعجاز النظم والاسلوب (قلنا) انها معجزة بما فيها من الایجاز وخبري الغيب في أولها وآخرها كما شرحناه في تفسير الآية من الجزء الاول . وفي الجلالين ما يؤيد هذا فقد قال في آية البقرة : هي مثله في البلاغة وحسن النظم والاخبار عن الغيب اهـ وقال في آية يونس : هي مثله في الفصاحة والبلاغة على وجه الافتراء اهـ واعجاز السور الصغيرة المعنوي بالهدى والنور واصلاح القلوب ، لا يكابر فيه الا الجاهول المحجوب .

﴿بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه﴾ هذا الضراب عن بعض ما يتضمنه قولهم (افتراء) وما يستلزمه ككونهم يعتقدون ان محمداً ﷺ كان يكذب ، أو ان القرآن في جملته افتراء منه ، وقد ثبت أنهم كانوا يعلمون تحريه الصدق في كل ما يقوله ، وانتقال إلى بيان موضوع تكذيبهم بظنهم انه محال في نفسه ، وهو ما أنذرهم من عذاب الله لهم في الدنيا والآخرة إن لم يؤمنوا له ويتبعوه ، وقد وصفهم بعدم احاطتهم بعلمه أي لم يعلموه من جميع وجوهه ونواحيه ، وبأنه لما يأتهم تأويله أي مصداقه إلى ذلك الوقت مع توقع إتيانه ، وتشبيهه تكذيبهم إياه بتكذيب الذين من قبلهم بمثله ، فبين ما كذبوا به بهذه الصفات الثلاث

فالوصف (الاول) لما كذبوا به أنه ما لم يحيطوا بعلمه فيكون تكذيبهم صحيحاً وانما ظنوا ظناً ، والظن لا يعني من الحق شيئاً (والثاني) قوله ﴿ولما يأتهم تأويله﴾ أي ولم يأتهم إلى الآن ما يؤول اليه ويكون مصداقاً له بالفعل ، واتيانه متوقع بل آت لا بد منه ، وقد خبط المفسرون القنيون في معنى هذا التأويل منذ القرون الوسطى ، لانهم لم يفهموا القرآن بلغته الحرة الفصحى ، بل بلغة اصطلاحاتهم الفنية ولا سيما أصول الفقه والكلام . فقال بعضهم إنهم كذبوا بما لم يفهموا معناه ، وقال بعضهم إنهم كذبوا بما لم يظهر لهم وجه الاعجاز فيه ، ولوصح هذا أو ذاك لكانوا معذورين بالتكذيب طبعاً ، وسبب مثل هذا الغلط جمعهم التأويل تارة بمعناه عند بعض المفسرين وهو رديف التفسير ، وتارة بمعناه عند المتكلمين والاصوليين ، وهو صرف اللفظ عن معناه الظاهر إلى معنى

يحتمله في اللغة بشرط موافقته للشرع ، لتخرج تأويلات الباطنية وغلاة الصوفية وقد جمع الرازي كعاداته كل ما رآه محتملاً من هذا التكذيب في خمسة وجوه (١) تكذيب قصص القرآن وذكر لها ثلاث صور (٢) حروف التهجوي في أوائل بعض السور إذ لم يفهموا منها شيئاً، وزعم أن الله أجاب عنها بآية آل عمران في المحكمات والمتشابهات (٣) ظهور القرآن منجماً شيئاً فشيئاً (٤) أخبار الحشر والنشر (٥) العبادات قالوا إن الله مستغن عن عبادتنا . وكل هذه الوجوه باطلة لا يحتمل إرادة شيء منها إلا الرابع، وفسر عدم إتيانهم تأويلها بجهاهم حقيقة وحكمها، وهو باطل وناهيك بحمائها على الحروف المفردة في أول السور وهي ليست بكلام فيكذب أو يصدق. ثم قال : « قال أهل التحقيق قوله (ولما يأتهم تأويله) يدل على أن من كان غير عارف بالتأويلات وقع في الكفر والبدعة لأن ظواهر النصوص قد يوجد فيها ما تكون متعارضة فإذا لم يعرف الإنسان وجه التأويل فيها وقع في قلبه أن هذا الكتاب ليس بحق . أما إذا عرف وجه التأويل طبق التنزيل على التأويل ، فيصير نوراً على نور يهدي الله لنوره من يشاء » اهـ

وهذا القول الذي عزاه إلى أهل التحقيق باطل بعيد عن الحق ، وحكم على كتاب الله بما عابه من اتباع الظن ، وما أهل التحقيق في عرفه إلا بنظر علم الكلام المبتدع وهو ظلمات بعضها على بعض ، ما ولد البدع المضلة إلا الاشتغال به ، وهذا التأويل الذي قال فيه ما قال لا يصح في اللغة ولا أصل له في كتاب الله ولا في سنة رسوله ﷺ ولا في المأثور عن أصحابه [رض] ولا عن أئمة سلف الأمة كما ستراه قريباً . وأما التأويل في لغة القرآن فله معنى واحد لا معنى له سواه وهو عاقبة الشيء . وما له الذي يؤول إليه من بيان مصداقه المراد منه بالفعل كما قلنا آنفاً ويناه بالتفصيل في تفسير آية المحكمات والمتشابهات من سورة آل عمران التي أطال الرازي في الكلام عليها فأخطأ محجة الصواب، وحرّم الحكمة وفصل الخطاب، فكان أجدر بالخطأ هنا وقد اتزم الاختصار ، وأوضح الأدلة على ذلك بعد ما علمت من حمل التأويل على المعنى الاصطلاحي غفلته عن نفي إتيانه بحرف لما الدال على توقعه ، إذ معناه أن تأويله لم يأتهم إلى الآن وإتيانه متوقع بعده ، وغفلته عن تشبيه تكذيبهم بتكذيب من

قبلهم في الجملة الآتية. والمتبادر منه أنه وعيد الله إياهم على تكذيبهم لرسوله ﷺ بالعذاب في الدنيا قبل الآخرة ونصره عليهم، وهو ما فسر الآية به امام المفسرين أبو جعفر محمد بن جرير الطبري قال :

« يقول تعالى ذكره: ما بهؤلاء المشركين يا محمد تكذيبك ولكن بهم التكذيب بما لم يحيطوا بعلمه مما أنزل الله عليك في هذا القرآن من وعيدهم على كفرهم بربهم (ولما يأتهم تأويله) يقول ولما يأتهم بعد بيان ما يؤول ذلك الوعيد الذي توعدهم الله في هذا القرآن (كذلك كذب الذين من قبلهم) يقول تعالى ذكره كما كذب هؤلاء المشركون يا محمد بوعيد الله، كذلك كذب الامم التي خلت قبلهم بوعيد الله إياهم على تكذيبهم رسلكم وكفرهم بربهم » اهـ وكذلك قال البنوي في تفسير التأويل لانه محدث فقيه غير متكلم وتبعهما الجلال هنا في آية الاعراف الآتي ذكرها الوصف الثالث التشبيه الذي ذكرناه في الاجمال وهو قوله تعالى ﴿ كذلك كذب

الذين من قبلهم ﴾ شبه تكذيب مشركي مكة لمحمد ﷺ بتكذيب من قبلهم من مشركي الامم لرسلكم بما لم يحيطوا بعلمه قبل أن يأتهم تأويله من عذاب الله الذي أوعدهم به ، كما ترى في قصصهم المفسرة في السور العديدة ولا سيما سورة الشعراء المبدوءة فيها بقوله (٢٦ : ١٠٥) كذبت قوم نوح المرسلين * كذبت عاد المرسلين * كذبت ثمود المرسلين) ثم ذكر لفظ التكذيب في وعيدهم كقول هود لقومه (١٣٥) : إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم - إلى قوله - فكذبوه فأهلكناهم إن في ذلك لآية (الخ و قول صالح لقومه بعدهم إذ أتتهم آية الناقة (١٥٦) ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم ١٥٧ فمقروها فأصبحوا نادمين ١٥٨ فأخذهم العذاب (الخ فهذا تأويله الراد من قوله هنا ﴿ فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ﴾ أي فانظر أيها الرسول أو العاقل المعبر كيف كان عاقبة الظالمين لانفسهم بتكذيب رسلكم، وهو تأويل وعيدهم لهم ، لتعلم مصير الظالمين من بعدهم، وهذه العاقبة مبينة بالاجمال في قوله (٢٩ : ٤٠) فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الارض ومنهم من أغرقنا ، وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا

أنفسهم يظلمون) وسيأتي ما يؤيد ماقررناه كله قريبا في الآيات (٤٦ — ٥٥)
وقد أندر الله قوم محمد ﷺ ما نزل باللام قبلهم في الدنيا بهذه الآية وغير هامن
هذه السورة وفي سور كثيرة كما أندرهم عذاب الآخرة، وكذب المعاندون المقلدون في
كل منهما ظانين أنه لا يقع، لا غير فاهمين لعناؤه أو لاجرازه، ولكن قضت حكمته تعالى
حفظ قومه من تكذيب أكثرهم، وما يقتضيه من أخذ عذاب الاستئصال لهم. وارجع إلى
قوله تعالى في سورة الاعراف (٥٢:٧) هل ينظرون إلا تأويله؟ يوم يأتي تأويله يقول
الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق) الخ تعلم علم اليقين أن ماقررناه هو
حق اليقين الذي لا تقبل غيره لغة القرآن، وأنه هو الذي يتفق مع سائر الآيات، وأن
ما قرره الرازي هو الباطل والضلال المبين، الذي تدحضه الآية وما في معناها مما ذكرناه
بعضه وأشرنا إلى بعض، فعسى أن يكون قد استجاب الله دعاء شيخنا رحمه الله فينا إذ قال:
ويخرج وحي الله للناس عاريا من الرأي والتأويل يهدي ويألمهم

(استطراد في المتكلمين وتفسير امامهم الرازي)

اعلم ان الفخر الرازي كان إمام نظار المتكلمين والاصوليين في عصره، وأن
علماء النظر اعترفوا له بهذه الامامة من بعده، ولكنه كان من أئمتهم حظا من علم السنة
وآثار الصحابة والتابعين، وأئمة السلف من المفسرين والمحدثين، بل وصفه الحافظ
الذهبي امام علم الرجال في عصره بالجهل بالحديث، فلم يجد التاج السبكي ما يدافع
به عنه لأنه من أئمة الاشعرية الشافعية إلا الاعتراف بأنه لم يشتغل بهذا العلم وليس
من أهله فلا معنى للطعن عليه بجهله ولا بذكره في رجاله المجروحين ولا العدول،
أما علمه بالكلام فقد قال بعض العارفين في وصف كتابه (محصل أفكار المتقدمين
والتأخرين، من الفلاسفة والمتكلمين) ما يثبتك بحقيقته عند المحققين، وهو:

محصل في أصول الدين حاصله من بعد تحصيله علم بلا دين
رأس الغواية في العقل السقيم فما فيه فأكثره وحي الشياطين
ولشيخ الاسلام ابن تيمية مصنف مستقل في نقض (كتابه أساس التقديس) فيه
ولولا أن تصدى لأحياء شبهاته في هذا العهد اثنان من مكثري النشر في

الصحف للمباحث الدينية، أحدهما شيخ أزهرى، ووثنيها كاتب مدني، لما أبدينا وأعدنا في تنفيذ بدعه الكلامية المخالفة لنصوص الكتاب والسنة التي يحجها بأنها، لأن بضاعة الاول نظريات متكلمي القرون الوسطى على قلة من يفهمها منهم اليوم، وبضاعة الثاني نظريات بعض الافرنج، ولما رأينا نظرية الرازي في التأويل تؤيد فهمها الباطل أراد الثاني ترويحها في سوق العامة بتسميته امام المفسرين، وما كان إلا امام المتكلمين، وأما تفسيره فقد اشتهر قول بعض العلماء فيه: إن فيه كل شيء إلا التفسير كما في كتاب الاتقان. والحق أن هذه مبالغة في الانكار على ما هو الغرض الذي امتاز به تفسيره وهو نقل آراء الفلاسفة والمتكلمين، وحجج المعترلة والاشاعة.

فلينظر القاري المستقل الفهم كيف فعل تقليد المسلمين لهؤلاء المتكلمين في دينهم: ينقل لهم متكلم مفسر عن متكلم مجهول زعم أنه من أهل التحقيق أن هذه الآية من القرآن التي لم يعرف لغتها ولا معناها الناقل ولا المنقول عنه «تدل على أن من كان غير عارف بالتأويلات (التي ابتدعوها) وقع في الكفر والبدعة» وعلى ذلك بما هو باطل من وجوه نكتفي منها بما لا يخفى على عامي ذكي ولا بائد، وهو أن المؤمن بالنصوص إذا رأى فيها ما هو متعارض فانه إما أن يبحث عن وجوه الترجيح بين المتعارضات بمقتضى القواعد التي وضعها علماء الاصول في (كتاب المعارض والترجيح) إذا رأى أنه أهل لذلك وفي حاجة إليه، وإما أن يترك هذا البحث إلى أهله معتقداً أنهم أعرف به، ولا يكون هذا انتعارض الصوري سبباً لشكه في القرآن أو أنه ليس بحق بما يكون به مبتدعاً أو كافراً، ولو صح قول هذا القائل لوجب تحريم قراءة كتاب الله وكتب السنة على كل من لم يأخذ بقاعدتهم هذه ويتعلم علم الكلام وعلم أصول الفقه قبل تلاوته لاجلها، وإن كان عالماً بهدي السلف وأقوال أئمتهم، وهذا تقييد لكتاب الله تعالى وصد عنه بتأويلاتهم المبتدعة بعد عصر النور الاول لهذه الامة، ويلزم به أن يحكموا على أكثر من يقرءونه بالكفر والبدعة، والحق أن هذه التأويلات التي فتنوا بها هي المثار الاكبر للشكوك والبدع التي هي بريد الكفر، وأن كتاب الله كله هدى ونور، وأصح بيان له سنة النبي ﷺ وخير المهتدين بها مالف الامة وحفاظ السنة

٣٧٨ عدم ضرر الوسوسة في الإيمان ورجوع كبار المتكلمين إلى مذهب السلف

وجملة القول أن مذهب السلف الصالح وجوب الإيمان بكل ما وصف الله تعالى به نفسه في كتابه وما صح من وصف رسوله ﷺ له على ظاهره من غير تعطيل للمعنى اللغوي بجمله كاللغو ، ولا تمثيل بتشبيهه الله بخلقه يعد من النقص ، ولا تأويل يخرج الظاهر المتبادر عن معناه بمحض الرأي .

واعلم أيها القارئ أن الخواطر التي تعرض لبعض الناس مما لا يليق به تعالى لا تنقض إيمان الموقن بكتابته وصدق رسوله المنيع لهما ، كما ورد في الأحاديث الصحيحة فيمن يوسوس له الشيطان من خالق الله؟ فيمن أوصى بحرق جثته اثلاً يبعثه الله ويمدبه . قال عبد الله بن مسعود (رض) سئل رسول الله ﷺ عن الوسوسة فقالوا إن أحدنا لم يجد في نفسه ما لأن يحترق حتى يصير حمة (أي حمة) أو يخرج من السماء إلى الأرض أحب إليه من أن يتكلم به ؟ قال «ذلك محض الإيمان» رواه مسلم ، يعني أن الوسوسة لا يسلم أحد منها وإن كراهة المؤمن لها دليل على إيمانه المحض الخالص هذا وإن أكثر كبار النظار من المتكلمين قد رجعوا إلى مذهب السلف في

الإيمان بظاهر النصوص وفي مقدمتهم إمام الحرمين كما نقله عنه الحافظ ابن حجر في شرحه للبخاري (من كتاب التوحيد) ومن قبله والده الإمام الجويني الذي نقل السبكي في ترجمته أن علماء عصره قلوا لم يبعث الله تعالى نبياً في هذا العصر لكان الجويني ، ومن بعدهما أبو حامد الغزالي في آخر عمره ، ونقل مثل هذا عن الفخر الرازي أيضاً رحمهم الله ورحمنا ، وعفا عنهم وعنا ، وقد صرح الغزالي من قبل رجوعه إلى مذهب السلف أن علم الكلام ليس من علوم الدين وإنما هو لحراسة العقيدة كالحرص للحاج (وأقول) إنما راجت كتيبه في عصرهم ، لأنها وضعت للرد على ملاحدتهم ومبتدعتهم ، ولا تنفع في الرد على ملاحدة هذا العصر ولا مبتدعته كما بيانه صاراً ،

وأما تلقين المسلمين أنفسهم الاعتقاد وقواعد الإسلام فيجب أن يعتمد فيها على آيات القرآن والمأثور في الأحاديث وسيرة الصحابة وعلماء التابعين وأئمة الهدى قبل ظهور البدع ، ومن أكبر الضلال أن يعتمد فيها على أقوال المتكلمين ، فتجعل أصلاً ترد إليها آيات القرآن المبين ، بإثارة لبياهم على بيانه ،

وإن تعجب فعجب جماعهم عقيدة السنوسية الصغرى الأساس الأول لتعليم

التوحيد في الأزهر وغيره وإنما هي نظريات كلامية غير شرعية وقد أخطأ محشوها
وشراحها في جعل التوحيد عبارة عن نفي النكمت المتصل والنكمت المنفصل في ذات الله
وصفاته وأفعاله، أو المنفصل في أفعاله فقط، وهي فلسفة مبتدعة لا يعرفها الشرع
ولا تدل عليها اللغة. كما أخطأ مؤلفها في تفسير كلمة التوحيد « لا إله إلا الله » بـلازم
من لوازمها لا يتضمن معناها الذي لأجله جعلت عنوان الدعوة إلى الإسلام، وتحكم
في صفات الله بالظن الذي ذمه الله بأنه لا يعني من الحق شيئاً، فزعم أن السمع والبصر
يتعلقان بجميع الموجودات، يعني أنه تعالى يسمع ذرات الجواهر وأعراضها كاللوان
والصفات، ويرى الأصوات ويبصر اللغات. غافلاً عن ذلك وعن قوله (وإن تقولوا
على الله ما لا تعلمون) ومع هذا زعم بعض علماء الأزهر أن إبراهيم خليل الرحمن ﷺ
يقرأ هذه العقيدة في الآخرة لأولاد المسلمين، وهو إمام الموحدين، الذي آناه
حجته في الدنيا على قومه وهم علماء عصره وعلى سائر العالمين، واطمئنان القلب
بكيفية أحيائه تعالى للميتين، فكيف يحتاج بعد كشف الحجب في الآخرة إلى
نظريات السنوسي ومن فوقه من نظار المتكلمين ؟

وقد صرح السيد الألوسي تبعاً لغيره من المحققين العارفين، بما حققناه هنا في علم الكلام
والتكلمين، عند الكلام على آية الظن في باب الإشارة من هذا السياق فقال ما نصه:
(وما يتبع أكثرهم إلا ظناً) ذم لهم بعدم العلم بما يجب لمولاهم وما يمتنع وما
يجوز، ولا يكاد ينجو من هذا الذم إلا قليل، ومنهم الذين عرفوه جل شأنه به
لا بالفكر، بل يكاد يقصر العلم عليهم، فإن أدلة أهل الرسوم من المتكلمين وغيرهم
متعارضة، وكلماتهم متجاذبة، فلا تكاد ترى دليلاً مسلماً من قبل وقال، وإنزاع وجدال،
والوقوف على علم من ذلك مع ذلك أمر أبعد من العبوق، وأعز من بيض الأنوق.

لقد طفت في تلك المعاهد كلها وسرحت طرفي بين تلك المعالم
فلم أر إلا واضعاً كف حائر على ذقن أو قارعاً سن فادم
فمن أراد النجاة فليفعل ما فعل القوم ليحصل له ما حصل لهم، أولاً فليتبع السلف
الصالح فيما كانوا عليه في أمر دينهم، غير مكثر بمقالات الفلاسفة ومن هذا
حدوهم من المتكلمين التي لا تزيد طالب الحق إلا شكاً اه

(٤٠) وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ ، وَرَبُّكَ
أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ (٤١) وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ إِنِّي عَمَلِي وَأَنْتُمْ عَمَلُكُمْ ،
أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ

لما بين تعالى في الآيات السابقة حال مشركي قريش في اتهام النبي ﷺ
بافتراء القرآن وتكذيبهم بوعيده لهم ، بين في هاتين الآيتين أقسام هؤلاء القوم
في تكذيبهم ومستقبل أمرهم أو حالهم ومستقبلهم في الإيمان ، وفي عمل المكذبين
بمقتضى تكذيبهم ، وعمل النبي ﷺ بمقتضى رسالته إلى أن يأتي أمر الله فيهم فقال :

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ ﴾ يقول تعالى لرسوله خاتم
النبيين ﷺ ان قومك لن يكونوا كأولئك الظالمين من قبلهم الذي كذبوا
رسلمهم الا قليلا منهم فكان عاقبتهم عذاب الاستئصال بل سيكون قومك قسمين :
قسم سيؤمن بهذا القرآن وقسم لا يؤمن به أبدا ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴾ في
الأرض بالشرك والظلم والبغي لفساد فطرتهم وفقد الاستعداد للإيمان وهم الذين
يعذبهم في الدنيا فيخزيهم وينصرك عليهم ويخزيهم في الآخرة بفسادهم وقيل
ان الآية في بيان حالهم عند نزول هذه السورة وهي ان بعضهم يؤمن به في
الباطن وانما يكذبه في الظاهر عنادا واستكبارا ، ومنهم من لا يؤمن به جهلا
وتقايذا ، ومن هذا الفريق من فقد الاستعداد للإيمان وهم الأقلون وسيأتي وصف
حالهم في الآيات ٤٢ - ٤٤ قريبا وله وجه . وأما الذي ليس له وجه صحيح فهو
قول من فسروا التأويل بالمعنى الاصطلاحي الذي بينا فساده : ان هذا بيان لحالهم
بعد إتيان التأويل المتوقع أي سيكون منهم حينئذ مؤمن وكافر ، لما بيناه من انه
غير مراد ولا معنى لآتيانه ، وانه متى جاء تأويله المراد وهو وقوع العذاب يكون
الإيمان به اضطراريا عاما وهو النصوص في قوله تعالى (٧: ٥٢) يوم يأتي تأويله يقول

[يونس ١٠] تشبيه من يستمع الى الرسول ولا يعقل ما يسمع بالأصم ٣٨١

الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق) وتأويله بعذاب الاستئصال أو بقيام الساعة سواء في أنه لا ينفعهم معه لايمان إذ لا يقبل منهم بل يقال لهم حينئذ (آلآن وقد كنتم به تستمعلون) كما يأتي في الآية (٥١) وانظر تفصيله في آخر سورة المؤمن (٨٢.٤٠ - ٨٥) وسنبين في تفسير الآية (٤٦) عدم وقوع عذاب الاستئصال على هذه الامة. وفي الآية تسليية له ﷺ بؤكدها ما بعدها وهو :

﴿ وإن كذبوك فقل لي عملي ولکم عملکم ﴾ أي وإن أصرروا على تكذيبهم فقل لهم لي عملي بمقتضى رسالتي وهو البلاغ المبين، والانذار والتبشير، وما يستلزمه من العبادة والاصلاح، وما أنا عليكم بمسيطر ولا بجبار، ولکم عملکم، بمقتضى تكذيبكم وشرکم، وهو الظلم والفساد، الذي تجزون به يوم الحساب، ويقال لکم (هل تجزون الا بما كنتم تكسبون) كما يأتي في الآية (٥٢) من هذا السياق، وهذا كقوله تعالى (٨٤: ١٧) قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا) ﴿ أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون ﴾ فلا يؤخذ الله أحداً منا بعمل الآخر . وهذا كقوله (١١ : ٣٥) أم يقولون افتراء قل ان اقربته فعلي إجرامي وأنا بريء مما تجرمون) وقوله (٢٦ : ٢١٦) فان عصوك فقل لي بريء مما تعملون)

(٤٢) وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَآوَى كَانُوا لَا يَتْلُونَ (٤٣) وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ (٤٤) إِنْ اللَّهُ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ

لما أنبأ الله رسوله بان من قومه من لا يؤمن بهذا القرآن حلا ولا استقبالا إذ لا ينفعهم البيان مهما يكن ناصعاً ، ولا ينفعهم البرهان وإن كان قاطعاً ، وإن الذي عليه في المصرين على تكذيبه منهم بعد ما جاءهم به من الآيات ، التي دمجهم

بالحجج البينات ، ان يتبرأ منهم ، وينتظر أمر الله فيهم ، كان من شأن هذا النبأ أن يثير عجبه لغرابته في نفسه ، وأن يسوءه لما يشير إليه من انتقام الله منهم ، بين له مثل الذين فقدوا الاستعداد للإيمان ، وعلمه ما لم يكن يعلمه من سنة الله تعالى فيهم ، وكون مصيبتهم من أنفسهم ، فلا حول له ولا قوة على هدايتهم ، فقال :

﴿ ومنهم من يستمعون إليك ﴾ أي يصيخون بسمعهم مصغين إليك إذا قرأت القرآن ، أو بينت ما فيه من أصول الإيمان والاحكام ، ولكنهم لا يسمعون إذ يستمعون ، إذ لا يتدبرون القول ولا يعقلون ما يراد به ، ولا يفقهون ما يرمى إليه ، لان الاستماع إليك مقصود عندهم لذاته لا لما يراد به ، وهي بلاغته في غرابة نظمه ، وجرس الصوت بترتيبه ، كمن يستمع الى طائر يغرد على فئنه ، ليستمتع بصوته لا ليفهم منه ، كما قال (٢ : ٢١) ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون ٣ لاهية قلوبهم) أو كالبهايم يصيح بها الراعي فترفع رؤوسها لاستماع صوته الذي راعها فصرفها عن رعيها ، كما قال (٢ : ١٧١) ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء . صم بكم عمي فهم لا يعقلون) أو كما قال (٦ : ٢٥) ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً) والقاعدة الطبيعية الشرعية ان الامور بمقتضاها . ونحن نرى كثيراً من الناس يقصدون قراء القرآن في ليالي رمضان أو في المآتم ليستمعوا الى فلان القاريء الحسن الصوت لفرض التملذذ بترتيبه وتوقيع صوته ، أو بلاغته ولا أحد منهم يتفهم بشي من مواعظ القرآن ونذره ، وحكمه وعبره ، ولا عقائده وأحكامه ، ومنهم المسلمون وغير المسلمين ، بل سمعت بأذني من غير المسلمين من يستمع القرآن ويعجب من شدة تأثيره وتأغله في أعماق القلب وهو لا يؤمن به ، ولهذا قال تعالى

﴿ أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون ﴾ هذا بالاستفهام للانكار ، يعني ان السماع النافع المستمع هو ما عقل به ما يسمعه وفقه وعمل بمقتضاه ، فمن فقد هذا كان كالاصم الذي لا يسمع ، وأنت أي الرسول لم تؤت القدرة على إسماع الصم أي فاقد حاسة السمع حقيقة ، فكذلك لا تستطيع الاسماع النافع للصم مجازاً وهم الذين لا يعقلون

ما يسمعون ولا يفقهون معناه فيبتدوا به. والبلاغة في ظاهر تعبير الآية وصفهم بفقد السمع والعقل معاً، وهو مجاز قطعاً، لأن من فقد الحس والعقل حقيقة لا يكون مكلفاً. وإذا كان المراد بالعقل المنفي هنا عقل الكلام وفهمه فهو يقتضي ثبوت السماع ونفي الصمم الحقيقيين

﴿ ومنهم من ينظر إليك ﴾ أي يوجه أشعة بصره إليك عند ما تقرأ القرآن ولكنه لا يبصر ما آتاك الله من نور الإيمان، وهيبة الخشوع للديان، وكل خلق والخلق، وأمارات الهدى والحق، وآيات التزام الصدق، التي عبر عنها أحد أولي البصيرة بقوله عند ما رأى النبي ﷺ : والله ما هذا بوجه كذاب، وقال فيه آخر لو لم تكن فيه آيات مبينة كانت بديته تنبيك بالخبر

وقال حكيم افرنجي : كان محمد يقرأ القرآن في حالة وله وتأثر وتأثير فيجذب به إلى الإيمان أضعاف من جذبته آيات موسى وعيسى (عليهم السلام) ومن فقد البصيرة العقلية والقلبية فيما يراه ببصره، فجمع بين وجود النظر بالحسي بالعينين، وعدم النظر المعنوي بالعقل، فهو محروم من هداية البصر وهي البصيرة التي يمتاز بها الإنسان عن بصر الحيوان، فكانت أعمى العينين ﴿ أفأنت تهدي

العمي ولو كانوا لا يبصرون ﴾ أي أنك أبها الرسول لست بقادر على هداية العمي بدلائل البصر الحسية، فكذلك لا تقدر على هدايتهم بدلائل العقلية، ولو كانوا أفاديين لنعمة البصيرة التي تدركها ؟ وقد أسند فعل الاستماع إلى الجمع لكثرة تفاوت المستمعين واختلاف أحوالهم فيه وأسند فعل النظر إلى المفرد لأنه جنس واحد، ولكنه أفرد السمع وجمع الأبصار في بضع آيات منها ٣١ من هذه السورة لما ذكرناه في تفسيرها والمراد من الآيتين أن هداية الدين كهداية الحس، لا تكون إلا للمستعد لها بهداية العقل، وأن هداية العقل لا تحصل إلا بتوجه النفس وصحة القصد، وهذا الصنف من الكفار قد انصرفت أنفسهم عن استعمال عقولهم في الدلائل البصرية والسمعية لا إدراك مطلب من المطالب مما وراء شهواتهم وتقاليدهم، وليس المراد أنهم فقدوا نعمة العقل الغريزي ولا نعمة الحواس بل استعمالها النافع - كما قل في سورة الاعراف (٧ : ١٧٩) ولقد ذرأنا لجنهم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها،

ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون) فراجع تفسيرها للاعتبار والانتباه وقد بين ذلك بيانا مستأنفا بما يبطل القول بالجبر فقال

﴿إن الله لا يظلم الناس شيئا﴾ أي الله تعالى لم يكن من شأنه ولا من سنته في خلق الناس أن ينقصهم شيئا من الأسباب التي بهتدون باستعمالها إلى ما فيه خيرهم ومنافعهم من الأعمال الاختيارية الموصلة إلى سعادة الدنيا والآخرة وهي الخواص والعقل وسائر القوى ، فالظلم هنا بمعناه اللغوي الأصلي وهو نقص ما تقتضي الخلقة الكاملة وجوده كقوله تعالى (كنا الجنتين آتت أكابها ولم تظلم منه شيئا)

﴿ولكن الناس أنفسهم يظلمون﴾ أي يظلمونها وحدها لأن عقاب ظلمهم واقع عليهم دون غيرهم ، فهم يجنون عليهم بكفرهم بما أنعم الله عليهم من هدايات المشاعر والعقل والدين ، وهو عدم استعمالها فيما منحهم إياها لأجله من اتباع الحق في الاعتقاد والهدى في الأعمال ، وهو الصراط المستقيم الموصل إلى سعادة الدارين ، المنجى من عذابهما وقرأ حمزة والكسائي (ولكن) بتخفيف النون و(الناس) بالرفع . وقد وضع الاسم الظاهر موضع الضمير إذ قال «ولكن الناس» ولم يقل «ولكنهم» للإشارة إلى أن هذا الظلم خاص بهم دون سائر أنواع الحيوان فانها لا تمدو في استعمال مشاعرهم وقواها ما خلقت لأجله من حفظ حياتها الشخصية والنوعية ، وأما الناس فقد يستعملونها فيما يضرهم في حياتهم الحيوانية الدنيوية ، وفي حياتهم الروحية الآخروية ، كما قال (أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا) وقدم المفعول (أنفسهم) على عامله لإفادة قصر هذا الظلم على أنفسهم دون غيرهم أو دون ربهم الذي كفروا بنعمه ، كما قال تعالى في بني إسرائيل من سورة البقرة (٥٤:٢) وسورة الأعراف (١٥٩:٧) وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) هذا هو المتبادر في هذا المقام من نفي ظلم الناس عن الله تعالى وقصره على أنفسهم ، ويحتمل أن يراد به أنه تعالى لا يظلمهم بمقابله لهم شيئا بأن يعاقبهم على غير ذنب أو يزيد على قدر الذنب ، ولكن الناس هم الذين يظلمون أنفسهم بذنوبهم دون غيرهم ، على قاعدة (٦ : ١٦٤) ولا تكسب كل نفس الا عليها) الآية فراجع

تفسيرها مع ما هنا ، وحاسب نفسك ، وذ كر غيرك ، ولا تجملوا هذه الحكم البليغة
حكاية للتسوية بهجو الكفار ، فانما هي حقائق هادية للموعظة والاستبصار

(٤٥) وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ
يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِإِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُتَعِدِينَ

هذه الآية للتذكير بمقدار ظلم المشركين لانفسهم وخسارتهم لها في الآخرة
بتكذيبهم النبي ﷺ وكفرهم بالقرآن ووعيدة لهم وغرورهم بدنياهم الحقيرة
مصدقا للآية التي قبلها ، قال

﴿ ويوم يحشرهم ﴾ أي واذكر أيها الرسول لهم أو أنذرهم يوم يحشرهم الله -
وهذه قراءة حمزة عن عاصم وقرأها الباقر (نحشرهم) بالنون أي نجمة بهم يبعثهم
بعد موتهم ونسوقهم الى مواقف الحساب والجزاء ﴿ كأن لم يلبثوا إلا ساعة من
النهار يتعارفون بينهم ﴾ أي كأنهم لم يمكثوا في الدنيا إلا مدة قليلة من النهار
ربما يعرف فيها بعضهم بعضاً كأولي القربى والجيران ثم زالت ، فإن الساعة
يضرب بها المثل في قلة المدة . فالتشبيه ببيان لحالهم في تذكرهم للدنيا . يعني ان هذه
الحياة الدنيا التي غرهم بمناجها الحقير الزائل قصيرة ستزول بعدايبهم أو موتهم ،
وسيقدر يوم القيامة قصرها بساعة من النهار لاتسع أكثر من التعارف القليل ،
كما قال في آخر سورة الاحقاف (٤٦ : ٣٥) كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا
إلا ساعة من نهار) وفي سورة الروم (٣٠ : ٥٥) ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون
ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون) وفي معناها قوله تعالى في آخر النازعات (٧٩)
عن الساعة (كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها) وفي آيات أخرى
أن أهل الموقف يختلفون في هذا التقدير أي بحسب اختلاف أحوالهم في ذلك
« تفسير القرآن الحكيم » « ٤٩ » « الجزء الحادي عشر »

اليوم فانه تعالى قال بعد آية سورة الروم (٥٦) وقال الذين أوتوا العلم والايان اقد لبثتم في كتاب الله الى يوم البعث . فهذا يوم البعث وليكنكم كنتم لاتعلمون) وفي سورة المؤمنون (٢٣ : ١١٢) قال كم لبثتم في الارض عدد سنين ١١٣٩ قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادين ١١٤ قال إن لبثتم إلا قليلا لو انكم كنتم تعلمون) وفي سورة طه يختلفون بين اليوم والعشر . وقيل إن المعنى انهم يتعارفون بينهم يوم يحشرون كأنهم لم يتفارقوا لقصر مدة الفراق ، وهم أقوال أخرى في التشبيه . يبطلها ما أوردنا من الآيات في شواهد

﴿ قد خسر الذين كذبوا ببقاء الله ﴾ اي خسروا السعادة الابدية إذ لم يستعدوا له بالايان وعمل الصالحات الزكية للنفس ، المرقية للروح ، بما تكون أهلا لكرامته ومثوبته ، ورضوانه الاكبر في جناته ، فأثروا عليها حياة الدنيا القصيرة الحقيرة ، المنقصة بالأكدار ، السريعة الزوال ، التي يقدرونها يوم الحشر بساعة من نهار والجملة بيان مستأنف منه تعالى لخسران الذين كذبوا ببقاء الله من أهل مكة وغيرهم ، ولذلك ذكرهم بصفاتهم المقتضية له وهي التكذيب وعطف عليه ﴿ وما كانوا مهتدين ﴾ فيما اختاروه لأنفسهم من إيثار الخسيس الفاني ، على النيس الخالد الباقي ، أو هي معطوفة على جملة « قد خسر » أي خسروا تجارتهم وأنفسهم ، وما كانوا مهتدين الى أسباب النجاة والرجح من الاعمال الصالحة التي هي ثمرات الايمان كما قال (٢ : ١٦) فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين) وقد تقدم ذكر الذين لا يرجون لقاء الله تعالى في الآيات ٧ و ١١ و ١٥ من هذه السورة ، وتقدم ذكر خسرانهم في سورة الانعام (٧ : ٣١) .

(٤٦) وَإِمَّا أُرْتَبَأْكَ بِمَعْضِ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ (٤٧) وَإِلَىٰ كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٤٨) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِنَّا كُنَّا صَادِقِينَ (٤٩) قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا

وَلَا تَقَعُ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَاهُمْ فَلَا
يَسْتَنْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٥٠) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ
عَذَابٌ بَدَأْتُمْ بِهِ أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ (٥١) أَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ
مَآوِعَ آمَنَتْمْ بِهِ؟ ءَالَمْ يَكُنْ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (٥٢) ثُمَّ قِيلَ
لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ
تَكْسِبُونَ (٥٣) وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ؟ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ أَهَقُّ
وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (٥٤) وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ
لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ
بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٥٥) أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٦) هُوَ يُحْيِي
وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ

هذه الآيات تنمة الرد على المشركين في تكذيب ما لم يحيطوا بعلمه ولما
يأتهم تأويله من العقاب الذي سبق في الآية ٣٩ وما بعدها

﴿إِذَا نَزَلَ بِكَ بَعْضُ الَّذِي نَعَدُ﴾ هذه جملة شرطية زيدت (ما) في حرف
الشرط (إن) ونون التوكيد في فعله فكان توكيده مزدوجا . والمراد بالآية
تأكيد وقوع ما وعد الله هؤلاء المشركين من العقاب في الدنيا والآخرة بشرطه
فيها لا يتخلف منها شيء في جملتها ، سواء أرى الله النبي ﷺ بعض القسم
الاول منه وشاهده ، أم توفاه قبل إراءته إياه . فإبهام الله تعالى إياه للحكمة المقتضية
له في أوائل البعثة من جهة قرب أو بعده ، ورؤيته ﷺ له وعدم رؤيته ،

لا يفيد شئنا ، وسنبين هذه الحكمة في إيهامه . فالمعنى وإن ترينك أيها الرسول بعض الذي نعدم من العقاب في الدنيا فذاك — وفيه إشارة الى أنه سيريه بعضه لا كله ، ﴿ أو تتوفينك ﴾ بقبضك إلينا قبل إرائتك إياه ﴿ فإلينا مرجعهم ﴾ وعلينا حسابهم ، حيث يكون القسم الثاني منه وهو عقاب الآخرة ، ويجوز أن يجعل هذا جواب الشرط بقسميه ، والمعنى فإلينا واحدنا يرجع أمرهم في الحالين ﴿ ثم الله شهيد على ما يفعلون ﴾ بعدك أو مطلقا فيجزئهم به على علم وشهادة حق ، والمراد أنه لا فائدة لهم مما حكاه تعالى عنهم في تربصهم موت النبي ﷺ واستراحتهم من دعوته ونذره بموته كما تراه في سورة الطور وآخر سورة طه ، فالعذاب واقع ماله من دافع

وقد ورد بمعنى هذه الآية قوله تعالى (٧٧: ٤٠) فاصبر إن وعد الله حق فاما ترينك بعض الذي نعدم أو نتوفينك فإلينا يرجعون) ويليهما آية بمعنى الآية التي تلي هذه ذكر فيها الرسل وكون آياتهم باذن الله لا من كسبهم ، والقضاء على أقوامهم بالهلاك بعدها ، ومنها قوله بعد آية في إرسال الرسل وكون آياتهم انما هي باذن الله ولكل أجل كتاب (٤٠: ١٣) وإما ترينك بعض الذي نعدم أو نتوفينك فانما عليك البلاغ وعلينا الحساب) وما بعدها في معنى السياق الذي هنا . وقوله (٤٣ : ٤١) فاما نذهبن بك فاننا منهم منتقمون ٤٢ أو ترينك الذي وعدناهم فاننا عليهم مقتدرون) وقبلها (أفأنت تسمع الصم أو تهدي العمي ومن كان في ضلال مبين) وهو بمعنى ما قبل هذه أيضا .

وقد أبهم أمر عذاب الدنيا في كل هذه الآيات وآيات أخرى فلم يصرح بأنه سيقع بهم ما وقع بالأمم التي كذبت الرسل من قبلهم وهو عذاب الاستئصال ولكنه أشار إليه في قوله (٢٣ : ٩٣) قل رب إما تريني ما يوعدون ٩٤ رب فلا تجعلني في اقوم الظالمين) أي كما هي سنتك في رسلك الاولين ، وقد أجاب الله دعاءه فقال (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم)

وحكمة هذا الإيهام التخويف من جميع أنواع الوعيد مع علمه تعالى ان عذاب الاستئصال لن يقع على قومه ﷺ لان شرطه أن يجيبهم ما اقترحوا من آية كونية

ويعصروا بعده التكذيب ولن يقع ، ولكن في آية يونس هذه إشارة الى ان الله تعالى سيرى رسوله بعد نزولها بعض الذي يعدم لا كله ، وقد أنجز له ذلك فأراده ما نزل بهم من القحط والمجاعة بدعائه عليهم ، ونصره عليهم أعظم النصر في أول معركة هاجمه بها رؤسائهم وصناديدهم وهي غزوة بدر وفي غيرها الى فتح عاصمتهم الكبرى أم القرى وإكمال الدين ودخول الناس فيه أفواجا ، وقد تقدم بيان ذلك كله في مواضعه

﴿ ولكل أمة رسول ﴾ أي انه تعالى جعل لكل أمة من الامم الخالية رسولاً بعثه فيها في وقت الحاجة اليه يبين لهم أصول دينه الثلاث : الايان بالله ، واليوم الآخر ، والعمل الصالح المناسب لحال زمنهم ﴿ فاذا جاء رسولهم ﴾ وقامت الحاجة عليهم ﴿ قضى بينهم بالقسط ﴾ أي قضى الله بينه وبينهم بالعدل ﴿ وهم لا يظلمون ﴾ في قضائه تعالى كما تقدم وسيأتي تأكيد قريباً .

﴿ ويقولون متى هذا الوعد ﴾ أي ويقول كفار قريش للنبي ومن اتبعه من المؤمنين : متى يقع هذا الوعد الذي تعدونا به ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ في قولكم ان الله تعالى سينتقم لكم منا وينصركم علينا ، أي في مثل قوله (١٩ : ٧٥) حتى اذا رأوا ما يوعدون إما العذاب وإما الساعة فسيعلمون من هو شر مكانا وأضعف جنداً (١٩ : ٧٥) حتى اذا رأوا ما يوعدون فسيعلمون من أضعف ناصراً وأقل عدداً ﴿ قل إن أدري أقريب ما توعدون أم يجعل له ربي أمداً ﴾ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً (الخ) وهنا لقن الله رسوله ﷺ الجواب بقوله ﴿ قل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً ﴾ أي اني بشر رسول لا أملك لنفسي فضلاً عن غيرها شيئاً من التصرف في الضرر فأدفعه عنها ولا النعم فأجلبه لها ، من غير طريق الاسباب التي يقدر غيري عايمها ، وليس منها إنزال العذاب بالكفار الماندين ، ولا هبة النصر للمؤمنين ﴿ إلا ما شاء الله ﴾ أي لكن ما شاء الله من ذلك كان متى شاء لا شأن لي فيه لأنه خاص بالربوبية دون الرسالة التي وظيفتها التبليغ لا التكوين . هكذا قال جمهور المفسرين ان الاستثناء هنا منقطع وله أمثال تقدم بعضها كقوله تعالى وهو من أظهرها الصريح في هذا

المقام (٧ : ١٨٨ قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء ، إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون) والاختلاف بين الآيتين في تقديم ذكر الضر على النفع وتأخيرها لاختلاف المقام ، فقد قدم الضر في آية يونس لأنها جواب للمشر كين عن ميعاد العذاب الذي أنذروا به ، وهو من الضر ، وقدم النفع في آية الاعراف لان المقام بيان الحقيقة في نفسها ، وهو ان الرسول لا يملك لنفسه شيئا من التصرف في الكون بغير الاسباب العامة فضلا عن ملكه لغيره ، والمناسب في هذا تقديم النفع لأنه هو المقصود بالذات من تصرف الانسان وسعيه لنفسه . وقيل ان الاستثناء متصل وحينئذ يكون المنفي المستثنى منه عاما لما يملكه الانسان بالاسباب العادية فيكون المعنى إلا ما شاء الله تعالى ان أملكه بما أعطاني من الكسب الاختياري مع تيسير أسبابه لي ، وأما الآيات الخارقة للعادة فهي لله وحده ، لا بما يملكه رسوله

وقد أجاب سبحانه عن هذا السؤال بقوله ﴿ لكل أمة أجل ﴾ لبقائها وهلاكها علمه الله وقدره لها لا يعلمه ولا يقدر عليه غيره ﴿ اذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ أي فلا يملك رسولهم من دونه تعالى أن يقدمه ولا أن يؤخره ساعة عن الزمان المقدر له وإن قات ، ولا أن يطلب ذلك منه تعالى ، وهو معنى ما تدل عليه السين والتاء في الاصل - وقد حققنا معنى هذا النص في آية سورة الاعراف (٧ : ٣٤) باغظه فاستغرق أربع ورقات من جزء التفسير الثامن فليد اجمعه من شاء ، إلا أنه قال هنالك (فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون) الخ وقال هنا (اذا جاء أجلهم فلا يستأخرون) الخ والفرق بينهما ان ما هنا أبلغ في نفي تاخير الوعيد لانه تفنيد لاستعجالهم به ، وذلك أنه جعل الجملة الشرطية وصفا للأجل مرتبطا به مباشرة لا يتخلف عنه ، وما هنالك إخبار بآجال الامم مبتدأ وما بعده تفريع عليه ، فهو لا يدل على لزومه له بلا مهمة كالذي هنا . وقد تكرر هذا السؤال من المشر كين مع جوابه في سور أخرى ، وأشبهه بما هنا سياق سورة النمل وأجيب فيها بقوله

يونس ، ١٠ تجهيل الخرافيين بدعوى التصرف في السكون الانبياء والصالحين ٢٩١

(٢٧ . ٧٢ قل عسى أن يكون ردف لكم بعض القدي تستهجلون) وهو من ردفه اذا لحقه وتبعه ، وعدي باللام لتأكيد أو تضمينه معنى يناسبه

وقد بلغ من جهل الخرافيين من المسلمين بتوحيد الله أن مثل هذه النصوص من آيات التوحيد لم تصد الجاهلين به منهم عن دعوى قدرة الانبياء والصالحين حتى الميتين منهم على كل شيء من التصرف في نفعهم وضررهم مما لم يجعله الله تعالى من المكسب المقدور لهم بمقتضى سننه في الاسباب ، بل يعتقدون أن منهم من يتصرفون في السكون كله ، كالذين يسمونهم الاقطاب الاربعة . وان بعض كبار علماء الازهر في هذا العصر يكتب هذا حتى في مجلة الازهر الرسمية (نور الاسلام) فيفتي بجواز دعاء غير الله من الموتى والاستغاثة بهم في كل ما يعجزون عنه من جلب نفع ودفع ضرر ، وألف بعضهم كتابا في إثبات ذلك وكون الميتين من الصالحين ينفعون ويضررون بانفسهم ، ويخرجون من قبورهم فيقضون حوائج من يدعونهم ويستغيثون بهم . قل في فتح البيان بعد نقله القول الاول في الاستثناء عن أئمة المفسرين وترجيحه مانعه :

« وفي هذا أعظم وازع وأبلغ زاجر لمن صار ديدنه وهجيره المناداة لرسول الله ﷺ أو الاستغاثة به عند نزول النوازل التي لا يقدر على دفعها إلا الله سبحانه . وكذلك من صار يطلب من الرسول ﷺ مالا يقدر على تحصيله إلا الله سبحانه ، فان هذا مقام رب العالمين ، الذي خلق الانبياء والصالحين وجميع المخلوقين ، ورزقهم وأحياهم ويميتهم ، فكيف يطلب من نبي من الانبياء أو ملك من الملائكة أو صالح من الصالحين ما هو عاجز عنه غير قادر عليه ؟ ويترك الطلب لرب الارباب القادر على كل شيء الخالق الرازق العطي المانع ؟ وحسبك بما في هذه الآية من موعظة فان هذا سيد ولد آدم وخاتم الرسل يأمره الله بأن يقول لعباده (لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً) فكيف يملكه لغيره ؟ وكيف يملكه غيره ممن رتبته دون رتبته ومنزلته لا تبلغ الى منزلته . لنفسه ، فضلا عن أن يملكه لغيره ؟

« فيا عجباً لقوم يمسكون على قبور الاموات الذين قد صاروا تحت اطباق الثرى ، ويطلبون منهم من الحوائج مالا يقدر عليه إلا الله عز وجل ؟ كيف لا يتيقظون لا

وقعوا فيه من الشرك ، ولا ينتبهون لما حل بهم من المخالفة لمعنى لا اله الا الله ، ومدلول (قل هو الله أحد) « وأعجب من هذا اطلاع أهل العلم على ما يقع من هؤلاء ولا ينكرون عليهم ، ولا يحولون بينهم وبين الرجوع الى الجاهلية الاولى ، بل الى ما هو أشد منها . فان أولئك يعترفون بان الله سبحانه هو الخالق الرازق ، المحي المميت ، الضار النافع ، وانما يعملون أصنامهم شفعاء لهم عند الله ومقربين لهم اليه ، وهؤلاء يعملون لهم قدرة على الضر والنفع ، وينادونهم تارة على الاستقلال ، وتارة مع ذي الجلال ، وكفالك من شر سماعه ، والله ناصر دينه ، ومظهر شريعته من أضرار الشرك وأدناس الكفر . ولقد توسل الشيطان أخزاه الله بهذه الذريعة الى ما تقر به عينه وينشأ به صدره من كفر كثير من هذه الامة المباركة (وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا) انا لله وانا اليه راجعون » اهـ

﴿ قل أرأيتم إن أتاكم عذابه بيانا أو نهارا ﴾ أي قل لهم أيها الرسول أخبروني عن حالكم وما يمكنكم فعله ان أتاكم عذابه الذي تستعجلون به في وقت مبيتكم في الليل أو وقت اشتغالكم بلموكم وأعبكم أو أمور معاشكم بالنهار ، وهو لا يعدوها (كما تقدم في الآيات ٤ و ٩٧ و ٩٨ من سورة الاعراف ٧)

﴿ ماذا يستعجل منه المجرمون ﴾ أي شيء أو أي نوع يستعجل منه المجرمون المكذبون الآن ؟ أعذاب الدنيا أم قيام الساعة ؟ أيا ما استعجلوا فهو حماقة وجهالة ، وقيل ان المعنى ماذا يستعجل منه المجرمون منكم إن أتاكم ، أي ان جملة الاستفهام جواب للشرط فيما قبلها ، وفيه بحث للنحاة الذين أوجبوا اقتران مثل هذا الجواب بالفاء وخالفهم غيرهم لا تعرض له ، وقد تقدم في سورة الانعام (٦ : ٤٧ قل أرأيتم ان أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة هل يهلك إلا القوم الظالمون ؟) وتقدم في تفسيرها وتفسير ما قبلها ان الاستفهام في (أرأيتم) و (أرأيتمكم) مستعمل في اللغة بمعنى أخبروني عن حالكم وما يكون من عملكم ان أتاكم ذلك ؟

﴿ أنتم اذا ما وقع آمنتم به ﴾ قرأ الجمهور (ثم) بالضم وهو حرف عطف يدل على الترتيب والتأخر والتراخي ، وقريء بالفتح وهو اسم إشارة بمعنى هنالك .

قال ابن جرير الطبري ومعنى قوله (أنتم) في هذا الموضع أنتملك ، وأيس «نم» ههنا التي تأتي بمعنى العطف اه ولم يضبطها بفتح الشاء فظاهر قوله ان المضمومة تأتي ظرفاً أيضاً وهذا لم يرو عن أحد من العرب ، بل قال ابن هشام في المغني وقد نقل عنه : وهذا وهم اشتبه عليه نم المضمومة الشاء بالمفتوحة اه

وأما على قراءة الجمهور فهذا استفهام آخر معطوف على فعل مقدر بعد الهمزة علم مما قبله من إنكار استعجال مجرميهم بالعذاب ، كما يقدر مثله بعد حرف الاستفهام الداخل في مثل قوله (أو عجبتم ان جاءكم ذكر من ربكم ؟) وقوله (أنحسبتم أنما خلقناكم عبثاً ؟) وتقدير الكلام ، أيستعجل بالعذاب مجرموكم الذين هم أحق بالخوف منه بدلا من الايمان الذي يدفعه عنهم وعنكم ، ثم اذا وقع بالفعل آمنتم به إذ لا ينفع الايمان ، لانه صار ضروريا بالمشاهدة والعيان ، لا تصديقا للرسول عليه السلام ، وقيل لكم حينئذ من قبل الله تعالى تقرعوا وتوبوا ﴿ آلا ن﴾ آمنتم به اضطرارا ﴿ وقد كنتم به تستعجلون ﴾ تكذبا به واستكباراً ؟ وقرأ نافع (الآن) بحذف الهمزة وإلقاء حركتها على اللام ، والجملة حالية ، والاستعجال يتضمن المبالغة في التكذيب المقابل للايمان ، وسيأتي في هذه السورة إيمان فرعون عند ادراك الفرق إياه وأنه يقال له (آلا ن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين)

﴿ ثم قيل للذين ظلموا ﴾ (قيل) هذه معطوفة على قيل المقدرة قبل (آلا ن وقد كنتم به تستعجلون) أي ثم قيل للذين ظلموا أنفسهم بالكفر بالرسالة والوعد والوعيد ، وما يترتب عليه من الفساد والضلال البعيد ﴿ ذوقوا عذاب الخلد ﴾ الخلد كالحلود مصدر خلد الشيء اذا بقي على حالة واحدة لا يتغير ، وخلد الشخص في المكان اذا طال مكثه فيه ، لا يرحل ولا هو بصدد التحول عنه . وظاهر اضافة العذاب الى الخلد أن المراد به البقاء على حالة واحدة مؤلمة ، ويحتمل إرادة العذاب الخالد الدائم وهو الموافق للآيات الكثيرة المطلقة في الاكثر والمقيدة بمشيئة الله تعالى في سورة الانعام (١٢٨ : ٦) وقد تقدم تفسيرها ، وفي سورة هود وسيأتي .

﴿ هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون ﴾ أي لا تجزون إلا بما كنتم تكسبون به باختياركم من الكفر والظلم والفساد في الأرض ، والعزم على اثبات عليه وعدم التحول عنه ، وليس فيه شيء من الظلم ، لأنه أثر لازم لتدسية النفس وفسادها بالظلم ، حتى لم تعد أهلاً لجوار الرب عز وجل وليس عذاباً أنفياً من خارجها ، وتقدم بيانه في تفسير قوله تعالى (٦ : ١٣٩ سيجزيهم وصفهم)

﴿ ويستنبئونك أحق هو ؟ ﴾ النبي الخبر المهم ذو الفائدة العظيمة والاستنباء طلبه ، وهذا إخبار عن بعض الكفار والمكذابين فأنهم لم يكونوا على يقين من تكذيبهم وإنما كانوا ظانين مستبعدين ، بين معاندين ومقلدين ، وقد تقدم في هذا السياق قوله تعالى (وما يتبع أكثرهم إلا ظناً) والمعنى ويسألونك أيها الرسول أن تنبئهم عن هذا العذاب الذي تعدم به في الدنيا والآخرة أحق هو سيقع بالفعل ؟ أم هو إرهاب وتخويف ؟ ﴿ قل إي وربي إنه لحق ﴾ إي بكسر الهمزة وسكون الياء الخفيفة حرف جواب وتصديق بمعنى نعم ، وإنما يستعمل مع القسم ، أي نعم أقسم لكم بربي إنه لحق واقع ، كما قال في أول سورة الطور بعد القسم (إن عذاب ربك لواقع)

ماله من دافع) وقد أكد هذا بالقسم وبأن مع الجملة الاسمية ﴿ وما أنتم بمعجزين ﴾ الله تعالى عن إنزاله بكم ، ولا بفائتيه هرباً منه ، وقد علم مؤمنوا الجن ما جهلهم إذ قالوا كما حكى الله عنهم (وأنا ظننا أن لن نعجز الله في الأرض ولن نعجزه هرباً) وقد استشكل بعض المفسرين السؤال باستبعاد أن يكون الاستفهام حقيقياً من المكذابين ، والجواب بزعمهم أن تأكيدهم بالقسم وغيره من المؤكدات اللفظية لا يقنع السائلين ، ومن عرف أخلاق العرب في زمن البعثة لم يستشكل السؤال إلا أن يكون السائلون من المعاندين للرسول ﷺ فينبغي أن يكون الاستفهام للتهكم والاستهزاء ، أو كما قيل إنما سألوا أهو جد أم هزل ، فأرادوا من الحق لازمه وهو الجدل مقابل الباطل ، والمعروف من أخلاق العرب في ذلك العهد أنه كان يقل فيهم الكذب لمرزة أنفسهم ، وعدم خضوعهم لرياسة استبدادية تضطربهم إليه ، وكانوا

يهايون الايمان الباطلة ويخافونها، ومن المنقول عنهم ان الايمان الفاجرة تدع الديار بلاقع، وناهيك بما اشتهر به النبي ﷺ منذ صغره من الصدق والامانة حتى لقبوه بالامين، وقد ثبت في الاحاديث الصحيحة أن بعضهم كان يسأله عن نبوته وعن الشرائع ويستحلفه فاذا حلف اطمأن لصدقه واتبعه، وإن صدق عرب الجاهلية ليقبل مثله في رجال الدين وغيرهم من اهل هذا العصر حتى المسلمين منهم

روى احمد والشيخان وأصحاب السنن الثلاثة واللفظ للمبخاري عن أنس قال بينما نحن مع رسول الله ﷺ في المسجد إذ دخل رجل على رجل فأناخه في المسجد ثم عقله ثم قال: أيكم محمد؟ قلنا هذا الرجل الابيض المتكى. فقال: ابن عبدالمطلب فقال النبي ﷺ «قد أجبتك» فقال إني سألتك فمشدد عليك في المسألة فلا تجرد علي في نفسك، قال «سل عما بدا لك» فقال أسألك بربك ورب من قبلك الله. أرسلك الى الناس كلهم؟ قال «الاهم نعم» قال أنشدك بالله الله أمرك أن تصلي الصلوات الخمس في اليوم والليلة؟ قال «الاهم نعم» قال أنشدك بالله الله أمرك أن تصوم هذا الشهر من السنة؟ قال «الاهم نعم» قال أنشدك بالله الله أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا فتقسمها على فقرائنا؟ قال «الاهم نعم» قال آمنت بما جئت به، وأنا رسول من ورأي قومي، وأنا ضمام بن ثعلبة أخو بني سعد بن بكر. ولهظ مسلم عنه: قال أنس نهينا في القرآن أن نسأل رسول الله ﷺ عن شيء (١) فكان يعجبنا أن يجيء الرجل العاقل من أهل البادية فيسأله ونحن نسمع، فجاء رجل من أهل البادية فقال يا محمد، أتانا رسولك فزعم أنك تزعم أن الله أرسلك، قال «صدق» قال فمن خلق السماء؟ قال «الله» قال فمن خلق الارض؟ قال «الله» قال فمن نصب هذه الجبال فجعل فيها ما جعل؟ قال «الله» قال فبالذي خلق السماء وخلق الارض ونصب الجبال الله أرسلك؟ قال «نعم» (ثم سأله بالذي أرسله عن كل من الصلوات والزكاة وصيام رمضان والحج

(١) يعني في قوله تعالى (لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم) أي لثلاث تكثر التكاليف عليهم وراجع تفسيرها في أواخر تفسير المائدة من الجزء السادس

٣٩٦ مكانة الصدق والخلف في العرب وتصديق المشر كين لقسمه (ص) التفسير: ج ١

فأجاب بنعم) ثم ولى وقال ، والذي بعثك بالحق لا أزيد عليهن ولا أنقص منهن ،
فقال النبي ﷺ « لئن صدق ليدخلن الجنة »

وزاد الامام احمد انه قال له أيضاً: الله أمرك أن تأمرنا أن نعبده ولا نشرك
به شيئاً ، وأن نخلع هذه الانداد التي كان آباؤنا يعبدون معه ؟ قال « اللهم نعم »
وأنه كان أشعر ذاعيرتين ، وان النبي ﷺ قال « إن صدق ذو العقيصتين يدخل
الجنة » وذكر أنه خرج حتى قدم على قومه فاجتمعوا إليه فكان أول ما تكلم به أن
قال بثست اللات والعزى ، قالوا مه يا ضمام ، اتق البرص والجذام ، اتق الجنون
قال ويلكم انهما والله ما يضران ولا ينفعان ، إن الله تعالى قد بعث إليكم رسولا
وأنزل كتابا استنقذكم به مما كنتم فيه ، واني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك
له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، قد جئتمكم من عنده بما أمركم به ونهاكم عنه ،
فوالله ما أمسى في ذلك اليوم في حاضره رجل ولا امرأة إلا مسلماً

وأقول ان فائدة السؤال عن خلق السموات والارض والجبال وما فيها ثم
ذكره في القسم ان استحضار ذلك فيه يكون أخرى أن يلتزم في الجواب الصدق
وتعظيم القسم والخوف من عاقبة الحنث ، وقد خفي هذا كله على المفسرين لانهم
اعتادوا إثبات العقائد الدينية بالادلة النظرية الجدلية التي وضعت للمجادلين
بالباطل ، وجهل هذه الحقائق أعداء الاسلام من الافرنج ولا سيما السياميين رجال
الكنيسة الكاثوليكية ودعاة التنصير البروتستنتي المطبوعين على الكذب والكسب
به والاخذ بقول رؤسائهم « ان الغاية تبرر الواسطة » يعنون أن اقرار الكذب
وسائر الرذائل لاجل مصلحة الكنيسة فضيلة - جهل هؤلاء أن عباد الاصنام في
الجاهلية كانوا أشد منهم احتراماً للصدق - فضلاً عن الاسلام وكتابه ونبيه ،
فأباحوا لأنفسهم من افتراء الكذب على الله ، وكتابه وخاتم رسوله ، ما لم يخطر
مثله في بال الشيطان قبلهم فيوسوس به لغيرهم

لقد كذبوا على الاسلام كذباً تزول الشم منه مزلزلات

اما المسلمون فان الله يقول في كتابه (١٦ : ١٥) انما يفتري الكذب الذين
لا يؤمنون بآيات الله واوائك هم الكاذبون) والنبي ﷺ يقول في هديه « يطعم

المؤمن على كل خلق ليس الخيانة والكذب « رواه البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمرو رضي الله عنهما

﴿ ولو أن لكل نفس ظلمت ما في الأرض لافتدت به ﴾ أي لو أن لكل نفس تلبست بهذا الظلم جميع ما في الأرض من أنواع الملك والزينة وصنوف النعيم وأمكنها أن تفتدي به أي تجعله فداء لها من ذلك العذاب الذي قيل لهم ذو قوه ينقذها منه بذلك

له ، لافتدت به كله لا تدخر منه شيئاً ﴿ وأسروا الندامة ﴾ أسرار الشيء إخفاؤه وكتمانها ، وأسرار الحديث والكلام خفض الصوت به ، فهو ضد اعلانه والجهر به ومنه (وأسروا قولكم أو اجهروا به) فإنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون (واستعمل بمعنى الجهر مطلقاً فهو ضد وأنكره بعضهم ، والندم والندامة ما يجده الإنسان في نفسه من الألم والحسرة عقب كل فعل يظهر له ضرره ، وقد يجهر به بالكلام كقوله « يا حسرتا على ما فرطت » أو بالتوبة والاستغفار ، وقد يخفيه ويكتمه لعدم الفائدة من اعلانه أو انتقاء للشامة أو الإهانة به ، أي وأسروا أولئك الذين ظلموا ندامتهم وحسرتهم فيما بينهم وبين ربهم أو كتموها في قلوبهم ﴿ لما رأوا العذاب ﴾ أي رأوا مباديه عياناً بأبصارهم لما برزت الجحيم وأيقنوا أنهم واقعوها لا مصرف لهم عنها ، وقد يعبر برؤيته عن وقوعه والظاهر الأول لقوله ﴿ وقضى بينهم بالقسط ﴾ أي وقضى الله بينهم وبين خصومهم بالعدل والحق ، فإذا أريد بالظلم الكفر والتكذيب وما يلزمه من الإيذاء لخصومهم الرسل والمؤمنون بهم ، وكذا من أضلوا وظلموا من المرءوسين والضعفاء الذين كانوا يغرونهم بالكفر ويصدونهم عن الإيمان وهو ظاهر السياق هنا وفي سورة سبأ بعد حكاية مجادلة الظالمين والمظلومين يوم القيامة (٣٤ : ٣٣) وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا ، هل يجزون إلا ما كانوا يعملون) وإن أريد بالظلم ما يعم ظلمهم للناس في الأحكام وهضم الحقوق كان كل مظلوم خصماً لظالمه ﴿ وهم لا يظلمون ﴾ أي لا يظلمهم الله كما ظلموا أنفسهم وظلموا أنباهم ومقلديهم ، بل هم الذين ظلموا أنفسهم وظلموا غيرهم . والآيات في ندم الظالمين يوم القيامة

معروفة كقوله في آخر سورة النبا (٧٨) انا أنذرتكم عذاباً قريباً يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر ياليتني كنت تراباً) وقوله (٢٥ : ٢٧) ويوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً ٢٨ ياويلتى ليتني لم اتخذ فلاناً خليلاً) وغير ذلك

ثم قفى على ذلك بالدليل على قدرته على انفاذ حكمه وانجاز وعده وكون هؤلاء الظالمين لا يعجزونه ، ولا يستطيعون الافتداء من عذابه ، فقال ﴿ ألا إن الله مافى السموات والارض ﴾ قلنا مراراً ان السموات والارض عبارة عن جميع العالم ، وهو تعالى مالك السموات والارض وملكهما ، وله كل من فيهما من العقلاء ، وما فيها من غير العقلاء ، وقد نطقت الآيات بهذا كله ولكل مقام مقال ، فهنا غلب غير العقلاء بمناسبة مافى الآية السابقة من الاشارة الى غرور الكافرين والظالمين بما كانوا يمتعون به ، وتعدر الافتداء بشيء منه ، وسيأتي تغليب العقلاء في الآية ٦٦ من هذه السورة لاقتضاء المناسبة له . وصدر الجملة بحرف التنبيه « ألا » الذي يفتح به الكلام لتنبيه الغافلين عن هذه الحقيقة وإن كانوا يعرفونها لكثرة ذهول الناس عن تذكر أمثالها ، والمعنى ليتذكر الناس وليتنبه الغافل وليعلم الجاهل ان لله وحده مافى العوالم العلوية وعالم الارض يتصرف فيها حيث يشاء ، فيعطي من يشاء ويمنع من يشاء ، ويرحم من يشاء ويعذب من يشاء ، ولا يملك أحد من دونه شيئاً من التصرف والفداء ، في يوم البعث والجزاء ﴿ ألا ان وعد الله حق ﴾ أعاد فيه حرف التنبيه تأكيداً وتذكيراً لتمييزه بهذا التنبيه عما سبقه لانه المقصود هنا بذاته وانما ذكر قبله للاستدلال عليه ، أي كل ما وعد به على لسان رسله حق واقع لا ريب فيه ، لأنه وعد المالك القادر على انجاز ما وعد لا يعجزه منه شيء . ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ يعني بأكثرهم الكفار منكري البعث والجزاء ، أي لا يعلمون أمر الآخرة لا من طريق النظر والاستدلال ، ولا من طريق الايمان بما جاء به الرسل عليهم السلام

﴿ هو يحيى ويميت ﴾ بقدرته كما يدل عليه النظر والاستدلال وقد بسطناه

في تفسير الآيتين ٣١ و ٣٤ ﴿ واليه ترجعون ﴾ عندما يحيبكم بدموعكم ويحشركم ليحاسبكم ويجزيكم بأعمالكم فهذه الآية بيان مستأنف لما قبله بالإنجاز ، وجملة هذه الآيات خاتمة هذا السياق .

(٥٧) يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ تَكُفُّكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (٥٨) قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ

هاتان الآيتان في موضوع تشريع القرآن العملي التهديبي جاء بعد بيان عقائد الثلاث (التوحيد والرسالة والبعث) وتأيدها بالاستدلال على كونه من الله تعالى ، وعلى صدق وعده ووعدته، والرد على مكذبيه ، وقد اجمل في الآية الاولى جميع مقاصد هذا التشريع واصلاحه للناس بما يظهر به للعاقل انه حق وخير وصالح بذاته لا يصح لعقل ان يماري فيه ، ولا ان يحتاج للاستدلال عليه فقال

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ تَكُفُّكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي قد جاءكم كتاب جامع لكل ما تحتاجون اليه من موعظة حسنة لاصلاح أخلاقكم وأعمالكم الظاهرة ، وحكمة بالغة لاصلاح خفايا أنفسكم وشفاء أمراضها الباطنة، وهداية واضحة للصراط المستقيم الموصل إلى سعادة الدنيا والآخرة ، ورحمة خاصة للمؤمنين ، هي شجنة من رحمة رب العالمين ، العامة للخلق أجمعين ، يتراحمون بها فيما بينهم ، فتكمل بهار رحمة تعالى لهم ، ورحمته للعالمين برسوله اليهم وبهم ، وقد عرف هذا من تاريخهم أشهر فلاسفة التاريخ من الافرنج^(١) فقال « ما عرف التاريخ فاتحا أعدل ولا أرحم من العرب » فكان الله تعالى يقول للناس ، بعد بيان هذه المقاصد الاربعة للقرآن . فما بالكُم أيها الناس تكذبون بما لم يحيطوا به علما من أخبار هذا الكتاب ، التي هي من علم الغيب عن المآل والمآب ، ولا تفكرون

(١) هو الحكيم الاجتماعي المؤرخ الدكتور غوستاف لوبون الفرنسي

في آدابه ومواعظه، وأحكامه وحكمه، وهداية نوااميسه وسننه، وما فيها من المنافع والمصالح، التي لا يماري فيها عالم ولا يكابر فيها عاقل؟ حتى ان أشد أعداء الرسول إيذامه وصدا عن دعوته في أول ظهورها لم يستطيعوا الطعن على مادعا اليه من الفضائل والخير والبر، وما نهى عنه من الرذائل والشرور والفجور، كأبي سفيان عند مأسأله هرقل قيصر الروم، وعمر بن العاص عند مأسأله أصحابه نجاشي الحبشة، فان كان ذلك قد خفي على بعض الجاحدين والمقلدين لهم من المشركين قبل تعميم نشر القرآن فيهم، وقبل ظهور ما كان له من التأثير العظيم بعد انتشار الاسلام في العرب، ومن الاصلاح الديني والمدني في شعوب المعجم، أفليس من المعجب والمعجب أن يماري به أحد بعد ذلك ويصدق ما يفتره عليه دعاة الكنيسة ورجال السياسة من الافرنج وتلاميذهم وهم أكذب البشر؟

أجملت الآية الحكيمة هذا الاصلاح القرآني لأنفس البشر في أربع قضايا أو مسائل نكرن في اللفظ لتعظيم أمرهن، أو لبيان انهن نوع خاص لم يعهد الناس مثلهن، في كمالهن المعنوي وبيانهن اللفظي، وقوله (من ربكم) للتذكير بما يزيدنها تعظيما، ووجوب الاتعاظ بها إيمانا وتسليما، لأنها من ممالك أمر الناس ومربيهم بفضلهم ورحمتهم، وعلمه وحكمته

(الاولى الموعظة الحسنة) وهي اسم من الوعظ أي الوصية بالحق والخير، واجتناب الباطل والشر، بأساليب الترغيب والترهيب التي برق لها القلب، فتبعث على الفعل والترك، وقد تقدم في حقوق النساء من سورة البقرة (٢: ١٣١) واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به (الآية)، وفي التي بعدها (ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر، ذلكم أزكى لكم وأطهر، والله يعلم وأنتم لا تعلمون) وتقدم في سورة آل عمران بعد النهي عن أكل الربا والامر بطاعة الله ورسوله والترغيب في الانفاق في السراء والضراء وكظم الغيظ والعفو عن الناس، وما أعده الله على ذلك من الجزاء (٣: ١٣٦) قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين * هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين) ويليه الكلام في الجهاد وغزوة أحد، وفي سورة

(يونس : ١٠) شفاء القرآن لما في الصدور من أمراض العقول والقلوب ٤٠١

النساء (٥٨:٤) إن الله يأمركم أن تؤدوا الامانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ، إن الله نعمًا يعظكم به) الآية، وتقدم غير ذلك من أمثلة الوعظ وسيأتي غيره مما يفسر مراده تعالى من موعظته الربانية، فهل يمكن أن يتجاري عاقلان في حسنهما ومنفعتهما للعباد في أعمالهم وأحكامهم ؟ كلا إنها مما يتوقف عليه صلاح العباد في كل زمان ومكان

(الثانية شفاء ما في الصدور) أي شفاء جميع ما في القلوب من أدواء الشرك والكفر والنفاق، وسائر الأمراض النفسية التي يشعر صاحبها ذو الضمير الحي بضيق الصدر ، من شك في الإيمان ، ومخالفة للوجدان ، وإضرار للحقد والحسد والبغى والعدوان ، وحب للباطل والظلم والشر، وبغض للحق والعدل والخير

قال الراغب: قال بعض الحكماء حينما ذكر الله القلب إشارة إلى العقل والعلم نحو (إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب) وحينما ذكر الصدر فإشارة إلى ذلك وإلى سائر القوى من الشهوة والهوى والغضب ونحوها ، وقوله (رب اشرح لي صدري) فسؤال لإصلاح قواه ، وكذلك قوله (ويشف صدور قوم مؤمنين) إشارة إلى اشتغالهم . وقوله (فأنها لا نفعي إلا بصر) ولكن تعمي القلوب التي في الصدور) أي العقول التي هي مندسة فيما بين سائر القوى وليست مهتدية والله أعلم بذلك هو التحقيق أن الصدر يطلق مجازاً على القلب الحسي الذي فيه وعلاقته ظاهرة وعلى القلب المعنوي الذي هو للنفس كالقلب الحسي للبدن لأنه لبها ، ومركز شعور مداركها وانفعالاتها ، دون الدماغ فإن النفس لا تشعر بما ينطبع فيه من المدركات من انشراح وبسط، ولا حرج وضيق وقبض، فجميع الإدراكات العلمية والوجدانية توصف بها القلوب حقيقة والصدور مجازاً ، وتكون فاعلة ومفعولة وصفات للأفعال العاملة فيهما . وأما العقل في اللغة فهو الحكم الصحيح في بعض الإدراكات ولوازمها من حسن وقبح وصلاح وفساد، ونفع وضرر ، ومركزه الدماغ قطعاً . فأمرض الصدور والقلوب تشمل الجهل وسوء الظن ، والشك في الإيمان ، والنفاق ، والحقد والضغن والحسد ، وسوء النية وخبث الطوية ، وفساد السريرة ، وغير ذلك مما تقدم آنفاً، والشواهد على هذا في القرآن كثيرة

« تفسير القرآن الحكيم » « ٥١ » « الجزء الحادي عشر »

٤٠٢ شفاء القرآن لأعراض الأنفس لا الأبدان وهذا (التفسير : ج ١١)

وذهب بعضهم إلى أن الشفاء في الآية يشمل شفاء الأمراض البدنية واستدلوا بما أخرجه ابن المنذر وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري (رض) قال جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال إني أشتكي صدري فقال « اقرأ القرآن يقول الله (شفاء لما في الصدور) وفيه أن ضيق الصدر في الغالب ألم نفسي لا بدني قد يكون سببه دينياً وقد يكون دنيوياً كالخوف والحاجة ، وقراءة المؤمن للقرآن تنفع في كل منهما ومن الأول قوله (١٢٥:٦) فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء) وقوله في آخر سورة الحجر (٩٧:١٥) ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون * فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين * واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) والتسبيح بحمد الله والسجود له وعبادته بالصلاة وتلاوة القرآن أعظم أسباب انشراح الصدر ، كما قال ٢٢ ٣٩ أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه) الآية

واستدلوا أيضاً بما أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن واثلة بن الأسقع (رض) أن رجلاً شكاً إلى النبي ﷺ وجع حلقه قال « عليك بقراءة القرآن والعسل ، فالقرآن شفاء لما في الصدور ، والعسل شفاء من كل داء » وهو على ضعفه لا يدل على ما قيل إذ معناه اقرأ القرآن ، تعلم منه ما يفيدك ، إذ فيه أن القرآن شفاء لأمراض الصدور ، والعسل شفاء لأمراض البدن ، فهو كوصفه ﷺ العسل لمن شكاه استطلاق بطن ابن أخيه في الحديث الصحيح . وقد ثبت في الطب الحديث أن العسل مطهر طبي ومضاد للفساد ، واستطلاق البطن يكون من فساد في الأمعاء ، وكذا وجع الحلق بالتهاب اللوزتين ونحوه ، والعسل مطهر لكل منهما ، وقد روى أبو الشيخ عن الحسن البصري أنه قال : إن الله تعالى جعل القرآن شفاء لما في الصدور ولم يجعله شفاء لأمراضكم . وقال بعض المفسرين إن تنكير الشفاء في آية العسل يدل على الخصوص لا العموم . على أن الرقية بالفاطحة وغيرها قد تفيد في شفاء بعض الأمراض ولا سيما إذا كان الراقي قوي الإيمان والراقي حسن الاعتقاد ، وليس هذا مما تدل عليه الآية

(الثالثة الهدى) وهو بيان الحق المنقذ من الضلال في الاعتقاد بالبرهان ،

(يونس : ١٠) رحمته تعالى للمؤمنين بالقرآن ورحمة نبيه بالناس وغيرهم ٤٠٣

وفي العمل ببيان الحكم والمصالح في أحكام الأعمال ، وهو ما فصلناه تفصيلا في هذا التفسير وبيننا أنواعه في مقاصد القرآن من مباحث الوحي في أول تفسير هذه السورة بأنواعها الدينية والعقيدة والاجتماعية ، وتقدم الكلام على معناه اللغوي وأنواعه في تفسير الفاتحة وأول سورة البقرة.

(الرابعة الرحمة للمؤمنين) وهي ما تشمره لهم هداية القرآن وتغنيضه على قلوبهم من رحمة ربهم الخاصة وهي صفة كمال من آثارها اغاثة الملهوف ، وبذلك المعروف ، وكف الظلم ، ومنع التعدي والبغي ، وغير ذلك من أعمال الخير والبر ، ومقاومة الشر ، وقد وصف الله المؤمنين بقوله (رحماء بينهم) وبقوله (وتواصوا بالصبر وتواصوا بالرحمة) وهذه الصفات الأربع مرتبة على سنة الفطرة البشرية فالوعظة التعاليم التي تشعر النفس بنقصها وخطر أمراضها الاعتقادية والخلقية ، وتزعجها إلى مذاواتها وطلب الشفاء منها ، والشفاء تخليية يقبها طلب التحلية بالصحة الكاملة ، والعافية التامة ، وهو الهدى ، ومن ثم راته هذه الرحمة التي لا توجد على كمالها إلا في المؤمنين المهتدين ، ولا يحرمها إلا الكافرون الماديون ، حتى قال بعضهم إنها ضعف في القلب ، يجعل صاحبه كالمضطرب إلى الاحسان والعطف ، وما هذا القول إلا من فساد الفطرة ، وقسوة القلب وفلسفة الكفر ، فلقد كان أشجع الناس وأقوام بدنا وقلبا ، أرحم الناس وأشد هم عطفاً ، وهو سيد ولد آدم محمد رسول الله وخاتم النبيين ، الذي وصفه ربه بما وصف به نفسه من قوله (بالمؤمنين رؤوف رحيم) بل جعله عين الرحمة في قوله (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) وكذلك كان أصحابه (رض) حتى كان من يوصف بالشدة والقسوة كعمر بن الخطاب [رض] صار من أرحم الناس وسيرته في ذلك معروفة وقد قال ﷺ « لا تنزع الرحمة إلا من شقي » رواه ابو داود والترمذي واللفظ له عن ابي هريرة (رض) وقد صح عنه ﷺ انه كان اذا سمع وهو في الصلاة بكاء طفل تجوز في صلاته ، اي اختصر وخفف رحمة به وبأمه ، وروى ابن اسحاق ان بلالا [رض] مرَّ بصفيّة وبابنة عم لها على قتلى قومها اليهود بعد انتهاء غزوة قريظة فصكت ابنة عمها وجهها وحشت عليه التراب وهي تصيح وتبكي فقال ﷺ له « أبزعت الرحمة من قلبك حتى مررت بالمرأتين على قتلاهما » وجاء اعرابي

٤٠٤ رحمة (ص) بأنواع الحيوان وحته على الرحمة (التفسير : ج ١١)

إليه ﷺ فقال انكم تقبلون أولادكم وما تقبلهم فقال « أو أملك لك ان نزع الله الرحمة من قلبك » رواه البخاري ومسلم من حديث عائشة [رض] بل كان ﷺ شديد الرحمة بالبهائم والطيور والحشرات وطالما أوصى بها ولا سيما صغارها وامهاتها . جاءه مرة رجل وعليه كساء وفي يده شيء . قد التف عليه فقال يا رسول الله اني لما رأيتك أقبلتُ فررتُ بغيطه شجر فسمعت فيها أصوات فراخ طائر فأخذتهن فوضعتهن في كسائي فجاءت أمهن فاستدارت على رأسي وكشفت لها عنهن فوقعت عليهن فلمفتها معهن بكسائي فهن أولاء معي ، فقال « ضعهن » (قال) ففعلت فأبت أمهن إلا لزومهن فقال ﷺ « أتعجبون لرحمة أم الافراخ بفراخها ؟ قالوا نعم ، قال « والذي بعثني بالحق لله أرحم بعباده من أم الافراخ بفراخها ، ارجع بهن حتى تضعهن حيث أخذتهن ، وأمن معهن » فرجع بهن . رواه ابو داود عن ابي هريرة [رض] وروى مالك والبخاري ومسلم وابو داود من حديثه مرفوعا حديثين خلاصتهما ان الله غفر لرجل ولا امرأة بغى لأن كلا منهما رأى كلبا قد اشتد به العطش فرحمه واخرج له الماء من البئر بخمسة فسقاه . قالوا له يا رسول الله إن لنا في البهائم أجراً ؟ فقال « في كل كبد رطبة أجر » ورواه مالك واحمد عن غيره بلفظ « في كل ذات كبد حررى أجر »

وقال ﷺ « الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من في الارض يرحمكم من في السماء » رواه الترمذي وابو داود من حديث عبد الله بن عمرو [رض] ورويناه مسلسلا بالاولية من طريق أستاذنا الشيخ محمد أبي المحاسن القارقجي . وقال ﷺ « ان لله مائة رحمة انزل منها رحمة واحدة بين الجن والانس والبهائم والهوام ، فيها يتعاطفون ، وبها يتراحمون ، وبها تعطف الوحوش على ولدها » وأخر الله تسعا وتسمين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة « - وفي رواية - ولو يعلم الكافر بكل الذي عند الله من الرحمة لم يئأس من الجنة ، ولو يعلم المؤمن بكل ما عند الله من العذاب لم يأمن من النار » رواه البخاري ومسلم والترمذي ، والله تعالى يقول (١٥ ، ٤٥) نبيء عبادي اني أنا الغفور الرحيم ، وان عذابي هو العذاب الاليم) ويقول (انه لا يئأس من روح الله الا القوم الكافرون) ويقول (٧ : ٩٨ أفأمنوا مكر الله ؟ فلا

(يونس : ١٠) أمر الله تعالى بالفرح بفضلِهِ ورحمته دون ما عداها ٤٠٥

يأمن مكر الله (الا القوم الخاسرون) وما دام المؤمن حياً فلو اوجب عليه أن يخف الله خوفاً يرهبه ويرجوه عن معاصيه، وأن يرجوه رجاء يرضيه في ثوابه وما يرضيه، وما عند الله مجهول لنا ، وما أحسن قول أبي الحسن الشاذلي قدس الله سره « وقد أبهمت الامر علينا لئلا نرجو ونخاف ، فأمن خوفنا ، ولا نخيب رجاءنا » اللهم آمين

خاطب الله تعالى بما تقدم كله أمة الدعوة الحمديّة وهم جميع الناس فموعظة القرآن وما فيه من شفاء من أمراض الكفر والنفاق والذائل ، وهداه الى الحق والفضائل موجّهات الى الجميع ، وخص المؤمنين بما تشمّه الثلاث من الرحمة لأنهم هم الذين ينتفعون بها ، ثم خاطب رسوله ﷺ بأن يبلغ هؤلاء المؤمنين أنه يحق لهم أن يفرحوا بفضل الله عليهم بنعمة الايمان والاسلام وبهذه الرحمة الخاصة بهم لاستجماعهم كل ما ذكر قبلها من مقاصد تشريعه فقال :

﴿ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا ﴾ فضل الله على جميع عبادِهِ عظيم وهو على المؤمنين منهم أعظم ، ورحمته العامة لهم وبهم واسعة ، ورحمته الخاصة بالمؤمنين أوسع ، وبكل من النوعين نطق القرآن ، وقد من تعالى عليهم بالجمع لهم بين الفضل والرحمة في آيات، وبكل منهما في آيات، وقال بعد الجمع بينهما في آيتين من سورة النور (٢٤.٢١) ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكا منكم من أحد أبداً ولكن الله يزكي من يشاء والله سميع عليم) وان دخول الباء على كل من الفضل والرحمة هنا يدل على استقلال كل منهما بالفرح به ، فهو يرد ما روي عن مجاهد من ان المراد بهما واحد وهو القرآن ، ويرده أيضاً ما روي من المأثور في تفسير كل منهما بمعنى ، ومنه ما رواه أبو الشيخ وابن مردويه من حديث أنس مرفوعاً « فضل الله القرآن ورحمته ان جعلكم من أهله » وروي عن البراء وابي سعيد الخدري موقوفاً . وعن ابن عباس روايتان (احدهما) ان فضل الله القرآن ورحمته الاسلام (والثانية) ان الفضل العلم والرحمة محمد ﷺ وعن الحسن والضحاك وقتادة ومجاهد في الرواية الثانية عنه، فضل الله الايمان ورحمته القرآن ، وكل هذه المعاني صحيحة في نفسها لاني روايتها. وأظهرها في الآية وهو المناسب لما قبلها ، والجامع لمعاني الروايات كلها، ان فضل الله توفيقه إياهم لتزكية أنفسهم بالموعظة

والشفاء والهدى التي امتاز بها القرآن ، ورحمته نمرت بها التي فضلوا بها جميع الناس فكانوا أرحمهم ، بعد أن كانوا أعداءهم وأبرهم بهم ، فقد أمرهم هذا القرآن بالبر والعدل وإقامة القسط في المؤمن والكافر ، والبر والفاجر ، وأمرهم بالرحمة حتى في المحاربين لهم بقدر ما يدفع شرهم كما فصلناه في المقصد الثامن من مقاصد القرآن في مباحث الوحي ، ولولا مراعاة هذا التناسب لقلت أن المراد بفضله تعالى على هذه الأمة هو قوله تعالى (١٤٣: ٢) وكذلك جعلناكم أمة وسطا) الآية ، وقوله (١١: ٣) كنتم خير أمة أخرجت للناس) الآية ولكن ما قلته يدخل في معناه ويوافقه ولكل مقام مقال

والفرح كالسرور انفعال نفسي بنعمة حسنة أو معنوية يلذ القلب ويشرح الصدر ، وضدهما الالاسى والحزن ، وهما من الوجدان الطبيعي لا بمدحان ولا بدمان لذاتهما ، بل حكمهما حكم سببهما أو أثرهما في النفس والعمل ، خلافا لبعض الناس من الصوفية وغيرهم فيهما ، فقد أمر الله تعالى هنا بالفرح بفضله ورحمته ، ومدح المؤمنين بالفرح في قوله (٤: ٣٠) وبومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله) وهذا فرح بأمر ديني دنيوي ثم قال فيها (٣٦) وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها) وقال في أهل الكتاب الذين يؤمنون به ﷺ ويهتدون بالقرآن (١٣ : ٣٦) والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك) الآية .

وقد سبحانه الفرح بالباطل وفرح البطر والغرور بالمال ومتاع الدنيا وشهواتها في عدة آيات معروفة . وجعل الاعتدال بين الفرح والالاسى والحزن من صفات المؤمنين فقال بعد ذكر تربيتهم بالمصائب المقدرة في كتاب الله (٢٣: ٥٧) لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم . والله لا يحب كل مختال فخور) وقد قدم تحقيق الكلام في الحزن في تفسير سورة براءة (١٠ : ٢٤٠ ص ٤٢٦ ج ١٠ تفسير)

والتعبير في الآية في غاية البلاغة لما فيها من التأكيد والمبالغة في التقرير ، فإن أصل المعنى بدوئهما قل لي فرحوا بفضل الله وبرحمته ، فأخر الأمر وقدم عليه متعلقه لافادة الاختصاص كأنه قال إن كان في الدنيا شيء يستحق أن يفرح به فهو فضل الله ورحمته ، وأدخل عليه الفاء لافادة معنى السببية فصار فيهما فليفرحوا دون

ما يجمعون من متاع الدنيا المبين في آخر الآية، ثم ادخل على الامر (فبذلك) لزيادة التأكيد والتقرير ، وتفصيل مباحثه في الاعراب أكثر مما قلنا ، وبسطه يشغل عن المعنى والاعتبار به ، وهو خروج عن منهجنا في هذا التفسير

ثم قال ﴿ هو خير مما يجمعون ﴾ اي ان الفرح بفضله وبرحمته أفضل وأنفع لهم مما يجمعونه من الذهب والفضة والحيل المسومة والانعام والحرف وسائر متاع الحياة الدنيا ، مع فقدهما ، لا لأنه سبب سعادة الآخرة الباقية ، المفضلة على الحياة الدنيا الفانية ، كما اشتهر فيما خطته الاقلام ولا كتته الالسنه ، بل لانه هو الذي يجمع بين سعادة الدارين كما حصل بالفعل ، إذ كانت هداية الاسلام بفضل الله وبرحمته سبباً لما ناله المسلمون في المصير الاولى من الملك الواسع ، والمال الكثير ، مع الصلاح والاصلاح ، والعدل والاحسان ، والعلم والعرفان ، والعزيز الكبير ، فلما صار جمع المال ومتاع الدنيا وفرح البطر به هو المقصود لهم بالذات ، وتركوا هداية الدين في انفاقه والشكر عليه ، ذهبت دنياهم من أيديهم إلى أيدي أعدائهم كما شرحناه مراراً

(٥٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِمَّنْ حَرَامًا وَحَلَالًا، قُلْ إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ (٦٠) وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ؟ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ

هاتان الآيتان في إقامة الحجة على منكري الوحي من المشركين بفعل من أفعالهم لا ينكرونه ولا يجادلون فيه ، تعزيزاً لما تقدم من أنواع الحجج العقلية على إثباته ، ودفع شبهاتهم عليه ، وهذه الحجة مبنية على قاعدة كون التشريع العملي في التحريم والتحليل هو حق الله تعالى وحده ، وقاعدة كون الاصل في الارزاق وسائر الاشياء التي ينتفع بها الخلق الاباحة ، وقاعدة كون انتحال العبيد حق التشريع

الخاص برهمن افتراء عليه وكفرآ به، يستحق فاعلوه أشد عقابه، وهو يتضمن الشهادة على صدق رسوله ﷺ في كونه مبلغاً لهذا القرآن عنه تعالى، مؤكداً لما تقدم من الحجج على صدقه، وعلى كون القرآن كلام الله المعجز لجميع خلقه. قال عز وجل لنبيه ﷺ ﴿ قل أرأيتم ﴾ أي أخبروني أيها الجاحدون للوحي والتشريع الإلهي

﴿ ما أنزل الله لكم من رزق ﴾ أي هذا الذي أفاضه الله عليكم من مماء فضله وإحسانه من رزق تعيشون به من نبات وحيوان، وكل عطاء منه تعالى يعبر عنه بالأنزال كقوله (٣٩: ٦) وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج) وقوله (٥٧: ٢٥) وأنزلنا الحديد فيه

(أس شديد ومنافع للناس) - ﴿ فجعلتم منه حراماً وحلالاً ﴾ أي فترتب على أنزاله لمنفعتكم أن جعلتم بعضه حراماً وبعضه حلالاً. وقد تقدم تفصيل هذا في سورة الأنعام من قوله تعالى (١٣٦: ٦) وجعلوا لله مما ذرأ من الحراث والآنعام نصيباً فقالوا هذا لله نزعمهم وهذا لشركاننا - إلى قوله - ١٥٠ قل هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا (الآيات (١) وفي معناها قوله من سورة المائدة (١٠٣: ٥) ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام، وإن كن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون) أي يفترون عليه بتحريم ما لم يحرمه (٢) وقال هنا وهو المراد من الاستخبار ﴿ قل آذن لكم ﴾ هذا الاستفهام للتقرير ومدت همزته لدخولها على الف اسم الجلالة. أي أنه ليس لأحد حق أن يحرم على الناس ويحل لهم إلا ربهم الله، فهل الله هو الذي أذن لكم بذلك بوحى

أنزله إليكم؟ ﴿ أم على الله تفترون ﴾ بزعمكم أنه حرمها عليكم؟ أي لا مندوحة لكم عن الإقرار بأحد الأمرين: إما دعوى الأذن من الله لكم بالتحليل والتحريم، وهو اعتراف بالوحي وأنتم تنكرونه وتلحون وتلجون في الإنكار، وتزعمون أنه محال عليه تعالى أن يوحى إلي أحد من الناس، وإما الافتراء على الله وهو الذي يلزمكم بإنكار الأول إذ لا واسطة بينهما، ويحتمل أن يكون الاستفهام الإنكار وأم متصلة،

(١) راجع تفسيرها في ص ١٢٢ ج ٨ تفسير

(٢) راجع تفسيرها في ص ٢٠٢ ج ٧ تفسير

فيكون المعنى ان الله لم يأذن لكم بل أنتم تعترون على الله تعالى، والغاية واحدة، وأصل
الفرق قطع الجلد لمصلحة، والافتراء تسكافه، وغلب في تعمد الكذب

قال الكرخي في هذا الاستفهام: «وكفى به زاجراً لمن أفتى بغير إتقان، ك بعض
فقهاء هذا الزمان، وقل العماد بن كثير في تفسيره: وقد أنكر الله على من حرم ما أحل
الله أو أحل ما حرم بمجرد الآراء والاهواء التي لا مستند لها، ولا دلائل عليها اه
ونحن نقول: وكفى به زاجراً لمن يحرمون على الناس ما لم يحرمه الله تعالى بنص كتابه
كالتحريم بالرأي والقياس، أو بدليل ظني من الكتاب والحديث غير قطعي الرواية
والدلالة، وهو مخالف لهذه الآية وأمثالها، والمروى عن السلف ان التحريم لا يكون
إلا بنص قطعي، وهو أصل مذهب الحنفية، والكرخي منهم، وقد تقدم بيان هذا صراحاً
في هذا التفسير ومنه قول القاضي أبي يوسف: «ليكونوا يقولون في شيء انه حرام إلا
ما كان بيناً في كتاب الله بلا تفسير (١)»

وفي هذه الآية قواعد أشرنا إلى ثلاث منها (القاعدة الاولى) ان الاصل في
كل ما خلقه الله تعالى للناس من الارزاق نباتها وحيوانها الاباحة ، وهو يتضمن
بطلان قول من يحرمون أكل اللحوم ، ولهم على هذا شبهتان أولاهما قديمة وهي زعمهم
ان أكل لحم الحيوان يتوهم على تذكيته بالذبح وغيره وهو تعذيب مستقبح عقلاً ،
وجوابه ان هذا القول جهل فان التذكية الشرعية ليست تعذيباً وربما كانت أهون
من موته بسبب آخر من أسباب الموت كافتراس سبع أو ترد من مكان عال ، أو انخناق
بين شجرتين مثلاً ، أو نطاح ، أو وقد راع قاس أو معتد آخر (٢) وقد حرم الله
في آية المائدة (٣: ٥) أكل مامات بسبب من هذه لاسباب كالذي يموت حتف أنفه .
ونهى الشرع عن تعذيب أي ذي روح وحث على رحمته كما تقدم قريباً في تفسير
الرحمة (ص ٤٠٤) وقال نبي الرحمة ﷺ « ان الله كتب الاحسان على كل شيء فاذا
قتلتم فأحسنوا القتلة ، واذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وليحد أحدكم شفرته ، وليرح
ذبيحته » رواه مسلم من حديث شداد بن ثابت (رض) والذبح بهذه الصفة لا يؤلم
(١) راجع صفحة ٣٧١ ج ١٠ تفسير (٢) الوقذ الضرب الشديد بالعصا وغيرها .

٤١٠ قواعد التشريع حق الله وعقاب المفتريين عليه فيه (التفسير : ج ١١) -

الحيوان إلا لحظة قصيرة ، والحيوانات لا تشعر بالآلام بقدر ما يشعر به البشر كما قرره بعض علماء هذا الشأن

(الشبهة الثانية) حادثة وهي ما يزعمه النباتيون الذين يفضلون الاغذية النباتية على الحيوانية من كون أكل اللحوم ضارا للناس ، وجوابنا عنها أنهم إن زعموا ان أكل اللحم يضر كل أكل منهم مطلقا فهذا زعم تبطله التجارب وينكره أكثر أطباء العالم ، وإن قالوا انه يضر بعضهم كأصحاب أمراض الترف وضمف المعدة (كالرثية والنقرس) فهذا لا يقتضي تحريمه عليهم كالمطلق ، وحكم الشرع في المصارح الحظر ومنه عام وخاص (القاعدة الثانية والثالثة) أن تشريع التحريم والتحليل الديني هو حق الله تعالى وحده ، وأن جعله لغيره شرك به ، وقد بسطنا هذا في مواضع من هذا التفسير بدلالة الآيات والسنة والآثار (١)

(القاعدة الرابعة) ان ما خلقه الله وسخره لنا من سائر منافع الكون فالاصل فيه الاباحة كالرزق ويؤخذ من هذه الآية بالفحوى ، وبناء المنة فيه على كونه منه تعالى ، وهو صريح قوله (٢٩: ٢) هو الذي خلق لكم ما في الارض جميعا)

وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة (سجّل عليهم جريمة افتراء الكذب على الله وهو اختلاقه ، وقفى عليه بالوعيد عليه مشيراً إلى ما يكون من سوء حالهم وشدة عقابهم يوم القيامة . والمعنى أي شيء ظهروا في ذلك اليوم الذي تجزى فيه كل نفس ما عملت ؟ أيعظنون أنهم يتركون بغير عقاب على جريمة افتراء الكذب على الله وهو تعمدده في حق خاص ربوبيته ، فهو نزاع له فيها ونسبها ، كما قال (٢١: ٤٢) أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله) الآية . فويل للمعممين من جهلاء المقلدين ، الذين يحرمون على الناس ويحلون لهم بتقليد بعض المؤلفين ، أو باتباع الهوى والرأي في الدين ، وهم يتلون قوله (١٦ : ١٦) ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب — إلى قوله — ولهم عذاب أليم)

(يونس : ١٠) وجوب شكره تعالى وهو درجات كالكفر به ونعمه ٤١١

﴿ ان الله لذو فضل على الناس ﴾ هذه الآية بيان مستأنف يتضمن بمفهومه تعميلا لما فهم مما قبلها من عقاب المقتربين على الله بكونه عدلا استحقوه بظلمهم لانفسهم لا ظلما منه ، وهو اثبات فضله على الناس بهذه الجلة المؤكدة أشد التوكيد ، فأفاد ان صاحب هذا الفضل العظيم عليهم لمجرد احسانه اليهم ، ليس من شأنه أن يكون ظلما لهم اذا قابلوا أ كبر فضله ونعمه ، بأشد الكفر وأنكره ، وهذا المعنى المفهوم من الآيتين من أغرب انجاز القرآن المعجز للبشر . والمعنى : تالله ان الله لذو فضل عظيم على الناس في كل ما خلقه لهم من الرزق ، وكل ما شرعه لهم من الدين ، ومنه انه جعل الاصل فيما أنزله اليهم من الرزق الاباحة ، وجعل حق التحريم والتحليل له وحده عز وجل ، لكيلا يتحكم فيهم أمثالهم من عباده ، كالذين اتخذوا أخبارهم ورواياتهم أربابا من دون الله ، كما تقدم في تفسير سورة التوبة - براءة - (١) وهو لم يحرم عليهم إلا ما هو ضار بهم ، ولهذا أباح لهم ما حرمه عليهم اذا اضطروا اليه وكان تركه أضر من تناوله ، وحصر أصول محرمات الطعام في قوله (١٤٥:٦) قل لا أجد فيما أوحى إلي محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقا أهل لغير الله به ، فمن اضطرب غير باغ ولا عاد فان ربك غفور رحيم) وفصل انواع الميتة المحرمة في أول سورة المائدة (٣:٥) فراجع تفسير الآيتين (٢)

﴿ ولكن اكثر الناس لا يشكرون ﴾ فضله عليهم كما يجب ، كما قال (وقليل من عبادي الشكور) فيجنون على انفسهم بتحريم ما لم يحرمه عليهم ، وبغير ذلك من كفر نعمه المادية والمعنوية ، كالمو في الزهد ، وترك الزينة والطيبات من الرزق ، وفي ضد ذلك من الاسراف في الاكل والشرب ، وزينة اللباس ، ابتغاء الشهرة والخيلاء والتكبر على الناس ، وشر من ذلك كله تحريمه تعبدا والاسلام يأمر بالوسط والاعتدال (٧:٦٥) لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله) الآية أخرج الامام احمد من طرق عن ابي الاحوص وهو عوف بن مالك بن نضلة

(١) راجع صفحة ٣٦٣ ج ١٠ تفسير

(٢) الاولى في ص ١٤٨ ج ٧ والاخرى في ص ١٣٣ ج ٦

يحدث عن أبيه قال أتيت رسول الله ﷺ وأنا رث الهيئة فقال «هل لك مال؟» قلت نعم، قال «من أي المال؟» قلت من كل المال من الابل والرقيق والخيل والغنم فقال «إذا آتاك الله مالا فلير عليك» الحديث وفي رواية أصحاب السنن الثلاثة عنه «إذا آتاك الله مالا فلير أثر نعمة الله عليك وكرامته» وأخرج البخاري في التاريخ والطبراني والضياء بسند صحيح عن زهير بن أبي علقمة مرفوعاً «إذا آتاك الله مالا فلير عليك فإن الله يحب أن يرى أثره على عبده حسناً، ولا يحب البؤس ولا التباؤس» والشكر نصف الإيمان، بحسب متعلقاته من الأعمال والأحوال، وهي ما يجب على العبد لربه وعباده من استعمال نعمه عليه فيما يرضيه من أحكام شرعه، وموافقة سننه وحكمته في خلقه، والنصف الآخر الصبر وهو ما يجب في حال وقوع المكروه والابتلاء من عمل بدني ونفسي. ويضاد الشكر الكفر وهو قسمان، كفر النعم وكفر المنعم، وأنصح للقارىء أن يطالع كتاب الصبر والشكر في المجلد الرابع من إحياء العلوم للغزالي

(٦١) وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ، وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ، وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ

لما ذكر تعالى عباده بفضلله، وما يجب عليهم من شكره، ويكون أكثرهم لا يشكرونه كما يجب عليهم - عطف على ذلك تذكيره لهم باحاطة علمه بشؤونهم وأعمالهم كلها، صغيرها وكبيرها، جليلها وحقيقها، وبكل في العوالم علوها وسفلها، ليحاسبوا أنفسهم على تصديرهم في ذكره وشكره وعبادته، وبدأ بخطاب أعظمهم شأنًا في أعظم شؤونه فقال

﴿وما تكون﴾ أيها الرسول ﴿في شأن﴾ أي أمر من أمورك المهمة الخاصة-

(يونس : ١٠) . اعجاز القرآن في اختيار الالفاظ في المعنى الواحد ٤١٣

بك أو العامة التي تعالجها أمر الامة ، في الدعوة إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، انذاراً وتبشيراً ، وتعلماً وعملاً ﴿ وما تتلو منه من قرآن ﴾ أي وما تتلو من أجل ذلك الشأن من قرآن أنزل عليك ، تعبداً به أو تبليغاً له ، فمن الاولى للتعليل والثانية للتبويض ، أو الضمير في منه للكتاب لأن السياق بل السورة كلها فيه ، واضماره قبل الذ كر ثم بيانه تفخيم له - وقيل لله لذكركه في الآية قبلها . والتعبير في خطابه ﷺ بالشأن وهو الامر العظيم أو ذو البال يدل على أن جميع أموره وأعماله ﷺ كانت عظيمة حتى العادات منها ، لأنه كان قدوة صالحة فيها كلها ﴿ ولا تعملون من عمل ﴾ هذا خطاب عام للامة كلها في كل شؤونها وأعمالها ، بعد خطاب رأسها وسيدها في أخص شؤونه وأعمالها ، فتذكرك الآية في أخص الالفاظ وأقصرها بأفضل ما آتاك الله من هداية ونعمة ، وتنتقل بك إلى كل عمل تعمله من شكر وكفر وإن كان كمثل ذرة ، فإن مجيئ (عمل) نكرة منفية يفيد العموم ، ودخول (من) التبعية عليه يؤكد هذا العموم ، فيشمل أدق الاعمال وأحقرها ، وهو في معنى قوله تعالى (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) ﴿ إلا كنا عليكم شهوداً ﴾ أي رقباء مطلعين عليكم ﴿ إذ تفيضون فيه ﴾ أي تخوضون وتندفعون فيه ، فنحفظه عليكم لنجزاكم به ، وأصل الافاضة في الشيء أو من المكان الاندفاع فيه بقوة أو بكثرة كما تقدم في (أفضتم من عرفات) ﴿ وما يغرب عن ربك ﴾ أي وما يبعد عنه ولا يغيب عن علمه ولا يخفى عليه ، قرأ الجمهور يعزب بضم الزاي والكسائي بكسرها وهما لغتان فيها - وأصله من قولهم عزب الرجل يعزب بابه ، أي يبعد ويغيب في طلب الكلاء العازب وهو ما يكون بفلاة بعيدة حيث لا زرع ، ويقال رجل عزب بفتحيتين أي منفرد ، ومنه رجل وامرأة عزب أي منفرد لا زوج له أو لها ، ويقال امرأة عزبة ، واختلف في أعزب وعزباء ، ونفي عزوب الشيء عن الرب تعالى أخص وأبلغ من نفي الغيبة أو الخفاء عنه . كما أن الافاضة في العمل أخص من إتيانه مطلقاً . وحكمة تخصيصها بالذكر دون اللفظ الاعم منها ، هي أن ما يفيض فيه الانسان مهتماً به مندفعاً فيه جدير بأن

لا ينسى أو يغفل عن مراقبة ربه فيه وإطلاعه عليه ، فاللفظ يذكره به تذكيراً آمناً مؤثراً . وكذلك لفظ (يعزب) الدال على الخفاء والبعد معاً ، فكأنه يقول ان ما شأنه أن يبعد ويخفى عليكم من أعمالكم لا يغيب عن علم ربكم فانه لا يعزب عنه

﴿ من مثقال ذرة ﴾ أي اقل شيء يبلغ وزنه ثقل ذرة وهي النملة الصغيرة يضرب بها المثل في الصغر والخفة ، ويطلق على الدقيقة من الهباء وهو الغبار الذي لا يرى إلا في

ضوء الشمس الداخل من السكوى إلى البيوت ﴿ في الارض ولا في السماء ﴾ أي في الوجود سفليه وعلويه ، وقدم ذكر الارض لان الكلام مع أهلها ، وآخره في آية سبأ (٣: ٣٤) وقدم السماء لانها في سياق ثنائته تعالى على نفسه ووصفه باحاطة علمه فتناسب تقديم السماء لانها أعظم فان فيها من الشمس وعوالمها ما يبعد بعضه عن بعض مسافة ألوف الألوف من السنين التي تقدر ابعادها بسبعة النور ، كما ثبت في علم هذا العصر

﴿ ولا اصغر من ذلك ولا أكبر ﴾ هذا كلام مستقل بنفسه قائم برأيه ، مؤكدا لما قبله بتعبير ادق وأشمل ، و(لا) فيه نافية للجنس على قراءة الجمهور ، أي ولا شيء أصغر من الذرة وهو ما لا تبصرونه من دقائق الكون كما قال (ولا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون) ولا أكبر منها وإن أعظم مقداره كمرشه عز وجل ، وقرأ حمزة ويعقوب أصغر بالرفع على الابتداء والخبر ، ولا يخفى توجيهه في الإعراب على أهله . قدم ذكر الأصغر لانه هو الأهم في سياق العلم بالخطي ، وعطف عليه الأكبر لإفادة الإحاطة وكون الأكبر لا يكبر عليه كما أن الأصغر لا يعزب عنه .

﴿ إلا في كتاب مبين ﴾ أي إلا وهو معلوم ومحصى عنده ومصر قوم في كتاب عظيم الشأن تام البيان ، وهو الكتاب الذي كتب فيه مقادير الموجودات كلها إكالا للنظام ، وقد بينا ما ورد في هذا الكتاب المبين في تفسير (٥٩: ٦) وعنده مفاتيح الغيب (الآية من سورة الانعام فراجع في (ص ٤٥٧ و ٤٦٩) من الجزء السادس من هذا التفسير . وفي الآية إشارة إلى ما في الوجود من أشياء لا تدركها الابصار ، وقد رؤي كثير منها في هذا العصر بالآلات التي تكبر الثريات اضعافا كثيرة ، ولم يكن هذا مما يخطر في البال في عصر التنزيل ، فهو من دقائق تعبير القرآن ، التي تظهر حكمتها

للناس آنا بعدآن ، وتقدم التذكير بما لها من الامثال التي هي من أنواع الاعجاز

(٦٢) أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ

(٦٣) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٤) لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ، ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ

لما بين تعالى لعباده سعة علمه ، ومراقبته لعباده ، وإحصاء أعمالهم عليهم ،
وجزاءهم عليها ، وذكركم بفضله ، وما يجب عليهم من شكره ، بين لهم في هذه
الآيات الثلاث حال الشاكرين المتقين ، الذين لهم أحسن الجزاء في يوم الدين ،
فقال ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ ﴾ فتتحت هذه الجملة بكلمة (ألا) للتنبيه وتوجيه الفكر
لها ، والأولياء جمع ولي وهو وصف من الولاء والتوالي ، ومن الولاية والتولي ، فيطلق
على القريب بالنسب وبالمسكانة والصداقة ، وعلى النهير ، والتولي له سر والحكم ،
أو على اليتم والقاصر المدبر لشؤونه ، ويوصف به العبد والرب تعالى كما تقدم في قوله
تعالى (٢٥٧ : ٢) الله ولي الذين آمنوا) وفصلنا الكلام في تفسيره بما بينا به ولاية
الله العامة والخاصة لعباده ، وولايتهم له ، وأول الشيطان والطاغوت ، وولاية بعضهم
لبعض ، وضلال بعضهم بجمل ولاية الله الخاصة به لبعض عباده ، وهم الذين يسموهم
أولياء الله بما يسلبهم استحقاق هذا اللقب ، وذكرنا في شواهد ذلك التفسير هذه الآية
أولياء الله أضداد أعدائه الشر كين به ، الكافرين بنعمه ، فهم المؤمنون
المتقون كما نطقت به الآية ، وهم درجات أعلام درجة هم الذين يتولونه باخلاص
العبادة له وحده ، والتوكل عليه ، وحببه والحب فيه ، والولاية له ، فلا يتخذون
له أنداداً يحبونهم من نوع حبه ، ولا يتخذون من دونه ولياً ولا شفيعاً يقربهم إليه
زلفى ، ولا وكيلاً ولا نصيراً فيما يخرج عن توفيقهم لأقامة سننه في لاسباب والمسببات ،
ويتولون رسوله والمؤمنين بما أمرهم به ، قال تعالى (٥١ : ٦) وأنذر به الذين
يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع لهم يتقون) وقال

٤١٦ نفي الخوف والحزن عن أولياء الله وصفاتهم التفسير : ج ١١

(٤٠٣٢ مالكم من دونه من ولي ولا شفيع أولاً تنذكرون) وقال (١٧: ٣٣) قل من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة ؟ ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً (وقال في آيتين أخريين منها (٤٨ و ٢) وكفى بالله وكيلاً) والآيات كثيرة في توليهم له بالطاعة ، وتوليهم لهم بالهداية والعناية والإعانة والنصر والتوفيق .

وحسبنا هذا ما نفاه عنهم وما وصفهم به ثم مازفه إليهم من البشارة . فأما ما نفاه مخبراً به عنهم فقوله (لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) وهو ما نفاه عن جميع المؤمنين الصالحين والمصلحين والمتقين في الآيات الكثيرة (راجع ٦٢: ٢ و ٧٢: ٥ و ٤٨: ٦ و ٤٣: ٧ و ٤٩) وقد تقدم تفسيرها (فأما في الآخرة حيث يتحقق هذا على أتم وجه وهو المقصود بالذات فلا خوف يقع عليهم ويرهبون به مما يخف الكفار والفساق والظالمون من أهوال الموقف وعذاب الآخرة ، كما قال تعالى بعد ذكر إعادتهم عن جهنم (١٠٣: ٢) لا يحزنهم الفزع الأكبر) الآية ، ولا هم يحزنون على ما تركوا وراءهم وأما في الدنيا فلا يخافون مما يخاف غيرهم من الكفار وضغائن الأيمان وعبيد الدنيا من مكروه يتوقع كلفاء العدو قال (١٧٥: ٣) فلا تخفوهم وخافون إن كنتم مؤمنين) أو يخس في الحقوق أو رهب يغشاهم بالظلم والذل ، قال (١٣: ٧٢) فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا رهقاً) ولا هم يحزنون من مكروه أو ذهاب محبوب وقع بالفعل كما قال (٥٧) لكيلا تأسوا على ما فاتكم) والمراد أنهم لا يخافون في الدنيا كخوف الكفار ولا يحزنون كحزنهم ، وسند كرفي الخوف والحزن عنهم عند الموت . وأما أصل الخوف والحزن فهو من الأمراض البشرية التي لا يسلم منها أحد في الدنيا ، وإنما يكون المؤمنون الصالحون أصبر الناس وأرضاهم بسنن الله اعتقاداً وعلماً بأنه إذا ابتلاهم بشيء مما يخيف أو يحزن فإنما يريد بهم بذلك لتكميل نفوسهم وتمحيصها بالجهاد في سبيله الذي يزداد به أجرهم كما صرحت بذلك الآيات الكثيرة .

وأما ما وصفهم وعرفهم به فقوله (الذين آمنوا وكانوا يتقون) فهذا استئناف لبيان حال هؤلاء الأولياء النفسية العلمية والعملية ، أي هم الذين جمعوا بين الإيمان الصحيح بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وملكة التقوى له عز

وجل ، وما تقتضيه من عمل ، وعبر عن إيمانهم بالفعل الماضي لبيان أنه كان كاملاً باليقين ، لم يزل له شك ولم يحصل بالتدريج ، وعن تقواهم بالفعل الذي يدل على الحال والاستقبال لأن التقوى تتجدد دائماً بحسب متعلقاتها : من كسب وحرب ، وشهوة وغضب ، والمعنى الجامع فيها أنها اتقاء كل ما لا يرضي الله تعالى من ترك واجب ومندوب ، وفعل محرم ومكروه ، واتقاء مخالفة سنن الله تعالى في خلقه من أسباب الصحة والقوة والنصر والعزة وسيادة الأمة. وقد فصلنا هذا في مواضع من أهمها تفسير قوله تعالى (٨ : ٢٩) يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم .

وأما البشري التي رَفِها اليهم فهي قوله ﴿ لَهْمُ الْبَشَرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ البشري الخبر السار الذي تنبسط به بشرة الوجه فيتهلل وتبرق أساريره . وهذه البشري مبينة في مواضع من كتاب الله تعالى ، وقد يراد بها متعلقها الذي يبشرون به ولم يذكر هنا ليشمل كل ما بشروا به في كتاب الله تعالى وعلى لسان رسوله ﷺ ، فأما البشري في الحياة الدنيا فأهمها البشارة بالنصر ، وبحسن العاقبة في كل أمر ، وباستخلاصهم في الأرض ، ما أقاموا شرع الله وسننه ، ونصروا دينه وأعلوا كلمته ، وأما في الآخرة فن أنزلها وأجمعها لما في الآية لأكلهم قوله (٤١ : ٣٠) ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون ٣١ نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون ٣٢ نزلا من غفور رحيم (المشهور في تنزل الملائكة عليهم أنه يكون عند البعث ، وكذا عند الموت ، ولا مانع من شموله لما في الدنيا من تثبيت قلوبهم ، وتقوية إلهام الحق والخير فيهم ، كما قال تعالى في الملائكة الذين أمد بهم أصحاب رسوله ﷺ في غزوة بدر (٨ : ١٠) وما جعله الله إلا بشري لكم ولتطمئن به قلوبكم) الآية ثم قال (١٢) اذ يوحى ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا) وقد يكون منه إلهام الحق والخير كما ورد في حديث ابن مسعود مرفوعاً عند « تفسير القرآن الحكيم » « ٥٣ » « الجزء الحادي عشر »

الترمذي والنسائي « إن للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة ، فأما لمة الشيطان فيعاد بالشر وتكذيب بالحق ، وأما لمة الملك فيعاد بالخير وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك فليعلم انه من الله فليحمد الله ، ومن وجد الاخرى فليتعوذ بالله من الشيطان »

﴿ لا تبديل لكلمات الله ﴾ أي لا تغيير ولا خلف في مواعيد الله عز وجل ،

ومنها هذه البشارات وما في معناها من الآيات ﴿ ذلك هو الفوز العظيم ﴾ أي ذلك الذي ذكر من البشرى بسعادة الدارين هو الفوز العظيم الذي لا يعلمه فوز ، وإنما هو ثمرة الايمان الحق ، والتقوى العامة في حقوق الله وحقوق الخلق

ماورد من الاخبار والآثار في الاولياء

ذكر بعض المفسرين في تفسير الآية بعض الاخبار النبوية ولا يصح منها حديث مرفوع متصل الاسناد ، وأقرب ما روه في تفسيرها إلى اصطلاحهم في الاولياء حديث أبي هريرة المرفوع « ان من عباد الله عباداً يغبطهم الانبياء والشهداء » قيل من هم يا رسول الله ؟ قال « هم قوم تحابوا في الله من غير أموال ولا أنساب ، وجوههم نور ، على منابر من نور ، لا يخافون اذا خاف الناس ، ولا يحزنون اذا حزن الناس » ثم قرأ (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) أخرجه ابن جرير من طريق شيخه أبي هشام الرقاعي وهو محمد بن يزيد بن كثير العجلي الكوفي ، قال البخاري رأيتهم مجمعين على ضعفه . ورواه أبو داود من حديث عمر بن الخطاب بمثل سند ابن جرير عن أبي زرعة بن عمرو ابن جرير عنه إلا انه منقطع بين أبي زرعة وعمرو وقال بعضهم وأخرجه الحاكم وصححه ولم أره في تفسير السورة من المستدرک وما كل ما صححه الحاكم بصحيح . ومتن هذا الحديث مشكل لانه يدل على تفضيل الاولياء على الانبياء وهو مخالف لاجماع علماء المسلمين ، موافق لقول بعض أولياء الشياطين : ان الولي أفضل من النبي ، من حيث ان ولاية النبي أفضل من نبوته ، وهو تأويل شيطاني

ومثله حديث أبي مالك الاشعري مرفوعاً « يأتي من أفناء الناس ونوازع القبائل قوم لم تتصل بينهم أرحام متقاربة ، تحابوا في الله ، وتصافوا في الله ، يضع

الله لهم يوم القيامة منابر من نور فيجلسهم عليها ، يفرع الناس ولا يفرعون ، وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » والحديث مطول أخرجه الامام أحمد من طريق شهر بن حوشب وفيه مقال لهم أهونه ما اكتفى به الحافظ في التقریب وهو انه صدوق كثير الارسال والالوهام ، وذكر في تهذيب التهذيب : ان مما قيل فيه انه يروي المنكرات عن الثقات ، وقال ابن حزم هو ساقط ، وقال ابن عدي ضعيف جداً

وورد عدة روايات مرفوعة وآثار في تفسير البشري في الدنيا بالرؤيا الصالحة يراها المسلم أو المؤمن أو ترى له . وعليه ابن مسعود وأبو هريرة وابن عباس من الصحابة ، ومجاهد وعروة بن الزبير وبجي بن أبي كثير وابراهيم النخعي وعطاء ابن أبي رباح من التابعين وغيرهم ، وفسرها بعضهم بآية حم السجدة التي أوردناها آنفاً مع تفسيرها . وروي عن ابن عباس وغيره أن الأولياء هم الذين اذا رؤوا ذكر الله لرؤيتهم ورواه بعضهم مرفوعاً وهو ضعيف ، وروي عن أبي حنيفة والشافعي انهما قالوا : اذا لم يكن العلماء أولياء الله فليس الله تعالى ولي . قال النووي والمراد بهم العلماء العاملون . فهذه خلاصة الروايات في الآية .

وانما لم نر في الاحاديث الصحيحة في الاولياء ما هو أقرب إلى كلام الصوفية منه الى كلام الله عز وجل الا حديث « من عادى لي ولياً فقد آذنته بحرب » الخ وقد انفرد به البخاري وفي سنده غرابة كتته . قال الحافظ ابن رجب : هذا الحديث تفرد باخراجه البخاري دون بقية أصحاب الكتب ، خرجه عن محمد بن عثمان بن كرامة عن خالد بن مخلد — إلى أن قال — وهو من غرائب الصحيح تفرد به ابن كرامة عن خالد وليس في مسند أحمد مع ان خالد بن مخلد القطواني تكلم فيه الامام احمد وغيره وقالوا له منا كبير (ثم قال) وقد روي من وجوه آخر لا تخلو كلها من مقال . وذكر الحافظ في تهذيب التهذيب اختلاف أئمة الجرح والتعديل في خالد ، ومنه تصريح جماعة بروايته للمناكير ومنه : في الميزان للذهبي قال أبو حاتم يكتب حديثه ولا يحتج به ، وقال الازدي في حديثه بعض المناكير وهو عندنا في عداد أهل الصدق ، ومنه قول ابن سعد كان منكر الحديث متشيعاً

مقرطاً في التشيع وكتبوا عنه للضرورة . وذكر بعض هذا الجرح وغيره في مقدمة فتح الباري وأجاب عنه بما حاصله أن التشيع لا يضر مثله ، وأما المناكير فقد تنبها أبو أحمد بن عدي من حديثه وأوردها في كامله وليس فيها شيء مما أخرجه له البخاري (قال) بل لم أر له عنده من أفراد سوى حديث واحد وهو حديث أبي هريرة « من عادى لي ولياً » الحديث اهـ

(أقول) وأما الغرابة في متن هذا الحديث فهو قوله تعالى « ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه » فإذا أحبيته كنت سمعه الذي يسمع به « الخ الذي استدلوأ به على الحلول والاتحاد ، وقد أوله العلماء وبينت أمثل تأويل له عندي في الكلام على حب الله تعالى من تفسير (٩ : ٢٤ ص ٢٣٩ ج ١٠ تفسير) فراجعه يغفك عن ذكره كاهنا

﴿ أولياء الخيال وأولياء الطاغوت والشيطان ﴾

ذلك ما فسرنا به الآيتين بشواهد مما في معنهما من الآيات ، والقرآن خير ما يفسر به القرآن وأصح ، وكل ما خالفه وخرج عنه فهو باطل ، وعززناه بأمثل ما روي من الأخبار والآثار فيهما ، فأولياء الله الذين يشهد لهم كتابه بالولاية لهم المؤمنون الصالحون المتقون ، ولكن اشتهر بين المسلمين بعد عصر السلف ما يدل على أن الأولياء عالم خيالي غير معقول ، لهم من الخصائص في عالم الغيب ، والتصرف في ملكوت السموات والأرض ، فوق كل ما ورد في كتاب الله وأخبار رسوله الصادقة في أنبياء الله المرسلين ، بل فوق كل ما وصف به جميع الوثنيين آلهتهم وأربابهم التي اتخذوها من دون الله ، وينقلون مثل هذه الدعاوى عن بعض من اشتهروا بالولاية ممن لهم ذكر في التاريخ ، ومن لا ذكر لهم إلا في كتب الادعياء الذين فتنوا المسلمين والمسلمات بهم ، ممن يسمون بالمصوفة وأهل الطريق ، ينقلون عنهم ما يؤيدون به مزاعمهم الخرافية الشريكة كما ترى فيما نقله من الشواهد الآتية

واثن أنكر عليهم منكر ، واحتج عليهم بكتاب ربهم وحديث نبيهم مفسر أو محدث ، ايقولن هذا ضال مضل منكر للكرامات ، مخالف للقرآن ، وقرأوا عليه (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) وهل هذه الآية الا كقوله تعالى (إن الذين

آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون (وغيره مما أوردنا من الشواهد آنفاً ، نعم إن هؤلاء المؤمنين الصالحين درجات أشرنا آنفاً إلى أدناها وأعلاها ، وفصلنا القول فيهم في الكلام على حب الله ورسوله من تفسير (١٠ : ٢٤)

هذه الولاية الخيالية المبتدعة من محدثات الصوفية ألبسوها أولاً ثوب الشريعة ، وجعلوا للشريعة مقابلاً سموه الحقيقة ، ثم صاروا يلبسونها عليها لباساً ، ويبعدون بها عنها معنى وحساً ، بقدر ما يبعدون عن الاتباع ، ويوغلون في الابتداع ، واعتبر في ذلك بسيرة سلفهم الأواين كالحارث المحاسبي والسري السقطي ومنصور ابن عمار والجنيد والشبلي وجمهور رجال رسالة القشيري ، ومثل أبي إسماعيل الهروي وسيرة من بعدهم ، فإن أكثر أولئك قد رووا الحديث وتعقوه في الدين ، وكانوا يتحرون الاعتصام بالكتاب والسنة ، ويحذرون ويحذرون اتباعهم من البدع ، ويحثون على اتباع السلف ، من الصحابة والتابعين وأئمة آل البيت وحفاظ السنة وعلماء الأمصار كالاربعة وطبقتهم ، ولولا هذا لكان بينهم وبين غلاة متصوفة القرون الوسطى ومن بعدهم من المبتدعة والدجائين أصحاب الدعاوى العريضة والخرافات الشنيعة مثل ما بين صوفية البرهمية والاسلام ، وكتابتهم (الفيدا) وكتابه القرآن

أمر ببعثك على طبقات الشعرا في الكبرى فانك لا ترى فيها فرقاً كبيراً بين سيرة أئمة الحديث والفقهاء وأئمة التصوف في العبادة والتقوى والعلم والحكمة ، ثم انظر في سيرة من بعدهم من صوفية القرون الوسطى ثم قرن المؤلف وهو العاشر وتأمل ووازن تر في أولياء الشعرا في المجانين والمجان والقدرين الذين تقناثر الحشرات من رؤوسهم ولحاهم وثيابهم التي لا يغسلونها حتى تبلى أو في السنة مرة واحدة ، تجد ذلك البون الشاسع فيهم ، وهم مع ذلك يفضلون أنفسهم على الأنبياء ، ومنهم من بدعي الاتحاد بالله أو الألوهية

تأمل ما كتبه في ترجمة الذين يسمونهم الاقطاب الاربعة فانك لا تجد فيه لأحد منهم أنه كان ينفع الناس بعلوم الشرع إلا الشيخ عبد القادر الجيلاني ، وتجد أن الشيخ احمد الرفاعي كان يوبخه علماء عصره ويخاطبونه بقلب الدجال ويرمون

بالجمع بين النساء والرجال ، وأما الدسوقي فكاتب عنه انه كان يتكلم بالعجمي والسرياني والعبراني والزنيجي وسائر لغات الطيور والوحوش ، ونقل عنه كتابا من هذه اللغات أرسله إلى أحد مريديه ، وهو خلط مخترع ليس منها في شيء ، وسلاما مثله أرسله مع أحد الحجاج إلى رسول الله ﷺ منه قوله « موز الرموز ، عموز النهوز ، سلاحات أفق ، فردنانية امق ، شوامق اليرامق ، حيد وفرقيد ، وفرغاط الاسباط » الخ فما معنى هذا وأي فائدة للناس فيه ؟

ونقل عنه كلاما من الممهود من أمثاله الصوفية منه النافع والضار ، فن الحق النافع مامعناه انه لو لم تغلب عليهم الاحوال لما قولوا في التفسير الا صحيح المأثور ، ومن الضار الذي أفسد على المصدقين بولاية هؤلاء الناس دينهم وهو مما نحن فيه قوله : وكان (رض) يقول : أنا موسى عليه السلام في مناجاته ، أنا علي (رض) في حملاته ، أنا كل ولي في الارض خلقته بيدي ، ألبس منهم من شئت ، أنا في السماء شاهدت ربي وعلى الكرسي خاطبته ، أنا بيدي أبواب النار غلقتها ، وبيدي جنة الفردوس فتحتها ، من زارني أسكنته جنة الفردوس » الخ وقوله وهو في تفسير الآية : « واعلم يا ولدي أن أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون متصلون بالله ، وما كان ولي متصل بالله إلا وهو يناجي ربه كما كان موسى عليه السلام يناجي ربه ، وما من ولي إلا وهو يحمل على الكفار كما كان علي (رض) يحمل ، وقد كنت أنا وأولياء الله أشياخا في الازل ، بين يدي قديم الازل ، وبين يدي رسول الله ﷺ وان الله عز وجل خلقني من نور رسول الله ﷺ وأمرني أن أخضع على جميع الاولياء بيدي فخلعت عليهم بيدي ، وقال لي رسول الله ﷺ يا ابراهيم أنت نقيب عليهم ، فكنت أنا ورسول الله ﷺ وأخي عبد القادر خلفي وابن الرفاعي خلف عبد القادر ، ثم التفت إلي رسول الله ﷺ وقال لي « يا ابراهيم سر الى مالك وقل له يفلق النيران ، وسر الى رضوان وقل له يفتح الجنان ، ففعل مالك ما أمر به ، ورضوان ما أمر به » الخ وله ما هو أغرب منه

وذكر الشعراني انه أطال في هذا الكلام وهو من مقام الاستطالة تعطي

الرتبة صاحبها أن ينطق بما ينطق به ، وقد سبقه إلى نحو ذلك الشيخ عبد القادر الجيلي (رض) وغيره فلا ينبغي مخالفته إلا بنص صريح اهـ

ونقول، ان مثبت هذه الدعاوى المنكرة في عالم الغيب من شؤون رب العالمين وملائكته وأكرم رسله وجنته وناره هو الذي يحتاج في إثباته إلى النص الصريح دون منكره فإنه يتبع الأصل، والاجماع على أن شيئاً من ذلك لا يثبت إلا بنص قطعي، وسنذكر ما انتهت إليه هذه الدعاوى في افساد الدين، واضلال الملايين من المسلمين .

جاء في كتب الرفاعية ان الشيخ احمد الرفاعي مس بيده سمكة فأرادوا شيمها بالنار فلم تؤثر فيها النار فذكروا له ذلك فقال : وعدني العزيز ان كل ما لمسته يد هذا اللاش حميد لا تحرقه النار في الدنيا ولا في الآخرة ، وجاء فيها : ان سيدي احمد الرفاعي كان يميت ويحيي ، ويسعد ويشقي ، ويغفر ويغني ، وأنه وصل إلى مقام صارت السموات السبع في رجله كالخلخال . وفي البهجة الرفاعية ان سيدهم أحمد الرفاعي باع بستاناً في الجنة لبعض الناس وذكر له حدوداً أربعة . وقد نقلت هذا وما قبله في كتابي (الحكمة الشرعية في محاسبة القادرية والرفاعية)

وجاء في بعض كتب مناقب الشيخ عبد القادر الجيلي انه مات بعض مرديه فشكت إليه أمه وبكت فرق لها فطار وراء ملك الموت في المساء وهو صاعد إلى السماء يحمل في زنبيل ما قبض من الارواح في ذلك اليوم فطلب منه أن يعطيه روح مریده أو أن يردها اليه فامتنع ، فغضب الزنبيل منه فأفلت فسقط جميع ما كان فيه من الارواح فذهبت كل روح إلى جسدها ، فصعد ملك الموت إلى ربه وشكا له ما فعله عبد القادر فأجابه الرب سبحانه بما امتنعنا من نقله إذ نقلنا هذه الخرافة في الجزء الاول من المجلد التاسع من المنار تنزيهاً وأدباً مع ربنا عز وجل

ونقلنا ثم أن خطيباً خطب المسلمين في الهند ذاكراً مناقب الشيخ عبد القادر فقال : ان حداً خطفت قطعة لحم مما ذبح للشيخ عبد القادر في مولده — كما كانوا يذبحون للأصنام — فوقعت عظمها في مقبرة فغفر الله تعالى لجميع من دفن فيها كرامة للشيخ عبد القادر ، ويأويل من ينكر أمثال هذه الخرافات فيستهدف لرميه بمخالفة قوله تعالى

(ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) وإنكار الكرامات وقول اللقاني وأثبتن للأولياء الكرامه ومن نفاها فانبذن كلامه
ومن هذه الكرامات بزعمهم ادعاء الوحي ولا ينافيها عندهم معارضة القرآن، وعبادة الشيطان، وعلم الغيب، وملك النفع والضرر، وتدبير الامر، وترك الفرائض وارتكاب الفواحش، لانها لا تكون من أولياءهم إلا صورية لمصلحة، وكذا الكفر الصريح كما ترى في الشواهد الآتية :

﴿ الشاهد الاول كرامات ولي شيطاني موحد الوهية ابليس ﴾

قال الشراني في ترجمة الشيخ محمد الحضري « كان من أصحاب جدي رضي الله عنهما » و كان يتكلم بالغرائب والعجائب من دقائق العلوم والمعارف مادام صاحبا، فإذا قوي عليه الحال تكلم بالفاظ لا يطيق أحد سماعها في حق الانبياء وغيرهم، وكان يرى في كذا كذا بلداً في وقت واحد وأخبرني الشيخ أبو الفضل السمرسي انه جاءهم يوم الجمعة فسألوه الخطبة فقال بسم الله فطعم المنبر فحمد الله وأثنى عليه ومجده ثم قال : وأشهد أن لا إله لكم إلا ابليس عليه الصلاة والسلام. فقال الناس كفر، فسل السيف ونزل فهرب الناس كلهم من الجامع فحس عند المنبر الى أذان العصر، وما تجرأ أحد أن يدخل الجامع، ثم جاء بعض أهل البلاد المجاورة فأخبر أهل كل بلد انه خطب عندهم وصلى بهم، قال فمددنا له ذلك اليوم ثلاثين خطبة هذا ونحن نراه جالسا عندنا في بلدنا « وأخبرني الشيخ أحمد القلمي ان السلطان قايتباي كان اذا رآه قاصداً له تحول ودخل البيت خوفاً أن يبطش به بحضرة الناس . وكان اذا أمسك أحداً بمسكه من لحيته ويصير يبصق على وجهه ويصفعه حتى يبدو له اطلاقه، وكان لا يستطيع أكبر الناس أن يذهب حتى يفرغ من ضربه، وكان يقول لا يكمل الرجل حتى يكون مقامه تحت العرش على الدوام، وكان يقول : الارض بين يدي كالاناء الذي آكل منه، وأجساد الخلائق كالقوارير أرى مافي بواطنهم . توفي رضي الله عنه سنة سبع وتسعين وثمانمائة (رض) اه ص ٩٤ ج ٢ طبقات

(أقول) لولا ان سلطان هؤلاء القوم مجنون بالخرافات مثلهم لما كان لمثل هذا المجنون مأوى إلا البيارستان يكف كفره وشره عنهم

﴿الشاهد الثاني كرامة ولي العاهرات والزناة الفاعل بالأثان﴾

قل في ترجمة من سماه (سيدي علي وحيش من مجاذيب النجارية) «كان (رض) من أعيان المجاذيب أرباب الأحوال، وكان يأتي مصر والمحلة وغيرهما من البلاد، وله كرامات وخوارق، واجتمعت به يوماً في خط بين القصرين فقال لي: ودّيني للزباني فوديته له فدعا لي وقال الله يصبرك على ما بين يديك من البلوى. وأخبرني الشيخ محمد الطنبيخي رحمه الله تعالى قال: كان الشيخ وحيش (رض) يقيم عندنا في المحلة في خان بنات الخطا (أي العاهرات) وكان كل من خرج يقول له قف حتى أشفع فيك عند الله قبل أن تخرج، فيشفع فيه، وكان يحبس بعضهم اليوم واليومين ولا يمكنه أن يخرج حتى يحجب في شفاعته، وقال يوماً لبنات الخطا أخرجوا (?) فنالخان رائح يطبق عليكم، فاسمع منهن إلا واحدة فخرجت ووقع على الباقي فتمن كلهن، وكان إذا رأى شيخ بلد أو غيره ينزله من على الحارة ويقول له أمسك رأسها حتى أفعل فيها، فإن أبي شيخ البلد تسمر في الأرض لا يستطيع يمشي خطوة، وإن سمع حصل له خجل عظيم والناس يمرون عليه، وكان له أحوال غريبة وقد أخبرت عنه سيدي محمد بن عمن (رض) فقال هؤلاء ينجلون للناس هذه الأفعال وليس لها حقيقة» اهـ (ص ١٢٩ منه) وولاية هذا المجنون أنه قوادل العاهرات بضمانه المغفرة لمن يفجر بهن بشفاعته، وأضل منه علماء الخرافات المدعون لكرامته

﴿الشاهد الثالث ولاية مجنون معارض للقرآن بالكفر والهديان﴾

قل في ترجمة الشيخ شعبان المجذوب أنه كان من أهل التصريف بمصر المحروسة ونقل عن شيوخه على الخواص أن الله تعالى كان يظلمه على جميع ما يقع في السنة عند رؤية هلالها، وأنه كان يسأله عما يشكل عليه (ثم قال) وكان يقرأ سوراً غير السور التي في القرآن على كراسي المساجد يوم الجمعة وغيرها فلا ينكر عليه أحد، وكان العامي يظن أنها من القرآن لشبهها بالآيات في الفواصل

«وقد سمعته مرة يقرأ على باب دار على طريقة الفقهاء الذين يقرءون في البيوت فصغيت إلى ما يقول فسمعته يقول: وما أنتم في تصديق هود بصادقين، ولقد أرسل الله لنا قوماً بالموثفات يضر بوننا ويأخذون أموالنا وما لنا من ناصرين. ثم قال: اللهم

اجعل ثواب ما قرأناه من الكلام العزيز في صحائف فلان وفلان - إلى آخر ما قال «
ثم ذكر انه كان عريانا دائما الا انه يستر سواتيه بقطعة جلد او بساط او حصير
لأنه كان يحرم كل ما عدا ذلك من زينة الدنيا قال « وكانت الخلائق تعتقده
اعتقاداً زائداً لم أسمع قط ان أحدا ينكر عليه شيئاً من حاله، بل يعدون رؤيته عيداً
عندهم نحنينا عليه من الله تعالى (رض) مات (رض) سنة ثمان وتسعين مائة هـ ص ١٦٠ منه
(أقول) اذا كان الشعراني من أكبر علماء الازهر ومؤلفيه يعد هذا المجنون
من أولياء الله ويترضى عنه كلما ذكره وإن تكرر فكره في سطر واحد، وكان شيخه
علي الخواص يتاقى عنه حل مشكلات المعارف الالهية ويعتمد على كشفه ، فهل
نكون مخطئين اذا قلنا إن جميع من شهد لهم بالولاية والكرامة كانوا خرافيين
مجانين مثله ، وأي قيمة كانت في عصره للعقل والعلم والدين ، وهل يوجد دلائل
على ان ذلك الجنون كان تخطا شيطانياً لاجذابا إلهيا أقوى من معارضة صاحبه
للقرآن بمثل ما نقله الشعراني مما سمعه وراه منه ورواه عنه من الهديان ؟

﴿ شواهد أخرى عن المعروف بالتجاني تابعة لما قبلها ﴾

كان من فساد هذا التصوف الذي بثه الشعراني وأمثاله في المسلمين أن وجد
في الغرب الأقصى في القرن الثالث عشر للهجرة شيخ اسمه الشيخ أبو العباس
أحمد التجاني صار له طريقة من أشهر الطرق امتدت من المغرب الأقصى إلى السودان
الفرنسي والجزائر فتونس فصر ، وصار لها مئات الألوف من الأتباع لما فيها
من الغلو في الدعاوى والخرافات والابتداع ، وتفضيل شيخها نفسه على جميع من
سبقة من أقطاب الأولياء وكذا الأنبياء بأمور منها ضمان النبي ﷺ له ولا صوله
وفروعه وأتباعه وإسكان من يكرمه ويحسن إليه ولو بالطعام أعلى منازل الجنة مع
رسول الله ﷺ بغير حساب ولا عقاب لأن جميع معاصيهم وتبعاتهم تغفر لهم
لاجله الخ كأن الغرض من طريقته أكل أموال الناس وطعامهم والجاه عندهم خلافا
لجميع صوفية العالم، وقد ألف أحد أتباعه كتاباً كبيراً في مناقبه وكراماته وأوراده
تلقاها من لسانه وقلمه، هدم بها هدى كتاب الله وسنة رسوله مدعياً أنه تلقاها منه
ﷺ وسماه (جواهر الماني) وهالك بعض الشواهد منه

﴿الشاهد الرابع ضمان دخول الجنة لكل من له علاقة بالتجاني بلا حساب ولا عقاب﴾

قل المؤلف في الفصل الثاني من الباب الاول

« قال (رض) أخبرني سيد الوجود بقظة لا مناما قال لي انت من الآمنين وكل من رآك من الآمنين إن مات على الايمان ، وكل من أحسن اليك بخدمة أو غيرها ، وكل من أطعمك (i) يدخلون الجنة بلا حساب ولا عقاب

(ثم قال) فلما رأيت ماصدر لي منه ﷺ من المحبة وصرح لي بها تذكرت الاحباب ومن وصلاني إحسانهم ، ومن تعلق بي بخدمة ، وأنا أسمع أكثرهم يقولون لي نحاسبك بين يدي الله إن دخلنا النار وأنت ترى ، فأقول لهم لا أقدر على شيء ، فلما رأيت منه ﷺ هذه المحبة سألته لكل من أحبني ولم يعاديني بعدها ، ولكل من أحسن إلي بشيء من مثقال ذرة فأكثر ولم يعاديني (?) بعدها ، وآكد ذلك من أطعمني طعامه (!!) قال كلهم يدخلون الجنة بلا حساب ولا عقاب

« قال وسألته ﷺ لكل من أخذ عني ذكراً أن تغفر لهم جميع ذنوبهم ماتقدم منها وما تأخر ، وأن تؤدي عنهم تبعاتهم من خزائن فضل الله لا من حسناتهم ، وأن يرفع الله عنهم محاسبته على كل شيء ، وأن يكونوا آمنين من عذاب الله من الموت إلى دخول الجنة ، وأن يدخلوا الجنة بلا حساب ولا عقاب في أول الزمرة الاولى ، وأن يكونوا كلهم معي في عليين في جوار النبي ﷺ ، فقال لي ﷺ ضمنت لهم هذا كله ضماناً لا تنقطع حتى تجاورني أنت وهم في عليين

(قال المؤلف) ثم اعلم اني بعد ما كتبت هذا من سماعه وإملائه علينا (رض) من حفظه وافظه اطلمت على ما أرسمه من خطه ، ونصه :

« أسأل من فضل سيدنا رسول الله ﷺ أن يضمن لي دخول الجنة بلا حساب ولا عقاب أنا وكل أب وأم ولدي من أبوي إلى أول أب وأم لي في الاسلام من جهة أبي ومن جهة أمي ، وجميع ما ولد آبائي وأمها من أبوي إلى الجد الحادي عشر والجد الحادية عشر (?) من جهة أبي ومن جهة أمي من كل ما تناسل منهم (?) من وقتهم إلى أن يموت سيدنا عيسى بن مريم من جميع الذكور والاناث ، والصغار

والكبار ، وكل من أحسن إلي باحسان من مثقال ذرة فأكثر ، من خروجي من بطن أمي إلى موتي ، وكل من له علي مشيخة في علم أو ذكر أو سر من كل من لم يعادني من جميع هؤلاء . وأما من عاداني أو أبغضني فلا ، وكل من أحبني ولم يعادني (?) وكل من والاني واتخذني شيخا أو أخذ عني ذكراً ، وكل من زارني وكل من خدمني أو قضى لي حاجة أو دعالي ، كل هؤلاء من خروجي من بطن أمي إلى موتي وآبائهم (?) وأمهاتهم وأولادهم وبناتهم وأزواجهم ووالدي أزواجهم يضمن لي سيدنا رسول الله ولكل واحد من هؤلاء أن أموت أنا وكل حي منهم على الإيمان والاسلام ، وأن يؤمننا الله وجميعهم من جميع عذابه وعقابه وتحويله وتخويله ورعيه وجميع الشرور من الموت إلى المستقر في الجنة ، وأن تغفر لي وجميعهم جميع الذنوب ما تقدم منها وما تأخر وأن تؤدى عني وعنهم جميع تبعاتنا وتبعاتهم ، وجميع مظالمنا ومظالمهم من خزائن فضل الله لا من حسناتنا ، وأن يؤمنني الله وجميعهم من جميع محاسناته ومناقشته وسؤاله عن القليل والكثير يوم القيامة ، وأن يظاني الله وجميعهم في ظل عرشه يوم القيامة ، وأن يجيزني ربي أنا وكل واحد من المذكورين على الصراط أسرع من طرفه العين على كواهل الملائكة ، وأن يسقيني الله وجميعهم من حوض سيدنا محمد يوم القيامة ، وأن يدخلني ربي وجميعهم جنته بلا حساب ولا عقاب في أول الزمرة الأولى ، وأن يجعلني ربي وجميعهم مستقرين في الجنة في عليين من جنة الفردوس ومن جنة عدن . أسأل سيدنا رسول الله ﷺ بالله أن يضمن لي وجميع الذين ذكرتهم في هذا الكتاب كل ما طلبته من الله لي ولهم في هذا الكتاب بكماله كله ضماناً يوصلني وجميع الذين ذكرتهم في هذا الكتاب إلى كل ما طلبته من الله لي ولهم [كذا بهذا التكرار] فأجاب رسول الله ﷺ بقوله الشريف : كل ما في هذا الكتاب ضمنته لك ضماناً لا تتخلف عنك وعنهم أبداً إلى أن تكون أنت وجميع ما ذكرت في جواربي في أعلى عليين ، وضمنت لك جميع ما طلبت منا ضماناً لا يخلف عليك الوعد فيها والاسلام اه بحروفه ولحنه وتكراره من ص ٩١ و ٩٢ ج ١ — قال المؤلف

ثم قل (رض) وكل هذا وقع يقظة لا مناما . ثم قال وأنتم وجميع الاحباب لا تحتاجون إلى رؤيتي انما يحتاج إلى رؤيتي من لم يكن حبيباً يعني تابعاً ولا آخذاً

عني ذكراً ولا أكلت طعامه. وأما هؤلاء فقد ضمنهم لي بلا شرط رؤية مع زيادة
انهم معي في عابدين» ولو روي هذا عنه في حياته لاجمع العلماء على انه مفترى عليه ﷺ
ثم قال التجاني : وأما من رأى قط غايته يدخل الجنة بلا حساب ولا عقاب
ولا مطمع له في عليين إلا أن يكون ممن ذكرتهم وهم أحببنا ومن أحسن إلينا ومن
أخذ عنا ذكراً فإنه يستقر في عليين معنا وقد ضمن لنا هذا بوعد صادق لا خلف
فيه إلا اني استثنيت من عاداني بعد المحبة والاحسان فلا مطمع له في ذلك ، فان
كنتم متمسكين بمحبتنا فابشروا بما أخبرتكم به فإنه واقع لجميع الاحباب قطعاً اه
وهنا ذكر مؤلف الكتاب ان هذه الكرامة العظيمة المقدار وهي دخول الجنة
بلا حساب ولا عقاب لمن ذكرهم لم تقع لأحد من الاولياء قبله الخ . ونزيد عليه
ان النبي ﷺ لم يضمن مثل هذا في حياته لأحد من أهل بيته ولا خواص أصحابه
من المهاجرين والانصار (رض) حتى العدد القليل الذين بشرهم بالجنة كالعشرة
لم يضمن لهم مازعم التجاني انه ضمنه لمن لا يحصى عدداً من أصوله وفروعه وأتباعه،
ولا يوجد في شريعته ما يدل على ان الله تعالى أذن له بمثل هذا ، بل قاعدة دينه
وشريعته ان الغرم بالغنم ، فمن تضاعف حسناتهم تضاعف سيئاتهم كما صرح به
الكتاب العزيز في خطاب نساءه ﷺ من سورة الاحزاب

وصح عنه ﷺ انه لما نزل عليه (وأندر عشيرتك الاقربين) جمعهم وكان مما
قاله لهم «اعملوا، لا أغني عنكم من الله شيئاً» قال هذا لعمه وعمته (رض) ولبنته السيدة
فاطمة سيدة النساء عليها السلام فكلام التجاني صريح في ان جميع أتباعه وأقاربه
ومحبيه والمحسنين اليه يكونون في عليين فوق اتباع جميع الانبياء ومحبيهم وإلا لما
بقي للجنات السبع أحد يسكنهن وهو افتراء لم يتجرأ عليه أحد من المجازفين قبله
(الشاهد الخامس عنه تفضيل أوراده المبتدعة على جميع العبادات المأثورة)

ذكر مؤلف هذا الكتاب صلاة عليه ﷺ يسمونها صلاة الفاتح وغلا فيما
زعمه من أمر النبي ﷺ له يقظة بها والعلو في ثوابها وهذا نصها :
« اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق ، والخاتم لما سبق ، ناصر الحق بالحق ، والهادي

إلى صراطك المستقيم، صلى الله عليه وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم» ذكر أن شيخه التجاني كان يقرؤها ثم تركها لصلاة أخرى المرة الواحدة منها بسبعين الف ختمه من دلائل الخيرات فأمره النبي ﷺ بالرجوع إليها وقال في ص ٩٦ من الجزء الاول ما نصه « فلما أمرني عليه السلام بقراءتها سألته عن فضلها فأخبرني أولاً بأن المرة الواحدة تعدل من القرآن ست مرات ، ثم أخبرني ثانياً ان المرة الواحدة منها تعدل من كل تسبيح وقع في الكون ومن كل ذكر ومن كل دعاء صغير أو كبير ومن القرآن ستة آلاف مرة لانه من الاذكار

(قال) « ومن جملة الادعاء (كذا) دعاء السيوفي ، ففي المرة الواحدة منه ثواب صوم رمضان وقيام ليلة القدر وعبادة سنة كما أخبرني به سيدنا عن سيد الوجود « وأعظم من دعاء السيوفي دعاء : يا من أظهر الجليل الخ وأنه هدية من جبريل للنبي ﷺ وأخبره انه لو اجتمعت ملائكة سبع سموات على أن يصفوه لما وصفوه إلى يوم القيامة . وكل واحد يصف ما لا يصفه الاخر فلا يقدرون عليه . ومن جملة ذلك ان الله يقول فيه « أعطيه من الثواب بقدر ما خلقت في سبع سموات وفي الجنة والنار ، وفي العرش والكرسي وعدد القطر والمطر والبحار ، وعدد الحصى والرمل » ومن جعلتها أيضاً ان الله يعطيه ثواب جميع الخلائق ، ومن جعلتها ان الله يعطيه ثواب سبعين نبياً كلهم بلغوا الرسالة إلى غير ذلك (قال) وهذا حديث صحيح ثابت في صحيفة عمر ابن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ وصححه الحاكم الخ

وصرح المؤلف بأن هذا الكذب أملاه شيخه التجاني . ثم قال عن شيخه : « وأما صلاة الفاتح لما أغلق فاني سألته (ص) عنها فأخبرني أولاً انها بستمائة الف صلاة فقلت له هل في جميع تلك الصلوات أجر من صلى بصلاة مفردة فقال ﷺ ما معناه نعم يحصل في كل مرة منها أجر من صلى بستمائة الف صلاة مفردة وسألته هل يقوم منها طائر الذي له سبعون الف جناح الخ الحديث أم يقوم منها في كل مرة ستمائة الف طائر على تلك الصفة وثواب تسبيحهم لقارئها ؟ فقال بل يقوم منها في كل مرة ستمائة الف طائر على تلك الصفة في كل مرة

وقال في ص ٩٧ فسألته ﷺ عن حديث ان الصلاة عليه تعدل أربع مائة غزوة

كل غزوة تعدل أربعمائة حجة صحيح أم لا؟ فقال ﷺ بل صحيح فسأله ﷺ عن عدد هذه الغزوات هل يقوم من صلاة الفاتح لما أغلق الخ مرة أربعمائة غزوة أم يقوم أربعمائة غزوة صلاة من الستمائة الف صلاة وكل صلاة على انفرادها أربعمائة الف غزوة؟ فقال ﷺ ما معناه ان صلاة الفاتح لما أغلق بستمائة الف صلاة وكل صلاة من الستمائة الف بأربعمائة غزوة . ثم قال بعده ﷺ ان من صلى بها أي بالفاتح لما أغلق الخ مرة حصل له ثواب ما إذا صلى بكل صلاة وقعت في العالم من كل جن وإنس وملاك ستمائة الف صلاة من أول العالم إلى وقت تلفظ الذاكر بها أي كأنه صلى بكل صلاة ستمائة الف صلاة من جميع صلاة المصلين عموماً: ملوكاً وجنّاً وإنساً وكل صلاة من ذلك بأربعمائة غزوة وكل صلاة من ذلك بزوجة من الحور ومحو عشر سيئات وثبوت عشر حسنات ورفع عشر درجات، وان الله وملائكته يصلون على صاحبها عشر مرات (قال الشيخ «رض») فإذا تأملت هذا بقلبك علمت ان هذه الصلاة لا تقوم لها عبادة في مرة واحدة فكيف من صلى بها مرات ماذا لها من الفضل عند الله وهذا حاصل في كل مرة منها اهـ

ثم انه ذكر ما هو فوق ذلك من المبالغات الجنونية التي لا يعقلها دماغه، وصرح بأنه لا مدخل فيها للعقول، ومنها ما عده من ثواب ملايين الالام والملائكة، ولم يفضل عليها الا الدعاء بالاسم الاعظم وهو هذا بزعمهم (اهم سقك حلق يص) قال المؤلف في ص ١٠٢ مانصه: (فائدة) قال الشيخ (رض) عدد أسنة الطائر الذي يخلقه الله من الصلاة على النبي ﷺ الذي له سبعون ألف جناح الخ الحديث الف الف الف الف الف الف الف إلى أن تعد ثمانية مراتب وستمائة وثمانون الف الف الف الف الف إلى أن تعد سبع مراتب وسبعمائة الف الف الف الف الف إلى أن تعد خمس مراتب فهذا مجموع عدد أسنته وكل لسان يسبح الله تعالى بسبعين الف لغة في كل لحظة وكل ثوابها للمصلي على النبي ﷺ في كل مرة، هذا في غير الياقوتة الفريدة وهي الفاتح لما أغلق الخ وأما فيها فانه يخلق في كل مرة ستمائة الف طائر على الصفة المذكورة كما تقدم . فسبحان المتفضل على من يشاء من عباده من غير منة ولا علة اهـ من خط سيدنا وحبيبنا وخازن سر سيدنا أبي عبد الله سيدي محمد بن المشري حفظه الله . اهـ

(الشاهد السادس عن التجاني دعواه موت من يكرهه كافرا)

وفي هذا الكتاب من العقائد الزائفة المخالفة لعقائد جميع السلف وحفاظ السنن وأئمة الفقه والمفسرين وعلماء الكلام ما نعهد مثله عن الباطنية وأهل الوحدة والاتحاد وسائر غلاة الصوفية، ولعلم التجاني وأمثاله أن كل من له إمام بالضروريات من عقائد الاسلام ينكر عليهم جعلوا من أصول طريقتهم التسليم لهم ظاهراً وباطناً وقد بالغ التجاني فيما يلقنه لأتباعه من النهي عن الاعتراض والإنكار عليه حتى زعم ان من أنكر عليه وكره عمله أو طعن فيه أو أبغضه يموت كافراً قطعاً، وهذه الدعوى باطلة كدعوى دخول أتباعه وأصوله وفروعه الجنة قطعاً، لان كلا منهما من عالم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله تعالى . وقد اتفق العلماء على عدم جواز القطع لشخص معين بأنه من أهل الجنة أو من أهل النار إلا بنص من الشارع . وإنما القطعي ان من مات على الايمان الصحيح فهو من أهل الجنة ، ومن مات على الشرك والكفر فهو من أهل النار، وان الخواتيم لا يعلمها إلا الله تعالى ولولا أن له أتباعاً في مصر وبلاد المغرب لما سودنا صحائف هذا التفسير بذكر خرافاته وضلالاته ، وقد استفتاني بعض المنكرين لدعواهم تلقي شيخهم لأوراده عن النبي ﷺ في اليقظة وحضوره ﷺ لمجالس حضراتهم عن دعوى رؤية النبي ﷺ في اليقظة والتلقي عنه فأفتيت في المنار ببطالانها فلجأ بعضهم إلى مجلة مشيخة الازهر (نور الاسلام) فاستفتوها في ذلك فأفتاهم مفتيها الدجوي الدجال بما يتخذونه حجة على كل ما اقترأ على النبي ﷺ محتجاً بأن الارض لا تأكل أجساد الانبياء عليهم السلام وانهم أحياء في قبورهم يردون السلام على من سلم عليهم، والحق ان كل ماورد في حياة الشهداء والانبياء بعد الموت فهو من أخبار الغيب التي لا يقاس عليها ولا يتعدى فيها ماصح منها عن المعصوم باجماع علماء المسلمين هذا وإني لا أجهل أن للتجانية في المغرب والسودان الفرنسي ، حسنات في مقاومة التنصير والاستعمار المعادي للاسلام كالقادرية والسنوسية، ولكن كتابهم جواهر المعاني قد فضحهم فضائح لا يقبلها مسلم يعرف ضروريات الاسلام، وستعلم قيمة حسناتهم وغيرها مما سننقله في كرامات امثالهم عن شيخ الاسلام

(تقليد الباب والبهاء والقادياني لغلاة الصوفية)

(في دعوى الوحي والنبوة والالوهية)

قد جراً هؤلاء الغلاة من الصوفية اخوانهم في الابتداع على دعوى الوحي والتلقي عن الله تعالى كالانبياء حتى ادعى بعضهم النبوة نفسها ، بل ادعى بعضهم الالوهية ، وانك لتجد من كلام الباب مؤسس فرقة البابية، والبهاء مؤسس ديانة البهائية على أنقاض البابية، و غلام احمد القادياني مسيح الهند الدجال — أنهم كلهم قد ادعوا الوحي من الله لهم، وتجد كلامهم في الغلو في أنفسهم ممزوجاً باصطلاحات الصوفية، فلم يفسد الاسلام على اهل بدعة ولا فلسفة ولا رواية ولا رأي، كما أفسد أدياء الولاية والكشف، فان أصل هذا الدين كتاب الله وسنة رسوله ﷺ باجماع اهل وبيداهة العقل أيضاً، فأما البابية فقد انحصروا في البهائية، وهؤلاء كان لهم رجل من أكبر الدهاة يسوسهم فأت فأنحط شأنهم، ووقع الشقاق بينهم على الزعامة، وظهر للمسلمين تلبسهم الباطني فلما ينخدع بدعوتهم أحد بعدهم، وزعيمهم الوارث له قد تربى تربية انكليزية مفضوحة، فهو عاجز عن تأويلات عباس أفندي الصوفية الفلسفية الباطنية

وأما القاديانية فقد نشطوا للدعاية وهم يؤملون أن يوجدوا في بقية المسلمين ما أوجدت المسيحية في اليهود، أعني أحداث ملة جديدة تسمى المسيحية الاحمدية، وسيفتضحون، لان زعيمهم ومسيحهم رجل مجنون، والمصر يطلب تجديد الاسلام لا تقديس فيه إلا الله، وجميع كتب مسيحهم غلام احمد تدور على تقديس نفسه كالبهاء، والكنه لم يخلفه رجل داهية كعباس عبد البهاء، يخفي كتيبه عن العقلاء، ويتصرف في التأويل لدعوته بمثل ذلك الدهاء، وكيف يتسنى لهم اخفاء كتيبه، وقد طبعها ونشرها في عصره، وفيها أقوى الحجج على ضلاله واضلاله، وخزيه ونكاله؟ وجملة القول ان الصوفية ثلاث فرق : صوفية الاخلاق المهتدين بالكتاب والسنة وسيرة السلف الصالح وهم من خيار أولياء هذه الامة، وصوفية الفلسفة « تفسير القرآن الحكيم » « ٥٥ » « الجزء الحادي عشر »

٤٣٤ تمثل الشياطين بصورة الصالحين وخداع استخدام الجن (التفسير : ج ١١)

الهندية الذين يسمون أنفسهم صوفية الحقائق، وغلاتهم كفلاة الشيعة الباطنية شر
المبتدعة الهادمين للدين ، وصوفية التقليد وهم أهل الطرائق والزوايا السكسالي ،
وان هم الا صوفية أكل واحتفالات ، وبدع وخرافات ، إلا قليلا منهم ، وهناك
ما وعدنا به من رأي شيخ الاسلام ، في أولياء الله وأولياء الشيطان ، ونفني
عليه بشواهد في هذا الزمان .

(كتاب الفرقان لشيخ الاسلام)

(استمتاع البشر والجن والشياطين بعضهم ببعض ، وتمثلهم بصور الاولياء والقديسين)

هذا الكتاب لشيخ الاسلام احمد تقي الدين بن تيمية رحمه الله تعالى
بين فيه تحقيق الحق في أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، ومن أهم مباحثه
ملاسة الجن والشياطين للناس وتليبهم عليهم واستمتاع كل منهما بالآخر
وظهور بعضهم لبعض الناس في صور مشابههم وغيرهم من الاولياء والخضر
والانبياء عليهم السلام ، والايحاء إلى بعضهم فيما يضلهم ويغويهم ، وظهور بعض
المؤمنين منهم فيما هو نافع ، ومن ذلك ما وقع له هو نفسه . وفي هذا الكتاب
من مباحث التفسير وهدي السنة والتفرقة بين المعجزات والكرامات وبين السحر
والكهنات واستخدام الجن والتأويل الباطل ووجوب الاتباع مالا يوجد في غيره ،
وحكايات استخدام الجن كثيرة في قديم الائم كلها وحديثها ، وأكثر الذين
يدعونها أو كلهم دجالون محتالون على أكل اموال الناس بالباطل ، وأكثر من يتمثلون
لهم لا يعلمون أنهم منهم ، وشيخ الاسلام محقق وصديق لا يرمي القول على عواهنه
ومما قاله في هذا الكتاب انه قد تواتر عن كثير من المسلمين واليهود
والنصارى رؤية من يقول لهم انه الخضر وانهم صادقون في قولهم ، ولكن الذي
يتراءى لهم ويقول هذا القول شيطان لا الخضر الذي ثبت عند المحدثين انه قد
مات ، ومثل ذلك ظهور المسيح عليه السلام لكثير من النصارى عقب رفعه وبعدمه
إلى الآن ثم قال :

« وأصحاب الحلاج لما قتل كان يأتيهم من يقول أنا الحلاج فيرونه في صورته

وكذلك شيخ بمصر يقال له الدسوقي (١) بعد أن مات كان يأتي أصحابه من جهته رسائل وكتب مكتوبة، وأراني صادق من أصحابه الكتاب الذي أرسله فرأيت به بخط الجن، وقد رأيت خط الجن غير مرة — وفيه كلام من الجن، وذلك المعتقد يعتقد أن الشيخ حي، وكان يقول انتقل ثم مات، وكذلك شيخ آخر كان بالمشرق وكان له حوارق من الجن، وقيل كان بعد هذا يأتي خواص أصحابه في صورته فيعتقدون أنه هو. والذين كانوا يمتقدون بقاء علي أو بقاء محمد بن الحنفية قد كان يأتي إلى بعض أصحابهم جني في صورته، وهكذا منتظر الرافضة (٢) قد تراه أحدهم أحياناً ويكون المرئي جنياً

«فهذا باب واسع واقع كثيراً، وكلما كان القوم أجهل كان عندهم أكثر، ففي المشركون أكثر مما في النصاري، وهو في النصاري كما هو في الداخلين في الاسلام، وهذه الامور يسلم بسببها ناس ويتوب بسببها ناس يكونون أضل من أصحابها فينتقلون بسببها إلى ما هو خير مما كانوا عليه، كالشيخ الذي فيه كذب وفجور من الانس قد يأتيه قوم كفار فيدعوه إلى الاسلام فيسلمون ويصيرون خيراً مما كانوا وإن كان قصد ذلك الرجل فاسداً، وقد قال النبي ﷺ «ان الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر وبأقوام لا خلاق لهم» (٣) وهذا كان كالحجج والادلة التي يذكرها كثير من أهل الكلام والرأي فانه ينقطع بها كثير من أهل الباطل، ويقوى بها قلوب كثير من أهل الحق، وإن كانت في نفسها باطلة فغيرها أبطل منها، والخير والشر درجات، فينتفع بها أقوام ينتقلون مما كانوا عليه إلى ما هو خير منه

«وقد ذهب كثير من مبتدعة المسلمين من الرافضة والجهمية وغيرهم إلى بلاد الكفار فأسلم على يديه خلق كثير وانتفعوا بذلك وصاروا مسلمين مبتدعين، وهو

(١) الشيخ ابراهيم الدسوقي كان في عصر شيخ الاسلام ابن تيمية
(٢) بفتح الظاء المعجمة يعني المهدي الذي يقولون انه اختفى في السرداب
(٣) الجملة الاولى في أثناء حديث من الصحيح والجملة الثانية باللفظ وبالمعنى
في غير الصحيح

خير من أن يكونوا كفاراً (١) وكذلك بعض الملوك قديغزو غزوا يظلم فيه المسلمين والكفار ويكون آثماً بذلك ، ومع هذا فيحصل به نفع خلق كثير كانوا كفاراً فصاروا مسلمين ، وذلك كان شراً بالنسبة إلى القائم بالواجب ، وأما بالنسبة إلى الكفار فهو خير ، وكذلك كثير من الاحاديث الضعيفة في الترغيب والترهيب والفضائل والاحكام والتقصص قد يسمعون أقوام فينتقلون بها إلى خير مما كانوا عليه وإن كانت كذبا (٢) وهذا كالرجل يسلم رغبة في الدنيا ورهبة من السيف ، ثم إذا أسلم وطال مكثه بين المسلمين دخل الايمان في قلبه ، فنفس ذل الكفر الذي كان عليه وانتهاره ودخوله في حكم المسلمين خير من أن يبقى كافراً فانتقل إلى خير مما كان عليه وخف الشر الذي كان فيه ، ثم إذا أراد الله هدايته أدخل الايمان في قلبه ، والله تعالى بعث الرسل بتحصيل المصالح وتكميلها ، وتمطيل المفاسد وتعليمها ، والنبي ﷺ دعا الخلق بغاية الامكان ، ونقل كل شخص إلى خير مما كان عليه بحسب الامكان ، (ولكل درجات مما عملوا وليوفهم أعمالهم وهم لا يظلمون) وأكثر التكلمين يردون باطلاً بباطل وبدعة ببدعة ، لكن قد يردون باطل الكفار من المشركين وأهل الكتاب بباطل المسلمين ، فيصير الكافر مسلماً مبتدعاً ، وأخص من هؤلاء من يرد البدع الظاهرة كبدعة الرافضة ببدعة أخف منها وهي بدعة أهل السنة (٣) وقد ذكرنا فيما تقدم أصناف البدع . اهـ المراد منه (أقول) كل الشهادات التي نقل خبرها شيخ الاسلام هنا مشهورة عن أهل عصره وأهل عصرنا ، وقد نقل عن الشيعة أنهم يستفتون المهدي المنتظر في بعض المشكلات فيضعون ورقة الاستفتاء في شجرة ثم يجدون الفتوى مكتوبة عليها ، وإنها عندهم من أقوى الحجج أو أقواها ، وقد بينا هذا في النار ، ومن هذا ما يكون من حيل شياطين الناس وتزويرهم ، ومنهم من هم شر من شياطين الجن

(١) يشبه هذا دعاة القاديانية الملقبين بالاحمدية الى الاسلام في اوربة وغيرها فهم فريقان منهم من يقول إن القادياني مصلح مجدد لاني فهم مبتدعون ، ومنهم من يقول انه نبي كان يوحى اليه من الله وهم كفار مرتدون

(٢) أي والواضع لها والداعي اليها والمحتج بها كلهم آمنون اذا علموا ذلك

(٣) أي الذين يدعون أو يلقبون بأهل السنة فما من أتباع مذهب منهم إلا وقد فتن بعضهم بالبدع ، وقد بين ذلك شيخ الاسلام في مواضع من كتبه ومنها هذا الكتاب

(بعض حكايات النصارى المعاصرين في رؤية المسيح ومريم عليهما السلام)

إن الذين يتراءى لهم المسيح أو أمه عليهما السلام أو غيرهما من القديسين عندهم كثيرون ومن الرجال المشهورين بهذا في هذا الزمان رشيد بك مطران وهو وجيه سوري من بعلبك مشهور بيقم في أوربة ويكون غالبا في (باريس) فهو يرى أو يتراءى له مثال السيدة مريم العذراء في اليقظة كثيرا ويسألها عن كثير مما يشكل عليه فتجيبه . وحدثني الأمير شكيب ارسلان عنه انه سألها مرة عن نبينا (ص) فأجابته مثنية عليه ﷺ ثناء عظيما لم أحفظه

وقرأت في جريدة مرآة الغرب العربية التي صدرت في (نيويورك) في مارس سنة ١٩٣٣ رسالة من عمان عاصمة إمارة شرق الاردن كتبت في ٢٦ من كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٣٣ (الموافق ٢٩ رمضان سنة ١٣٥١) من امرأة نصرانية في عمان اسمها حنة بنت الياس غابي الملقب صهر الله متزوجة ولها أولاد وأخ فقيرة مشهورة بالتقوى عرض لها منذ سنة ونصف نزيف دموي عقب الولادة وأريد عمل عملية جراحية لها فأرشدت إلى التوجه أولا إلى الطبيب السماوي فدعت بسوخ ليلانم ذهبت إلى الكنيسة بعد منتصف الليل لتصلي وهي في حال غيبوبة أو عقب رؤيا فرأت الكنيسة خالية وشاهدت في الهيكل شخصا يحيط به نور عظيم فاشتد خوفها ورعبها ، فدعاها وقال لها لا تخافي أنا المسيح فركت على قدميه وقالت له اشفني يا سيد ، فقال لها حسب إيمانك يكون لك ، فبرئت وقرر الأطباء بعد فحصها انه لم تبق حاجة إلى العملية الجراحية فازدادت عبادة وتقوى

«ولما كان اليوم الرابع من هذا الشهر لك ٢ من «يناير» شعرت في منتصف الساعة الثالثة بعد نصف الليل بيد تهزها من الكتف ففتحت عينيها فإذا نور عظيم في الغرفة وفي وسط النور شخص ملاك يقول لها سيحدث ضيق عظيم في العالم ، ولكن لا تخافوا وستكون لكم هذه العلامة - وكان بيده كأس فغمس اليد الأخرى في الكأس وبأصابعه الثلاث وضع على جبينها علامة ثم تركها وقال اعطوا مجد الله . فقامت وصارت تمجد الله بصوت عال ، فذهب أهلها وقالوا لها ماذا جرى لك؟ فقالت

ألم تروا النور وتسمعوا الصوت ؟ قالوا لا ، قالت جيئوني بالضوء ، فلما أحضروا القنديل رأوا في جبينها علامة طائر يشبه النسر صافاً جناحيه ممتداً على طول جبينها وعرضه (أي جبهتها) وأيس ماساً للحاجبين ولا شعر الرأس ولونه عنابي كالدم ورسمه متقن كأنه رسم فنان عظيم »

وقالت كاتبة الرسالة ان أهل عمان لما علموا بهذه الحادثة أقبل الناس من وطنين وأجانب على اختلاف أديانهم فشاهدوا هذا الرسم وعني الأطباء بازالته فمعجزوا وان الذين شاهدوها يعدون بالملئات ، ثم نقلت عن قسيس معروف جاء من نابلس وكتب عنها ما يأتي ملخصاً :

« قالت انه ظهر لها الملاك مرة ثانية في ليلة السبت السابعة من الشهر نفسه (يناير) ووضع يده على جبينها فزالَت العلامة ، فقالت له يارب ارفع الضيق عن العالم ، فقال « سيرون أعمال الله » قالت ارحمنا يارب ، قال « تكفيكم نعمتي » وفي ثاني ليلة أفاق أهلها فوجدوها واقفة تنكلم بالعبراني فكتبوا ماقالته وترجموه بالإنهار فاذا هو تسبيح وتمجيد لله ، ثم تكرر ذلك منها في الليالي التالية باللغات الألمانية والفرنسية والاطليانية وفي الخامسة وثلاث بالعربي واليوناني ، وكانت ترتيلة العربي من نظمها وقولها « اصفح عن ذنبي ياربي ، خذني ياربي ، خذني الى اورشليم » ثم لم يحدث شيء . إلا ان الملاك ظهر لها ليلة ١٧ من الشهر ووضع عليها العلامة وقال « لتكن هذه العلامة مباركة ثم اختفى ، ثم ظهر بعد يومين ومحا العلامة اه باختصار وبلفظه إلا تصحيح كلمات قليلة

(أقول) سئل بعض أدباء المسلمين في عمان كتابة عن هذه الحكاية وعما روي في بعض الجرائد من رؤية موتى من الصحابة لم تبل أجسادهم ولا لغائفهم فأنكرها . وقد سبق لي تحقيق لامثل هذه الحكايات ملخصه ان منها ما هو كذب محض ، ومنها ما هو تخيل ولدته الاوهام ، يشبه الرؤى والاحلام ، ومنها ما هو رؤية شيء موجود في الخارج من عالم الارواح التي تتمثل بأجسام لطيفة جداً لا يدركها إلا بعض الناس في أحوال خاصة قريبة من التجرد من كثافة الحس ، ومنها ما يتمثل بصورة مادية كثيفة كما صح من رؤية بعض الصحابة (رض) للملاك

والجن ، والمشتغلون من الافرنج بمعالجة رؤية الارواح يسمون صاحب الاستعداد الخاص لرؤية الارواح ومخاطبتها بالوسيط، والراجح عندنا ان أكثر المدعين لذلك أولو كذب وحيل وتلبيس، وان أقلهم يرون بعض الشياطين من جند ابليس، ولا سيما شياطين الموتى وقرنائهم العارفين بأحوالهم، وشيخ الاسلام يقول ماقرأت آنفا وهذا الذي يقوله لا ينكر أحد من الصوفية وقوعه لكبار شيوخهم، بل أثبتوا ان الشيطان يتراءى لهم ويلقنهم كلاما مدعياً انه ربهم كما حكاه الشعراي وغيره عن الشيخ عبد القادر الجيلاني الذي اتفقوا على انه كان القطب القوث الأكبر

وملخصه انه رأى نورا عظيماً ملاً الافق وسمع منه صوتاً يخاطبه بانه ربه وقد أحل له المحرمات، فقال له : اخساً يا امين، فتحول النور ظلاماً ودخاناً، وقال له قد نجوت مني بفقهك الخ وانه فتن بهذا كثيرين من كبار الشيوخ. ومن المعلوم أن جميع غلاة الصوفية قد ادعوا أن الله خاطبهم بالحقائق وكشف لهم منها ما لم يكشفه لغيرهم كما تقدم وهم يتعارضون في دعاويهم الشيطانية كما تقدم

وللشيخ عبد الوهاب الشعراي كتاب صغير سماه (الانوار القدسية، في بيان آداب العبودية) مطبوع مع كتابه الطبقات ذكر في أوله انه سمع وهو في حالة بين النائم واليقظان هاتفاً يسمع صوته ولا يرى شخصه يقول له على لسان الحق سبحانه وتعالى كلاماً ذكره قال « فما استتم هذا الكلام وبقي عندي شهوة نفس لمقام من مقام الاولياء لاني الدنيا ولا في الآخرة » ثم بسط الكلام على مرادهم بالهاتف وعلاه بقوله « خوفاً أن يتوهم أحد من القاصرين الذين لا معرفة عندهم بمراتب الوحي ان ذلك وحي كوحي الانبياء عليهم الصلاة والسلام فأقول

« اعلم ان الهاتف المذكور لا يخلو إما أن يكون ملكاً أو وائياً أو من صالحى الجن او هو الخضر عليه السلام أو غير ذلك، لان الخضر عليه السلام حي باق لم يميت وقد اجتمعنا بمن اجتمع به وبالمهدي وأخذ عنهما طريق القوم الخ

نم انه جمل الوحي أقساماً وضروباً كثيرة وذكر منها الكهانة والزجر - اي وهو اسفلها - ووحى التشريع الديني الخاص بالانبياء (ع.م) وما بينهما .

نم ذكر ان بعض الفقهاء من الاخوان سأله أن يملى على إلقاء الهاتف الذي سمعه جملة

• ٤٤ • افساد كتب التصوف كالشعراني للناس في دينهم (التفسير : ج ١١)

مما فهمه من آداب العبودية وآداب طلب العلم وآداب الفقراء عموماً وخصوصاً

« وما يدخل على كل طائفة من الدسائس في مقاصدهم لان الشيطان لهم بالمرصاد ولا

ينجو منه الا القليل من عباد الله » وهذا محل الشاهد

وأقول ان هاتفه الذي جعله الاصل لهذا التأليف هو من دسائس الشيطان أيضاً لانه غير موافق للشرع المعصوم بل في هذا الكتاب كثير من المخالفة له، وكذا كتابه لطبقات فهي من اشد الكتب افساداً للدين أصوله وفروعه وآدابه بما فيه من وحي الشياطين، فقد أصبح الملايين من المسلمين مشركين بالله تعالى بعبادة هؤلاء الذين يسمونهم الاولياء، وقبول ما نقل عنهم من وحي الشياطين، وهم يتبعون الدجالين ومدعي علم الغيب وقضاء الحوائج بالكرامات أو استخدام الجن، وهؤلاء الدجالون يسلبون أموالهم، ويهتكون أعراضهم، وفي نص كتاب الله تعالى ان الجن لا يعلمون الغيب، وأصبح فريق آخر من المسلمين الذين تنقوا العلوم المصرية وتربوا تربية استقلالية، يعتقدون ان الاسلام دين خرافي كغيره من الاديان

على أن من دعاة الاديان والنحل الجديدة المتولدة من التصوف من ألبسوا دعايتهم ثوب المدنية المصرية، وهم يثيئونها في بلاد الافرنج كالبهايمية والقاديانية الاحمدية، وكل خلافتهم مستمدة من تأويلات الصوفية الذين ادعوا الوحي وادعوا الالوهية من طريق وحدة الوجود وغيره كما تقدم آنفاً .

والامة الاسلامية قد جعلها الله وسطاً بين الغالين والمقصرين، من المعطلين والمشركين، فهي لا تعبد إلا الله، ولا تؤمن بوحي ولا نبوة لأحد بعد محمد خاتم النبيين، ولا بتشريع ديني الا ما جاء به عن الله، ولا بولاية إلا ما تقدم بيانه في كتاب الله، وقد صار المعتصمون بهذا في أمثال هذه البلاد، التي انتشر فيها ذلك الفساد، جماعات قليلة الافراد، فان لم ينصرها الله ضاع فيها الاسلام

﴿ استطراد ، في أصل الاسلام ، وما طرأ عليه من الفساد ﴾

﴿ من طريق السياسة والفلسفة والتصوف ﴾

أيها القارئ لهذا التفسير قد آن أن أصارحك بمسائل مختصرة هي ثمرة علم وعمل وعبادة ورياضة وتصوف وتعليم وتصنيف ومناظرات ومحااجة في مدة نصف قرن كامل ، لم يشغلني عنها من حظوظ الدنيا شاغل ، وانها اكملت في حقيقة دين الله وعلماؤه وعباده صادرة عن بصيرة وتجربة ، فتأملها باخلاص واستقلال فكر ، ولا يصدنك عن النظر فيها لذاتها والاعتماد في ثبوتها على مصادرها ، حرمان المعاصرة ، واحتقار الاحياء ، وتقديس شهرة الاموات ، وآهام قائلها بالغرور والدعوى ، فان عرض لك ريب أو شبهة في شيء منها فارجع الى مصادرها ودلائلها ، أو ارجع الى كتابها فاسأله عنها ، بشرط أن يكون غرضك معرفة الحق لذاته ، دون التعصب والجدل ، أو التحرف لمذهب أو التحيز الى فئة

(المسألة الاولى) ان هذا الدين (الاسلام) وحي إلهي الى نبي أمي ظهر في أمة أمية جاهلية ، ليعلمها الكتب والحكمة ، ويزكيها بالعلم والعدل والفضيلة ، فيجعلها به معلمة وعادية لجميع شعوب التعميل والاديان والفلسفة والحضارة ، وأن الله تعالى قد شهد في كتابه بأنه أكل هذا الدين لعباده في آخر عمر نبيه ليس لاحد ان يزيد فيه بعده عقيدة ولا عبادة ولا تحريما دينيا مطلقا ، ولا تشريعا مدنيا ، الا ما أذن به لاولي الامر من الاجتهاد على أساس ز . . . اعدده ، فكان أع الناس وأفقههم به وأصحهم دعوة اليه بالعلم والعمل ، والحكم بين الناس بالحق والعدل ، أولئك الاميون الذين تلقوه عن ذلك النبي الامي صلوات الله وسلامه عليه ، وهم خلفاؤه وأصحابه (رض) فهذه احدى معجزاته إذ لو كان هذا الدين وضعا بشريا لكان كسائر العلوم والاعمال البشرية التي تظهر مبادئها الاولى ناقصة ثم تنمي (وفي لغة ضعيفة اشتهرت تنمو) وتتكامل بالتدريج ، فهذه سنة من السنن المطردة في علوم البشر

(المسألة الثانية) من البراهين العلمية الثابتة بالشواهد العملية ، على ان هذا الدين من عند الله تعالى ، ان المسلمين قد اهتموا بارشاده إلى البحث والنظر في جميع أمور العالم السماوي والارضي ولا سيما نوع الانسان وعلومه وفلسفته واديانه ونظمه وتشريعه وآداب شعوبه فازدادوا بكل من ذلك علما بحقيقة المسألة الاولى ، وظهر للاسرخين في علمه ان ما أجمع عليه أولئك الاميون الاولون أو أكثرهم هو الحق ، وأن كل ما خالف نصوصه القطعية من العقائد والآراء والافكار البشرية فهو باطل ، ومنه جميع نظريات المتكلمين العقلية ، وكشف فلسفة الصوفية الروحية ، وإن المصلحة للمسلمين وللشعر كافة أن يقصروا هداية الدين على نصوص القرآن المنزلة ، وما يدينه من سنة الرسول المتبعة ، وسيرة خلفائه وجهوره عترته وأصحابه قبل فشو الابتداع والتفرق في الملة ، ثم ما أجمع عليه علماء الامصار من مجتهدي الامة ، وأن يعذر بعضهم بعضا فيما لا يخرج عن هذه الاصول من المسائل غير القطعية في الدين فلا يجعلوه سببا للتفرق والشقاق ، بالتعصب للمذاهب والشيعة والاحزاب ، اثلا يكونوا ممن قال الله تعالى لرسوله فيهم (٦ : ١٥٩) ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء) فاستحقوا وعيد قوله (٦ : ١٦٥) قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض ، انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون) وقوله (٣ : ١٠٥) ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم)

(المسألة الثالثة) ان البدع التي فرقت الامة في اصول دينها وجعلتها شيعا تؤثر كل شيعة اتباع زعمائها ومذاهبها على كتاب الله وسنة رسوله وهدى سلفه الصالح بالتأويل ، من حيث تدعي أن أئمتها أعلم من مخالفينهم بتأويل الكتاب والحديث ، وأن بعضهم مؤيد بالكشف وبعضهم بالعصمة ، فهم أحق بأن يقلدوا ويتبعوا ، ولكن العلم إنما يعلم بالدليل لا بالتقليد ، وإنما نفهم النصوص بقواعد اللغة والسنة العملية لا بما اصطالحوا عليه من التأويل ، ولهذا البدع المفرقة ثلاث مشارات من أركان حضارة الامة الثلاثة وهي السياسة والسلطان ، والعلم العقلي والعرفان ،

(يونس : ١٠) تحكيم نظريات العقل و خيالات الكشف في الدين ٤٤٣

وفلسفة التعبد والوجدان ، وما يتبعه من دعوى علم الغيب المسمى بالكشف ،
والكرامات الشاملة لدعوى التصرف في الكون ، ونقول في كل منها كلمة

(١) السياسة الدولية وكان مثارها الاول ماشجر بين الصحابة (رض) ثم
كان أشدها إفسادا ما كان بين أهل السنة والشيعة ، وقد زالت الخلافة وضاعت
سيادة الامة من أكثر العالم ، ومفاسدها لاتزال ماثلة ، بما للزعماء المستغلين لها
من المنافع الدنيوية الزائلة ، وانها لعصبية قضتها السياسة ، وستقضي عليها السياسة ،
وقد زالت السلطة الدينية من بعض ممالك المسلمين وبقي لها بقية في بعض ،
وبعضها مذبذبة بين بين ، ولا محل لبسط ذلك هنا ولا فائدة في هذا الوقت .
إلا التذكير بأن المنتمين إلي مذاهب السنة قد غلبهم جهلة الاعاجم على خلافتهم
بعد أن جعلوها عصبية وراثية فلم يعملوا أي عمل لتقويتها بضعفها ، ولا لايحيائها
بعد موتها ، ولم يضعوا نظاما للاستعداد لذلك عند سنوح الفرصة كفاعل الكاثوليك
بنظام الفاتيكان البابوي ، وكانت الزيدية من الشيعة المعتدلة أشد حزما واعتصاما
منهم بنصب إمام بعد إمام لهم في جبال اليمن يتولونه ويقا تلون معه . بيد أنهم
قصروا في وضع نظام لتعميم الدعوة ، والاستعداد له بالعالم والمال والقوة .

ولكن غلاة الشيعة نفضوا أركان الاسلام من أساسه بدعاية عصمة الأئمة ،
وتأويل نصوص الكتاب والسنة ، فكان هذا أصل كل ابتداع مخرج من الملة ،
اذ انتهى بأهله الى ادعاء الوحي وادعاء الألوهية ، فخرجوا من الملة سرا فعلائية
(٢) النظريات العقلية ، وتحكيمها في النصوص العقلية ، وكان أضرها
وشرها ذلك التنازع بين أئمة الإتياع وعلى رأسهم الامام احمد بن حنبل ، ودعاة
الابتداع من متكلمي نظار المعتزلة والجهمية ، ولولا تدخل سلطان العباسيين في
نصر فريق على فريق ، لما وصلت إلى ذلك الحد من الشقاق والتفريق ، وقد
ضعفت في هذا العصر في أكثر الامصار الاسلامية لانه ليس لها دول تنصر
بعض اهلها على بعض ، ومتى توطدت حرية العلم كان النصر والفليج لاهل الحق ،
وسيموت ما بقي من علم الكلام بموت الفلسفة اليونانية التي بني على قواعدها

ونظرياتها ، بل هي قد ماتت وصارت من مواريث التاريخ العلمية ، ومات هو وإن بقيت له بقية تقليدية في بعض المدارس الاسلامية ، وسيخلفه علم آخر في حراسة العقائد من شبهات العلم وفلسفة هذا العصر ، مع ابقاء الخلط بينهما وبين عقائد الدين ومحاولة تحكيم كل منهما في الآخر ، كما فعل نظارنا المتقدمون فجنوا على كل منهما بما أضعف سلطان الدين في أداء وظيفته وهي تزكية النفس ، بما يوقفها عند حدود الحق والعدل ، والفضيلة وعمل البر ، وأضعف سلطان العلم في أداء وظيفته وهي اظهار سنن الله في العالم وتسخير قوى الطبيعة لمنافع الناس ، وفاقا لما أرشدهم اليه القرآن ، وقول النبي ﷺ « أنتم اعلم بأمور دينكم » رواه مسلم ولو بقينا على تأويل المتكلمين هان الامر ، لأنهم يجرون فيه على قواعد اللغة وأصول الفقه ومصطلح الحديث ، ولكن نبتت نابتة ودعاية لتحكيم نظريات العلم المعصري والنظريات العقلية في نصوص الكتاب والسنة ، لا بتأويل يوافق اللغة وأصول الشرع كما يقول المتكلمون ، بل بترك مدلولات الكتاب والسنة بأنها غير مرادة ولا يمكن العلم بالمراد منها ، ولبعض الدعاة الى هذا الالحاد في مصر كتب تطعيم ومقالات تنشر في الصحف مصرحة بهذا ، ومشیخة الازهر نقرها لأنها لا تفهم .

(٣) دعوى الكرامات والكشف ، وتحكيمه في عقائد الدين وعبادته وآدابه وتفسير نصوصه ، وفي أحكام المعاملات والحلال والحرام ، وقد نجمت البدع من هذه الناحية صغيرة كقرون المعز ثم كبرت فصارت كقرون الوعول التي تناطح الصخور ، هاجمها علماء المنقول والمعقول يؤيدهم الخلفاء والملوك فانهمزمت أمامهم ، حتى اذا ما ضعف العلم فصار تقليديا ، وضعف الحكم فصار إرثا جهليا ، وصار صوفية علماء الازهر مثل الشعراني ، وسلاطين مصر مثل قايتباي ، خضعت رقاب المسلمين لولاية مثل الشيخ محمد الحضري الذي يصعد المنبر في يوم الجمعة فيخطبهم فيقول « اشهد أن لا إله الا لكم إلا إبليس عليه الصلاة والسلام » ثم ينزل فيسل السيف فيهرب جميع المسلمين من المسجد فلم يتجرأ أحد على دخوله الى وقت العصر ، ويزعم الشعراني ان هذا الولي الشيطاني نفسه قد خطب خطبة الجمعة يومئذ في

ثلاثين مسجدا من مساجد القطر المصري ، بناء على قاعدتهم ان الولي قد يتمثل بالصور الكثيرة في الامكنة المختلفة ، كالشياطين والملائكة . وهم لا يفرقون بينهما ومثله ذلك الولي الذي كان يعارض القرآن بالهذيان ، والولي الذي كان يسكن في ماخور المومسات ، ليشفع لكل من يأتيهن عند الله ، ويمسكه عندهن الى ان يخبره كشفه الشيطاني بقبول شفاعته فيه ومغفرة الله له ، وكان من كراماته إتيان الأتاتان — فهذا الكفر والشرك والالحاد ، ومعارضة القرآن ، واجتراح كبار الفسوق والعصيان ، كله عنده وعند أمثاله من كرامات أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، ويطيع أمرهم رضوان خازن الجنان ، ومالك خازن النار ، كما نقله الشمراني عن الدسوقي ، وجملة القول انهم يتصرفون في أمور الدنيا والآخرة احياء وأمواتا ، وقد رسخت هذه الخرافات في قلوب الملايين من مسلمي مصر وأمثالها من الاقطار فهم يعتمدون على هؤلاء الاولياء في أمور دنياهم وآخرتهم وانك لتجد أكثرهم يحتاج على ذلك بالآية الكريمة التي ذكرنا هذا البيان في صدد تفسيرها بقوله تعالى (لهم ما يشاؤون عند ربهم) فهم يزعمون انه هؤلاء الاولياء الخياليين ، وان الله تعالى يعطيهم كل ما أرادوا لانفسهم ولغيرهم في الدنيا والآخرة ، كما يزعم الذين يقولون ان منهم أقطابا متصرفين (او مدركين) بالكون كله ، وهذا افتراء على الله وتحريف لكتابه العزيز بما هو شرك به سبحانه ، وانما وردت هذه الجملة في عدة سور في جزاء اهل الجنة في الجنة لا في أولياء الخيال الخرافي المزعوم راجع سورة النحل (١٦ : ٣٠ - ٣٣) وسورة الفرقان (١٥ : ٢٥ و ١٦) وسورة الزمر (٣٩ : ٣٢ و ٣٣ : ٢٠) وسورة الشورى (٤٢ : ٢٠) وسورة ق (٥٠ : ٣١ - ٣٥) وجملة القول ان جميع هذه الفتن المضلة لكثير من الناس عن الاعتصام بكتاب الله تعالى وسنة رسوله المبينة له على النهج الذي اهتدى به سلف هذه الامة الصالح لا يقوم لشيء منها حجة عقلية ظاهرة ولا كشفية باطنة ولو صح أنها من الاسلام لكان ما جاء الرسول ناقصا ثم كل بها

(بطلان تأويل النصوص للنظريات العقلية والعلمية ، بآلة الباطنية)

أما النظريات العقلية التي يتأول النصوص لاجابها علماء الكلام فقد ظهر بطلانها وبطلان الفلسفة التي بنيت عليها علماء هذا العصر وفلاسفته وقد أجمع هؤلاء على ان جميع النظريات العقلية الفلسفية والعلمية المسلمة اليوم لأنها أرجح من غيرها في بابها ، ليس فيها شيء يمد من الحقائق القطعية العلمية الثابتة التي لا يمكن نقضها ، بل كلها قابلة للنقض والبطلان كما ثبت بطلان مثلها من مسلمات القرون الماضية إلى السنين الأخيرة من هذا القرن العشرين الميلادي التي ترجح فيها أن كل ما عرف في هذا الكون من مظاهر المادة والقوة هو مظهر تركيب خاص مجهول لجزئي الكهرباء الايجابي والسليبي المبرر عنهما بكامتي (البروتون والالكترون) فبطلت بهذا جميع النظريات العلمية في المادة والقوة ، فكيف يجوز إذن تأويل نص ديني قطعي الرواية والدلالة في خبر عن عالم الغيب من الوحي الالهي ، لنظرية ظنية في عالم الشهادة من الرأي البشري ؟

واذا بطل تأويل علماء الكلام المتقدمين المبني على قواعد النظر العقلي ومراعاة مدلولات اللغة ، واشترط عدم المخالفة لأصل من قواعد الشرع ، وبطل تأويل المعاصرين لما يخالف العلوم العصرية ، فأجدر بتأويلات الباطنية ان تكون أشد بطلاناً لأنها تحكم في اللغة بما لا تدل عليه مفرداتها ، ولا قواعد نحوها وبيانها ، وناقضة لأصول الشرع وقواعده القطعية الثابتة بالاجماع المتواتر ، والعمل الذي لا مجال للتأويل ولا للتحريف فيه ، كتأويل الاسماعيلية القرامطة السابقين ، والبهائية والقاديانية اللاحقين ، البهائية الذين يدعون الى ألوهية البهاء ، والقاديانية الذين يدعون الى نبوة ميرزا غلام أحمد ، وكل منهما يستدل بتأويل القرآن والحديث مخالفاً لآلئهما على دينه الجديد الذي غايته أن يتبعه الناس ويقدموه .

بطلان الاخذ بالكشف في الدين

وأما الكشف فهو ضرب من إدراك - النفس الناطقة غير ثابت ولا مطرد
فليس بدليل عتلي ولا شرعي، وإنما هو ادراكات ناقصة تخطئ وتصيب، وقد عرفت
أسبابه الطبيعية وأن منها ما هو فطري، ومنها ما هو كسبي وصناعي، كالتنويم
المغناطيسي المعروف في هذا العصر، وما يسمونه قراءة الأفكار ومراسلة الأفكار،
ويشبهونه بنقل الأخبار بخطوط الاسلاك الكهربائية وبدونها، وهو يقع للمؤمن
والكافر، والبر والفاجر، ويعترف به صوفية المسلمين لصوفية الهندوس وغيرهم،
كما يترفون بتليس الشياطين عليهم فيه، وقلة من يميز بين الكشف الشيطاني
والكشف الحقيقي منهم، ولا يصح أن يسمى حقيقة إلا ما وافق نصا قطعيا

ومن دلائل الخطأ والتليس والتخيلات في الكشف الذي يسمونه النوراني
تعارض أهله وتناقضهم فيه، وما يذكرونه فيه من معلوماتهم المختلفة باختلاف
معلوماتهم الفنية والخرافية والشرعية، فترى بعضهم يذكر في كشفه جبل قاف
المحيط بالارض والحية المحيطة به كما تراه في ترجمة الشعراني للشيخ أبي مدين وهو
من الخرافات التي لا حقيقة لها، ومنهم من يذكر في كشفه الافلاك وكواكبها على
الطريقة اليونانية الباطلة أيضا. وأكثرهم يذكرون في كشفهم الاحاديث الموضوعة،
فإن اعترض عليهم أو على المفتونين بكشفهم علماء الحديث قالوا إن الحديث قد
صح في كشفنا وإن لم يصح في رواياتكم، وكشفنا أصح لأنه من علم اليقين وعلمكم
ظني. والحاصل أن كشفنا هذا شأنه وشأن أهله إن صح أن يصدق فيما لا يخالف
نصوص الشرع وعقائده وأحكامه فلا يصح لمن يؤمن بكتاب الله وسنة رسوله
أن يصدق منه ما يخالفهما وإن ثبت من أمر عالم النيب ما لم يثبت بهما، وما أغنانا
عن هذا كله، وفي جمع الجوامع أن الإلهام - وهو الكشف الصحيح عندهم
« ليس بحجة لعدم ثقة من ليس معصوما بخواطره خلافا لبعض الصوفية » أي ولا يعتمد
بخلافهم لأنهم خالفوا به الأصول كما خالفوا النصوص.

الكرامات لا تدل على الولاية فضلا عن العصمة

وأما الكرامات فهي نوع من خوارق العادات التي تروى عن جميع الامم المختلفة الاديان والملل ، وقد قال علماء الكلام انها تقع للمؤمن والكافر ، والبر والفاجر ، والنبي والساحر ، ويختلف اسمها باختلاف من ظهرت على يديه فتسمى معجزة للنبي المرسل اذا تحدى بها وكرامة للرجل الصالح المتبع للرسول ومعوونة لمن دونه من المؤمنين واستدراجا للكافر والفاسق

وصحت الاحاديث بأن الدجال يظهر على يديه من الخوارق الكبرى ما قلما كان مثله في المعجزات حتى احياء الموتى . وقال أئمة الصوفية العارفون اذا رأيت الرجل يمشي على الماء ويطير في الهواء فلا تعتدوا به (او كلمة بهذا المعنى) حتى تروه عند الامر والنهي الشرعيين ، وقال مثل ذلك الخلاطون منهم ، ففي الباب الثالث من كتاب (الانوار القدسية) للشعراني « وظهور الكرامات ليس بشرط في الولاية وانما يشترط امثال أوامر الله واجتناب نواهيه ، فيكون أمره مضبوطا على الكتاب والسنة فمن كان كذلك فالقرآن يشهد بولايته وان لم يعتقد فيه أحد » الخ وهذا عين ما حققناه في تفسير الآية .

ومن خلطه أن أكثر ما ذكره من كلامهم في طبقاتهم مخالف شرطه فهو يبطل ولاية أكثر رجال اهلها من العقلاء فضلا عن المجاذيب المجانين ، فانهم لا يعدون من الاولياء العارفين ، لانهم غير مكلفين .

ومنه وفي الباب الاول منه « فلو رأينا الصوفي يتربع في الهواء لا يعبأ به الا اذا امتثل أمر الله واجتنب نهيه في المحرمات الواردة في الكتاب والسنة مخاطبا بتركها كل الخلق المكلفين لا يخرج عن ذلك أحد منهم ، ومن ادعى ان بينه وبين الله تعالى حالة أسقطت عنه التكليف الشرعية من غير ظهور اماره تصدقه على دعواه فهو كاذب ، كن يشذح من شهود في حضرة خيالية على الله وعلى أهل الله ولا يرفع بالاحكام الشرعية رأسا ولا يقف عند حدود الله تعالى مع وجود عقل التكليف عنده فهذا مطرود عن باب الحق ، مبعد عن مقعد الصدق ، وحرام على الفقيه وغيره ان يسلم لمثل هذا » اهـ وهو يخالف هذا الحق في مواضع أخرى

ثم قال (في آخر ص ٨ منه) واعلم ان طريق القوم على وفق الكتاب والسنة
فن خالفهما خرج عن الصراط المستقيم كما قال سيد الطائفة أبو القاسم الجنيد
(رض) فلا تظن أنهم كانوا كحال غالب المنسويين الى التصوف في هذا الزمان
فخشي الظن بهم ، انما كانوا رضي الله عنهم علمين بأمرار الشريعة قائمين صائمين
زاهدين ورعين خائفين وجلين كما يعلم ذلك من تراجمهم وطبقاتهم ، وانما أنكر
من أنكر على المتشبهين بالمتشبهين بالمتشبهين بالمتشبهين بالمتشبهين ست
مرات منهم ، فكل قرن منهم بالنسبة لمن قبله يصح عليه الانكار اذ ادعى أنه على
طريقة من كان قبله لان الناس لم يزالوا راجعين القهقري واليه الاشارة بقوله
ﷺ « خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم » الحديث اهـ

أقول ان هذا التصوف قد ذر قرنه في أواخر القرن الثاني وظهر الشذوذ في
المتحليين له في القرن الثالث . وقد قال الامام الشافعي الذي توفي سنة ٢٠٢ اذا
تصوف الرجل في الصباح لا يأتي المساء أو قال العصر إلا وهو مجنون . وأنكر الامام
أحمد الذي توفي سنة ٢٤١ بعده على خيارهم ونهى عن قراءة كتب الحارث المحاسبي
على التزامه الكتاب والسنة علما وعملا كما بيناه في تفسير سورة براءة ، وقد توفي
الحارث في سنة ٢٤٣ وهو أستاذ أكابر البعديين ومن أخذه عنه سيد الطائفة أبو القاسم
الجنيد . فاذا قلنا إن الشعرا يبعد أهل قرنه العاشر في الدرجة السادسة من المتشبهين
بالصوفية فالظاهر أنه يبعد أهل القرن الخامس أول المتشبهين الذين ينكر عليهم . وقد
أنكر الغزالي في كتاب الغرور من الاحياء على المتشبهين بهم وعد منهم فرقا من أهل
المكاشفات ، وكان ذلك في أواخر القرن الخامس فان الغزالي توفي سنة ٥٠٥ وكان
قد تاب الى الله من علوم التصوف والكلام وانقطع الى علم السنة ، ثم ان ابن الحاج
المالكي المتوفي سنة ٧٣٧ تكلم في كتابه المدخل على هؤلاء المتشبهين بالمشايخ من أهل
عصره في القرن الثامن وبين ما لم من المنكرات ، وفند ما يدعونه من السمكات .
وقام في هذا القرن أيضا شيخ الاسلام ، مدره السنة الاكبر ، وقامع البدع الافهر ،
أحمد بن تيمية فبذ من قبله ، وأغنى عن جاء بعده ، وعلى كتبه وكتب تلميذه ابن القيم الممول
« تفسير القرآن الحكيم » « ٥٧ » « الجزء الحادي عشر »

تفضيل أهل الحديث على غيرهم

ومما كتبه الشعراني في كتابه هذا من الحق بين الباطل وقوله في الباب الثاني من كتابه المذكور - وهو في طلب العلم - ما نصه :

« واعلم أنه مامت بالارث للانبياء عليهم السلام على الحقيقة الا المحدثون الذين رووا الاحاديث بالسند المتصل الى النبي ﷺ كما قاله شيخنا فلهم حظ في الرسالة لأنهم نقلة الوحي وهم ورثة الانبياء في التبليغ ، والفقهاء بلا معرفة دليلهم ليس لهم هذه الدرجة فلا يحشرون مع الرسل انما يحشرون في عامة الناس ، فلا ينطبق اسم العلماء حقيقة الا على أهل الحديث . وكذلك العباد والزهاد وغيرهم من أهل الآخرة اذا لم يكونوا من أهل الحديث حكمهم حكم الفقهاء الذين ليسوا من أهل الحديث ، فيحشرون مع عموم الناس ويتميزون عنهم بأعمالهم الصالحة لا غير ، كما ان الفقهاء يميزون عن العامة في الدنيا ، لا غير » اهـ ولكن بعض من يسمون كبار العلماء في زماننا يفضلون خرافات المشبهين بالمتصوفة في الدرجة السادسة الى العاشرة وآراء مقلدي الفقهاء في الدرجة الخامسة - وهي السفلى - على علماء الحديث وفقهائه وحكائه ، ويطمنون في المحدثين وكل من يمتدي بالحديث قولا وكتابة ، بل صرح بعضهم بأن من يعمل بالحديث فهو زنديق !!

قرار متقدمي الصوفية ومتأخريهم بوجوب اتباع السلف

تواتر عن شيوخ الصوفية المتقدمين ان أصل طريقهم اتباع الكتاب والسنة وموافقة السلف كما تقدم آنفا ، وتجد مثل هذا في كلام الصوفية الشاذين الذين خاطوا البدع بالسنة وزعموا أنهم يأخذون علومهم عن الله الحي الذي لا يموت مباشرة وان علماء التفسير والحديث يأخذون علومهم عن الميتين كالفقهاء والمتكلمين ، وهذا أساس الابتداع بل المروق من الدين . ومما نقله الشعراني عن الشيخ ابراهيم الدسوقي من الخلط بين الحق والباطل ما نصه :

« وكان (رض) يقول اسلم التفسير ما كان مرويا عن السلف ، وأنكره ما فتح به على القلوب في كل عصر ، ولولا محرك يحرك قلوبنا لما نطقت الالبما

ورد عن السلف فاذا حرك قلوبنا وارد استفتحنا باب ربنا وسألناه الفهم في كلامه فتسكلم في ذلك الوقت بقدر ما يفتح على قلوبنا ، فسلموا لنا تسلموا ، فانا نخارة فارغة ، والعالم علم الله تعالى » اهـ

أقول من أين نعلم أو يعلمونهم أن خواطرهم التي يسمونها الواردات من الالهام الالهي لا من الوسواس الشيطاني ، وكيف نسلم لهم ما لا ندلم ، والالهام الصحيح ليس بحجة كما تقدم ؟ ثم كيف لا نتمكر عليهم ما نراه مخالفا للكتاب والسنة وآثار السلف ، وموافقا للحاد الباطنية أو بدع الخلف ، وانا وإيهم متفقون على انه هو الحق الذي لا يصح الخلاف فيه ؟

فثبت اذاً أن أولياء الله تعالى الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، هم من عرفهم تعالى بقوله الحق (الذين آمنوا وكانوا يتقون) وانهم درجات كما بينها الله تعالى في قوله (٣٢ : ٣٥) ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات باذن الله ، ذلك هو الفضل الكبير) فالظالم لنفسه من يقصر في اتباع الكتاب ولو بترك بعض الفضائل ، والمقتصد من يترك ما نهى عنه ، ويفعل ما أمر به من الواجبات القاصرة على نفسه ، والسابق بالخيرات من يزيد على ذلك التقرب بالنوافل ، والتكمل بالفضائل ، والجمع بين التعلم والتعليم والتأديب والتأديب ، حتى يكون إماما للمعتقين ، فهذه درجة المقربين من شهداء الله والصديقين ، وما قبلها درجة الصالحين من الابرار أصحاب اليمين ، فراجع سورتي الواقعة والمطففين ، ففهم ما بيان لقوله تعالى (٤ : ٦٩) ومن يطع الله والرسول أولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين) وهي تفسير لدعائك في كل ركعة بقوله تعالى (اهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين نعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين)

وبهذا تقوم حجة الله على العالمين ، بان هذا الدين تنزيل من رب العالمين ، قد أكمله لنا قبل أن يقبض الله رسوله محمدا خاتم النبيين ﷺ وإنه لو صح به ما ابتدعه الناس فيه بفلسفتهم العقلية أو النفسية او بما ادعوه من الكشف صحت شهادة الله بكلمه ، ولا أنه من عنده لا من عند أحد من خلقه ، وهذا كل ضنا من هذا البحث ، وقد ظهر به الحق والله الحمد

(٦٥) وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ، إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا، هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ
(٦٦) أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، وَمَا يَتَّبِعُهُ
الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ، إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا
يَخْرُصُونَ (٦٧) هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ
مُبْصِرًا، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسَمِّوْنَ

بعد ان بين الله تعالى لرسوله حال أوليائه وصفتهم وما بشرهم به في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، وكونه لا يتبدل لسلطاته فيما بشرهم ووعدهم كما انه لا يتبدل لما فيها أو وعد به أعداءه المشركين ، وكان هذا يتضمن الوعد بنصره ونصر من آمن له وهم أولياء الله وأنصار دينه على ضعفهم وفقيرهم ، وكانت العزة أي القوة والغلبة في مكة لا تزال للمشركين بكثرتهم انبي يعبرون عنها بقولهم : وأما العزة لا تكسر ، وكانوا القروورهم بكثرتهم وثروتهم يكذبون بوعد الله وكان ذلك يحزنه ﷺ بالطبع كما قال (٦: ٣٣) قد علم انه ليحزنك الذي يقولون فانهم لا يكذبونك) الآية قال تعالى مسلما له ومؤكدا وعده له ولأوليائه ، ووعيده لأعدائهم وأعدائه :

٦٥ ﴿ وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ ﴾ نهاء عن الحزن والغم من قولهم الذي يقولونه في تكذيبه الذي تقدم مفصلا في هذه السورة فحذف مقول القول للعالم به وبين له سبب هذا النهي بقوله ﴿ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ أي ان الغلبة والقوة والمنعة لله جميعها لا يملك أحد من دونه شيئا منها ، فهو بهيها لمن يشاء ويحرمها من يشاء ، وليست للآخر دأما كما يدعون ، فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله ، وقد وعد بها رسوله والذين آمنوا بهم واتبعوهم من أوليائه ، كما قال (كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز * إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد * والله العزة ورسوله وللمؤمنين) ففرته تعالى ذاتية له ، وعزة رسوله

(يونس : ١٠) اتباع المشركين للظن يخرصونه لالشركاء لله موجودين ٤٥٣

والثومنين به ومنه عز وجل ، كما قال (وتمز من تشاء وتذل من تشاء) وقرأ نافع (يحزنك) بضم الياء من أحزنه وهي لغة ، وقرئ (أن العزة) بفتح همزة ان حذف لامها وهي لتعادل الذي تدل عليه قراءة الجمهور بالكسر على الاستئناف البياني .

﴿ هو السميع ﴾ لما يقولون من تكذيب بالحق وادعاء للشرك ﴿ العليم ﴾ بما يفعلون من إبداء وكيد ومكر ، فهو يذلهم ويحبط أعمالهم ، وهذا استئناف آخر في تقرير مضمون الاول وهو تسليته ﷺ وتأكيد وعده بالعزة ووعد تكذيبه . ثم استدلل على كون العزة له جميعا والجزاء بيده بقوله مستأنفا أيضا ومفتتحا بأداة التنبيه

٦٦ ﴿ ألا إن لله من في السموات ومن في الأرض ﴾ من عابد ومعبود فهو ربهم

ومالكم وهم عبيده الربوبون المملوكون له ﴿ وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء ﴾ له في ربوبيته وملسكه ، أي ان هؤلاء المشركين الذين يعبدون غير الله بدعائهم في الشدائد ، واستغاثتهم في النوازل ، والتقرب اليهم بالذور والقرابين والوسائل ، لا يتبعون شركاء له في تدبير امور عبادته ينفعونهم أو يكشفون الضر عنهم اذلا شركاء له ،

﴿ ان يتبعون إلا الظن ﴾ أي ما يتبعون في الحقيقة إلا ظنهم أن هؤلاء الذين يدعونهم أو آيا الله وشفعاء عنده ، فهم يتوسلون بهم ويأثيّلهم اليه ، لانهم يقيسونه على ملوكهم الظالمين المتكبرين ، الذين لا يصل اليهم أحد من رعاياهم إلا بوسائل حجاب

ووسائلهم ووزرائه ﴿ وإن هم إلا يخرصون ﴾ أي وما هم في اتباع هذا الظن الذي لا يغني من الحق شيئا ، إلا يخرصون خرسا ، أي يحزرون حزرا ، أو يكذبون كذبا ، أصل الخرص الحزر والتقدير للشيء الذي لا يجري على قياس من وزن أو كيل أو ذرع ، بل هو كخرص الثمر على الشجر والحب في الزرع ، وليكثرة الخطأ فيه أطلق على لازمه الغالب وهو الكذب ، فالظن الذي يبنى عليه يكون من أضغاث الظن وأبعده عن الحق ، مثاله ما ذكرناه آنفا من قياس الرب في تدبير أمور عبادته على الملوك ، وهذا قياس شيطاني سمعته من جميع طبقات الجاهلین لعقائد الاسلام ، وتوحيد الرحمن ، حتى من يلتقيون بالعلماء وبالباشوات ، ومثله قولهم في وسائلهم الذين يسمونهم الاولياء : ان الله يحبهم ، وكل من يحب أحدا فانه يقبل وساطته

وشفاعته ، فيقسمون تأثير عباد الله الصالحين عنده تعالى ، على تأثير أصدقاء الملوك والوجهاء ومعشوقهم في قبولهم منهم جميع ما يطلبونه ، ويجهلون ان أفعال الله تعالى انما تجري بمقتضى مشيئته الازلية على وفق علمه الذاتي المحيط وحكمته البالغة العادلة ، وان صفاته تعالى كاملة أزلية لا تؤثر فيها الحوادث ، وان جميع أوليائه وأنبيائه وملائكته عبيد مملوكون له (١٧ : ٥٧ أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ، ويرجون رحمته ويخافون عذابه ان عذاب ربك كان محذورا) أي ان أقرب أولئك الذين يدعونهم ويتوسلون اليه تعالى بهم كالمسيح والملائكة ومن دونهم ، هم يتوسلون اليه راجين خائفين ، لا كأعوان الملوك الذين لا يقوم أمر ملكهم بدونهم ، ومعشوقهم الذين لا يتم تمتعهم الشهواني إلا بهم

٦٧ هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا ﴿ هذا استدلال على مضمون ما قبله من نفي وجود شركاء له في الخلق والتقدير ، ولا بالشفاعة عنده في التصرف والتدبير ، أي هو الذي جعل لكم الوقت قسمين بمقتضى علمه ومشيئته بدون مساعد ولا شفيع ، بل بمحض الحكمة البالغة والرحمة الشاملة : أحدهما الليل جعله مظلماً لاجل أن تسكنوا فيه بمد طول الحركة والتقلب في الارض ، وتسريحوا من التعب في طلب الرزق ، وثانيهما النهار جعله مضيئاً ذا إبصار لتنتشروا في الارض ، وتقوموا بجميع أعمال العمران والكسب ، والشكر للرب ، فالبصر هنا معطي الإبصار سببه حسياً كان أو معنوياً ، فالاول قوله تعالى (١٧ : ١٢) وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم) الآية — والثاني قوله في هذه السورة أيضا (٥٩) وانينا نعود الناقه مبصرة) أي آية مفيدة للبصيرة والحجة على صدق رسولهم ، ومثله قوله في سورة النمل (٢٧ : ١٣) فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين)

وقل قطرب : تقول العرب : أظلم الليل وأبصر النهار وأضاء بمعنى صار ذا ظلمة وذا إبصار وذا ضياء اه وقد تكرر التذكير في التنزيل بآيات الله في الليل والنهار من خلقهما وتقديرهما ومنفع الناس فيهما ، وفي هذه الآية احتباك وهو انه حذف من كل من آيتي الليل والنهار ما أثبت مقابله في الاخرى والعكس . وفي قوله

تعالى ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ مثله ، أي ان فيما ذكر لدلائل
بينات ، وآيات أي آيات ، على وحدانيته في الذات والصفات ، لقوم يسمعون ما يتلى
عليهم من التذ كبر بحكمه تعالى ونعمه فيها سماع فقه وتدبر ، ويبصرون ما في
الكائنات من السنن الحكيمة إِبصار تأمل ، ، ذكر الآيات السمعية المناسبة
للليل الذي قدم ذكره ، وهي تدل على الآيات البصرية المناسبة للنهار وتذكر بها ،
وهو أبلغ الإيجاز ، وقد جمع بينهما في مقام الاطناب من سورة القصص بقوله
(٢٨ : ٧٤ قل أرأيتم ان جعل الله عليكم الليل سرمداً الى يوم القيامة - من إله
غير الله يأتيكم بضياء . أفلا تسمعون ؟ ٧٢ قل أرأيتم ان جعل الله عليكم النهار سرمداً
الى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون ؟ ٧٣ ومن
رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون)
وأحسن بذلك الاطناب تفسير الماهنا من الإيجاز ، والكل منهما موقعة من بلاغة الإعجاز

(٦٨) قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا مُّسَبِّحُنَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ ، لَهُ مَا فِي

السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا ، أَتَقُولُونَ
عَلَى اللَّهِ مَالًا لَّا تَعْلَمُونَ (٦٩) قُلْ إِنْ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ
لَا يُفْلِحُونَ (٧٠) مَتَّعْ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُنْذِرُهُمُ
الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ

هذه الآيات حكاية لنوع آخر من الكفر بالله تعالى قريب من كفر اتخاذ
الشر كإله ، وهو زعمهم انه اتخذ ولدا ، وقد اشترك فيه عباد الاصنام والوثان
وبعض أهل الكتاب ، فحكاها عنهم مفصولا لانه نوع مستقل وتعبه بالابطال

٦٨ ﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴾ فزعم المشركون أن الملائكة بنات الله ، وقالت

٤٥٦ القول بلا دليل جمل والعقائد انما تثبت بالقطع (التفسير : ج ١١)

للنصارى : المسيح ابن الله ، وقال بعض اليهود : عزير ابن الله ، وتقدم في سورة التوبة (ويرى بعض المؤرخين أن عزير هو أوزيروس أحد آلهة قدماء المصريين)
(سبحانه) كلمة التسبيح معناها التنزيه والتقديس أي تسبيحا له عز وجل عن كل مالا يليق بربوبيته والوهيته ، وتقال في مقام التعجب ، ويصح هنا جمع المعنيين كليهما . وقفي على هذا التنزيه والتعجب بما يدل على بطلان قولهم بأفواههم - ما ليس لهم به علم فقال (هو الغني له ما في السموات وما في الارض) أي هو الغني بذاته عن الولد ، لأن كل ما في الوجود من العالم العلوي والسفلي ملك وعييد له لا يحتاج منها الى شيء ، ويحتاج اليه كل شيء ، ولا يشبهه أو يجانسه منها شيء ، فالإنسان يحتاج الى الولد لا لمور منها بقاء ذكره به وبذريته ، ومنها انه قوة وعصبة له يعزز به هو وعشيرته ، ومنها ان وجوده زينة له في داره بآهوه به في صغره ، ويفاخر به أقرانه في كبره ، ومنها أنه قد يحتاج اليه لقضاء مصالحه وتنمية ثروته ، وقد يحتاج الى رفقده وبره ، عند عجزه أو فقره ، والله تعالى لا يحتاج الى شيء من هذه المنافع لانه هو الغني عن كل شيء بذاته لذاته أزلا وأبدا (إن عندكم من سلطان بهذا) « إن » هنا نافية و « من » مؤكدة لهذا الغني مفيدة لعمومه ، والسلطان الحجة والبرهان . والجملة تجميل لهم ورد عليهم ، أي ما عندكم أي نوع من أنواع الدليل والبرهان متعلق بهذا القول الذي تقولونه من غير عقل ولا علم ولا وحي إلهي ، تعارضون به هذا البرهان العقلي ، وهو تنزيه الله وغناه المطلق عن الولد وغيره ، وكونه المالك لكل شيء مما في السموات والارض (أنقولون على الله ما لا تعلمون) هذا استفهام تنكيه وتوبيخ على أقبح الجهل والكفر ، وهو قولهم على الله تعالى ما ليس لهم به علم ، ولا سيما بعد مجيء ما ينقضه من العلم البرهاني والوحي الإلهي ، قال البيضاوي وغيره : وفيه دليل على ان كل قول لا دليل عليه فهو جهالة ، وان العقائد لا بد لها من قاطع ، وان التقليد فيها غير سائغ اه وقد تقدم حكاية اتخاذ الولد عن الكفار عامة وعن النصارى خاصة في سور البقرة وآل عمران والفساء والمائدة والأنعام ، وسيأتي في سور أخرى مع ابطاله وتفنيد بالالدل ووجوه

الحجة المختلفة الاساليب ، أو التقرير والتأنيب ، والانذار والوعيد (١)

٦٩ ﴿ قل ان الذين يفترون على الله الكذب ﴾ بأنخدوم الشركاء له ، أو بزعمهم أنخدوم ولدا لنفسه ، أو بغير ذلك من التحليل والتحريم ، وغيرهما من مسائل التشريع ، أو بدعوى ولايتهم وإطلاعه إياهم على أسرار خلقه وتصريفه لهم في ملكه ، وقد تقدم بعضه في هذه السورة كآيات ١٧ و ٥٩ و ٦٠ ﴿ لا يفلحون ﴾ أي لا يفوزون بما يؤملون من النجاة من عذاب الآخرة والتمتع بنعيمها بشفاعته الولد أو الشركاء الذين أنخدوم له تعالى أو فدائهم لهم من عذاب النار

٧٠ ﴿ متاع في الدنيا ﴾ هذا جواب لسؤال مقدر قد ورد على نفي فلاحهم بالاطلاق الذي يدخل فيه منافع الدنيا ، والمفترون على الله بكل نوع من أنواع الافتراء المقبولة عند الجاهلين ، لهم كثير من المنافع المادية والمعنوية من أهولاء الساكنين ، واكثر البشر لا يزالون جاهلين بخضوع أهولاء الزعماء الملبسين ، فهو يقول هذا متاع قليل - أو لهم متاع في الدنيا حقير ، يتلمون به في حياة قصيرة فأما قلته وحقارته فيدل عليها تنكيره مع القرينة ، وأما قصر الحياة التي يكون في بعضها معلوم باختبار ، فهما يبلغ هذا انتاع من كثرة المال وعظمة الجاه في هذه الحياة ، فلا يكون الا قليلا بالنسبة الى ما عند الله في الآخرة للصادقين المتقين كما صرحت به الآيات الكثيرة ، وبالنسبة الى ما لهم من ضد ذلك كما صرح به في قوله ﴿ ثم الينا مرجعهم ﴾ بالبعث بعد الموت ، وما فيه من أقوال الحشر والحساب والعرض ﴿ ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون ﴾ بآياتنا ونعمنا ، وبالاقتراء علينا ، واتكذيب رسلنا ، أو الكذب عليهم بعد ان تقوم عليهم الحجة في الحساب بأنهم يستحقونه بظلمهم لانفسهم واننا لانظلمهم شيئا ، وتقدم ذكر الرجوع اليه تعالى وما يليه من الجزاء في هذه السورة وغيرها

(٧١) وَآتَانِي عَلَيْهِمْ نَبَأٌ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَبْقَوْمُ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بَيَّاتٍ اللَّهُ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ، فَاجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْهِمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ (٧٢) فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ، وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٣) فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي السَّمَاءِ وَجَعَلْنَاهُمْ خُلَفَاءَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا، فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ

هذا سياق جديد متصل بما سبق من مقاصد هذه السورة أتم الاتصال ، بتفصيله لبعض ما فيها من اجمال ، وهو الاحتجاج على مشركي مكة وما حولها وسائر من تباعثهم الدعوة من المكذبين ، بأن الله تعالى سيخذلهم وينصر رسوله عليهم كما نصر من قبله من الرسل على أقوامهم المجرمين ، فأهلكهم وأبجى المؤمنين ، فقد تقدم في أوائلها قوله (١٣) ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا) الى آخر الآية ١٤ ثم قال في الرد على تكذيبهم إياه بما وعدهم من العذاب (٣٩) كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين) ثم قال (٤٧) ولعلكم أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون) جاء هذا في سياق إقامة الحجج العقلية على صدق الرسول ﷺ في دعوى الوحي وكون القرآن من عند الله لا من عنده ورأيه وكلامه ، والحجج على مضمون الدعوى من التوحيد والرسالة والبعث والجزاء والتفنن فيها ، والتكرار البليغ لمقاصدها ، وانذار أولئك المكذبين بها فناسب ان يفصل لهم شيئا من ذلك الاجمال من هذا الوجه فجاء به معطوفا لانه مرتبط به متم له ، بخلاف سرد قصص الرسل في سورة الاعراف حيث بدأه بقوله (٧ : ٥٩) لقد أرسلنا نوحا الى قومه) لان هذه القصص أوردت هناك مستقلة ،

لا تفسيراً ولا تفصيلاً لمجمل قبلها وأما مناسبة هذه الآيات لما قبلها مباشرة
بكونها من جنس موضوعها العام فلا تدل على هذه الخصوصية العلمية التي بها
كانت البلاغة فلسفة عقلية نفسية . قال عز وجل :

٧١ ﴿واتل عليهم نبأ نوح﴾ أي واقرأ أيها الرسول على هؤلاء المشركين
المكذابين لك من قومك، فيما أوعدهم من عقاب الله لهم على سابق سنته في المكذابين رسله
من قبلك، خبر نوح ذي الشأن العظيم ﴿إذ قال لقومه يا قوم ان كان كبر عليكم مقامي
وتذكيري بآيات الله﴾ أي نبأه حين قال لهم هذا القول فكذبوه فأغرقناه
ونجيناه هو ومن آمن معه وجعلناهم خلائف الارض — لاجميع أنباء قصته معهم
(الفصلة في سورة هود التي نزلت قبل هذه السورة ووضعت بعدها في المصحف)
ليعلموا من هذا النبأ الخاص سنته تعالى في نصر رسله على المكذابين من قبلهم،
وانه كذلك ينصرهم عليهم، فيهلك المكذابين لك المغرورين بكبريتهم وقوتهم،
وقلة من اتبعك وضعفهم، وان هؤلاء الضعفاء سيكونون خلائف الارض في
قومهم وغير قومهم من سكان الارض، قال نوح عليه السلام لقومه بعد ان طال
مكثهم فيهم يدعوهم الى توحيد الله وعبادته وحده والاصلاح في الارض فلما مقامه،
وسئموا وعظه واثمروا به : يا قومي ان كان قد آبر أي شق وعظم عليهم قيامي
فيكم، أو مكاني من القيام بما أقوم به من دعوتكم الى عبادة ربكم، وتذكيري اياكم
بآياته الدالة على وحدانيته، ووجوب عبادته وشكره، والرجاء في ثوابه للمؤمنين
المتقين، او الخوف من عقابه المشركين المجرمين — التذكير يطلق على الاعلام
بالآيات والدلائل في أنفس الناس وفي الآفاق فيدر كما العقل وتقتضيها الفطرة، حتى
يكون بيانها تذكيراً أو كالتذكير لمن فقها بشيء كان يعرفه بالقوة، فعرفه بالفعل،
ويطلق على الوعظ والنصح المشتمل على عواقب الأمور، وسيأتي في السورة التالية
قوله لهم (١١ : ٣٤) ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم (الآية
﴿فعلى الله توكلت﴾ دون غيره من المؤمنين الذين تستضعفونهم، أي ان كان
كبر عليكم ذلك وأردتم التفصي منه بالايقاع بي فاني قد وكلت أمري إلى

الله الذي أرسلني واعتمدت عليه وحده بعد ان أدبت رسالته بقدر طاقتي ﴿فأجمعوا أمركم وشركاهم﴾ من أجمع الامر كالسفر والصيام وغيرهما وأجمع عليه اذا عزم عليه عزما لا تردد فيه قيل أصله جمع ما تفرق من أسبابه ومقدماته، وأجمع القوم على الشيء اتفقوا عليه كلهم لم يشذ أحد منهم ، أي أجمعوا ما يريدون من أمركم مع شركائكم الذين تعبدونهم من دون الله لا تفرقوا فيه ، وقيل التقدير وادعوا شركاءكم ليعينوكم كما تزعمون كما أدعوا ربي وأتوكل عليه ﴿ثم لا يكن أمركم﴾ الذي تعتمدون عليه ﴿عليكم غمة﴾ أي غميا فيه شيء من الحيرة أو الالبس الذي يقتضي التردد في الانفاذ، بعد العزم والاجماع ، بل كونوا على علم وبصيرة فيه لكيلا تتحولوا عنه بظهور الخطأ أو التردد في كونه هو الصواب ﴿ثم اقضوا إلي﴾ ذلك الامر بعد اجماعه واعتزامه وبعد استبانه التامة التي لا غمة فيها ولا التباس بان تنفذوه بالفعل ، فالقضاء يطلق بمعنى أداء الشيء وتنفيذه وإتمامه ومنه (فلما قضى موسى الاجل * فمنهم من قضى نحبه * فلما قضى زيد منها وطرا) وتمدينه بالى لافادة ابلاغه وإيصاله الى متعلقه بالفعل كما قل في أوائل السورة (ولو يجعل الله للناس الشر استعجالهم بالخير اقضي اليهم أجالهم) ويطلق بمعنى الحكم بالشيء واذا عدي هذا بالى يفيد تبليغ خبره كقوله تعالى (وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب) الخ وقوله (وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلا مقطوع مصبحين) ﴿ولا تنظرون﴾ أي لا تمهلوني بتأخير هذا القضاء وتنفيذه بعد استيفاء تلك المقدمات كلها

هذه الآية من أبلغ آيات القرآن عبارة وأجمعها على إيجازها للمعاني الكثيرة من علم النفس، ودرجة إيمان الانبياء المرسلين وثقتهم بالله عز وجل، وشجاعتهم واحتقارهم لكل ما في الحياة الدنيا من أسباب الخوف من غيره والرجاء فيما سواه، وبيان خاتمهم استنته تعالى فيهم وفي أقوامهم، وحسن وعظه لهم بوحى ربه تعالى، فهو يضرب لحاله ومقامه معهم مثل نوح مع قومه في غرور كل منهم بكثيرتهم وقوتهم وتكذيبهم واحتقارهم لرسوله ولما آمن معه من الضعفاء والفقراء ، ولما

يمتاز به كل من الرسولين من التوكل على الله والاعتماد عليه في النصر والعزة وحسن العاقبة ، والجزم باهلاك المصيرين على تكذيبه ونجاة المؤمنين المتبعين له بمجملهم خلافت الارض وأصحاب السلطان فيها

صورت الآية لاهل مكة البلاء هذه المعاني بمطالبة نوح عليه السلام لقومه على كثرتهم وقوتهم - المشهور في تواريخ الامم وظواهر الكتب المقدسة أنهم جميع أهل الارض - بأن يفعلوا ما استطاعوا من الايقاع به واكتفاء أمره ، والاستراحة من دعوته ، مطالبة القوي العزيز المدل بآسائه ، المعتصم بإيمانه بوعده ربه وتوكله عليه ، للضعيف العاجز عن تنفيذ مراده مهما يكن من استيفائه لجميع أسبابه الطبيعية والكسبية ، اذ أمرهم في المرتبة الاولى بإجماع أمرهم بالعزيمة الصادقة وقوة الارادة الجازمة حتى لا يكون شيء من موجباتها متفرقا بينهم ، وان يضموا الى هذه القوة النفسية الكسبية قوة الايمان المعنوية بشركائهم وآلهتهم ، ولما كانت للعزيمة الصادقة المجعومة قد يعرض لها الوهن أو الملل اقتضية للفسخ قبل التنفيذ نهاهم أن يكون في أمرهم الذي أجمعوا شيء من الغمة والخفاء الذي يقتضي ذلك (فان قيل) ان إجماع المزم في الامر لا يكون بعد الجزم بالعلم بالمقتضي له الباعث عليه ، اذ لو كان الامر غمة امتنع إجماعه كما يمتنع إجماع الصيام من الليل في أول رمضان اذا غم الهلال في ليلة الثلاثين من شعبان ولهذا قال ﷺ « صوموا لرؤيته وافطروا لرؤيته فان غم عليكم فأكلوا شعبان ثلاثين » رواه الشيخان والترمذي عن أبي هريرة ورواه غيرهم عن غيره ، فالامر بإجماع الامر يعني عن النهي ان يكون غمة فما حكمة ذكره بعده وعطفه عليه بهم الدالة على تأخره عنه في المرتبة ؟ (قلت) يكفي في إجماع الامر على الايقاع بنوح عليه السلام ان يعتقدوا انه مصلحة لهم غير معارضة بمفسدة أرجح منها ، وهذا لا يمنع ان يعرض لهم قبل تنفيذه شيء من الغمة والحيرة المقتضية للفسخ أو التردد ، فمن ثم اقتضت المبالغة في أمر التمجيز المذكور ان يؤكد بهذا النهي عن الغمة في المستقبل واقتضت البلاغة ان يعطف بهم لان مرتبته متأخرة عن مرتبة ذلك الامر وما يستلزمه من العلم بالمقتضي له ، كما ان مرتبة قضاء ذلك الامر وتنفيذه متأخرة عن مرتبة الامر

٤٦٢ سنة الله في املاك مكذبي الرسل وانجاء متبعيهم (التفسير : ج ١١)

الاول والنهي ككتيها ولذلك عطفها عليها بما يتم، وأكد هذا الامر الثاني بالنهي عن الانظار معطوفا بالواو التي تفيد مطلق الجمع لا تحادز منها ورتبتها فلا ترتب بينها وقرأ نافع (فاجمعوا أمركم) بوصل المدة وفتح الميم من الجمع أي اجمعوا ما تفرق منه ، و على هذا يكون قوله (وشركاؤكم) مفعولا به معطوفا عليه . لا مفعولا معه ، وقرأ الحسن وابن أبي اسحق وأبو عبد الرحمن السلمي وعيسى الثقفي (وشركاؤكم) بالرفع أي أنتم وشركاؤكم . وهذه القراءة شاذة مخالفة لخط المصحف الامام فلا تتلى في الصلاة وقرئ «أفضوا الي» من الافضاء الى الشيء وهو الوصول والانهاء اليه مباشرة، والظاهر أنها تصحيف وان كان المعنى المراد واحدا لا يختلف

٧٢ ﴿فان توليتم﴾ أي انصرفتم عني بمصرين على إعراضكم عن تذكيري

﴿فما سألتكم من أجر﴾ أي فما سألتكم على هذا التذكير ولا على غيره من مسائل الدعوة والنصح أدنى شيء من الاجر والمسكافات فتولوا ثقله عليكم ، او فيضرنني أن يفوت علي وأحرمه فأبائي بتوليكم . ﴿ان أجرى إلا على الله﴾ أي ما أجري وثوابي على دعوتكم وتذكيركم إلا على الله الذي أرسلني اليكم ، فهو يوفيني إياه سواء آمنتم أو توليتم ﴿وأمرت أن أكون من المسلمين﴾ أي المنقادين المذعنين بالفعل لما أدعواكم إليه أسلمتم أم كفرتم ، فلا أترك شيئا مما أمرتكم به (وما أريد أن أخالفكم الى ما أنهاكم عنه)

٧٣ ﴿فكذبوه فنجيناه وامن معه في الفلك﴾ أي فأصروا على تكذيبه بعد أن أقام لهم الحجة بقوله وعمله على حقيقة دعوته ، وبرأته من كل خوف منهم اذا كذبوا ، ورجاء فيهم اذا آمنوا ، فنجيناه هو ومن آمن معه في السفينة التي كان يصنعها بأمرنا لاجل ذلك . ولفظ الفلك هنا مفرد وهو السفينة كما عبر به في سورة العنكبوت . وهو يطلق على الجمع أيضا كما قال [وترى الفلك مواخر فيه] ويفرق بينها بالقرائن ، ان لم توصف بالجمع كالمواخر ﴿وجعلناهم خلائف﴾ يخلفون المكذبين في الارض كلها على قلتهم ﴿وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا﴾ بعد أن أنذرهم وأوعدهم العذاب أي وأغرقناهم لانهم كذبوا بآياتنا ﴿فانظر كيف كان عاقبة المنذرين﴾

أي فانظر أيها الرسول بعين بصيرتك وعقلك كيف كانت عاقبة القوم الذين أنذرهم رسولهم وقوع عذاب الله عليهم فأصروا على تكذيبه ، فكذا تكون عاقبة من يصرون على تكذيبك من قومك ، وكذلك تكون عاقبة المؤمنين المتبعين لك ، قدم ذكر تنجية المؤمنين واستخلاصهم على إغراق المكذبين وقطع دابرهم ، لانه هو الامم في سياق صدق الوعد والوعيد من وجهين : أولهما تقديم مصداق الوعد لتسليية النبي ﷺ وتسرية حزنه على قومه ومنهم ، وثانيهما كونه هو الاظهر في الحجة على أنهما (أي الوعد والوعيد) من الله تعالى القادر على ابعادهما على خلاف ما يعتقد المشركون المكذبون المفرورون بكثرتهم وقلة أتباع النبي ﷺ وخلاف الاصل اليهود في المصائب العامة في المادة وهو أنها تصيب الصالح والطالح على سواء ، فلا تميز فيها ولا استثناء ، ولكنه هو الذي جرت به سنة الله تعالى في مكذبي الرسل من بعد نوح فكان آية لهم ، فنولا أن الامر بيد الله على وفق وعده ووعيده لما هلك الالوف الكثيرون ، ونجا أفراد قليلون لهم صفة خاصة أخرجهم منهم تصديقا لخبر رسولهم ، وما سيق هذا النبأ هنا الا لتقرير هذا المعنى ، وغفل عنه الباحثون عن نكتة البلاغ في العدول عن الضمير الى الاسم الموصول فقالوا انها تعجيل المسرة للمؤمنين والايذان بأن الرحمة مقدمة على العذاب ، ولكن ما قلناه هو المقصود الاول لذاته الذي يقتضيه السياق والحمد لله ملهم الصواب

(٧٤) ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ ، كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ

بين الله تعالى في هذه الآية عبرة أخرى من عبر مكذبي الرسل وسنة من سبته فيهم تكلة لما بينه في حال قوم نوح مع رسولهم عسى أن يعتبر بها أهل مكة فيعملوا كيف يتقون عاقبة المكذبين من قوم نوح وغيرهم ، فان كل سوء وضر علم سببه أمكن اتقاؤه باتقاء سببه اذا كان من عمل الناس الاختياري كالكفر والاعتداء والغلم

٧٤ ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ ﴾ أي بعثنا من بعد نوح رسلا مثله

الى أقوامهم الذين كانوا مثل قومه فيما يأتي من خبرهم معهم ولهذا أفرد كلمة قومهم فيما يظهر لنا منه والمراد أرسلنا كل رسول منهم الى قومه كهود الى عاد وصالح الى نمرود ، ولم يرسل رسول منهم الى كل الاقوام الذين كانوا في زمانه الا شعيبا أرسل الى قومه أهل مدين والى جيرانهم أصحاب المؤتفكة لانحادهما في اللغة والوطن ، وانما

أرسل محمد وحده الى الناس كافة ﴿ فجاءوهم بالبينات ﴾ أي فجاء كل رسول منهم قومه بالبينات الدالة على رسالته وصحة مادعاهم اليه بحسب أفهامهم وأحوالهم العقلية

﴿ فما كانوا يؤمنوا بما كذبوا به من قبل ﴾ أي فما كان من شأنهم أن يؤمن بالتأخر منهم بما كذب به المتقدم من قبل من كان مثله في سبب كفره وهو استكبار

الرؤساء ، وتقليد الدهماء للآباء والاجداد ﴿ كذلك نطبع على قلوب المعتدين ﴾ أي مثل هذا الطبع وعلى غرار هذه السنة التي أطردت فيهم نطبع على قلوب المعتدين مثلهم في كل قوم كقومك أيها الرسول اذا كانوا مثلهم (ولا نجد لسنةنا تحويلا * ولن نجد لسنة الله تبديلا) فأما الطبع على القلوب فهو عبارة عن عدم قبولها شيئا غير مارسخ فيها واستحوذ عليها مما يخالفه ، كقبول الجاهل المقلد الدليل العلمي على بطلان اعتقاده التقليدي ، ورجوع المعاند عن عناده وكبره النفسي [وقد تقدم تفصيله في تفسير ما سبق فيه من الآيات في سور النساء والاعراف والتوبة ، ومثله تفسير (ختم الله على قلوبهم في أوائل سورة البقرة) وأما الاعتداء الذي صار وصفا ثابتا لهؤلاء (المعتدين) فعناء تجاوز حدود الحق والعدل اتباعا لهوى النفس وشهواتها ، فالطبع المذكور أثر طبيعي للحالة النفسية التي عبر عنها بوصف الاعتداء ، وايس عتابا أنفا (بضمين أي جديدا) خلقه الله لمعهم من الايمان ، إذ لو كان كذلك لكانوا معذورين بكفرهم ، ولما كان فيه عبرة لغيرهم ، بل لكان حجة لهم ، وقد فهمت قريش وسائر العرب ما لم يفهمه متكلموا الجبرية من هذه الآية وأمثالها ، وهوانها وصف للعملة والمعلول ، والسبب والمسبب ، وسفته تعالى في دوام كل منهما بدوام الآخر ، لا بداته وكونه خلقيا لا مفر منه ، بل المفر أمر اختياري ممكن ، وهو ترك المعاند لعناده والمقلد لتقليده ، إثارا للحق الذي يقوم عليه الدليل ، فهموا هذا فاهتدى الا كثرون بالتدريج ، وهلك الذين استحبوا العمى على الهدى في غزوة بدر وغيرها

(٧٥) ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمُ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ
بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ (٧٦) فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ
مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ (٧٧) قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ
لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّحَرُونَ (٧٨) قَالُوا
أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ
فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ؟

هذه قصة موسى وهارون عليهما السلام مع فرعون وملئه ملخصة هنا في ١٩
آية مفصلة مرتبة كما نبيته في تفسيرها . وهذه الاربعة منها في استكبار فرعون
وملئه عن الايمان وزعمهم أن آيات الله لموسى من السحر ، وتعليل تكذيبهم له بأمرين
أحدهما أن أتباعه تحويل لهم عن التقاليد الموروثة عن الآباء ، والثاني أنه يسلب
سلطانهم منهم وينفرد هو وأخوه بما يتمتعون به من الكبرياء في الارض ، وهذا
يعنى ما تقدم من قصة نوح المختصرة في هذه السورة . وهاك تفسيرهن بالاختصار

٧٥ - ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمُ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ ﴾ أي ثم
بعثنا من بعد أولئك الرسل الذين بعثناهم إلى أقوامهم موسى وهارون إلى فرعون مصر
وأشراف قومه الذين هم أركان دولته وإلى قومهم القبط بالتبع لهم لأنهم كانوا
مستعبدين لهم يكفرون بكفرهم ، ويؤمنون بإيمانهم إن آمنوا ﴿ بآيَاتِنَا ﴾ أي بعثناهما
هؤلدين بآياتنا التسع المفصلة في سورة الاعراف وغيرها ﴿ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا
قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴾ أي فاستكبر فرعون وملؤه أي اعرضوا عن الايمان كبرا وعلاوا مع
علمهم بأن ما جاء به هو الحق ، لما كانوا عليه من سعة العلم وصناعة السحر ، وكانوا
« تفسير القرآن الحكيم » « ٥٩ » « الجزء الحادي عشر »

٤٦٦ تعليمهم دعوة موسى بالانفراد بالرياسة الدينية والملك (التفسير : ج ١١).

قوما راسخين في الاجرام وهو الظلم والفساد في الارض ، كما قال تعالى في سورة النمل (٢٧ : ١٤) وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة الفاسدين)

٧٦- ﴿ فلما جاءهم الحق ﴾ وهو آياتنا الدالة على الربوبية والالوهية ﴿ من عندنا ﴾ ووحينا الى موسى كما هو مفصل في أول سورة الشعراء وغيرها المبطل لادعاء فرعون لما بقوله (أنا ربكم الأعلى) وقوله (ما علمت لكم من إله غيري) ﴿ قالوا إن هذا لسحر مبين ﴾ أي أقسموا إن هذا الذي جاء به موسى من الآيات الدالة على صدقه ، إنما هو سحر بين ظاهر ، وإنما السحر صناعة باطلة هم أحق الناس بها ، فكيف يتبعون من جاء ينازعهم سلطانهم بها ، فماذا قل لهم موسى ؟

٧٧ — ﴿ قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم ﴾ أي قال لهم متعجبا من قولهم : أتقولون هذا الذي قلتم للحق الظاهر ، الذي هو أبعد الاشياء عن كبد السحر الباطل ، لما جاءكم وعرفتموه واستيقنته أنفسكم ، حذف مقول القول لدلالة ما قبله عليه وهو قواهم « إن هذا لسحر مبين » وكذا ما بعده وهو قوله منكرا له متعجبا منه ﴿ ألسحر هذا ﴾ أي ان هذا الذي ترونه من آيات الله بأعينكم ، وترجف من عظمته قلوبكم ، لا يمكن أن يكون سحرا من جنس ما تصنعه أيديكم ، ﴿ ولا يفلح الساحرون ﴾ أي والحال المعروف عنكم ان الساحرين لا يفوزون في أمور الجدل العملية من دعوة دين وتأسيس ملك وقلب نظام ، وهو ما تهتمونني به على ضغني وقوتكم ، لان السحر أمور شعوذة وتخيل ، لا تلبث أن تفتضح وتزول ، يدل على هذا جوابهم له :

٧٨- ﴿ قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا ﴾ (١) وتكون لكما الكبرياء في الارض ﴾ هذا استفهام توريط وتقرير ، تجاه ما أورده موسى من استفهام الانكار والتمعيب ، لحواه أنقر وتتعرف بأنك جئتنا لتصرفنا ونحولنا عما وجدنا عليه

(١) فعل لفت يتعدى بعن وتعديته بالي مخالف لما في هذه الآية وغيرها وهو خطأ مشهور في عصرنا ، فهو ليس كفعل صرف يتعدى بعن والى

آباءنا وأجدادنا من الدين القومي الوطني لننزع دينك وتكون لك ولا أخيك
كبرياء الرياسة الدينية ، وما يتبعها من كبرياء الملك والعظمة اللانيوية التابعة لها
في أرض مصر كلها ، يemon أنه لا غرض لك من دعوتك إلا هذا ، وإن لم تعترف به
اعترافاً ، جعلوا الخطاب الخاص بالدعوة والغرض منها لموسى لأنه هو الداعي لهم
بالذات وأنشروا معه أخاه في ثمرة الدعوة وفائدتها لأنها تكون مشتركة بينهما
بالضرورة ﴿ وما نحن لكما بمؤمنين ﴾ أي وما نحن بمتبعين لكما اتباع إيمان
واذعان فيما يخرجنا من دين آبائنا الذي تقلده عامتنا ، ويسابنا ملكنا الذي تتمتع
بكبريائه خاصتنا - وهم الملك وأركان دولته وبطانته وحواشيه - وهذا الأمران هما
الذان كانا بمنح من جميع الأقوام من اتباع الانبياء والمصلحين في كل زمان .

(٧٩) وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (٨٠) فَلَمَّا جَاءَ
السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ (٨١) فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ
مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحَرُ ، إِنَّ اللَّهَ سَابِقُ الْعَالَمِينَ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ
عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (٨٢) وَيُحَقِّقُ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَأَوْ كَرِهَ الْخَافِرُونَ

هذه الآيات الأربع في خلاصة ما قاوم به فرعون دعوة موسى لتأييد ادعائه
أنه ساحر وصرف قومه عن اتباعه لعدم تمييزهم بين السحر وآيات الله له

٧٩- ﴿ وقال فرعون انتوني بكل ساحر عليم ﴾ أي ذاك ما قاله لـ فرعون
لموسى وأخيه بحضرته . وقال فرعون للملئ بعد ما رأوا من اصرار موسى على دعوته ،
وعدم مبالاته بالتصريح له بما يدعون أو يظنون من مراده : انتوني بكل ساحر واسع
العلم راسخ فيه متقن للسحر بالمعمل كما عبر عنه في آية أخرى « بكل ساحر عليم »

٨٠- ﴿ فلما جاء السحرة ﴾ المطلوبون الموصفون بما ذكر ﴿ قال لهم موسى ﴾
بعد أن خيره بين أن يلقي ما عنده أولاً أو يلقوا هم ما عندهم كما هو مبين في سورتي

الاعراف وطه ﴿ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴾ ليرتب عليه إبطال الباطل وإظهار الحق
 ٨١ - ﴿ فَلَمَّا أَلْقَوْا ﴾ ما ألقوه من حبالهم وعصيهم الصناعاتية السحرية
 ﴿ قَالَ مُوسَى : مَا جِئْتُمْ بِهِ لِسِحْرٍ ﴾ أي هذا الذي جئتم به وألقيتموه أمامنا هو
 السحر لا ما جئت به من آيات الله تعالى وسماه فرعون وملؤه سحراً ﴿ إِنْ اللَّهُ سَيِّطِلْهُ ﴾
 أي سيظهر بطلانه للناس وأنه صناعة خادعة، لا آية خارقة صادقة، فالجمللة استشفافية
 لبيان ما يوقن به موسى من مآل هذا السحر، ويجوز أن تكون خبراً لما قبلها ويكون
 التقدير : ما جئتم به الذي هو السحر ، ان الله سيبيطله بما جئت به من الحق، وعلل
 حكمه بقوله ﴿ إِنْ اللَّهُ لَا يَصْلَحُ عَمَلُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ وهو قاعدة عامة مبينة لسنة الله
 في تنازع الحق والباطل، والصلاح والفساد، ويدخل فيها سحرهم فانه باطل وفساد
 أي لا يجعل عمل المفسدين صالحاً ، والسحر من عمل فرعون وقومه المفسدين

٨٢ - ﴿ وَيُحَقِّقُ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ﴾ أي يثبت الحق الذي فيه صلاح الخلق وينصره
 على ما يمارضه من الباطل بكلماته التكوينية وهي مقتضى إرادته، وكلماته التشريعية
 التي يوحىها إلى رسله ، ومنها وعده بنصري على فرعون وانقاذ قومي من عبوديته
 وظلمه ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ كفرعون وقومه. وقد سبق تفسير مثل هذه الآية
 في سورة الانفال (٨ : ٨٧)

(٨٣) فَمَا أَمَّنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةُ مَنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ
 فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ ، وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ
 لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (٨٤) وَقَالَ مُوسَى يَتَقَوَّمُ إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنُونَ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ
 تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ (٨٥) فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا
 فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٨٦) وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ

[يونس : ١٠] إيمان الشبان والمراهقين بموسى على خوف من فرعون ٤٦٩

(٨٧) وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَ الْقَوْمَ مِثْكَمَا بِمِصْرَ يَبُوتَا
وَأَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ

هذه الآيات الخمس في بيان ما كان من شأن موسى مع قومه بني إسرائيل الذين أرسله الله ليخرجهم من مصر ، في إثر ما كان من شأنه مع فرعون وملئه
٨٣- ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِيَةٌ مِنْ قَوْمِهِ﴾ المتبادر إلى فهمي ان عطف هذه الجملة على ما قبلها بالغاء لا فائدة السببية أو التفريع ، أي ان إصرار فرعون وقومه على الكفر بموسى بعد خيبة السحرة وظهور حقه على باطلهم ، ثم عزمه على قتله كما أنبأ الله تعالى بقوله (٤٠ : ٢٦) وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه . إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد) يعني بالفساد الثورة والخروج على السلطان - كما قتل من آمن به من السحرة . كل هذا أوقع الخوف والرعب في قلوب بني إسرائيل قوم موسى فما آمن له إلا ذرية من قومه وهم الأحداث من المراهقين والشبان ، وقيل قوم فرعون ولكن من آمن به منهم كان يكتم إيمانه ولا يقال آمن له إلا من اتبعه مؤمناً ، ولم يكونوا صفاراً . والذرية في اللغة الصغار من الأولاد ، قال الراغب وان كان يقع على الصغار والكبار معاً في التعارف ، ويستعمل

للوأحد والجمع وأصله الجمع . ﴿على خوف من فرعون وملئه﴾ أي آمنوا على خوف من فرعون وملئه أي أشرف قومهم الجبناء المرائين الذين هم عرفاؤهم عند فرعون فيما يطلب هو منهم ، فإن الملوك يستدلون الشعوب ويستعبدونهم برؤساء وعرفاء منهم ، وقيل ملأ فرعون وجمع ضميره للمعظم على خوف منه أن يفتنهم عن الإيمان لموسى واتباع دينه بالتعذيب والارهاق . الفتون الابتلاء والاختبار الشديد للحمل على الشيء أو على تركه ، واستعمل في الاضطهاد والتعذيب الارتداد عن الدين

بكثرة كما تقدم في تفسير (وقالوهم حتى لا نكون فتنة) ﴿وإن فرعون لعال في الأرض﴾ أي والحال أن فرعون عات شديد العتو مستبد غالب قوي القهر في أرض مصر فهو جدير بأن يخاف منه . فلنراد به لوه قهره واستبداده كما حكى الله عنه بقوله

٤٧٠ أمر موسى للمؤمنين من قومه بالتوكل على الله (التفسير : ج ١١)

(٧ : ١٢٧ وقال الملا من قوم فرعون أنذر موسى وقومه ليفسدوا في الارض وبذكرك وآهلك ؟ قال سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون)

﴿ وانه لمن المسرفين ﴾ أي المتجاوزين حدود الرحمة والعدل ، الى الظلم والقتل ، والعدوان والبغي ، وغمط الحق واحتقار الخلق (وهو معنى الكبرياء)

٨٤ - ﴿ وقال موسى ﴾ لمن آمن من قومه وقد رأى خوفهم من الفتنة والاضطهاد

مرشداً ومثبتاً لهم ﴿ يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين ﴾ أي إن كنتم آمنتم بالله حق الايمان فعليه توكلوا ، وبوعده فتقوا ، ان كنتم في ايمانكم مسلمين مدعين بالفعل ، وانما يكون الايمان بيقينا اذا صدقه العمل وهو الاسلام ، وهذا لا يدل على ايمان جميع قومه كما قيل ، فلايمان بالله غير الايمان لموسى المتضمن لمعنى الاسلام والاتباع المشار اليه بقوله (إن كنتم مسلمين) وهم قد طلبوا منه بعد نجاتهم ان يجعل لهم آلهة من الاصنام ، ثم اتخذوا المعجل المصنوع وعبدوه

٨٥ ﴿ فقالوا على الله توكلنا ، ربنا لا نجعلنا فتنه للقوم الظالمين ﴾ أي فامثلوا الامر ، اذ علموا انه يتوقف عليه إنجاز الوعد ، وصرحوا به في القول ، مع الدعاء بأن يحفظهم الله من فتنة القوم الظالمين بالفعل ، فان التوكل على الله الذي هو أكبر مقامات الايمان لا يكمل الا بالصبر على الشدائد ، والدعاء لا يصح ولا يقبل فيستجاب ، الا اذا كان مسبوقاً أو مقارناً لاتخاذ الاسباب ، وهو أن تعمل ما تستطيع ، وتطلب من الله أن يسخر لك ما لا تستطيع . ولفظ « فتنة » هنا يحتمل معنى الغائن والفتون . فكأنهم قالوا ربنا لا تسلطهم علينا فيفتنوننا ، ولا تفتننا بهم فتتولى عن اتباع نبينا ، أو نضعف فيه فراراً من شدة ظلمهم لنا ، ولا تفتنهم بنا فيزدادوا كفراً وعناداً وظلماً بظهورهم علينا ، ويظنوا أنهم على الحق واننا على الباطل ومن المعقول والثابت بالتجارب ان سوء حال المؤمنين وأهل الحق في أي حال من ضعف أو فقر أو عمل مذموم يجعلهم موضعاً أو موضوعاً لافتتان الكفار وأهل الباطل بهم ، باعتقاد انهم هم خير منهم ، كما قال تعالى (٦ : ٥٣ وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا

[يونس : ١٠] إعداد موسى بني إسرائيل للخروج من مصر ٤٧١

أهؤلاء من الله عليهم من بيننا ؟) وقال (٢٥ : ٢٠) وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون ؟) فكيف اذا خذل أهل الحق حقهم ، وكفروا نعمة ربهم ؟

٨٦ ﴿ ونجنا برحمتك من القوم الكافرين ﴾ أي نجنا من ساطانهم وحكمهم لان حكم الكافر لا يطاق . ومثل هذا الدعاء في جملته قوله تعالى في سياق التأمي بآبراهيم والذين آمنوا معه في أقوالهم لقومهم وأفعالهم ونوكهم (٦٠ : ٤) ربنا عليك توكلنا واليك أنبنا واليك المصير (٥) ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا إنك انت العزيز الحكيم) وما أجدر المسلمين اليوم بهذه الاسوة ، وتجديد الانابة ، وتكرار هذا الدعاء خاشعين معتبرين مستميرين ، فقد أصبحوا فتنة للقوم الكافرين

٨٧ ﴿ وأوحينا الى موسى وأخيه ان تبوءا لقومكما بمصر بيوتا ﴾ يقال تبوأ الدار اتخذها موطأ أو مباءة أي مسكننا ثبنا وملجأ يومئذ إليه أي يرجع كلما فارقته الحاجة ، وبوأها غيره . وقوله (أن تبوءا) تفسير لا وحينما لانه بمعنى قلنا لها : اتخذنا قومكما بيوتا في مصر تكون مساكن وملاجي يبوؤون اليها ويمتصمون بها . ﴿ واجعلوا بيوتكم قبلة ﴾ أي متقابلة في جهة واحدة فالقبلة في اللغة ما يقابل الانسان ويكون تلقاء وجهه ومنه قبلة الصلاة وهي أخص ويصح الجمع هنا بين المعنيين العام والخاص بقريته قوله ﴿ وأقيموا الصلاة ﴾ أي فيها متوجهين الى جهة واحدة لان الاتحاد في الاتجاه يساعد على اتحاد القلوب كما قال النبي ﷺ في حكمة تسوية الصفوف في الصلاة « ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم » وحكمة هذا ان يكونوا مستعدين لتبليغهم إياهم ما يهملهم ويعينهم مما بعث لاجله وهو انجائهم من عذاب فرعون باخراجهم من بلاده واختلاف المفسرون في الجهة التي أمروا باستقبالها والتوجه اليها في الصلاة وهي لا تعلم إلا بنص ولا نص ﴿ وبشر المؤمنين ﴾ بحفظ الله إياهم من فتنة فرعون وملئه الظالمين لهم وتنجيهم من ظلمهم . خص الله موسى بهذا الامر (التبشير) لانه من أمر الوحي والتبليغ المنوط به ، وأشرك هارون معه في الامر الذي قبله لانه تدبير عملي هو وزيره المساعد له على تنفيذه

(٨٨) وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٨٩) قَالَ قَدْ أُجِيبَتِ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَان سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

هاتان الآيتان هما الرابطتان بين سيرة موسى وهارون مع فرعون وقومه في مصر ، وبين ما انتهت إليه من نصر الله له عليه وإنجاء بني إسرائيل من ظلمه ، وإهلاكه عقابا له كما وقع لنوح مع قومه

٨٨ ﴿وقال موسى﴾ بعد أن أعد بني إسرائيل للخروج من مصر إعدادا دينيا دنيويا، متوجها إلى الله تعالى في إنعام الامر، بعد قيامه بما يقدر عليه هو وبني إسرائيل

من الاسباب ﴿ربنا إنك آتيت فرعون وملاؤه زينة وأموالا في الحياة الدنيا﴾ أي إنك أعطيت فرعون وأشراف قومه وكبراءهم دون دهما منهم - من الصنائع والزراع والجند والخدم - زينة من الحلي والحلل والآنية والماعون واللائث والرياش، وأموالا كثيرة الانواع والمقادير ، يتمتعون بها وينفقون منها في حظوظ الدنيا من العظمة الباطلة والشهوات البدنية بدون حساب ، ﴿ربنا ليضلوا عن سبيلك﴾ أي لتكون عاقبة هذا العطاء إضلال عبادك عن سبيلك الموصلة إلى مرضاتك باتباع الحق والعدل والعمل الصالح ، ذلك بأن الزينة سبب الكبر والخيلاء والطفیان على الناس ، وكثرة الاموال تمكنهم من ذلك وتخضع رقاب الناس لهم ، كما قال تعالى (إن الانسان ليطغى * أن رآه استغنى) وذلك دأب فراعنة مصر به تشهد آثارهم وركازهم التي لا تزال تستخرج

من برايتهم^(١) ونم اويس قبورهم الى يومنا هذا الذي اكتب فيه تفسير هذه الآيات وتحفظ في دار الآثار المصرية ، و يوجد مثالا دور أخرى في عواصم بلاد الافرنج ملأى بامثالها . فاللام في قوله (ليضلوا) تسمى لام العاقبة والصيرورة وهي الدالة على أن ما بعدها أثر وغاية فعلية لمنهولة يترتب عليه بالفعل لا بالسببية ولا بقصد فاعل الفعل الذي تتعلق به كقوله تعالى في موسى عليه السلام (فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا) ويميز بينها وبين لام كي الدالة على علو الفعل بالقرينة . وجعلها بعضهم هنا منها وحملوها على الاستدراج أي آتيتهم ذلك لكي يضلوا الناس فيستحقوا العقاب ، وقد يعززه قوله ﴿ ربنا اطمس على أموالهم ﴾ يقال طمس الأثر وطمسته الريح اذا زال حتى لا يرى اولا يعرف (ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فاني يبعثون) وهو يصدق بالعمى وبعدم الانتفاع بها كما سبق قريبا في قوله (ومنهم من ينظر اليك أفأنت تهدي العمي) والمعنى لو كانوا لا يبصرون) وانفقوا على ان المراد بالعمى هنا عى البصيرة لا البصر ، والمعنى هنا ربنا احمق أموالهم بالآفات التي تصيب حرثهم وأنعامهم وتنقص مكايدهم ونعماتهم وغلاتهم فيذوقوا ذل الحاجة ﴿ واشدد على قلوبهم ﴾ أي اطبع عليها ، وزدها قساوة وإصراراً وعناداً ، حتى يستحقوا تعجيل عقابك فتعاقبهم ﴿ فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الاليم ﴾ هذا جواب للدعاء أو دعاء آخر بلافظ النهي متم له . وقد روي أن موسى دعا به - ذا الدعاء ، وأمن هارون عايبها السلام كما هو المعتاد ، فاستجاب الله تعالى لهما بقوله

٨٩ ﴿ قال قد أجيبتم دعوتكما ﴾ أي قبلت ، وإذا قبلت نفذت ﴿ فاستجبنا ﴾ على ما أنما عليه من دعوة فرعون وقومه إلى الحق ، ومن إعداد بني اسرائيل للخروج من مصر . وعن ابن عباس (رض) فامضيا لأمرى وهو الاستقامة ﴿ ولا تتبعان (١) البرابي مباني بشكل غريب جمع برى بالفتح والقصر وقد تكتب بربا ، وهي كلمة قبطية معناها المعبد والهيكل ، والنواويس صناديق من الحجارة توضع فيها جثث الموتى . والركاز الاموال التي كان الاقدمون يدفنونها في الارض من ركزه اذا أثبتته فهو ككتاب بمعنى مكتوب

سبيل الذين لا يعلمون أي ولا تسلكان طريق الذين لا يعلمون سنتي في خلقي ،
 وإنجاز وعدي لرسلي ، فقسمة جلا الامر قبل أوانه ، وتستبطن وقوعه في إبانه
 هذا - وان في قصة موسى وفرعون في سفر الخروج ما يفسر استجابة هذا
 الدعاء بما يوافق مقلناه هنا من إرسال الله النوازل على مصر وأهلها ، ولجوء فرعون
 وآله الى موسى عند كل نازلة منها ليدعوا ربه فيكشفها عنهم فيؤمنوا به حتى اذا
 ما كشفها قسى الرب قلب فرعون فأصر على كفره . وقد فصلنا هذا في تفسير قوله
 (١٣٣: ٧ - ١٣٥) من سورة الاعراف (١) ومنه تعلم ان كل ما خالفها من أقوال
 المفسرين في معنى الطمس على أموالهم فهو من أباطيل الروايات الاسرائيلية التي
 كان من مقاصد كذب الاحبار وأمثاله منها (كما نرى) صد اليهود عن الاسلام
 بما يروونه في تفسير المسلمين للقرآن مخالفا لما هو متفق عليه عندهم وعند غيرهم من
 المؤرخين في وقائع عملية وأمور حسية

(٩٠) وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ
 بَغِيًّا وَعَدَّوْا ، حَتَّى إِذَا أَذْرَكَهُ الْفَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا
 الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩١) ءَآلَتُنَّ
 وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩٢) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ
 بَبَدْنِكَ لَنَسَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ ءَايَةً ، وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ
 ءَايَتِنَا لَغَافِلُونَ

هذه الآيات الثلاث في بيان المبرة بآخر القصة وما كان من عاقبة تأييد الله
 لموسى وأخيه الضعيفين بأنفسهما ، على فرعون وقومه أعظم أهل الارض قوة ودولة

٩٠ - ﴿وجاوزنا بني إسرائيل البحر﴾ يقال جاز المكان وجاوزه وتجاوزه إذا ذهب فيه وقطعه حتى خلفه وراءه . وأصله من جوز الطريق ونحوه وهو وسطه ، وتسمية الجوزاء مأخوذة من تعرضها في جوز السماء أي وسطها ، ومجازة الله البحر بهم عبارة عن كونهم جاوزوه بموئته تعالى وقدرته وحفظه ، إذ كان آية من آياته لنبيه موسى عليه السلام بفرقه تعالى بهم البحر وانفلاقه لهم كما تقدم في سورة البقرة والأعراف ﴿فأتبعهم فرعون وجنوده بغياً وعدوا﴾ أي لحقهم فأدركهم ظلماً وعدواناً عليهم ليفتك بهم أو يعيدهم إلى مصر حيث يتعبدون ويسومهم سوء العذاب ﴿حتى إذا أدركه الفرق﴾ أي فحاض البحر وراءهم حتى إذا وصل إلى حد الفرق قال ﴿آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل﴾ أي قال قبل أن يفرق وهو يدل على أن البحر لم يطبق عليه دفعة واحدة : آمنت أنه لا إله بالحق إلا الرب الذي آمنت به جماعة بني إسرائيل بدعوة موسى ﴿وأنا من المسلمين﴾ أي وأنا فرد من جماعة المذعنين له المنقادين لأمره ، بعد ما كان من كفر الجحود بآياته والعداء لرسوله . يعني أنه جمع بين الإيمان الذي هو التصديق بالقلب ، والإسلام الذي هو الإذعان والخضوع بالفعل ، بدون امتياز لعظمة الملك ، وكان من قبل جاحداً ، أي مصدقاً غير مذعن ولا خاضع ، بدليل قوله تعالى فيه وفي آله (٢٧: ١٤) وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً فنظر كيف كان عاقبة المفسدين) يعني آيات موسى . وهذه هي العاقبة ، وقد أجيب فيها فرعون عن دعواه بقوله تعالى الذي يعرف بلسان الحال أو بقول جبريل (ع . م)

٩١ ﴿آلآن ؟﴾ وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين ﴿أي أنسلم الآن أو تدعي الإسلام واذعان الطاعة والانقياد ، حيث لا محل له ولا إمكان ، بما حال دونه من الهلاك ، وقد عصيت قبله وكنت من المفسدين في الأرض الظالمين للعباد ، والمراد أن دعوى الإسلام الآن باطلة ، والإيمان بدون الإسلام مع إمكانه لا يقبل

فكيف يقبل وقد صار اضطرارا لا معنى لقبوله ، لانه انفعال لا فعل لصاحبه ،
وجملة القول ان إسلامه كان كما قال الشاعر

أنت وحياض الموت بيني وبينها وجادت بوصل حين لا ينفع الوصل

وقد تقدم مثل هذا الاستفهام الانكاري في هذه السورة وهو قوله تعالى
في المكذبين بوعده الله تعالى ووعيده بما كان يحملهم على استعجال عذابه (٥١) أثم
إذا ما وقع آمنتم به؟ آلآن وقد كنتم به تستعجلون) وسيأتي بعد بضع آيات منها
ان الايمان لا ينفع عند وقوع عذاب الاستئصال الذي هو نهاية أجل القوم ، كما انه
لا ينفع عند موت الشخص ، كما تقدم في قوله تعالى (٤ : ١٨) وليست التوبة للذين
يعملون السيئات حتى اذا حضر أحدهم الموت قال اني تبت الآن ، ولا الذين
يموتون وهم كفار) ومن البديهي ان التوبة من الكفر والمعصية انما تنفع بالرجوع
الى الطاعة . على أن اليأس من الشيء بالفعل ، لا يعقل أن يكون صادقا في ادعائه
اياه أو طلبه له بالقول . ولعل فرعون أراد بقوله حينئذ انه من جماعة المسلمين انه
موطن نفسه على أن يكون منهم إن نجاه الله تعالى ، وأنه كان يرجو بهذا أن ينجيه الله
تعالى كما نجاه وقومه من كل نازلة من عذاب الله حلت به وبقومه اذ كان يقول لموسى
(ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ونرسلن معك
بني اسرائيل) ولكن تلك النوازل انما كانت لاجل إرسال بني اسرائيل مع موسى
فهي غايتها ولم تسكن عقابا على الاصرار على كفر الجحود والعناد الذي هو شر أنواع
الكفر وأدله على خبث طوية صاحبه ، كهذا العقاب الاخير بعد نجاة بني اسرائيل
منه رغم أنه

٥٢ - ثم قال يوم تنجيك بيدك لتكون لمن خلفك آية) قال أبو جعفر ابن جرير
الطبري يقول تعالى ذكره فرعون فالיום نجم ملك على نجوة من الارض بيدك ينظر اليك
من كذب بهلاكك (لتكون لمن خلفك آية) يقول لمن بعدك من الناس عبرة يعتبرون
بك فينزعرون عن معصية الله والكفر به ، والسعي في أرضه بالفساد . والنجوة
الموضع المرتفع من الارض . ومنه قول أوس بن حجر :

فمن يعقونه كمن ينجونه والمستكن كمن يمشي بقرواح (١)
 ثم ذكر رواه عن قال بهذا القول . وقال أهل اللغة : سمي المكان المرتفع
 نجوة ونجاة - وزاد بعضهم : منجى - لأن من عليه ينجو من السيل ، وإنما دفعه
 ودفعهم الى تفسير الآية بهذا الوجه من اللغة أن إنجاء الانسان من الفرق إنما يكون
 بخروجه حيا بيده ونفسه كما تقدم قريبا في إنجاء نوح ومن معه في الفلك ، وكل استعانة
 في القرآن بمعنى النجاة من العذاب كأنجاء بني اسرائيل من فرعون وآله ، وقال
 بعضهم ان التعبير بالتنجية نهكم به ، وان الحكمة بذكر البدن انه يخرج جسده سالما
 ليعرف ، وقيل إن المراد بالبدن الدرع فهو من أمائها في اللغة ، وإنما محل العبرة
 أن يلاحظ البحر بيده ليعرف فيعتبر بنو اسرائيل الذين قيل انهم شكوا في غرقه
 ويعتبر القبط الذين عبدوه ، ولذلك قيل ان درعه كانت معروفة وانها من الذهب
 أو كان له فوق درع الزرد درع أخرى من الذهب ، ولكن الدرع تقتضي رسوب الفريق
 في البحر الا ان يحرقه الموج . وأما العبرة لمن بعده فهي أعم : هي ماسيقت القصة
 لأجله من كونها شاهداً كالتي قبلها على صدق وعد الله لرسله ووعده لأعدائهم
 كطاعة مكة التي أنزات هذه الآيات بل هذه السورة كلها لاقامة حجج الله
 عليهم في هذه المسألة قبل غيرهم ، لانهم أول من بلغته الدعوة ، وقوله تعالى
 ﴿ وَإِنْ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴾ تعريض بهم وأكده هذا التأكيد
 لما تقتضيه شدة الغفلة من قوة التنبيه أي إنهم لشديدو الغفلة عنها على شدة ظهورها ،
 فلا يتفكرون في أسبابها ونتائجها وحكم الله فيها ، ولا يعتبرون بها ، وإنما يمرون
 عليها معرضين كما يمرون على مسارح الانعام ، وفيه ذم للغفلة وعدم التفكير في
 أسباب الحوادث وعواقبها واستبانة سنن الله فيها ، للاعتبار والاتعاظ بها . ومن
 العجيب ان يكون أهل القرآن منهم ، كلاً إنه حجة على الغافلين بريء منهم

«١» البيت من قصيدة في وصف المطر نسبت لغير أوس هذا . والعقوة الساحة
 وما حول الدار ، والقرواح بالكسر المكان البارز للشمس والذي لا يمسك الماء

(٩٣) وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبُوءًا صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنْ
الْأَطْيَبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ، إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ
يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ

هذه الآية خاتمة هذه القصة ومنتهى العبرة فيها لمكذبي محمد ﷺ
والجاحدين من قومه المغرورين بقوتهم وكثرتهم وثروتهم، في موسى والجاحدين
لآياته من فرعون وقومه، وقد كانوا أكثر منهم عدداً، وأشد قوة، وأعظم زينة
وأوفر ثروة، وسنة الله في موسى ومن قبله واحدة، وقصته كقصه نوح في العاقبة،
وأما نصر الله لمحمد نبي الرحمة والنجاز وعده له، قد جرى على وجه أتم وأكمل في
غايبته، وإن لم يكن غريباً في صورته، وهو أن الله تعالى أهلك أكثر زعماء أعدائه
المشركين، وأخضع له الآخرين، وجعل العاقبة لاتباعه المؤمنين، وأعطاهم أعظم
ملك في العالمين، ومنه ما كان أعطى موسى من قبل وهو فلسطين . قال

٩٣- ﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبُوءًا صِدْقٍ ﴾ قلنا آتينا ان المبوأ مكان الإقامة
الامين . وأضيف إلى الصدق لدلالته على صدق وعد الله تعالى لهم به وهو منزلهم
من بلاد الشام الجنوبية المعروفة بفلسطين ﴿ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ فيه، وهي
التي أشير إليها في وصف أرضها من كتبهم بأنها تفيض لبناً وعسلاً، وما فيها من الغلات
والثمار والانعام، وكذا صيد البر والبحر، وقد بينا من قبل ما كان من وعد الله
لهم بهذه الارض المباركة على لسان ابراهيم واسحاق ويعقوب (١) ومن أيلولة هذه
الارض من بعدهم لذرية ابراهيم من العرب بعد حرمان اليهود منه تصديقاً
لوعيد أنبيائهم لهم على كفرهم بنعم الله تعالى أولاً ثم بكفرهم بعبسى، ثم بمحمد
رسول الله النبي الأمي الذي وعدهم به على لسانه ولسان من قبله كما تقدم تفصيله في
تفسير سورة الاعراف (٢) وأشير إليه هنا بقوله ﴿ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ﴾

على قول بعض المفسرين إن المراد بالعلم هنا محمد ﷺ أو رسالته أو القرآن الذي هو أكل وأتم ما أنزل الله من علم الدين وقوله تعالى في سياق الرد على أهل الكتاب (لكن الله يعلم بما أنزل إليك أنزله بعلمه) وقوله (فاعلموا أننا أنزل بعلم الله) وقوله (بكتاب فصلناه على علم) فقد كانوا متفقين على بشارة أنبيائهم به قبل بعثته فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به .

وقال آخرون وهو الأظهر : إن المراد هنا علم الدين مطلقاً ، وقد اختلفوا فيه كغيرهم ممن أوتوا الكتب من وجوه فصلناها في تفسير الآية العامة في الاختلاف وهي (٢١٣: ٢) وفي الآية ١٩ من هذه السورة وما هي ببعيد [﴿] إن ربك بقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون [﴾] إذ حملوا الدواء عين الداء في أمر الدين بعد إذ أنزل عليهم الكتاب ليحكم بينهم فاختلفوا في الكتاب بقيا بينهم .

(٩٤) فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يُقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ ، لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُ مِّنَ الْمُمْتَرِينَ (٩٥) وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِبَيِّنَاتٍ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ (٩٦) إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٩٧) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ

هذه الآيات الأربع فذلكة هذا السياق الذي كان ذكر قصص الانبياء شواهد فيه ، وهي تقرير صدق القرآن في دعوته ووعدده ووعيدده ، وكونه لا مجال للامتراء فيه ، وبيان الداعية النفسية للكاذبين بآياته ، وتوجيه الاعتبار إلى أهل مكة مقروناً بالإنذار ، بأسلوب التعريض والتلطف في العبارة ، على حد : إياك أعني واسمعي بإجابه .

٩٤- ﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ﴾ أي فإن كنت أيها الرسول في

شك مما أنزلنا اليك في هذه الشواهد من قصة موسى ونوح وغيرهما على سبيل
الفرض والتقدير، الذي ذكر على عادة العرب في تقدير الشك في الشيء، لينبني عليه ما ينبغي
احتمال وقوعه أو ثبوته أمراً أو نهياً أو خبراً، كقول أحدهم لابه: إن كنت ابني
فكن شجاعاً أو فلا تكن بخيلاً، أو فأنك ستكون أو ستفعل كذا - بل يفرضون
سؤال الديار والاطلال أيضاً ومنه قول المسيح في جواب سؤال الله تعالى إياه
(١١٦: ٥) أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ؟ قال سبحانه ما يكون
لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته) وهذه الجملة الشرطية محل
الشاهد ، فهو عليه السلام يعلم أنه لم يقل ذلك ، ولكنه يفرضه ليستدل عليه بأنه
لو قاله لعلمه الله منه

وبعض العلماء يجري على هذا الأسلوب فيشكك تلميذه أو مناظره فيما لا شك
فيه عندهما لينبني عليه حكماً آخر . ويجب في مثل هذا أن يكون فعل الشرط بان
التي وضعت للدلالة على عدم وقوعه أو تنزله منزلة بالاً يقع ، دون إذا الدالة على
أن الأصل في فعل شرطها الوقوع ﴿ فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك ﴾
هذا جواب الشرط المقدر قال ابن عباس لم يشك رسول الله ﷺ ولم يسأل ،
وروي مثله عن سعيد بن جبير والحسن البصري قالاه فيها لغويًا ، وروي عن
قتادة خبراً قال : ذكر لنا أن رسول الله ﷺ قال « لا أشك ولا أسأل » ولم
يسم الصحابي الذي ذكره فهو مرسل ، والمراد بالكتاب جنسه ، أي فاسأل
الذين يقرءون كتب الانبياء كاليهود والنصارى فانهم يعلمون أن ما أنزلناه اليك
من الشواهد حق لا يستطيعون إنكاره ، وقال بعض المفسرين ان المراد سؤال
من آمن منهم كعبد الله بن سلام من علماء اليهود وتميم الداري من علماء النصارى
ولا حاجة اليه ، والآية بل السورة نزلت في مكة ولم يكن أحد من أهل الكتاب
آمن . ومما يؤكد كون السؤال مفروضاً فرضاً قوله ﴿ لقد جاءك الحق من ربك ﴾
فهذه الشهادة المؤكدة بالقسم من ربه ، تبحث احتمال إرادة الشك والسؤال بالفعل
من أصله ، وبزيدها تأكيداً لقوله تعالى ﴿ فلا تكونن من المحترين ﴾ أي من فريق

الشاكين الذين يحتاجون إلى السؤال ، وهذا النهي والذي بعده يدلان على أن فرض وقوع الشك والسؤال فيما قبلهما عنه تعريض بالشاكين والمترين والمكذبين لله ﷻ من قومه

٩٥- ﴿ ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين ﴾
يعني أن كل من كان من المكذبين فهو من الخاسرين الذين خسروا أنفسهم بالحرمان من الإيمان وما يتبعه من سعادة الدنيا والآخرة ، وذلك هو الخسران الملبين ، وإن فرض أنه أول المؤمنين ، محمد رسول الله وخاتم النبيين ، ورحمته للعالمين ، وإن المترين الشاكين فيما أنزل اليك كالمكذبين بآيات الله جحوداً بها وعناداً ، كلاهما سواء في الخسران المذكور لحرمان الجميع من الاهتداء بها وماله من ربح سعادة الدنيا والآخرة . وهذا النوع من الأمر والنهي للمؤثر المنتهي والمراد غيره على سبيل التعريض أبلغ من قوله تعالى (٣٤ : ٢٤) وإنا أوإياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين * قل لا نسئلكون عما أجرمنا ولا نسئلك عما نعملون (ولكل منهما موقع هو تأثير خاص في استمالة الكافرين الى التأمل والتفكر في مضمون الدعوة

٩٦- ﴿ إن الذين حققت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ﴾ أي إن الذين ثبتت عليهم كلمة العذاب من ربك وهى كلمة التكوين الدالة على سنته فيمن فقدوا الاستعداد للاهتداء ، لا يؤمنون لرسوخهم في الكفر والطفیان ، واحاطة خطاياهم وجهالاتهم بهم من كل مكان ، وإعراضهم عن آيات الإيمان ، هذا معنى قوله (لا يؤمنون) لا أنه تعالى منعهم من الإيمان منعاً خلقياً قهرياً لا كسب لهم فيه ولا اختيار . وهذا بمعنى الآية ٣٣ من هذه السورة فراجع تفسيرها

٩٧- ﴿ ولو جاءتهم كل آية من الآيات الكونية كآيات موسى التي اقترحوها عليك أبها الرسول ، والآيات المنزلة كآيات هذا القرآن العلمية العقلية الدالة بأعجازها على كونها من عند الله ، وعلى حقية ما تدعوهم اليه وتنذرهم إياه ، ﴾ حتى يروا العذاب الاليم ﴾
بأعينهم ، ويذوقوه بوقوعهم ، وحينئذ يكون إيمانهم اضطراباً لا بعد فعلاً من أفعاله ،
« تفسير القرآن الحكيم » « ٦١ » « الجزء الحادي عشر »

ولا يترتب عليه عمل يطهرهم ويزكي أنفسهم ، بل يقال لهم (آلا ن وقد كنتم به تستعجلون) كما قيل لفرعون (آلا ن وقد عصيت قبل و كنت من المفسدين)

(٩٨) فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يَمُوتُ
لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ
إِلَىٰ حِينٍ (٩٩) وَأَوْشَاءَ رَبُّكَ لَا أَنْ مَنَ فِي الْأَرْضِ مُبِينًا
أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (١٠٠) وَمَا كَانَ مِنْكُمْ
أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَىٰ الَّذِي لَا يَعْلَمُونَ

هذه الآيات الثلاث تفريع على اللواتي قبلن وتكمل لهن في بيان سنة الله في الأمم مع رسلهم ، وفي خلق البشر مستعدين للأمر المتصادم من الإيمان والكفر ، وفي تعلق مشيئة الله وحكمته بأفعاله وأفعاله بعباده ووقوعها على وفهمها

٩٨- ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا ﴾ لولا هذه التحضيض كما قال أئمة اللغة والنحو . والمراد بالقرية أهلها وهم قوام الانبياء فانهم كلهم بعثوا في أهل الحضارة والعمران دون البادية أي فهلا كان أهل قرية من قرى أقوام أوائل الرسل آمنوا بدعوتهم وإقامة الحجّة عليهم فنفعتهم إيمانهم قبل وقوع العذاب الذي أنذروا به ، أي انه لم يؤمن قوم منهم برمتهم ، فان التحضيض يستلزم الجحد

﴿ إِلَّا قَوْمٌ يَمُوتُ ﴾ لما آمنوا ﴿ قَبْلَ وَقْعِ الْعَذَابِ ﴾ بهم بالفعل ، وكانوا علموا بقربه من خروج نبيهم من بينهم وروى أنهم رأوا علاماته ، ويجوز في هذا الاستثناء الاتصال والانفصال ﴿ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أي صرفنا عنهم عذاب المذل والهوان في الدنيا لان نبيهم خرج بدون إذن الله تعالى له فلم تتم عليهم الحجّة ، ولا حقت عليهم كلمة العذاب ، وقد استدلوا بذهابه مغضبا لم على قرب وقوع العذاب

كما أنذرهم فتابوا وآمنوا فكشفناه عنهم ثم ومتعناهم إلى حين أي ومتعناهم بما قسمناهم إلى زمن معلوم هو عمرهم الطبيعي الذي يعيشه كل منهم بحسب سنته تعالى في استعداد بنيتة ومعيشته . وقد فصلنا الكلام في الاجل الذي يسمى الطبيعي وغيره في تفسير (٢:٦) ثم قضى أجلاً وأجل مسمى عنده) من سورة الانعام (ولا محل للبحث عن تعذيبهم في الآخرة كما فعل بعض المفسرين فان شهادة الله تعالى لهم بالايمان النافع ظاهرة في قبوله منهم صريحة ، في أنه لا يعذبهم في الآخرة على سابق كفرهم ، وانما يجزون بغيره من أعمالهم بعد الايمان

هذا الذي فسرنا به الآية هو المتبادر من عبارتها والموافق للسياق ولسنة الله تعالى في أقوام الانبياء عليهم السلام . وفيه تعريض بأهل مكة وإنذار لهم وحض على أن يكونوا كقوم يونس الذين استحقوا عذاب الخزي بعنادهم حتى إذا أنذرهم نبيهم قرب وقوعه وخرج من بينهم اعتبروا وآمنوا قبل اليأس ، وحلول البأس ، وسيأتي ان شاء الله تعالى ما ثبت من خبره عليه السلام في تفسير سورتي الانبياء والصفات ، وهو موافق في جملة لما عند أهل الكتاب

٩٩ ﴿ ولو شاء ربك لآمن من في الارض كلهم جميعاً ﴾ أي ولو شاء ربك - أيها الرسول الحريص على إيمان الناس - أن يؤمن أهل الارض كلهم جميعاً لا يشذ احد منهم لآمنوا ، بأن يلجئهم الى الايمان إلجاء ، وبوجره في قلوبهم إيجاراً ، ولو شاء لخلقهم مؤمنين طائعين كالملائكة ، لا استعداد في فطرتهم لغير الايمان ، وفي معنى هذا قوله تعالى (ولو شاء الله ما أشركوا) وقوله (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة) والمعنى الجامع في هذه الآيات انه لو شاء الله ألا يخلق هذا النوع المسمى بالانسان المستعد بفطرته للايمان والكفر ، والخير والشر ، الذي يرجع أحد الامور الممكنة المستطاعة له على ما يقابله ويخالفه برادته واختياره ، لفعل ذلك ، ولما وجد الانسان في الارض ، ولكن اقتضت حكمته أن يخلق هذا النوع العجيب

٤٨٤ الا كراه على الايمان ليس في استطاعة الرسول ولا من عمله (التفسير: ج ١١)

ويجعله خليفة في الارض ، كما تقدم بيانه في قصة آدم من سورة البقرة وفي آيات أخرى ، هكذا خلق الله الانسان منهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به كما تقدم

﴿ أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ﴾ اي ان هذا ليس في استطاعتك أيها الرسول ولا من وظائف الرسالة التي بعثت بها أنت وسائر الرسل (إن عليك الا البلاغ * وما أنت عليهم بجبار) وهذه أول آية نزلت في أن الدين لا يكون بالاكراه ، أي لا يمكن للبشر ولا استطاع ، ثم نزل عند التنفيذ (٢: ٢٥٦) لا إكراه في الدين) أي لا يجوز ولا يصح به ، وذكرنا في تفسيرها سبب نزولها وهو عزم بعض المسلمين على منع اولادهم كانوا تهودوا من الجلاء مع بني النضير من الحجاز ، فأمرهم النبي ﷺ بأن يخبروهم ، وأجمع علماء المسلمين على أن إيمان المكروه باطل لا يصح . لكن نصارى الافرنج ومقلديهم من اهل الشرق لا يستحون من افتراء الكذب على الاسلام والمسلمين ، ومنه رميهم بأنهم كانوا يكرهون الناس على الاسلام ويخبرونهم بينه وبين السيف يقط رقابهم ، على حد المثل « رميتي بدائم وانسلت »

١٠٠ - ﴿ وما كان لنفس أن تؤمن الا باذن الله ﴾ أي وما كان لنفس ولا من شأنها فيما أشير اليه من استقلالها في أفعالها ، ولا مما أعطاه الله من الاختيار فيما هداها من النجدين ، وما ألهمها من فجورها وتقواها الفطريين ، أن تؤمن إلا بإرادة الله ومقتضى سنته في استطاعة الترجيح بين المتعارضين ، فهي مختارة في دائرة الاسباب والمسببات ، ولكنها غير مستقلة في اختيارها أتم الاستقلال ، بل مقيدة بنظام السنن والأقدار ، فالذني هو استطاعة الخروج عن هذا النظام العام ، لا الاستطاعة الخاصة الموافقة له ، ومثله قوله تعالى (٣: ١٤٥) وما كان لنفس أن تموت الا باذن الله) أي إلا بمشيئته الموافقة لحكمته وسنته في أسباب الموت ، فكمن من انسان يعرض نفسه للموت شهيداً أو منتحراً بما يترأى له من أسبابه ، ثم لا يموت بها لنقصها أو لمعارض مناف لها في نظام القدر الذي لا يحيط به علماً إلا الله تعالى ، ومعنى الاذن في اللغة الاعلام بالرخصة في الامراي تسهيله وعدم المانع منه

﴿ ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون ﴾ هذا عطف على محذوف يدل عليه المذكور دلالة الضد على الضد أو النقيض على النقيض ، أي وإذا كان كل شيء باذنه وتيسيره ومشيئته التي تجري بقدره وسنته ، فهو يجعل الاذن وتيسير الايمان للذين يعقلون آياته في كتابه وفي خلقه ، ويوازنون بين الامور فيختارون خير الاعمال على شرها ، ويرجعون نفعها على ضررها ، باذنه وتيسيره ، ويجعل الرجس أي الخذلان والحزني المرجح للكفر والفجور ، على الذين لا يعقلون ولا يتدبرون ، فهم لأن رأيتهم ، واتباع أهوائهم ، يختارون الكفر على الايمان والفجور على التقوى . وتقدم في تفسير آيات الحجر والميسر من سورة المائدة وفي الكلام على المناقذين من أواخر سورة التوبة ، ان الرجس لفظ يعبر به عن أقبح الحبث المعنوي الذي هو مبعث الشر والآنم

(١٠١) قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَمَا تُغْنِي
الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٢) قُلِ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا
مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ تَخَلَّوْا مِنْ قَبْلِهِمْ ، قُلِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ
الْمُنْتَظِرِينَ (١٠٣) ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا ، كَذَلِكَ حَقًّا
عَلَيْنَا نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ

هذه الآيات الثلاث إرشاد للعقلاء الذين يفهمون مما قبلها أن سنة الله تعالى في نوع الانسان ، ان خلقه مستعداً للإيمان والكفر ، والخير والشر ، وله الاختيار لنفسه ، وان الرسول الحريص على إيمان الناس لا يقدر على جعلهم مؤمنين ، لان الله القادر على ذلك لم يشأ أن يجعلهم أمة واحدة على الايمان وحده ولا على الكفر وحده ، وإنما جعل مدارسهم على حسن استعمال عقولهم باختيارهم في التمييز بين الكفر والايمان ، وما الرسول إلا بشير

ونذريين الطريق المستقيم للعقل المستنير ، فالدين مساعد للعقل على حسن الاختيار
إذا أحسن النظر والتفكير ، والله تعالى بأمر بهما بمثل قوله:

١٠١ ﴿فلانظروا ماذا في السموات والارض﴾ أي قل أيها الرسول لقومك
الذين تحرص على هدايتهم : انظروا وابعثوا أبصاركم وبصائركم ماذا في السموات والارض
من آيات الله البينات والنظام الدقيق العجيب في شمسها وقمرها ، وكواكبها ونجومها ،
وبروجها ومنازلها ، وليلها ونهارها ، وسحابها ومطرها ، وهوائها ومائها ، وبحارها
وأشجارها ، وأشجارها وثمارها ، وأنواع حيواناتها البرية والبحرية ، ففي كل من
هذه الاشياء التي تبصرون آيات كثيرة تدل على علم خالقها وقدرته ، ومشيدته
وحكمته ، ووحدة النظام في جملة ما وفي كل نوع منها هو الآية الكبرى على وحدانيته
في ربوبيته وألوهيته ، ثم انظروا ماذا في أنفسكم منها كما قال (وفي الارض آيات
للموقنين * وفي أنفسكم أفلا تبصرون) إنه يريكم كل هذه الآيات ثم أنتم تشركون

﴿وما تنفي الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون﴾ يجوز في هذه الجملة النفي والاستفهام ،
والنذر فيها جمع نذير أو إنذار : والمعنى ان الآيات السكونية على ظهور دلائلها ،
والنذر التشريعية على بلاغة حجتها ، لا فائدة فيهما ولا غنى لقوم لا يؤمنون بالله عن
الايان الذي يهديهم إلى الاعتبار بالآيات ، والاستدلال بها على ما تدل عليه
أكمل الدلالة من وحدانية الله وقدرته ، ومشيدته وحكمته ، وفضله ورحمته ،
والاعتبار بسننه في خلقه ، ففائدة الايمان الاولى توجيه عقل الانسان إلى حسن
التقصي في نظره في الآيات ، والاستفادة منها فيما يزيكي نفسه بالعلم والايمان ، ويرفعها
عن أرجاس الامور وسفاسفها ، وبهذا تفهم معنى جعل الرجس على الذين لا يعقلون ،
فليس المراد بالذين لا يعقلون المجانين الغافدين لغريزة العقل ، بل المراد به الذين
لا يستعملون العقل في أفضل ما هو مستعمله من المعرفة بالله وتوحيده وعبادته ،
التي تجعلهم أهلا لتمام نعمه عليهم وكرامته ، بالانزاع الحق والعدل ، وإيثار الخير على الشر

١٠٢ - ﴿فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم﴾ أي إذا كان الامر كما قصصا عليك أيها الرسول من سنتنا في الخلق وما أرسلنا قبلك من الرسل ، فهل ينتظر هؤلاء الكافرون من قومك إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم أي وقائعهم مع رسلهم مما بلغهم مبدؤهم وغايته ، أي ما ثم نبي ، آخر ينتظر ﴿قل فانتظروا أي معكم من المنتظرين﴾ أي قل لهم منذراً ومهدداً : إذا فانتظروا ما سيكون من عاقبتكم إني معكم من المنتظرين ، على بينة مما وعد الله وصدق وعده للمرسلين ، وإن الذين يصرون على الجحود والعناد سيكونون كعائديهم من الهالكين

١٠٣ - ﴿ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا﴾ هذا التعبير من أعجب ايجاز القرآن المعجز الذي انفرد به في العطف على محذوف ، وهو ذكر شيء يدل دلالة واضحة على أمر عام كسنة اجتماعية تستبطن من قصة أو قصص واقعة ، ثم يأتي بجملة معطوفة لا يصح عطفها على ما قبلها من الجمل فيتبادر الى الذهن وجوب عطفها على ذلك الامر العام ، بحرف العطف المناسب للمقام ، بحيث يستغنى به عن ذكره ، وتقديره هنا : تلك سنتنا في رسلنا مع قومهم : يبلغونهم الدعوة ، ويطيعون عليهم الحجة ، وينذرونهم سوء عاقبة الكفر والتكذيب ، فيؤمن بعض ويصر الآخرون ، فهلك الكاذبين ، ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا بهم ﴿كذلك حقاً علينا

تنج المؤمنين﴾ أي كذلك الانجاء ننجي المؤمنين معك أيها الرسول ونهلك المصيرين على تكذيبك ، وعداً حقاً علينا لاختلافه (سنة من أرسلنا قبلك من رسلنا ولا نجد استنثاء نحو لا) وقد صدق وعده كما قال

قرأ الجمهور (ننجي رسلنا) بالتشديد من التنجية إلا في رواية عن يعقوب بالتخفيف مختلف فيها . وقرأ الكسائي وحفص ويعقوب (ننجي المؤمنين) بالتخفيف من الانجاء ، والباء قون بالتشديد والمعنى واحد إلا أن التشديد يدل على المبالغة أو التكرار ، وهو الأنسب في الاولى لكثرة الاقوام

(١٠٤) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ
الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ
وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (١٠٥) وَأَنْ أَقِيمَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ
حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٦) وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ
مَالًا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِّنَ الظَّالِمِينَ (١٠٧)
وَأَنْ يَمْسَسَكَ اللَّهُ يَضِرَّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ، وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ
فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ، يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَهُوَ الْغَفُورُ
الرَّحِيمُ

هذه الآيات الأربع والآيتان اللتان بعدها ختم للسورة بالنداء العام، في الدعوة
الى عقيدة الاسلام، أجملت أمر او نهيا وخبرا في خاتمتها، كافصلت في جملتها . قال تعالى

١٠٤ ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي ﴾ اي إن كنتم في شك من صحة
ديني الذي دعوتكم اليه ، أو من ثباتي واستقامتي عليه ، وترجون تحويلي عنه

﴿ فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ أي فلا أعبد في وقت من الاوقات ،
ولا حال من الاحوال، أحداً من الذين تعبدونهم غير الله، من ملك أو بشر، أو كوكب

أو شجر أو حجر، مما اتخذتم من الاصنام والاولئان ﴿ وَلَكِن أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ ﴾
أي يقبضكم اليه بالموت ثم يبعثكم فيحاسبكم ويجزىكم ، ولا يفعل أحد غيره هذا ولا
يقدر عليه . وإنما قال (إن كنتم في شك من ديني) ومشرطه يدل على الشك في
شكهم وهو ﷺ لا يشك فيه، لانه نزل دينه منزلة مالا ينبغي أن يشكوا فيه لشدة
ظهوره ، وتألق نوره ، كما بينا مثله في تفسير (٢٣: ٢) وإن كنتم في ريب مما نزلنا على

(يونس : ص ١٠) تكرير النهي عن الشرك ولا سيما دعاء غير الله ٤٨٩

عبدنا فاتوا بسورة من مثله) الآية وما بعدها . ووصف الله بتوفيقهم دون غيره من صفاته وأفعاله لتذكير كل منهم بما لا يشك فيه من عاقبة أمره وأنه سيكون كما وعده في

الدنيا والآخرة ﴿ وأمرت أن أكون من المؤمنين ﴾ الذين وعدهم الله بالنجاة من عذابه، وينصرهم على أعدائهم وأعدائهم ، واستخلافهم في أرضه ، وأنه لا يحجاز ببلغ

١٠٥- ﴿ وأن أقم وجهك للدين حنيفا ﴾ أي أمرت بأن أكون من المؤمنين وبأن أقيم وجهي للدين القيم الذي لا عوج فيه حالة كوني حنيفاً أي مائلاً عن غيره من الشرك والباطل ، ولكن اختيار هنا صيغة الطلب وفيما قبله الخبر ، ذلك بأن الخبر هو المناسب لعلاقة هذا الأمر بالماضي وهو أن يكون من جماعة المؤمنين ، الموعودين بما تقدم من سنة الله في النبيين ، والطلب هو المناسب لعلاقته هو وما عطف عليه من النهي بالحال والاستقبال ، من دعوة هذا الدين الموجهة إلى أهل مكة وسائر الناس (ولا فرق بينهما في الأعراب كما حققه سيبويه وغيره) وإقامة الوجه للدين هنا وفي سورة الروم (٤٣:٣٠) عبارة عن التوجه فيه إلى الله تعالى وحده في الدعاء وغيره بدون التفات إلى غيره ، والمراد به توجه القلب ، وفي معناه (٧٩:٦) أي وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً) ومثله إسلام الوجه لله في سورة البقرة (١١٢:٢) وآل عمران (٢٠:٣) والذساء (١٢٤:٤) وإسلامه إلى الله في سورة لقمان (٣١:٢٢) وكذا توجيه الوجه الحسي إلى القبلة في آياتها وهو الأصل في اللغة ، والمراد به وجهة الإنسان ، فمن توجه قلبه في عبادة من العبادات (ولاسيما من عبادة وروحها وهو الدعاء) إلى غير الله فهو عابده له مشرك بالله ، وأكده بالنهي عن ضده معطوفاً

عليه فقال ﴿ ولا تكونن من المشركين ﴾ أصحاب الديانات الوثنية الباطلة الذين يجعلون بينهم وبين الله تعالى حجاً من الوسطاء والاولياء والشفعاء يوجهون قلوبهم اليهم عند الشدة تصيهم ، والحاجة التي تستعصي على كسبهم ، ووجوههم وجلتهم إلى صورهم ونماثيلهم في هياكلهم ، أو قبورهم في معابدهم ، ويدعونهم لقضاء حوائجهم إما بأنفسهم وإما بشفاعتهم ووساطتهم عند ربهم ، ثم بين هذا بالإشارة إلى سببه عند المشركين والنهي عن مثله معطوفاً عليه فقال

١٠٧ - ﴿ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك﴾ أي ولا تدع غيره تعالى (دعاء عبادة وهو ما فيه معنى القرينة والجري على غير المعتاد في طلب الناس بعضهم من بعض) لا على سبيل الاستقلال ولا على سبيل الاشتراك بوساطة الشفعاء - ما لا ينفعك إن دعوته لا بنفسه ولا بوساطته ولا يضرك إن تركت دعاءه ولا إن دعوت غيره ﴿فان فعلت فانك إذا من الظالمين﴾ أي فان فعلت هذا بأن دعوت غيره فانك أيها الفاعل في هذه الحال من طغامة الظالمين لأنفسهم الظلم الأكبر وهو الشرك الذي فسر به النبي ﷺ قوله تعالى (إن الشرك لظلم عظيم) فانه لما كان دعاء الله وحده هو أعظم العبادة ومحها - كما ورد في الحديث - كان دعاء غيره هو معظم لشرك ونحوه، كما كررنا التصريح به بتكرار تفسير الآيات الناهية عنه ، ومنها في هذه السورة قوله تعالى (١٨) ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله) وقوله (٤٩) قل لأملك لنفسي ضراً ولا نفعاً الا ما شاء الله) وقوله قبلهما (١٢) فاذا مس الانسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً) وقوله في أهل الفلك (سفينة) المشركين عند إحاطة الخطر بهم (٢٢) ادعوا الله مخلصين له الدين)

والآيات في هذا المعنى كثيرة متفرقة في السور ، كررت لأجل انتزاع هذا الشرك الأكبر من قلوب الجمهور الأكبر . وقد انتزع من قلوب الذين أخذوا دينهم من القرآن ، وكان جل عبادتهم تكرار تلاوته بالغدو والآصال ، والليل والنهار ، ثم عاد بقضه وقضيضه إلى الذين هجروا تدبر القرآن وهم يدعون الاسلام ، وأكثرهم يتلقون عقائدهم من الآباء والامهات والمعانين ، وأكثر هؤلاء من الخرافيين الاميين الجاهلين ، وأكثر القارئین منهم على قلتهم يأخذونها من كتب مقلدة متأخري المتكلمين الجدلية والمتصوفة الخرافية ، ولا يكاد مسجد من مساجدهم يخلو من قبر مشرف مشيد ، توقد عليه السرج والمصابيح وقد امن الرسول ﷺ فعليها ، ويتوجه اليه الرجال والنساء ، في كل صباح ومساء ، يدعون من دون الله من يعتقدون أنهم احياء بقيعون فيها ، ويتقربون اليهم بالهدايا والنذور من الاميين ، وبعرائض

(يونس : ١٠) تأويل علماء السوء للشرك بالله، ولا يكشف الضر سواه (٤٩١)

الاستغاثة والدعاء من المتعلمين، ليكثفوا عنهم الضر، ويهبوا لهم ما يرجون من النفع، ومن أمامهم وورثهم عما تم مكورة، ولحق طويلة أو مقصرة، يسمون شركهم الاكبر توسلاً، واستغاثتهم استشفاعاً، ونذورهم لغير الله صدقات مشروعة، وطوفهم بالقبور المعبودة زيارات مقبولة، ويتأولون هذه الآيات الكثيرة بل يحرفونها عن مواضعها، بزعمهم انها خاصة بعبادة الاصنام، والنذور الاوثان، والتعظيم للصليان، كأن الاثر كـ بالله جائز من بعض الناس ببعض المخلوقات دون بعض، ومن البلاء الاكبر على الاسلام والمسلمين بمصر أن أصدرت لهم مشيخة الازهر الرسمية في هذا العصر مجلة رسمية دينية، تفتيهم بشرعية كل هذه البدع الشركية القبورية، سميتها نور الاسلام وألف لهم أحد خطباء الفتنة كتاباً في هذا واطأه عليه وأمضاه له سبعون عالماً من علماء الازهر بزعمه، بل طبع في طرته خواتم بعضهم وتواقع آخرون منهم بخطوطهم رد كـ جميع أسمائهم، ولا حول ولا قوة الا بالله وبه وحده المستعان لا نقاذ لاسلام من هذا الصنفان. ومنهم من يحتج على نفع هذا الدعاء لغير الله بالتجارب كما يحتاج لهنود الوثنيون والنصارى فهو مشترك الالتزام وقد أبطله الله بقوله

١٠٧ - ﴿وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو﴾ هذه الآية مؤكدة لما قبلها داحضة لشبهة الذين يدعون غير الله بأنهم طالم استغاثوا من دعائهم والاستغاثة بهم فشفيت أمراضهم، وكبت أعداؤهم، وكشف الضر عنهم، وأصدي الخير اليهم، يقول تعالى لكل مخاطب بهذه الدعوة الى توحيد الاسلام، بكلام الله وتبليغ محمد عليه فضل الصلاة والسلام: وإن يمسسك الله أيها الانسان بضر كمرض بصيبك بمخالفة سننه في حفظ الصحة، أو نقص من الاموال والتمرات بأسبابك فيه عبرة، أو ظلم يقع عليك من الحكام المستبدن، أو غيرهم من الأعداء المعتدين، فلا كاشف له إلا هو، وقد جعل لكل شيء سبباً يعرفه خلقه بتجاربه، ككشف الامراض بمعرفة أسبابها، وخواص العقاقير التي تداوى بها، وتجارب الاعمال الجراحية التي يزاوها أهلها، فمالك أن تطلبها من أسبابها، وتكمل أعمالها إلى أربابها، وتأتي سائر البيوت من أبوابها، مع لايمان والشكر لمسخرها، فإن جهلت الاسباب أو أعياك أمرها، فتوجه إلى الله وحده، وادعه مخلصاً له

٤٩٢ كشف الضر وهبة الخير بيد الله وحده دعوة الاسلام العامة (التفسير: ج ١١)

الذين متوكلا عليه وحده ، يسخر لك ما شاء أو من شاء من خلقه ، أو يشفك من مرضك بمحض فضله ، كما ضرب لك الامثال في هذه السورة وغيرها من كتابه ﴿ وإن يردك بخير ﴾ يهبه بتسخير أسبابه لك ، وبغير سبب ولا سعي منك ، ﴿ فلا راد لفضله ﴾ أي فلا أحد ولا شيء يرد فضله الذي تتعلق به إرادته ، فما شاء كان حتماً ، فلا ترج الخير والنفع إلا من فضله ، ولا تخف رد ما يريده لك من أحد غيره ﴿ يصيب به من يشاء من عباده ﴾ يصيب بالخير من يشاء من عباده بكسب وبغير كسب ، وبسبب مما قدره في السنن العامة وبغير سبب ، ففضله تعالى على عباده عام بعموم رحمته ، بخلاف الضر فانه لا يقع إلا بسبب من الاسباب الخاصة بكسب العبد ، أو العامة في نظام الخلق ، فالاول معلوم كالمراض التي تعرض بترك اسباب الصحة والوقاية جهلاً أو تقصيراً ، وفساد العمران وسقوط الدول الذي يقع بترك العدل ، وكثرة الفسق والظلم ، والثاني كالضرر الذي يعرض من كثرة الامطار ، وطغيان البحار والانهار ، وزلازل الارض وصواعق السماء ﴿ وهو الغفور الرحيم ﴾ ولولا مغفرته الواسعة ورحمته العامة ، لأهلك جميع الناس بذنوبهم في الدنيا قبل الآخرة (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير * ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة)

(١٠٨) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِمَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (١٠٩) وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَخْرُجَ إِلَيْكَ اللَّهُ ، وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ

هذا النداء خاتمة البلاغ للناس كافة، بمقتضى بعثة الرسول العامة ، وهو إجمال لما فصل في هذه السورة وسائر السور المباركة

١٠٨- ﴿ قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم ﴾ أي قل أيها الرسول مخاطباً لجميع البشر ، من حضر منهم فسمع هذه الدعوة منك ، ومن سئله عنك ، قد

(يونس ١٠) الاهتداء والضلال لعلها وأمر النبي بالاتباع والصبر حتى يحكم الله ٩٣

جاءكم الحق المبين لحقيقة الدين من ربكم ، بوحيه إلى رجل منكم ، وهو الذي
افتتحت هذه السورة به ، وقد كان هذا الحق مجهولاً خفياً عنكم ، بما جهل بعضكم
من دعوة الرسل الاقدمين ، وما حرف بعضكم وجهل وبدل وتأول من كتب
الانبياء المتأخرين ، وفصله لكم هذا الكتاب العربي المبين ﴿ فمن اهتدى فانما
يهتدي لنفسه ﴾ أي فمن اهتدى بما جاء به هذا الرسول في هذا الكتاب الذي
لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فانما فائدة اهتدائه لنفسه ، لا أنه ينال به السعادة
في دنياه ودينه ، دون عمل غيره ، ولا فدائه ولا تأثيره ﴿ ومن ضل فانما يضل عليها ﴾
أي ومن ضل عن هذا الحق باعراضه عن آياته في هذا القرآن ، وحججه فيه بآياته
في النفس والآفاق ، فانما وبال ضلاله على نفسه بما يفوته من فوائد الاهتداء في الدنيا ،
وما يصيبه من المذاب على كفره وجرائمه في الآخرة ﴿ وما أنا عليكم بوكيل ﴾
أي وما أنا بموكل من عند الله بأموركم ولا مسيطر عليكم فأكرهكم على الايمان ،
وأمنعكم بقوتي من الكفر والمسيان ، وليس علي هداكم ، ولا أملك نفعكم ولا
ضرركم ، وانما أنا بشير لمن اهتدى ، ونذير لمن ضل وغوى ، وقد أعذر من أنذر
١٠٩- ﴿ واتبع ما يوحى اليك ﴾ في هذا القرآن علماً وعملاً وتعلماً ﴿ واصبر ﴾
كما صبر أولو العزم من الرسل على ما يصيبك من الاذى في ذات الله ، والجهاد به
في سبيل الله ﴿ حتى يحكم الله ﴾ بينك وبين المكذبين لك ، وينجز لك ما وعده ،

﴿ وهو خير الحاكمين ﴾ أي كل من يقع منهم حكم ، لانه لا يحكم الا بالحق ، وغيره
قد يحكم بالباطل لجهله الحق أو لمخالفته له باتباع الهوى . وقد امثل ﷺ أمر ربه ، وصبر
حتى حكم الله بينه وبين قومه ، وأنجز وعده له ولمن اتبعه من المؤمنين ، فاستخلفهم في
الأرض وجعلهم الائمة الوارثين ، مدة إقامتهم لهذا الدين ، فجزاه الله عن أمته أفضل
ما جزى نبياً عن قومه ، وجعلنا من المهتدين بما جاء به من كتاب ربه ، وسنته المبينة
له ، علماً وعملاً ، وإرشاداً وتعلماً ، وصلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن اتبعه وسلم تسليماً

(تم تفسير سورة يونس بفضل الله وتوفيقه تفصيلاً)

ويليه بيان ما فيها من العقائد والقواعد إجمالاً

الخلاصة الاجمالية لسورة يونس عليه السلام

وفيه ستة أبواب

(جميع آيات هذه السورة في أصول عقائد الاسلام التي كان ينكرها مشركو العرب وهي توحيد الله تعالى ، والوحي والرسالة ، والبعث والحراء ، وما يناسب هذه الثلاث وبعدها من صفاته تعالى وأفعاله وتنزيهه وآياته وسننه في خلقه ، وشئون البشر في صفاته وعاداتهم وأعمالهم ، ومحااجة مشركي مكة في ذلك كله ، ولا سيما هداية القرآن والرسول ﷺ العبرة بأحوال الرسل مع أقوامهم فهي كسورة الانعام في السور المكية إلا أنها أكثر منها ومن سائر السور إثباتا للوحي والرسالة ، ونحديا بالقرآن وبيانا لآعجازه وحقيقته وصدق وعده ووعيده ، وهذه المقاصد أو العقائد مكررة فيها بالاسلوب البديع ، والنظم البليغ ، بحيث يحدث في نفس سامعها وفارئها روع لافئاع والتأثير ، من حيث لا يشعر بما فيه من التكرير ، وانني أوجز في تلخيص هذه لاسول في أبوابها ، لما سبق في هذا الجزء من بسطها في مباحث الوحي من تفسير أول السورة ولا سيما مسائل إعجاز القرآن ، وإثبات نبوة محمد ﷺ التي امتازت بها على سائر السور)

الباب الاول

(في توحيد الله تعالى في ربوبيته وألوهيته وصفاته عظمتة وعلوه ، وتدييره لأمور عباده ، وتصرفه فيهم وفضله عليهم ورحمته بهم ، وعلوه بشئونهم ، تنزيهه عن ظلمهم ، وعما لا يليق به من أوهامهم ، وفي آياته الدالة على ما ذكر كله وفيه ثلاثة فصول)

(الفصل الاول في توحيد الربوبية والالوهية)

أجمع الآيات في هذا التوحيد الآية الثالثة من هذه السورة التي خاطبت الناس بأن ربهم هو الذي خلق السموات والارض أطوارا في ستة أيام أي أزمنة ، ثم فيها خلقها وتكوينها فكانت ملكا عظيما ، ثم استوى على عرش هذا الملك الاستواء اللائق به ، الدال على علوه المطلق على جميع خلقه ، وإحاطته به بعلوه وقدرته ، وتديير

الامر فيه بمشيئته وحكمته ورحمته ، بغير حد ولا انشبيه ، ولا شريك له في الخلق والتقدير ، ولا في التصرف والتدبير ، ما من شفيع عنده إلا من بعد اذنه ، فله وحده الامر ، وبه المنع والضرر

بعد تقرير هذه الحقيقة في توحيد الربوبية قال تعالى محتجاً بها على توحيد الألوهية (ذلكم الله ربكم فاعبدوه) أي فاعبدوه وحده ولا تعبدوا معه غيره . بطلب شفاعة ولا دعاء ولا مადونهما من مظاهر العبادة ، إذ لا رب لكم غيره ، وإنما تجب العبادة لرب العباد دون غيره . واستدل على توحيد الربوبية بما في الآيات ٤ — ٦ من الآيات (الدلائل) الكونية

ثم عاد إلى توحيد الألوهية وهو العبادة الخاصة في الآية (١٨) ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله) ودحض هذا القول منزهاً نفسه عن هذا الشرك

ثم احتج على بطلان شركهم هذا بما في الآيتين ٢٢ و ٢٣ من ضرب مثل لهم يعرفونه بالتجربة ، لوقوعه لكثير منهم في أزمنة مختلفة ، وهو أنهم إذا ركبوا في الفلك وعصفت بهم الرياح ، وهاج بهم البحر وأشرفوا على الهلاك ، يدعون الله وحده مخلصين له الدين وينسون عند شدة الخطر ما كانوا يشركون به من الشفعاء والاولياء ثم عاد إلى التذكير بالآيات الكونية على وحدانية الربوبية في الآيات ٣١ - ٣٦ وإلى توحيد الألوهية في الآية (٤٩) قل لأملك نفسي ضراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله) ثم عاد إلى التذكير بتوحيد الربوبية في سياق آخر فبين في الآية ٥٦ أن الله مافي السموات ومافي الارض . وفي الآية ٦٦ أن الله من في السموات ومن في الارض وان الذين يدعون من دون الله لا يتبعون شركاء الله إذ لا شر كماله ، ما يتبعون إلا الظن والحرص ثم بين في الآيتين ٧١ و ٨٥ ان كمال التوحيد في التوكل على الله وحده

ومن شئون الرب وحقه على عباده القشريع الديني وقدين في الآية ١٥ والآية ١٠٧ ان الرسول متبع لما يوحى اليه عملاً وتبليغاً ، لا مشرع مستقل فيه ولا متحول عنه وفي الآيتين ٥٩ و ٦٠ أن جميع ما أنزله الله تعالى لعباده وأنعم به عليهم من أنواع الرزق فهو حلال لهم ليس لأحد منهم حق أن يحرمه عليهم لذاته تحريماً دينياً . وان من يحكم فيه بالتحريم والتحليل فهو معتد على حقه تعالى مقرر عليه

(الفصل الثاني في صفات الذات من العلم والمشيئة والعزة والرحمة)

أما العلم فحسبك من هذه السورة قوله تعالى (١١) وما تكون في شأن) الخ فراجع تفسيرها وتأمل عجائب بلاغتها ، وإحاطتها بعظام الأمور وصغائرهما ، وظواهر الاعمال وخفائها ، وذرات الوجود قريبها وبعيدها جليها وخفيها ، وما تدركه الشاعر وما لا تدركه من خلايا مركباتها ودقائق بساطتها . وتدبر تعلق علم الله تعالى بها كلها ، وكتابته لها من قبل إيجادها ، وشهوده إياك في كل ما تكون فيه منها ، نحمده رافعاً لك إلى أعلى درجات الإيمان والاسلام والاحسان

ثم تأمل قوله تعالى في الذين يشركون بالله غيره بما يرجون من نعمهم لهم ، وكشفهم الضر عنهم بشفاعتهم عنده تعالى من الآية (٤٩) قل تفتشون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الارض) تعلم مقدار جهل الانسان وجنابته على نفسه ، بما يقوله على الله تعالى بغير علم ، من تصغير أمر الربوبية والشرك في الالهية ، بالتوجه في الدعاء والرجاء والخوف إلى غيره تعالى بما هو عين الشرك به كما تقدم آنفاً

وأما صفة المشيئة فتأمل فيها أمره تعالى لرسوله الاعظم في الآية (١٦) قل لو شاء الله ما تلوته عليكم) الخ وفي الآية (٤٩) قل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله) تعلم منه قدر إيمانه ﷺ بمشيئة ربه عز وجل ، ثم انظر قوله تعالى له (٩٩) ولو شاء ربك لآمن من في الارض كلهم جميعاً) تعلم منه كيف شاء الله تعالى أن يخلق المكلفين في هذه الارض مختلفي الاستعداد للإيمان والكفر والخير والشر ، وأن ما وهبه من المشيئة والاستطاعة لأعظمهم قدراً وفضلاً لا يمكن أن يخرج عن مقتضى مشيئته وسننه في نظام خلقه ، وبؤ كده قوله تعالى بعده (١٠٠) وما كان لنفس أن تؤمن إلا باذن الله) وهو بيان لسنته التي اقتضتها مشيئته في اختيارهم لكل من الإيمان والكفر ، وما يستلزمان من عمل الخير والشر . وفي معناه قوله فيما يصيبهم من ضر ونفع وخير وشر ، وكون كل منهما بالاسباب المقيدة بسننه في الخلق بمقتضى ارادته (١٠٧) وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو) الآية فلا يقدر الاولياء ومن يسمونهم الشفعاء على النفع ولا على الضر من غير أسبابها المشتركة من جميع الناس ، وإنما يقدر على ذلك واضع السنن والاسباب وحده

(يونس : ١٠) الرحمة والتنزيه صفات أفعاله وآياته التقدير والتدبير والرزق ٤٩٧

والمراد من كل هذه الآيات سد ذرائع الشرك وإعتاق البشر من رقه، باعتمادهم في أمورهم على ما وهبهم من القوى، وطلب كل شيء من أسبابه التي سخرها الله لهم، والتوجه إليه وحده في تسخير ما يهجزون عنه، ومع هذا كله نرى من سرت إليهم عدوى الوثنية من أهلها يتوجهون إلى غيره تعالى من الأحياء والاموات المعتقدين فيما لا يقدر عليه بكسبهم وفيما هو من كسبهم أيضاً. ولكنهم يجهلون قدرتهم أو قدرة أمثالهم كالأطباء عليه، ويظنون أن معتقديهم المتصرفين في الكون بزعمهم أقرب مثلاً، كما بسطناه في تفسير كل هذه الآيات وأمثالها مكرراً اتباعاً لكتابه تعالى وأما صفة العزة فليس في هذه السورة ذكر لها إلا قوله تعالى (٦٥) ولا يحزنك قولهم: إن العزة لله جميعاً هو السميع العليم) ومعناها المنعة والقوة التي شأنها أن يغلب صاحبها ولا يغلب على أمره، ويذل من خصمه ولا يذل خصمه منه، وكان المشركون يعتزون بكشرتهم وقوتهم وثرورتهم، نجاة قلة المؤمنين وضعفهم وفقيرهم، فيطمعون في الرسول وفي الإسلام وأهله فيحزنه ﷺ ما يقولون، فنهاء عز وجل عن هذا الحزن وعلاه بأن العزة الحق هي لله وحده، فهو يعز من يشاء، ويذل من يشاء، وقد كتبها لرسوله وللمؤمنين كما بيناه في تفسير الآية، وفي هذه الآية ذكر السمع والعلم، لئلا يكبره ﷺ ومن اتبعه من المؤمنين بسمعه تعالى لأقوالهم، كحاطته علماً بأعمالهم، فهو قد ير على أعزازه واذلامه وأما صفة الرحمة فقد جاءت مقترنة بالمغفرة في فاصلة الآية ١٠٧ الناطقة بانفراده تعالى بكشف الضر وإرادة الخير كما تقدم.

وذكرت الرحمة بآثارها ومتعلقاتها في الرزق من الآية ٢١- وفي خصائص القرآن التشريعية من الآية ٥٧ وفيها يعمها من الآية ٥٨ وفي التنجية من الظلم وحكم الكافرين في الآية ٨٦ فنسأله تعالى أن يعمننا بأنواع رحمته كلمه أو يجعلنا من الشاكرين

(الفصل الثالث في تقديسه تعالى وتنزيهه وغناه عن كل ما سواه)

نزه الله تعالى نفسه في هذه السورة في مواضع (أولها) أن يكون عنده شفعاء يشفعون من يشفعون لهم أو يكشفون الضر عنهم فيكون لتأثيرهم شرك في أفعاله تعالى .
(تفسير القرآن الحكيم) (٦٣) (الجزء الحادي عشر)

وهذه شبهة شرك العرب وغيرهم، وقد فشا في أكثر النصارى وكذا جملة المسلمين كما بيناه تكررًا وهو نص قوله في الآية ١٨. (سبحانه وتعالى عما يشركون)

ونزه نفسه عن اتخاذ الولد وهو ضرب من الشرك أيضا بقوله (٦٨ قالوا اتخذ الله ولدا سبحانه هو الغني) الآية

ونزه نفسه عن ظلم عباده في الدنيا والآخرة وبين انهم هم الذين يظلمون أنفسهم في الآيات ٤٤ و ٤٨ و ٥٢ و ٥٤

﴿ الفصل الرابع في أفعاله تعالى وآياته في التقدير والتدبير والرزق ﴾

ونجمها في عشرين مسألة

[١] خلق السموات والارض في ستة أيام أي أزمدة يحدد كلا منها طور من أطوار التكوين

[٢] استواؤه تعالى بعد هذا الخلق على عرشه يدبر أمر ملكه والمراد بهذه الآية في هذا الباب أن للعالم في جملة عرشه هو مركز التدبير والنظام العام له [راجع تفسير الآية الثالثة في بيانها وما تحيل عليه في معناها]

[٣] بدء الخلق ثم إعادته في الآيتين ٤ و ٣٤

[٤ - ٦] جعل الشمس ضياء والقمر نورا وتقديره منازل وحكمة ذلك في الآية الخامسة

[٧] اختلاف الليل والنهار في الآية السادسة وبيان حكمة ذلك في الآية ٧٦

[٨] مثل الحياة الدنيا في زينتها وغرور الناس بها وزوالها في الآية ٢٤

[٩] إنزال الرزق من السماء والارض في الآيتين ٣١ و ٩٥

(١٠) ملك السمع والابصار في ٣١ أيضا

[١١] اخراج الحي من الميت والميت من الحي فيها

[١٢] تدبير أمر الخلق في الآيتين ٣ و ٣١

(١٣) كون خلقه للشمس والقمر ضياء ونورا وحسبنا بالحق لاعضاء في الآية ٣

[١٤] هدايته تعالى الى الحق ويؤيده ان الظن لا يغني من الحق في الآيتين

٣٥ و ٣٦ وانه ليس بعد الحق إلا الضلال في (٣٢) وانه يحق الحق بكلماته في (٨٢)

[١٥] [لله ما في السماوات وما في الارض أي من غير العقلاء في الآية ٥٦]
[١٦] [لله من في السماوات ومن في الارض من العقلاء في الآية ٦٦]
[١٧] [الامر بنظر ما في السماوات والارض والاعتبار بهما في الآية ١٠١]
[١٨] [سرعة مكره تعالى من إحباط مكر الماكرين ، والاملاء للظالمين ،
في الآية ٢١]

[١٩ و ٢٠] [تسييره تعالى للناس في البر والبحر ، وانجائهم من الفرق
بعد اليأس في الآيتين ٢٢ و ٢٣]

فهذه الآيات المنزلة ، المرشدة الى النظر في الآيات المكونة ، تدل على
عناية هذا الدين بالعلم بكل ما خلق الله ، وما أودع فيه من الحكم والمنافع للناس ،
ليزدادوا في كل يوم علما بدنيامهم ، وعرفانا وإيمانا بربهم ، كبارتلوا كتابه ، وتدبروا
آياته (كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الالباب)
ففسأله تعالى أن يجعلنا من خيارهم وأبرارهم

الباب الثاني

في الوحي المحمدي وهو القرآن *

القرآن من كلام الله تعالى وانما فتحنا له بابا خاصا ولم نذكره في صفاته عز وجل
من الباب الاول لان ما ورد فيه من الآيات ليس من ناحية كونه صفة له ،
بل من ناحية كونه كتابا منزلا من عنده لهداية خلقه . وعقيدة الايمان بكتبه
تعالى في المرتبة الثانية بين الايمان به والايمان برسله ، ونلخص ما يختص بالقرآن
من هذه السورة في عشر مسائل

(١) افتتح الله هذه السورة بالاشارة الى كتابه الحكيم في الآية الاولى منها ،
وثنى في التي تليها بالانكار على الناس عجبهم من وحيه الى بشر منهم أن يكون هاديا
لم نذير او بشيرا . وقد بينا في تفسير هذه الآية دلائل هذا الوحي باعجاز القرآن
اللفظي والمعنوي وتفنيد شبهات الذين زعموا انه وحي فاض من نفس محمد ﷺ

(*) انما فسرنا بالقرآن لان الله تعالى أوحى اليه غير القرآن أيضا

٥٠٥ إعجاز القرآن وكونه من الله لا من محمد (ص) (التفسير : ج ١١)

وعقله الباطن على لسانه بأسباب وإطباب فكان ذلك مصنفامستغلا مستنبطامن جملة القرآن وعلومه وتأثيره في العالم ، فنشير الى ما في هذه السورة منه بالإيجاز

(٢) في الآية الخامسة عشرة منها اقترح المشركين على النبي ﷺ أن يأتي بقرآن غير هذا القرآن أو ان يبدله ، وما أمره الله تعالى أن يجيبهم به من عجزه عن تبديله أو الاتيان بغيره ، وكونه لا يملك من أمره فيه الا اتباع ما يوحى اليه من تليقه والعمل به ، (ومثله في آخر السورة)

(٤٣) في الآية السادسة عشرة انه ﷺ ما بلغهم هذا القرآن إلا بمشيئة الله تعالى وتسخير ، فلو شاء تعالى ان لا يتلوه عليهم لما تلاه ، ولو شاء تعالى ان لا يدرهم ولا يعلمهم به لما أدرهم ، فهو الذي أقرأه بعد ان لم يكن قارئاً (اقرأ باسم ربك ... سنقرئك فلا تنسى) وهو الذي علمه وجعله معلماً (وأنزل عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم * ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا) الخ

(٥) أنه أي هذا بالحجة العقلية القاطعة ، وهو أنه قد لبث فيهم عمراً طويلاً من قبله وهو سن الإدراك والصبا فالشباب حتى بلغ أشده واستوى وبلغ أربعين سنة ، لا يقرأ ولا يقرئ ، ولا يتعلم ولا يعلم ، وقد بينا في تفسيرها (أي الآية ١٦) انه ثبت عند حكماء التاريخ بالتجارب والامســتقراء ان جميع معارف البشر الكسبية واستعدادهم للعلم والعمل ، انما يظهران ويبلغان أوج قوتيهما من النشأة الاولى الى منتصف العشر الثالث من العمر ، ولا يكون بعده الا التمهيص والتكميل ، ومحمد ﷺ لم يظهر منه علم ولا بيان ولا عمل إصلاحي عام ديني أو دنيوي إلا بهذا الوحي الذي فوجى به بعد استكمال الاربعين

ويليه في الآية ١٧ أن أشد الناس ظلماً لنفسه من افتري على الله كذباً أو كذباً بآيات الله ، وانه من المجرمين الذين لا يفلمحون ، فهل يرتكب هذا الظلم من يعلم هذا ؟ ولماذا يرتكبه ؟ وقد عرف قبجه كبيراً ، بعد ان نشأ على التزام الصدق صغيراً ، واشتهر به وبالوفاء عند المعاشرين ، حتى لقبوه بالأمين ؟

(٦) في الآية الثامنة والثلاثين حكاية عن المشركين (أم يقولون افتراه)

(يونس : ١٠) الباب ٣ النبوة والرسالة . الفصل الاول في الرسل الاولين ٥٠١

وأمره تعالى لنبيه بتحديثهم بالاثبات بسورة مثله ، ودعوة من استطاعوا من دون الله الذي أنزله بعلمه ، ولا يقدر عليه أحد من خلقه ، والا كانوا كاذبين في زعمهم انه افتراء ، اذ لا يعقل أن يفترى الانسان ما هو عاجز كغيره عنه ، وقد بينا في تفسيرها معنى التحدي والمعجز وموضوع الاعجاز اللفظي والمعنوي وهل يدخل فيه قصار السور مطلقاً أو مقيداً ؟ (راجع تفسيرها تجد فيه ما لا تجده في غيره)

(٧ و ٨) في الآية ٣٩ ذكراً ضربا بهم عن التكذيب المطلق الذي يتضمنه ذلك القول الى التكذيب المقيد بما لم يحيطوا بعلمه ، وفي الآية ٤٠ كونهم فريقين منهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به ، وفي تفسير الاولى منهما تحقيق معنى تأويل القرآن وخطأ أكثر المفسرين الذين اطلعنا على كتبهم في فهم التأويل بحمله على التأويل الاصطلاحي عند علماء الكلام والاصول ، حاش الامام محمد بن جرير الطبري (٩) في الآية ٥٧ بيان انواع ارشاد القرآن وإصلاحه للبشر وهو قوله (يا ايها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين) (١٠) في الآيتين ١٠٨ و ١٠٩ وهما خاتمة السورة خلاصة تبليغ الدعوة وموضوع الاولى في خطاب الناس كافة انه قد جاءهم الحق من ربهم وهم مختارون في الاهتداء به والضلال عنه ، وموضوع الثانية أمر الرسول باتباع ما يوحى اليه تبليغاً وعملاً ، كما تقدم في المسألة الثانية

الباب الثالث

في النبوة والرسالة وفيه فصلان

(الفصل الاول في الرسالة العامة والرسل الاولين وفيه سبع مسائل)

(١) في الآية الثانية من السورة إثبات وحي الرسالة وأن الرسل رجال من الناس وأن وظيفتهم الانذار والتبشير ، وأن الكفار كانوا ينكرون أن يكون البشر رسلاً لله تعالى ، وكانوا يسمون آيات الرسول اليهم سحراً ويسمونه ساحراً (٢) في الآية ١٣ ان الله تعالى أهلك القرون [الامم] القديمة لما ظلموا أنفسهم

بالشرك والاجرام وجاءتهم رسالهم بالبينات الدالة على صدقهم في التبليغ عن الله تعالى ولم يؤمنوا فجزاهم باجرامهم

(٣) في الآية ٤٩ ان الرسول لا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعا فضلا عن غيره لان هذا الله وحده، والرسول فيه كغيرهم كما ترى في آيات توحيده

(٤) في الآية ٤٧ ان الله تعالى جعل لكل أمة رسولا، فليست الرسالة خاصة ببني اسرائيل كما يدعون، ولا بهم وبالعرب كما توهم آخرون، والشبهة على هذه الكلية ان أكثر أمة الارض وثنية وتواربها عريضة في ذلك، كقدماء المصريين والكلدان والاشوريين والفرس والهند والصين وشعوب الافرنج القديمة وكذا قدماء أمريكا. وجوابها ان جميع هذه الامم لها أديان قائمة على الاركان الثلاثة التي يثبت بها جميع الرسل الاولون. وهي الايمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح، وقد طرأت على كل منها التقاليد الوثنية طروءاً كما بيناه في مباحث الوحي وشواهد ذلك ظاهرة في آخر هذه الامم حتى المسلمين

(٥) في هذه الآية أيضا ان كل رسول عانده قومه قضى الله بينه وبينهم بالقسط، والآيات التي بعدها في تكذيب قوم نبينا ﷺ له وستذكر في الفصل الثاني (٦) من الشواهد على هذا قصة نوح مع قومه في خلاصة دعوته لهم وإصرارهم على تكذيبه، وإهلاك الله إياهم بالغرق، وإنجاء نوح ومن آمن معه في الفلك، وجعلهم خلائف في الارض، وهي في ثلاث آيات من ٧١-٧٣ ويليه آية واحدة في الرسل الذين بعثوا بعده اجمالاً، ويليه قصة موسى مع فرعون وملئه، وغايتها انه تعالى أهلك فرعون ومن أتبع بني اسرائيل معه بالغرق، وأنجى موسى وبني اسرائيل وجعلهم خلائف في الارض المقدسة الى حين، وهي في الآيات ٧٥-٩٣ وسنبين ما في هاتين القصتين من الفوائد والعبر في قصص الرسل من تفسير سورة هود (ع. م)

(٧) في الآية ٩٨ العبرة لأهل مكة بقوم يونس بأنهم استحقوا عذاب الخزي والاستئصال بعنادهم لمحمد رسول الله وخاتم النبيين كما استحقه قوم يونس، وأنهم اذا آمنوا قبل وقوع هذا العذاب ينفعهم إيمانهم كما نفع قوم يونس عليهما السلام

﴿ الفصل الثاني في رسالة محمد ﷺ ﴾

وسيرته مع قومه وعاصمة بلاده ونجمل آياته في احد عشر نوعا

(١) في الآية الثانية ان الكافرين أنكروا دعوة نبوته وعجبوا منها ان كان رجلا منهم يوحى اليه ، وسموا آيته سحراً ونيزوه بلقّب ساحر مبین ، كما تقدم في الكلام على الوحي وعلى الرسالة العامة في أول الفصل الاول ، والآية نزلت فيه ﷺ وشبهة السحر لا تخيل (أي لا تشبهه من أخال الامر اذا أشكل واشتبه) في القرآن كآيات الكونية وانما قالوه تسكفا وعنادا .

(٢) في الآية ١٥ أنهم اقترحوا عليه أن يأتي بقرآن غير هذا القرآن الذي أعجزهم أمره أو أن يبدله ، وفي الآية ١٦ الرد عليهم بما تقدم مفصلاً ، وبليها تأييد الرد (٣) في الآية ٢٠ اقترحهم عليه ﷺ أن يأتيهم بآية كونية وجوابه لهم وفي الآيتين ٩٦ و ٩٧ أن الذين حقت عليهم كلمة الله بقدوم الاستعداد للإيمان لا يؤمنون ولو جاءهم كل آية كونية مما اقترحوا ومما لم يقترحوا

(٤) في الآية ٣٧ بيان ان هذا القرآن لا يمكن أن يكون مقترى من دون الله ، إذ لا يقدر على مثله أحد من خلق الله ، وانه تصديق لما تقدمه من دعوة الرسل ، وتفصيل لما أجمل فيما قبله من الكتب ، فهو من رب العالمين لا ريب فيه ، لان محمداً ﷺ ما كان يدري شيئاً مما نزل فيه

(٥) في الآية ٣٨ تحدي المشركين الذي قالوا افتراء وهو مطا بتهم بالانبيان بسورة مثله ، واستعانتهم على ذلك بمن يستطيعون استعانتهم من دون الله تعالى (٦) في الآية ٣٩ الاضرار عن التكذيب المطلق إلى التكذيب بما لم يحيطوا بعلمه ولما بأنهم تأويله وهو ما وعدهم به من العذاب بقسميه الديوي والاخروي (٧) في الايات ٤٠ - ٥٤ ان من أولئك المشركين من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به ، ومناقشة الكاذبين ، ووصف حال من فقدوا الاستعداد للإيمان بحيث لا يعقلون الدلائل السمعية ولا البصرية ، وإيهام أمر ما وعدوا به من العذاب هل يقع في حياته ﷺ أو بعد وفاته ، وحكمة هذا الإيهام له واستعجالهم به ،

وكونهم يؤمنون به عند وقوعه فلا ينفعهم إيمانهم يومئذ — وسؤالهم أحق هو ؟ وجوابهم بالقسم إنه الحق ، لأن وعد الله كله حق ، وفي تفسيرنا له بيان قلة الكذب في العرب ، واحترام القسم بالله تعالى ، واشتهار النبي ﷺ بالصدق والامانة فيهم من صفته

(٨) بعد أن أيد الله دعوته ﷺ بقصتي نوح وموسى بالابحاز مفصلة ، و ذكر من بينهما بالاشارة المجمله ، أخبره ان الذين يقرءون الكتاب من قبله عندهم علم من ذلك ، فلو انه كان في شك منه وسألهم لأجابوا إنه الحق من ربه ، وهذا تأكيد لكونه لاموضع الامتراء به

(٩) كان ﷺ يحزنه تكذيب قومه له وكفرهم بما جاء به فنهاه الله عن ذلك في الآية ٦٥ وكان يتمنى إيمانهم كلهم فجاءه في الآيات ٩٦ — ١٠١ بيان سنة الله في اختلاف استعداد الناس للإيمان والكفر ، وأنه لو شاء لجعلهم كلهم مؤمنين ، ولكانوا غير هذا النوع من خلق الله ، ولكنه لم يشاء ، واذن لا يقدر الرسول ولا غيره على إكراههم على الإيمان ، وأن الآيات لا تنفع إلا المستعدين للإيمان والصالح ، وأن النجاة لرسول الله ومن آمن بهم بمقتضى سنته تعالى في خلقه

(١٠) ختم السورة من الآية ١٠٤ — ١٠٩ بتجديد الدعوة الى تجريد التوحيد والعبودية المحض ، وكون الحق قد تبين فمن اهتدى فلنفسه ، ومن ضل فعليه ، وإنما الرسول ﷺ مبلغ لا وكيل لله متصرف في أمر عباده ، فعليه أن ينتظر حكمه وهو خير الحاكمين .

(١١) إعلامه تعالى هذه الامة في الآية ١٤ بأنه جعلهم خلائف في الارض كلما بعد إهلاك أكثر القرون الاولى من أقوام الانبياء المعاندين لرسالهم ، وتحريف آخرين لأديانهم ونسخه تعالى لما بقي منها ببعثة خاتم النبيين ﷺ وأنه يختبرهم بهذه الخلافة فيجزئهم بما يعملون فيها ، وأخرنا هذا لانه ثمرة اجابة الدعوة في الدنيا كما وعدهم ، وأنجز وعدهم لم بشرطه في الآية (٥٤: ٢٤) من سورة النور

الباب الرابع

في البعث والجزاء ، ونلخص آياته في بضعة أنواع

(١) في الآية الرابعة ذكر رجوع الناس جميعا الى الله ربهم الذي يبدأ الخلق بأجناسه وأنواعه المختلفة ، ثم يعيده ليجزى المؤمنين الصالحين بالقسط ، والكافرين بما ذكره إجمالا ، وبينما في تفسيرها كونه بالقسط ايضا كما ترى بيانه في النوع (٤) وكون جزاء المؤمنين بضاعف كما ذكر في غيرها

(٢) في الايات ٧ - ١١ تفصيل لجزاء الفريقين مع تعليل طبيعي عقلي لتأثير الايمان والكفر في الانفس ، وفاقا للقاعدة التي قررناها مرارا من أن جزاء الآخرة أثر لازم لسيرتها في الدنيا ، بجمعها أهلا بطبعمها وصفاتها لجوار الله ورضوانه أولسخطه (٣) في الايات ٢٣ - ٣٠ تفصيل آخر موضح بضرب المثل فيه تصریح بالزيادة في جزاء المحسنين عما يستحقون ، وكون جزاء المسيئين بالمثل ، وكون كل نفس تبلو في الآخرة ما أسلفت في الدنيا ، لا ينفع أحد أحدا بنفسه ولا بعمله

(٤) في الايات ٤٥ - ٥٦ سياق رابع مفتتح بالتذكير بيوم الحشر وتقدير الناس لمدة لبثهم في الدنيا بساعة من النهار ، وخسران المكذبين ببقاء الله ، وتأكيد وعد الله به ، واستبطائهم له ، واستمجالهم به ، واستنبائهم الرسول : أحق هو؟ وحالهم عند وقوعه ، وتمنيهم الافتداء منه بكل ما في الارض ، واسرارهم الندامة عند رؤية العذاب ، والقضاء بينهم بالقسط (وهم لا يظلمون) وهذا الاخير في الآيتين ٤٧ و ٤٨ (٥) في الايات ٦٢ - ٦٤ ذكر أولياء الله وهم المؤمنون المتقون وأنهم

لاخوف عليهم ولا هم يحزنون ، وان لهم البشرى في الدنيا والآخرة

(٦) في الآيتين ٦٩ و ٧٠ ذكر المفترين على الله وكونهم لا يفلحون ، لهم متاع قليل في الدنيا ، ثم ان مرجعهم الى الله فيذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون

(٧) في الآية ٩٣ عقب قصة موسى مع فرعون وملئه ونجاة بني اسرائيل

بعد هلاكهم ان بني اسرائيل ما اختلفوا حتى جاءهم العلم ، وان الله يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون

اذا عددت هذه الآيات التي أشرنا اليها في البعث والجزاء وجدتها تبلغ زهاء الثالث من هذه السورة ، ولكنك لا تشعر عند ما تقرأ السورة أنك تكرر معنى واحداً فيها يبلغ هذا القدر منها ، وانما يستقر هذا المعنى في قلبك ويملؤه إيماناً بلقاء الله تعالى والخوف من حسابه وعقابه ، والرجاء في عفوه ورحمته وثوابه ، وما كان التكرار إلا لأجل هذا ، فهل يستطيع أبلغ البشر أن يأتي بكلام كهذا ؟ لا لا

الباب الخامس

في صفات البشر وخلائقهم وعاداتهم وما يترتب عليها من أعمالهم
وسنن الله فيها وهي نوعان

﴿ النوع الاول الصفات الذميمة التي نجب معالجتها بالتهذيب الديني ﴾

(الاولى العجل والاستعجال) قال الله تعالى [٣٧: ٢١ خالق الانسان من عجل] وقال [١١: ١٧ و كان الانسان عجولا] ومن شواهد هذه الغريزة في هذه السورة قوله تعالى [١١] ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضي اليهم أجلهم [ومنها استعجالهم بالعذاب الذي وعدهم الله في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ كما تراه في سياقه من الآيتين ٥١ و ٥٠]

(الثانية الظلم) قال تعالى [١٤ : ٣٤ إن الانسان لظلوم كفار] وقال في آية الامانة [٧٢: ٢٣ وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا] ومن الشواهد على هذه الخليقة أو الشيمة في هذه السورة ما تراه في الآيات ٤٤ و ٨٥ و ١٠٦ .

(الثالثة الكفر بالله وبنعمه) قال تعالى في وصف الانسان من سورته سورة الدهر [٣: ٧٦ إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً] ووصفه بالكفور في سور الاسراء والحج والشورى ، وبالكفار (بالفتح للمبالغة) في سورة ابراهيم و ذكرت آفاه ولكن ذكر الكفر بلفظه ومشتقاته في هذه السورة قليل . ذكر في الآية الثانية الكافرون بالوحي والرسالة ، وفي الآية الرابعة جزاء الذين كفروا في الآخرة

بكفرهم ، و ذكر في الآية ٨٦ . في دعاء بني اسرائيل بالنجاة من حكم الكافرين .
وأما ذكره بالمعنى فهو كثير فيها فنه ما هو بلفظ التكذيب وعدم الرجاء
بلقاء الله ، وما هو بلازمه من الفسق والاجرام والبغي والطغيان والاستكبار ، وكذا
الظلم الذي خصصناه بالذكر

(لرابعة الشرك بالله تعالى) وهو عادة صارت وراثية في الامم ، و ذكر
في الآيات ١٨ و ٢٨ و ٣٤ و ٣٥ و ٦٦ و ٧١ وهو أخص من كل ما تقدم
(الخامسة الجهل واتباع الظن والخرص) الاصل في هذه الخلقة أن الله تعالى خلق
الانسان جاهلا لا يعلم شيئا من ضروريات حياته حتى ان غرائزه الخلقية أضعف من غرائز
الحشرات والمجناوات ، وجعل عماد أمره على التربية والتعليم التدرجي ، ونصوص
القرآن في هذا معروفة كقوله [١٦ : ٧٨] والله أخرجكم من بيوت أمهاتكم لاتعلمون شيئا
وآية الامانة وتقدم ذكرها في الظلم . والنص الصريح في هذه السورة قوله تعالى [٣٦]
وما يتبع أكثرهم إلا ظنا إن الظن لا يغني من الحق شيئا [وقوله [٦٦] إن يتبعون
إلا الظن وإن هم إلا يخرصون]

(السادسة الطبع على القلوب) والاعراض عن آيات الله في خلقه مما يدرك بالسمع
والابصار ، حتى لا تعود تقبل ما يخالف تقاليد الموروثة والراسخة بمقتضى العمل وهو
نص قوله تعالى [٧٤] كذلك نطمع على قلوب المعتدين [فهو صريح في كونه نتيجة معلولة
لاعتداء حدود الفطرة السليمة كما تراه مفصلا في تفسيرها لا كما يفهمه الكثيرون
من الجبرية والقدرية الصرخاء والمتأولين . وغاية هذه النتيجة القلبية النفسية في
الهداية الحرامان من الايمان بمقتضى كلمة الله في نظام التكوين ، وما بينه من كلمة
التكليف ، لعدم الانتفاع بالآيات المرشدة للفطرة الى الهداية ، وهو ما تراه في
الآيات ٣٣ و ٦٦ و ١٠١

(السابعة الغرور والبطر بالرخاء والنعم) فهم في أثنائها يمكرون في آيات الله
ويشركون به ويبغون في الارض حتى اذا أصابتهم الشدائد تذكروا واخلصوا
في دعائه فاذا كشفها عنهم عادوا الى شركهم وفسادهم ، كما تراه في الآيات

(النوع الثاني . الفرائض والصفات المحمودة)

نزلت هذه السورة في أوائل ظهور الاسلام بمكة وأكثر أهلها مشركون معاندون كافرون ظالمون مجرمون جاهلون ، مستكبرون رؤساءهم ، مقلدون دهاؤهم ، فكان مقتضى هذا تقديم الانذار فيها على التبشير كما تراه في أولها ، ولهذا كان أكثرها في بيان الصفات والخلائق والعادات القبيحة الضارة وهو النوع الاول في هذا الباب ، وكان النوع الثاني مما يعلم أكثره بالاستنباط ، وكون أصل غرائز الانسان الاستعداد للحق والباطل والخير والشر ، وكونه مختاراً في كل منهما ، وكونه فطر على ترجيح ما يثبت عنده أنه خير له بالدلائل العقلية ، أو التجارب العملية ، وكون الدين مؤيداً للعقل ، حتى لا يغلب عليه الهوى والجهل

فتأمل الاصل في تكوين الامم ووحدتها في فطرتها ثم طرأ الاختلاف عليها في الآية ١٩ - ثم انظر في مقدمة الدعوة العامة الى الناس كافة في آخر السورة من الآية ٩٩-١٠٣ وهي صريحة في استعدادهم المذكور ، وكونه اختيارياً لا إكراه فيه ، وتعبيره عن سنة الله في ترجيحهم الرّجس على تزكية النفس بجعله على الذين لا يعقلون ، ولا يهتدون بآيات الله في السموات والارض ، ولا يعتبرون بسنته فيمن قبلهم من أقوام الرسل ، وكيف كانت عاقبتهم وعاقبة ارسل ومن آمن معهم ثم تأمل خلاصة هذه الدعوة من خطاب الناس في الآية ١٠٤ الى آخر السورة من إقامة الحجّة على المشركين الشاكين في دين الرسول ﷺ وكون الشك جهلاً ، وكونهم انما يعبدون وهماً ، وكون ما يدعوه اليه هو مقتضى الفطرة الحنيفية ، وكونهم يعبدون من لا يملك لهم نفعاً ولا ضرراً ، وكون ما جاءهم به هو الحق ، وكونهم مختارين في الاهتداء والضلال ، وكون ما يختارونه إما لأنفسهم وإما على غيرهم ، وكونه ﷺ ليس موكلًا بهدايتهم ولا مسيطراً عليهم

وهذه الخلاصة اجمال لما تقدم تفصيله في هذه السورة وغيرها ، فارجع الى تذكيرهم بالدلائل الكونية في الآية الثالثة التي تشير الى أنها مغروسة في أعماق أنفسهم ، وبالدلائل العقلية بقوله في الخامسة [يفصل الآيات لقوم يعلمون] وفي السادسة

[لقوم يتقون] وخطابه في الآية السادسة للعقل بقوله [أفلا تعقلون] وفي الحادية عشرة للفكر بقوله (كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون) ثم ارجع الى قوله بعد إقامة طائفة من الدلائل العلمية الكونية (٣٥ قل هل من شركائكم من يهدي الى الحق - ٣٩) ثم الى بيانه لهم مافي القرآن من أصول التزكية والتهديب الاربعة في الآية ٥٧ وما بعدها - وقد تقدم تفصيل ذلك وما في معناه في الفصول السابقة

الباب السادس

في الاعمال الصالحات التي هي الركن الثالث مما جاء به الرسل (ع . م) وما يقابلها من الأعمال العامة ، وأخرناه لانه النمرة والنتيجة وهو قسمان

﴿ القسم الاول الاعمال الصالحة ﴾

(١) قوله تعالى في الآية الرابعة (ليجزي الذين آمنوا و عملوا الصالحات بالقسط) والصالحات ما تصلح به أنفس الافراد ونظام الاجتماع في البيوت والامة والدولة هذا هو الركن الثالث مما جاء به جميع رسل الله مجملا ، وفصل في كل ملة بحسب ما كان من الاستعداد فيهما ، وكل عمل من العبادات الدينية أو المعاملات المدنية والسياسية لا يؤدي الى الصلاح أو الاصلاح فهو غير صالح ، فاما فاسد في أصله ، وإما أدّى على غير وجهه

(٢) قوله تعالى (٩ ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بايمانهم) وقد بينا في تفسيرها علاقة الايمان بالعمل الصالح وكون كل منهما يمد الآخر ويستمد منه ، ومن لم يفقه هذا ويتوخه لم يفقه في دينه ، ولم يكن به صالحا يستحق الجزاء الذي وعد الله به في هذه الآية وما قبلها ، وفي أمثالها من طولى السور ومثنيها ومفصلها حتى أقصرها (وهي سورة والعصر) ويؤيد هذا اتحاد الايمان والاسلام في الماصدق وان اختلفا في المفهوم كما ترى في الآيتين ٨٤ و ٩٠ ففهوم الايمان بالتصديق الادعائي الجازم بما جاء به النبي ﷺ من الدين وهو يستلزم العمل به

٥١٠ القسم الثاني في السيئات وفي الاعمال المطلقة بقسميها (التفسير: ج ١١)

ومفهوم الاسلام التسليم والانقياد بالفعل وهو العمل بمقتضى الايمان ولا يصح فيكون اسلاما الا به،

(٣) قوله تعالى (٢٦) للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) ظاهر في دلالة الزيادة على ما ورد في القرآن من مضاعفة هذا الجزاء.

(٤) قوله تعالى في التعريف بأوليائه (٦٣) الذين آمنوا و كانوا يتقون) فالتقوى جماع الاعمال الصالحة الحسنة مع اتقاء الاعمال الفاسدة السيئة كما فصلناه في مواضع من هذا التفسير أبسطها وأظهرها تفسير قوله تعالى (٢٩:٨) ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا) الآية

(٥) قوله حكاية لوصية موسى لقومه (٨٧) وأطيعوا الصلاة وبشر المؤمنين)

(القسم الثاني في السيئات وفي الاعمال المطلقة بقسميها)

(٦) قوله تعالى في منكري البعث والجزاء الراضين المطمئنين بالحياة الدنيا وحدها غافلين عن آيات الله فيها (٨) أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون) (٧) قوله فيمن يعبد الله على حرف فيدعونه في الضراء وينسونه في السراء (١٧) كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون)

(٨) قوله بعد بيان بغي الناس في السراء وغرورهم بمتاع الحياة الدنيا وكون وبال على أنفسهم في الآيات ٢١ - ١٣ وهي بمعنى ما قبلها (٢٣) ثم اليانصر جمعكم فننبشكم بما كنتم تعملون)

(٩) قوله (١٥) إن أتبع إلا ما يوحى إلي إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم)

(١٠) قوله (٢٧) والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها) الآية

(١١) قوله في الآية (٥٢) ثم قيل للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد هل تهززون الا بما كنتم تكسبون)

(١٢) قوله في الآية (٨١ ان الله لا يصلح عمل المفسدين)

(١٣) قوله تعالى في الاعمال المطلقة بقسميها (١٤) انم جعلناكم خلائف في

الارض من بعدم لتنظر كيف تعملون)

(١٤) قوله تعالى بمعنى ما قبله أيضا (٤١) وان كذبوك فقل لي عملي

ولكم عملكم انتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون)

(١٥) قوله تعالى بمعنى ما قبله أيضا (٦١) ولا تعملون من عمل الا كنا عليكم شهودا

اذ تفيضون فيه)

(١٦) قوله في الوصية العامة من الدعوة العامة من خاتمة السورة (١٠٨) فمن

اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل)

فنسأل الله عز وجل أن يصلح أعمالنا ، ويجعل خيرها خواتيمها ،

وهذا آخر ما نختم به خلاصة هذه السورة البليغة ، ونضرع اليه عز وجل أن

يوفقنا لأتمام تفسير كتابه الحكيم مطولا ومختصرا ، مفصلا ومجملا ، كما يحب

وبرضى من بيان الحق ، وهداية الخلق ، وله الحمد والشكر في كل فائحة وخاتمة

وصلى الله وسلم على نبي الرحمة وآله وصحبه ، والمهتدين به من خلقه

قد جعلنا آخر هذه السورة آخر الجزء الحادي عشر

وقد تم طبعه في شهر المحرم سنة ١٣٥٣ للهجرة الشريفة